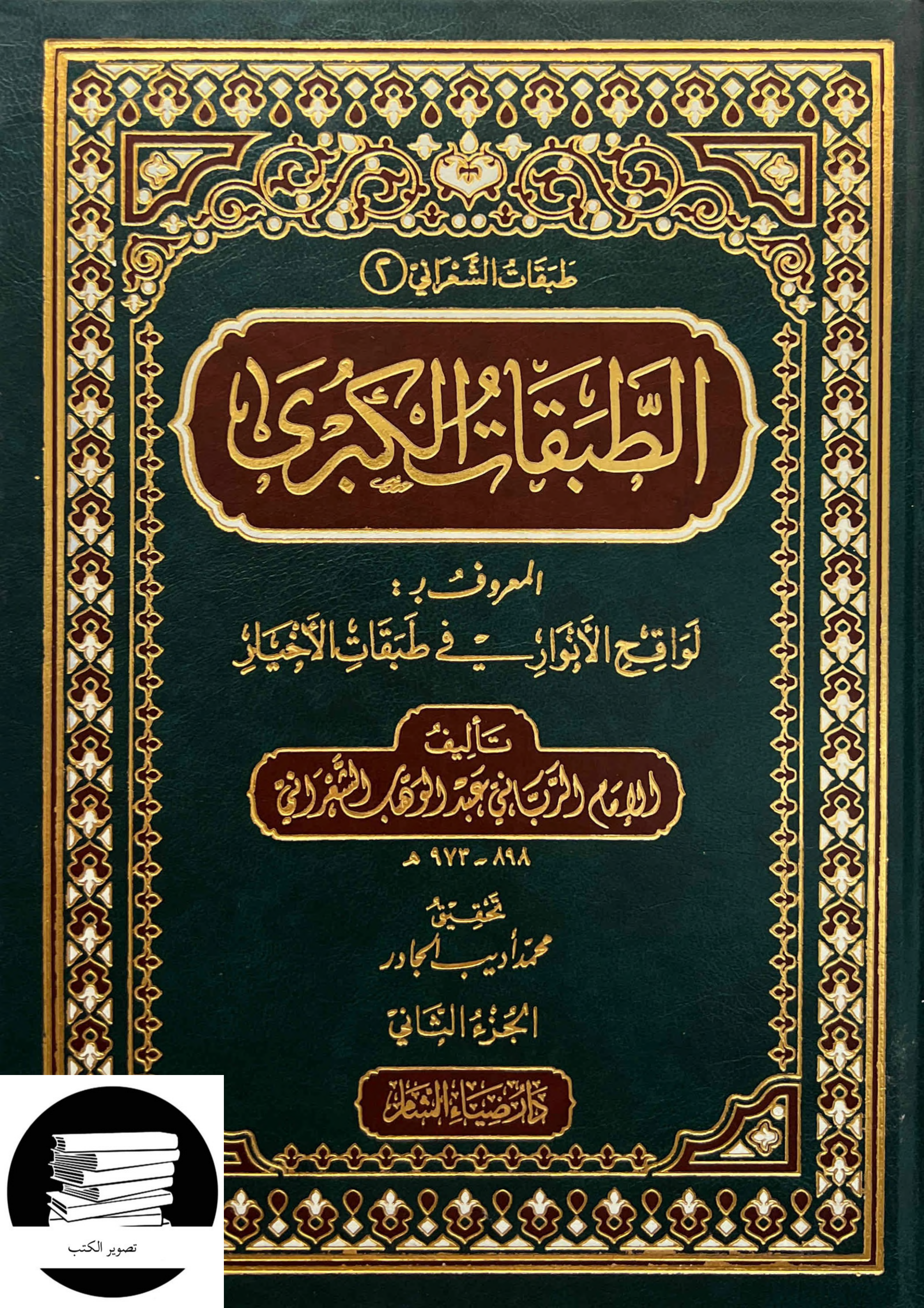
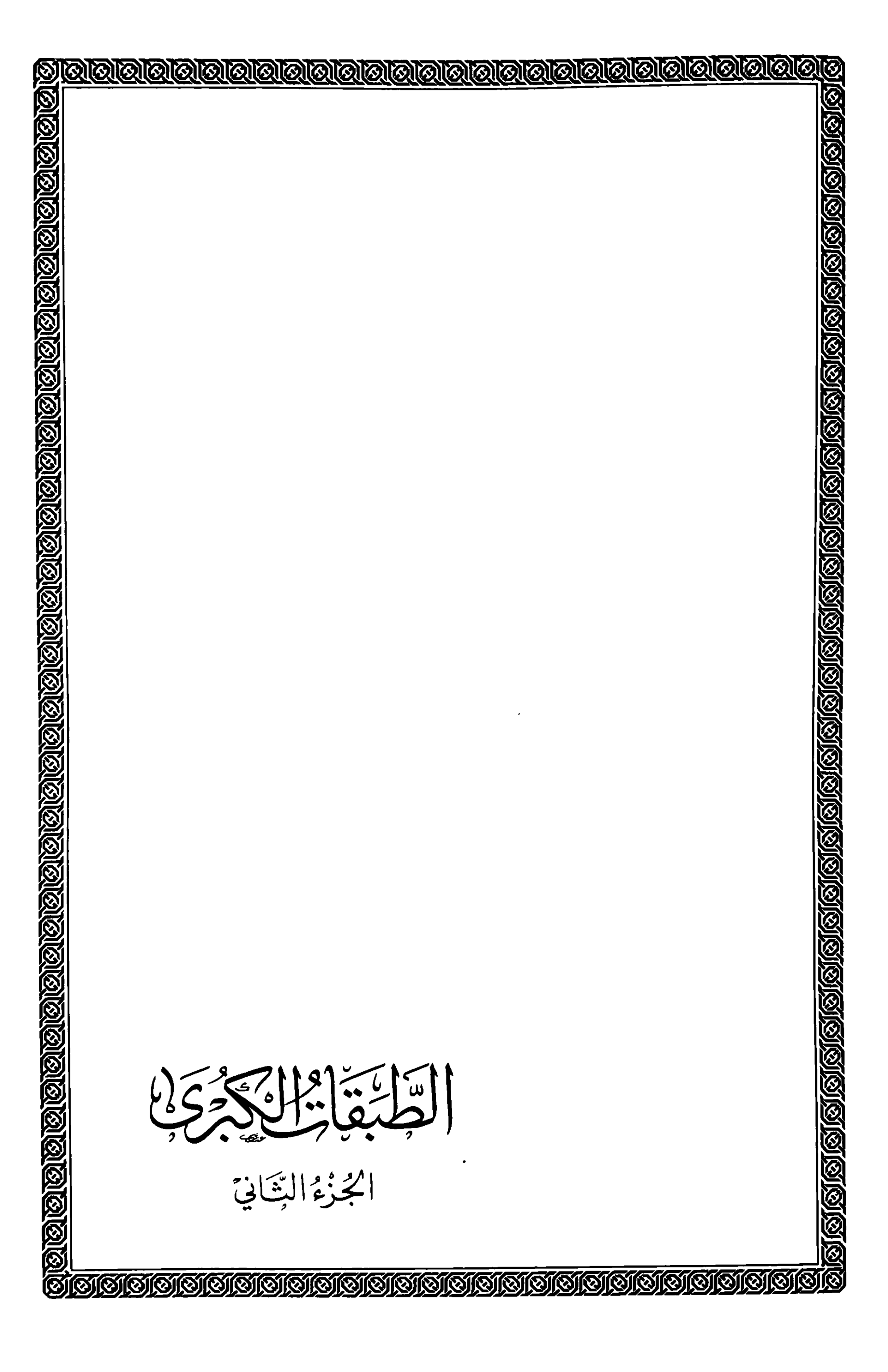

طبقات الشعراني ٢
الطبقات الكبرى
المعروف بـ:
لواقح الأنوار في طبقات الأخيار
تأليف
الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ
تحقيق
محمد أديب الجادر
الجزء الثاني
دار ضياء الشام
تصوير الكتب



الطبقات الكبرى

الجزء الثاني



الكتـــاب : الطبقات الكبرى - الجزء الثاني

(لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)

المـؤلـــف : الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني

تحقيـــق : محمد أديب الجادر

الناشـــر : دار ضياء الشام

التنفيذ الطباعـي: مطبعة ضياء الشام

عدد الصفحات : ٥٨٤

ســنة الطباعة : ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بلد الطباعة : سوريا

الطبعـــة : الأولى

ISBN: 978-9933-9326-1-9





ســورية - دمشــق - حلبـونـي

هـاتـــف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٢٤ ٦٨ ٤٢

جوال: ٠٠٩٦٣ ٩٣٣٨٧٨٠٧٥/٠٠٩٦٣ ٩٥٨٨١١٧٠٠

البريـد الإلكـتـروني : deaa.nsr@gmail.com

الطبقات الكبرى

المعروف بـ:

لواقح الأنوار في طبقات الأخيار

تأليف

الإمام الربّاني عبد الوهّاب الشّعراني

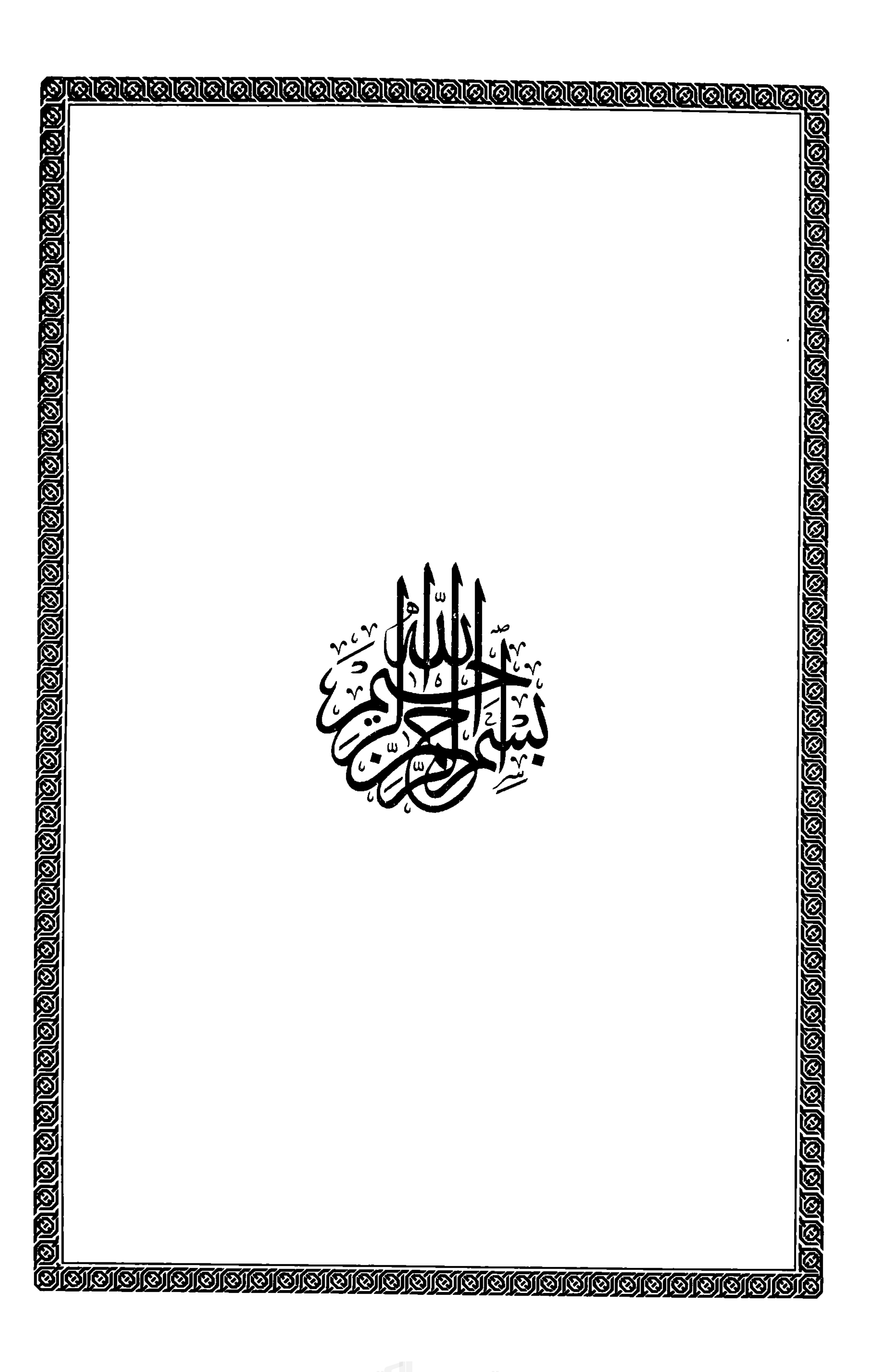
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ

تحقيق

محمّد أديب الجادر

الجزء الثّاني

دار ضياء الشام


بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا في الإمام الشعراني رحمه الله تعالى :

• قال الإمام الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير :

شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني . (٢/٢٩٠)

وقال في موضع آخر :

وحضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله ببركته . (٢/٥٣٦)

• وقال الإمام الغزي في الكواكب السائرة :

الشيخ الإمام العارف الشعراني ... له طبقات الأولياء ثلاث ، والعهود ، والسنن وغير ذلك ، وكتبه كلها نافعة . (٢/١٥٧)

• وقال الإمام الشرقاوي في التحفة البهية في طبقات الشافعية :

الإمام العالم العامل المعتقد العارف بالله والدال عليه . (٧٠١)

ومنهم :

(٢٩١) السيد الحسيب النسيب أبو العباس سيدي أحمد البدوي الشريف رضي الله عنه[١]

وشهرتُه في جميع أقطار الأرض تُغني عن تعريفه ، ولـٰكنْ نذكرُ جملةً من أحواله تبرُّكاً به رضي الله عنه ، فنقول وبالله التوفيق :

مولده رضي الله عنه : بمدينة فاس بالمغرب ؛ لأنَّ أجدادَه انتقلوا أيام الحجَّاج إليها حين أكثرَ القتلَ في الشُّرفاء ، فلما بلغَ سبع سنين سمعَ أبوه قائلاً يقول له في منامه : يا علي ؛ انتقلْ من هـٰذه البلاد إلىٰ مكة المشرفة ؛ فإنَّ لنا في ذلك شأناً ، وكان ذلك سنة ثلاثٍ وست مئة .

قال الشريف حسن أخو سيِّدي أحمد رضي الله عنه : (فما زلنا ننزلُ علىٰ عربٍ ، ونرحلُ عن عربٍ فيتلقَّوننا بالترحيب والإكرام . . حتىٰ وصلنا إلىٰ مكة المشرَّفة في أربعِ سنين ، فتلقَّانا شرفاءُ مكة كلُّهم ، وأكرمونا ، ومكثنا عندهم في أرغدِ عيشٍ حتىٰ تُوفِّي والدنا سنة سبعٍ وعشرين وست مئة ، ودفن بباب المعلاة ، وقبرُهُ هناك ظاهر يُزار في زاويةٍ) .

قال الشريف حسن : (فأقمتُ أنا وإخوتي ، وكان أحمدُ أصغرَنا سنّاً ، وأشجعنا قلباً ، وكان من كثرةِ ما يتلثَّمُ لقَّبناه بالبدوي ، فأقرأتُهُ القرآنَ في المكتب مع ولدي الحسين ، ولم يكنْ في فرسان مكة أَشجعَ منه ، وكانوا يُسمُّونه في مكة العطَّاب ، فلما حدثَ عليه حادثُ الوله تغيَّرتْ أحواله ، واعتزلَ عن الناس ، ولازمَ الصمت ، فكان لا يكلِّمُ الناسَ إلا بالإشارة) .

قال بعضُ العارفين : إنه رضي الله عنه حصلتْ له جمعيةٌ على الحقِّ تبارك وتعالىٰ ، فاستغرقته إلى الأبد ، ولم يزل حالُه يتزايدُ إلىٰ عصرنا هـٰذا .

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٤٢٢) ، و« طبقات المناوي » (٢/٣٨٦) ، و« شذرات الذهب » (٧/٦٠٢) ، وأفردتْ ترجمته كثيرٌ من المؤلفات ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/٣٤٩) (٢٥٣) .

ثم إنه في شوال سنة ثلاثٍ وثلاثين وست مئة رأىٰ في منامه ثلاثَ مرات قائلاً يقول له : قم واطلبْ مطلعَ الشمس ، فإذا وصلتَ إلىٰ مطلع الشمس فاطلبْ مغربَ الشمس ، وسرْ إلىٰ طنطتا[1] ؛ فإنَّ بها مقامك أيُّها الفتىٰ .

فقام من منامه ، وشاورَ أهلَه ، وسافر إلى العراقِ ، فتلقَّاه أشياخُها ؛ منهم سيدي عبدُ القادر ، وسيدي أحمد بنُ الرفاعي ، فقالا له : يا سيدي أحمد ؛ مفاتيحُ العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب بأيدينا ، فاخترْ أيَّ مفتاح شئتَ منها ، فقال لهما سيدي أحمد رضي الله عنه : لا حاجةَ لي بمفاتيحكما ، ما آخذُ المفتاحَ إلا من الفتَّاح .

قال سيدي حسن : فلما فرغَ سيدي أحمد من زيارة أضرحةِ أولياء العراق ؛ كالشيخ عدي بنِ مسافر ، والحلاَّج ، وأضرابهما . . خرجنا قاصدين إلىٰ ناحية طندتا ، فأحدق بنا الرجال من سائر الأقطار يُعاندوننا ، ويعارضوننا ويثاقلوننا ، فأومأ سيدي أحمدُ رضي الله عنه بيده إليهم ، فوقعوا أجمعين ، فقالوا له : يا سيدي أحمد أنت أبو الفتيان ، فانكبُّوا مهرولين راجعين .

ومضينا إلىٰ أمِّ عَبيدة ، فرجع سيدي حسن إلىٰ مكة ، وذهب سيدي أحمد رضي الله عنه إلىٰ فاطمة بنت بري ، وكانتِ امرأةً لها حالٌ عظيم ، وجمالٌ بديع ، وكانت تسلبُ الرجالَ أحوالَهم ، فسلبها سيدي أحمد رضي الله عنه حالَها ، وتابتْ علىٰ يديه : أنَّها لا تتعرَّضُ لأحدٍ بعد ذلك اليوم ، وتفرَّقتِ القبائلُ الذين كانوا اجتمعوا عوناً لبنتِ بري إلىٰ أماكنهم ، وكان يوماً مَشهوداً بين الأولياء .

ثم إن سيدي أحمد رضي الله عنه رأى الهاتف في منامه يقول له : يا أحمد ؛ سرْ إلىٰ طندتا ؛ فإنك تُقيم بها ، وتُربِّي بها رجالاً وأبطالاً ؛ منهم : عبد العال ، وعبد الوهاب ، وعبد المجيد ، وعبد المحسن ، وعبد الرحمـٰن ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة أربعٍ وثلاثين وست مئة .

فدخل رضي الله عنه مصر ، ثم قصد طندتا ، فدخلَ على الحال مسرعاً دارَ شخصٍ

---

(١) طندتا : هي طنطا : قاعدة مديرية الغربية ، من أكبر المدن المصرية وأشهرها في وسط الدلتا . « قاموس رمزي » (٢/٢/١٠٢) .

من مشايخ البلد اسمُه ابن شحيط[١] ، فصعد إلىٰ سطحِ غرفته ، وكان طولَ نهاره وليله واقفاً شاخصاً ببصره إلى السماء ، وقد انقلبَ سوادُ عينيه بحمرة تتوقَّدُ كالجمر .

وكان يمكثُ الأربعين يوماً وأكثر لا يأكلُ ، ولا يشرب ، ولا ينام .

ثم نزل من السطح[٢] ، وخرجَ إلىٰ ناحية فيشا المنارة[٣] ، فتبعه الأطفالُ ، فكان منهم عبد العال ، وعبد المجيد ، فورمتْ عينُ سيدي أحمد رضي الله عنه ، فطلب من سيدي عبد العال بيضةً يعملها علىٰ عينه ، فقال : وتُعطيني الجريدةَ الخضراء التي معك ؟ فقال له سيدي أحمد رضي الله عنه : نعم ، فأعطاها له ، فذهب إلىٰ أمِّه ، فقال : هنا بدويٌّ عينُه توجعه ، فطلبَ مني بيضةً ، وأعطاني هـٰذه الجريدةَ ، فقالت : ما عندي شيء ، فرجعَ ، فأخبر سيدي أحمد رضي الله عنه ، فقال : اذهب فأتني بواحدةٍ من الصومعة ، فرجع سيدي عبدُ العال ، فوجد الصومعةَ قد مُلئت بيضاً ، فأخذ له واحدةً منها ، وخرجَ بها إليه .

ثم إن سيدي عبد العال تبعَ سيدي أحمد رضي الله عنه من ذلك اليوم ، ولم تقدرْ أمُّه علىٰ تخليصه منه ، فكانت تقول : يا بدويَّ الشُّؤم علينا ، فكان سيدي أحمدُ رضي الله عنه إذا بلغَه ذلك يقول : لو قالت : يا بدوي الخيرِ كان أصدقَ .

ثم أرسلَ لها يقول : إنه ولدي من يوم قرنِ الثور ، وكانت أمُّ عبد العال قد وضعتْه في معلفِ الثور وهو رضيعٌ ، فطأطأ الثورُ ليأكلَ ، فدخل قرنُهُ في القماط ، فشال عبدَ العال علىٰ قرنه ، فهاج الثورُ ، فلم يقدرْ أحدٌ علىٰ تخليصه منه ، فمدَّ سيدي أحمد رضي الله عنه يدَه ، وهو بالعراق ، فخلَّصه من القرن ، فتذكَّرتْ أمُّ عبدِ العال الواقعةَ ، واعتقدتْهُ من ذلك اليوم .

فلم يزل سيدي أحمدُ على السُّطوح مدةَ اثنتي عشرة سنة .

وكان سيدي عبدُ العال رضي الله عنه يأتي إليه بالرجل أو الطفل فيطأطئ من

---

(١) كذا ، وسيورد اسمَه (ابن شحيطة) (٣/ ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٤٩١) .

(٢) قيل : إنه مكث (١٢) عاماً على السطح ، وقد اعتاد تلامذته هـٰذا ، فسمُّوا بالسطوحية ، أو أصحاب السطح . انظر « دائرة المعارف الإسلامية » (١/ ٤٦٦) .

(٣) **فيشا المنارة** : من القرى القديمة من أعمال المنوفية ، اسمها القديم فيشا سليم ، تميَّزت بمنارة مسجدها المرتفعة ، فسميت بها . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٠٣) .

السطوح ، فينظر إليه نظرةً واحدة ، فيملؤه مدداً ، ويقول لعبد العال : اذهب به إلىٰ بلد كذا ، أو موضعِ كذا ، فكانوا يُسمَّون أصحاب السطح .

وكان رضي الله عنه لم يزل متلثِّماً بلثامين ، فاشتهىٰ سيدي عبدُ المجيد رضي الله عنه يوماً رؤيةَ وجه سيدي أحمد رضي الله عنه ، فقال : يا سيدي ؛ أُريد أن أرىٰ وجهَكَ أعرفُهُ ، فقال : يا عبد المجيد ؛ كلُّ نظرةٍ برجل ، فقال : يا سيدي ؛ أرني ولو متُّ ، فكشف له اللثام الفوقاني ، فصعقَ ، ومات في الحال .

وكان في طندتا سيدي حسن الصائغ الإخنائي ، وسيدي سالم المغربي ، فلما قربَ سيدي أحمدُ رضي الله عنه من مصرَ أوَّلَ مجيئه من العراق . . قال سيدي حسن رضي الله عنه : ما بقي لنا إقامةٌ ، صاحبُ البلاد قد جاءها ، فخرج إلىٰ ناحية إخنا ومات بها[١] ، وضريحُهُ بها مشهورٌ إلى الآن ، ومكث سيدي سالم رضي الله عنه ، فسلَّمَ لسيدي أحمد رضي الله عنه ، ولم يتعرَّضْ له ، فأقرَّهُ سيدي أحمد رضي الله عنه ، وقبرُهُ في طندتا مشهور .

وأنكر عليه بعضُهم ، فسُلب ، وانطفأ اسمُه وذِكْرُه ، ومنهم صاحبُ الإيوان العظيم بطندتا المُسمَّىٰ بوجه القمر ، كان وليّاً عظيماً ، فثار عنده الحسدُ ، ولم يُسلِّم الأمرَ لقدرة الله تعالىٰ عليه ، فسُلب ، وموضعه الآن بطندتا مأوىً للكلاب ، ليس فيه رائحةُ صلاحٍ ، ولا مدد ، وكان الخطباءُ بطندتا انتصروا له ، وعملوا له وقتاً ، وأنفقوا عليه أموالاً ، وبنوا لزاويتِهِ مئذنةً عظيمة ، فرفسها سيدي عبدُ العال رضي الله عنه برجله ، فغارت إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وكان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات يعتقدُ سيدي أحمد رضي الله عنه اعتقاداً عظيماً ، وكان ينزلُ لزيارته ، ولما قدمَ من العراق خرجَ هو وعسكرُهُ من مصر فتلقَّوه ، وأكرموه غاية الإكرام .

وكان رضي الله عنه غليظ الساقين ، طويل الذراعين ، كبيرَ الوجه ، أكحلَ العينين ، طويلَ القامة ، قمحيَّ اللون[٢] ، وكان في وجهه ثلاثُ نقط من أثر جدريٍّ ؛

---

(١) **إخنا** : مركز مدينة طنطا .

(٢) **قمحي اللون** : ما كان لونه أسمر ، يشبه لون القمح .

في خدِّه اليمين واحدةٌ ، وفي الأيسر ثنتان ، أقنى الأنف ، علىٰ أنفه شامتان من كلِّ ناحيةٍ شامةٌ سوداء أصغرُ من العدسة ، وكان بين عينيه جرح موسىً ، جرحَهُ ولدُ أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة .

ولم يزل من حين كان صغيراً باللِّثامَيْنِ ، والغرزتين .

ولما حفظَ القرآن العظيم اشتغلَ بالعلم مدةً علىٰ مذهبِ الإمام الشافعي رضي الله عنه حتىٰ حصل له حادثُ الوله ، فترك ذلك الحالَ .

وكان إذا لبس ثوباً أو عمامةً لا يخلعها لغُسلٍ ، ولا لغيره حتىٰ تذوبَ ، فيُبدِّلونها له بغيرها ، والعمامةُ التي يلبسُها الخليفةُ في كلِّ سنةٍ في المولد هي عِمامةُ الشيخ بيده ، وأما البشتُ الصُّوف الأحمر فهو من لباسِ سيدي عبدِ العال رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (وعزَّةِ ربي ؛ سواقيَّ تدورُ على البحر المحيط ، لو نفدَ ماءُ سواقي الدنيا كلها لما نفدَ ماءُ سواقيَّ) .

مات رضي الله عنه سنة خمسٍ وسبعين وست مئة .

[ذكر من استخلف من بعده]

واستخلف بعده على الفقراء **سيدي عبد العال**[١] ، وسارَ سيرةً حسنةً ، وعمَّرَ المقامَ والمنارات ، ورتَّبَ الطعام للفقراء وأرباب الشعائر ، وأمرَ بتصغيرِ الخبزِ على الحالِ الذي هو عليه اليوم ، وأمرَ الفقراءَ الذين صحَّتْ لهم الأحوالُ بالإقامةِ في الأماكن التي كان يُعيِّنُها لهم ، فلم يستطعْ أحدٌ أن يخالفه .

فأمر سيدي يوسف أبا سيدي إسماعيل الإنبابي أن يقيم [بإنبابة][٢]، وسيدي أحمد أبا طرطور أن يُقيم تجاه إنبابة في البرية ، وسيدي عبد الله الجيزي أن يُقيم في البرية تجاه

---

(١) انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الوسطىٰ » (٤٩٠) (٣١٤) .

(٢) في النسخ : (بأنبوبة) في الموضعين ، والمثبت من المصادر ، قال الزركلي في « الأعلام » (٢/٢٣) : (قال السيد أحمد رافع الطهطاوي في كتابه : « القول الإيجابي في ترجمة العلامة شمس الدين الأنبابي ») وأنبابة : بفتح الهمزة ، كما يقتضيه إطلاق صاحب « القاموس » ، ونص عليه الصاغاني ، خلافاً لما ذكره صاحب « الخطط الجديدة التوفيقية » من أنها بالكسر .

الجيزة ، وأمر سيدي وهيباً بالإقامة في برشوب الكبرىٰ[١] .

فأما سيدي يوسف رضي الله عنه : فأقبلتْ عليه الأمراء والأكابر من أهل مصر ، وصار سماطُهُ في الأطعمة لا يقدرُ عليه غالبُ الأمراء ، فقال الشيخ أحمد أبو طرطور لأصحابه يوماً : اذهبوا بنا إلىٰ أخينا يوسف ننظر حاله ، فمضوا إليه ، فقال لهم : كلوا من هـٰذه الماوردية ، واغسلوا الغشَّ الذي في بطونكم من العدس والبسلة[٢] الذي في سيدي أحمد ، فغضب الشيخُ أبو طرطور من ذلك الكلام ، وقال : ما هو إلا كذا يا يوسف ، فقال : هـٰذه مُباسطة ، فقال أبو طرطور : ما هو إلا محاربةٌ بالسهام ، فمضىٰ أبو طرطور إلىٰ سيدي عبدِ العال رضي الله عنه ، وأخبره بالخبر ، فقال : لا تتشوَّشْ يا أبا طرطور ، نزعنا ما كان معه ، وأطفأنا اسمَه ، وجعلنا الاسم لولدِهِ إسماعيل .

فمن ذلك اليوم انطفأ اسمُ سيدي يوسف إلىٰ يومنا هـٰذا ، وأجرى الله علىٰ يدي **سيدي إسماعيل** الكرامات ، وكلَّمتْهُ البهائم ، وكان يُخبر أنه يرى في اللوح المحفوظ ، ويقول : يقع كذا وكذا لفلان ، فيجيء الأمرُ كما قال ، فأنكر عليه شخصٌ من علماء المالكية ، وأفتىٰ بتعزيره ، فبلغ ذلك سيدي إسماعيل ، فقال : ومما رأيتُه في اللوح المحفوظ : أنَّ هـٰذا القاضي يغرقُ في بحر الفرات ، فأرسلَهُ ملكُ مصر إلىٰ ملك الإفرنج ليُجادلَ القسيسين عندهم ، ووعد بإسلامهم إن قطعَهم عالم المسلمين بالحجَّة ، فلم يجدوا في مصرَ أكثرَ كلاماً ولا جدالاً من هـٰذا القاضي ، فأرسلوه ، فغرقَ في بحر الفرات .

وأما ترتيبُ الأشائر المشهورةُ في بيت سيدي أحمد رضي الله عنه إلى الآن من أولاد الفران ، وأولاد الراعي ، وأولاد المعلوف ، وأولاد الكناس ، وغيرهم . . فرتَّبهم كذلك سيدي عبد العال رضي الله عنه ، ولم يكنْ أحدٌ من أولاد الأشائر يدخل راكباً

---

(١) برشوب : تقع في مركز طوخ في محافظة القليوبية ، ضبطها صاحب « التاج » بضم أوله ، قال : (والعامة تفتح أوله) . انظر « قاموس رمزي » (١/١/٤) .

(٢) البسِلَّة : بقل زراعي حولي من القرنيات ، تطبخ بزوره ، ويُسمَّىٰ بازلاء .

حوش الخليفة بلا إذنٍ إلا أولاد المعلوف ؛ لِمَا كانوا يعلمون من حبِّ سيدي أحمد رضي الله عنه لهم .

وكان سيدي عبد الوهاب الجوهري رضي الله عنه المدفون قريباً من محلَّةِ المرحوم[1] إذا جاءه شخصٌ يُريد الصحبةَ يقول له : دقَّ هٰذا الوتدَ في هٰذه الحائط ، فإن ثبتَ الوتدُ في الحائط أَخذ عليه العهد ، وإن خارَ ولم يثبت يقول له : اذهبْ ، ليس لك عندنا نصيب .

قلت : وقد دخلتُ الخلوةَ ، ورأيتُ الحائطَ غالبها شقوقٌ ، وما ثبتَ فيها إلا بعضُ أوتاد .

وكان الشيخ رضي الله عنه يعلمُ من هو من أولاده بالكشف ، وإنما كان يفعلُ ذلك إقامةَ حجَّةٍ على المريد ؛ ليقضيَ بذلك علىٰ نفسِهِ ، ولا تقومَ نفسُه من الشيخ .

وأما أمر سيدي الشيخ محمد المسمىٰ بقمر الدولة : فلم يصحبْ سيدي أحمد زماناً ، إنما جاءَ من سفرٍ في وقت حرٍّ شديد ، فطلع يستريح في طندتا ، فسمع بأنَّ سيدي أحمدَ رضي الله عنه ضعيفٌ ، فدخل عليه يَزوره ، وكان سيدي عبدُ العال وغيرُهُ غائبين ، فوجدَ سيدي أحمد قد شربَ ماءَ بِطيخةٍ ، وتقايأه ثانياً فيها ، فأخذه سيدي محمدٌ المذكور وشربه ، فقال له سيدي أحمد : أنتَ قمرُ دولة أصحابي ، فسمع بذلك سيدي عبدُ العال رضي الله عنه والجماعةُ ، فخرجوا لمعارضته وقتله بالحال ، فرمح فرسُهُ في البئر التي بالقرب من كوم التربة النفاضة ، فطلع من البئر التي بناحية نفيا[2] ، فانتظروه عند البئر التي نزل فيها زماناً ، فجاء الخبرُ : أنه طلعَ من تلك البئر التي بالقرب من نفيا ، فرجعوا عنه ، فأقام بنفيا إلىٰ أن مات ، لم يطلعْ طندتا من سيدي عبد العال .

وكان رضي الله عنه من أجنادِ السُّلطان محمد بنِ قلاوون ، وعِمامته وثيابه وقوسه وجعبته وسيفه معلقاتٌ في ضريحه بنفيا ، رضي الله عنه .

---

(١) **محلة المرحوم** : من القرى القديمة ، **اسمها الأصلي** : محلة المحروم بين طندتا ـ طنطا ـ وبين قليب العمال (قليب إبيار) « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٠٧) .

(٢) **نفيا** : قرية تابعة لطنطا ، كانت تسمىٰ نفيوس ؛ من كورة السمنودية .

[سبب حضور الشعراني مولد سيدي البدوي كلَّ سنة]

قلت : وسببُ حضوري مولده رضي الله عنه كلَّ سنةٍ : أنَّ شيخي العارف بالله تعالىٰ الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه أحدَ أعيان بيته رحمه الله . . كان قد أخذَ عليَّ العهدَ في القبَّةِ تجاه وجه سيدي أحمد رضي الله عنه ، وسلَّمني إليه بيده ، فخرجتِ اليدُ الشريفةُ من الضريح ، وقبضت علىٰ يدي وقال : يا سيدي ؛ يكونُ خاطرُك عليه ، واجعلْه تحت نظرك ، فسمعتُ سيدي أحمد رضي الله عنه من القبر يقول : نعم .

ثم إني رأيتُهُ بمصر[1] مرةً أخرىٰ هو وسيدي عبد العال وهو يقول : زُرْنا في طندتا ونحن نطبخُ لك ملوخيةً ضيافتك ، فسافرت ، فأضافني غالبُ أهلها وجماعة المقام ذلك اليوم كلُّهم بطبيخ الملوخية .

ثم رأيته بعد ذلك وقد أَوقفني علىٰ جسرِ قحافة تجاه طندتا ، فوجدتُهُ سوراً محيطاً ، وقال : قفْ هنا ، أَدخلْ عليَّ من شئتَ ، وامنعْ من شئتَ .

ولمَّا دخلتُ بزوجتي فاطمةَ أمِّ عبد الرحمٰن وهي بكرٌ . . مكثتُ خمسةَ شهور لم أقربْ منها ، فجاءني وأخذني وهي معي ، وفرشَ لي فرشاً فوق ركنِ القبة التي علىٰ يسار الداخل ، وطبخَ لي حلوىٰ ، ودعا الأحياءَ والأموات إليه ، وقال : أزلْ بكارتها هنا ، فكان الأمرُ تلك الليلة .

وتخلَّفتُ عن ميعاد حضوري للمولد سنة ثمان وأربعين وتسع مئة ، وكان هناك بعضُ الأولياء ، فأخبرني أنَّ سيدي أحمد رضي الله عنه كان ذلك اليوم يكشف السترَ عن الضريح ويقول : أبطأَ عبدُ الوهاب ما جاء .

وأردتُ التخلُّفَ سنةً من السنين ، فرأيتُ سيدي أحمد رضي الله عنه ومعه جريدةٌ خضراء ، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار ، والناسُ خلفه ويمينه وشماله أممٌ وخلائقُ لا يحصون ، فمرَّ عليَّ وأنا بمصر ، فقال : أما تذهبُ ؟! فقلت : بي وجعٌ ، فقال : الوجعُ لا يمنع المحبَّ .

(١) في (أ ، ح) : (نظرته بمصر) .

ثم أراني خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم ـ الأحياء والأموات ـ من الشيوخ والزَّمنىٰ بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يَحضرون المولد ، ثم أراني جماعةً من الأسرىٰ جاؤوا من بلاد الإفرنج مقيَّدين مَغلولين يزحفون علىٰ مقاعدهم ، فقال : انظر إلىٰ هـٰؤلاء في هـٰذا الحال ولا يتخلَّفون ، فقوي عزمي على الحضور ، فقلت له : إن شاء الله تعالىٰ نحضر ، فقال : لا بدَّ من الترسيم عليك[1] ، فرسمَ عليَّ سبعين عظيمين أسودين كالأفيال ، وقال : لا تُفارقاه حتىٰ تحضرا به ، فأَخبرتُ بذلك سيدي الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه ، فقال : سائرُ الأولياء يدعون الناس بقصادهم ، وسيدي أحمد رضي الله عنه يدعو الناس بنفسه إلى الحضور .

ثم قال : إنَّ سيدي الشيخ محمد السروي رضي الله عنه شيخي تخلَّفَ سنةً عن الحضور ، فعاتبه سيدي أحمد رضي الله عنه ، وقال : موضعٌ يحضرُ فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء رضي الله عنهم . . ما تحضره ؟! فخرجَ الشيخ محمدٌ رضي الله عنه إلى المولد ، فوجد الناس راجعين ، وفاتَ الاجتماعُ ، فكان يلمسُ ثيابَهم ، ويمرُّ بها علىٰ وجهه . انتهىٰ .

وقد اجتمعت مرةً أنا وأخي أبو العباس الحريثي رحمه الله تعالىٰ بوليٍّ من أولياء الهند بمصر المحروسة ، فقال رضي الله عنه : ضيِّفوني ؛ فإني غريب ، وكان معه عشرةُ أنفسٍ ، فصنعت له فطيراً وعسلاً ، فأكل ، فقلنا له : من أي البلاد ؟ فقال : من الهند ، فقلنا : ما حاجتُك في مصر ؟ فقال : حضرنا مولدَ سيدي أحمد رضي الله عنه ، فقلنا له : متىٰ خرجتَ من الهند ؟ فقال : خرجنا يوم الثلاثاء ، فنمنا ليلةَ الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وليلة الخميس عند الشيخ عبدِ القادر رضي الله عنه ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدي أحمد رضي الله عنه بطندتا ، فتعجَّبنا من ذلك ، فقال : الدنيا كلُّها خطوةٌ عند أولياء الله عز وجل .

واجتمعنا به يومَ السبت انفضاضَ المولد طلعةَ الشمس ، فقلنا له : من عرَّفكم

---

(١) الترسيم : في الأصل : حجر الحرية ، والمعنىٰ : أنهما جُعلا مقيمين عنده حتىٰ يحضر المولد .

بسيدي أحمد رضي الله عنه في بلاد الهند ؟ فقال : يا للهِ العجب ! أطفالُنا الصغار لا يَحلفون إلا ببركة سيدي أحمد رضي الله عنه ، وهو من أعظمِ أيمانهم ، وهل أحدٌ يجهل سيدي أحمد رضي الله عنه ؟! إنَّ أولياءَ ما وراء البحر المحيط وسائرِ البلاد والجبال يحضرون مولده ، رضي الله عنه .

وأخبرني شيخنا الشيخُ محمد الشناوي رضي الله عنه : أنَّ شخصاً أنكرَ حضورَ مولده ، فسُلب الإيمان ، فلم تكنْ فيه شعرةٌ تحنُّ إلىٰ دين الإسلام ، فاستغاث بسيدي أحمد رضي الله عنه ، فقال : بشرط ألا تعودَ ، فقال نعم ، فردَّ عليه ثوبَ إيمانه ، ثم قال له : وماذا تُنكرُ علينا ؟ قال : اختلاطَ الرجال والنساء ، فقال له سيدي أحمد رضي الله عنه : ذلك واقعٌ في الطواف ، ولم يَمنَعْ أحدٌ منه ، ثم قال : وعزَّةِ ربِّي ؛ ما عصىٰ أحدٌ في مولدي إلا وتاب وحسنتْ توبتُهُ ، وإذا كنتُ أرعى الوحوشَ والسَّمكَ في البحار ، وأحميهم من بعضهم بعضاً . . أفيعجزني اللهُ عز وجل عن حمايةِ من يحضر مولدي ؟!

وحكىٰ لي **شيخُنا أيضاً** : أنَّ سيدي الشيخ أبا الغيث بن كتيلة أحدُ العلماء بالمحلة الكبرىٰ ، وأحدُ الصالحين بها ، كان بمصر ، فجاء إلىٰ بولاق ، فوجدَ الناس مُهتمِّين بأمر المولد والنزولِ في المراكب ، فأنكرَ ذلك ، وقال : هيهات أن يكونَ اهتمامُ هـٰؤلاء بزيارة نبيِّهم صلى الله عليه وسلم مثلَ اهتمامهم بأحمد البدوي ، فقال له شخصٌ : سيدي أحمد وليٌّ عظيم ، فقال : ثَمَّ في هـٰذا المجلس من هو أَعلىٰ منه مَقاماً ، فعزمَ عليه شخصٌ ، فأطعمه سمكاً ، فدخلتْ حلقَهُ شوكةٌ ، وتصلَّبت ، فلم يقدروا علىٰ نزولها بدهن عطاس ، ولا بحيلةٍ من الحيل ، وورمت رقبتُهُ حتىٰ صارت كخلية النحل تسعةَ شهور ، وهو لا يلتذُّ بطعام ، ولا شراب ، ولا منام ، وأنساه اللهُ تعالىٰ سببَ ذلك ، فبعد التسعة شهور ذكَّره اللهُ بالسبب ، فقال : احملوني إلىٰ قبَّة سيدي أحمد رضي الله عنه ، فأدخلوه ، فشرع يقرأُ سورة (يسٓ) فعطسَ عطسةً شديدةً ، فخرجت الشوكةُ مغمَّسةً دماً ، فقال : تبتُ إلى الله تعالىٰ يا سيدي أحمد ، وذهب الوجع والورمُ من ساعته .

وأنكر ابنُ الشيخ خليفة بناحية أَبيار بالغربية حضورَ أهل بلده إلى المولد ، فوعظه

شيخُنا الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه ، فلم يرجعْ ، فاشتكاه لسيدي أحمد ، فقال : ستطلعُ له حبَّةٌ تَرعىٰ فمه ولسانه ، فطلعتْ من يومه ذلك ، وأتلفتْ وجهَهُ ، ومات بها .

ووقع ابنُ اللبَّان في حقِّ سيدي أحمد رضي الله عنه ، فسُلب القرآن والعلم والإيمان[1] ، فلم يزلْ يَستغيثُ بالأولياء ، فلم يقدرْ أحدٌ أن يدخلَ في أمره ، فدلُّوه علىٰ سيدي ياقوت العَرْشي ، فمضىٰ إلىٰ سيِّدي أحمد رضي الله عنه ، وكلَّمه في القبر ، وأجابه ، وقال له : أنت أبو الفتيان ، رُدَّ علىٰ هـٰذا المسكين رأسَ ماله ، فقال : بشرطِ التوبة ، فتاب ، وردَّ عليه رأس ماله ، وهـٰذا كان سببَ اعتقاد ابن اللبان في سيدي ياقوت رضي الله عنه ، وقد زوَّجه سيدي ياقوتُ ابنتَه ، ودُفن تحتَ رجليها بالقرافة ، رحمه الله تعالىٰ .

وواقعةُ ابنِ دقيق العيد وامتحانه لسيدي أحمد رضي الله عنه مشهورة ؛ وهو أنَّ الشيخَ تقي الدين أرسلَ إلىٰ سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه ، وقال له : امتحن لي هـٰذا الرجلَ الذي اشتغلَ الناسُ بأمره عن هـٰذه المسائل ، فإن أجابَك عنها فهو وليُّ الله تعالىٰ ، فمضىٰ إليه سيدي عبد العزيز ، وسأله عنها ، فأجابَ عنها بأحسنِ جواب ، وقال : هـٰذا الجوابُ مَسطَّرٌ في كتاب « الشجرة » فوجدوها في الكتاب كما قال .

وكان سيدي عبد العزيز إذا سُئل عن سيدي أحمد رضي الله عنه يقول : (هو بحرٌ لا يُدرك له قرار) .

وأخباره ، ومجيئُه بالأسرىٰ من بلادِ الإفرنج ، وإغاثةُ الناس من قطَّاع الطريق ، وحيلولتُهُ بينهم وبين من استنجد به . . لا تحويها الدفاترُ ، رضي الله عنه .

قلت : وقد شاهدتُ أنا بعيني سنةَ خمسٍ وأربعين وتسع مئة أسيراً علىٰ منارة سيدي عبد العال رضي الله عنه مقيَّداً مَغلولاً ، وهو مخبَّطُ العقل ، فسألته عن ذلك ، فقال : بينا أنا في بلادِ الإفرنج آخرَ الليل توجَّهتُ إلىٰ سيدي أحمد ؛ فإذا أنا به ، فأخذني ، وطار بي في الهواء ، فوضعني هنا ، فمكث يومين ، ورأسُه دائرة عليه من شدَّة الخطفة ، رضي الله عنه ورحمه ، وأغاثنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

---

(١) يعني : كماله ؛ إذ توسله وطلبه والشفاعة دليل على وجود أصل الإيمان كما لا يخفى .

ومنهم :

(٢٩٢) سيدي الشيخ العارف بالله محيي الدين بن العربي رضي الله عنه[١]

بالتعريف[٢] كما رأيته بخطِّه في كتاب « نسب الخرقة » ، رضي الله عنه[٣] .

أجمع المحققون من أهلِ الله عز وجل علىٰ جلالته في سائر العلوم ، كما يشهدُ لذلك كتبه ، وما أنكرَ من أنكرَ عليه إلا لدقَّةِ فهم كلامه لا غير ، فأنكروا علىٰ من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة ؛ خوفاً من حصولِ شبهةٍ في معتقده يموت عليها لا يهتدىٰ لتأويلها علىٰ مراد الشيخ .

وقد تَرجمَهُ الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور وغيره بالولاية الكبرىٰ ، والصلاح ، والعلم ، والعرفان ، فقال[٤] : (هو الشيخُ الإمام المحقِّقُ رأس أجلاَّء العارفين والمقرَّبين ، صاحبُ الإشارات الملكوتية ، والنفحاتِ القدسية ، والأنفاسِ الروحانية ، والفتحِ المونق ، والكشفِ المشرق ، والبصائر الخارقة ، والسرائرِ الصادقة ، والمعارفِ الباهرة ، والحقائق الزاهرة ، له المحلُّ الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس ، والموردُ العذبُ في مناهل الوصل ، والطَّولُ الأعلىٰ من معارج الدنو ، والقَدَمُ الراسخ في التمكين من أحوال النهاية ، والباعُ الطويل في التصرُّف في أحكام الولاية ، وهو أحدُ أركان هـٰذه الطريق رضي الله عنه) .

---

(١) انظر « مرآة الزمان » (٨/ ٧٣٦) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٣/ ٤٨) ، و« الوافي بالوفيات » (٤/ ١٧٣) ، و« فوات الوفيات » (٣/ ٤٣٥) ، و« لسان الميزان » (٥/ ٣١١) ، و« نفح الطيب » (٢/ ١٦١) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٥١٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٢٣) (٢٨٩) .

(٢) يعرف بالمغرب بـ(ابن العربي) بالألف واللام ، واصطلح أهل المشرق علىٰ ذكره بغير ألف ولام ؛ فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي . انظر « نفح الطيب » (٢/ ١٧٥) .

(٣) **نسب الخرقة** ، أو نسبة الخرقة ، أو رسالة في صلة الخرقة : رسالة في آداب الخرقة ، وسندها ، وشروطها ، وفيها سند المؤلف في لبسها . انظر « الشيخ الأكبر » (ص ٥٥٢) .

(٤) لم أجد هـٰذا الكلام في المطبوع من رسالة صفي الدين بن أبي منصور ، وللشيخ محيي الدين ترجمة فيه (ص ٨٣) .

وكذلك ترجمه الشيخ العارف بالله سيدي [عبد الله] بن أسعد اليافعي رضي الله عنه[١] ، وذكره بالعرفانِ ، والولاية .

ولقَّبَهُ الشيخُ أبو مدين رضي الله عنه بسلطان العارفين .

وكلامُ الرجل أدلُّ دليلٍ علىٰ مقامه الباطن .

وكتبُهُ مشهورةٌ بين الناس ، لا سيما بأرض الروم ؛ فإنه ذكرَ في بعض كتبه صفةَ السُّلطان جدِّ السلطان سليمان بن عثمان الأول ، وفتحَهُ القسطنطينية في الوقت الفلاني ، فجاء الأمرُ كما قال ، وبينه وبين السلطان نحو مئتي سنة ، وقد بنىٰ عليه قبةً عظيمة[٢] ، وتكيةً شريفة بالشام ، فيها طعامٌ وخيرات ، واحتاج إلى الحضور عنده لأجل ذلك من كان يُنكر عليه من القاصرين بعد أن كانوا يبولون علىٰ قبره ، رضي الله عنه .

وقد أخبرني أخي الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبي : أنه كان له بيتٌ يُشرف علىٰ ضريح الشيخ محيي الدين ، فجاء شخصٌ من المنكرين بعد صلاة العشاء بنارٍ يُريد أن يحرقَ تابوت الشيخ ، فخُسفَ به دون القبر تسعة أذرعٍ ، فغاب في الأرض وأنا أنظرُ ، ففقدَهُ أهلُه من تلك الليلة ، فأخبرتهم بالقصة ، فجاؤوا ، وحفروا ، فوجدوا رأسَه ، فكلما حفروا نزلَ وغارَ في الأرض إلىٰ أن عَجزوا ، وردموا عليه التراب .

وكان رضي الله عنه أولاً يكتبُ الإنشاء لبعضِ ملوك المغرب ، ثم تزهَّد ، وتعبَّد ، وساحَ ، ودخل مصر ، والشام ، والحجاز ، والروم ، وله في كلِّ بلدٍ دخلها مؤلفاتٌ .

وكان الشيخ عزُّ الدين بنُ عبد السلام شيخُ الإسلام بمصر المحروسة يحطُّ عليه

---

(١) في النسخ : (محمد) بدل (عبد الله) والمثبت من مصادر ترجمته .

(٢) الذي بنىٰ عليه القبة السلطان سليم رحمه الله ، قال النبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٩٩) : (وقد صح عنه ـ أي : ابن عربي ـ : أنه ذكر في بعض كتبه : إذا دخل السين في الشين ظهر قبر محيي الدين ، وكان دخول السلطان سليم « س » إلى الشام « ش » سنة (٩٢٣هـ) .

كثيراً ، فلما صحبَ الشيخ أبا الحسن الشَّاذلي رضي الله عنه ، وعرفَ أحوالَ القوم . . صار يُترجمُهُ بالولاية ، والعرفان ، والقطبية .

مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وثلاثين وست مئة .

وقد سطرنا الكلامَ علىٰ علومه وأحواله في كتابنا « تنبيه الأغبياء علىٰ قطرة من بحر علوم الأولياء » ، فراجعْه ، والله تعالىٰ أعلم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٣) الشيخ داود بن ماخلا رضي الله عنه[١]

شيخُ سيدي محمد وفا الشاذلي رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه شرطيّاً في بيت الوالي بالإسكندرية ، وكان يجلسُ تجاه الوالي ، وبينهما إشارةٌ يَفهم منها وقوع المتهوم أو براءته ، فإنْ أشارَ إليه أنه بريءٌ عملَ بإشارته ، أو أنه فعلَ ما اتُّهم به عمل بذلك ، وكانت إشارتُهُ أنه إن قبضَ علىٰ لحيته ، وجذبها إلىٰ صدره . . علمَ أنه وقع ، وإن جذبَها إلىٰ فوق علم أنه بريء .

وله كلامٌ عالٍ في الطريق ، وكان أميّاً لا يكتب ولا يقرأ[٢] .

ومن كلامه رضي الله عنه في كتابه المسمىٰ بـ « عيون الحقائق » في قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوَىٰ »[٣] : (علىٰ قدرِ ارتقاءِ همَّتِكَ في نيَّتِكَ يكون ارتقاءُ درجتك عند عالم سريرتك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما كانت العللُ والأسباب لوجودِ البعد والحجاب ،

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥١٧) ، و« الدرر الكامنة » (٢/ ١٠٠) ، و« نيل الابتهاج » (ص ١١٦) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤١٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٢٤) (٢٩٠) .

(٢) له مؤلفاتٌ كثيرة ؛ منها : « اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية » ، وانظر ترجمته « كشف الظنون » (١/ ٤٨١ ، ٦٦١ ، ٨٩٠) ، و« إيضاح المكنون » (١/ ٥٥٧ ، ٥٦٩) ، و(٢/ ١٣٣) ، و« هدية العارفين » (١/ ٣٦٠) .

(٣) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومن استنارَ قلبُه علمَ أنَّ الخضوعَ لربِّ الأرباب [حتمٌ لازمٌ](١) للعبد من غير العلل والأسباب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (للوليِّ نوران : نورُ عطفٍ ورحمةٍ يجذبُ به أهلَ العناية ، ونورُ قبضٍ وعزَّةٍ وقهرٍ يدفع به أهلَ البُعدِ والغواية ؛ لأنه يتصفَّحُ بين دائرتي فضلٍ وعدل ، فإذا أُقيم بالفضلِ ظهرَ ، فجذبَ ، فنفع ، وإذا أُقيم بالعدل والعزِّ حجبَ ، فخفي ، فدفع ؛ ولذلك أقبلَ عليه بعضٌ ، وأدبر بعض) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلما ازدادَ علمُ العبد زادَ افتقارُهُ ومطلبه ، وعلتْ همَّتُهُ ؛ لأنه في حالِ جهله يطلبُ العلم ، وفي حالِ علمه يطلبُ جلاءَ العلوم ، والمعلوماتُ درجاتٌ لا غايةَ لمنتهاها ، ولا حدَّ لعلوِّ مَرماها ، فوا عجباً من لوعةٍ كلما ارتوت زاد تأجُّجُها [وضرامها !])(٢) .

وكان يقول : (أسرارٌ يتنزَّلُ العلم عليها ، وأسرارٌ تترقَّىٰ هي إليه ، وأعلاهما أولاهما ؛ لأن العلمَ إذا ورد عليها صارتْ هي عيناً فيه ، فتَخفىٰ رسومُها ، وتتَّضحُ علومها ، وتدقُّ شواهدُها ، وأما إذا ترقَّتِ الأسرارُ إلى العلوم فإنَّ طعمَ كأسِها يشوب طعمها ، وتتنزَّلُ خلعُ مواهبها قريباً من جنس لباسها ، فيحصل فيها ضربٌ من الإخفاء والإشكال) .

وكان يقول : (عالمُ الظاهر كلما اتَّسعَ علمُهُ ونما اتَّسع في الوجود وفشا ، وعالمُ الباطن كلما اتَّسع علمُه وعلا دقَّ عن الإدراك ، ومالَ إلى الخفاء ؛ لأنَّ العالمَ بالخفاء خفيٌّ عكس الظاهر ، وأيضاً : فإنَّ عالم الظاهر ينقضي علمُه بانقضاء هـٰذه الدار ؛ لأنه منوطٌ بالتكليف ، وإنما يبقىٰ له إذا صدقَ وأخلصَ لله الجزاء والثواب) .

وكان يقول : (من أعظمِ المواهب بعد الإيمان بالله تعالىٰ ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله الإيمانُ بنورِ الولاية في خلقه ، سواء ظهرت في ذاتِ العبد ، أو في غيره من العباد ؛ فإنه كما هو مطلوبٌ أن يؤمن بها في غيره كذلك مطلوبٌ أن يُؤمنَ بها في نفسه) .

---

(١) في النسخ : (حتماً لازماً) ، والمثبت هو الصواب .

(٢) في النسخ : (ضوارمها) بدل (ضرامها) ، والمثبت هو الصواب .

وكان رضي الله عنه يقول : (الناسُ صنفان : صنفٌ اشتغلَ بالدنيا ، وإقامةِ دولتها ، وشعائر دينها ، فهو في كفالةِ علماء المسلمين ، وصنفٌ سمتْ هممُهم بعد أن حصَّلوا ما حصَّلَ الأوَّلون إلىٰ فهمِ الأسرار ، وطلبوا من يسير بهم في منازل التحقيق ، فهم في كفالة العارفين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يكنْ أكبرُ همِّك من العبادة إلا القربَ من المعبود دون الأجر والثواب ؛ فإنه إذا منَّ عليك بالدخولِ إلىٰ حضرته فهنالك الأجورُ ، وأعلىٰ منها ، ثم يُنعم عليك حتَّىٰ تكونَ أنت مُنعماً علىٰ ذلك) .

وكان يقول : (الجزءُ لا يطيقُ حمل الكل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من صحَّتْ نسبتُهُ[1] من رجلٍ كبير أحاطَ نورُهُ بسرِّه سرّاً وجهراً ، وكان لا يدخل حضرةً من حضراتِ القربِ إلا وهو معه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا نطقَ المحجوبُ بغرائب العلوم ، وعجائب الفهوم فلا تستغربنَّ ذلك ؛ فإنَّ مداد قلم الغيوب فيَّاض) .

وكان يقول : (حاشا قلوب العارفين أن تُخبرَ عن غير يقين) .

وكان يقول : (لسانُ العارف قلمٌ يُكتبُ به في ألواح قلوب المريدين ، فربَّما كتبَ في لوح قلبك ما لم تعلمْ معناه ، وبيانُه عند ظهور آياته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (القلبُ ظلُّ نور الروح ، والروحُ ظلُّ نور السرِّ ، والسرُّ مظهرُ تجلِّي أشعة الحقيقة الأولىٰ في أوائل عوالم التكوين ، والنفسُ عبارةٌ عن توجُّهِ القلبِ إلىٰ سياسة العالم الشهادي ، والتفاته إلىٰ تدبير عالم شهادته) .

وكان يقول : (إقبالُ القلب مع « لا إلـٰه إلا الله » خيرٌ من ملء الأرض عملاً مع الإعراض عن الله عز وجل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العارفُ أثرُهُ في الآخذين عنه بإمدادِهِ وأنواره أكثرُ من آثارهم فيهم بأذكارِهم وأعمالهم) .

---

(١) في (هـ) وحدها : (ولايته) بدل (نسبته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قلبُ العارف كالنار لوَّاحةً للبشر لا تُبقي ولا تذر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الذنبُ الأعظمُ شهودُ ما سوى الله مع الله ؛ أي : شهوده ثابتاً بنفسه) .

وكان يقول : (إقبالُ القلب على الله حسنةٌ يُرجىٰ ألا يضرَّ معها ذنبٌ ، وإعراضُ القلب عن الله سيئةٌ لا يكادُ ينفعُ معها حسنة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (شهودُ الغافل سمٌّ قاتل) .

وكان يقول : (إذا أكرمَ اللهُ عز وجل عبداً طوىٰ عنه شهودَ خصوصيَّتِهِ ، وأقامَهُ في تحقيق عبوديته ؛ فإن العبد إذا كان غائباً عن مراعاةِ حقوق عبوديَّتِهِ خيف عليه من الشَّطحِ والانبساط ، وتعدِّىٰ عن حدود الأدب ، والعدول عن سواءِ الصراط) .

وكان يقول : (النبيُّ يُؤمَر ، والولي يُلهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قلوبُ المؤمنين تحت ظلِّ قلوب الأولياء ، وقلوبُ الأولياء تحت ظلِّ قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقلوبُ الأنبياء تحت ظلِّ أنوار العناية ، والأَمدادُ تتنزَّلُ فيما بين ذلك ، ويتلوها الشاهدُ منه) .

وكان يقول : (ليس الشأنُ الخفاءَ في الخفاء ، إنَّما الشأنُ الخفاءُ في الظهور) .

وكان يقول : (من أعظمِ أبوابِ الفتح يقظةُ العبدِ من غفلته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذروا هـٰذه النفوس ؛ فإنَّ لها في الطاعات غوائلُ وآفات) .

وكان يقول : (من نظرَ إلى الأكوان نظرَ قلبٍ عُوقب بالحجاب ، أو بالحساب ، أو بالعذاب) .

وكان يقول : (بنورِ النبوَّاتِ يتَّضحُ الإيمان ، وتقبلُ الأعمال ، وبنورِ الولاية تزكو العباداتُ ، وتُثمر الأحوال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا لم يكنِ ابنُ آدم عمَّالاً في مصالح الدنيا والآخرة فهو كالجمادِ في ذلك الوقت ، وإن اشتغلَ بالمعصية والشرِّ فهو كالشيطانِ ، وإنِ اشتغلَ بأمر الدنيا لا الآخرة فهو كالحيوان ، وإنِ اشتغل بفكرِه فيما هو لله تعالىٰ فهو

كالمَلَك ، فانظر رحمك الله تعالىٰ إلىٰ درجةٍ من تُريد أن تلحقَ به) .

وكان يقول : (من الأولياءِ من يتكلَّمُ من خزانة قلبه ، ومنهم من يتكلَّمُ من خزانة غيبه ؛ فالمتكلِّمُ من خزانة قلبه مَحصورٌ ، والمتكلِّمُ من خزانة غيبه غيرُ محصور) .

وكان يقول : (كلَّما قويت الظُّلمةُ في قلوب الخلائق نطقتْ ألسنةُ العارفين بصرائح الحقائق ؛ وذلك لأنها أمنتْ من ملاحظة النظَّار) .

وكان يقول : إن سكنتَ إلىٰ ما نلتَ فما نلتَ ؛ لأنَّ العطاءَ يحرِّكُ الأشواق إلىٰ لقاء المُعطي ، وإن نلتَ فهيَّجَك العطاءُ إلى المُعطي فتلك بشارةٌ علىٰ وجود العطاء ، ومن هنا قال بعضهم : ليس للهِ علىٰ كافرٍ نعمة ، إنما هي نقمة .

وكان يقول : جلَّت الحقيقةُ أن تكونَ البشريةُ محلاً لتلقِّيها ، ولـٰكن إذا أراد أن يُوصلها إليك انبسطَ شعاعُ [سلطانها] ، فمهَّد في قلبك محلاً لتلقِّيها ، فبها وجدتها لا بك : [من المتقارب]

أعــارتْــهُ طَــرفــاً رآهَــا بِــهِ فكــانَ البصيــرَ بهَــا طــرفُهــا

وكان رضي الله عنه يقول : (جلَّتِ الحقيقة أن يكون لها جزاءٌ من المخلوقين ، إنما يُطلبُ جزاؤها من ربِّ العالمين) .

وكان يقول : (لا يصحُّ من مريدٍ أن يُجازي أستاذَه الذي أخذ عنه أبداً ؛ لأنَّ ما استفادَهُ منه لا يُقابلُ بالأعواض) .

وكان يقول : (قلوبُ علماء الظاهر وسائطُ بين عالم الصفاء ، ومظاهرُ الأكدار رحمةٌ بالعامة الذين لم يَصلوا إلىٰ إدراكِ المعاني الغيبية ، والإدراكات الحقيقية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أهلُ التصوُّفِ قومٌ ساروا عن الأجساد إلىٰ ما وراءها ، فنزلوا في حضرة الوفاء ، وحلُّوا في محلِّ الصفاء) .

وكان يقول : (من أعجبِ العجب محبٌّ وقفَ ببابِ غير باب الحبيب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ألِحَّ على الكرامِ في السؤال ، وإن لم تكنْ أهلاً للعطاء ؛ فإن لهم أخلاقاً جميلة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ذلَّ قلبٌ قطُّ لبارئه إلا أفاده نوراً وخيراً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما وقفتْ همَّةُ مريدٍ في سيرها إلىٰ الله تعالىٰ عند كونٍ قطُّ إلا ناداه منادي التحقيق : أثبتْ وجود ما أنت واقف معه) .

وكان يقول : (لا تجعلْ مُستندَ إيمانك نتائجَ الفكرة البشرية ، بل فرَّ من ذلك إلى الله تعالىٰ ، وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستعذْ بالله منه ، واطلبْ ذلك من مددِ الله عز وجل) .

وفي رواية أخرىٰ عنه : (إن أردتَ سلوكَ المحجَّة البيضاء ، والوصولَ إلىٰ ذروة أهل التقىٰ ، والاقتداءَ بأهل الرتبة الأولىٰ . . فإياك أن تجعلَ دينَك وإيمانَك من نتائج العقول والأفكار ، أو مستنداً إلىٰ أدلَّةِ النظَّار ، بل عرِّج إلى المحلِّ الأعلىٰ ، والمنزل الأعزِّ الأحمىٰ ، واستمدَّ البركات والأنوار من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، واسألِ اللهَ تعالىٰ أن يمنَّ عليك بمددٍ من عنده يُغنيك به عن كلِّ شيءٍ سواه ، ويهديك بنوره إليه ، حتىٰ لا تشهدَ في ذلك إلا إياه ، وقل : ربِّ ؛ إني أعوذُ بك أن يكونَ إيماني بك ، وبما أنزلت ، وبمن أرسلت . . مُستفاداً من فكرةٍ مشوبةٍ بالأوصاف النفسية ، أو مستنداً إلىٰ عقلٍ ممزوجٍ بأمشاج الطينة البشرية ، بل من نورك المبين ، ومددِك الأعلىٰ ، ونورِ نبيِّك المصطفىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن أردتَ الوصولَ إلىٰ معرفة نور الولي فاطلبِ الله تعالىٰ ، فهناك تجدُه ؛ لأنهم ودائعُ غيبه ، وخبايا حضرته) .

وكان يقول : (لا تطلبْ من الأعمال والعلومِ والأحوالِ خلوصَها من كلِّ الشوائب البشرية ؛ لئلا تتكلَّفَ شططاً ، وتظنَّ وجودَ ما لا يُمكن وجوده سهواً أو غلطاً ، بل من بين فرثِ الماء والطين ، ودمِ ذلك الأمر الخفيِّ عن إدراك المدركين لبناً خالصاً سائغاً للشاربين)[1] .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يهولنَّكم كثرةُ عدد الفجَّار ، وقلَّةُ عددِ الأخيار ؛

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

فإنَّ أولـئك وإن كثرَ عددُهم أمرُهم صغيرٌ حقير ، وهـٰؤلاء وإنْ قلَّ عددُهم فأمرُهم واسعٌ كبير ، أولـئك تكثرتْ ظلالُ ظواهرهم ، ومعانيهم الزائلة الدنية[١] ، التي هي غيرُ حقيقيةٍ ، فهم كالعالم الثاني ؛ من نباتٍ ، وخشاش ، ونحو ذلك من نباتِ قوالب خالية من المعاني العليةِ النورانية ، سكانها لؤمُ النفوس الخسيسة الأرضية ، ومعالم عمَّارها رذائلُ المعاني الحيوانية ، وصفاتُ الأشكال الشيطانية ، كثيرهم قليل ، وعزيزُهم ذليل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وهـٰؤلاء الأخيارُ قلَّ عددُ ظواهرهم ، وكثرَ مددُ سرائرهم ، يوزنُ الرجلُ منهم بعددٍ كثيرٍ من جنسه الأبرار ، فما ظنُّك بأولـئك الذين لا وزن لهم بالنسبة إلىٰ سعة أنواره ، وما قدرُ أولـئك الذين لا قدرَ لهم مع عظيمِ مقداره) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلما جددَ العبدُ المؤمن بالصدقِ حقيقةَ الإيمان اقتضىٰ تجديدُه ذلك فناءَ عوالم الأكوان) .

وكان يقول : النعمةُ العظمى الانطواءُ بالفناء الأكبر في ظلِّ الغَنيِّ الأعظم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، وفي الحديث : « كانَ ٱللهُ ولا شيءَ معَهُ »[٢] ، وقالوا رحمهم الله تعالى : [من الطويل]

تستَّرتُ منْ دهرِي بظِلِّ جناحِهِ فصرتُ أرىٰ دهرِي وليسَ يرانِي
فلوْ تسألُ الأيامَ مَا اسميَ مَا درتْ وأينَ مكانِي مَا عرفْنَ مكانِي

وكان رضي الله عنه يقول : (ليسَ الرجلُ من يصف لك دواءً تستعملُهُ ، إنما الرجلُ من داواك في حضرته) .

وكان يقول : (أعلى النور ما غاصَ في القلوب والأسرار ، ولم يظهرْ إلى انقضاء هـٰذه الدار ؛ وذلكَ لأنه أثبتُ وأقوىٰ ، وأرفعُ وأعلىٰ مما يسرع ظهوره ، وتأمَّلْ حبَّاتِ النبات البطيء ظهورُهُ تجدْها أثبتَ وأقوىٰ ، وأرقىٰ وأرفع مما ليس كذلك) .

---

(١) في (ح) : (الزابلة الدنية) .
(٢) أخرجه البخاري (٣١٩١) بلفظ : « كانَ اللهُ ولمْ يكنْ شيءٌ غيرُهُ » عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما .

وكان يقول : (لا تبعْ ذرةً من المحبَّة لله تعالىٰ أو في الله بقناطيرَ من الأعمال ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ »)[1] .

وكان يقول : (إنَّ الرجلَ ليعانقُ الرَّجل ، وإنَّ بينه وبينه لأبعدَ مما بين المشرق والمغرب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (للسرِّ لسانٌ ، وللروحِ لسان ، وللقلب لسان ، وللعقل لسان ، علموا ذلك من مواطنَ أصولِ لسانهم وغيوبهم الأصلية ، والعارفُ الكامل يُخاطب كلاً منها بلسانه ولغته ، ويسقيه بكأسِهِ من شرابه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ظهرَ متلصِّصُ كونٍ إلا عند غيبةِ حارس المعرفة ، ولولاها ما لاحَ متلصِّصُ كون أبداً ، وإن شئت قلت تنويعاً لمثل التوصيل : ما لاح كوكبُ كونٍ إلا عند غيبة شمس المعرفة ، ومتىٰ طلعتْ شمسُ المعرفة من مشارق التوحيد أَفَلَتْ كواكبُ الآثار ، وغابتْ نجومُ الأغيار ، ولو علم الناسُ قدرَ الوليِّ لتأدَّبوا مع كلِّ إنسان ؛ لأنه لابسٌ مثلَ لبسته ، وظاهرٌ في مثل صورته) .

وكان يقول : (إذا أمركَ آمرُ العلم ، وزجرَك زاجرُه فأْتمرْ لأمره ، وقفْ عند وجود زجره ، وإنْ كان مقامُك أعلىٰ ، ورتبتُك في منازل القرب أدنىٰ ؛ أدباً مع الله تعالىٰ ، ووفاءً بحقِّ حكمته ، ووقوفاً مع حدودِ الأوامر الإلـٰهية ؛ إذْ من تمامِ أدبِ جليس المَلِكِ أن يتأدَّب إذا زجره صاحبُ الباب تتميماً لدوائر الملك ، وتأدُّباً بآدابه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ظهرَ كونٌ قطُّ علويٌّ ولا سفليٌّ إلا وهو دليلٌ ، أو مثالٌ علىٰ حضرةٍ ربانية ، ونورُ معرفةٍ خفية ، وثَمَّ معارفُ لم يظهرْ لها مثالٌ ، ولم تخطر لذي بصيرةٍ علىٰ بال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سهمُ المعرفة متىٰ وقفَ أمامه هدفُ إيمان قلبٍ أصابه ، ولم يُخطئه) .

وكان يقول : (كان نَشْأُ هـٰذا العالم على التدريج ، فإذا توجَّه الإنشاء للدائرة

---

(١) روى الحديث البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

الأخرىٰ والنشأة الثانية عادتِ السماءُ كالأب ، والأرضُ كالأمِّ ، وكان التوليدُ واحداً دفعة واحدة ، ونبتت حبَّاتُ نبات الآدميين عن بطنِ الأرض نباتاً واحداً) .

وكان يقول : (إذا نطقَ لسانُ معرفة العارف صَمَتَ وجودُهُ كلُّه) .

وكان يقول : (لو علمتِ النفوسُ قدرَ ما تُدعىٰ إليه لكانتْ تُسابق داعيها إليه) .

وكان يقول : (لا تشربْ من شراب الدنيا إلا بعد أن تمزجَهُ بشرابِ الآخرة ؛ وذلك لتكون محفوظاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما منِ وقتٍ جديدٍ إلا وفيه مددٌ جديد ، يتلقَّاه كبراءُ الوقت ووسائطه ، وهم أربابُ التلقِّي للمدد الوقتي وسفراؤه ، وقد وردَ الأثر : « ألا وإنَّ لِربكمْ في دهرِكمْ هـٰذَا نفحاتٍ ، أَلا فتعرَّضُوا لِنفحاتِ رحمةِ اللهِ تعالَىٰ »[1] فأشار إلى المدد الوقتي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما وردتْ حقيقةٌ علىٰ عارفٍ قطُّ إلا وذهب شاهدُهُ تحت سلطان أنوارها ، وأما السَّامع منه فيمكنُ بقاءُ شاهده مع وجود تلقِّيها منه ؛ لأنها وردت من بشرٍ إليه) .

وكان يقول : (خفيتِ الأرواحُ في الأشباح ؛ لظهور الأشباح في هـٰذه الدار ، فوقع الاعتناء بالظواهر ، فشُغل العبدُ بشهود ظاهره عن مراعاة القلوب والسرائر ، فالموفَّقُ السعيد من زاحمَ لروحه فأظهرها ، وجاهدَ في إصلاح حقيقته فخلَّصها وحرَّرَها) .

وكان يقول : (ليس الشأنُ من تغرَّب عليك بتستيرِ أمر بشريَّتِهِ ، إنما الشأنُ من أظهر أمرها وأوصافها ، ثم أبدىٰ لك آثارَ التحقيق عليها ، وأبرزَ لك من مكنوناتها ذخائرَ الغيوب ، وفي ذلك إشارةٌ لفهم قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠]) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩/٢٣٣) بلفظ : « إنَّ لربكمْ في أيامِ دهركمْ نفحاتٍ » عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/٢٣١) : (وفيه من لم أعرفهم) ، قال الحافظ العراقي في « الإحياء » (١/١٨٧ ، ٣/٩) : (ولابن عبد البر في « التمهيد » نحوه من كلام أنس ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الفرج » من كلام أبي هريرة ، واختلف في إسناده) .

وكان يقول : (العارفُ لا يبقىٰ مع غيرِ الله تعالىٰ بحالٍ ، ولا يقفُ مع ما بدا له من الحقِّ ، ومتىٰ وقف معه حُجب به عن ربّه تعالىٰ) .

وكان يقول : (رُبَّ شاربِ دواءٍ نافعٍ ظنَّ الشاربُ أنه ماءٌ لكونه علىٰ صورته ، فكان فيه شفاؤه من جميع الأمراض ، كذلك الوليُّ ربَّما عثرَ عليه من رآه في صورة العوام ، فوصلَهُ إلىٰ حضرة ربّه ، وهو عنه غافلٌ ، لا يدري مقامه ، ثم إذا استنار قلبُه عرفه) .

وكان يقول : (إنما ثبتَ البشرُ لسُلطان نور التجلِّي ، وتدكْدَكَ الجبلُ ؛ لأنَّ طينةَ البشر عُجنت من أصل أصيلٍ بخلاف الجبل)[1] .

وكان يقول : (**الألسنةُ ثلاثةٌ** : لسانٌ نقَلَ عن لسان ، ولسانٌ نقلَ عن قلب ، ولسانٌ نقل عن غيب ؛ فالناقلُ عن لسانٍ حاك ، والناقلُ عن قلبٍ عالمٌ ، والناقل عن غيب عارفٌ ؛ فلسان اللِّسان هواءٌ عن هواء ، ولسانُ القلب داعٍ إلىٰ هدًىٰ ، ولسانُ الغيب يُشير إلىٰ عالمِ المَحْق والفناء ، وانطوى الفرعُ الأدنىٰ في الأصل الأعلىٰ) .

وكان يقول : (مهرُ العلوم حسنُ الفهوم ، ومهرُ الحقائق الفناءُ تحت قهر سلطانها) .

وكان يقول : (نفسُ العارف المجعولة لسياسة معيشة الحياة الدنيا تلميذٌ تحت نور معرفته ، ومريدٌ تحت يد أستاذِ روحه ، وحقيقتُهُ تأخذ عنه مع جملة الآخذين ، وتستفيدُ منه مع جملة المستفيدين ، وتربَّىٰ عنه كما يُربَّىٰ غيره من المريدين ، وتؤمن بخصوصيته كما يؤمنُ به من شاء الله من المؤمنين ، وهو معزولٌ عن معرفة حقائق علومه الربانية ، ومقاماته العلوية ؛ لأنَّ ذلك كلَّه من الأسرار الغيبيَّة التي لا يطَّلعُ علماءُ الظواهر منها إلا علىٰ ظواهر آثارها) .

وكان يقول : (إن لم يسمعك الغيب بالتجلِّيات والأنوار فأسمعْه أنت بالطاعات والأذكار) .

وكان يقول : (من تجدَّدتْ له يقظاتٌ في وقتٍ فذلك دليلٌ علىٰ أن له غفلاتٍ ، وأهلُ التخصيص لا يقظةَ لهم ؛ لأنه لا غفلةَ لهم) .

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كنتَ مفتقراً في إنشاءِ طينتك الإنسانية[١] إلىٰ خلقه وتصويره فكيف لا تكونُ مُفتقراً في هداية حقيقتك الأصلية إلىٰ لُطفه وتنويره ؟!) .

وكان يقول : (قال الله عز وجل : « يا عبدي ؛ إذا لقيتني وأنتَ بي عارفٌ كتبت لك بعددِ الأكوان حسنات ») .

وكان يقول : (رُبَّ عبدٍ كان يَستصغرُ نفسَه أن يكونَ موجوداً ، فلما كُسيَ خلعةَ الفضل صارَ يستحي من اللهِ أن يرى الوجودَ الكونيَّ مع الله شيئاً مشهوداً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليك باستماعِ الأخبار الطرية ، التي لم تحدثْ عن وجودِ فكرٍ وروية ؛ فإنها دواءٌ للقلوب) .

وكان يقول : (ذاتُك مرآةُ ذاتك ، وشكلُ ذاتك مرآةُ ذاتك) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ من رأىٰ فقد رأيت) .

وكان يقول : (كلُّ حقيقةٍ بدت ، فغابَ تحت سُلطانها شاهدٌ شاهدها. . فذلك مشهدُ حقٍّ ، وإن لم يغب ، ففي شهودِ ذلك مزجٌ وتلبيس) .

وكان يقول : (الأرواحُ في عين ذاتها لا عورةَ لها ، وإنما ذلك من حيث أشباحُها ؛ ولذلك لمَّا عصىٰ بنو آدم بدتِ السوءةُ لانطواءِ الأرواح ؛ فإنَّ عالم الأرواح إذا ظهرَ شهدَ ربَّه ، ولا عصيان مع وجود ذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من أعزِّ الأشياءِ وجودُ الصدق في الطلب ، ويليه في العزَّةِ القبول ، وأعزُّ منهما الظفرُ بالوصول) .

وكان يقول : (شيئان لا يكادُ القلبُ يثبت عليهما : معرفةُ الله ، والخروجُ عما سوى الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (ليسَ الشأنُ تجلِّي حبيبك مع فقدان رقيبك ، إنَّما الشأنُ تجلِّي حبيبك مع وجدان رقيبك)[٢] .

---

(١) في نسخة من نسخ الاستئناس : (نطفتك) بدل (طينتك) .
(٢) في (ز) : (ليس الشأن تجلي حبيبك مع وجدان رقيبك) ، وسقط قوله : (إنما الشأن تجلِّي حبيبك مع فقدان رقيبك) .

وكان يقول : (العارفُ إن لم يطلبْه الخلقُ ليصلوا بواسطته إلى الله تعالىٰ طلبَهم هو ؛ لاقتضاء حقِّ الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (الجنَّةُ مطلوبةٌ ، والنارُ طالبةٌ ؛ ولهـٰذا تُعاملُ هـٰذه بالطَّلب ، وهـٰذه بالهرب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يُرسلُ الوالدُ الشفوقُ ولدَهُ الطفلَ إلى الطبيب من حيث لا يَشعر الطفل ، ويُقالُ له : تلطَّفْ به ، ولا تشقق عليه ، وإكرامُك علينا ، ولا تكلِّفه معرفةَ دائه ، ولا معرفةَ مُداواته ، كذلك يقال للعارف : داوِ مرضىٰ عبادنا إذا أَتوك بتيسيرنا ، وهم لا يشعرون ، ولا تكلِّفْهم معرفةَ دائهم ، ولا معرفة مداواتهم ؛ فإنهم ربَّما شقَّ ذلك عليهم ، وعاملْهم كما عاملناهم ؛ فإنَّكَ داعٍ إلينا ، ومطالبٌ بحقِّنا ، فقد دعوناهم إلىٰ حضرتنا وجنَّتنا ، وهم بها غيرُ عالمين ، وبكُنْهِ حقائقها على الحقيقة غيرُ عارفين) .

وكان يقول : (تتصارعُ الأسرار والأنوار ، ويديرُ كلٌّ واحد منهما كأسه على الآخر ، فيسكرانَ من كأسهما ، فيغيبان عن وجودهما ، فلا أسرارَ ولا أنوار) .

وكان يقول : (نعمةٌ ، وأيُّ نعمةٍ خطابهم لك ولو بكلمة !) .

وكان يقول : (إنما زهدَ العارفون في الدارين لرؤية ما هو أشرف وأعلىٰ وأجل) .

وكان يقول : (العابدُ يعادي فعلَ نفسه ، والعارفُ يعادي ذاتَ نفسه) .

وكان يقول : (لازمْ علىٰ قول : « لا إلـٰه إلا الله » حتىٰ تغيب عن « لا إلـٰه إلا الله » بـ« لا إلـٰه إلا الله ») .

وكان يقول : (إنما يصَدُّ الناسَ[1] عن العارفِ المحقِّق وجودُ شركهم ؛ لأن العارفَ يدفع بهم في حضرات الجمع والتفريد ، فتفرُّ نفوسُهم من حرِّ نار الأنوار إلىٰ ظلِّ ظلال الأغيار) .

وكان رضي الله عنه يقول : من أحبَّ اللهَ تعالىٰ أحبَّ كلَّ ما كان سبباً منه ، كما قال مجنون بني عامر : [من الوافر]

أُحِبُّ لحُبِّها السُّودانَ حتَّىٰ ... حبَبْتُ لحُبِّهَا سودَ الكلابِ

(١) في (ح) وحدها : (يبعد) بدل (يصدُّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يقال للعارف إذا اشتكىٰ آثارَ بشريَّتِهِ : إنما نُريد أن نعمرَ بك دوائرَ الحسِّ كما عمرْنا بك دوائرَ القُدس) .

وكان يقول : (خرجَ ابنُ آدم إلى الدنيا بجناحٍ لحميٍّ ، وفوقه سماء ، وتحته نارٌ ، فإن ربَّىٰ جناحَه وريشه طار ، وإن أهملَهُ وتركَهُ سقطَ في النار ، وقد جاء في الحديث : « إنَّما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يعلَقُ في شجرِ الجنةِ »)[1] .

وكان يقول : (مِنْ قهرِ القهَّار أَنْ يُشهدَك ما يُشهدك ، ولا تستطيعُ أن تسلكَهُ ، ولا تعملَ علىٰ مُقتضاه إلا إذا شاء وأراد) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ شيءٍ أردتَهُ وأنتَ محجوبٌ فليس هو عينَ الأمر المطلوب) .

وكان يقول : (كلما ازدادَ عبدٌ بالحضور ازدادَ الوقتُ به نورْ) .

وكان يقول : (لا تأكلُ النارُ إلا محلَّ الشرك ، إن كانَ كُلاً فكُلاً ، وإنْ كان جزءاً فجزءاً ، وإنما نالتِ النارُ من بعض المؤمنين لأنهم كانوا بعصيانهم علىٰ خفاءٍ من الشِّرك مشتملين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (حقيقةُ السرِّ ألاَّ تظهرَ لأحدٍ في الدارين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يباحُ إظهارُ الأسرار عندِ الاضطرار إلا بفتاوىٰ علمائها) .

وكان يقول : (لا يظهرُ لبُّ حقيقةِ الإنسان إلا بإزعاجِ ظاهر طينته ، كما لا يظهرُ باطنُ لبٍّ إلا بعد إزعاجِ ظاهر قشرته) .

وكان يقول : (لا يلزمُ من ذكر أوصافِ آداب المعاملات وجودُ الاتِّصافِ بها ، لـٰكنَّها من المتَّصفِ بها أنفعُ لسامعها ؛ فإنَّ غيرَ المتَّصفِ بها قصدُهُ مدخولٌ ، ونشرُ علمه في ذلك معلول) .

وكان يقول : (كان الحق تعالىٰ يقول لبني آدم : ملأتم الأرضَ طولاً وعرضاً ، ولم يأتنا منكم إلا القليلُ) .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٢٤٠) ، والنسائي (٤/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٧١) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه ، ومعنىٰ يعلق : يأكل .

وكان يقول : (ما سكتَ عارفٌ قطُّ ـ ولو نَفَساً ـ إلا عقوبةً لأهل زمانه ، وما تكلَّمَ قطُّ كلمةً إلا وانتفعَ بها كلُّ من سمعها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من غفلةِ العبدِ ، وعمىٰ قلبِه . . نسبتُه الأشياءَ لغيرِ ربِّه) .

وكان يقول : (لن تستطيعَ أن تَسْلَمَ من الشيطانِ الملصَقِ بذات وجودك ، المُلتقمِ بأُذن قلبك ، الجاري منك مجرى الدم . . إلا برجوعِكَ إلىٰ من هو أَقربُ إليك منه ، وهو الله تعالىٰ) .

وكان يقول : سيئاتُ الظواهر في طريقِ المعاملة في معرضِ العفو ؛ لكونها مخالفةً للأوامر السمعية الواردة على الخلق من وراء الحجاب ، بخلافِ أنوارِ القلوب والأسرار إذا حصل فيها خللٌ فلا مغفرةَ لسيِّئاتها ، ولا عوضَ من فواتها ، قيل لبعضِهم حين كان عنده خللٌ :

كـلُّ ذنـبٍ لـكَ مغفـو رٌ سـوى الإعـراضِ عنَّـا
قـدْ غفـرْنَـا لـكَ مَـا فـا تَ بقـي مـا فـاتَ منَّـا

وكان يقول : (ما تعقَّبَتْ ندامةٌ قطُّ وقتاً فارغاً ، أو مظلماً إلا ملأته ، أو نوَّرته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أولاً تسمع ، ثانياً تفهم ، ثالثاً تعلم ، رابعاً تشهد ، خامساً تعرف) .

وكان يقول : (**ابنُ آدم ذو عوالمَ ثلاث** : عالمِ إنساني ، وعالمِ شيطاني ، وعالمِ روحاني ؛ فله من حيث المعنى الطيني : الجهلُ والنسيان ، ومن حيث الريح الشيطاني : التكذيبُ والكفران ، والجحودُ والطغيان ، ومن حيث الوصف الروحاني : التصديقُ والإذعان ، ثم اليقينُ والعرفان ، ثم الشهود والعيان) .

وكان يقول : (**القلوبُ ثلاثةٌ** : قلبٌ أرضي ؛ فالشيطان يأوي إليه ، وربَّما استحوذ بالإغواء عليه ، وقلبٌ سماويٌّ ؛ فهو يُلقي إليه ، ويسترقُ السمعَ من نواحيه ، فهو ينالُ من سماعِ أخباره ، وربما رُجم بشهابٍ من أنواره ، وقلبٌ عرشي ؛ فهو أبداً لا يُدانيه ، ولا يصل أبداً إليه) .

وكان يقول : (أولُ مراتبِ السماعِ للقرآن غَيبةُ السامع عن شهود الأكوان) .

وكان يقول : (إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً أوصلَ إلىٰ قلبه العلومَ الحقيقية المتلقَّاة من حضرة الربوبية ؛ بطريقٍ ليس فيه إشكالٌ على الظواهر الشرعيات ، ولا تعدِّي القواعد العقليات) .

وكان يقول : (الكونُ الشهاديُّ كلُّه منطوٍ في ظاهرية آدم ، وظاهريَّتُهُ منطويةٌ في معنىٰ روحه ، وروحُهُ غيبٌ في طيِّ النفخ فيه ، والنفخُ منطوٍ في الإضافة ، وذلك منقطعُ الإشارة) .

وكان يقول : (لمَّا شهدَ الكونُ الفاني بعين الغفلة موجوداً مع الله تعالىٰ . . قضى الله عز وجل بفنائه ؛ غيرةً لأحديَّتِهِ) .

وكان يقول : (لو نطقَ العارفُ بلسان حقيقته لم يسعِ الكونُ الشهاديُّ كلمةً من كلماته) .

وكان يقول : (كان الحقُّ تعالىٰ يقول : يا مَنْ طلبَ مني ؛ خذ ، ويا مَنْ طلبني ؛ قف) .

وكان يقول : (من مزجَ لك كأساً من التذكرة بذرَّةٍ من بشريَّته فقد آذاك) .

وكان يقول : (لو خُيِّرَ العارفُ بين مئة ألفِ خصوصية أو كشف حجاب . . لاختار أن يُكشفَ له ذرَّةٌ من حجاب) .

وكان يقول : (الحالُ ما جذبَكَ إلىٰ حضرته ، والعلمُ ما ردَّك إلىٰ خدمته) .

وكان يقول : (لولا ضيقُ المجاري كنتَ ترى النور جاري) .

وكان يقول : (ما منعك من شمِّ نسيمِ القرب إلا زكامُك ، ولا حجبَك عن شهود النورِ إلا ظلامُك) .

وكان يقول : (من تزايدَ له حبٌّ في محبوبهِ بِسببٍ جديد فهو في دعوىٰ نهاية المحبَّةِ بعيد) .

وكان يقول : (الحالةُ التي لا اعتراضَ عليها من ظاهرٍ ولا باطن جمعٌ لا شطحَ فيه ، وفرقٌ لا شركَ فيه) .

وكان يقول : (من أبدىٰ من أسرارِ الله تعالىٰ ما لا يليقُ إبداؤه ، وأفشىٰ من العلم المكنون ما لا يُناسب إفشاؤه . . عوقبَ بسوءِ الظنون فيه ، أو بما هو فوقَ ذلك من العقوبات) .

وكان يقول : (لو زالَ منك « أنا » للاحَ لك « من أنا ») .

وكان يقول : (لا ينالُ الشيطانُ من آدميٍّ نيلاً إلا إن نزلَ إلىٰ أرض شهوته) .

وكان يقول : (إنما نفرَ العُبَّاد من الخلقِ ؛ لجهلهم بأسرار الله فيهم ، ولو عرفوا أسرارَ الله فيهم لأَنِسُوا بهم كما أَنس بهم العارفون) .

وكان يقول : (كلما دقَّ الكشفُ الغيبي وخفي كان أَعلىٰ) .

وكان يقول : (كلُّ دليلٍ تَستدلُّ به علىٰ معرفة الله تعالىٰ فأنتَ أَظهرُ منه) .

وكان يقول : (ما عملَ العارفون في هـٰذه الدارِ علىٰ حالٍ ولا مقامٍ ، وإنما عملوا علىٰ تحقيق انحيازهم إلى الله تعالىٰ ، وأنَّ الكلَّ في طيٍّ ذلك) .

وكان يقول : (كل ما كانَ من الموجودات بعيداً عن شهودِ الاختيار في أفعاله . . طال بقاؤه ؛ كالسماء والأرض ، والجبال والبحار ، وكلُّ ما كانَ قريباً من شهودِ اختياره قَصُرَ بقاؤه ؛ كالآدمي ، والحيوان ؛ تذكرةً لأُولي الألباب) .

وكان يقول : (سوابقُ العناية قبلَ نواطق الهداية) .

وكان يقول : (أنتَ في الدنيا غيرُ قارٍّ فيها ، والآخرةُ لم تصلْ بعدُ إليها ، فلم يبق إلا رجوعُك إلى القريبِ المجيب) .

وكان يقول : (ما أكرمَ اللهُ عز وجل عبداً بمثلِ نورٍ أَهبطه علىٰ قلبه) .

وكان يقول : (إذا تكلَّمَ العارفُ بكلمةٍ غابَ فيها وجودُ المستمع ؛ وذلك لأن الكلامَ ذَكَرٌ ، والسَّمعَ أنثىٰ ، والرجال قوامون على النساء) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو تنفَّسَ عارفٌ في بلدةٍ ثبتَ إيمانُ كلِّ عبدٍ فيها) .

وكان يقول : (أمامَ كلِّ وصولٍ غيبيٍّ عارضٌ شهواني) .

وكان يقول : (كلُّ عارفٍ لا يُميتُ وجوده أمام مُريده لا يصلُ مريدُه إلى الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (لا يصلُ إلىٰ حضراتِ الأنوار إلا الخالصُ من الأسرار) .

وكان يقول : (ما نظرَ مريدٌ لعارفٍ بعين توقيرٍ ووداد إلا كان سالكاً سبيلَ حقٍّ ورشاد) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُباحُ التوحيدُ بالفهم إلا في محلِّ التكليف خاصَّةً) .

وكان يقول : (من تواجدَ بالفهم في موطنٍ لم يصلْ إليه . . زلَّ به قدمُهُ عمَّا كان فيه إلىٰ أسفلَ منه ، وإنَّما يُباح ذلك لمأذونٍ له ، أو لمن هو تحت إشارةِ عارف) .

وكان يقول : (الوارداتُ الربَّانيةُ لا تصلُ إلى الفهوم ، وما وصلَ إلى الفهوم فإنَّما هو من رشاشِ مائها ، ومِنْ شُعاعِ ضيائها) .

وكان يقول : (لا يلوحُ لك نورُ حقائق الإيمان حتىٰ تخرجَ عن عامَّةِ الأكوان) .

وكان يقول : (من علامةِ العلم الحقيقي إذا وردَ على القلب : أن تذهبَ الأمثالُ والصور ، وإنْ كانت الأمثالُ الظلية سبباً لأخذ الحقائق الأصلية) .

وكان يقول : (إنما خلقَ فيك ما خلقَ لتعرفَ به الأكوان لا المكوِّن ؛ فإنّه لا يُعرفُ المكون إلا به تعالىٰ) .

وكان يقول : (موادُ الحكمة منطويةٌ في القوة الإنسانية ، وإنما يفضِّلُ الحكيمُ علىٰ غيره باستخراجِها من قوَّته إلىٰ فعله) .

وكان يقول : (الآدميُّ لا تقعُ عليه الإشارة ، لأنه نسبةٌ تاهتْ في أنوار الفناء) .

وكان يقول : (إن كان لك في الوصولِ نيَّةٌ فلا تُبْقِ منك بقية) .

وكان يقول : (ابنُ آدم ذو وجوداتٍ مطوية ، فتبصَّروا في خلالها ، فعسىٰ يلوحُ لكم شيءٌ من جمالها) .

وكان يقول : (لا يُظهرُ جوهرَ الإيمان إلا وجودُ الامتحان) .

وكان يقول : (نيلُ الشهوات في الحياة الدنيا عذابٌ معجَّلٌ مستور) .

وكان يقول : (الحقائقُ كلما بدتْ بوصفها خفاءٌ في ظهورٍ ، وظهورٌ في خفاء ،

ومددُها من الواو في قوله : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد : ٣]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ورد واردٌ عالٍ وله نهيةٌ قطُّ)[١] .

وكان يقول : (المحققون قسمان : مأذونٌ له في الدلالة والإفصاح ، وغيرُ مأذون له في ذلك) .

وكان يقول : (متعة الدنيا فيها لطفٌ وبركة ؛ لأنها بساطٌ لعطاءٍ لا ينقطع ، وفضلٍ لا ينحصر ، وإطلاقٍ في عوالم البقاء ، والفسيح الأعلىٰ) .

وكان يقول : (إذا مرَّتْ بك سحابةٌ حقيقيةٌ غيبيةٌ فقفْ تحتها ؛ فهي إما أن تُظلَّكَ ، وإما أن تَبُلَّكَ) .

وكان يقول : (من علامةِ عدم حرية الرجل نقلُه قدمه حيث قاده هواه) .

وكان يقول : (اثبتْ علىٰ حسنِ قصدك لتحقِّقَ حصولَ مقصودك) .

وكان يقول : (من دليل استقامة المؤمن شوقُهُ لما ليس فيه هوىٰ نفسه ، وخوفهُ ورجاؤه مما لا يُلائم نفسه) .

وكان يقول : (مَنْ عصرَ لك من ماءِ ظاهر بشريَّته فإياك أن تشربَ منه ؛ فإنه يجرُّك إلى اتِّباع الهوىٰ ، وركوبِ الضلال ، ومَنْ عَصَرَ لك من ماء باطنِ خصوصيته فاشربْ هنيئاً مريئاً ؛ فإنه الشرابُ النافع) .

وكان يقول : (كلُّ كلامٍ كنتَ مختاراً في قبوله ودفعه فنفعُهُ عندك قليل ، وكلُّ كلامٍ قهركَ علىٰ قبوله فذاك الذي يدفعُ بك إلى الأمرِ الحسنِ الجميل) .

وكان يقول : (المريدُ سيرُهُ بباطنه ، وظاهره تبعٌ ، والعابد سيره بظاهره ، وباطنه تبع ، فالعابد يُراقب أوراده ، والمريد يُراقب وارداته) .

وكان يقول : (ما تعلَّمَ العلماءُ العلمَ ليُعصموا ، وإنما تعلَّموا ليُرحموا ، وما تعلَّموا ليتحصَّنوا بعلمهم من الأقدار ، وإنما تعلَّموا ليفرُّوا إلى الله تعالىٰ باللجأ والافتقار) .

---

(١) في (د) : (نهاية) بدل (نهية) .

وكان يقول : (أحوالُ أهل المعرفة غريبةٌ جدّاً ؛ فإنَّهم إنْ كانوا مع بشريَّتهم فحيتان في ماء ، وإن كانوا مع خصوصياتهم فطيورٌ في هواء ، فهم إذا كانوا بوصف نفوسهم غرقىٰ في بحار الدنيا ، وإذا كانوا بوصفِ أرواحهم جوَّالون في أفق العالم الأعلىٰ ، وأقلُّ مكثاً في الدنيا من العوالم كلِّها ما كان أكثرَ شبهاً بالعالم الأعلىٰ ، وأقوىٰ في الأصالة) .

وكان يقول : (كلُّ ما كان فوقَ إدراك العقل لا يُمشىٰ فيه إلا بأحدِ أمرين : إما بالنور ، أو بالاعتقاد) .

وكان يقول : (كلما قلَّتِ الحيلةُ من المخلوقات كثرَ من الخالق التوفيق والإعانات) .

وكان يقول : (أصلُ حجابِ بني آدم وقوفُهم مع الظِّلال مع غيبتهم عن شهود حقائقها ، كما أنهم إنما حُجبوا بالعلم ؛ لوقوفهم خلفَ حجابِهِ دون حقائقه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (للشاكرِ في حالِ شكره لسانٌ ينطقُ عن ربِّه ؛ إنَّ الله تعالىٰ يقول علىٰ لسانِ عبده : « سمعَ اللهُ لمنْ حمدَهُ »)[١] .

وكان يقول : (حاجةُ الأستاذِ لما فوقه أشدُّ من فاقة المريدِ إلىٰ أستاذه) .

وكان يقول : (ميزابُ الأنوار إلىٰ قلوب المريدين صدقُ المحبة) .

وكان يقول : (العارفُ في الدنيا لغيره لا لنفسه ، وغيرُه لنفسِهِ لا لغيره) .

وكان يقول : (كلما وجَّه العبدُ قلبَه إلى الله تعالى انجمع ، وكلَّما وجَّهَ قلبَه إلى الخلقِ تفرَّق) .

وكان يقول : (كلُّ سببٍ فرَّقَكَ فقد أفناك وأماتك ، وكلُّ سببٍ جمعك فقد أحياك وأثبتك) .

وكان يقول : (المحبة جسدٌ لأرواح الحقائق ، وبابٌ لحضراتها)[٢] .

---

(١) رواه البخاري (٦٨٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ومسلم (٣٩١/ ٢٥) عن سيدنا مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

(٢) في (أ ، ب ، ج ، د) : (الجنة) بدل (المحبة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما فرَّ العبَّادُ من الناس ؛ لأنهم وجدوا منهم نَتْنَ جيفةِ الدنيا لظواهر بشريَّاتهم ، وإنما أقبلَ العارفون عليهم ؛ لأنهم وجدوا منهم طيبَ ريح الأرواح لباطن خصوصياتهم) .

وكان يقول : (إن الله عز وجل ليغارُ علىٰ وليِّه أن يعرفَه غيرُه) .

وكان يقول : (لا يُعرفُ الوليُّ حتىٰ يَعرفَ الله تعالىٰ ؛ لأنه عنده ، فلا يُعرفُ إلا بعد معرفته ، ولو عُرِفَ قبل معرفته الله تعالىٰ لكان حجاباً عن الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (**للعلمِ بالله تعالىٰ في هـٰذه الدار طريقان** : العلمُ الإلهامي للأولياء ، والوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**الأعينُ في مناظرها أربعٌ** : عينٌ صحيحةُ الذات ، قويةُ النظر ، وهي عيون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعينٌ صحيحةُ الذات ، ضعيفةُ النظر ، وهي عيون الأولياء رضي الله عنهم ، وعينٌ موجودةُ الذات ، محجوبةُ النظر ، وهي عيون المؤمنين الغافلين ، وعين عمياء ، وهي عيونُ الكافرين الجاهلين) .

وكان يقول : (منذ حُصر الآدميون في قوالب البشريات ، وسُجنوا في سجون المظاهر الحسِّيات . . لم يأتهم نَفَسُ العالم الغيبي ، ولا شيءٌ من شعاع أنوار المحلِّ الكوني ، ولا علمٌ حقيقي جديد إلا علىٰ أيدي الأنبياء والمرسلين ، ثم بوسائط أتباعهم من الأولياء ، والصدِّيقين ، والعلماء العارفين ، وليس مع أحدٍ منهم زيادةٌ علىٰ ذلك ، إلا ما أُوتوه في أوائل فطرتهم ، فليس لهم علومٌ جديدة طريةٌ إلا من تلك المنابعِ العلية القدسية) .

وكان يقول : (من عرفَ العارفَ تعبَ به العارف ؛ لأنه يصيرُ حاملَ أثقاله في جميع تقلُّباته ، ومن جهلَ العارفَ استراح به العارف ، وكلما قويتْ معرفةُ العارف زادَ افتقارُهُ وإفلاسُهُ ؛ وذلك لأنه كلما ازدادَ معرفةً ازداد قُرباً ، وعند القرب يزولُ النسب ؛ إذ وجود النسب والأسباب لا يكون إلا مع البعد ، وإرخاء الحجاب) .

وكان يقول : (العارفُ في الدنيا كشمعةٍ تُضيء مع خفائها) .

وكان يقول : (لا نجاةَ يومَ يخسرُ المبطلون إلا لنبيٍّ ، أو تابعٍ لنبيٍّ ، أو محبٍّ) .

وكان يقول : (الأمثالُ للمريدين ، والحقائقُ للعارفين ، ومثالُ العارف مثالُ رجلٍ عند البحر ، فهو يغترفُ منه حيث شاء ، ومثالُ المريد مثالُ رجلٍ عنده جمدُ ماءٍ قليل ، فهو ينتظرُ حلَّه ليسيغه) .

وكان يقول : (إذا حاولتَ نفسَك في فهم القرآن فذاك من عجيبِ حالك ؛ لأنك تريدُ أن تفعلَ فيما هو فاعلٌ فيك) .

وكان يقول : (إذا بقي المؤمنُ يوماً واحداً في الإيمان تمسَّكَ بأكثرَ من مئة ألف عروةٍ ، كلُّ عروةٍ منها لا انفصامَ لها) .

وكان يقول : (إذا قاد الشيطانُ الإنسان إلى الذنوب والعصيان ولم يصرَّ ، بل رجع وتاب . . فكأنَّه ما انقادَ له قطُّ) .

وكان يقول : (إذا دعوتَ عبداً لغير هوىٰ نفسه فاتَّقِهِ ما أمكنك ؛ فإنه يُعاديك بنفسه ، ويواليك بإيمانه) .

وكان يقول : (إذا أصلحتَ عملَك أقبلتِ الجنَّةُ عليك ، وإذا أصلحتَ قلبَك أقبلَ الحقُّ سبحانه وتعالىٰ بإحسانه إليك) .

وكان يقول : (إذا أجنبَ العبدُ ألفَ جنابة كفاهُ غُسلٌ واحد ، وأباح له الدخول في الصلوات ، وكذلك العبدُ إذا أجنبَ بالغفلة القضائية ، ثم ذكرَ الله تعالىٰ مرَّةً واحدةً ، واستغفرَهُ . . كان ذلك مطهِّراً له من تلك الجنابات ، ومُبيحاً له الدخول في الحضرات) .

وكان يقول : (إذا حصل لك الأطيبان[1] فلا تُبالِ الإيمان بالله ، والعود بعد العود لله) .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ لولا أن الله تعالىٰ يُريدُ سترَ أوليائه في هٰذه الدار ما سلَّطَ عليهم أحداً يُؤذيهم) .

وكان يقول : (استمعِ الكلماتِ الرادعةَ عن الغيِّ ، والنصائحَ النافعةَ في زمن

(١) **الأطيبان لغةً** : هما الأكل والنكاح ، وقيل : النوم والنكاح ، وقيل التمر واللبن .

الرخاء قبل أن تبدو الحقائقُ بذواتها ؛ فإن أولَها كتاب ، وثانيها خطاب ، وثالثها عتاب ، ورابعها حجاب ، وخامسُها عذاب ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ١٥٨]) .

وكان يقول : (نسبتُك إلى الله تعالىٰ بالتقصير خيرٌ من نسبتك إلىٰ غيرِه بالوفاء والصدق) .

وكان يقول : (كأنَّ الحق تعالىٰ يقول : من طلبَ مني بما يبدو منه فقد طلب منِّي بوصفه ، فالحرمانُ إليه أقربُ ، ومن طلب مني بوصفي فالكرمُ إليه أقرب) .

وكان يقول : (إذا نُهيتِ النفسُ عن الهوىٰ فإنَّ الجنةَ هي المأوىٰ ، وإذا سعيت بقدمِ التقوىٰ لما ليس للنفس فيه هوىً . . كانتِ الحضرةُ هي المأوىٰ) .

وكان يقول : (لو رفعتْ لك الستور لاحتْ لك السُّطور) .

وكان يقول : (الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام استقرَّتْ حقائقُهم في دوائر الغيب ، فهم بذواتهم هنالك ، ولهم رقائقُ في عوالم الشهادة ؛ وفاءً بحقِّ دوائر الظواهر ، والأولياءُ استقرَّتْ حقائقُهم في عوالم الشهادة ، ولهم رقائقُ جوَّالةٌ في عوالم الغيب ؛ فالأنبياءُ نفذوا الحجابَ بحقائقهم ، والأولياءُ نفذوا الحجاب برقائقهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما يَستجيب لمن دعاهم إلى الله تعالىٰ بالاختيار العبيدُ الأحرار) .

وكان يقول : (رأسُ مالك في صلاح حالك وجودُ إقبالك) .

وكان يقول : (الصلاةُ المقبولةُ قطعاً هي الصلاةُ التي اتَّصلتْ بالمتابعة الحقيقية) .

وكان يقول : (لو أنَّ عارفاً بالله تعالىٰ في مشرقِ الشمس ينطقُ بحقيقةٍ ، ورجلٌ محبٌّ له في مغربها . . لكانَ له نصيبٌ من ذلك علىٰ حسب قسمته ، وتهذيب محبته) .

وكان يقول : (كلُّ عمل فهو موعودٌ بجزائه آجلاً ، إلا التذكرة ؛ فإن جزاءها عاجلٌ مع مآلها آجلاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥]) .

وكان يقول : (عزَّتْ معرفةُ العارفين أن تكونَ هـٰذه الدار لآثارِها مظهراً) .

وكان يقول : (لأن تلقى اللهَ تعالىٰ وقلبُك مُستنيرٌ خيرٌ لك من أن تلقى الله تعالىٰ وعملُك كثير) .

وكان يقول : (لسانُ الحسِّ أعجميٌّ ، ولسانُ القلب عربي ، فمهما وقعَ لك شيءٌ يعجمه حسُّك ففسِّره بعربية قلبك تجدِ الهدىٰ والبيان) .

وكان يقول : (القلوبُ علىٰ أصل سذاجتها لم تزل ، ولـٰكنها إذا حُرِّكتْ بالتذكرة فإما تَستقيمُ فيُعينُها الله تعالىٰ ، وإما أن تعوجَّ ، فيزيدُها الله عِوجاً ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا . . .﴾ [التوبة : ١٢٤] الآيتين)(١) .

وكان يقول : (القولُ بالحقِّ وسماعُهُ عبادةٌ ، عَملَ به عاملٌ ، أو لم يعمل) .

وكان يقول : (إنما اضطرَّ العارفون إلىٰ ملابسةِ الخلق والدنيا ؛ لإنقاذِ من فيها من الغرقىٰ ، وتخليصِ من بها من الأسرىٰ ، وليتحمَّلوا كثيراً من أكدارِها عن الضعفاء) .

وكان يقول : (لسانُ التوحيد في الدنيا غرابٌ يَنعِقُ بفنائها وزوالها) .

وكان يقول : (لما كانتْ هـٰذه الأمة أقوى الأمم بحقائقِ التوحيد كانت لذلك أضعفَ الأمم أجساداً ، وأقلَّها أعماراً) .

وكان يقول : (لا واسطةَ في شيءٍ من الأسرار المبثوثة في خواصِّ بني آدم للملأ الأعلىٰ ، وإنَّما الحقُّ يُوصلُها إلىٰ سرائرهم بقدرته ، وما عدا الأسرارَ فلا يصلُ قطُّ منها شيءٌ إلى الأسفل إلا بواسطة العالم الأعلىٰ) .

وكان يقول : (ما خاطبْتَ قطُّ كوناً وخاطبَكَ إلا بغيرِ حقيقتك الأصلية إلا الحقائق ؛ فإنَّك لا تتلقَّاها إلا بعين ذاتك الأصلية) .

وكان يقول : (لو باشرَ صريحُ الحقائق قلبَ المريد الصادق لم تسعْهُ الأكوان) .

وكان يقول : (إذا علت الحقيقة لم تظهرْ إلا علىٰ أشرفِ الخليقة ، كما أنَّ نور النبيِّ صلى الله عليه وسلم لمَّا كان أعلى الأنوار لم يظهرْ إلا علىٰ أشرفِ الأبشار صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) هما قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ . . .﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ .

وكان يقول : (استقرارُ الحقيقة في ذهن السامع أكثرُ من استقرارها في ذهن الناطق ؛ لأن الناطقَ بها يشهدُها غيباً ، فيقلُّ زمنُ مكثها عنده ، والسامعُ يأخذُها عن شهادةٍ ، فيطول زمنُ مكثها عنده) .

وكان يقول : (متىٰ لاحَ لك نورٌ فاستصحبْ منه شهوداً أو محبَّةً ، فقد حصل لك نصيبٌ من ذلك) .

وكان يقول : (الأنوارُ العرفانية بارزةٌ من غير محلِّ البشرية ، فإن أردتَ أن تلقيها فلا تجعلِ البشريةَ شرطاً فيها) .

وكان يقول : (متىٰ سمعتَ كلاماً عن رجلٍ في كتابٍ ، أو نقلٍ ، فإنْ لم يكنْ له نسبةٌ في شهود حقيقته . . لم تنتفع بكلامه) .

وكان يقول : (إذا عرضَ الكونُ الدنيوي حَجَبَ ، وإذا عرضَ الكونُ الأخروي أوقف) .

وكان يقول : (لا يُطفئُ نورَ شمس الحقيقة هبوبُ هواء النفوس والدنيا ؛ لأن جواهرَها مستقرَّةٌ في قعرِ بحار القلوب ، ولا يصلُ إليها غوَّاصُ النفس والهوىٰ) .

وكان يقول : (لو لم يبعدِ العارفُ الحقيقةَ عن ذاته قليلاً ما أمكنَهُ التعبيرُ عنها) .

وكان يقول : (إذا نظرَ العارفُ بعين بصيرته غابتِ الدنيا في مرآته ؛ لأنَّ حدقةَ بصيرته أوسعُ منها) .

وكان يقول : (العالمُ الدنيوي محلُّ ظهور المعنى الإنساني ، ومن بعد الموت إلىٰ آخر المحشر محلُّ ظهور النور الإيماني ، ومن مبتدأ دخولِ الجنة محلُّ ظهور السرِّ العرفاني) .

وكان يقول : (لله تعالىٰ في كلِّ حقيقةٍ علمٌ لا يعلمُهُ فيها غيره ، والناسُ فيما دون ذلك مُتفاوتون) .

وكان رضي الله عنه يقول : (القلوبُ الغافلةُ إذا سمعتِ الحقائقَ نفرت ، ولا يثبتُ لسماع الحقائق إلا قلبٌ أرادَ الحقُّ ترقِّيه) .

وكان يقول : (لا يظهر وليٌّ في الدنيا قطُّ بحقيقته ، وإنما يظهرُ بعلمه لا بعينه ، فإذا كان يومُ القيامة أظهرَهم اللهُ بحقائقهم وأعيانهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يا بن آدم ؛ ما أنصفتَ ، يدعوك داعي الدنيا بكلمةٍ واحدةٍ لشيءٍ ذاهبٍ كدرٍ فانٍ ، فتجيبه ألفَ يوم ، ويدعوك داعي الآخرة لشيءٍ باقٍ صاف ثابتٍ ألفَ يوم ، فلا تجيبُهُ يوماً واحداً ، فليتك إذ لم تُقدِّم الآخرة سوَّيت بينهما) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من العجبِ كونُ الإنسان ينظرُ لشمس الدنيا ، فيستضيء بنورها ، وينتفعُ بآثارها ، وفي سرٍّ وجوده شمسُ أنوارٍ ، وهو غافلٌ عن شهود حقيقتها لظلمةِ ذاته الطينية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (دينُنا هـٰذا قسمان : ظاهرُ علمٍ ، وباطنُ حقيقة ؛ فظاهرُهُ مضبوطٌ بالأصول والنقول ، وباطنُهُ مضبوط بأنوارِ القلوب ، فمن أتاك بشيءٍ منه فاستشهدْ عليه بما هو منه ؛ فالظاهرُ بشواهده ، والباطنُ بشواهده ، فمَنْ قَبِلَ شيئاً من ظاهرٍ بغيرِ نقلٍ ثقةٍ زلَّ ، ومن قَبِلَ شيئاً من باطنٍ بغيرِ شهودِ قلبٍ ضلَّ) .

وكان يقول : (من أحسنِ الأنوار نورٌ يردُ علىٰ قلبِ المريد ، ولا يلوِّثُ بظلمة الدعوىٰ) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ليس قصدُ الدعاة إلى الله تعالىٰ علوماً ، ولا أحوالاً ، ولا مقاماتٍ ، ولا خصائصَ ، ولا غير ذلك ، وإنما قصدُهم جمعُ كلمةِ الدين باطناً كما هي مجموعةٌ ظاهراً) .

وكان يقول : (لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ قيَّدَ الأرواحَ بقيدين ثقيلين لطارتْ إلى الله تعالىٰ طيراناً) .

قلت : ولعل المراد بالقيدين الأمر والنهي .

وكان يقول : (قلبُ العارفين يكتبُ ، وقلبُ المريدين يُكتبُ فيه ، وقلبُ الغافلين لا يَكتب ولا يُكتب فيه) .

وكان يقول : (إذا بدتْ لك الحقائقُ كان علماً ، وإذا بدتْ فيك كان كشفاً) .

وكان يقول : (العالم الرباني في الوجود كالقلب ، والوجودُ له كالجوف ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ولو أنَّ المددَ الحقيقي وردَ في هٰذا العالم من عارفين على السواء لسرىٰ في قلوب الآخذين وجود الشرك الخفي ، فافهم) .

قلت : مرادُه أنَّ المرتبةَ في كلِّ عصرٍ لواحدٍ في نفس الأمر ، والزائدُ أعوانٌ له ، والله تعالىٰ أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ثبتَ علىٰ عبدٍ خصوصيةُ نفسين إلا طغىٰ بها ، فإن أرادَ الله تعالىٰ به خيراً طهَّرَهُ من شهود أوصافه) .

وكان يقول : (المؤمنُ الذي يجاهدُ نفسَهُ يختمُ اللهُ له بالإسلام أكثر من مئة ألف مرة ؛ لتكرارِ موته في ذاتِ الله تعالىٰ بسيوفِ المجاهدة) .

وكان يقول : (سيرُكَ قَدَماً واحداً علىٰ أثرِ قدم عارفٍ أحسنُ من مئة ألف فرسخ تسيرُها بهواك) .

وكان يقول : (كلمةُ الحكمة عروسٌ كريمة ، فإنْ لم تجد كفئاً رجعتْ إلىٰ بيت أبيها) .

وكان يقول : (أعلىٰ مقاماتِ المغفرةِ في الدنيا وجودُ الفتح الحقيقي ، وهو توقيعُ الولاية) .

وكان يقول : (العابدُ يُسلمُ في عمره مرَّةً واحدة ، والمريدُ يُسلمُ في عمره كذا كذا مرة) .

وكان يقول : (أتباعُ كلِّ طائفةٍ يأخذون بالإيمان ، وأتباعُ هٰذه الطائفة يأخذون بالعيان) .

وكان يقول : (العارفُ لا قلب له يعيش به ؛ لأنه بربِّه لا بقلبه) .

وكان بعضُ العارفين يقول : عاشَ من لا قلبَ له ، وأنشدوا في معناه : [من الطويل]

يقولونَ لوْ راعيتَ قلبَكَ لارْعَوىٰ فقلتُ وهلْ للعارفينَ قلوبُ

وكان يقول : (مكثُ الواردِ يدلُّ علىٰ علوِّه) .

وكان يقول : (لو كُشف للعبدِ المؤمن أو العارف علىٰ ما في طيِّ قلبه . . لأشرقتْ منه الأكوان) .

وكان يقول : (لا بدَّ أن يجلسَ العارفون في الجنة ، ويُحدِّثون الناسَ حديثاً فوق هـٰذا ؛ من علم الجنة ، وآدابها) .

وكان يقول : (أكثرُ الناس عطاءً وكرماً من جعلَ اللهُ علىٰ يديه أرزاقَ عباده) .

وكان يقول : (لولا روحُ الحقائق ماتتِ الخلائق) .

وكان يقول : (لو علمتَ قدرَك قبلَ أبيك آدم لندمتَ إلى الممات) .

وكان يقول : (لا تقنع قطُّ بسمعتُ ورويت ، بل بشهدتُ ورأيت) .

وكان يقول : (يتكلَّمُ العارف مئة ألف سنة ، ثم إنه لا يقدمُ على الله تعالىٰ إلا بوصف السكوت ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩]) .

وكان يقول : (لا بدَّ للعارف من التنزُّلِ من أعلىٰ همَّتِهِ إلىٰ درجة مريده ليربِّيه) .

وكان يقول : (الرجلُ الكامل يربِّي بالدائرتين ؛ بالأبوة والأمومة) .

وكان يقول : (لو لم يصبحْ واحدُ الزمان يتوجَّهُ في أمرِ الخلائق من البشر . . لفجأهم أمرُ الله عز وجل ، فأهلكهم) .

وكان يقول : (لأَن تبيتَ وأنت في فضلِ الله طامعٌ خيرٌ لك من أن تبيت وأنت ساجدٌ راكع) .

وكان يقول : (من حضرَ في الحضرات فلا اسمَ له ولا صفة) .

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ يكسو خواصَّ أهلِ الجنة خلعاً لا لون لها) .

وكان يقول : (لو تجلَّتْ شجرةٌ في الجنة بحقيقتها ما استطاع أهلُ الجنة أن يَنظروا إليها) .

وكان يقول : (اليومَ أنت تقول للكون : أخبرني عن مكوِّنك ، وفي الآخرة يقول هو لك : أخبرني عن مكوِّني) .

وكان يقول : (من خرجَ عن محبَّةِ الدنيا سُمِّي عابداً زاهداً ، ومن خرجَ عن نفسه وعوالمها سُمِّي عارفاً) .

وكان يقول : (من عرفَ ما دون الله قبل معرفته لله حُجِبَ ، ومن عرفَ الله قبل معرفته لخلقه لم يُحجب) .

وكان يقول : (لا تنظرْ في أفعال الواعظين تنحجب عن فوائد أقوالهم ، ولا تنظرْ لذاتِ العارفين تُحجب عن فهم إشاراتهم) .

وكان يقول : (كيفَ تعرف خالقَك بشيءٍ هو خلقه فيك ؛ إذ كلُّ مدرك له سلطانٌ علىٰ ما أدركه : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨]) .

وكان يقول : (كلُّ من ظنَّ أن الحروفَ تثبت في خزانة حفظه فهو محجوب) .

وكان يقول : (الجنةُ حقيقةً : هي إشراقُ عوالم الأصول) .

وكان يقول : (الناسُ حول صاحب الكلام الرباني كالعَجَم حول الفصيح ، فلا يشترطُ معرفتهم لذلك) .

وكان يقول : (خدمةُ أستاذك مقدَّمةٌ علىٰ خدمة أبيك ؛ لأن أباك كدَّرك ، وأستاذَك صفَّاك ؛ أباك سفَّلَكَ ، وأستاذَك علاَّك ، وأباك مزجك بالماء والطين ، وأستاذك رقَّاك إلىٰ أعلىٰ علِّيين) .

وكان يقول : (من دخل الدنيا ولم يصادق رجلاً كاملاً يُربِّيه خرجَ منها وهو متلوِّثٌ ، ولو كان علىٰ عبادة الثقلين) .

وكان يقول : (إنما كان العبدُ يدخلُه الوسواسُ في الصلاة ، ولا يدخلُهُ إذا سمع كلامَ عارفٍ ، وهو بين يديه ؛ لأن المصلِّيَ يُناجي ربَّه ، والمستمعَ للعارف يناجيه ربُّه) .

وكان يقول : (من أعظمِ منن الله تعالىٰ على العباد أن يُظهرَ بينهم عارفاً ، وإن لم يعرفوه ، ولم يروه) .

وكان يقول : (إذا عرفتَ الله فلا تظنَّ شرّاً ، فما هناك بعد معرفته شرٌّ) .

وكان يقول : (إنَّ الله تعالىٰ ليسترُ عن العارفين كثيراً من مقاماتهم وكراماتهم ، حتىٰ لا تخطرَ الدَّعوىٰ علىٰ بالهم) .

وكان يقول : (إنَّ الرجلَ العارفَ ليكونَ في سفينةٍ ، والأولياءُ حوله مشاةٌ على الماء ، يتلقُّون عنه ، ويأخذون منه ، وهو لو نزلَ معهم لغرقَ) .

وكان يقول : (كلُّ ما حجبَك عن اللهِ تعالىٰ فهو ذنبٌ) .

وكان يقول : (أعظمُ ما يتنعَّمُ أهلُ الجنة بالعلمُ الذي يُعطيه الله تعالىٰ لهم هناك) .

وكان يقول : (إذا دخلتَ حضرةَ « لا أين » ، فأين « الأين » انظر) .

وكان يقول : (الكاملُ من يسترُ باطنَه بظاهره) .

وكان يقول : (إذا نُفخ في الصور قال المريدُ الصادق : (سمعتُ هـٰذا منذ زمان) .

وكان يقول : (معاصي أهلِ السعادة كالأوهام ، ومعاصي أهلِ الشقاوة تحقيق) .

وكان يقول : (سماعُكَ من العارفِ كلمةَ أدبٍ في لحظةٍ أفضلُ من أدب أبيك لك ومعلِّمك في الأمر الظاهر عشرين سنة ؛ لأنَّ العارفَ يؤدِّبُ روحَك ، وغيرَهُ يؤدِّب نفسَك) .

وكان يقول : (إذا حضرَ أحدٌ من الأغيار مجلسَ العارف قيل له : أنفقِ الآن من خزانة فكرك ، واسترْ ما في خزانة قلبك حتىٰ يحضرَ أخصَّاءُ مجلسك ، وتحضر قلوبُهم معهم) .

وكان يقول : (من سقاكَ من جسدِك فقد ظلمك ، ومن سقاك من نفسِك فقد ظلمك ، ومن سقاكَ من عقلك فقد ظلمك ، ومن سقاك من شراب قلبك فقد أحياك) .

وكان يقول : (**العلومُ ثلاثةٌ** : علمٌ سلوكيٌّ ، فيجب إبداؤه ؛ وعلمٌ كشفي ، فقد لا يُباح إبداؤه ؛ وعلمٌ سرِّيٌّ ، فلا يُباح إظهاره قطُّ) .

وكان يقول : (الاطلاعُ علىٰ كُنْهِ صفة أفعال الحقِّ وأسرارِ تدبيره في مكوناته ، وربط الأسباب بعضها ببعض ، والإشراف علىٰ وجه الحِكَم المبثوثة فيها ، مع تحقيق العلم بها وبأوصافها ونسبها . . متعذِّرٌ علىٰ جنس البشر ، إلا من أُيِّدَ بنورٍ من الله تعالىٰ ، ولم تزلِ النفوسُ البشرية مستشرفةً لعلم ذلك ، فإذا لاحَ لها بحسبِ ما رُكِّبَ في طباعها أمورٌ ظنية ، أو خيالية ، أو وهمية ، أو تجريبية ، أو تقليدية . . سارعتْ إلى ادِّعاء علمِ ذلك ، وهو غلط) .

وكان يقول : (ما من عبدٍ يتوجَّه إلى الله تعالىٰ بعملٍ إلا ويُنادىٰ عليه : أين قلبُ هٰذا العبد ؟ أثبتوا ديوان عمله حيث كان قلبُهُ) .

وكان يقول : (لا عذابَ علىٰ أهلِ النار أعظمُ من عذابِ حرمان الجنة) .

وكان يقول : (أولُ ما يجيبُ العارف ـ إذا دُعي إلى الله تعالىٰ ـ من الإنسان روحُه ، فإذا سلمتْ من العوارضِ تبعت ، وإلا رجعت) .

وكان يقول : (شكلُ الآدميِّ ـ ما عدا أهلَ العصمة ـ شكل صنميٌّ ، فمن أقبلَ عليه عَبَدَهُ ، ومن أعرضَ عنه وَحدَ الله تعالىٰ) .

وكان يقول : (إذا كان انطوىٰ في ظلِّ موسىٰ عليه السلام سبعون رجلاً ، فسمعوا الكلام الرباني ، فكيفُ لا ينطوي في ظلِّ المحمدية سبع مئة ألف ، وأكثر ؟! مع أن بعضَ أولٰئك حرَّفوا ، وكلُّ هٰؤلاء عرفوا) .

وكان يقول : (ما أعزَّ طريقَ القوم ! وما أعزَّ من يطلبُها ! وما أعزَّ من يجدُها ! وما أعزَّ من ثبتَ عليها بعد وجودها !) .

وكان يقول : (إذا حضر المريدُ الصادقُ مجلسَ العارف سمعَ كلامه من جهاته الستِّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يزالُ الوجودُ يمحو ما في لوح قلبك ، والنورُ يكتب فيه) .

وكان يقول : (مرادُ العارف أن يُخْرِجَ المريدَ من الضِّيق إلى السعة في عالم الغيب ، وإن لم يشعرِ المريدُ بذلك) .

وكان يقول : (العارفون يتكلَّمون مع الخلق ، وهم بالحقِّ مع الحقِّ ، كما حُكي عن أبي القاسم الجُنيد رضي الله عنه أنه قال : (لي ثلاثون سنة أتكلَّمُ مع الله تعالىٰ ، والناسُ يظنُّون أني أتكلَّمُ معهم) .

وكان يقول : (إن لله عباداً لا يستطيعُ مريدٌ أن يدخلَ تحت حكمهم ؛ لِمَا هم عليه من الأعمال[١] ، ولو أنَّهم حطُّوا عليه عبئاً من أعبائهم لذابَ كما يذوب الرصاص) .

وكان يقول : (لا يُوزن عملُ عبدٍ إلا إذا تعرَّىٰ من أنوار التجلِّيات ، فإنْ لبسَ أنوارَ التجلِّيات لم يسع عملَه الميزان) .

وكان يقول : (من الرجال من يتمثَّلُ له المقام ، ومنهم من يُشاهد المقام ، ومنهم من يذوقُ المقام) .

وكان يقول : (من أنفقَ عليك من خزانة نفسه فلا تقبلْ منه شيئاً ، ومن أنفق عليك من خزانة عقلِهِ فاقبل ، أو اترك علىٰ حسب ما تلقحُ بنور الحكمة[٢] ، ومن أنفق عليك من خزانة قلبه فخذْ واستكثرْ ، ولا تردَّ من ذلك شيئاً ، ومن أنفق عليك من خزانة غيبه فذاك الكنزُ الأكبر الذي يُتنافس فيه المتنافسون) .

وكان رضي الله عنه يقول : (داعي الدنيا يدعوك من حيث تشتهي وتميل ، وداعي الآخرة يدعوك من حيث تَنفِرُ وتكرهُ ، وداعي الحقيقة يدعوك من حيث تفنىٰ ، ويذهبُ شاهدُكَ ، فلهـٰذا تستجيبُ النفسُ سريعاً للأول ، وتستصعبُ لاستجابة الثاني ، وتمتنعُ من الاستجابة للثالث ، إلا إن حفَّتِ العنايةُ) .

وكان يقول : (لو أنطقَ اللهُ لك صامتَ وجودك ، أو صامت الأكوان لقالوا لك مثل ما يقولُ العارفُ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ ليس قصدي أن أذهبَ إلى الله بصُحفٍ أكتبُها ، وإنما قصدي أن أذهبَ إليه بقلوبٍ أجذبها ، وأميلُها إلىٰ ما عنده ، وأحبِّبُه إليها) .

وكان يقول : (أعظمُ من الحجاب الحجابُ عن الحجاب) .

---

(١) في (أ ، ب ، د ، هـ ، و) : (الأحمال) بدل (الأعمال) .

(٢) في (و ، ز ، ح) : (تلمح) بدل (تلقح) ، وفي (أ ، ب) : (تلفح) .

وكان يقول : (لو صاح العارفُ ما وسعَ الكونَ صوتُهُ) .

وكان يقول : (إن الله قضىٰ ألا يوصل إلى العلم الحقيقي إلا من أخذ قلبه عن شهود الأكوان) .

وكان يقول : (لو ذكَّر كونٌ بكونه بالحقيقة لأحرقتْهُ أنوارُ التوحيد ، ولتلاشىٰ وجودُهُ حتىٰ لا وجودَ له) .

وكان يقول : (من تكلَّمَ على الغيب من حيث ما هو هو لم يصحَّ لأحدٍ أن يأخذ عنه إلا القويُّ من الرجال ، ومن تكلَّمَ على القلوبِ من حيث هي هي صحَّ عنه أخذُ المريدين ، وتدرب السالكين) .

وكان يقول : (كأن الحقَّ تعالىٰ يقول لعباده العارفين : بلِّغوا عني حجَّتي ، وأوضحوا لعبادي محجَّتي ، وأنا أكتبُ لكم ما لا تبلغونه بأعمالكم ، ولا بمحاسنِ أحوالكم) .

وكان يقول : (وجودُكَ هـٰذا البشري قذاة في عين بصيرتك ، فلو زالَ عن عين بشريَّتِك قذاها رأتْ ماءها ومرعاها ، وأبصرتْ رشدَها وهداها) .

وكان يقول : (أهلُ كل زمان يُجعجعون بأصوات مختلفة[1] ، والمحقُّ الصادقُ الواصل منهم قليل) .

وكان يقول : (حقيقةُ الطريق أن تكونَ مُفلساً ، وأن تكون طالباً للأعلىٰ أبداً ، ومتىٰ ظننتَ أنَّك وصلتَ فما وصلتَ ، ومتىٰ ظننتَ أنَّك ظفرتَ فما ظفرتَ ، ومتىٰ ظننتَ أنَّك حصلتْ لك حالٌ فلا حال لك) .

وكان يقول : (العارفُ يتلوَّنُ في اليوم مئةَ مرة ، والعابدُ يُقيمُ علىٰ حالةٍ واحدة كذا كذا سنة ؛ وذلك لأن العارفَ مائلٌ إلىٰ دائرة التصريف ، والعابدُ مائلٌ إلىٰ دائرة التكليف) .

وكان يقول : (علامةُ الفتح : أن ترى الناسَ كلَّهم نياماً) .

وكان يقول : (لمَّا صاحَ العارفون في الدنيا صاحتْ لهم الحقائقُ في الملأ

---

(١) في نسخة من نسخ الاستئناس : (يحتجون) بدل (يجعجعون) .

الأعلىٰ ، فلو أنَّهم سكتوا لم تسكت حقائقُهم) .

وكان يقول : (كلُّ كونٍ في الجنة فهو غيبٌ من غيوب الله عز وجل) .

وكان يقول : (أولُ هـٰذا ٱلأمر سماعٌ وتصديق ، ثم فهمٌ وتدقيق ، ثم شهودٌ وتحقيق) .

وكان رضي الله عنه يقول في قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : (طوبىٰ لمن رآني ، أو رأىٰ من رآني ، أو رأىٰ من رأىٰ من رآني) : (الرائي علىٰ ثلاثة أقسام : راءٍ محجوبٌ ، وراءٍ نافذٌ ، وراءٍ وارثٌ ؛ فالرائي المحجوب لا عبرةَ به ، والرائي النافذ هو المقصود ، والرائي الوارث يقولُ مثل قوله) .

وكان يقول : (كلُّ كونٍ يسبِّحُ يقول في تسبيحه : أُنزِّهُ خالقي عن إدراكي له) .

وكان يقول : (إذا نُودي عليك في السماء ليعرفك أهل السماء فماذا عليك أن يُناديٰ في الأرض أن يعرفوك ، فكلُّ من جهلك فقد فاتَهُ حظُّه منك ، فأضرَّ بنفسه لا بك) .

وكان يقول : (لو دخلَ الخاصُّ طريقَ العام احترقَ ، إلا أن يقعَ التنزُّلُ بأمرٍ من الله عز وجل) .

وكان يقول : (من عبَّرَ عن التصوف فليس بصوفي ، ومن شهدَ التصوفَ فليس بصوفي ، إنما التصوف أن يغيبَ العبدُ عن التصوف) .

وكان يقـول لأصحابه : (من يُبشِّرني بحضورِ قلبه أبشِّره بالوصول إلىٰ أمرٍ عظيم).

وكان يقول : (من الكلمِ كلمةٌ تحتها ألفُ كلمة ، وإنَّ من الكلم كلمةً تحتها مئة ألف كلمة ، وإنَّ من الكلم كلمةً تحتها بحارٌ لا يُحاط بقطراتها ، ولا يُدركُ عظيم غاياتها) .

وكان يقول: (قلبُ كلِّ مؤمنٍ ليلةُ قدرِ جسده ، وليلةُ قدر كلِّ سنةٍ قلبُ عامها).

وكان يقول : (المريدون علىٰ قسمين : (مريدٌ يعرضُ ما يردُ عليه من مربِّيه علىٰ عقله قبل أن يصلَ إلىٰ قلبه ، ومريدٌ لا يعرضُ ذلك علىٰ عقله ، بل يصلُ إلىٰ قلبه ببادئ

الرأي ، وهٰذا أقربُ إلى النفع ، وفي كلٍّ خيرٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا اعترضتِ النفوسُ للسالكين أوقفتهم عن مزيدِ الأذكار ، وتحصيل الطاعات ، وإذا اعترضتْ للعارفين حجبتْهم عن لذيذِ المشاهدات ، والارتقاء إلىٰ عليِّ الدرجات ، فالنفسُ مانعةٌ للفريقين عن السير) .

وكان يقول : (أُلجمت النفوسُ في مفتاح التوحيد بلجام (لا) حتىٰ ترجعَ عن جميع دعاويها) .

وكان يقول : (الكأسُ العليا هي التي لا يَشربُها صاحبُها وحده) .

وليكن ذلك آخر ما التقطناه من كلامه ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٢٩٤) العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن عبد الجبار النِّفَّري رضي الله عنه[١]

كان من أهلِ القرن الرابع رضي الله عنه[٢] ، ولٰكن هٰكذا وقع لنا ذكره ، وإنْ كنَّا لم نلتزم ذكرهم علىٰ ترتيبِ الزمان .

وكان له رضي الله عنه كلامٌ عالٍ في طريق القوم .

وهو صاحب « المواقف »[٣] ، نقل عنه الشيخُ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه وغيره .

وكان إماماً بارعاً في كل العلوم .

ومن كلامه رضي الله عنه في « المواقف » : (يقول الله عز وجل : كيف لا تحزنُ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٢/ ١٥٢) ، و« تاج العروس » (ن ف ر) ، و« مجلة مجمع اللغة العربية » بدمشق (١٣/ ٣١٣) ، **والنفري** : نسبة إلىٰ نِفَّر ؛ بلدة بين الكوفة والبصرة .

(٢) توفي سنة (٣٥٤هـ) .

(٣) ويتألف الكتاب من (٧٧) موقفاً أو باباً ، ومن أبواب الكتاب (موقف الأدب ، موقف التقرير ، . . .) ، وكل باب يبدؤه بقوله : (أوقفني في) .

قلوبُ العارفين وهي تراني أَنظرُ إلى العمل ، فأقول لسيِّئه : كن صورةً تلقىٰ بها عاملك ، وأقول لحسنه : كن صورةً تلقىٰ بها عاملك ؟!) .

وكان يقول : (قلوبُ العارفين تخرجُ إلى العلوم بسطواتِ الإدراك ، وذلك كفرُها ، وهو الذي يَنهاها اللهُ عنه) .

وكان يقول : (كان الحق تعالىٰ يقول : إذا تعلَّقَ العارفُ بالمعرفة ، وادَّعىٰ أنه تعلَّقَ بي هرب من المعرفة كما هربَ من النكرة) .

وكان يقول : (كان الحقُّ تعالىٰ يقول لقلوب العارفين : أنصتوا ، واصمتوا ، لا لتُعرفوا ، وإن ادَّعيتُمُ الوصولَ إليَّ فأنتم في حجابٍ بدعواكم ، ووزنُ معرفتكم كوزنِ ندمكم ، فإن عيونَكم ترى المواقيت ، وقلوبَكم ترى الأبد ، فإنْ لم تستطيعوا أن تكونوا من وراء الأقدار فكونوا من وراء الأفكار) .

وكان يقول : (التقطوا الحكمةَ من أفواه الغافلين عنها كما تلتقطونَها من أفواه العامدين لها ؛ فإنكم ترون اللهَ وحدَه في حكمةِ الغافلين لا في حكمة العامدين) .

وكان يقول : (حقُّ المعرفة أن تشهدَ العرشَ وحملتَه ، وما حواه من كلِّ ذي معرفة يقول بحقائق إيمانه : ليس كمثل الله شيء ، وهو ـ أي : العرش ـ في حجابٍ عن ربِّه ، فلو رفعَ حجابَه لاحترقَ العالمُ بأسره في لمح البصر أو أقرب) .

وكان يقول : (لا تفارقْ مقامك يميدُ بك كلُّ شيءٍ ، وليس مقامُك إلا رؤيتَهُ تعالىٰ ، فإذا دمتَ علىٰ رؤيتِهِ رأيتَ الأبدَ بلا عبارةٍ ؛ إذِ الأبدُ لا عبارةَ فيه ؛ لأنه وصفٌ من أوصاف الله عز وجل ، لـٰكنْ لما سبَّحَ الأبدُ خَلَقَ الله من تسبيحه الليلَ والنهارَ) .

وكان يقول : (إذا اصطفيت أخاً فكنْ معه فيما أظهرَ ، ولا تكنْ معه فيما أسرَّ ؛ فإنَّ ذلك له من دونك سرٌّ ، فإنْ أشار إليه فأَشرْ إليه ، وإن أفصح به فأفصح عنه) .

وكان يقول : (كان الحقُّ تعالىٰ يقول : اسمي وأسمائي عندك ودائعي ، لا تُخرجْها فأخرجَ من قلبك ، وإذا خرجتُ من قلبك عَبَدَ ذلك القلبُ غيري ، وأنكرني بعد المعرفة ، وجحدني بعد الإقرار ، فلا تُخبر باسمي ، ولا بمعلوم اسمي ، ولا بحديث من يعلمُ اسمي ، ولا بأنَّك تعرفُ ، ولا رأيت من يعرف اسمي ، وإنْ

حدَّثَكَ محدِّثٌ عن اسمي فاسمع منه ، ولا تُخبره أنت) .

وكان رضي الله عنه يقول : (علامةُ الذنبِ الذي يُغضبُ اللهَ عز وجل : أن يعقبَ صاحبه الرغبة في الدنيا ، ومن رغبَ فيها فقد فتحَ باباً إلى الكفر بالله عز وجل ؛ لأن المعاصي بريدُ الكفر ، وكلُّ من دخلَ ذلك البابَ أخذَ من الكفرِ بقدرِ ما دخلَ ، والله تعالىٰ أعلم) .

وقد ذكرنا جملةً صالحةً من كلامه في « مختصر المواقف » ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٢٩٥) الشيخ أبو الفتح الواسطي رضي الله عنه[1]

شيخُ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة .

وكان من أصحاب سيدي أحمد بنِ الرِّفاعي ، فأشار إليه بالسفر إلىٰ مدينة الإسكندرية ، فسافر إليها .

وأخذ عنه خلائق لا يحصون ؛ منهم : الشيخ عبد السلام القليبي ، والشيخ عبد الله البِلتاجي ، والشيخ بهرام الدَّميري ، والشيخ جامع الفضلين الدنوشري ، والشيخ علي المليجي ، والشيخ جمال الدين النجاري ، والشيخ عبد الوهاب بن خلف ، والشيخ عبد العزيز الديريني ، وأضرابُهم .

وكان مبتلئ بالإنكار عليه ، وعقدوا له المجالس بالإسكندرية ، وهو يقطعُهم بالحجج .

وكان خطيبُ جامع العطَّارين من أشدِّهم عليه ، فبينما هو يوماً فوق المنبر ، والأذانُ بين يديه تذكَّر أنه جُنبٌ ، فمدَّ له الشيخُ أبو الفتح كمَّهُ ، فوجده زقاقاً ، فدخله ، فرأىٰ فيه ماءً ومطهرةً ، فاغتسلَ ، وخرجَ ، فجلسَ على المنبر ، فلما ستره الشيخ هٰذه السترةَ اعتقدَهُ ، وصارَ من أجلِّ أصحابه رضي الله عنه .

مات في نحو الثمانين والخمس مئة ، ودفن بالإسكندرية ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٤٨٩) ، و« طبقات المناوي » (١٦٦/٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤٢٦/٣) (٢٩١) .

ومنهم :

(٢٩٦) الشيخ علي المَلِيجي رضي الله عنه[١]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ أبي الفتح المذكور آنفاً .

كان رضي الله عنه معاصراً لسيدي أحمد البدوي رضي الله عنه .

وكان سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه إذا أرسلَ سيدي عبد العال له في حاجةٍ يقول له : إذا وصلتَ إلىٰ جمزور فاخلعْ نعلك[٢] ؛ فإنَّ هناك خيامَ المليجي .

وكان عند سيدي أحمد رجلٌ بنَّاءٌ يبني عنده ، فطلبَهُ سيدي علي ، ورغَّبه بزيادة أجرِهِ ، فخرجَ إلىٰ ناحية مليج ، فلما دخلها وقعتْ يدُ البناء ، فأخذها سيدي عليٌّ ، وبصق عليها ولصقها ، فالتصقت ، وأرسل يقول لسيدي أحمد : أنت تقطعُ ونحن نُوصل ، يُباسطه في الكلام ، رضي الله عنه .

ومولده كلَّ سنةٍ يُعمل قبل مولد سيدي أحمد بجمعة ، ويحصلُ فيه جمعيةٌ كبيرة ، وتنفيقُ سلعِ الناس ، ومددٌ كبير ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٢٩٧) سيدي عبد العزيز الدِّيريني رضي الله عنه[٣]

هو الشيخ العابد الزاهد القدوةُ ، ذو الأحوال الفاخرة ، والأحوال الشريفة ، والكرامات المشهورة ، والمصنَّفات الكثيرة في التفسير ، والفقه ، واللغة ، والتصوف ، وغير ذلك ، وله نظمٌ كثير شائع .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٢/ ٤٦٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٧٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٢٧) (٢٩٢) .

(٢) **جمزور** : من القرى القديمة ، تابعة لمركز تلا ، من أعمال الغربية ، واسمها الأصلي ظمظور ، حُرِّف إلىٰ جمزور ، ثم إلىٰ جنزور ، وهو اسمها الحالي . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٧٤) .

(٣) انظر « طبقات السبكي » (٨/ ١٩٩) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/ ٤٦٨) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٤٧) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٤٤) ، و« هدية العارفين » (١/ ٥٨٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣١) (٢٩٥) ، **والدِّيريني** : نسبة إلىٰ ديرين : بلدةٌ من الغربية ، من الوجه البحري بمصر .

صحبه جماعةٌ كثيرة من العلماء ، وانتفعوا بصحبته .

وكان مقامُه ببلادِ الريف من أرض مصر ، وكان الناسُ يقصدونه للتبرُّك من سائر الأقطار ، ويُرسلون له من مصر مُشكلاتِ المسائل ، فيجيبُ عنها بأحسن جواب .

وكان يزورُ سيدي علياً المليجي كثيراً ، فذبح له سيدي عليٌّ يوماً فرخاً ، فأكله ، فقال لسيدي عليٍّ : لا بدَّ أن أُكافئك ، فاستضافه يوماً ، فذبح لسيدي عليٍّ فرخة ، فتشوَّشَتْ امرأتُهُ عليها ، فلما حضرتْ قال لها سيدي علي : هش ، فقامتِ الفرخةُ تجري ، وقال : يكفينا المرقُ ، لا تتشوَّشي .

وطلب جماعةٌ من الفقراء كرامةً من سيدي عبد العزيز ، فقال : يا أولادي ، وهل ثَمَّ كرامةٌ أعظمُ من أنَّ الله تعالىٰ يمسكُ بنا الأرض ، ولم يخسفْها ، وقد استحقَّينا الخسف .

مات رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وست مئة[1] ، وقبره بدِيرين ظاهر يُزار إلىٰ عصرنا هـٰذا ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٨) الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي المرسي رضي الله عنه[2]

الإمامُ القدوة الرباني رضي الله عنه .

قدم مصر ، وله زاويةٌ بخطِّ جامع المقسم .

---

(١) هناك اختلاف في تاريخ وفاته ؛ منهم من قال : سنة (٦٩٤هـ) ، ومنهم : سنة (٦٨٩هـ) ، ومنهم : سنة (٦٩٠هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السيارة » (ص ٣١٩) (عبد الله بن أسعد بن أبي جمرة) ، و« تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » (١/٤٥٧) ، و« حسن المحاضرة » (١/٤٩٤) (أبو محمد بن أبي جمرة) ، و« تاج العروس » (ج م ر) ، و« طبقات المناوي » (٤/٣٩٩) ، و« نيل الابتهاج » (ص ١٤٠) ، و« الأعلام » (٤/٨٩) (عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/٤٣٢) (٢٩٦) .

وكان ذا تمسُّكٍ بآثار النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتألُّهٍ ، وجمعية على العبادة ، وشهرة كبيرة بالإخلاص ، والاستعداد للموت ، والفرارِ من الناس ، والاجتماع عنهم إلا في الجمع .

وابتُلي بالإنكار عليه حين قال : إنه يرىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقظةً ، ومشافهةً ، وقام عليه بعضُ الناس ، فانقطعَ في بيته إلىٰ أن مات سنة خمسٍ وسبعين وست مئة ، ودفن بالقرافة فوق السادات .

واختصر « البخاري » رحمه الله تعالى .

قلت : ولهم ابنُ أبي جمرة آخرُ اسمه أحمد ، حفظ « المدونة » علىٰ مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

ومات سنةَ تسعٍ وتسعين وخمس مئة بمرسية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٢٩٩) الشيخ عبد الله بن محمد العرشي المرجاني رضي الله عنه(١)

هو الإمامُ القدوة الواعظ ، المفسِّر ، أحدُ الأعلام في الفقه ، والتصوف .

قدم مصر ، ووعظَ بها ، واشتَهر في البلاد .

ومات رضي الله عنه بتونس سنة تسعٍ وتسعين وست مئة .

وامتُحن ، وأفتى العلماء بتكفيره ، ولم يؤثِّروا فيه ، فعملوا عليه الحيلةَ ، وقتلوه ، رضي الله عنه ورحمه .

---

(١) انظر « العبر » (٥/ ٤٠٨) ، و« مرآة الجنان » (٤/ ٢٣٢) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٤١) (القرشي) ، و« شذرات الذهب » (٧/ ٧٨٧) ، و« نفحات الأنس » (ص ٧٦٥) ، وفيه بدل (العرشي) : (المغربي) .

ومنهم :

(٣٠٠) الشيخ عبد الحق بن سَبْعين المرسي رضي الله عنه[١]

قطبُ الدين ، كان من المشايخ الأكابر .

مات بمكة سنة سبعٍ وستين وست مئة عن خمسٍ وخمسين سنة .

ومنهم :

(٣٠١) الشيخ محمد القونوي الصوفي رضي الله عنه[٢]

صاحبُ ابن العربي ، له تفسيرُ الفاتحة في مجلد ، وله مؤلفاتٌ أخر .

عاش نيِّفاً وستين سنة ، **ومات سنة اثنتين وسبعين وست مئة بقونية**[٣] .

وأوصىٰ أن يُنقل تابوتُه إلىٰ دمشق ، يُدفن عند الشيخ محيي الدين بن العربي شيخه ، فلم يتفق .

وكان مبتلىً بالإنكار عليه إلىٰ أن مات رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٠٢) الشيخ محمد العبدري الفاسي ثم المصري المالكي المعروف بابن الحاج رضي الله عنه[٤]

كان رضي الله عنه عالماً صالحاً يُقتدىٰ به .

---

(١) انظر « ذيل مرآة الزمان » (٢/ ٤٦٠) ، و« فوات الوفيات » (٢/ ٢٥٣) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/ ٦٠) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٤٠) ، وسُمِّي ابن سبعين ؛ لأنه كان يكتب عن نفسه ابن (٥) يعني : الدارة ، التي هي كالصفر ، وهي في طرق بعض المغاربة في حسابهم سبعون ، وشهر لذلك بابن دارة . « نفخ الطيب » (٢/ ١٩٦) .

(٢) انظر « طبقات السبكي » (٨/ ٤٥) ، و« الوافي بالوفيات » (٢/ ٢٠٠) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٥٥٢) .

(٣) **قونية** : من أعظم المدن التركية ، وفيها مَعْلَم مهم ، وهو ضريح جلال الدين الرومي .

(٤) هو محمد بن محمد ، وانظر ترجمته في « الدرر الكامنة » (٤/ ٢٣٧) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٧٠) ، و« حسن المحاضرة » (١/ ٤٢٩) ، و« الديباج » (ص ٥٦٩) ، و« الأعلام »=

وهو أحدُ أصحاب عبد الله بن أبي جمرة السابق آنفاً[١] .

وهو صاحب كتاب « المدخل » في الحوادث والبدع[٢] .

عاش بضعاً وثمانين سنة ، **ومات سنة سبعٍ وثلاثين وسبع مئة ، رضي الله عنه ورحمه** .

ومنهم :

(٣٠٣) الشيخ إبراهيم الجَعْبري ابن مِعْضاد بن شدَّاد رضي الله عنه[٣]

الزاهدُ العابد ، ذو الأحوال الغريبة ، والمكاشفات العجيبة .

وكان مجلسُ وعظه يُطربُ السامعين ، ويستجلبُ العاصين .

أخبر بموته قبلَ وفاته ، ونظرَ إلىٰ موضعِ قبره ، وقال : يا قُبير جاءك دُبير .

وكان يُضحك أهلَ مجلسه إذا شاء في حال بكائهم ، ويُبكيهم إذا شاء في وسط ضحكهم .

وكان يعظُ وهو يَتمشىٰ بين أهلِ مجلسه يسدي ، وينير .

وكان له مريدةٌ تسمع وعظه وهو بمصر ، وهي بأرض أسوان من أقصى الصعيد ، فبينما هو يعظُ الناسَ وهم يبكون أنشد :

= (٧/ ٣٥) ، و« معجم المؤلفين » (٣/ ٦٨٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٢) (٢٩٧) .

(١) تقدم برقم (٢٩٨) ، وفي النسخ : (أبي عبد الله) بدل (عبد الله) .

(٢) **واسمه** : « مدخل الشرع الشريف » على المذاهب الأربعة ، قال ابن حجر : (هو كثير الفوائد ، كشف فيه عن معائبَ وبدعٍ يفعلها الناس ، ويتساهلون فيها ، وأكثرها مما يُنكر ، وبعضها مما يُحتمل) ، وانظر « كشفَ الظنون » (٢/ ١٦٤٣) .

(٣) انظر « العبر » (٣/ ٣٦٤) ، و« فوات الوفيات » (١/ ٤٩) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ١٢٣) ، و« الوافي بالوفيات » (٦/ ١٤٧) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤١٣) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٣٣١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٣) (٢٩٩) ، **والجعبري** : نسبة إلىٰ جعبر : (بلدة على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين) . « معجم البلدان » (٢/ ١٤٢) .

قــاعــدةٌ فــي الطــاقــة والكلبُ يـأكـلُ فـي العجيـن
يــا كلــبُ كُــلْ واتهنَّــا مــا للعجيــنِ أصحــاب

فالتفتتِ المُريدةُ فإذا الكلبُ يأكلُ في عجينها ، فأرَّخوا الحكايةَ ، فجاءَ الخبرُ بذلك .

وكان من أصحابه الشيخُ كمالُ الدين بنُ عبد الظاهر ، وقبرُه بالصعيد يُزار .

وكان يوماً يعظُ والناسُ يَبكون ، فقال لهم : قولوا معي :

شقــــــع بقــــــع بــــــالله يقــــــع

فجاء الخبر أن القاضي المالكيَّ نزل من باب الدرج من قلعة مصر ، فوقع ، فانكسرتْ رقبتُهُ ، فجاء الخبرُ أنهم عقدوا للشيخِ عقد مجلسٍ في منعه من الوعظ ، وقالوا : إنَّه يلحنُ في القرآن وفي الحديث ، فامتنعَ القضاةُ الثلاثة ، وأفتى المالكيُّ بمنعه ، فجاء القضاةُ الثلاثة وقبَّلوا رجلَ الشيخ ، وقالوا : كلُّنا كنَّا هالكين لو أفتينا فيك بشيءٍ ، فقال الشيخ : نحن لا نلحنُ ، إنَّما سمعُكم هو الذي يلحنُ ، ويسمعُ الزورَ والباطل .

وكان يكاتب السُّلطان : من إبراهيم الجَعْبري إلى الكلب الزوبري ، فكان السُّلطان يقول : من أطلعَ هـٰذا على اسمي في بلادي ، إنه واللهِ اسمي في بلادِنا قبل أن أجيء ، فعقد العلماءُ له مجلساً ، وأفتوا بتعزير الشيخ ، فحَبَسَ الشيخُ بولَهم ، وبولَ السُّلطان ، فعجزوا عن إطلاقه بكلِّ حيلةٍ ، فنزلوا إليه ، واستغفروا ، فأمرهم بالاستنجاءِ من إبريقه ، فأُطلقَ بولُهم .

وشوَّشَ نصرانيُّ الطور علىٰ جماعةٍ من أصحابه ، فأرسل إليه وقال : أُقسمُ بالله إن عُدتَ إلىٰ أذاهم لأَقُطَنَّ هـٰذا القلم ، فقال النصرانيُّ بقلبه : وما تقطُّه ؟! فَقَطَّ القلمَ ، فسقطتْ رأسُ النصراني[1] .

وكان رضي الله عنه ناراً موقدةً على الظلمة والولاة ، أمَّاراً بالمعروف ، وله نظم وسجعٌ كثير ، وتصوف ، وشطح .

---

(١) **القَطُّ** : هو القطع عرضاً ، وقطُّ القلم : قطعُ رأسه عرضاً في بَرْيِهِ .

مات في المحرم سنة سبعٍ وثمانين وست مئة ، ودفن بزاويتِهِ خارجَ باب النصر ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه آمين .

ومنهم :

(٣٠٤) الشيخ عبد الله المنوفي المالكي رضي الله عنه[1]

العابد الصالحُ ، الزاهد الأوحد ، ذو الكرامات الكثيرة ، والتلامذة الأئمة .

مات سابع رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وسبع مئة ، ودفن تجاه قبةِ السُّلطان قايتباي الآن بالصحراء ، وكان الناس في ذلك النهار بالصحراء للدُّعاء برفع الوباء عنهم ، فحضر جنازتَه نحوٌ من ثلاثين ألف رجل .

وقد أفرده بالترجمة تلميذه الشيخ خليل رضي الله عنه[2] .

ومنهم :

(٣٠٥) الشيخ حسين الجاكي رضي الله عنه[3]

إمامُ جامع الجاكي وخطيبُهُ .

وكان واعظاً صالحاً يذكِّر الناسَ ، وينتفعُ الناس بكلامهِ .

وعقدوا له مجلساً عند السلطان ليمنعوه من الوعظ ، وقالوا : إنه يلحنُ ، فرسم السلطانُ بمنعه ، فشكا ذلك لشيخه الشيخ أيوب الكنَّاس ، فبينما السُّلطانُ في بيتِ الخلاء إذ خرجَ له الشيخُ أيوب من الحائط ، والمكنسةُ علىٰ كتفه في صورة أسدٍ عظيم ، وفتح فمَه يُريد أن يبلعَ السلطان ، فارتعدَ السلطانُ ، ووقع مغشيّاً عليه ، فلما

---

(١) انظر « الوافي بالوفيات » (١٧/ ٧٠٠) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٥٥٤) ، و« الدرر الكامنة » (٢/ ٣١٢) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٤١) (٣٠٧) ، واسمه : عبد الله بن محمد بن سلمان .

(٢) خليل بن إسحاق المالكي ، المعروف بالجندي صاحب « مختصر المالكية » .

(٣) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٥١) ، و« خطط المقريزي » (٤/ ٣٠٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٥) (٣٠٠) .

أفاقَ قال له : أرسلْ للشيخ حسين يعظْ وإلا أهلكتُكَ ، ثم دخل من الحائط ، فنزلَ السُّلطان إلى الشيخ حسين ، وأرادَ الاجتماعَ بالشيخ أيوب ، فلم يأذن له .

مات الشيخ حسين سنة سبعٍ وثلاثين وسبع مئة[١] ، ودفن خارجَ باب النصر ، في زاويةِ شيخه أيوب ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار كلَّ ليلةِ أربعاء وصبيحتها ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٠٦) الشيخ خضر الكردي رضي الله عنه[٢]

شيخُ الملك الظاهر بيبرس أبي الفتوحات رحمه الله .

كان بذَّالاً للأموال كثيرَ التصريفِ والكشف والهمة والمدد .

وكان السُّلطان ينزلُ كثيراً لزيارته ، ويُحادثُهُ بأسراره ، ويستصحبُهُ في أسفاره ، فرمىٰ أولادُ الحلال بينه وبينه ، فنقم عليه ، وحبَسه ، فطلع للسلطان جمرةٌ رعت ظهره ، فأرسل يتعطَّفُ بالشيخ ، وأطلقه ، فقال : أجلي قريبٌ من أَجَلِ السُّلطان ، **فماتا قريباً من بعضهما ، والشيخ خضرٌ قبله بأيامٍ في سنة خمسٍ وسبعين وست مئة** .

وكان حبسَ الشيخَ أربع سنين ، ومع ذلك كان يُرسلُ له الأطعمةَ الفاخرة إلى الحبس .

وكان يقول : (إذا عزمَ أحدُكم علىٰ مخاصمة أحدٍ فلا يعبئ له كلاماً ؛ فإنَّ كلَّ كلام معبئ مفسودٌ) .

دفن رضي الله عنه بزاويته تجاه جامع الملك الظاهر على الخليج الحاكمي بمصر ، وقبرُهُ ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

---

(١) في « طبقات الأولياء » (ص ٥٥١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٤) : (سنة تسع وثلاثين) .

(٢) انظر « ذيل مرآة الزمان » (٣/ ٢٦٤) ، و« فوات الوفيات » (١/ ٤٠٤) ، و« الوافي بالوفيات » (١٣/ ٣٣٣) ، و« البداية والنهاية » (١٥/ ٤٥٩) ، و« المنهل الصافي » (٥/ ٢١٨) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٦) (٣٠١) .

ومنهم :

(٣٠٧) الشيخ شرف الدين الكردي رضي الله عنه[١]

المدفونُ بظاهر القاهرة بالحُسينية ، له مقامٌ عظيم ، وكراماتٌ كثيرة ، وله وقتٌ كلَّ ليلة أربعاء ، وهو أخو الشيخ خضرٍ في الطريق .

وكان من أصحاب سيدي الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر السابق ترجمته[٢] ، ومناقبهما مشهورة .

ماتا سنة سبعٍ وستين وست مئة[٣] رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٣٠٨) الشيخ محمد بن هارون رضي الله عنه[٤]

من أهل مدينة سَنهور بالبحر الغربي[٥] .

وهو الذي كان يقومُ لوالد سيدي إبراهيم الدُّسوقي إذا مرَّ عليه ، ويقول : في ظهرِهِ وليٌّ يبلغ صيتُه المشرق والمغرب .

وكان سببُ خراب بلده سَنْهور المدينة : أنه كُشفَ له عن صاعقةٍ تنزل عليها من السماء تحرقُها بأهلها ، فأمرَ بذبح ثلاثين بقرة وطبخِها ، ومدِّها في زاويته ، وقال للنقباء : لا تمنعوا أحداً يأكلُ أو يحمل ، فأكلَ الناسُ ، وحملوا جهدَهم ، فجاء فقيرٌ مكشوفُ العورة ، أشعثُ أغبر ، فقال : أطعموني ، فأطعموه حتىٰ عَجزوا ، فلم يقدروا عليه يشبع ، فدفعوه وأخرجوه ، فنزلتِ الصاعقةُ على البلدِ ، فخرج الشيخُ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٣٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٧) (٣٠٢) .

(٢) تقدمت ترجمته (١/ ٥٥٠) ، وستأتي (٣/ ٤٢١) .

(٣) قال المناوي في طبقاته : (مات بعد السبع مئة) .

(٤) انظر « طبقات المناوي » (٢/ ٢٨٠ ، ٥٤٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٢٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٣٨) (٣٠٥) .

(٥) سَنْهور : بليدة بين الإسكندرية ودمياط .

بأهله ومن تبعه ، وهلكَ الناسُ في أسواقهم وبيوتهم أجمعين .

فقال الشيخُ للنقيب : يا ولدي ؛ ما هـٰذا الذي فعلتَهُ ؟! شخصٌ يُريد أن يتحمَّلَ البلاءَ عن بلدنا بأكلةٍ تمنعه ؟! فهي خراب إلى الآن ، وعَمَروا خلافَها ، وكانت مدينةً عظيمة ، رأوا أسواقها مرصصة فوق الظهور بالحرير بدلَ الحصر والأنخاخ[١] .

وحكىٰ لي شيخُنا سيدي عليٌّ الخوَّاصُ رضي الله عنه : أن سيدي محمد بنَ هارون سلبَهُ حالَهُ مرَّةً صبيُّ القرَّاد ، وذلك أنه كان إذا خرجَ من صلاة الجمعة تبعَهُ أهلُ المدينة يُشيِّعونه إلىٰ داره ، فمرَّ بصبيِّ القرَّاد وهو جالسٌ تحت حائطه يفلي خلقتَه من القمل ، وهو مادٌّ رجليه ، فخطر في سرِّ الشيخِ أنَّ هـٰذا قليلُ الأدب ، يمدُّ رجليه ومثلي مارٌّ عليه ، فسُلبَ لوقته ، وفرَّتِ الناسُ عنه ، فرجع ، فلم يجدِ الصبيَّ ، فدار عليه في البلاد إلىٰ أن وجدَهُ في رُمَيْلَةَ مصر ، فلما نظرَ القرَّادُ الكبير إليه وهو واقفٌ في الحلقة قال لصبيِّه : قم وجهك ، هـٰذا غريمك واقفٌ ، فلما فرغوا قال له المعلم : تعالَ يا سيدي ، الشيخُ مثلُك يخطرُ في خاطره أنَّ له مقاماً أو قدراً ؟! هـٰذا الصبيُّ سلبك حالَكَ ، فله أن يمدَّ رجله بحضرتك ؛ لكونه أقربَ إلى الله منك ، فقال : التوبةَ .

فأرسله إلىٰ سَنْهور المدينة ، إلى الحائط التي كان يفلي ثوبَهُ عندها ، وقال له : نادِ السحليةَ التي هناك في الشقِّ ، وقلْ لها : إنَّ قريمزان طابَ خاطرُهُ عليَّ ، فردِّي عليَّ حالي ، فخرجتْ ونفختْ في وجهه ، فردَّ الله عليه حاله ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٠٩) الشيخ يحيى الصنافيري رضي الله عنه[٢]

صاحبُ المكاشفات الجمَّة .

كان عالماً صالحاً تقصدُهُ الناسُ بالزيارات من سائر الأقطار .

---

(١) **الأنخاخ** : حصير من قشٍّ .

(٢) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٧٢) ، و« الدرر الكامنة » (٤/ ٤٣١) ، و« النجوم الزاهرة » (١١/ ١١٨) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٠٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٥٤) (٣٠٨) ، **والصنافيري** : نسبة إلىٰ صَنافر ، بصاد مهملة مفتوحة ، وفاء مكسورة : قرية من أعمال القيلوبية .

مات سنة اثنتين وسبعين وسبع مئة ، ودُفن بتربة الشيخ أبي العباس البصير بالقَرَافة ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

ولما جاء سيدي يوسفُ العجمي رضي الله عنه من بلادِ العجم إلىٰ مصر . . استأذنَ الشيخ يحيىٰ في الدخول ، فأذنَ له ، وكان لا يدخلُ أحدٌ من الأولياء إلى مصرَ إلا بإذنه ، وأنشده سيدي يحيىٰ رضي الله عنه : [من الوافر]

أَلَـمْ تَعْلَـمْ بـأنـي صيـرفـيٌّ ... أَحُـكُّ الأوليـاءَ علـىٰ محَكِّـي

فـمنهـمْ بَهْـرَجٌ لا خيـرَ فيـهِ ... ومنهـمْ مَـنْ أجـوِّزُه بشكِّـي

وأنتَ الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّىٰ ... بتـزكيتـي ، ومثلـي مَـنْ يُـزكِّـي

رضي الله تبارك وتعالى عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣١٠) الشيخ أبو العباس البصير رضي الله عنه[1]

كان من أصحابِ الكشف التامِّ ، والقبولِ العام .

وكان من معاصري الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر .

وكان سيدي أبو السعود في زاويته بباب القَنطرة يُراسله بالأوراق أيامَ النيل في الخليج الحاكمي إلىٰ باب الخرق بزاوية الشيخ أبي العباس ، فكانت ورقةُ سيدي أبي السعود تقلع ، وورقة سيدي أبي العباس تحدر إلىٰ أن ترسي علىٰ سلَّم البحر ، ولا تبتل ، رضي الله عنهما .

قال سيدي حاتم : خدمتُ سيدي الشيخ أبا السعود عشرين سنة وأنا أسألهُ أن يأخذَ عليَّ العهدَ ، فيقول : لستَ من أولادي ، إنما أنت من أولاد أخي أبي العباس البصير ، وسيأتي من أرضِ المغرب ، فلما قدمَ إلىٰ مصر أرسل سيدي أبو السعود إلىٰ سيدي حاتم ، وقال له : شيخُك قدمَ الليلة ، فاذهب لملاقاته في بولاق ، فأوَّلُ من اجتمعَ به من أهلِ مصر سيدي حاتم ، فلما وضعَ يده في يده قال : أهلاً بولدي حاتم ، جزى الله أخي أبا السعود خيراً في حفظه لك حتىٰ قدمنا .

---

(١) انظر « الكواكب السيارة » (ص ٣١٣) ، و« حسن المحاضرة » (١/٥١٧) ، و« طبقات المناوي » (٢/٣٣٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/٤٤٠) (٣٠٦) .

وحُكي : أن امرأةَ سيدي أبي السعود دُعيتْ إلى الحضور في عرسٍ ببيت أمير كبيرٍ ، وكان لها مرقعةٌ ، فشاورتِ الشيخَ ، فأذن لها ، فقالت : بمرقعتي ؟ فقال : نعم ، فذهبت ، فقلبَ اللهُ تعالىٰ عينَها حَريراً مُزركشاً مُفصَّصاً فصوصاً من المعادن ، لا توجدُ في ذخائرِ الملوك ، فكانتِ الخوندات يتعجَّبنَ منها ، ويقلنَ : كيف يكون مثلُ هـٰذا لامرأةِ فقير ؟! فطلبتْ واحدةٌ منهنَّ فصّاً بألف دينار ، فأبتِ امرأة الشيخ ، وقالت : ما معي إذن ، فلما رجعتْ إلى الشيخ وأخبرته تبسَّم وقال : إنَّ اللهَ تعالى يسترُ من يشاء من عباده .

وقدم شخصٌ من مُريدي الشيخ أبي العباس علىٰ سيدي الشيخ عبد الرحيم القِناوي بعد وفاة الشيخ أبي العباس ، وكان الشيخُ يأخذ العهدَ علىٰ جماعةٍ من الحاضرين ، فمدَّ يدَه ليد فقيرِ سيدي أبي العباس وهو في المحراب ، فخرجتْ يدُ أبي العباس من الحائط ، فمنعتْ يدَ الشيخ عبد الرحيم ، فقال : رحم الله أخي الشيخ أبا العباس يغير علىٰ أولاده حيّاً وميتاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١١) الشيخ حسن شيخ المسلمية رضي الله عنه[١]

كان سيِّداً كبيراً .

مات رضي الله عنه سنة أربعٍ وستين وسبع مئة بجامع القبلة بالرصد ، ودُفن بالقَرَافة الكُبرىٰ بمصر قريباً من قبرِ الشيخ أبي الخير الأقطع ، بالقرب من الديلمية ، رضي الله عنه ورحمه ، آمين .

ومنهم :

(٣١٢) الشيخ علي السِّدَّار رضي الله عنه[٢]

المدفون بزاويته بحارة الروم ، بالقرب من باب زويلة بمصر .

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٥٠) .

(٢) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٥٦٤) ، و« إنباء الغمر » (١/ ٢١٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٦١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٥٥) (٣٠٩) .

كان يبيع السِّدْر[١] ، ثم انقطعَ في بيته يُزار إلىٰ أن مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وسبعين وسبع مئة .

وجاءه شخصٌ مرَّةً يطلب حنَّاءً ، فأعطاه سِدْراً ، فردَّه إليه ، وقال : هٰذا سدرٌ ، ونحن ما حاجتنا إلا بالحنَّاء للعرس ، فقال : آخرَ النهار تحتاجون إلى السِّدْرِ ، ولا حاجةَ لكم بالحنَّاء ، فمات العريسُ آخر الليل ، فغسَّلوه به ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٣) الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه[٢]

هو عليُّ بن عبد الله بن عبد الجبَّار الشَّاذلي ـ بالشين والذال المعجمتين .

وشاذلة : قرية من إفريقية ـ الضريرُ الزاهد ، نزيلُ الإسكندرية ، وشيخ الطائفة الشاذلية .

وكان كبيرَ المقدار ، عالي المقام ، له عباراتٌ فيها رموزٌ ، فوَّقَ ابنُ تيميةَ سهمَه إليه[٣] ، فردَّهُ عليه .

وصحب الشيخ نجمَ الدين الأصفهاني ، وابنَ مشيش ، وغيرَهما .

وحجَّ مرات ، وماتَ بصحراء عَيذاب قاصداً الحج ، فدُفن هناك في ذي القعدة سنة ستٍّ وخمسين وست مئة .

وقد أفرده سيدي الشيخ تاجُ الدين بن عطاء الله هو وتلميذه أبو العباس بالترجمة ، وها أنا أذكر لك ملخَّصَ ما ذكرَهُ فيها ، فأقول وبالله التوفيق :

قد ترجمَ رضي الله عنه في كتاب « لطائف المنن »[٤] سيدي الشيخ أبا الحسن

---

(١) **السِّدْر** : شجر النبق ، واحدتها سدرة ، يستعمل للتنظيف استعمالَ الصابون .

(٢) انظر « تذكرة الحفاظ » (٤/ ١٤٣٨) ، و« نكت الهميان » (ص ٢١٣) ، و« الوافي بالوفيات » (٢١/ ٢١٤) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤٥٨) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٤٧٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٣٤٠) (٢٥٢) .

(٣) **فوَّق** : أي : سدَّد .

(٤) **واسمه كاملاً** : « لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس ، وشيخه أبي الحسن » لتاج =

رضي الله عنه بأنه قطبُ الزمان ، والحاملُ في وقته لواءَ أهل العيان ، حجَّةُ الصوفية ، علمُ المهتدين ، زينُ العارفين ، أستاذُ الأكابر ، زمزمُ الأسرار ، ومعدن الأنوار ، القطبُ الغوث الجامع ؛ أبو الحسن علي الشاذلي ، رضي الله عنه ، لم يدخلْ طريقَ القوم حتىٰ كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة .

وشهد له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية .

جاء رضي الله عنه في هـٰذه الطريق بالعجب العُجاب .

وكان الشيخ تقيُّ الدين بنُ دقيق العيد رضي الله عنه يقول : (ما رأيتُ أعرفَ بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه) .

ومن كلامه رضي الله عنه : (عليكَ بالاستغفار وإن لم يكنْ هناك ذنب ، واعتبر باستغفار النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرةِ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[(١)] ، هـٰذا في معصومٍ لم يقترفْ ذنباً قطُّ ، وتقدَّس عن ذلك ، فما ظنُّكَ بمن لا يخلو عن العيبِ والذنبِ في وقت من الأوقات ؟!)

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا عارضَ كشفُك الكتابَ والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ، ودعِ الكشفَ ، وقل لنفسك : إنَّ الله تعالىٰ قد ضمنَ لي العصمةَ في الكتاب والسنة ، ولم يضمنْها لي في جانبِ الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا علىٰ أنه لا ينبغي العمل بالكشف ، والإلهام ، إلا بعد عرضِهِ على الكتاب والسنة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لقيتُ الخَضِرَ عليه الصلاة والسلام في صحراء عَيذاب ، فقال لي : يا أبا الحسن ؛ أَصحبَكَ اللهُ اللُّطف الجميل ، وكان لك صاحباً في المقامِ والرحيل) .

= الدين ابن عطاء الله الإسكندري المتوفىٰ سنة (٧٠٩هـ) ذكر فيه جملاً من فضائل أبي الحسن الشاذلي وشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي المرسي . « كشف الظنون » (٢/ ١٥٥٤) .

(١) قال تعالىٰ في سورة الفتح [١ـ ٢] : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا جاذبتْكَ هواتفُ الحقِّ فإياك أن تستشهد بالمحسوسات على الحقائق الغيبيات وتردَّها ، فتكون من الجاهلين ، واحذرْ أن تدخلَ في شيءٍ من ذلك بعقلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا عرضك عارضٌ يصدُّك عن الله فاثبتْ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥]) .

وكان يقول : (كلُّ علمٍ يسبق إليك فيه الخواطر ، وتميلُ إليه النفسُ ، وتلذُّ به الطبيعة . . فارمْ به وإن كان حقّاً ، وخذْ بعلم الله الذي أنزله علىٰ رسوله ، واقتدِ به ، وبالخلفاء ، والصحابة ، والتابعين من بعده ، وبالأئمة الهداةِ المبرئين عن الهوىٰ ، ومتابعته . . تسلمْ من الشكوك والظنون ، والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلِّة عن الهدىٰ وحقائقه ، وماذا عليك أن تكونَ عبدَ الله ، ولا علمَ ولا عمل ؟! وحسبُك من العلم العلمُ بالوحدانية ، ومن العمل محبةُ الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومحبة الصحابة ، واعتقاد الحق للجماعة ، قال رجل : متى الساعةُ يا رسول الله ؟ قال : (« مَا أعددتَ لهَا ؟ » قال : لا شيء ، إلا أني أحبُّ اللهَ ورسوله ، فقال : (« المرءُ معَ منْ أحبَّ »)[1] .

وكان يقول : (إذا كثرت عليك الخواطرُ والوساوس فقل : سبحان الملك الخلاَّق ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩ـ٢٠]) .

وكان يقول : (لا تجدُ الروحَ والمدد ، ويصحُّ لك مقامُ الرجاء حتىٰ لا يبقىٰ في قلبك تعلُّقٌ بعلمك ، ولا جدِّك ، ولا اجتهادك ، وتيئس من الكلِّ دون الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من أحصنِ الحصون من وقوعِ البلاء على العاصي الاستغفارُ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣]) .

وكان يقول : (إذا ثقلَ الذِّكرُ علىٰ لسانك ، وكثرَ اللغوُ في مقالك ، وانبسطتِ الجوارحُ في شهواتك ، وانسدَّ بابُ الفكرة في مصالحك . . فاعلم أنَّ ذلك من عظيم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٧) .

أوزارك ، أو لكمون إرادةِ النفاق في قلبك[1] ، وليس لك طريقٌ إلا الطريقَ والإصلاح ، والاعتصام بالله والإخلاص في دين الله تبارك وتعالىٰ ، ألم تسمعْ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ [النساء : ١٤٦] ؟! ولم يقل : « من المؤمنين » ، فتأمَّلْ هـٰذا الأمر ، إن كنتَ فقيهاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ارجعْ عن منازعةِ ربِّك تكنْ موحِّداً ، واعملْ بأركان الشرعِ تكن سنياً ، واجمعْ بينهما تكنْ محقِّقاً) .

وكان يقول : (قيل لي : يا علي ؛ ما علىٰ وجهِ الأرض مجلسٌ في الفقه أبهىٰ من مجلس الشيخ عزِّ الدين بنِ عبد السلام ، وما علىٰ وجهِ الأرض مجلسٌ في علم الحديث أبهىٰ من مجلس الشيخ عبد العظيم المنذري ، وما علىٰ وجهِ الأرض مجلسٌ في علم الحقائق أبهىٰ من مجلسك) .

وكان يقول : (من أحبَّ ألا يُعصى اللهُ تعالىٰ في مملكته فقد أحبَّ ألا تظهرَ مغفرتُهُ ورحمته ، وألا يكونَ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم شفاعةٌ) .

وكان يقول : (لا تشمُّ رائحةَ الولاية وأنتَ غير زاهدٍ في الدنيا وأهلها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**أسبابُ القبضِ ثلاثةٌ** : ذنبٌ أحدثته ، أو دنيا ذهبتْ عنك ، أو شخصٌ يؤذيك في نفسك أو عرضك ؛ فإن كنتَ أذنبتَ فاستغفر ، وإنْ كنتَ ذهبتْ عنك الدنيا فارجعْ إلىٰ ربِّك ، وإن كنت ظُلِمْتَ فاصبر واحتمل ، هـٰذا دواؤك ، وإن لم يطلعْكَ اللهُ تعالىٰ علىٰ سببِ القبض فاسكنْ تحت جريان الأقدار ؛ فإنها سحابةٌ سائرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما حقيقةُ المتابعة ؟ فقال : رؤيةُ المتبوع عند كلِّ شيءٍ ، ومع كلِّ شيءٍ ، وفي كلِّ شيء) .

وكان يقول : (الشيخُ من دلَّكَ على الراحة ، لا مَنْ دلَّكَ على التعب) .

---

(١) في (ب ، د) : (لكون) بدل (لكمون) .

وكان يقول : (من دعا إلى الله تعالىٰ بغيرِ ما دعا به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فهو بدعيٌّ) .

وكان يقول : (من آدابِ المجالس للأكابرِ التخلِّي عن الأضداد ، والميلُ والمحبة ، والتخصيص لهم ، وتركُ التجسُّسِ علىٰ عوائدهم وعقائدهم) .

وكان يقول : (إذا جالستَ العلماء فلا تحدِّثْهم إلا بالعلوم المنقولة ، والروايات الصحيحة ؛ إما أن تفيدهم ، وإما أن تستفيدَ منهم ، وذلك غايةُ الربح منهم ، وإذا جالستَ العبَّاد والزهاد فاجلسْ معهم علىٰ بساطِ الزهد والعبادة ، وحلِّ لهم ما استمرؤوه ، وسهِّل عليهم ما استوعروه ، وذوِّقهم من المعرفةِ ما لم يذوقوه ، وإذا جالست الصدِّيقين ففارقْ ما تعلمُ تظفرْ بالعلم المكنون) .

وكان يقول : (إذا انتصرَ الفقيرُ لنفسه وأجابَ عنها فهو والتراب والحجر سواء) .

وكان يقول : (إذا لم يواظبِ الفقيرُ علىٰ حضورِ الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعبأنَّ به) .

وكان يقول : (من غلبَ عليه شهودُ الإرادة تفسَّختْ عزائمُهُ لسرعة المراد وكثرته ، واختلافِ أنواعه ، وأيُّ وقفةٍ تسعُهُ حتىٰ يحلَّ أو يعقدَ ، أو يعزم أو ينوي شيئاً من أموره مع تبدُّدِ إرادته[1] ، واضمحلالِ صفاته ؟! أين أنتَ من نورٍ من نظر واتَّسع نظرُهُ بنور ربِّه ، ولم يشغلْه المنظورُ إليه عمن نظر به ؟! فقال : « مَا منْ شيءٍ كانَ ويكونُ إلا وقدْ رأيتُهُ . . . »[2] الحديثَ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا استحسنتَ شيئاً من أحوالِك الباطنة أو الظاهرة ، وخفتَ زوالَهُ . . فقل : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٨]) .

وكان يقول : (وردُ المحقِّقين إسقاطُ الهوىٰ ، ومحبةُ المولىٰ ، أبتِ المحبة أن تستعمل محبّاً لغير محبوبه) .

---

(١) في (هـ) وحدها : (تعدد) بدل (تبدد) .
(٢) رواه البخاري (١٨٤) بلفظ : « مَا منْ شيءٍ كنتُ لمْ أرَهُ إلا قدْ رأيتُهُ » عن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما .

وفي رواية أخرىٰ : (وردُ المحقِّقين ردُّ النفس بالحقِّ عن الباطل في عموم الآفات)[١] .

وكان يقول : (لا يتمُّ للعالم سلوكُ طريقِ القوم إلا بصحبة أخٍ صالح ، أو شيخٍ ناصح) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تؤخِّر طاعة وقتٍ لوقت آخر ، فتُعاقب بفواتها ، أو بفوات غيرها ، أو مثلها جزاءً لما كفر في ذلك الوقت ؛ فإنَّ لكلِّ وقتٍ سهماً في العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية ، وأمَّا تأخيرُ عمر رضي الله عنه الوترَ إلىٰ آخر الليل فتلك عادةٌ جاريةٌ ، وسُنَّةٌ ثابتة ، ألزمَه اللهُ تعالىٰ إيَّاها مع المحافظةِ عليها[٢] ، وأنَّىٰ لك بها مع الميلِ إلى الراحات ، والركون إلى الشهوات ، والغفلةِ عن المشاهدات ، هيهات هيهات هيهات !) .

وكان رضي الله عنه يقول : من أراد عزَّ الدارين فليدخلْ في مذهبنا يومين ، فقال له القائل : كيف لي بذلك ؟ قال : فرِّقِ الأصنامَ عن قلبك ، وأرح من الدنيا بدنَك ، ثم كنْ كيف شئتَ ، فإنَّ الله تعالىٰ لن يدعَكَ بلا مدد ، بل يمدُّك ويغنيك بغناه .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن الله تعالىٰ لا يعذِّبُ العبدَ علىٰ مدِّ رجليه مع استصحاب التواضع للاستراحة من التعب ، وإنَّما يُعذِّبُهُ علىٰ تعبٍ يصحبُهُ التكبُّرُ) .

وكان يقول : (ليسَ هـٰذا الطريقُ بالرهبانية ، ولا بأكلِ الشعير والنخالة ، وإنَّما هو بالصبرِ على الأوامر ، واليقين في الهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤]) .

وكان يقول : (من لم يزددْ بعلمه وعمله افتقاراً لربِّه ، وتواضعاً لخلقه فهو هالكٌ) .

---

(١) في (هـ ، ط) : (الأوقات) .

(٢) حديث وتر عمر رضي الله عنه آخر الليل أخرجه أبو داود (١٤٣٤) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه ، ومالك في الموطأ (١/ ١٢٤) عن سيدنا سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ .

وكان يقول : (سبحان من قطعَ كثيراً من أهلِ الصلاح عن مصلحهم ، كما قطعَ المفسدين عن موجدهم) .

وكان يقول : (الزمْ جماعةَ المؤمنين ، وإن كانوا عصاةً فاسقين ، وأقمْ عليهم الحدودَ ، واهجرهم لهم رحمةً بهم ، لا تَعزُّزاً عليهم ، وتقريعاً لهم) .

وكان يقول : (كلْ من طعام فسقةِ المسلمين ، ولا تأكلْ من طعام رهبان المُشركين ، وانظرْ إلى الحجرِ الأسود ؛ فإنه ما اسودَّ إلا من مسِّ أيدي المشركين دون المسلمين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سمعتُ هاتفاً يقول : كم تدندنُ مع من يُدندنُ ! وأنا السميع القريب ، وتعريفي يُغنيك عن علمِ الأوَّلين والآخرين ، ما عدا علم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلم النبيين عليهم الصلاة والسلام) .

وقيل له مرّةً : من شيخُك ؟ فقال : كنت أنتسبُ إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش ، وأنا الآن لا أَنتسبُ إلىٰ أحدٍ ، بل أعومُ في عشرة أبحر : محمد ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل ، والروح الأكبر .

قال الشيخ أبو العباس المرسي : (ومات الشيخ عبدُ السلام بن مشيش رضي الله عنه مقتولاً ، قتله ابن أبي الطواجن ببلاد المغرب) .

وكان يقول : (من عِلم اليقينِ بالله تعالىٰ ، وبما لك عندَ الله تعالىٰ : أنْ تتعاطىٰ من الخلقِ ما لا تُصغَّرُ به عند الحق تعالىٰ ، مما تكرهُهُ النفوسُ الغوية ؛ كحملِ متاعك من السوق ، وجمعِ الحطب للطعام ، وحمله علىٰ رأسك ، والمشي مع زوجتك إلى السوق في حاجةٍ من حوائجها ، وركوبك خلفها على الحمار ، وغيره ، وأمَّا ما تُصغِّر به في أعينِ الخلق مما للشرع عليه اعتراضٌ فليس من علم اليقين ، فلا ينبغي لك ارتكابُهُ) .

وكان يقول : (إن كنتَ مؤمناً مُوقناً فاتَّخذِ الكلَّ عدواً ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٧]) .

وكان يقول : (الصادقُ الموقنُ لو كذَّبه أهلُ الأرض ما ازداد بذلك إلا يقيناً ، ولو صدَّقه أهل الأرض لم يزدد بذلك إلا تمكيناً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تُعطى الكراماتُ مَنْ طلبها وحدَّثَ بها نفسه ، ولا منِ استعمل نفسَه في طلبها ، وإنما يُعطاها من لا يرىٰ نفسَهُ ، ولا عمله ، وهو مشغولٌ بمحابِّ الله تعالىٰ ، ناظرٌ لفضل الله ، آيسٌ من نفسه وعمله ، وقد تظهرُ الكرامةُ علىٰ من استقامَ في ظاهره ، وإن كانت هَنَاتُ النفس في باطنه ، كما وقع للعابد الذي عَبَدَ اللهَ في الجزيرة خمس مئة عام ، فقيل له : ادخلِ الجنةَ برحمتي ، فقال : بل بعملي)[1] .

وكان يقول : (ما ثَمَّ كرامةٌ أعظمُ من كرامة الإيمان ، ومتابعةِ السُّنة ، فمن أُعطيهما وجعلَ يَشتاقُ إلىٰ غيرهما فهو عبدٌ مُفترٍ كذَّاب ، أو ذو خطأ في العلم بالصواب ، كمن أُكرمَ بشهود الملك ، فاشتاقَ إلىٰ سياسة الدواب) .

وكان يقول : (كلُّ كرامةٍ لا يصحبُها الرِّضا من الله ، وعن الله ، والمحبَّة لله ، ومن اللهِ . . فصاحبُها مُستدرجٌ مَغرورٌ ، أو ناقصٌ هالك مثبور) .

وكان رضي الله عنه يقول : (للقطب خمسَ عشرةَ كرامة ، فمنِ ادَّعاها أو شيئاً منها فليبرز : أن يُمدَّ بمددِ الرحمة والعصمة ، والخلافة والنيابة ، ومدد حملة العرشِ العظيم ، ويُكشف له عن حقيقةِ الذات ، وإحاطة الصفات ، ويكرمَ بكرامةِ الحُكم والفصل بين الوجودين ، وانفصال الأول عن الأول ، وما انفصل عنه إلىٰ منتهاه ، وما ثبتَ فيه ، وحكم ما قبل ، وحكم ما بعد ، وحكم من لا قبل له ولا بعد ، وعلم البدء ؛ وهو العلم المحيط بكلِّ علمٍ ، وبكلِّ معلوم بدءاً من السرِّ الأول إلىٰ منتهاه ، ثم يعود إليه) .

وكان يقول : (سمعتُ هاتفاً يقول : إن أردتَ كرامتي فعليك بطاعتي ، وبالإعراض عن معصيتي) .

---

(١) أخرج الحديث الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٥٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣٠٠) وغيرهما عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

وكان يقول : (كأني واقفٌ بين يدي الله عز وجل ، فقال : لا تأمنْ مكري في شيءٍ ، وإن أمَّنتك ؛ فإنَّ علمي لا يُحيط به محيط ، وهكذا درجوا) .

وكان يقول : (لا تركنْ إلىٰ علمٍ ولا عملٍ ولا مددٍ ، وكنْ بالله ، ولله ، واحذرْ أن تَنشرَ علمَكَ ليصدِّقَكَ الناس ، وانشرْ علمك ليصدِّقك الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو علم نوحٌ عليه الصلاة والسلام أنَّ في أصلابِ قومه من يأتي يُوحِّدُ اللهَ عز وجل ما دعا عليهم ، ولكانَ قال : « اللهم ؛ اغفرْ لقومي ، فإنَّهم لا يعلمون »(١) كما قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فكلٌّ منهما علىٰ علمٍ وبيِّنةٍ من الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العلومُ على القلوب كالدراهم والدنانير في الأيدي ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ نفعَكَ بها ، وإن شاءَ ضرَّك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قرأتُ ليلةً قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الجاثية : ١٨ـ١٩] ، فنمت ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لي : أنا ممن يعلمُ ، ولا أُغني عنك من الله شيئاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من أقبلَ على الخلقِ الإقبالَ الكلي قبلَ بلوغ درجاتِ الكمال سقطَ من عين الله تعالىٰ ، فاحذروا هٰذا الداءَ العظيم ؛ فقد هلك به خلقٌ كثير ، وقنعوا بالشُّهرة ، وتقبيل اليد ، فاعتصِموا بالله يهدِكم اللهُ إلى الصراط المستقيم) .

وكان يقول : (من الشهوةِ الخفية للولي : إرادتُهُ النصرةَ علىٰ من ظلمه ، وقال تعالىٰ للمعصوم الأكبر : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ؛ أي : فإنَّ الله تعالىٰ قد لا يشاءُ إهلاكهم) .

وكان يقول : (إذا أردتَ الوصولَ إلى الطريق التي لا لوم فيها فليكن الفرقُ في لسانك موجوداً ، والجمعُ في سرِّك مشهوداً) .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ اسمٍ تستدعي به نعمةً ، أو تستكفي به نقمةً فهو حجابٌ عن الذات ، وعن التوحيدِ بالصفات ، وهٰذا لأهلِ المراتب والمقامات ، وأما عوامُّ المؤمنين فهم عن ذلك مَعزولون ، وإلىٰ حدودهم يرجعون ، ومن أجورهم من الله لا يبخسون) .

وكان يقول : (لا أجرَ لمن أخذَ الأَجر والرِّشا على الصلاة والصيام ، وتنعَّمَ بمطامح تلك الأبصار عند إطراقِ الرؤوس والاشتغال بالأذكار ، وجنايةُ هٰؤلاء بالإضافات ورؤيةِ الطاعات أكثرُ من جناياتهم بالمعاصي وكثرة المخالفات ، وحسبُهم ما يظهر عليهم من الطاعات ، وإجابة الدعوات ، والمسارعة إلى الخيرات ، ومن أبغضِ الخلقِ إلى الله تعالىٰ من تملَّقَ إليه في الأسحار بالطاعات ليطلب قربَهُ بذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر : ٢-٣]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العارفُ بالله تعالىٰ لا تُنَقِّصُهُ حظوظُ النفس ؛ لأنه بالله فيما يأخذُ ، وفيما يَترك إلا إنْ كانت الحظوظُ معاصي) .

وكان يقول : (إذا أهانَ اللهُ عبداً كشفَ له حظوظَ نفسه ، وسترَ عنه عيوبَ دينه ، فهو يتقلَّبُ في شهواته حتىٰ يهلكَ ، ولا يشعر) .

وكان يقول : (إذا ترك العارفُ الذكرَ علىٰ وجه الغفلة نَفَساً أو نَفَسين قيَّضَ اللهُ تعالىٰ له شيطاناً ، فهو له قرين ، وأما غيرُ العارف فيُسامح بمثل ذلك ، ولا يُؤاخذ إلا في مثل درجةٍ أو درجتين ، أو زمانٍ أو زمنين ، أو ساعةٍ أو ساعتين ، علىٰ حسب المراتب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من الأولياء من يَسكرُ من شهود الكأس ولم يذقْ بعدُ شيئاً ، فما ظنُّك بعد ذوقِ الشراب ، وبعد الرِّيِّ ؟!

واعلمْ : أنَّ الرِّيَّ قلَّ من يفهمُ المرادَ به ؛ فإنه مزجُ الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاقِ بالأخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال ، وأما الشُّربُ فهو سقيا القلب والأوصال والعروق من هٰذا الشراب

حتىٰ يَسكرَ ، وأما الكأسُ فهو مغرفةُ الحقِّ التي يغرفُ بها من ذلك الشَّرابِ الطهورِ المخلصِ الصافي لمن شاء من عباده المخصوصين ؛ فتارةً يشهدُ الشاربُ تلك الكأسَ صورةً ، وتارة يشهدُها معنويةً ، وتارةً يشهدها علمية ، فالصورة حظُّ الأبدان والأنفس ، والمعنوية حظُّ القلوب والعقولِ ، والعلمية حظُّ الأرواح والأسرار ، فيا له من شرابٍ ما أعذبه ! فطوبىٰ لمن شربَ منه ودام) ، وأطال في معنىٰ ذلك .

وكان يقول : (إذا ضيَّقَ الله عليك في المعيشة فاعلم أنه يريد أن يواليك ، فاثبتْ ، وإياك والضجرَ) .

وكان يقول : (إياك والوقوعَ في المعصية المرَّةَ بعد المرة ؛ فإنَّ من تعدَّىٰ حدودَ الله فهو ظالمُ ، والظالمُ لا يكون إماماً ، ومن تركَ المعاصي ، وصبرَ علىٰ ما ابتلاه الله ، وأيقنَ بوعد الله ووعيده . . فهو الإمام ، وإن قلَّتْ أتباعه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مريدٌ واحدُ يَصلحُ أن يكونَ محلاً لوضع أسرارك خيرٌ من ألفِ مُريدٍ لا يكونون محلاً لوضع سرِّك) .

وكان يقول : (إنَّنا لننظرُ إلى الله تعالىٰ ببصائر الإيمان والإيقان ، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان ، وصرنا نستدلُّ به تعالىٰ على الخلق ، هل في الوجود شيءٌ سوى الملك المعبود الحقِّ ؟ فلا نراه ، وإن كانَ ولا بدَّ لك من رؤيتهم فتراهم كالهباءِ في الهواء ، إنْ مَسستَهُم لم تجدْ شيئاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذ امتلأ القلبُ بأنوار الله تعالىٰ عميتْ بصيرتُهُ عن المناقص والمذامِّ المقيدة في عباده المؤمنين) .

وكان يقول : (ذهب العمىٰ ، وجاء البصر بمعنىً ، فانظرْ إلى الله تعالىٰ ، فهو لك مأوىً ، فإن تنظرْ فبه ، أو تسمعْ فمنه ، وإن تنطقْ فعنه ، وإن تكنْ فعنده ، وإن لم تكن فلا شيءَ غيره) .

وكان يقول : (البصيرةُ كالبصر ، أدنىٰ شيءٍ يقعُ فيها يعطِّلُ النظرَ ، وإنْ لم ينتهِ الأمرُ إلى العمىٰ ، فالخطرةُ من صفات الشرِّ تُشوِّشُ نظرَ البصيرة ، وتكدِّرُ الفكر والإرادة ، وتُذهبُ بالخير رأساً ، والعملُ به يذهبُ بصاحبه عن سهمٍ من الإسلام ، فإن

استمرَّ على الشرِّ تفلَّتَ منه الإسلامُ سهماً سهماً ، فإذا انتهىٰ إلى الوقيعة في العلماء والصالحين ، وموالاة الظالمين حبّاً للجاه والمنزلةِ عندهم . . فقد تَفلَّتَ منه الإسلامُ كلُّه ، ولا يغرنَّكَ ما توسَّم به ظاهراً ؛ فإنه لا روحَ له ، فإن روح الإسلام حبُّ الله ورسوله ، وحبُّ الآخرة والصالحين من عباده) .

وكان يقول : (نظرُ الله عز وجل لا يمتدُّ منه شيءٌ إلىٰ خلقه ، ولا يقفُ في نظره ، ولا ينعطفُ عن منظوره ، جلَّ نظرُ ربِّنا عن القصور[١] ، والنفوذ ، والتجاوز والحدود) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أركزُ الأشياء في الصفات ركزُها قبل وجودها ، ثم انظرْ هل ترىٰ للعين أيناً ، أو ترىٰ للكون كاناً ، أو ترىٰ للأمر شأناً ، وكذلك بعد وجودها) .

وكان يقول : (منِ ادعىٰ فتحَ عين قلبه وهو يتصنَّعُ بطاعة الله تعالىٰ ، أو يطمعُ فيما في أيدي خلق الله تعالىٰ . . فهو كاذبٌ) .

وكان يقول : (**التصوفُ** : تدريبُ النفس على العبودية ، وردُّها لأحكام الربوبية) .

وكان يقول : (الصوفيُّ يرىٰ وجودَه كالهباء في الهواء ، غيرَ موجودٍ ولا معدوم ، حسب ما هو عليه في علم الله تعالىٰ) .

وسئل رضي الله عنه عن الحقائق ، فقال : (الحقائقُ هي المعاني القائمة في القلوب ، وما اتَّضح لها وانكشف من الغيوب ، وهي منحٌ من الله تعالىٰ وكراماتٌ ، وبها وصلوا إلى البرِّ والطاعات ، ودليلُها قولُه لحارثة : « كيفَ أصبحتَ ؟ » قال : أصبحتُ مؤمناً حقّاً . . .[٢] الحديث) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من تحقَّقَ الوجود فنيَ عن كلِّ موجود ، ومن كانَ بالوجود ثبتَ به كلُّ موجود) .

---

(١) في (أ ، هـ) : (القصود) .

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٣٣١) .

وكان يقول : (أثبتْ أفعالَ العباد بإثباتِ الله تعالىٰ ، ولا يضرُّك ذلك ، وإنَّما يضرُّك الإثباتُ بهم ومنهم) .

وكان يقول : (أبى المحقِّقون أن يشهدوا غيرَ الله تعالىٰ ؛ لِمَا حقَّقهم به من شهود القيُّومية ، وإحاطة الديمومية) .

وكان يقول : (حقيقةُ زوالِ الهوىٰ من القلب حبُّ لقاء الله تعالىٰ في كلِّ نَفَسٍ من غير اختيارِ حالةٍ يكون المرءُ عليها) .

وكان يقول : (حقيقةُ القربِ الغيبةُ بالقرب عن القرب ؛ لعظيم القرب) .

وكان يقول : (لن يصلَ العبدُ إلى الله ، وبقي معه شهوةٌ من شهواته ، ولا مَشيئةٌ من مشيئاته) .

وكان يقول : (الأولياءُ يغنون عن كلِّ شيءٍ بالله تعالىٰ ، وليس لهم معه تدبيرٌ ولا اختيار ، والعلماء يدبِّرون ، ويختارون ، وينظرون ، ويقيسون ، وهم مع عقولهم وأوصافهم دائمون ، والصالحون وإن كانت أجسادُهم مقدسة ففي أسرارهم الكزازةُ والمنازعةُ ، ولا يصلحُ شرحُ أحوالهم إلا لوليٍّ في نهايته ، فحسبك ما ظهر من صلاحهم ، واكتفِ به عن شرح ما بَطَنَ من أحوالهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تختر من أمرك شيئاً ، واخترْ ألا تختار ، وفرَّ من ذلك المختار ومن فرارك ومن كلِّ شيءٍ إلى الله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص : ٦٨] ، وكلُّ مختاراتِ الشرع وترتيباته فهي مختارُ الله ، ليس لك منه شيءٌ ، ولا بدَّ لك منه ، واسمعْ ، وأطع ، وهـٰذا موضعُ الفقه الرباني ، والعلم الإلـٰهي ، وهو أرضٌ لعلمِ الحقيقة المأخوذةِ عن الله تعالىٰ لمن استوىٰ ، فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ وَرَعٍ لا يُثمرُ لك العلمَ والنور فلا تعدَّ له أجراً ، وكلُّ سيئةٍ يعقبها الخوفُ والهربُ إلى الله تعالىٰ فلا تعدَّ لها وزراً) .

وكان يقول : (لا تَرْقَ قبلَ أن يُرقىٰ بك ، فتزلَّ قدمُك) .

وكان يقول : (أشقى الناسِ من يعترضُ علىٰ مولاه ، وأُركس في تدبير دنياه ، ونسي المبدأ والمنتهىٰ ، والعمل لأُخراه) .

وكان يقول : (مراكزُ النفس أربعةٌ : مركزٌ للشهوة في المخالفات ، ومركزٌ للشهوة في الطاعات ، ومركزٌ في الميل إلى الراحات ، ومركزٌ في العجز عن أداء المفروضات ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة : ٥]) .

وكان يقول : (إنَّ من أعظمِ القُربات عند الله تعالىٰ مفارقةُ النفس بقطع إرادتها ، وطلبُ الخلاص منها بتركِ ما تهوىٰ لما يُرجىٰ من حياتها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّ من أشقى الناس من يحبُّ أن يعاملَهُ الناسُ بكلِّ ما يُريد ، وهو لا يجدُ من نفسه بعضَ ما يريد ، وطالبْ نفسَك بإكرامِك لهم ، ولا تطالبْهم بإكرامهم لك لا تكلفُ إلا نفسك) .

وكان يقول : (قد يئستُ من منفعة نفسي لنفسي ، فكيف لا أيأسُ من منفعة غيري لنفسي ؟! ورجوتُ اللهَ لغيري ، فكيف لا أَرجوه لنفسي ؟!)

وكان يقول : (إن أردتَ ألا يصدأَ لك قلبٌ ، ولا يلحقَكَ همٌّ ولا كرب ، ولا يبقىٰ عليك ذنبٌ . . فأكثرْ من قول : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، لا إلـٰه إلا هو ، اللهم ؛ ثبِّتْ علمَها في قلبي ، واغفر لي ذنبي ») .

وكان يقول : (لا كبيرةَ عندنا أكبرُ من اثنتين : حبِّ الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا ؛ لأنَّ حبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة ، والمقامَ على الجهل أصلُ كلِّ معصية) .

وكان يقول : (إن أردتَ أن تصحَّ علىٰ يديك الكيمياء فأسقطِ الخلقَ من قلبك ، واقطعِ الطمعَ من ربِّك أن يُعطيك غيرَ ما سبق لك ، ثم أمسكْ ما شئت يكون كما تريد) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن أردتَ أن تكونَ مُرتبطاً بالحقِّ فتبرَّأ من نفسك ، واخرجْ عن حولك وقوَّتك) .

وكان يقول : (إن أردتَ الصدقَ في القول فأكثر من قراءة : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وإن أردتَ الإخلاص في جميعِ أحوالك فأكثر من قراءة : « قل هو الله أحد » وإن أردتَ تيسيرَ الرزق فأكثر من قراءة : « قل أعوذ برب الفلق » وإن أردتَ السلامةَ من

الشرِّ فأكثر من قراءة : « قل أعوذ برب الناس ») .

قلت : قال بعضهم : وأقلُّ الإكثارِ سبعون مرَّةً كلَّ يومٍ إلىٰ سبع مئة .

وكان يقول : (أربعٌ لا ينفع معهن علمٌ : حبُّ الدنيا ، ونسيانُ الآخرة ، وخوفُ الفقر ، وخوف الناس) .

وكان يقول : (أصدقُ الأقوال عند الله تعالىٰ قولُ « لا إلـٰه إلا الله » على النظافة ، وأدلُّ الأعمال علىٰ محبَّته تعالىٰ لك بغضُ الدنيا ، واليأسُ من أهلها على الموافقة) .

وكان يقول : (لا تُسرفْ بترك الدنيا ، فتغشاك ظلمتُها ، وتنحلَّ أعضاؤك لها ، فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمَّة ، أو بالفكرة ، أو بالإرادة ، أو بالحركة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تقوىٰ لمحبِّ الدنيا ، إنما التَّقوىٰ لمن أعرض عنها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا توجَّهتَ لشيءٍ من عمل الدنيا والآخرة فقل : يا قويُّ يا عزيز ، يا عليم يا قدير ، يا سميع يا بصير) .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك مزيدٌ من الدنيا والآخرة فقل : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩]) .

وكان يقول : (خصلةٌ واحدةٌ إذا فعلها العبدُ صارَ إمامَ الناس من أهل عصره ، وهي الإعراضُ عن الدنيا ، واحتمالُ الأذىٰ من أهلها) .

وكان يقول : (إذا تداينَ أحدُكم فليتوجَّه بقلبه إلى الله تعالىٰ ، ويتداين على الله تعالىٰ ؛ فإنَّ كلَّ ما تداينه العبدُ على الله تعالىٰ فعلى اللهِ أداؤه) .

وكان يقول : (إن عارضَك عارضٌ من معلومٍ هو لك فاهربْ إلى الله منه هروبَك من النار ، وهـٰذه من غرائبِ علومِ المعرفةِ في علوم المعاملة) .

وكان رضي الله عنه يقول إذا تداين : (اللهم ؛ عليك تداينت ، وعليك توكَّلتُ ، وإليك أمري فوَّضْتُ) .

وكان يقول : (خصلةٌ واحدةٌ تحبطُ الأعمال ، ولا يتنبَّهُ لها كثيرٌ من الناس ، وهي

سخطُ العبدِ على قضاء الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٩]) .

وكان يقول : (لا يتركُ منازعةَ الناس في الدنيا إلا المؤمنُ بالقسمة) .

وكان يقول : (رأيتُ في النوم صائحاً يصيح في جوِّ السماء : إنما تُساق لرزقك ، أو لأجلك ، أو لما يقضي الله به عليك ، أو بك ، أو لك ، وهي خمسةٌ لا سادسَ لها) .

وكان يقول : (كلُّ حسنةٍ لا تُثمر نوراً وعلماً في الوقت فلا تعدَّ لها أجراً ، وكلُّ سيِّئةٍ أثمرتْ خوفاً من الله تعالى ورجوعاً إليه فلا تعدَّ لها وزراً) .

وكان يقول : (حسنتان لا يضرُّ معهما كثرةُ السيئات : الرضا بقضاء الله ، والصفح عن عبادِ الله) .

وكان يقول : (إيَّاك أن تقفَ مع الخلق ، بلِ انفِ المضارَّ والمنافع عنهم ؛ لأنها ليستْ منهم ، واشهدْها من الله فيهم ، وفرَّ إلى الله منهم بشهودِ القدر الجاري عليك وعليهم ، أو لك ولهم ، ولا تخفهم خوفاً تغفلُ به عن الله تعالى ، وتردُّ القَدَرَ إليهم . . تهلك) .

وكان يقول رضي الله عنه : (من فارقَ المعاصي في ظاهرِه ، ونبذَ حبَّ الدنيا من باطنه ، ولزمَ حفظَ جوارحه ومراعاة سرِّهِ . . أتته الزوائدُ من ربِّه ، ووكَّلَ به حارساً يحرسُهُ من عنده ، وأخذَ الله بيده خفضاً ورفعاً في جميع أموره ، والزوائدُ : هي زوائدُ العلم واليقين ، والمعرفة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُوصفُ العبدُ بأنه قد هَجَرَ المعاصي إلا إنْ كانت لم تخطرْ له على بالٍ ، فإنَّ حقيقةَ الهجرِ نسيانُ المهجور ، هـٰذا في حقِّ الكاملين ، فإن لم يكنْ كذلك فليهجرْ على المُكابدة والمجاهدة) .

وكان يقول : (لا يَتزحْزَحُ العبدُ عن النارِ إلا إنْ كفَّ جوارحَه عن معصية الله ، وتزيَّنَ بحفظِ أمانة الله ، وفتحَ قلبَه لمشاهدة الله ، وأطلق لسان سرِّه لمناجاة الله ، ورفع الحجابَ بينه وبين صفاتِ الله ، وأشهده اللهُ تعالى معاني أرواح كلماته) .

وكان يقول : (الغلُّ : هو ربطُ القلبِ على الخيانةِ ، والمكر ، والخديعة ، وأما الحقدُ : فهو شدَّةُ ربطِ القلب على الخيانةِ المذكورة) .

وكان يقول : (اتَّقِ اللهَ في الفاحشة جملةً وتفصيلاً ، وفي الميل إلى الدنيا صورةً وتمثيلاً) .

وكان يقول : (عقوبةُ ارتكاب المحرَّماتِ بالعذاب ، وعقوبةُ أهلِ الطاعات بالحجاب ؛ لِمَا يقعُ لهم فيها من سوءِ الأدب ، وعقوبةُ المراكنات تركُ المريد ، وعقوبةُ القلقِ والاستعجال هلاكُ السرِّ) .

وكان يقول : (من اعترضَ علىٰ أحوالِ الرجال فلا بدَّ أن يموتَ قبل أجله ثلاثَ موتات أُخر : موتٌ بالذلِّ ، وموتٌ بالفقر ، وموتٌ بالحاجة إلى الناس ، ثم لا يجدُ من يرحمُهُ منهم) .

وكان الشيخ مكين الدِّين الأسمرُ رضي الله عنه يقول : (الناسُ يُدعون إلىٰ باب الله تعالىٰ ، وأبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يُدخلهم على الله) .

وكان الشاذلي رضي الله عنه يقول : (من النفاقِ التَّظاهرُ بفعل السنة ، واللهُ يعلمُ منه غيرَ ذلك ، ومن الشِّركِ بالله اتخاذُ الأولياء والشفعاء دون الله ، قال الله تعالىٰ : ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة : ٤]) .

وكان يقول : (من شفعَ طلباً للجاه والمنزلة ، أو لعرضِ الدنيا عذَّبه اللهُ علىٰ ذلك ، ويتوبُ الله علىٰ من يشاء) .

وكان يقول : (من سُوء الظنِّ بالله أن يَستنصرَ بغير الله من الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج : ١٥]) .

وكان يقول : (أوصاني أستاذي رحمه الله تعالىٰ فقال : جدِّدْ بصرَ الإيمان تجدِ الله في كلِّ شيءٍ ، وعند كلِّ شيءٍ ، ومع كلِّ شيءٍ ، وفوقَ كلِّ شيءٍ ، وفوق تحت كل شيء ، وقريباً من كلِّ شيءٍ ، ومُحيطاً بكلِّ شيءٍ ؛ بقربٍ هو وصفه ، وبإحاطةٍ هي نعته ، وعدِّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة ، والقرب

بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامحقِ الكلَّ بوصفه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، كان الله ولا شيءَ معه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من غفل عن قلبهِ اتَّخذَ دينه هزواً ، ومن اشتغل بالخلق اتَّخذَ دينه لعباً) .

وكان يقول : (إذا كان من يعملُ على الوفاق لا يسلمُ من النفاق ، فكيف بغيره ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الكاملون حاملون لأوصاف الحقِّ ، وحاملون لأوصاف الخلق ، فإن رأيتَهم من حيث الخلق رأيتَ أوصافَ البشر ، وإن رأيتَهم من حيث الحقِّ رأيتَ أوصاف الحقِّ التي زيَّنهم بها ، فظاهرُهم الفقرُ ، وباطنهم الغنىٰ تخلقاً بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٨] ، أفتراه أغناه بالمال ؟! كلا ، وقد شدَّ الحجرَ علىٰ بطنه من شدَّةِ الجوع ، وأطعمَ الجيشَ كلَّه من صاعٍ ، وخرج من مكةَ علىٰ قدميه ليس معه شيءٌ يأكله ذو كبد إلا شيء يُواريه إبطُ بلال) .

وكان يقول : (ضيقُ اليد شرفٌ لكلِّ الناس ، أو لقطب ، أو خليفة ، أو أمينٍ لا يخونُ الله تعالىٰ برؤية نفسه علىٰ من يُنفق عليه من العيال والفقراء طرفةَ عين) .

وكان يقول : (العلومُ التي وقعَ الثناء علىٰ أهلها ـ وإن جلَّت ـ فهي ظلمةٌ في علوم ذوي التحقيق ، وهم الذين غرقوا في تيار بحرِ الذات ، وغموضِ الصفات ، فكانوا هناك بلا هُم ، وهُمُ الخاصَّةُ العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم ، فلهم فيها نصيبٌ علىٰ قدر إرثهم من مورِّثهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (« العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ »[1] ؛ أي : يَقومون مقامَهم علىٰ سبيل العلمِ ، والحكمة ، لا علىٰ سبيل التحقيق بالمقام والحال ؛ فإنَّ مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جلَّتْ أن يلمحَ حقائقَها غيرُهم) .

وكان يقول : (كلُّ وارثٍ في المنزلة الموروثة لا يكون إلا بقدرِ موروثه فقط ، قال

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ ﴾ [الإسراء : ٥٥] ، وكما فضَّل بعضَهم علىٰ بعضٍ كذلك فضَّل ورثتَهم علىٰ بعضٍ ؛ إذِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعينٌ للحق ، وكلُّ عينٍ يُستمدُّ منها علىٰ قدرها[1] ، وكلُّ وليٍّ له مادَّةٌ مخصوصة) .

وكان يقول : (الأولياء علىٰ ضربين ؛ صالحون ، وصدِّيقون ؛ فالصالحون أبدال الأنبياء ، والصديقون أبدال الرسل ، فبين الصَّالحين والصدِّيقين في التفضيل كما بين الأنبياءِ والمرسلين ؛ منهم طائفةٌ انفردوا بالمادَّة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشهدونَها عين يقين ، وهم قليلون ، وفي التحقيق كثيرون ، ومادَّة كلِّ نبيٍّ وكلِّ وليٍّ بالأصالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لـٰكنْ من الأولياء من يشهدُ عينه ، ومنهم من تخفىٰ عليه عينُهُ ومادَّته ، فيفنىٰ فيما يردُ عليه ، ولا يشتغلُ بطلب مادَّته ، بل هو مستغرقٌ بحاله ، لا يرىٰ غيرَ وقته ، ومنهم طائفةٌ أيضاً مُدُّوا بالنور الإلـٰهي ، فنظروا به حتىٰ عَرفوا من هم على التحقيق ، وذلك كرامةٌ لهم لا يُنكرها إلا من يُنكر كراماتِ الأولياء ، فنعوذ بالله من النكران بعد العرفان) .

وكان يقول : (أولُ منزل يطؤه المحبُّ للترقِّي منه إلى العلا النفس ، فإذا اشتغلَ بسياستها ورياضتها إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ معرفتها وتحقَّقها أشرق عليه أنوارُ المنزل الثاني ، وهو القلب ، فإذا اشتغلَ بسياسته حتىٰ عرفه ، ولم يبقَ عليه منه شيءٌ أشرقَ عليه أنوارُ المنزل الثالث ، وهو الروحُ ، فإذا اشتغلَ بسياسته ، وتمَّت له المعرفةُ هبَّت عليه أنوارُ اليقين شيئاً فشيئاً إلىٰ تمام نهاياته ، وهـٰذه طريق العامة ، وأما طريقُ الخاصَّة فهي طريقٌ علويٌّ ، تضمحلُّ العقول في أقلِّ القليل من شرحها) .

وكان يقول : (من أمدَّه اللهُ تعالىٰ بنورِ **العقل الأصلي** شهد موجوداً لا حدَّ له ولا غاية بالإضافة إلىٰ هـٰذا العبد ، واضمحلَّتْ جميعُ الكائنات فيه ؛ فتارةً يشهدُها فيه كما يشهدُ البنَّاء بيتاً في الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارةً لا يشهدُها لانحرافِ نور الشمس عن الكوَّة ، فالشمسُ التي يُبصرُ بها هو العقلُ الضروري بعد المادةِ بنور اليقين ، وإذا اضمحلَّ هـٰذا النور ، ذهبتِ الكائناتُ كلُّها ، وبقي هـٰذا الموجود ، فتارةً يفنىٰ ، وتارةً يبقىٰ ، حتىٰ إذا أُريد به الكمالُ نُودي منه نداءً خفياً لا صوت له ، فيمدُّ

---

(١) في بعض نسخ الاستئناس : (يشهد منها) بدل (يستمدُّ منها) .

بالفهم عنه ، إلا أنَّ الذي يشهدُه غير الله تعالىٰ ليس من الله في شيءٍ ، فهناك ينتبهُ من سكراته ، فيقول : يا ربِّ ؛ أغثني ، وإلا فأنا هالك ، فيعلم يقيناً : أنَّ هـٰذا البحرَ لا يُنجيه منه إلا الله عز وجل ، فحينئذ يُقال له : إنّ هـٰذا الموجودَ هو العقلُ الذي قال فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (« أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلَ »[1] ، فأُعطي هـٰذا العبد الذلَّ والانقياد لنور هـٰذا الموجود ؛ إذْ لا يقدرُ علىٰ حدِّه وغايته ، فإذا أمدَّ الله هـٰذا العبدَ بنورِ أسمائه ، قطع ذلك كلمح البصر ، أو كما شاءَ الله تعالىٰ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

ثم أمدَّه اللهُ تعالىٰ بنورِ الروح الربَّاني ، فعرف به هـٰذا الموجود ، فرقي إلىٰ ميدان الروح الربَّاني ، فذهب جميع ما تحلَّىٰ به هـٰذا العبد ، وما تجلَّىٰ عنه بالضرورة ، وبقي كَلاَ موجود[2] ، ثمَّ أحياه اللهُ بنورِ صفاته ، فأدرجه بهـٰذه الحياة في معرفة هـٰذا الموجود الرباني ، فلما استنشقَ من مبادئ صفاته كاد يقول : هو الله ، فإذا لحقته العنايةُ الأزلية نادتْه : ألا إنَّ هـٰذا الموجود هو الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يصفَه بصفةٍ ، ولا أن يعبِّرَ عن شيءٍ من صفاته لغير أهله ، لـٰكن بنور غيره يعرفه .

فإذا أمدَّه اللهُ بنورِ سرِّ الروح وجد نفسَهُ جالساً علىٰ باب ميدان السرِّ ، فنظر ، فعرف أوصافَ الروح الرَّباني بنور السرِّ ، فرفع همَّتَه ليعرفَ هـٰذا الموجود الذي هو السرُّ ، فعمي عن إدراكه ، فتلاشتْ جميعُ أوصافه ، كأنَّه ليسَ بشيءٍ .

فإذا أمدَّه اللهُ تعالىٰ بنورِ ذاته أحياه حياةً باقية لا غاية لها ، فينظرُ جميعَ المعلومات بنورِ هـٰذه الحياة ، ووجدَ نورَ الحقِّ شائعاً في كلِّ شيءٍ لا يشهد غيرَه ، فنُودي من قريبٍ : لا تغترَّ بالله ؛ فإنَّ المحجوبَ من حُجب عن الله بالله ؛ إذ محالٌ أن يَحجبَه غيره ، وهناك يحيا بحياة استودعها اللهُ تعالىٰ فيه) .

ثم قال : (يا ربِّ ، أعوذُ بك منك حتىٰ لا أَرىٰ غيرَك ، وهـٰذا هو سبيلُ الترقّي إلىٰ حضرة العليِّ الأعلىٰ ، وهو طريقُ المحبِّين الذين هم أبدالُ الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) قال الصغاني : موضوع باتفاق . انظر « كشف الخفا » (٧٢٣ ، ٨٢٣) .
(٢) كلا : الكاف للتشبيه .

والسلام ، وما يُعطيه الله تعالىٰ لأحدِهم من بعدِ هـٰذا المنزل لا يقدرُ أحدٌ أن يصفَ منه ذرَّةً ، والحمد لله علىٰ نعمائه .

وأما طريقُ المحبوبين الخاصة بهم فإنه ترقٍّ منه إليه به ؛ إذ محال أن يُتوصَّلَ إليه بغيره ، فأولُ قدمٍ لهم بلا قدمٍ ؛ أن ألقىٰ عليهم من نور ذاته فغيَّبهم بين عباده ، وحبَّب إليهم الخلوات ، وصُغِّرت لديهم الأعمالُ الصالحات ، وعظم عندهم ربُّ الأرضين والسماوات ، فبينما هم كذلك إذ ألبسَهم ثوبَ العدم ، فنظروا ، فإذا هم لا هم .

ثم أردفَ عليهم ظلمةَ غيبتهم عن نظرهم ، فصار نظرُهم عدماً لا علَّة له ، فانطمستْ جميعُ العلل ، وزالَ كلُّ حادثٍ ، فلا حادثَ ، ولا وجود ، بل ليس إلا القدمُ الذي لا علَّة له ، وما لا علَّةَ له فلا معرفةَ تتعلَّق به ، اضمحلَّت المعلومات ، وزالتِ الرسومات زوالاً لا علَّة فيه ، وبقي من أُشير إليه لا وصف له ولا صفة ، ولا ذات ، واضمحلَّت النعوت ، والأسماء ، والصفات كذلك ، فلا اسمَ له ولا صفة ولا ذات ، فهنالك ظهرَ مَنْ لم يزل ظهوراً لا علَّة فيه ، بل ظهرَ بسرِّه لذاته في ذاته ظهوراً لا أوَّليةَ له ، بل نظرَ من ذاته لذاته بذاته في ذاته ، وهناك يحيا العبدُ بظهوره حياةً لا علَّةَ لها ، ويظهر بأوصافٍ جميلةٍ كلِّها لا علَّة لها ، وصارَ أولاً في الظهور ، لا ظاهر قبله ، فوجدتِ الأشياءُ بأوصافه ، وظهرتْ بنوره في نوره سبحانه وتعالىٰ ، ثم يغطِسُ بعد ذلك في بحرٍ بعد بحر إلىٰ أن يصلَ إلىٰ بحرِ السرِّ ، فإذا دخلَ بحرَ السرِّ غرق غرقاً لا خروجَ له منه أبدَ الآباد ، فإن شاءَ اللهُ تعالىٰ بعثَه نائباً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يُحيي به عبادَهُ ، وإن شاءَ سترَهُ يفعلُ في ملكه ما يشاء ، فهـٰذه غيرةٌ من طريقي الخصوص والعموم) انتهىٰ .

قلتُ : وإنما سطرنا لك يا أخي هـٰذه الأمورَ الخاصَّة بالمكمَّلين من أهل الله تعالىٰ تشويقاً لك إلىٰ مقاماتهم ، وفتحاً لبابِ التصديق لهم إذا سمعتهم يذكرون مثلَ ذلك كما أشرنا إليه في خطبة هـٰذا الكتاب[1] .

---

(١) تقدم (١/ ١٠٠) .

وهٰذا الكلامُ لم أجدْه لغيره من الأولياء إلىٰ وقتي هٰذا ، فسبحان المُنعم علىٰ من يشاءُ بما شاء ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣١٤) الشيخ أحمد أبو العباس المُرْسِي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه من أكابر العارفين .

وكان يُقال : إنه لم يرثْ علمَ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه غيرُهُ .

وهو أجلُّ من أخذ عنه الطريق ، رضي الله عنه .

ولم يضعْ رضي الله عنه شيئاً من الكتب .

وكان رضي الله عنه يقول : (علومُ هٰذه الطائفة علومُ تحقيق ، وعلومُ التَّحقيق لا تحملها عقولُ عمومِ الخلق) .

وكذلك شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم يضع شيئاً .

وكان رضي الله عنه يقول : (كتبي أصحابي) .

مات رضي الله عنه سنة ستٍّ وثمانين وست مئة .

ومن كلامه رضي الله عنه : (جميعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خُلقوا من الرحمة ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم هو عينُ الرحمة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الفقيه هو من انفقأَ الحجابُ عن عيني قلبه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رجالُ الليل هم الرجال ، وكلما أظلمَ الوقتُ قويَ نورُ الوليِّ ضرورة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (وليُّ الله مع الله كولد اللَّبوة في حِجرها ، أتراها تاركةَ ولدها لمن أرادَ اغتياله ؟! لا والله) .

---

(١) انظر « الوافي بالوفيات » (٧/ ٢٦٤) ، و« طبقات الأولياء » (ص ٤١٨) ، و« طبقات المناوي » (٢/ ٣٣٨) ، والمرسي : نسبة إلىٰ مُرْسِيَة ، إحدىٰ مدن الأندلس ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٥٥) (٣١٠) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن للهِ تعالىٰ عباداً محقَ أفعالَهم بأفعاله ، وأوصافَهم بأوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحمَّلهم من أسرارهِ ما يعجزُ عامةُ الأولياء عن سماعه) .

وكان يقول في معنىٰ حديث « منْ عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ »(١) : (معناه : من عرفَ نفسه بذُلِّها وعجزِها عرفَ اللهَ بعزِّه وقدرته) .

قلتُ : وهو أسلمُ الأجوبة ، والله أعلم .

وكان يقول : (سمعتُ الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه يقول : (لو كُشفَ عن نورِ المؤمن العاصي لطبقَ ما بين السماء والأرض ، فما ظنُّك بنورِ المؤمن المطيع ؟!) .

وكان يقول : (لو كُشف عن حقيقةِ الولي لعُبِدَ ؛ لأنَّ أوصافَه من أوصافه ، ونعوتَه من نعوته) .

قلت : ومعنىٰ (لعُبِدَ): (أي لأُطيع ، قال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [يسٓ: ٦٠]؛ أي : لا تُطيعوه فيما يأمرُكم به ، والله أعلم .

قال بعضُهم : صلَّيت خلفَ الشيخ أبي العباس ، فشهدتُ الأنوارَ ملأت بدنه ، وانبثَّتْ من وجوده ، حتىٰ إني لم أستطعِ النظرَ إليه .

وكان رضي الله عنه يقول : (قال ملكٌ من الملوك لبعضِ العارفين : تمنَّ عليَّ ، فقال له ذلك العارف : تقولُ ذلك لي ولي عبدان قد ملكتُهما وملكاك ، وقهرتُهما وقهراك ، وهما الشهوة والحرص ، فأنت عبدُ عبدي ، فكيف أتمنَّىٰ عليك ، وأنت عبد عبدي ؟!) .

وكان يقول : (سمعت الشيخَ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول : (من ثبتتْ ولايتُهُ من الله تعالىٰ لا يكرهُ الموتَ ، وهٰذا ميزانٌ للمريدين ليزنوا به علىٰ نفوسهم إذا ادَّعوا ولاية الله ؛ فإنَّ من شأن النفوس وجودَ الدعوىٰ للمراتبِ العالية من غير أن يسلكَ السبيلَ الموصل إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قد يكونُ الوليُّ مشحوناً بالعلوم والمعارف ،

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٨٥) .

والحقائقُ لديه مشهودةٌ ، حتىٰ إذا أُعطي العبارة كان كالإذن من الله تعالىٰ في الكلام ، ويجب أن تفهمَ أنَّ من أُذنَ له في التعبير حلَت في مسامع الخلق إشاراتُهُ) .

وكان يقول : (كلامُ المأذونِ له يخرجُ وعليه كسوةٌ وطلاوة ، وكلامُ الذي لم يؤذنْ له يخرجُ مكسوفَ الأنوار) .

وكان يقول : (من أحبَّ الظهورَ فهو عبدُ الظهور ، ومن أحبَّ الخفاءَ فهو عبدُ الخفاء ، ومن كان عَبَدَ الله فسواءٌ عليه أظهرَهُ أو أخفاه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**الطيُّ طيَّان** : طيٌّ أصغر ، وطيٌّ أكبر ؛ فالطيُّ الأصغر لعامة هـٰذه الطائفة أن تُطوىٰ لهم الأرضُ من مشرقها إلىٰ مغربها في نَفَسٍ واحد ، والطيُّ الأكبر طيُّ أوصاف النفوس) .

وكان يقول : (دخلَ رجلٌ علىٰ عثمان رضي الله عنه ، وقد كان نظرَ إلىٰ محاسنِ امرأةٍ في الطريق ، فقال : يدخلُ أحدُكم وآثارُ الزِّنا باديةٌ في وجهه) .

وكان يقول : (قد يُطلعُ اللهُ الوليَّ علىٰ غيبه إذا ارتضاه بحكمِ التبعِ للرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن هنا نطقوا بالمغيَّبات ، وأصابوا الحقَّ فيها) .

وكان يقول : (طريقُنا هـٰذه لا تُنسب للمشارقة ولا للمغاربة ، بل واحدٍ عن واحد إلى الحسنِ بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وهو أوَّلُ الأقطاب) .

وكان يقول : (إنما يلزمُ الإنسانَ تعيينُ المشايخ الذين استندَ إليهم إذا كان طريقُهُ لبسَ الخرقةِ ؛ لأنها روايةٌ ، والروايةُ يتعيَّنُ رجالُ سندها ، وطريقنا هـٰذه هدايةٌ ، وقد يَجذبُ اللهُ تعالى العبدَ إليه ، فلا يجعلُ عليه منَّةً لأستاذٍ ، وقد يجمع شمله برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون آخذاً عنه ، وكفىٰ بهـٰذا منَّةً) .

وكان يقول كثيراً : قال الشيخ قال الشيخ ، كلَّما نقل كلاماً ، فقال له إنسان : لا نراك قطُّ تُسندُ لنفسِك كلاماً ، فقال رضي الله عنه : (لو أردتُ عددَ الأنفاس أن أقولَ : قال الله قال الله لقلتُ ، ولو أردتُ عددَ الأنفاس أن أقولَ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لقلتُ ، ولو شئتُ أن أقولَ علىٰ عددِ الأنفاس : قلتُ أنا لقلتُ ، ولـٰكنْ أقولُ : قال الشيخ ، وأترك ذكر نفسي أدباً) .

وكان يقول : (لم يزلِ الوليُّ في كلِّ عصرٍ لا يُلقي أكثرُ الناسِ إليه بالاً ، حتىٰ إذا ماتَ قالوا : كانَ فلان) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما سارَ الأولياء والأبدالُ من قاف إلىٰ قاف إلا حتىٰ يلتقوا مع واحدٍ مثلنا) .

وكان شيخه أبو الحسن رضي الله عنه يقول للناسِ : (عليكم بالشيخ أبي العباس ، فواللهِ ؛ إنه ليأتيه البدويُّ يبولُ علىٰ ساقَيه ، فلا يمشي إلا وقد أوصلَه إلى الله تعالىٰ ، وواللهِ ؛ ما من وليٍّ لله كان أو هو كائن إلا وقد أظهره اللهُ عليه ، وعلى اسمه ونسبه ، وحظِّه من الله تعالىٰ عز وجل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سمعتُ الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه يقول : لن تهلكَ طائفةٌ فيها أربعةٌ : إمامٌ ، ووليٌّ ، وصدِّيق ، وشيخ ، وقال أبو الحسن في ذلك المجلس : فالإمام هو أبو العباس) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الوليُّ إذا أراد أغنىٰ) .

وكان يقول : (قالَ لي الشيخُ أبو الحسن : يا أبا العباس ؛ ما صحبتُك إلا لتكونَ أنت أنا ، وأنا أنت) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لي أربعون سنة ما حُجبت عن الله تعالى طرفةَ عينٍ ، ولو حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددتُ نفسي من جملة المسلمين) .

وكذلك كان يقول في حقِّ الجنة ، وفي حقِّ الوقوفِ بعرفة كلَّ سنة .

وكان يقول : (لو كان الحقُّ سبحانه وتعالىٰ يُرضيه خلاف السُّنة . . لكان التوجُّهُ في الصلاة إلى القطبِ الغوث أولىٰ من التوجه إلى الكعبة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ ما كان اثنان من أصحابِ هـٰذا العلم في زمنٍ واحد قطُّ إلا واحداً بعد واحدٍ إلى الحسنِ بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

وكان يقول : (لا أعلمُ أحداً اليومَ يتكلَّمُ في هـٰذا العلم غيري علىٰ وجه الأرض) .

وقدَّم إليه بعضُهم طعاماً فيه شبهةٌ يمتحنُه ، فامتنع الشيخُ من أكله ، وقال : إن كان للشيخ المُحاسبي عرقٌ في إصبعِهِ يضربُ إذا مدَّ يده إلىٰ شُبهةٍ فأنا في يدي ستون عرقاً تضربُ ، فاستغفر الرجل ، وتابَ علىٰ يديه .

وكان يقول : من منذ دخلتُ على الشيخ أبي الحسن في القاهرة وهو يُقرأُ عليه كتاب « المواقف » للنِّفَّري ، وقال لي : تكلَّمْ يا بُني باركَ اللهُ تعالىٰ فيك ، أُعطيتُ لسانه من ذلك الوقت .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ لو علمتْ علماءُ العراق والشام ما تحت هـٰذه الشعرات ـ وأمسك علىٰ لحيته ـ لأتوها ولو سعياً علىٰ وجوهِهم) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما نُطالعُ كلامَ أهل الطريق إلا لنرىٰ فضلَ الله تعالىٰ علينا) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كملَ الرجلُ نطقَ بجميع اللغات ، وعرفَ جميعَ الألسن إلهاماً من الله عز وجل) .

وكان يقول : (من صحبَ المشايخ على الصدقِ وهو عالمٌ بالظاهر ازدادَ علمُه ظهوراً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تُطالبوا الشيخَ بأن تكونوا في خاطره ؛ بل طالبوا أنفسَكم أن يكونَ الشيخُ في خاطركم ، فعلىٰ مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده) .

وكان ساكناً في خطِّ المَقسم بالقاهرة ، فكان كلَّ ليلةٍ يأتي الإسكندريةَ ، فيسمع ميعادَ الشيخ أبي الحسن ، ثم يرجعُ إلى القاهرة ، وكان يقرأ عليه كتاب « ختم الأولياء » للحكيم الترمذي ، وكان هو وشيخه أبو الحسن يجلانه ويعظمانه ، رضي الله عنه .

وكان رجلٌ يُنكر عليه ، ويقول : ليس إلا أهلُ العلم الظاهر[1] ، وهـٰؤلاء القوم يدَّعون أموراً عظمىٰ ، ظاهرُ الشرعِ يأباها ، فحضر يوماً مجلس الشيخ ، فانبهر عقلُه ، ورجعَ عن إنكاره ، وقال : هـٰذا الرجلُ إنما يغرفُ من فيض بحرِ إلـٰهيٍّ ، ومددٍ ربَّانيٍّ ، ثم صارَ من أخصِّ أصحابه .

---

(١) في (ح) وحدها : (ليس لأهل العلم إلا الظاهر) .

وكان يقول : (شاركنا الفقهاءَ فيما هم فيه ، ولم يُشاركونا فيما نحن فيه) .

وعمل رضي الله عنه عصيدةً في يومٍ حارٍّ ! فقالوا له : العصيدةُ لا تُعمل إلا في أيام الشتاء ، فقال : هٰذه عصيدةُ ولدنا ياقوت ، ولِدَ اليومَ ببلاد الحبشة ، فلم يزلْ ياقوتُ يُباع من سيِّدٍ إلىٰ سيِّدٍ حتىٰ جاء إلىٰ سيدي أبي العباس ، وحسبوا عمرَهُ ، فوجدوا عمره كما قال .

وكان رضي الله عنه أكثرُ ما يتكلَّم في مجالسه في العقل الأكبر ، والاسم الأعظم ، وشُعبه الأربع ، والأسماء والحروف ، ودوائر الأولياء ، ومقامات الموقنين ، والأملاك المقرَّبين عند العرش ، وعلوم الأسرار ، وأمداد الأذكار ، ويوم المقادير ، وشأن التدبير ، وعلم البدء ، وعلم المشيئة ، وشأن القبضة ، ورجال القبضة ، وعلوم الأفراد ، وما سيكونُ يوم القيامة من أفعال الله تعالىٰ مع عباده من حلمه ، وإنعامه ، ووجود انتقامه .

وكان رضي الله عنه يقول : (لولا ضعفُ العقول لأخبرتُ بما يكون من رحمةِ الله تعالىٰ) .

قال ابنُ عطاء الله رضي الله عنه : (وكان الشيخُ أبو العباس رضي الله عنه لا يتنزَّلُ إلىٰ علوم المعاملة إلا في قليلٍ من الأيام ، لحاجةٍ بعض الناس إلىٰ ذلك ، قال : ولذلك يقلُّ اتباعُ مَنْ تكونُ علومُه العلومَ السابقة ، فإنَّ المشترين للمرجان قد يكثرون ، وقلَّ أن يجتمعَ علىٰ شراءِ الياقوت اثنان ، ولم يزلْ أتباعُ أهلِ الحق قليلين ، كما قال الله تعالىٰ في أهل الكهف : ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، وأهلُ الله كهفٌ لأموات الناس ، ولٰكنْ قليلٌ من يعرفهم) .

وكان سيدي أبو العباس رضي الله عنه يقول : (معرفةُ الوليِّ أصعبُ من معرفة الله عز وجل ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ معروفٌ بكماله وجماله ، وحتىٰ متىٰ تعرفُ مخلوقاً مثلَك يأكلُ كما تأكلُ ، ويشربُ كما تشرب ؟!) .

وطلب نائبُ الإسكندرية أن يجتمعَ به ، ويأخذَ بيده ، فيكون شيخَهُ ، فقال للقاصد : لستُ ممن يُلعب به ، ولم يجتمعْ به حتىٰ مات .

وكان إذا نامَ في بلدٍ في السفر ، وعرفَ أنَّ كبيرَها يُريد الاجتماعَ به . . يُسافر منها ليلاً قبل الفجر .

وكان يقول : (**علامةُ حبِّ الدنيا** : خوفُ المذمَّة ، وحبُّ الثناء ؛ فلو زهدَ لما خافَ ولا أحبَّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الوَرِعُ من ورَّعه الله) .

وكان يقول : (من لم يصلحْ للدنيا ولا للآخرة يصلحْ لله) .

وكان يقول : (ورعُ المنقطعين نشأ من سوءِ الظنِّ ، وغلبةِ الوهم ، وورعُ الأبدال والصدِّيقين على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة) .

وكان يقول : (واللهِ ؛ ما رأيتُ العزَّ إلا في رفع الهمَّة عن الخلق ، ولقد رأيتُ يوماً كلباً ، ومعي شيءٌ من الخبز ، فوضعته بين يديه ، فلم يلتفتْ إليه ، فقرَّبته من فيه ، فلم يلتفت إليه ، فإذا عليَّ بقائل يقول : (أفٍّ لمن يكونُ الكلبُ أزهدَ منه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (للناسِ أسبابٌ ، وسببُنا نحن الإيمان والتقوىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦]) .

وكان يقول : (ما سمعتموه مني ففهمتموه فاستودعوه اللهَ يردَّه عليكم وقتَ الحاجة ، وما لم تَفهموه فكِلوه إلى الله يتولَّ اللهُ بيانه ، واسعوا في جلاءِ مرآة قلوبكم يتَّضحْ لكم كلُّ شيء) .

وكان يقول : (إذا ضاقَ الوليُّ هلكَ من يُؤذيه في الوقت ، وإذا اتَّسعتْ معرفتُهُ احتملَ أذى الثَّقلين ، ولم يحصلْ لأحدٍ منهم ضررٌ بسببه) .

وكان يقول : (لحوم الأولياء مسمومة ، ولو لم يؤاخذوك ، فإياك ثم إياك) .

وكان رضي الله عنه به اثنا عشر باسوراً ، وكان به الحصىٰ وجرد الكلىٰ[1] ، ومع ذلك فكان يجلسُ للناس ، ولا يتأوَّه في جلوسه ، ولا يَعلمُ جليسُه بما هو فيه .

---

(١) كذا في النسخ بالجيم .

وكان يقول : (لا تنظروا إلىٰ حُمرةِ وجهي ؛ فإنها من حُمرة قلبي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ ما جلستُ للناس حتىٰ هُدِّدْتُ بالسَّلب ، وقيل لي : لئن لم تجلسْ لنسلبنك ما وهبناك) .

وكان لا يُكاتب الولاة في شيءٍ ، بل كان يقول للسائل : (أنا أطلبُ لك ذلك من الله تعالىٰ) .

وكان يَكرهُ للأشياخ إذا جاءهم مريدٌ أن يقولوا له : قفْ ساعةً ، ويقول : إن المريدَ يأتي إلى الشيخ بهمَّتِهِ المتوقِّدة ، فإذا قيل له : قف ساعة طُفئ ما جاء به .

وكان رضي الله عنه يقول عن شيخه : اصحبوني ، ولا أَمنعُكم أن تَصحبوا غيري ، فإنْ وجدتم مَنهلاً أعذبَ من هـٰذا المنهل فرِدُوا .

وكان إذا رأىٰ مُريداً دخلَ في أورادٍ بنفسه وهواه أخرجه عنها .

وكان إذا مُدِحَ بقصيدةٍ يُجيز المادحَ بإقباله عليه ، ويُعطيه العطايا .

وكان يقولُ لأصحابه : (إذا جاءنا رئيسُ قومٍ فأخبروني به أخرجْ إليه ، فإذا فارقه مشىٰ معه خطوات ثم يرجع ويقول : إن هـٰؤلاء كَلَّفوا نفوسَهم إلىٰ زيارتنا ، ونحن لم نَزرهم) .

وكان لا يأكلُ من طعامٍ يجيءُ له ، ولا من طعامٍ أُعلم به قبل أن يأتيه .

وكان لا يدعو للمُحسن حتىٰ يخرجَ من مجلسه ، فيدعو له بظهرِ الغيب .

وكان إذا أُهديَ إليه شيءٌ يَسير تلقَّاه ببشاشةٍ وقبول ، وإذا أُهدي له شيءٌ كثير يتلقَّاه بعزِّ النفس ، وإظهار الغنىٰ عنه .

وكان لا يُثني علىٰ مريدٍ بين إخوانه ؛ خشيةَ الحسد .

وكانت صلاتُهُ موجزةً في تمام ، ويقول : هي صلاةُ الأبدال .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا قرأتُ القرآنَ فكأنما أقرؤه على اللهِ عز وجل) .

وكان إذا سمعَ أحداً يَنطق باسم الله تعالىٰ أو اسم النبي صلى الله عليه وسلم . . يقرِّبُ فمَه منه حتىٰ يلتقطَ ذلك الاسم إجلالاً أن يبرزَ في الهواء) .

وكان إذا سمع أحداً يقول : هٰذه ليلةُ القدر يقول : نحن بحمدِ الله أوقاتُنا كلُّها ليلةُ قدرٍ .

وكان يُكرمُ الناسَ علىٰ نحو رتبهم عند الله ، حتىٰ إنه ربَّما يَدخلُ عليه المطيعُ فلا يلتفتُ إليه ؛ لكونه يرىٰ عبادته ، ويدخلُ عليه العاصي فيقومُ له ؛ لأنَّه دخلَ بذلِّ نفسٍ ، وانكسار .

ومدحوا عنده شخصاً بالعلم ، وكان كثيرَ الوسوسةِ في الوضوء والصلاة ، فقال الشيخ : أين علمُكم الذي تمدحون به هٰذا الرجل ؟! العلمُ هو الذي يَنطبعُ في القلب كالبياضِ في الأبيض ، والسواد في الأسود .

وقال لرجلٍ من الحجَّاج : كيف كان حجُّكم ؟ فقال : كان كثيرَ الرخاء ، كثيرَ الماء ، سعر كذا كذا وكذا ، وسعر كذا كذا وكذا ، فأعرضَ عنه الشيخ وقال : أسألُهم عن حجِّهم وما وجدوا فيه من الله تعالىٰ من العلمِ والنور والفتح ، فيجيبون برخاءِ الأسعار وكثرة المياه .

وكان يقول : (ينبغي للمشايخ تفقُّدُ حالِ المريدين ، ويجوزُ للمريدين إخبارُ الأستاذين بما في بواطنهم ؛ إذِ الأستاذُ كالطبيب ، وحالُ المريد كالعورة ، والعورةُ قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي ، وفي الحقيقةِ كلُّ مريدٍ رأىٰ له عورةً مع شيخه فهو أجنبيٌّ عنه لم يتَّحد به) .

وكان يقول : (للشيخ أن يطالبَ المريدَ ما دام قاصراً عن حقيقة دعواه ، فإذا بلغَ مبلغَ الرجال لم يطالبه علىٰ دعواه ببرهانٍ ؛ لخروجه عن مقام التلبيس) .

وكان يقول لمن رأىٰ أنه زهد في الدنيا : (لقد عظَّمتَ يا أخي الدنيا حين رأيتَ أن لها وجوداً حتىٰ زهدتَ فيها ، فقدرُها أصغرُ من ذلك) .

وكان رضي الله عنه يُفسِّرُ مُشكلات القوم كثيراً :

فقال في كلام سهل بن عبد الله (لا تكونوا من أبناء الدهور ، وكونوا من أبناء الأزل) : (معناه : لاحظوا ما سبقَ في علم الله ، ولا تتكلوا علىٰ علمِكم ، ولا علىٰ عملِكم مدَّة عمركم) .

وقال في قول بشر الحافي رضي الله عنه (إنِّي لأشتهي الشواءَ منذ أربعين سنة ، ما صفا لي ثمنُه) : (أي : لم يأذنْ ليَ الحقُّ في أكله ، فلو أذنَ لي لصفا لي ثمنُهُ ، وإلا فمن أين يأكلُ في الأربعين سنة ؟!) .

وقال في قول الجنيد رضي الله عنه (أدركتُ سبعين عارفاً كلُّهم كانوا يعبدون اللهَ تعالىٰ علىٰ ظنٍّ ووهمٍ ، حتىٰ أخي أبا يزيد ، لو أدركَ صبيّاً من صبياننا لأسلم علىٰ يديه) : (معناه : أنَّهم يقولون : ما بعدَ المقامِ الذي وصلناه مقامٌ ، فهٰذا وهمٌ وظنٌّ ، فإنَّ كلَّ مقامٍ فوقه مقامٌ إلىٰ ما لا يتناهىٰ ، وليس معناه الظنَّ والوهم في معرفتهم بالله تعالىٰ) ، ومعنىٰ : (لأسلم علىٰ يديه) : (أي لانقادَ له ؛ لأن الإسلام هو الانقيادُ) .

وقال في قول أبي يزيد رضي الله عنه : (خضت بحراً وقفَ الأنبياءُ بساحله) : (معناه : أنَّ أبا يزيد رضي الله عنه يشكو ضعفَهُ وعجزه عن اللُّحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ وذلك لأنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاضوا بحرَ التوحيد ، ووقفوا على الجانبِ الآخر علىٰ ساحل الغرق ، يدعون الخلقَ إلى الخوض ؛ أي : فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا) .

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه : (وهٰذا الذي فسَّرَ به الشيخُ كلام أبي يزيد رضي الله عنه هو اللائق بمقامِ أبي يزيد) .

وقد كان يقول : (جميعُ ما أخذَ الأولياءُ بالنسبة لما أخذَ الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام كزقٍّ مُلئ عسلاً ، ثم رشحتْ منه رشاحةٌ ، فما في باطن الزقِّ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتلك الرشاحةُ للأولياء رضي الله عنهم) .

والمشهور عن أبي يزيد رضي الله عنه التعظيمُ لمراسم الشريعة ، والقيامُ بكمال الأدب ، فالحقُّ تأويلُ أحوال الأكابر من أهلِ الاستقامة ، دون المبادرةِ إلى الإنكار .

وقال في حكايةِ الحارث بنِ أسد من أنه كان إذا مدَّ يدَه إلىٰ طعامٍ فيه شُبهةٌ تحرَّك عليه إصبعُهُ : كيف هٰذا ؟! وقد قُدِّمَ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لبَنٌ ، فأكل منه ، ثم وجدَ كدورتَه في قلبه ، فقال : من أينَ لكم هٰذا اللبن ؟! فقال غلامٌ له : كنت

تكهَّنْتُ لقومٍ في الجاهلية ، فأعطوني ثمنَ كهانتي ، فتقايأه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، **فلِمَ لم يكنْ للصدِّيقِ عرقٌ يتحرَّكُ عليه إذا أكل طعاماً فيه شُبهةٌ** مع كونه أفضلَ من الحارث بالإجماع ؟! **والجوابُ** : أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان خليفةً مُشرِّعاً للعباد حتىٰ يَقتدي به من أكلَ طعاماً فيه شُبهةٌ ولم يعلم ، فيتكلَّف طرحَهُ بعد أكله ، فيثيبه الله تعالىٰ علىٰ ذلك ، والحارث رضي الله عنه لم يكن إذ ذاكَ مشرِّعاً ، ولا قدوةً ، إنما يعملُ بقصد نفع نفسه فقط ، ومعلومٌ : أنَّ القدوةَ من شأنه التنزُّلُ في المقام للتعليم .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما بدأ القُشيري في « رسالته » بالفُضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ؛ لأنهما كانا قد تقدَّمَ لهما زمنُ قطيعةٍ ، فلما أقبلا أقبلَ اللهُ عليهما ، فبدأ بذكرِهما بسطاً لرجاء المريدين الذين كانت تقدَّمتْ منهم الزلاتُ والمخالفات ، وليعلمَ أنَّ فضلَ الله ليس بمعلَّلٍ بعمل ، ولو أنه بدأ بالجُنيد ، وسهل بنِ عبد الله ، وعُتبة الغلام ، وأمثالِهم ممَّنْ نشأَ في طريقِ الله .. لربما قال قائل : (من يُدركُ هٰؤلاء ، هٰؤلاء لم يسبقْ لهم زلاَّتٌ ولا مخالفات) .

وقال في قول سمنون المحب : [من مخلع البسيط]

وليسَ لي في سِواكَ حظٌّ فكيفما شِئْتَ فاختبِرْني

فابتُلي بحصر البول ، فصاح ، وصار يقول : ادعوا لعمِّكم الكذَّاب .

لو كان سمنونُ قال عوضَ ما قال (فكيفما شئت فاختبرني) : (فاعف عني) لكان أولىٰ من طلب الاختبار .

قلت : وإنما وقع الامتحانُ لسمنون لغفلتِهِ عن التبرِّي من الدعوىٰ ، فلو قال : مُدَّني بالقُّوة ، ثم اختبرني بما شئتَ ، لم يُمتحن .

وكان شيخُنا رضي الله عنه يقول : إذا قيل لك : أَتخافُ الله تعالىٰ ؟ فقل : نعم ، لٰكن بقدرِ ما خلقَهُ فيَّ من الخوف ، وكذلك القول في : أَتحبُّ الله تعالىٰ ؟ فمن سلكَ ذلك لا يقعُ له امتحانٌ ؛ لتعويله على اللهِ تعالىٰ ، لا علىٰ قوَّةِ نفسه هو ، وقد قالوا : كلُّ مدَّعٍ مُمتحن ، وهٰذا ميزانُه ، والله أعلم .

وقال في قول السَّريِّ رضي الله عنه في حدِّ التوبة : (التوبة ألا تنسىٰ ذنبك) : (هو

أولىٰ من قول الجنيد رضي الله عنه ، وغيره : « التوبة أن تَنسىٰ ذنبك » ؛ لأن كلامَ السريِّ رضي الله عنه يدلُّ علىٰ مبادئ المقامات ، وكان السريُّ مُكلَّفاً بالكلام علىٰ مقامات العباد لكماله ، والجُنيد وغيرُه لم يكن إذ ذاك قدوةً للناس ، فافهم) .

وقال في قول بعضهم : (لا يكون الصوفيُّ صوفياً حتىٰ لا يكتبَ عليه صاحبُ الشمال ذنباً عشرين سنة) : (ليس معنىٰ ذلك ألا يقعَ منه ذنبٌ عشرين سنة ، وإنما معناه عدمُ الإصرار ، فكلما أذنبَ تابَ واستغفرَ على الفور) .

وكان يقول : (إذا رفعكَ إلىٰ محلِّ المحاضرة والشهودِ المسلوب عن العلل . . فذاك مقامُ التعريف ، والإيمان الحقيقي ، وميدانِ تنزل أسرار الأزل ، وإذا أنزلَكَ إلىٰ محلِّ المجاهدة والمكابدة فذاك مقامُ التكليف المقيَّدِ بالعلل ، وهو الإسلامُ الحقُّ ، وميدانُ تجلِّي حقائق الأبدية ، والمحقِّقُ لا يُبالي بأيِّ صفةٍ يكون) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] : (أي : علىٰ معاينة يعاين لكلِّ صنفٍ طريقَهم ، فيحملهم عليها ، وهي النيابة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العارفُ لا دنيا له ؛ لأن دنياه لآخرته ، وآخرتَهُ لربِّه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الزاهدُ غريبٌ في الدنيا ؛ لأن الآخرةَ وطنُهُ ، والعارفُ غريبٌ في الآخرة ؛ فإنه عند الله تعالىٰ) .

ومعنىٰ (غربته في الدنيا) : قلَّةُ من يُعينه على القيام بالحقِّ ، وقلَّةُ من يُشاكلُهُ في المقام ، وأما (غربةُ العارف في الآخرة) : فإنَّ سرَّهَ مع الله تعالىٰ بلا أين[١] ، والمدار علىٰ محلٍّ يكونُ فيه القلبُ ، لا علىٰ محلٍّ يكون فيه الجسم ، كما أنَّ الزاهدَ كذلك ؛ موطنُ قلبه في الدنيا إنما هو الآخرة ، فهي معششُ روحه ، ولولا ذلك لما صحَّ له الزهدُ في الدنيا .

وكان رضي الله عنه يقول : (العامةُ إذا خُوِّفوا خافوا ، وإذا رُوِّحوا راحوا ، والخاصَّةُ متىٰ خُوِّفوا راحوا ، ومتىٰ رُوِّحوا خافوا) .

---

(١) في نسخة من نسخ الاستئناس : (سيره) بدل (سره) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كان الإنسانُ بعد أن لم يكن ، وسيفني بعد أن كان ، ومَنْ كلا طرفيه عدمٌ فهو عدم) .

قال ابنُ عطاء الله رضي الله عنه : (أي : لأنَّ الكائنات لا تثبتُ لها رتبةُ الوجود المطلق ؛ لأنَّ الوجودَ الحقَّ إنَّما هو لله ، وله الأحدية فيه ، وأمَّا العالَم فالوجودُ له من غيره ، ومَنْ كان كذلك فالعدمُ وصفه في نفسه) .

وكان من طريقته ، وطريقةِ شيخه أبي الحسن الإعراضُ عن لبس الزِّيِّ والمرقعات ؛ لأن هـٰذا اللباسَ يُنادي علىٰ صاحبه : أنا فقير فأعطوني شيئاً ، ويُنادي علىٰ سرِّ الفقير بالإفشاء ، فمن لبس الزِّيَّ فقد ادعىٰ .

قلت : وليس مُرادُ الشيخ أنه يعيب على الفقراء لبسَ الزِّيِّ ، وإنما مُرادُهُ أنه لا يلزمُ كلُّ من كان له نصيبٌ مما للقوم أن يلبسَ ملابس الفقراء ، فلا حرجَ على اللابس للخشنِ ، ولا على اللابس للناعم إذا كانا من المحسنين ، والأعمال بالنيات .

وكان يقول : (اختلفَ الناسُ في اشتقاق الصوفي ، وأَحسنُ ما قيل فيه : إنه منسوبٌ لفعل الله تعالىٰ به ؛ أي : صافاه اللهُ تعالىٰ ، فصُوفي ، فسمَّوه صوفياً) .

وكان يقول في قول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : (يا بني إسرائيل ؛ بحقٍّ أقولُ لكم : لا يلجُ ملكوتَ السماوات والأرض من لم يُولد مرَّتين) : (أنا واللهِ ممن ولِدَ مرَّتين ، الإيلادُ الأول : إيلاد الطبيعة ، والإيلادُ الثاني : إيلادُ الروح في سماء المعارف) .

وكان يقول : (لن يصلَ الوليُّ إلى الله تعالىٰ حتىٰ تنقطعَ عنه شهوةُ الوصول إلى الله تعالىٰ ؛ أي : انقطاعُ أدبٍ لا انقطاع ملل ؛ لغلبةِ التفويض علىٰ قلبه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّ الله تعالىٰ جعلَ الآدميَّ ثلاثةَ أجزاء : فلسانُهُ جزء ، وجوارحُهُ جزء ، وقلبُهُ جزء ، وقد طلبَ من كلِّ جزءٍ وفاءً ؛ فوفاءُ القلب : ألا يشتغلَ بهمِّ رزقٍ ، ولا مكرٍ ، ولا حسدٍ ، ووفاءُ اللسان : ألا يغتاب ، ولا يكذب ، ولا يتكلَّمَ فيما لا يعنيه ، ووفاء الجوارحِ : ألا يسارعَ بها قطُّ إلىٰ معصيةٍ ، ولا يُؤذي بها أحداً من المسلمين ، فمن وقعَ من قلبه فهو منافقٌ ، ومن وقعَ من لسانه فهو كافر ، ومن وقع من جوارحه فهو عاصٍ) .

وكان يقول : (من اشترىٰ من زيَّاتٍ زيتاً ، فزاده البياعُ خيطاً . . فدِينُهُ أرقُّ من ذلك الخيط ، ومن اشترىٰ من فحَّامٍ فحماً ، فلما فرغَ قال : زدني فحمةً فقلبُهُ أسودُ من تلك الفحمة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُدخلُ على الله تعالىٰ إلا من بابين : من باب الفناء الأكبر ؛ وهو الموت الطبيعي ، وإما من باب الفناء الذي تعنيه هـٰذه الطائفة) .

وكان يقول : (الكائناتُ علىٰ أربعة أقسام : جسمٌ كثيف ، وهو بمجرَّدِهِ جمادٌ ، وجسمٌ لطيف ، وهو بمجرَّدِهِ جانٌّ ، وروحٌ شفَّاف ، وهو بمجرَّدِهِ مَلَكٌ ، وسرٌّ غريب ، وهو المعنى المسجودُ له ؛ فالآدميُّ بظاهرِ صورته جمادٌ ، وبوجود نفسه وتخيُّلِها وتشكُّلها جانٌّ ، وبوجود روحه مَلَكٌ ، وبإعطائه السر الغريب استحقَّ أن يكون خليفة) .

وكان يقول : (ليس العَجَبُ ممن تاه في نصفِ ميلٍ أربعين سنة ، إنما العَجَبُ ممن تاه في مقدارِ شبرٍ الستين والسبعين والثمانين سنة ، وهي البطنُ) .

وكان يقول : (للأولياء الإشرافُ علىٰ مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما لهم الإحاطة بمقاماتهم ، والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام يحيطون بمقامات الأولياء) .

وكان يقول : (جميعُ أسماء الله تعالىٰ جاءت للتخلُّق ، إلا اسم « الله » فإنه للتعلُّقِ فقط ؛ إذ مضمونُهُ الإلـٰهية ، والإلـٰهيةُ لا يُتخلَّق بها أصلاً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (السماءُ عندنا كالسقف ، والأرضُ كالبيت ، وليسَ الرجلُ عندنا من يحصرُهُ هـٰذا البيت) .

وكان يقول : (نحن في الدنيا بأبداننا مع وجودِ أرواحنا ، وسنكونُ في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا) .

قلت : وفي هـٰذا ردٌّ لمن قالَ : يكونُ الناسُ في الجنة بأرواحهم لا بأجسامهم ، وعليه جماعةٌ من أهل الكشف الناقص ، وسببُ غلطهم : شهودُهم أهلَ الجنة يتحوَّلون في أيِّ صورةٍ شاؤوا ، وهـٰذا شأنُ الأرواح لا الأجسام ، وغابَ عنهم : أنَّ الأجسام

هناك منطويةٌ في الأرواح ، لا معدومة ، كما أن الأرواحَ في هـٰذه الدار منطويةٌ في الأجسام ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (الفرقُ بين معصيةِ المؤمن ومعصيةِ الفاجر من ثلاثةِ أوجه : المؤمنُ لا يعزمُ عليها قبل فعلها ، ولا يفرحُ بها وقتَ الفعل ، ولا يصرُّ عليها ، والفاجرُ ليس كذلك) .

وكان يحثُّ أصحابَه علىٰ كثرة ذكرِ اسم الله الأعظم ، ويقول : (هـٰذا الاسم سلطانُ الأسماء ، وله بساطٌ وثمرةٌ ؛ فبساطه العلمُ ، وثمرتُهُ النور ، وإذا حصلَ النورُ وقعَ الكشفُ والعيان) .

وكان يقول : (ليستِ الفتوَّةُ بالماء والملح[1] ، وإنَّما الفتوَّةُ الإيمانُ والهداية) .

وكان يقول : ما سُمِّي إبراهيم الخليل فتىً إلا لكونه كَسَرَ الأصنام الحسِّية التي وجدها[2] ، وأنتَ يا ولدي لكَ أصنامٌ خمسةٌ معنوية ، فإن كسرتَها فأنتَ فتىً : النفس ، والهوىٰ ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا . وأفهم ها هنا :

لا سيفَ إلا ذو الفقار   ولا فتى إلا علي[3]

وكان يقول : الكاملُ من يملك حاله ، وله سوحةٌ في العلم ، كما قيل لبعضهم : ما لك لا تتحرَّكُ في السماع أمس ؟! فقال : إنه كان في الجمع كبيرٌ ، فاحتشمتُ منه ، ولو أني خلوتُ وحدي لأرسلتُ وجدي وتواجدتُ ، فانظر كيفَ كان زمامُ حاله معه يُمسكه إذا شاءَ ، ويُطلقه إذا شاء .

---

(١) انظر كتاب « الفتوة » (ص ٢٥١) .

(٢) قال تعالىٰ في سورة الأنبياء (٦٠) : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ .

(٣) روى ابن عدي في كتابه « الكامل في الضعفاء » (٥/ ١٨٩٩) (ترجمة عيسى بن مهران) : أن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد كانت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وراية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة ، فكان عليٌّ كرم الله وجهه يحمل علىٰ كل من رفع رايةً للمشركين فيقتله ، حتىٰ قتل سبعة أنفس ، وقتل جماعة من أئمة الكفر ، فنادىٰ صائحٌ من السماء : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا علي .
وذو الفقار : سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصله من حديد وجدت مدفونة عند الكعبة ، قيل : فيه سبع فِقَرٍ .

وإذا اتَّسعَ القلبُ بمعرفة الله تعالىٰ غرقتْ فيه الواردات ؛ ولهـٰذا جُهلتْ أحوالُ الأكابر أربابِ المقامات ، واشتَهر أهلُ الأحوالِ ؛ لظهورِ آثار المواهبِ عليهم ؛ لضعفِهم عن كتمها ، ولضيقِهم عن وسعها ، وربما كان صاحبُ الحال أحظىٰ عند الخلق بإقبالهم عليه من صاحبِ المقام ، مع أنَّ بينه وبينه كما بين السماء والأرض ؛ ولذلك قال ابنُ عطاء الله : كلَّما تمكَّنَ الرجلُ في العلوم الإلـٰهية ، والمعارفِ الربَّانية . . استُغرِبَ في هـٰذا العالم ، فيقلُّ مَنْ يَعرفُهُ ، ويُفقدُ من يحيطُ به فيصفه .

وكان يقول : (كلُّ سوءِ أدبٍ يُثمر لك أدباً فهو أدب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كان الجُنيد رضي الله عنه قطباً في العلم ، وكان سهل التستري رضي الله عنه قطباً في المقام ، وكان أبو يزيد رضي الله عنه قطباً في الحال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (اللُّطفُ حجابٌ من اللطيف إذا وقفَ معه العبد ، والحقُّ لا يحبُّ أن يأنسَ عبدُه إلىٰ غيره ، وقد أوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام : نعم العبد [برخ] لولا أنه يسكنُ إلىٰ نسيمِ الأسحار[1] ، ولو أنه عرفني ما سكنَ إلىٰ غيري) .

وكان يقول في قول أبي عبد الرحمـٰن السُّلمي : (انتهىٰ عقلُ العقلاء إلى الحيرة) : (معناه : أنه لا حيرةَ إلا عند المؤمنين ، وأما المحقِّقون فلا حيرةَ عندهم فيما فيه الحيرة عند المؤمنين) .

وكان يقول : (قليلُ العمل مع شهود المنَّةِ من الله تعالىٰ خيرٌ من كثيرِ العمل مع شهودِ التقصير من النفس) .

وكان يقول عن شيخه : (خرجَ الزهَّاد والعبَّاد من هـٰذه الدار وقلوبُهم مقفلةٌ عن الله عز وجل) .

وكان يقول عن شيخه : (من لم يتغلغلْ في هـٰذه العلوم مات مصرّاً على الكبائر ، وهو لا يعلم) .

وكان يقول عن شيخه أيضاً : (كلُّ شيءٍ نهاك اللهُ عنه فهو في معنىٰ شجرةِ آدم عليه

---

(١) في النسخ : (بلخ) بدل (برخ) ، والمثبت من المصادر ، وبرخ : عبد أسود استسقىٰ به موسىٰ عليه السلام . انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٣٣) ، و« فيض القدير » (١/ ١١٠) .

الصلاة والسلام ، لكنَّا افترقنا ، فإنَّ آدم عليه السلام لمَّا أكلَ من الشجرة نزلَ إلى الأرض للخلافة ، وأنتَ إذا أكلتَ من شجرةِ النَّهي نزلتَ إلى أرض القطيعة ، فإياكَ ثم إياك) .

وكان يقول : كان شخصٌ من الأولياء يتكلَّمُ على الناس بأرض المغرب ، وهو بادِنٌ ، فدخلَ عليه شخصٌ مكشوفُ الرأس كبيرُها ، فقال : هٰذا يُزهِّدنا في الدنيا وهو كالدبِّ ؟! فكوشف به الشيخ ، فقال من فوق المنبر : يا أبا رويس ، ما سَمَّنني إلا حبُّهُ .

وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه : (إذا أكلتُم طعامَ إنسانٍ فاشربوا عنده حتى يَنالُ كمالَ الأجر ؛ فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « منْ سَقىٰ مؤمناً شربةَ ماءٍ معْ وجودِ الماءِ كانَ كمنْ أعتقَ سبعينَ منْ ولدِ إسماعيلَ عليهِ السلامُ »[1] .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يأخذَ من أحدٍ شيئاً بقصد نفعِ نفسه ، إنَّما يأخذُ ليثيبَ من يعطيه ، ويعوِّضَهُ عليه ، فمن تطهَّرتْ نفسُه وتقدَّست فليقبلْ ، وإلا فلا) .

وقال رضي الله عنه لبعض أصحابه : لِمَ انقطعتَ عن مجلسنا ؟! فقال : يا سيدي ، قد استغنيتُ بك ، فقال الشيخ : ما استغنىٰ أحدٌ بأحدٍ ما استغنىٰ أبو بكر رضي الله عنه ، ومع ذلك لم ينقطعْ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يوماً واحداً .

وكان يقول : (لما خلقَ الله تعالى الأرضَ اضطربتْ ، فأرساها بالجبال ، وكذلك النفسُ لما خلقها اللهُ تعالى اضطربتْ ، فأرساها بجبال العقل) .

وكان يقول : (الأكوانُ كلُّها عبيدٌ مُسخَّرةٌ ، وأنت عبدُ حضرته) .

وكان يقول لأصحابه : (إذا وصلتم إلىٰ مكَّةَ فليكنْ همُّكم ربَّ البيت لا البيت ، ولا تكونوا ممَّن يَعبدُ الأصنام والأوثان) .

---

(١) لم أجد الحديث إلا في كتاب « الكافي » للكليني ، باب تفريج كرب المؤمن (٧) : (علي بن إبراهيم عن أبيه ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « منْ سقىٰ مؤمناً شربةً منْ ماء منْ حيثُ يَقدرُ على الماءِ أعطاهُ اللهُ بكلِّ شربةٍ سبعينَ ألفَ حسنةٍ ، وإنْ سقاهُ منْ حيثُ لا يقدرُ على الماءِ فكأنما أعتقَ عشرَ رقابٍ منْ ولدِ إسماعيلَ » ، لٰكن روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٨٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « من سقىٰ مسلماً شربة ماء باعده الله من جهنم شوط فرس » .

وكان يقول : (من عرفَ الله لم يسكنْ إليه ؛ لأن في السكونِ إلى الله ضرباً من الأمن ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩]) .

وكان يقول : (الوليُّ في حالِ فنائه لا بدَّ أن تبقىٰ معه لطيفةٌ علمية عليها يترتَّبُ التكليف ؛ وذلك كما يكون الإنسانُ في البيتِ المُظلم ، فهو عالمٌ بوجوده ، وإن كان غيرَ مُشاهدٍ له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ ما جلستُ حتىٰ جعلتُ جميعَ الكرامات تحت سجَّادتي) .

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه : (قرأتُ على الشيخِ أبي العباس كتاب « الرعاية » للمحاسبي ، فقال : جميعُ ما في هـٰذا الكتاب يُغني عنه كلمتان : اعبدِ الله بشرط العلم ، ولا ترضَ عن نفسك أبداً ، ثم لم يأذنْ لي في قراءتِهِ بعدُ) .

وكان يقول : (من اشتاقَ إلىٰ لقاءِ ظالمٍ فهو ظالم) .

وكان يقول : (القبضُ الذي لا يُعرفُ سببُه لا يكونُ إلا لأهلِ التخصيص) .

وكان يقول : (لو علمَ الشيطانُ أنَّ ثَمَّ طريقاً تُوصل إلى الله تعالىٰ أفضلُ من الشكر . . لوقف عليها ، ألا تراه كيف قال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ولم يقل « صابرين » ، ولا « خائفين » ، ولا « راجين » ؟!) .

وكان يقول : (أبو بكر وعمر خلفاءُ الرسالة ، وعثمان وعلي خلفاءُ النبوة) .

وكان يقول : (العامةُ إن رأوا إنساناً يُنسب إلى الولاية ، جاء من البراري والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم ، وكم من بدلٍ ووليٍّ بين أظهرهم فلا يُلقون إليه بالاً ، مع أنه هو الذي يحملُ أثقالهم ، ويدافعُ الأغيار عنهم ، فمثلهم في ذلك كمثلِ حمارِ الوحش يُدخلُ به البلدَ ، فيطوفُ به الناسُ متعجِّبين لتخاطيط جلده ، وحسنِ صورته ، والحمرُ التي بين أظهرهم تحملُ أثقالهم إلىٰ مواضعِ أغراضهم ، وتنقل ترابَهم وآلات بنائهم ، ولا يلتفتون إليها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الهالكُ بهـٰذه الطائفة أكثرُ من الناجي بها) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٥) سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان إماماً في المعارف ، عابداً زاهداً .

وهو أجلُّ مَنْ أخذَ عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه .

وأخبرَ به سيدي أبو العباس رضي الله عنه يومَ ولدَ ببلاد الحبشة ، وصنعَ له عصيدةً أيام الصيف بالإسكندرية ، فقيل له : إنَّ العصيدةَ لا تكون إلا في أيام الشتاء ! فقال : هٰذه عصيدةُ أخيكم ياقوت ، ولِدَ ببلاد الحبشة ، وسوف يأتيكم ، فكان الأمر كما قال .

وهو الذي شفعَ في الشيخ شمس الدين بنِ اللبَّان لمَّا أنكرَ علىٰ سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ، وسُلب علمه وحاله بعد أن توسَّل بجميع الأولياء ، ولم يقبلْ سيدي أحمد شفاعتَهم فيه ، فسافر من الإسكندرية إلىٰ سيدي أحمد ، وسأله أن يطيِّبَ خاطره عليه ، وأن يردَّ عليه حالَهُ ، فأجابه ، ثم إن سيدي ياقوت زوَّجَ ابنَ اللبان ابنتَهُ ، ولما مات أوصىٰ أن يُدفنَ تحت رجليها إعظاماً لوالدها الشيخ ياقوت .

وإنَّما سُمِّي العرشي لأنَّ قلبَه كان لم يزلْ تحت العرش ، وما في الأرض إلا جسمه .

وقيل : لأنه كان يسمعُ أذانَ حملة العرش .

وكان رضي الله عنه يشفعُ حتىٰ في الحيوانات ، وجاءته مرَّةً يمامةٌ ، فجلست علىٰ كتفه ، وهو جالسٌ في حلقة الفقراء ، وأسرَّتْ إليه شيئاً في أذنه ، فقال : باسم الله ، ونُرسلُ معك أحداً من الفقراء ، فقالت : ما يكفيني إلا أنت ، فركب بغلتَهُ من الإسكندرية ، وسافرَ إلىٰ مصر العتيقة ، حتىٰ دخلَ إلىٰ جامع عمرو ، فقال : اجمعوني

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٤٧٨) ، و« الدرر الكامنة » (٤/ ٤٠٨) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٠٤) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٢١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٦٠) (٣١١) .

علىٰ فلانٍ المؤذن ، فأرسلوا وراءه ، فجاء ، فقال له : هـٰذه اليمامةُ أخبرتني بالإسكندرية أنَّكَ تذبحُ فراخَها كلما تُفرِّخُ في المنارة ، فقال : صدقتْ ، قد ذبحتُهم مراراً ، فقال : لا تعدْ ، فقال : تبتُ إلى الله تعالىٰ ، ورجع الشيخ إلى الإسكندرية ، رضي الله عنه .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة بين الطائفة الشاذلية بمصر وغيرها .

توفي رضي الله عنه بالإسكندرية سنة سبعٍ وسبع مئة[1] رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٦) الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندري رضي الله تعالىٰ عنه[2]

الزاهد ، المذكِّر ، الكبيرُ القدر .

تلميذُ الشيخ ياقوت رضي الله عنه ، وقبله تلميذ الشيخ أبي العباس المُرسي .

كان ينفعُ الناسَ بإشاراته ، ولكلامه حلاوةٌ في النفوس ، وجلالة .

مات سنة تسعٍ وسبع مئة ، وقبره في القَرَافة ظاهر يُزار .

وله من المؤلفات كتاب « التنوير في إسقاط التدبير »[3] ، وكتاب « الحِكَم »[4] ،

---

(١) كذا في النسخ ، وجمهور من ترجم له ذكر وفاته سنة (٧٣٢هـ) . انظر « الدرر الكامنة » (٤٠٨/٤) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٢٣/٩) ، و« الوافي بالوفيات » (٥٧/٨) ، و« الدرر الكامنة » (٢٧٣/١) ، و« طبقات المناوي » (٨/٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤٦١/٣) (٣١٢) .

(٣) ذكر أنه ألفه بمكة المكرمة ، ثم استدرك عليه بدمشق ، وزاد فيه فوائد ، ولم يرتب ، وإنما هو كلمات من حيث الورود . انظر « كشف الظنون » (٥٠٢/١) .

(٤) هي حكم منثورة علىٰ لسان أهل الطريقة ، ولـمَّا صنَّفها عرضها علىٰ شيخه أبي العباس المرسي ، فتأمَّلها ، وقال له : لقد أتيت يا بني في هـٰذه الكراسة بمقاصد « الإحياء » وزيادة ؛ ولذلك تعشَّقها أرباب الذوق لِـمَا رقَّ من معانيها وراق ، وبسطوا القول فيها ، وشرحوها كثيراً .

وكتاب « لطائف المنن »[1] ، وغيرُ ذلك ، رضي الله تعالىٰ عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣١٧) جدِّي الخامس الشيخ موسى المكنىٰ بأبي العمران[2]

في بلاد البهنسا بصعيد مصر الأدنىٰ ، رضي الله عنه .

وهو من أجلِّ أصحابِ سيدي الشيخ أبي مَدْين التِّلمساني شيخ المغرب .

وكان من أولاد السُّلطان مولاي أبي عبد الله الزُّغْلي ـ بضم الزاي ، وإسكان الغين المعجمة ـ نسبةً إلىٰ قبيلة من عربِ المغرب ، يُقال لهم : بنو زُغلة ، وكان سُلطان تِلِمْسان وما والاها ، فلما ترعرع سيدي موسى اختار طريقَ الله تعالىٰ على الملك ، فتشوَّشَ والده لذلك .

فلما غلبَ الأمرُ عليه أطلق له الأمر ، فاجتمع سيدي موسىٰ على الشيخ أبي مَدْين رضي الله عنه ، فلما قدم عليه قال له : إلىٰ مَنْ تنتسب ؟ قال : إلى السُّلطان مولاي أبي عبد الله ، قال : وما ينتهي إليه نسبك ؟ قال : إلى السيد محمد بن الحنفية بن الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال الشيخ رضي الله عنه : طريقُ فقرٍ ، ومُلكٍ ، وشرفٍ لا يجتمعن ، فقال : يا سيدي ، أُشهدك أني قد خلعتُ نسبتي إلىٰ غيرك ، فأخذ عليه العهدَ ، ووقعَ له علىٰ يديه الكراماتُ ، وكلَّمته البهائم والحيوانات ، وهابته الأسود .

فلما أرسل سيدي أبو مدين رضي الله عنه عدَّةً من أصحابه إلىٰ مصر أرسله من جملتهم ، وقال له : إذا وصلتَ إلىٰ مصرَ فاقصدْ ناحية هور بصعيدها الأدنىٰ ؛ فإنَّ فيها قبرَك ، وكان كذلك .

---

(١) تقدم الحديث عنه (٢/ ٦٨) .

(٢) انظر « الفتوحات المكية » (٢/ ٨ ، ١٧ ، ١٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦) ، و« روح القدس » (ص ٩٠) ، و« الدرة الفاخرة » (ص ٣٩) ، و« طبقات المناوي » (٤/ ٦٠٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٦٢) (٣١٤) .

وتفرَّقت أولادُه في البلاد ، فجماعةٌ ماتوا بمنشية الأمراء[١] ، وجماعةٌ ببَلَنْسُورَة[٢] ، وساحَ أولادُهُ إلىٰ بلاد الرجراج .

وكان إذا ناداه مريدُهُ أجابه من مسيرةِ سنة وأكثر .

وأَخْبرَ أصحابَهُ بأحوال جدي الأدنى الشيخ علي رضي الله عنه الآتي ذكر مناقبه في أهل القرن التاسع إن شاء الله تعالىٰ[٣] .

مات سنة سبع وسبع مئة[٤] علىٰ ما قيل ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣١٨) العارف بالله تعالى سيدي محمد وفا رضي الله عنه[٥]

كان من أكابر العارفين .

وأخبر ولدُهُ سيدي عليٌّ رضي الله عنه أنه هو خاتمُ الأولياء ، صاحبُ الرُّتبة العلية .

وكان أمياً ، وله لسانٌ غريب في علوم القوم ، ومؤلفاته كثيرةٌ أَلَّفها في صباه ، وهو ابنُ سبع سنين أو عشر ، فضلاً عن كونه كهلاً .

وله رموزٌ في منظوماته ومنثوراته مُطلسمة إلىٰ وقتنا هـٰذا لم يفكَّ أحدٌ فيما نعلم معناها .

ولما دنتْ وفاته خلعَ منطقته على الأبزاري صاحبِ الموشحات ، وقال : هي وديعةٌ عندك حتىٰ تخلعَها علىٰ ولدي علي ، فعملَ أيامَ كانت المنطقةُ عنده الموشحاتِ الظريفةَ

---

(١) منشأة الأمراء : من البلاد القديمة بمركز بني سويف .

(٢) بَلَنْسُورَة : من القرى القديمة ، اسمها الآن بَلَنْصُورة ، من أعمال الأشمونين . « رمزي » (٢/٣/١٧٧) .

(٣) ستأتي ترجمته (٢/٣١٧) .

(٤) توفي أبو مدين التلمساني سنة (٥٩٣هـ) ، وتوفي ابن عربي سنة (٦٣٨هـ) الذي قال عن أبي عمران موسىٰ : أكبر من لقيته ، فلعل الصواب : أن سنة وفاته كانت (٦٠٧هـ) .

(٥) انظر « الدرر الكامنة » (٤/٢٧٩) ، و« طبقات المناوي » (٣/٩٧) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٢٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/٤٦٣) (٣١٥) .

إلىٰ أن كبرَ سيدي علي ، فخلعَها عليه ، ثم رجعَ لا يعرفُ يعملُ موشَّحاً كما أخبرني عن نفسه ، رضي الله عنه .

وسُمِّي وفا لأن بحر النيل توقَّف ، فلم يزدْ إلىٰ أوان الوفاء[1] ، فعزم أهل مصر على الرحيل ، فجاء إلى البحر ، وقال : اطلعْ بإذن الله تعالىٰ ، فطلعَ ذلك اليوم سبعةَ عشر ذراعاً ، وأوفىٰ فسمَّوه وفا .

وسئل ولده سيدي علي رضي الله عنه مع علوِّ مقامه وفرقانه أَنْ يشرحَ شيئاً من تائية والده ، فقال رضي الله عنه : لا أعرفُ مُرادَه فيها ؛ لأنه لسان أعجمي علىٰ أمثالنا . انتهىٰ .

ومن كلامه رضي الله عنه في كتابه « فصول الحقائق » :

(أعوذُ بالله من شياطين الخلق والكون ، وأبالسةِ العلم والجهل ، وأغيار المعرفة والنكرة ، اللهم ؛ إني أعوذُ بك وبسبق قدمك من شرِّ حدوثك ، وبظلمة ذاتك من نور صفاتك ، وبقوة سلوبك من ضعف إيجادك ، وبظلمة عدمك من نور تأثيراتك ، وأعذني اللهم بك منك في كلِّ ذلك بكلِّ ذلك كذلك من وجه العلم ، ولا كيفَ كذلك من حيث العقل ، ولا بذلك من جهة قصد النفس ، ولا كذلك من حيثُ تصوُّر الوهم ، أعوذُ بك من كلِّ ذلك كذلك من حيثُ إنه كذلك ، لا من حيث إنك وليُّ ذلك .

اللهم ؛ أغنني بديموميتك عن بقاء آلائك ، وبإحاطة وجودك عن تصوُّرِ الواحد والأحد ، وبقيُّومية وقيامك عن استقامة تقويم المدد ، وغيِّبني في ظلمة ذاتك التي تعجزُ فيها الأبصار والبصائر ، وتستحيلُ فيها معارفُ العقول الإلـٰهية ذات الأسرار والسرائر ، وأستغفرُكَ بلسان المحقِّ لا بلسان الوقاية ، والنظر بعين التلاشي لا بعين الرعاية ، والجذب بسرِّ العدم[2] لا بقوة الهداية ، والتلاشي بنفي الرسم لا برسوم الولاية .

سبحانك من وجه ما أنت لا من وجه ما أنا ، سبحانك من وجهِ الوجه المتنزِّه عن

---

(١) **وفاء النيل** : هو ارتفاع منسوب مياه النيل في شهر آب (أغسطس) إلىٰ ستة عشر ذراعاً ، وبه يتم الخير ، ويؤمن الجدب . « صبح الأعشىٰ » (٨/ ٣٢٨) .

(٢) في (أ ، ب ، د) : (الهدم) بدل (العدم) .

وسم الأسماء والكنىٰ ، سبحانك في الحيث الذي لا يلتحقُ به البقاء ولا الفناء ، أحاشيك عن العلم والقول ، وأنزِّهُكَ عن القوة والحول ، وإيثار كلٍّ لا في المنة والطول ، وأمدُّ لك يدَ التأييد لا يد الوسيلة ، وأسأُلكَ بسبح التفضُّل لا فضل الفضيلة ، وأعوذُ بك من تحليل التحويل ، ومحاولات الحيلة) .

اللهم ؛ أرني وجهَك لا من حيث ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وأسألك بي لا سبيل المسالك ، والسالك[١] .

اللهم ؛ إني أسأُلك بذاتِ عدمك ، وبذات وجودك ، وبالذات المجرَّدة ، وبالذات المتَّصفة بذاتِ التكوين والتلوين ، وبالذات الفاعلة ، وبالذات المنفعلة .

اللهم ؛ اجعلني غيباً لذات الذوات ، ومَشْرِقاً لأنوارها المشرقات ، ومستودعاً لأسرارها المكتتمة في غيوبها المبهمات[٢] .

اللهم ؛ إني أنزِّهُك لا لتنزيه الحس لك عن أوصاف الجسم والنفس عن شهوات الطبع والعقل ، وأخلاق النفس والقلب ، وأنزِّهُكَ عن كلِّ ذلك ، ونِدِّهِ ، ومثله ، وخلافه ، وغيره تنزيهاً مُعجوزاً عن تصوُّره وتوهمه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قال لي الحقُّ : أيُّها المخصوصُ ؛ لك عند كلِّ شيءٍ مقدار ، ولا مقدارَ لك عندي ؛ فإنه لا يسعني غيرك ، وليس كمثلِك شيءٌ ، أنت عينُ حقيقتي ، وكلُّ شيءٍ مجازك ، وأنا موجودٌ في الحقيقة ، معدومٌ في المجاز ، يا عين مطلعي ، أنت الحدُّ الجامع المانع لمصنوعاتي ، إليك يرجعُ الأمرُ كلُّه ، وإليَّ مرجعُكَ ؛ لأنك مُنتهىٰ كلِّ شيءٍ ، ولا تنتهي إلىٰ شيءٍ ، طويتُ لك الأرضين السبع في سبعٍ من الحَبِّ والنوى المتنوعة بالفعل إلىٰ أصنافٍ من نباتٍ شتَّىٰ ، فإذا شئتَ علىٰ نشرها أولجت فيها جواهر السماء ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] ، فإذا تكاملَ خلقُها ، وتزيَّن كونُها سعتْ علىٰ أقدام الأقدام لمسجدك الأقصىٰ ، بحكم الاستقصا ، فتخرُّ

---

(١) في نسخة من نسخ الاستئناس : (المهالك والهالك) بدل (المسالك والسالك) .

(٢) كذا في (ج ، ح) ، وفي سائر النسخ : (عيونها) بدل (غيوبها) .

ساجدةً سجودَ العبودية لأرباب حواسِّك الكلية والجزئية ، تسبِّحك بألسنة التقديس ، وتقدِّسُكَ بأفواه التنزيه ، وتعظِّمُكَ تعظيمَ مخلوقٍ لخلاَّق ، فأملاكُها تسبِّحُ وتحمد ، وأفلاكها تقوم وتسجد ، وأنتَ جالسٌ في مجلس سلطانك ، مستوٍ على عرشِ ناطقة إنسانك ، قد تلا لسانُ الإحسان بمحضرِ الأكوان ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه : ١٠٨]) ، وأطالَ في ذلك بما لا تسعُهُ العقول . فراجعه .

وله كتاب « العروش » ، وكتاب « الشعائر » وديوانٌ عظيم ومؤلَّفاتٌ أخر .

وقد ذكرنا مناقبه في كتاب مستقلٍّ ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣١٩) الأستاذ الأعظم سيدي علي ابن وفا ولده رضي الله عنه(١)

كان في غاية [الفضل والكمال ، و] الظرف والجمال ، لم يُرَ في مصر [أكمل منه ، ولا](٢) أجملَ منه وجهاً ، ولا ثياباً .

وله نظمٌ شائع ، وموشحاتٌ ظريفةٌ ، سبكَ فيها أسرارَ أهل الطريق في دَسْكَرةِ الخلاع(٣) ، رضي الله عنه .

وله عدةُ مؤلفاتٍ شريفة ، وأُعطي لسانَ الفرق والتفصيل ، زيادةً على الجمع ، وقليلٌ من الأولياء من أُعطي ذلك .

وله كلامٌ عالٍ في الأدب ، ووصايا نفيسة نحو مجلدان(٤) ، ووردتْ عليه ، فأملاها في ثلاثة أيام ، رضي الله عنه ، فأحببتُ أن أُلَخِّصَها لك في هـٰذه الأوراق بذكر عيونها

---

(١) انظر « ذيل الدرر الكامنة » (ص ١٥٩) ، و« إنباء الغمر » (٥/ ٢٥٣) ، و« الضوء اللامع » (٦/ ٢١) ، و« حسن المحاضرة » (١/ ٤٩٩) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٠١) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٢٦) ، و« خطط مبارك » (٥/ ١٤٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ٤٦٤) (٣١٦) .

(٢) ما بين معقوفين من « طبقات الشاذلية » نقلاً عن كتابنا .

(٣) الدَّسْكَرَة : بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم ، فيها الشراب والملاهي ، ويكون للملوك . « المعجم الوسيط » (د س ك ر) .

(٤) وهو المسمىٰ بـ« الواردات الإلـٰهية » .

الواضحة ، وحذف الأشياء العميقة عن غير أهل الكشف ؛ لأنَّ الكتاب يقعُ في يدِ أهله ، وغيرِ أهله ، فأقول وبالله التوفيق :

كان رضي الله عنه يقول : مولدي سحرَ ليلة الأحد ، حادي عشر محرم ، سنة إحدىٰ وستين وسبع مئة كما رأيتُهُ بخطِّه ، وتُوفي عام أحد وثمان مئة ، كما قيل(١) .

وكان رضي الله عنه يقول : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] : (فيا صاحب الحق ؛ لا تهتمَّ بإظهارِ شأنك اهتماماً يحملك على الاستعانة بالخَلق ؛ فإنك إنْ كنتَ علىٰ نورِ حقٍّ فهو يظهرُ بالله ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٤٥] ؛ وإن كنتَ علىٰ ظلمةِ باطلٍ فلا تتسبَّبَ في إظهار ذلك وإشاعته ؛ فإنك لا تتمتَّعُ بذلك وإنْ مُتِّعتَ به إلاّ قليلاً ، ثم ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء : ٨٤] ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ [يونس : ٣٥] ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٨-١٩] فافهم) .

وكان يقول في حديث ليلة الإسراء : (« فدخلتُ فإذا أنا بآدمَ »(٢) ؛ أي : فإذا أنا في صورةِ حقيقة آدم ، وناطق بناطقته ، وكذلك القول في جميعِ من رآه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تلك الليلة ، فصرَّحَ بأنه ظهرَ بصور حقائق الكلِّ ، وجميعِ نواطقهم ، وزادَ عليهم بما زادَ ، ونحن الوارثون لرقائقهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أولو العزمِ من الرسل سبعة ، وهم : (آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسىٰ ، وداود ، وسليمان ، وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام) ، وأطال في السرِّ(٣) في ذلك .

وكان يقول : (زمنُ خاتم الأولياء يكونُ عددُ أولياء زمانِهِ بعدد أولياء الأزمنة كلِّها ، لـٰكنَّ ظهورَهم معه كظهورِ الكواكب مع الشمس) .

---

(١) في « الضوء اللامع » (٦/ ٢١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٠١) : (ولد سنة تسع وخمسين وسبع مئة ، وتوفي سنة سبع وثمان مئة ثاني عشر ذي الحجة) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما ، ومسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) في (ز) : (السرد) بدل (السر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما كانت شريعةُ محمد صلى الله عليه وسلم لا تقبل النسخ ؛ لأنه جاء فيها بكلٍّ ما جاء به من تقدَّمَه ، وزيادة خاصيته ، ونزلتْ شريعتُهُ من الفلك الثامن المكوكب فلك الكرسي ، وهو فلكٌ ثابت ؛ فلذلك قبلتْ شرائعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله النسخَ دون شريعته) ، وأطالَ في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يصحُّ لعبد أن يقول في استفتاحه : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] إلا حتىٰ لا يرىٰ غيرَه ، ولا المُصلَّىٰ ، ولا القبلة ، ولا المناجي ، فاجعلْ ربَّك مشهودَك دون غيره) .

وكان يقول : (من أعجبِ الأمور قولُ الحقِّ تعالىٰ لسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أي : مع كونك تَراني على الدوام ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] : (كلَّ شيءٍ وجدتَهُ حاجزاً لك عن الفحشاء والمنكر يوجد العدل والإحسان ، فهو الصلاة في كلِّ مقامٍ بحسبه « وجُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاةِ »[1] فهو السرُّ الفعَّال في كلِّ مرتبةٍ صلاتية ، والصلاةُ صلةٌ بين العبدِ وربِّه ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وهو شهودُ أنه وحده لا شريك له ، لم يكن شيءٌ غيره ، فافهم) .

وكان يقول في قول الجنيد رضي الله عنه : (لون الماء لون إنائه) حين سُئل عن المعرفة : (والعارفُ هو علىٰ قسمين : أحدُهما أنَّ الماءَ علىٰ لونٍ ، وإناؤه لا لونَ له ، كالأواني الشفَّافة الساذجة من الصبغ ، فيكون الإناءُ مشهوداً علىٰ لون مائه ، والثاني عكسه ، فيكون الماءُ مشهوداً علىٰ لون إنائه ، وفي الأول المشهودُ هو لونُ الماء ، والوهمُ في نسبته إلى الإناء ، والثاني عكسه ، فليس التحقيق إلا في أفراد كل حقيقةٍ بنفسها في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت : ٥٤]

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨ ، ١٩٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(أي : كإحاطة ماءِ البحر بأمواجه معنىً وصورة ، فهو حقيقةُ كلِّ شيءٍ ، وهو ذاتُ كلِّ شيءٍ ، وكلُّ شيءٍ عينه وصفته ، فافهم) .

وكان يقول : (العارفون يُظهرون مواجيدَهم للناظرين في مرايا الأدلةِ المقبولة عندهم ، والنظَّار يأخذون مواجيدَهم من تلك الأدلةِ المقبولة ، فافهم) .

وكان يقول : (مَنْ وَجَد ، ثم بحثَ كان بحثُهُ عيباً في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

وكان يقول : (متىٰ جرَّدْتَ الحقائقَ عن اللواحق والنسب ، وأفردتَ عما به تتمايز الرُّتب . . لم تكن إلا دأباً فقط ، فإن رمتَ حقيقةَ التحقيق فمن ثم ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] . فافهم) .

وكان يقول : (التغايرُ أم الحجب والتكاثر ، فافهم) .

وكان يقول : (من لم يشهدْ إلا واحدْ ، فليس عنده زائدْ ، ومن لم يشهدْ إلا حقّاً فاعلْ ، في خلق قائلْ . . ليس عنده باطل ، ومن لم يشهدْ إلا أمرَ الرحمـٰن . . ليس عنده أمرُ الشيطان ، وقسْ علىٰ هـٰذا ، فلكلِّ مقامٍ مقال ، فافهم) .

وكان يقول : (من علم أن « لا إلـٰه إلا الله » لم يبق لأحدٍ عنده ذنبٌ ، سيما لمن يعترف بذلك ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد : ١٩] أي : بلا إلـٰه إلا الله) .

وكان يقول في حديث « أَنا عندَ ظنِّ عبدِي بي ، وأَنا معَهُ إذا ذكرنِي »[١] : (أي : مهما تصوَّرني به من الصور كنتُ ممدَّه من أفق تلك الصورة بحكمها ، فافهم) .

وكان يقول : (ما عبدَ عابدٌ معبوداً إلا من حيث رأىٰ له وجهاً إلـٰهياً ، ولـٰكنَّ الكامل يدعو ناطقةَ النواطق إلى الانطلاقِ من قيد وجهٍ إلـٰهيٍّ محجوبٍ بمرتبة مألوهه ، سيما وألوهيَّتُهُ منكورةٌ في النظر الآدمي) ، وأطال في بيان ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (انظرْ إلىٰ مراتب التعابد كيف كلٌّ منها محتاجٌ في ظهوره إلى الآخر الذي يقابله ، فلولا الواجبُ ما ظهر الممكن ممكناً ، ولولا الممكنُ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ما ظهر الواجبُ واجباً ، فلكلِّ واحدٍ أثرٌ في الآخر كالعلَّة والمعلول ، والفعل والمفعول ، والعالم والمعلوم) .

وسئل رضي الله عنه عن قول فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] : هل هو سؤالٌ عن ماهية الله تعالىٰ كما يقال ؟ وهل عدول موسىٰ عليه السلام عن الجوابِ المطابق كما زعموا تنبيهٌ علىٰ غلطِ السائل في سؤاله عن المجرد الحقيقي بـ ﴿ مَا ﴾ التي تطلب حقيقةَ ما له جنس وفصل يجاب بهما عنها ؟

فأجاب رضي الله عنه : (هٰذا سؤالٌ عن ماهية صفةٍ من صفات الله ، لا عن ماهية الله ، والجواب مطابقٌ رسمي ؛ لأنه أجابَ بالخاصَّة المعلومة عند السائل ، ويمكن أن يكونَ جعل الجواب تفسيراً للفظ ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّ المسمَّىٰ معروفٌ بوضوحِ أدلَّته معرفةً ضرورية لكلِّ عاقل ، فلا يَسأل عنه إلا متعنِّتٌ أو مَنْ لا يعقلَ ؛ ولذلك قال في الثالثة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨] .

فقيل : فهل في ذلك سرٌّ ؟ فقال رضي الله عنه : فيها أسرار : منها : أنَّ ربَّ العالمين هو القائمُ علىٰ كلِّ كائنٍ بتربيته حتىٰ يقوىٰ ذلك الكائن ، ويقولُ من توجَّهت قواه لتربيته فهو وجودُ الكلِّ ، والأمرُ له جميعاً ، ومن ثم توجَّه قول فرعون : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى . . . ﴾ الآيةَ [الشعراء : ٢٩] ، وحفظ له موسىٰ حرمةَ مشهده ، فلم يُجبْه بأكثر من قوله : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ٣٠] فجاءه بعصاً ، ظهرت ثعباناً ، وهو وجودُها المتعيِّنُ بها ، فما جاء بمجيئها إلا هو ، فهو متصرِّفٌ بذاته في حجب تعيناته ، ومظاهر تَجلِّياته ، فجاء بالحقِّ المبين ، حيث قال : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] فكان فرعونُ شاهداً بلا أدب ، وموسىٰ شاهدٌ حيٌّ .

وأين قولُ فرعون له : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١] من قوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أي : المسحور ، والمجنون المستور المحجب ، ولا يعلم ذلك إلا مشاهدٌ عارف بأن مشهودَهُ مستورٌ عن سواه ، وهٰكذا حين قال السحرة : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢١-١٢٢] فآمنوا علىٰ سترِ تغطية استعداداتهم في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فكانوا سحرةً ، وطلبوا المغفرةَ فقال لهم فرعون : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] فانظر كشفَهُ وتحقيقه هنا لو سلم من الميل إلى التلبيس الذي هو شأن مرتبةِ

الإبليسية ، فأضلَّه الله على علم ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه : ٥٦] ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : ١٤] ، ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أي : وجود الحقِّ المبين ، ولكلٍّ مقامٍ مقال ، ولكلٍّ مجالٍ رجال ، فافهم .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يَسُودُ أحدٌ قطُّ في قومٍ إلا إنْ آثرهم ولم يشاركْهم فيما يستأثرون به في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

وكان يقول : (كنيةُ الشيطان « أبو مرَّة » ، تدري مَنْ هي « المرة » التي هٰذا أبوها ؟ هي النَّفسُ الجسمانية ذاتُ الشؤون المنكرة ، شهوة بهيمية فلا هي حرَّةٌ ، وغضبٌ كلبي سبعي فلا هي برَّة ، تدري لِمَ سُمّيت « مرة » ؟ لأنها ما دخلتَ في شيءٍ إلا أفسدته ، كما يفسدُ الحنظل اللبن ، فافهم) .

وكان يقول في حديث : « فإذَا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ »[1] ، وفي رواية : « كُنْتُهُ » : (ليس المراد به معنى الحدوثِ في نفس الأمر ؛ لأنه كذلك بالذات ، وإنما ذلك الكون الشهودي مرتَّباً على ذلك الشرط الذي هو المحبة ، فمن حيث الترتيب الشهودي جاء الحدوث ، لا من حيث التقرير الوجودي ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تهجرْ ذاتَ أخيك ، ولٰكن اهجرْ ما تلبَّسَ به من المذمومات ، فإذا تابَ من ذلك فهو أخوك ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تعبْ أخاك بما أصابَهُ من معايب دُنياك ؛ فإنه في ذلك : إما مظلوم لينصرنه الله ، أو مذنبٌ عُوقب فطهَّره الله ، أو مبتلًى قد وقعَ أجرُهُ على الله ، فافهم) .

وكان يقول : (من الرعونةِ : أن تفتخرَ بما لا تأمنُ سلبَهُ ، أو تعيِّرَ أحداً بما لا يستحيلُ في حقِّك ، وأنت تعلمُ أنَّ ما جاز على غيرك جازَ عليك ، وعكسه ، فافهم) .

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٩) .

وكان يقول في حديث : « إنكمْ لنْ ترَوْا ربَّكمْ حتىٰ تموتُوا »[١] : (لمَّا كان ظاهرُ هـٰذا هو الموتَ الطبيعي استصعبَهُ الغافلون ، واستهونَه المشتاقون ، فخفَّفَ عن الطائفتين بتوجيهه إلى الموت المعنوي ، فقال : « موتُوا قبلَ أنْ تموتُوا »[٢] ؛ أي : جرِّدوا نفوسَكم من الصفات المذمومة تقتلوها ، ويؤيِّدُهُ قولُ عمرَ رضي الله عنه في البصل : فإن كنتم لا بدَّ آكليها فأميتوها طبخاً ؛ يعني : اطبخوها حتىٰ يذهبَ خبثُها ، فافهم) .

وكان يقول : (الشيطانُ نارٌ ، وحضرةُ الربِّ نور ، والنورُ يطفئ النار ، فلا تجاهده بأن تبعدَهُ عن حضرة ربِّك الحق ، ولـٰكن جاهدْهُ بأن تواجهَهُ بنورِ ربِّك ، فإن كان له نصيبٌ في السعادة انطفأتْ ناريَّتُهُ ، وعادَ نوراً مُسلماً لا يأمرك إلا بخيرٍ ، وإلا أطفأه نورُ ربِّك وأحرقتْهُ شُهبُهُ ، فعاد رماداً ، فافهم) .

وكان يقول في حديثِ ابن عمر ، أنه عليه السلام قال له : « عدَّ نفسَكَ منَ الموتَىٰ »[٣] : (يعني : كنْ بحيث ييئسُ منك كلُّ كفور ، ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ . . . ﴾ [الممتحنة : ١٣] لأن الميتَ لا براحَ له من المثول بين يدي الله تعالىٰ ، لا يتصرَّفُ لنفسِهِ في شهوةٍ ، ولا غضبٍ ، ولا يرىٰ سوىٰ ربَّهُ كيفما انقلبَ ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سبيلُ الله طريقُهُ ، من مات فيها فهو شهيد ؛ فالمؤمنون كلُّهم شهداء في سبيل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ . . . ﴾ الآية [آل عمران : ١٦٩] فافهم) .

وكان يقول : (قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : (المحبةُ قطبٌ ، والخيرات كلُّها دائرةٌ عليها ، فافهم) .

---

(١) أخرجه بلفظ : « لن يرىٰ أحدٌ منكم ربَّه عز وجل حتىٰ يموت » « مسلم » (٤/ ٢٢٤٥) برقم (١٦٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وبلفظ المصنف أحمد في « المسند » (٥/ ٣٢٤) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢٦٦٩) : (قال الحافظ ابن حجر : هو غير ثابت ، وقال القاري : هو من كلام الصوفية ، والمعنىٰ : موتوا اختياراً بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطراراً بالموت الحقيقي) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٤) بلفظ : (اعدد) بدل (عدَّ) .

وكان يقول في معنىٰ حديث : « لخُلوفُ فمِ الصائمِ أَطيبُ عندَ اللهِ منْ ريحِ المسكِ »[(١)] : (أي : هو عند الله مرضيٌّ رضاً يُعبَّر عنه بأنه أطيبُ من ريح المسك ، ولو لطَّخ المكلَّف به فمه تقرُّباً وتطيُّباً للعبادة ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُظهرُ إمامُ هدىً لمأموميه من الأفعال إلا ما فيه كمالُهم ، وأمَّا الخصوصيات فإنْ أظهرها ففائدتُها إعلامُ المأمومين أنَّ لإمامهم خصوصياتٍ باطنةً ليس لغيره في وقته مثلها ، فيقوىٰ به إيمانُهم ، ويعلمون أنهم ليس لهم منه بدلٌ ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا وجدتَ من يدعو إلى الله فأجبه ، ولا يَصدنَّكَ كونُه من الطائفة التي انتميت إلىٰ غيرها ، فبمثل ذلك صدَّ الأشقياءُ قبلك ، فقال اليهود : لو جاء محمدٌ منَّا لاتبعناه ، لـٰكن جاء من العرب ، فلا نتبعُهُ وندعُ أمرَ بني إسرائيل ، فكان الجنُّ أعقلَ رابطةً منهم وأفقه ، حيث قالوا : ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ . . . ﴾ الآيات [الأحقاف : ٣١] .

واعلمْ : أن الحقيقةَ الداعيةَ إلى الله تعالىٰ في كلِّ دورٍ هو صاحبُ وقته ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف : ١٠٨] وكلُّ الدعاة في زمنه إنما هم رقائقه ، وألسنتُهُ ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] وعلامتُهُ : اندراجُ بياناتهم وكشوفاتهم في كشفه وبيانه ، واختصاصُهُ عنهم بما لا سبيلَ لهم إليه إلا بإمداده وفيضه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ألقِ حبلَكَ وأسبابك وما اعتمدتَ عليه من معلوماتك ومعمولاتك بين يدي الداعي إلى الله تعالىٰ حتىٰ يلتقمَها حكمُهُ وحكمتُهُ ، فلا يبقىٰ لك عمدةٌ إلا علىٰ حقِّه ، ولا توصل إلا بصدقه ؛ ليسريَ بك إلىٰ ربِّك في حالة محو نفسك ليلاً ، ويُخرجك من مواطن تَحكُّمِ العدو إلىٰ مقامات حُكمِ المولىٰ ، فهناك لا تزلزلك الزلازل ، وإن اشتدت هولاً ، كما ﴿ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢] فكان من حكمةِ ربِّه لقومه الذين أسرىٰ بهم ما كان ، فافهم .

كما خرجَ موسىٰ من مدينةِ فرعون ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ١٨] مُستغرقاً في ربِّه ،

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥١/ ١١٦٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فأفضىٰ أمرُهُ إلىٰ مقامِ المناجاة ، جرتْ تلك السُّنَّةُ علىٰ أتباعه ، فأسرىٰ بعباد الله من أرضِ فرعون خائفين يترقَّبون مُستغرقين في نورِ إمامهم ، فأفضىٰ أمرُهم به إلىٰ مقامِ النجاة ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما خرقَ الخضرُ عليه الصلاة والسلام السفينةَ بركَّابها لِحكَمٍ ؛ منها : أن يبيِّنَ لهم أنَّ السفينةَ لو كانت حاملةً بألواحها ودُسُرِها لغرقوا عند خرقها ؛ ولٰكنَّ مُكرِمَهم هو حاملُهم في البرِّ والبحر ، فسواء وجودها وعدمها عند صاحب اليقين الكامل ؛ ولهٰذا مشىٰ على الماء من كان هٰذا يقينَهُ ، ولو أرادَ لمشىٰ على الهواء أيضاً) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ أنَّ الخضرَ عليه الصلاة والسلام قسمت له الحياةُ إلىٰ إدراك الزمنِ المحمَّديِّ . . فما طلب موسىٰ [لقياه][1] السبيلَ إليه إلا من باب معنىٰ قول القائل[2] :

. . . . لعلي أراهمْ أوْ أرىٰ منْ يراهمُ

فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما لقي موسىٰ عليه الصلاة والسلام الخضرَ بفتاه ؛ ليجمع لفتاه بين بحر الرسالة من نبوَّته وبحر الولاية من خصوصيَّة الخضر عليه السلام .

والسرُّ في ذلك : أن حكمَ الوليِّ مع حكمِ الرسولِ الذي يلزمه شريعته كحكم النجمِ مع حكم الشمس ، وذلك كما أنَّ النصَّ إذا وجِدَ اندرجتْ أحكامُ الاجتهاد كلُّها تحته ، وكان الحكمُ حكمَ النصِّ ، وإذا غاب النصُّ رجعَ كلُّ مجتهدٍ إلىٰ حُكمه ، فكما أنَّ حكمَ كلِّ مجتهدٍ في حياةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم مندرجٌ في حكمه ؛ إن أثبته ثبت ، وإن نفاه انتفىٰ ، كذلك حكمُ كلِّ وليٍّ مع رسوله .

وأما في زمن أبي بكر ومن بعده من الخلفاء فلكلِّ مجتهدٍ حكمُهُ ، لا يلزمُهُ اجتهادُ غيره ، فهكذا كان أولياءُ بني إسرائيل في حياة موسىٰ مندرجي الحُكمِ في حكمه ، فلما دنت وفاته وتوارىٰ شمسُ رسالته بحجابِ خليفته الذي يستخلفه بعده ، وكان ذلك

---

(١) في النسخ : (بفتاه) ، والمثبت من « الطبقات الوسطىٰ » .

(٢) عجز بيت ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٤٦٣) ، وصدره : أمرُّ على الأبوابِ منْ غيرِ حاجةٍ

الخليفةُ هو فتاه الذي قصدَ به الخضرَ عليه السلام . . علم أنَّ أحكامَ أهل الولاية ستظهرُ في زمان ذلك الفتىٰ ، فأراه كيف تكون معاملته لهم إذا ظهر في زمن خلافته ، وجمعَ له بين أمري الرسالة والولاية ، فقال لفتاه : ﴿ لَآ أَبۡرَحُ ﴾ أي : لا أموت ﴿ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ أي : فيك ﴿ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ أو أعيش إلىٰ أن يحصلَ ذلك ، ولو عشتُ حقباً ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف : ٦١] .

ثم كانَ من الأمرِ ما قصَّ اللهُ علينا في الكتاب ، فعلَّمَهُ أن يُسلِّمَ للأولياء باطناً ، وإن اقتضى الشرعُ إنكارَ شيءٍ من أمرهم أنكره ظاهراً علىٰ جهة الاستعلام ، كي لا يتشبَّهَ بأحكامهم من ليس في مقامهم ، وإلا فما لموسىٰ كفٌّ عن الخضر بتلك المعاني التي أبداها الخضرُ ؛ فإنَّ مثلها لا تسقطُ به المطالبةُ في ظاهر الشرع ، فمن خرقَ سفينةَ قومٍ بغير إذنهم ، وقال : خرقتها لئلا تُغصب لم تسقطِ المطالبة بذلك ظاهراً ، ومن قتلَ صبياً ، وقال : خشيتُ أن يُرهقَ أبويه طُغياناً وكفراً لم تسقطْ عنه المطالبةُ بذلك في ظاهر الشرع ، وقول الوليِّ : ما فعلتُهُ عن أمري ، ليس مسوغاً لمثل هـٰذه الأعمال في الحكم الظاهر ، وإن تحقَّقَتْ ولايتُهُ ، فما كان الإنكارُ من موسىٰ أولاً إلا حفظاً لنظامِ الشرع الظاهر ، ثم كَفَّ آخراً حفظاً لرعاية أمرِ الله في أوليائه ، وذكرىٰ ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق : ٣٧]) .

وكان رضي الله عنه يقول في قصة موسىٰ والخضر عليهما الصلاة والسلام : (يعني : أنَّ للحقِّ عباداً أقامهم لبيان المكتسبات ، وعباداً أقامَهم لبيانِ الموهوبات ، ليس لأحدِهما أن يعترضَ على الآخر ، ولا يُشاركَهُ فيما أُقيم فيه ، وإن كان أحدُهما نبيّاً والآخر وليّاً ، فافهم) .

وكان يقول : (الجبالُ أمثالُ الرجال ، فكما أنَّ الجبالَ لا يُزيلها عن مقيلها من الأرض ما دام العالم إلا الشرك . . فكذلك الوليُّ لا يزيلُ همَّتَه عن قلبِ من آوىٰ إليه إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه بغيرِ وليّه وربِّه ﴿ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] فلا يفلتُ الوليُّ قلبَ مريده من يده سوى الشرك ، لا تقصير ولا غيره ، فافهم) .

وكان يقول : (لفظة « ما » في قول الخضر لموسىٰ ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾ [الكهف : ٨٢] موصولة ، وأمرُهُ : شأنُهُ ؛ لأنَّ تلك الأفعال كانتْ من أحكام روح الإلهام الولائي ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الخضرُ عليه الصلاة والسلام مظهرٌ عرفانيٌّ رأىٰ فيه موسىٰ عليه السلام من وجوده ما سأل في مقامه العرفاني أن يراه في شهوده ، وذلك المظهرُ كان منه وإليه ، فافهم) .

وكان يقول : (ما من كاملٍ في رتبةٍ إلا وهو جامعٌ لكمالاتِ ما دونها ، وفقيرٌ لكمالاتِ ما فوقها ، فافهم إلىٰ أن ينتهي الأمرُ إلىٰ من له المُنتهىٰ ، وليس وراءه مرمىً ، والله أعلم) .

وكان يقول : (النفسُ ما له الإدراكُ ، والروحُ ما به الإدراكُ في كلِّ مقامٍ بحسبه ، ومن هنا سُمِّي القرآن روحاً ، وعيسىٰ روحاً ، وجبرائيل روحَ الوحي النبوي المرسل في المعاني الجمالية ، وميكائيل روحَ هٰذا الوحي في المراتب الجمالية ، والخضر روح الإلهام في المعاني الجمالية ، وإلياس روح هٰذا الإلهام في المراتب الجلالية .

ولذلك كانت آيةُ إلياس النارَ تَسيرُ معه حيثما سار ، وأما الخضرُ فإنه جلسَ على الأرض اليابسةِ فاخضرَّتْ وحيث جُمع لموسىٰ بين النارِ والشجرة في تجلِّيه ، وتمَّ له ذلك ، ظهر له عينُ الأمرين في إلياس قومه وخضرهم ؛ ولذلك كان إلياس للأولياء كجبريل للأنبياء ، وكان أكثرُ ما يراه أصحاب المجاهدات ، والخضرُ لهم كميكائيل ، وأكثرُ ما يراه أصحابُ المشاهدات ، ولا يظهران لأحدٍ إلا متمثِّلين من غيبه إلىٰ شهادته ، ويراهما كلُّ أحدٍ بحسب حاله ومقامه ، ويَراهما في الآن الواحد جماعاتٌ متفرِّقون في أماكن متباعدة علىٰ هيئات مختلفة ، ولا يظهران معاً إلا لمن له روحُ كمال ذات جلال وجمال ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (في صلاة النبيِّ صلى الله عليه وسلم خلفَ عبدِ الرحمـٰن بنِ عوف رضي الله عنه إشارةٌ إلىٰ أن المتبوعَ في المعنىٰ قد يكون تابعاً في الصورة ، كغاية الشيءِ له ، فلا يلزمُ من الاتِّباع الظاهر فضيلة المتبوع على التابع في الباطن ، وقد أُوحيَ إلىٰ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] مع أنَّه القائلُ : « أَنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ »[١] حتىٰ إبراهيمُ يقولُ في ذلك اليوم : « اجعلْني منْ أمَّتكَ »[٢] ، فافهم) .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٧١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٧٥) من كلام =

وكان رضي الله عنه يقول : (الحظوظُ الدنيوية زبالةٌ ، فمن أظهرَ للناس ما عنده من الخصوصيات الربَّانية ليتوصَّلَ بذلك إلىٰ تحصيلِ حظوظِهِ الدنيوية منهم . . فقد برطلَ بالمملكة كلِّها علىٰ أن يصيرَ زبَّالاً ، وقد وقفَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بأصحابه علىٰ مزبلةٍ حتىٰ أضجرَهم ، فقالوا : ما لَكَ حبستنا هنا ؟! فقال : هـٰذه دُنياكم التي تتنافسون عليها) .

وكان يقول : (كلُّ ما أرضى العارف بالله أرضىٰ معروفَهُ ، وكل ما أغضبه أغضب معروفه ، كما جاء في الحديث : « إنَّ اللهَ يرضىٰ لرضا عمرَ ، ويغضبُ لغضبِهِ »[١] وجاء مثلُ ذلك في حقِّ فاطمةَ ، وبلالٍ ، وعلي ، وسلمان ، وخبيب ؛ فاعملوا أيُّها المريدون علىٰ أن يرضىٰ عنكم العارفون وينبسطوا إنْ أردتم رضا ربِّكم ، وبسط نعمه عليكم ، واحذروا ؛ فإن العكسَ في العكس من ذلك ، واسألوا اللهَ توفيقَكم لذلك) .

وكان يقول : (التكليف والاختيار من الحقِّ قرينُ الاختيار ، ودعوى الاقتدار من الخلقِ ، فمن عجز وسلَّمَ لم يكلَّفْ ، ولم يُختبر) .

قلت : وقوله : (لم يكلف) : أي : لم يجد مشقةً في التكليف ، فافهم .

وكان يقول : (صلاةٌ تُنتج الدعوىٰ رعونةٌ ، ونومٌ يُنتج التقوىٰ معونةٌ ، فافهم) .

وكان يقول : (لسانُ الكسب يقول : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ ولسان الوهب يتلو : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، ولسان الوجود يقرأ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : ٢] فافهم) .

وكان يقول : (من استُضعفَ لإيمانه فعاقبتُهُ التمكين وعلوُّ الشأن ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً . . . ﴾ الآية [القصص : ٥] ، ومن كبرَ بإجرامه رُدَّ أمرُه إلىٰ صغار ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ . . . ﴾ الآية [الأنعام : ١٢٤]) .

= سيدنا موسىٰ عليه السلام قال : « اجعلني من أمة ذلك النبي » عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٤٣٠) عن سيدنا علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا غضب عمر ؛ فإن الله يغضب إذا غضب » ، وأخرجه أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (٢٧) بلفظ : « اتقوا غضب عمر ؛ فإنه إذا غضب غضب الله له » .

وكان يقول : جميعُ ما أفاده المفيد للمستفيد إنما هو في الحقيقةِ لنفسِهِ إنّ العبدَ من مولاه عبدُ القومِ من أنفسِهم ، وما من الله إلا وإليه ، فافهم .

وليس يفهم عنِّي غيرُ إيَّاي

وكان يقول : في حديث : « لا تقومُ الساعةُ وعلىٰ وجهِ الأرضِ من يقولُ : اللهُ اللهُ »[1] : (أي : عارف بالله حقّاً ، فوجودُ العارف بالحقِّ بين الخلق أمانٌ لهم من قيام القيامة ذات الأهوال عليهم ، فافهم) .

وكان يقول : (ما عبدَ اللهَ أحدٌ إلا على الغيب ، لٰكنْ فتحَ لك الشرع الذوقي في الذوق الشرعي المحمدي باباً إلى الجمع ؛ بأن تشهدَ كلَّ شيءٍ من معبودك حتىٰ عبوديَّتَكَ ، فتراه هو الذي يُجري تلك الأحكام عليك ، ويقيمها فيك بقيُّوميَّتِهِ ، فتصير عند شهودك هٰذا تعبدُهُ كأنك تراه ؛ لأنك لو رأيتَهُ رأيته وجودَك القائم بجميع صفاتك ، وسمَّى اللسانُ المحمدي هٰذا الشهود مقامَ الإحسان ، وليس بعده إلا مقام الإيقان ، وهو العيان ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يحلُّ لأحدٍ أن يمكِّن الخلقَ من تقبيل يده ورجله إلا إذا صحبَه من الحقِّ ما صحبَ الحجرَ الأسود ؛ من حفظِ عهد الحقِّ تعالىٰ في الخلق ، وقصدِ الله وحده ، والتطهر من لوثِ تحكُّم الوهم البهيمي ، وعدم الشهوة المغفلة ، والحظوظ المُسفلة ، والرعونات المضلَّة ، وتحمَّل خطايا الخلق ، ولا يبالي أن يسوَّد ، ويذكِّرهم بربِّهم ، فيبيِّضُ قلوبهم ، فمن جمعَ هٰذه الصفاتِ فهو يَمينُ الرحمٰن لهم في الأرض ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] فافهم) .

وكان يقول : (لكلِّ زمانٍ واحدٌ لا مثلَ له في علمه وحكمته من أهل زمانه ، ولا ممن هو في زمانٍ سابق علىٰ زمانه إن سبقه زمانٌ آخر ، ولسانُ هٰذا الواحدِ في زمانه يقول لتلامذته : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] لأنَّهم أخذوا عن إمامٍ لم يتقدَّمه مثلُهُ ، ولم يعاصرْهُ نظيره ، وإنما للمأمومِ حكم إمامه ، فإن قال لهم ذلك بلسانه فذلك منه حقٌّ وصدق ، وإن قال ذلك وليس هو من أهل ذلك المقام كذَّبه

---

(١) رواه مسلم (١٤٨) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

الحالُ فيما قال ، والحقُّ : ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ [يونس : ٣٥] فافهم) .

وكان يقول : (لا يَرى الحقَّ تعالىٰ في الآخرة بلا حجابٍ إلا أهلُ التنزيه المطلق ، وهو تجريدُ التوحيد عن شريكٍ يُقابله أو يشوبه ؛ لشهودهم الأحدَ أحداً لا شريكَ له مُطلقاً ، وهاذا هو سرُّ العيان الذي يَستحيلُ معه الحجاب ، فافهم ، وأمَّا أهل التنزيه المقيَّد فلا بدَّ لهم من حجابٍ ، كما أشار إليه حديثُ : « ومَا بينَ أهلِ الجنةِ وبينَ أنْ يَرَوْا ربَّهمْ إلا رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ في جنةِ عدنٍ »[1] ، وهاؤلاء هم الذين يُنكرون الحقَّ يومَ القيامة إذا تجلَّىٰ لهم في غير معتقداتهم ، فافهم)[2] .

وسئل رضي الله عنه عن مريدٍ ادَّعىٰ أنه شهدَ كمالَ أستاذه ، ثم أرادَ السَّفرَ عن حضرته لزيارة مكة أو المدينة أو بيت المقدس ، واستدل علىٰ ذلك بسفر عمر بن الخطاب رضي الله عنه من حضرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ مكةَ لوفاءِ نذره ، فقال رضي الله عنه : (المريدُ الصادق أولُ ما يشهدُ في شيخه الكمال يجدُهُ حضرة الحقِّ التي بها أرواحُ أئمة الهدىٰ أجمعين بالنسبة إليه ، فكيف مع هاذا يُفارق تلكَ الحضرة لمواضعِ آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي دون الحضرة التي شهدَ أستاذه فيها ؟! وكيف يشتغلُ عن بيتٍ وضعه الحقُّ لنفسه ببيت وضعه للناس ؟! أو عن مجالسةِ مظهرِ أرواح الأنبياء والتلقِّي عنها مواجهة مشافهة بآثار أبدانهم وأفعالهم ؟!

وأما سفر عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه : فإنما كان امتثالاً لأمرِ الله عموماً حيث قال : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ [الإنسان : ٧] ثم لأمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً حيث قال : يا رسول الله ؛ إني نذرتُ في الجاهلية أن أعتكفَ في المسجد الحرام ، فقال : « أوفِ بنذرِكَ »[3] وحسبُكَ إشارةً : أنَّ عمر رضي الله عنه لو كان يعرف مقامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ نذر ذلك لم ينذره وقدَّمَ مجالستَه لرسولِ الله صلى الله عليه

---

(١) حديث رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) ورد في هاذا المعنىٰ حديث رواه البخاري (٤٥٨١) ، ومسلم (١٨٣/ ٣٠٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٢٠٣٢) ، ومسلم (١٦٥٦) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

وسلم على كلِّ شيءٍ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ . . . ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾ [النور : ٦٢] فانظرْ مع الاستئذان والإذن في ذهابهم لبعضِ شأنهم الذي احتاجوا إليه كيف احتاجوا إلى الاستغفارِ لهم ، ولم يكفِ فيه استغفارهم لأنفسهم ، فليس لمريدٍ صادقٍ أن يفارقَ إمامَ حضرةِ هدايته أبداً) .

قلت : ويتعيَّنُ استثناء الحجِّ المفروض من كلامِ الشيخ رحمه الله تعالى .

وكان يقول : (في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] : جمع الله تعالى له بين الكلمةِ العلمية والروح الإرادية ، وقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧] فالروحُ : هو الذي غلب بحكمِهِ العلمي على النسمةِ الكائنةِ من مريم ، فكان بها متمثِّلاً ؛ ولذلك قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ [النساء : ١٥٧] لأن الغالب عليه صورةُ الحياة ، فالقتلُ عليه محالٌ ، وإن وقع على النسمةِ المتمثِّل بها حكمٌ من الأحكام اللائق بعالمها ؛ فلذلك لا يُؤثِّرُ في المتمثل بها أصلاً ؛ لأن ما بالذات لا يزولُ بالعرض حقيقةً ، وإن توارى بحكم غيره آخر يخالفُهُ فزال بالنسبة إلى من لم يدركْ منه إلا ذلك الحكم الذي توارى به .

وربما يقول هـٰذا : فكيف صحَّ أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام فقأ عينَ مَلَكِ الموت[1] ، فرجع إلى ربِّه ، فردَّها عليه ؟! فالجواب : (أنَّ هـٰذا الملكَ روحٌ طبيعيٌّ تمثَّلَ في صورةٍ طبيعية ، فلم يبعد عنه ذلك ؛ لأنه من عالمه ، ولو لم يكن طبيعيّاً لكانَ الفقوءُ لم يقعْ إلا في المثال فقط ، ثم تمثَّل بمثالٍ آخر ، وأبدلَ مكانَ العينِ المفقوءة عيناً سليمة) ، وأطال في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول في معنى قول بعض الصوفية : (إن الحقَّ ذاتُ كلِّ شيءٍ ، والمحدثاتُ أسماؤه) انتهى : (معنى الأول : أن كلَّ شيءٍ لا يُقيمه ويوجده ويحقِّقه إلا الحقُّ ؛ لأنَّ الذاتَ هي المقوِّمة المحقِّقة للعرض ، ولما كان الحقُّ من المحدثات بهـٰذه المنزلة هو قيُّومُها الذي لا قيامَ لها دونه أطلقوا عليه ذاتها ، وأما كونُها أسماءَه :

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (١٥٧/٢٣٧٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فلأنها دالَّةٌ عليه دلالةً لازمةً ذاتية لها ، كما هو دلالةُ المفعول علىٰ فاعله ، والاسم ما دلَّ بذاته علىٰ ما وضِعَ له ، فمن ثَمَّ سمَّوا المُحدثات أسماءً لقيُّومِها الذي أوجدها ، فافهم) .

وكان يقول : (من أرادَ أن ينقادَ له العالمُ انقياداً ذاتياً فلا يَطلبْ إلا الله تعالىٰ ؛ وذلك أنَّ الإنسانَ المخلوق علىٰ صورةِ الكمال يطلبُهُ جميعُ المخلوقات كما يطلبون الرحمـٰن ؛ لأنه نائبُهُ في الكون ، فافهم) .

وكان يقول : (من شأنِ الذات الإطلاقُ لذاتها ، وتساوي النِّسَب لصفاتها ، ومن ثَمَّ لا يشعرُ موجودٌ بإطلاقٍ إلا كانَ بذاته أحنَّ إليه من التقييد) ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (إذا صفتِ الأرواحُ صارتْ تهمُّ أن تنفذ من أقطار السماوات والأرض ؛ لتُفارق حكمَ عالم الكثافة والغيرِ إلىٰ حكمِ عالمِ اللطافة ومحضِ الخير ، ويمانعُها حكمُ كونها الترابي الجسمي ، فيحصل الرفضُ والتردُّد ، وربَّما صحبَ صاحبَها حسرةٌ علىٰ عدمِ خلوِّه من العوائق عن ذلك ، فيثور هنالك عويلٌ ولطمٌ ، وبكاء وعنفٌ في الحركة ، وتمزيقٌ في الثياب والجلد ، وربما قوي حالُ النفس عليها ، ففارقتْ بدنَها المعاوقَ ، وحصل الموت) ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (كلما كانَ حادي القومِ مُناسباً لهم في عشقهم وحالهم كان أكثرَ تأثيراً فيهم) .

وكان يقول : (من شأنِ الإمام الهادي ألا يَغفُلَ عن تطهيرِ قلوب المريدين الطائفين علىٰ مظاهر الحقِّ ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ ﴾ أي : بالقسط ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] بالاقترابِ الإيماني الحبيِّ) ، وأطال في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (أهلُ كلِّ وليٍّ من جاءه بقلب سليم من الحظوظ ، والشهوات البهيمية ، ألا ترىٰ أنَّ أهلَ العروس ليس إلا الذين لا ينظرون إليها بشهوةٍ بهيمية ؟! إما والدٌ أو أخٌ أو عمٌّ ، وأما الزوجُ فإنَّما ينظرُ إليها بإرادةٍ أمريةٍ ، لا بشهوة بهيمية ، وقد نُهيتِ النساءُ من إظهار وجوههنَّ ، وظهورهن ، وما يُخفين من زينتهنَّ إلا لقرابةٍ ، أو ﴿ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور : ٣١] وهم أمثالُ الضعفاء العقول المقلدين بالتصميم لأهل النظر القاصر عن إدراك

الحقائق ، فهكذا حالُ كلِّ مريدٍ جاء إلىٰ حضرة أستاذٍ بالصدق كان من أهله ، وعليه تنكشفُ عورتُهُ ، وتنجلي أسرارُه ، ومن لا فلا ، فافهم) .

وكان يقول : (اطلبْ من نفسِك الصدقَ في معرفةِ خصوصية أهل التخصيص ومحبَّتك لهم . . تنلْ منهم ما تُريد ، ولا تطلبْ منهم أن يُشغلوا قلوبَهم بك ، وتهمل أنت أمرَ نفسك ؛ فإن ذلك قليلُ الجدوىٰ) .

وكان يقول : (الأسبابُ للأمور الناشئة عن الكسبِ كالماء للزرع متى انقطعَ عنه الماءُ مات ، وكذلك المتفكِّرون متىٰ تَركوا التفكُّر عطلتْ معتقداتهم النظرية ، وكذلك المتقشِّفون متىٰ تركوا تقشُّفاتهم بطلتْ تأثيراتهم الكونية ، ومكاشفاتهم الصورية . فافهم ، وما كان وهباً من الله تعالىٰ فهو باق) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من كتم سرَّه مَلَكَ أمره ، ولم يكتم شيئاً من أظهر من الأحوال ما يدلُّ عليه ، فلا تُظهر لقومِك إلا ما تعرفُ منهم قبولَه منك ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ . . . ﴾ الآية [يوسف : ٥]) .

وكان يقول : (**حقيقةُ الشكر الكاملِ** : أن يشهدَ العبدُ شكرَهُ لله تعالىٰ مَن الله ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [النمل : ٤٠] فافهم ، فلا يشكرُ اللهَ حقيقةً إلا الله ، والعبدُ عاجزٌ عن ذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا علمتَ من أستاذك الاطِّلاعَ علىٰ جميع أحوالك فقد عُرِضَتْ عليه صحيفتُكَ ، فقرأها ، فإما يشكرك ، وإما يستغفرُ لك ربَّك ، فاسمعْ لهٰذا وأطعْ ، وإن أعطاك الله تعالىٰ أنت بصيرةً علمتَ بها ذلك فقد أُوتيت كتابَكَ تقرؤه ، فإن عملتَ بما فيه من الصالحات فقد أوتيتَ كتابك بيمينك ، وإنْ خالفتَ ما فيه فقد أُوتيت كتابك بشمالك ، وإن أغفلتَ النظرَ فيه فقد أوتيته وراء ظهرك ، وحيث جاءك هٰذا البيانُ فاقرأْ كتابَك ، وحرِّر حسابك ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أئمةُ الهدىٰ في أمان الله عز وجل ، وإنما يَبكون ويتضرَّعون لأجلِ أَتباعهم ؛ إما ليعلِّموهم كيفَ يعملون ، وإما أنها شفاعةٌ غيبية فيهم ،

ولا شكَّ أن التعليمَ أيضاً شفاعةٌ ، فمن تعلَّم وعمل فقد قُبلت فيه الشفاعة ، فانتفع ، ومن لا فلا ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۞ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨-٤٩]) .

وكان يقول : (الكشفُ من ربِّك العليم ، والغطاءُ من وهمك البهيم ، فلا تستعنْ على الكشفِ بوهمك ؛ فإنه لا يزيدُكَ إلا غطاءً ، ولا تخشَ من ربِّك منعاً عند صدقِ توجُّهك لجوده ؛ فإنه لا يُوجدك إلا عطاء ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لما كانت حواءُ مظهرَ صورة شهوة آدم الباطنة كانتِ المرأةُ لا ترىٰ قطُّ إلا شهوةً جسمية لا تَدري ما فوق ذلك ، ولا تتوجَّه همَّتُها إلىٰ أعلىٰ منه ، ولا تنظرُ قطُّ في العواقب ، وإنَّما تُسرع إلىٰ ما حرَّكَ الوهمُ البهيم شهوتها إليه) .

وكان يقول : (كم شيءٍ كمالٌ في الخلقِ نقصٌ في الحقِّ ! كالأزواج والذرية ، فإنْ قيل : لولا الزواجُ ما حصل النتاج فقل لهم : بل كان يحصلُ من حيث حصلَ في آدم عليه الصلاة والسلام ، ولـٰكن محض التعريض للأسباب هو أكلة النهي الموجبة لتسليط ما في الضرورات من العقاب ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] : (المرادُ بالزينة هنا هو المكارمُ ، والمحامد ، والفضائل ، فهـٰذه هي الزينةُ للنفوس الآدمية ، وضدُّ ذلك من زين البهائم ، والمرادُ بكلِّ مسجدٍ هو كل هادٍ للحق بنوره ، ومرشدهم إلىٰ حُسنِ العبودية ، فافهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ . . . ﴾ الآية [الأعراف : ٢٦]) .

وكان يقول : (الحقُّ مفطورٌ علىٰ صورة الحقِّ ، فهي حياتُهُ وشبابه ، فإذا أهرمَتْهُ عوارضُ الحجب والغفلات صار سَمَنْدَلَ نار[١] ، إذا أُلقي به فيها رجعَ شبابُهُ . فافهم ، ولا تصحُّ صفةُ المحبة لعبدٍ وهو بخيلٌ أو عاص ، أو عنده عجلةٌ بلا حلم) .

وكان يقول : (ما سُمِّي القلبُ قلباً إلا لأنه في العلم الأزلي حَقٌّ بَطَنَ في قُوَّتِهِ خَلْقُهُ[٢] ، فانقلبَ في العلم الأبدي ، فصار خلقاً بطن فيه حقُّه ، فهـٰذا الحقُّ في الأزل

(١) **السمندل** : طائر إذا انقطع نسلُهُ وهرم ألقىٰ نفسَهُ في الجمر فيعود إلىٰ شبابه ، وقيل : هو دابة يدخل النار فلا تحرقه . « لسان العرب » (س م ن د ل) .

(٢) في (ز) : (حق بطن فيه خلقه) .

بيت عبده ، وهـٰذا الخلقُ في الأبد بيت عبده ، وكما ظهرَ الخلقُ بالحق أزلاً كذلك ظهر الحقُّ بخلقه أبداً) ، وأطال في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كان للحقِّ بعبده عنايةٌ جعلَ سببَ شقاء الأشقياء من أسبابِ سعادته ، يُذنب فينكسر ، ويستحي ويتذلَّلُ ويذوق طعم الحجاب والبعد ، فيعرف قدرَ الوصل ، فيزداد شكراً ، فيزدادُ فضلاً ، والمعكوسُ منكوس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ . . . ﴾ الآية [الأنعام : ٦٨] : (فيه إشعارٌ بالإعراض عمن يخوضُ في حقِّ الأولياء المكمَّلين ، فإنهم من آياتِ الله تعالى الدالّين عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] فافهم) .

وكان يقول : (لما كانتِ الوكالةُ مُشعرةً بعجز الموكِّل عما فوَّضه إلىٰ وكيله ، وقدرة الوكيل عليه ، ولو بوجهٍ ما ؛ إذ لا بدَّ من مانعٍ له من مُباشرة ما وكِّلِ فيه . . سُمِّي الربُّ وكيلاً لعبده ، ولم يُسمَّ العبدُ وكيلاً لربِّه ، فافهم) .

وسئل : هل لمريدِ الحقِّ أن يَتعاطىٰ ما يُشغله عن مراده ؟ فقال : لا ، فقيل : فما الحكمةُ في إذنِ الشارع صلى الله عليه وسلم لأمته في التزويج ، وفيه من الشُّغلِ ما لا يخفىٰ ؟! فقال : لأنه لما رأى النفوسَ البشريةَ مجبولةً على المغلوبية لعوارضها المزاجية أذنَ لها فيما يفكُّ عنها غلبةَ تلك العوارض عليها ؛ لئلا تشغلَها عنه ، وشرطَ عليها مساسَ الحاجة قبل التعامل ليكونَ الشغلُ في ذلك به لا عنه ، ألا ترىٰ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء : ٣] ؟! والعولُ الزيادة ؛ أي : أدنىٰ ألا تميلوا عن مولاكم إلىٰ ما دونه ، فمن تزوَّجَ بنيَّةٍ صالحةٍ كان عابداً لله تعالىٰ بتزوُّجه ، مع أن في ضمنه عصمةً له من الزنا الذي هو أعظمُ الحجبُ عن الله تعالىٰ ، فافهم ، وأما من تزوَّجَ لمحضِ الشهوةِ فقط فذلك الذي يشغلُه الزواجُ عن ربِّه .

وكان يقول : (مبدأُ حقيقتك الروحانية أحقُّ بك من مبدأ لاحقتِك الجثمانية ، فإذا علمتَ هـٰذا فقدِّمْ أمرَ ربِّك الذي هو مُبدؤك وقال عنك : ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر : ٢٩] فهو تعالىٰ أحقُّ بك وأرحمُ ، وأفرحُ بك من أمِّك وأبيك ، ومن كلِّ شيءٍ

دونه ، صاحبُ الشيءِ أحقُّ بشيئه ، فافهم) .

وكان يقول : (من كان خليقتهُ مرشدَك ومربِّيك هو بحقيقته ربُّك وهاديك ، فاعرفْ يا مريد من هو مرادُك ، ويا تلميذُ من هو أستاذُك ، والزم تغنم ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (علماءُ السوء أضرُّ على الناس من إبليس ؛ لأن إبليسَ إذا وسوسَ للمؤمن عرف المؤمنُ أنه عدوٌّ مضلٌّ مبين ، فإذا أطاعَ وسواسه عرف أنه قد عصىٰ ، فأخذ في التوبةِ من ذنبه ، والاستغفارِ لربّه ، وعلماءُ السُّوء يُلبسون الحقَّ بالباطل ، ويزيدون الأحكامَ علىٰ وفق الأغراض والأهواء بزيغهم وجدالهم ، فمن أطاعَهم ضلَّ سعيُهُ وهو يحسبُ أنه يُحسنُ صنعاً ، فاستعذ بالله منهم ، واجتنبْهم ، وكن مع العلماء الصادقين) .

وكان يقول : (من المتفقِّهين تستفيدُ دعوى العلم بأحكام الدين ، ومن العلماء العاملين تستفيدُ العملَ بأحكام الدين ، فانظرْ أيَّ الفائدتين أقربَ قُربىٰ عند ربِّ العالمين فاستمسكْ بها ، وإذا قال لك المُتفقِّهون : ماذا استفدتَ من الصُّوفية الصادقين ؟ فقل لهم : استفدتُ منهم حُسنَ العمل بما استفدتُ منكم من أقوال أحكام الدين) .

وكان يقول : (نيّةُ القرباتِ تُصيِّرُ العادات والمباحات عبادات ، حتىٰ إنك ترى الجبّةَ الصوفَ علىٰ أهلِ الله تعالىٰ أَحسنَ من الحرير علىٰ غيرهم ؛ وذلك لأنهم قصدوا بذلك وجهَ الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [الشورىٰ : ٢٣] فافهم) .

وكان يقول : (بينك وبين ألا تدركَ أن تولي حبَّ الدنيا ظهرَك ، فافهم) .

كان يقول : (خاتمُ الأولياء علىٰ قلبِ خاتم الأنبياء ، ومن علامتِهِ : أن يحقِّق مواجيدَ الأولياء كلِّهم ، ويختصَّ عنهم بوجده كما حقَّق خاتمُ الأنبياء مواجيدَ الأنبياء كلهم ، واختصَّ عنهم بخصوصيته ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ربما كان الواحدُ صدِّيقاً قطباً من جهتين باعتبارين ، ولا شكَّ أن الصدِّيقية في ضمن نظامِ القطبانية ؛ لأنها من مراتب دائرتها ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (القطبُ مظهرُ نور الحقِّ على الكمال الممكن لنوعِ

الإنسان بحسب زمانه ودائرته ، والصدِّيق مظهرُ نورُ القطب على الكمال الممكن لمثله ، والنورُ ما به الكشف والبيان ، وتحقيق المعاني في الأعيان ، فافهم) .

وكان يقول : (مجالسُ الأولياء العارفين محاضراتٌ روحانية لا يَعبؤون فيها إلا بفصاحة اللسان الروحاني ، وهو تحقيقُ المعاني ذوقاً ، وحسن تلقِّيها حقّاً وصدقاً ، فإذا صحَّتْ لهم هـٰذه الفصاحةُ فلا عليهم إن فصحتْ ألسنتُهم الجسمانية ، أو كلَّتْ ، أو لحنتْ ، أو أعربتْ « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكمْ . . . » الحديث)[1] .

وسُئل عن المراد بقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزبِ النور : (وأعوذ بك من السبعين والثمانية) : فقال : المراد بالسبعين : السلسلة التي ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ [الحاقة : ٣٢] ، وهي مظهرُ الفِرَقِ الهالكة ، والثمانية : هي إشارةٌ إلىٰ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] وهـٰذه السبعة هي مظهرُ أبواب جهنم .

وكان يقول : (لكلِّ وليٍّ خضرٌ هو تمثل روح ولايته ، كما لكلِّ نبيٍّ صورةُ جبريل هي تمثلُ روح نبوته ، يظهر لحسِّه من قوة نفسه ، فافهم) .

وقال رضي الله عنه في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمرَ رضي الله عنه : « والذي نفسِي بيدِهِ ؛ ما سلكتَ فجّاً قطُّ إلا سلكَ الشيطانُ فجّاً غيرَ فجِّكَ »[2] : (المراد بذلك صورته الروحانية التي هو بها ذلك المُخاطب حين خُوطب ، فلا يُقال كيف أغواه الشيطانُ في الجاهلية ؟! فافهم) .

وكان يقول : (سيِّدي ووالدي صاحبُ الختم الأعظم ، فالشاذلي وجميعُ الأولياء من جنودِ مملكته ، فهو يَحكم ولا يُحكم عليه من سائر الدوائر ، فلا يقال لنا : لِمَ لا تقرؤون حزبَ الشاذلية لأنكم من أتباعه ؟! فافهم) .

قلت : قد ادَّعىٰ مقام الختمية جماعةٌ من الصادقين في الأحوال ، والذي يظهرُ أن لكل زمانٍ ختماً ؛ بقرينة قوله فيما سبق : (لكل ولي خضر) ، والله تعالى أعلم .

---

(١) تقدم وتخريجه (١/ ٤٤٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) بلفظ : « ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فجك » عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ . . . ﴾ الآية [آل عمران : ٩٦] : (المرادُ به قلب آدم عليه الصلاة والسلام ؛ لأنَّه أولُ بيتٍ للربِّ في البشر ، وهو أيضاً بجسدِهِ مدفونٌ تحت بقعة هـٰذا البيت ، كما أعطاه الكشفَ ، وأما بنية الكعبة فهو مثالٌ مضروبٌ للقاصرين ، ليتذكَّروا به المعنىٰ عند رؤية مثاله ، فافهم) .

وكان يقول : (الغذاءُ شبيه بالمغتذي في كلِّ مقامٍ بحسبه ؛ فالجسمُ غذاءُ الجسم ، والروحُ غذاء الروح ، والنفسُ غذاء النفس ، والعقلُ غذاء العقل ، والعلمُ غذاء العلم ، والحقُّ للحقِّ ، والخلق للخلق ، فافهم ؛ فإن أستاذَكَ علمٌ مكنون ، فلا يغتذي به إلا عالمك ، ولا غذاءَ لعالمك إلا به ، ولا بقاءَ لحيٍّ إلا بغذائه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الخنقُ في اللغة التضييق ، والخانقُ الطريقُ الضيِّق ، ومنه سُمِّيت الزاويةُ التي يَسكنها صوفيةُ الرسوم الخانقاه ؛ لتضييقهم علىٰ أنفسهم بالشروط التي يلتزمونها في ملازمتها ، ويقولون فيها أيضاً : من غابَ عن الحضور غابَ نصيبه إلا أهل الخوانق ، وهي مضايق) .

وكان يقول : (لا تخرقْ حرمةَ مَنْ يحبُّ أن يحترمَ وفيك بقيةٌ من حكم مغايرتك للحقِّ تحكمُ عليك بأنك قليلُ الأدب ؛ لأنه ما أحبَّ أن يحترمَ إلا في ذلك المظهر إلا الحق بالحقيقة ، وأما إذا لم يكنْ فيك شهودُ بقيّةَ من حكم الغير فالأمرُ منك إنما هو من الحقِّ لنفسه ، فانظر ماذا ترىٰ و ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٤ـ ١٥] فافهم) .

وكان يقول : (الولدُ متىٰ قدرَ على الكسبِ ، وصلحَ له سقطتْ مؤنتُهُ عن أبيه ، والعبد أمرُهُ لا يخرجُ عن سيِّده بسببٍ ، فالزم العبوديةَ لمن هو كافٍ عبدَهُ تغنم) .

وكان يقول : (إذا رأى العارفُ أنه عينُ معروفه فلا عليه بأسٌ في تعظيم العباد له) .

قلت : ومعنىٰ كونه (عين معروفه) : أن يتخلَّقَ بصفاته التي أمرَهُ بالتخلُّق بها ، وهـٰذا مبنيٌّ علىٰ أنَّ الصفات عينٌ لا غير ، فافهم) .

وكان يقول : (كيف تتحقَّقُ بمن لا شيءَ معه ، ولم يكنْ شيءٌ غيره ، وأنت عندك

شيءٌ غيرُهُ كائنٌ معه ؟! فإنَّ وُجْدَ الأول مشروطٌ بفقد الثاني أو ملازمه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : (ارقبوا محمداً في عترته)[1] : (أي : اشهدوه بهم ؛ فإن وجدتُم منهم ما يشقُّ عليكم فسلِّموا ، وارضوا كما لو جاءكم ذلك منه مواجهةً لكم ، ثم لا تجدوا في أنفسِكم حرجاً مما قَضوا ، وتسلِّموا تسليماً ، وإن وجدتُم منهم ما يُعجبكم فاشهدوه منه فيهم كي لا تحجبوا عنه بهم ، وتحبونهم دونه ، وتَنسونه بذكرهم ، فما هم في الحقيقةِ منه إلا كالبشر السوي من الروح المتمثِّل به ، وهل الفرعُ في الحقيقة غيرُ أصله ؟! وهل ثمراتُهُ إلا منه ؟! فافهم) .

وكان يقول في معنىٰ حديث : « كنتُ كنزاً لا أُعرفُ » ؛ يعني : مرتبة التجرُّدِ ، « فأحببتُ أنْ أُعرفَ ، فخلقتُ خلقاً » ؛ أي : قدَّرت أعياناً تقديرية ، وتعرَّفت إليهم ؛ أي : ودللت عليَّ في كلٍّ منها بكلٍّ منها « فبيْ عرفُوني »[2] ؛ أي : لأني أنا الكلُّ ، هـٰذا حقيقةُ هـٰذا الكلام في التحقيق ، وله في الفرقانِ معانٍ أخرُ ، وكلٌّ من عند الله ، فافهم .

وكان رضي الله عنه يقول : (في كلِّ صورةٍ آدمية آدمُ والملائكةُ له ساجدون ، وهـٰكذا حقائقُ الأئمة كلٌّ منها كليٌّ إمامٌ بالنسبة إلىٰ أتباعه ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ [إبراهيم : ٣٦] فهو هم مجملاً ، وهم هو مفصلاً ، فافهم) .

وكان يقول : (أنتَ أيُّها المريدُ غصنٌ ، ونورُ أستاذك شمسٌ تُحييك ، وقمرٌ يُربِّيك) .

وكان يقول : (متىٰ فتحتَ سددَ مداركِكَ أدركتَ بكلٍّ منها ما يُدركه كلٌّ منها ، فلا تسمعُ شيئاً إلا رأيتَه ، وقسْ علىٰ هـٰذا في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

---

(١) رواه البخاري (٣٧١٣) بلفظ (أهل بيته) بدل (عترته) من قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢٠١٦) : (قال ابن تيمية : ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يُعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشي ، والحافظ ابن حجر ، والسيوطي ، قال القاري : لـٰكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي : ليعرفوني ، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما) .

وكان يقول : (إذا أسلمتِ النفسُ بحكم القلب لم يبقَ لها نزاعٌ لربِّها ووليِّها ، وإلا فلها من النزاع بقدرِ ما فيها من الشِّرك) .

وكان يقول : (سكوتُ العالم حيث تعيَّنَ الكلامُ عليه ككلام الجاهل حيث تعيَّن السكوتُ عليه ، فافهم) .

وكان يقول : في حديث : « منْ وليَ القضاءَ فقدْ ذُبحَ بغيرِ سكينٍ »[1] : (الذبحُ : إزالة الفضلاتِ الرديئة ، فهو ذبحٌ معنويٌّ ؛ لأنه بغير سكين ، فمن ولي القضاء مع إزالة رعوناته الوهمية فهو وليُّ أمرٍ ، قاضٍ بالحقِّ ، ومن لا فهو متغلِّبٌ ، قاضي جور) .

قلت : ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام في جلد الميتة : « دباغُهُ ذكاتُهُ »[2] ، فتأمل .

وكان يقول : (ما دامَ معلِّمُك يُولِّدُ عندك المعلومات بالتعليم فهو أبوك ، فإذا تحقَّقتْ روحُك بنوره صار علمُهُ يتجلَّىٰ فيك بمعلوماته أُبهة ، وذلك هو الوحي ، وإنما يُوحي إليك ربُّك ، فاعرف ، واغنم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] : (أي : لا لأجري ، ولا لشيءٍ غيري ، فهـٰذه عبادةُ المحبِّين ، فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ مُحقق مصدقٌ ، ولا عكس ، فمن وجدَ الحقَّ بالحقِّ فهو محقق مصدِّق ، ومن وجده بأمرٍ زائد فهو مصدِّقٌ فقط ، فافهم) .

وكان يقول : (من تعدَّىٰ حدَّه قُيِّد ، ومن لا غير له لا حدَّ له ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يراك إلا أنت ، فمن لك بمن هو أنت حتىٰ تتراءىٰ له فيراك ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما كان أستاذُك أَعلمَ بك منك ؛ لأنَّه هو حقيقتُك ، وأنت ظلُّه ، فافهم) .

وكان يقول : (معرفتُك بحقيقتك علىٰ قدرِ معرفتك بأستاذك ، فافهم) .

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي (٧/ ١٧٣) بلفظ : « دباغها ذكاتها » ، وأبو داود (٤١٢٥) بلفظ : « دباغها طهورها » عن سلمة بن المُحَبَّق رضي الله عنه .

وكان يقول : (ما لم يرتفعْ حكمُ المغايرة لأستاذك عندك فأنت بالحقيقة لا شكَّ ضائعٌ ، فارجع إلىٰ ربِّك فاسأله ، فافهم) .

وكان يقول : (حيث جاء الخطابُ الربَّانيُّ بـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، يا بن آدم فالمرادُ بهم أهل اليمين) .

وكان يقول : (متىٰ تخلصُ حريرةُ الإيمان من شوك السعدان[١] ، واللهِ ؛ ما ثَمَّ إلا الله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (في حديث : « كلُّ عملِ ابنِ آدمَ لهُ إلا الصومَ فإنَّهُ لي »[٢] : (المرادُ بابن آدم : من كان مَحجوباً ؛ فإنَّ عملَ المقرَّبين كلَّه لربِّهم ، وكلُّه صوم ؛ لتجرُّدهم عن شهود نسبته إليهم إلا علىٰ وجه المجاز ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [المائدة : ٥٤]) .

وكان يقول : (صورةُ الأستاذِ الناطق مرآةُ سرِّ المريد الصادق ، إذا نظر فيها ببصيرته شهدها علىٰ صورة سريرته ، فأول مبادئ المريدِ أن تتحلَّىٰ طويَّتُهُ بسمات أهل الصلاح والولاية ، فإذا كُشف لبصيرته عن أستاذه رأىٰ صورةَ صلاحه وولايته في صفاء صورةِ أستاذه ، فيظن أن أستاذَه هو الصالحُ الوليُّ ، فيستمدُّ من بركات ملاحظته المتوالية ، وهممِهِ العالية ، ولا يزالُ مطلبُهُ من الأستاذ دعواتِهِ المنيفة ، وخواطرَهُ الشريفة ، فيتودَّدُ إليه تودُّدَ المتأنِّس ، حتىٰ ينفخَ إسرافيلُ العناية في صور صورة قلبه روح التخصيص الآدمي ، فهناك يشهدُ أستاذه آدم الزمان ، ومالك أزمَّة الأكوان ، فيعظِّمه تعظيمَ الشابِّ لأبيه المهاب إلىٰ أن يُسفر حجابُ صورته الآدمية عن جمالِ ما خصَّه من الروح المحمدية ، فهناك يشهدُ أستاذَهُ سيداً محمدياً ، ويكونُ له عبداً ، ولا يجعل له في سواه أَرَباً ولا قصداً ، إلىٰ أن يَغشىٰ سدرةَ سرِّه الأنوارُ الرحمانية ، وينزعَ عن البصر نزغة الزيغ ، وغطاء الطغيانية ، فينظر إلىٰ أستاذه فلا يرىٰ إلا الواحدَ يتجلَّىٰ في كلِّ مشهدٍ علىٰ قدر وسع الشاهد ، فيصيرُ عدماً بين يدي وجود ، ومحواً في حضرة شهود ، فأوَّلُ

---

(١) **شوك السَّعْدان** : نبت ذو شوك من أحسن مراعي الإبل .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

أمره توفيق ، وأوسطه تصديق ، وآخرُهُ تحقيق ، وهٰذه النهايةُ هي بدايةُ السعاية بقَدَمِ الصدق ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من وضع العسلَ في قشر الحنظل التبسَ حالُ أصله على الجهلة ، إذا تمرَّر العسلُ لمرارة أصله ظنه الجاهل مرّاً من أصله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (امتهانُ العبَّادِ المكرمين بعد معرفتهم سُمٌّ ساعةٍ متىٰ خالطَ القلبَ ماتَ لوقته) .

وكان يقول : (المخصوصُ بالله هو الذي نفذَ من جميع الأقطار سرُّه وجهرُهُ ، فلم يسعْهُ غيرُ الله ، ولم يسعِ اللهَ غيرُه ، وغيرُ المخصوص بالله بضدِّ ذلك ، فهو مقيَّدٌ في الأرض أو السماء ، أو البرزخ ، أو الجنة أو النار) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الواحدُ لا يظهرُ في كلِّ زمانٍ إلا لواحدٍ ، وإن كانوا أكثر من واحدٍ في الصورة فهم واحدٌ في السريرة ؛ كعيسىٰ ويحيىٰ ، وموسىٰ وهارون مثلاً فهما اثنان حسّاً ، وهما في الحقيقة واحد : ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦] كما إذا شئتَ أن تعبِّرَ عن اسمِ الذات الأقدس بالعربية تقول : الله جل جلاله ، وبالعبرانية آلوهيم ، وبالفارسية خداي ، وبالتركية تنغري ، وبالرومية أربوص ، وبالقبطية ليلصاد ، في كلِّ لغةٍ بلفظ ، وانظرْ إلىٰ جبريل حال تمثُّله في صورةِ البشر لم يخرجْ عن كونه جبريل ذا الأجنحة والرؤوس المتعدِّدة ، بل هو عينُهُ في كلا الصورتين واحد ، لم يتعدَّد) .

وكان يقول : (العقلُ حجابُ الأنت ، والنفسُ حجاب الأنا ، فمن رُفِعَ عن هٰذين ترقَّىٰ من محضر طور سيناء إلىٰ مشهد ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٩]) .

وكان يقول : (مخالفةُ المحبوب لأغراضِ المحبِّين ميزانُ صدق محبَّتهم) .

وكان يقول : (القربُ من القريب قربٌ بلا ريب ، والبعدُ من البعيد بعدٌ بلا ريب ، هٰكذا الأمرُ في الشهادة والغيب) .

وكان يقول : (العلمُ في غير حكيمٍ شمسٌ طلعت من مغربها ، والعملُ من غير

أدبٍ شهدٌ وضع في وعاء من قشر الحنظل) .

وكان يقول : (لأن تعتبَ وتسلمَ خيرٌ من أن تشكرَ وتندم) .

وكان يقول : (من ليس له أستاذٌ ليس له مولىٰ ، ومن ليس له مولىً فالشيطانُ به أولىٰ) .

وكان يقول : (المريدُ من تحقَّق بمراده في عين أستاذه) .

وكان يقول رضي الله عنه : (من وافقَ أستاذَه في أفعاله طابقه فيما أَخبر به من معارفه ، ومن خالفه في أفعاله فقدَ المطابقةَ بتوهُّم معاني أقواله) .

وكان يقول : (من كان مع أستاذِهِ بلا إيَّاه كان أستاذُه معه بالله) .

وكان يقول : (المبعودُ من توهَّم أستاذَهُ مُخبراً عن غيره ، ومتكلِّماً بسواه) .

وكان يقول : (المريدُ الصادق عرشٌ لاستواء رحمانية أستاذه ، كتب الله علىٰ نفسه ألا يدخلَ قلباً فيه سواه ، ولا يظهرَ لعينٍ رأتْ غيرَه في مرآه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يرىٰ وجهَ الحقِّ من حصرته الجهة ، ولا يفارقُ الجهةَ إلا من نفذَ من أقطار السماوات والأرض ، ولا ينفذُ من أقطارهما من حكمتْ عليه بقيَّةٌ جسمانية ؛ لأنَّ جسمَ الإنسان هو سجنُهُ ، فإذا فارقَهُ فارقَ السجن) .

وكان يقول : (من التفتَ إلىٰ آدميَّتِهِ بالكلِّية سُلبت عنه الحقائقُ الإنسانية ، ومن سُلبت عنه الحقائقُ الإنسانية جهلَ حقائق العلوم الإلـٰهية) .

وكان يقول : (لفلاحِ المريد مع أستاذه ثلاثُ علامات : أن يحبَّه بالإيثار ، ويتلقَّىٰ منه كلَّ ما سمعه منه بالقبول ، ويكونَ معه في شؤونه كلِّها بالموافقة) .

وكان يقول : (من تقرَّبَ من أستاذه بالخدم تقرَّبَ اللهُ إلىٰ قلبه بواسطة الكرم) .

وكان يقول : (من آثرَ أستاذَهُ علىٰ نفسه كشفَ اللهُ تعالىٰ له عن حظيرةِ قُدسه ، ومن نزَّهَ حضرةَ أستاذه عن النقائص منحَهُ الله تعالىٰ بالخصائص ، ومنِ احتجبَ أستاذُهُ عنه طرفةَ عينٍ[1] أوبقَهُ اللهُ في موابق البين ، وما بين المريد وبين مشاهدة أستاذه إلا أن

(١) في (ط) : (ومن احتجب عن أستاذه طرفة عين) .

يجعلَ مرادَه بدلاً عن مراده ، ومن لم ينهه أستاذُهُ عن نقائصه لم يفرحْ بحضرة خصائصه ، ومن لم يستحل مقارعة الأستاذ لم يجل أبداً عروس الوداد ، تبّاً لمريدٍ جمح بطبعه عن الدليل ، لقد ضلَّ سواء السبيل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سبقتْ كلمةُ الله التي لا تتبدَّلُ ، وسُنَّتُهُ التي لا تتحوَّلُ : ألا ينفخَ روحَ علمه في مخصوصٍ إلا انقسمَ الخلق له بين ملكيٍّ ساجد ، وشيطانيٍّ حاسد ، فاحرص علىٰ أن تكونَ لأهلِ النعم العلمية محتاجاً خاضعاً ، لتسلمَ ، أو تعلم ، أو ترحم ، وإياك أن تكونَ لهم مُبغضاً أو حاسداً ، فتُسلب ، أو تُرجم ، أو تُحرم) .

وكان يقول : (قلبُ العارف حضرةُ الله ، وحواسُّه أبوابها ، فمن تقرَّبَ إلىٰ حواسِّ العارف بالقُرَبِ الملائمة فتحتْ له أبوابُ الحضرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من مَلَكَ أخلاقه عَبَدَ خلاَّقه ، ومن ملكتْهُ أخلاقُهُ احتجبَ عن خلاَّقه) .

وكان يقول : (العادةُ ما فيه حظُّ النفوس ، والعبادةُ ما كان محضاً للملك القدُّوس ؛ مِنْ قُربٍ ، وصيامٍ ، ونومٍ ، وقيام ، وأكلِ طعامٍ ، فكلُّ ذلك عند العارف عبادةٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من ملكته عاداتُهُ فسدتْ عليه عباداته ، ومن رفعتْ عنه العوائد فهو عارفٌ أو مرادٌ أو مشاهد) .

وكان يقول : (من ذكرَ ربَّه بلسانِ الواحد المختار فقد أخلصه ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص : ٤٦]) .

وكان يقول : (من قالَ عند ظهور براءته من الريب ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف : ٥٣] قال الملك ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف : ٥٤]) .

وكان يقول : (أنفعُ الأقلام ما قبلَ فيضَه الأفهام) .

وكان يقول : (انظروا إلى المرآة تجرَّدتْ عن جميع الصور ، وأشهدتْ كلَّ ذي صورةٍ ما يراه من صورته ، وما لا يرىٰ ، هٰكذا الرجلُ المجرَّدُ عن علائقِ جميع

العوالم ، وجهُهُ الناطق مرآةُ الحقائق ، ما قابلها ذو صورةٍ إلا رأىٰ وجهَ حقيقته ، فمن رأىٰ خيراً فليحمدِ الله ، ومن رأىٰ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه) .

وكان يقول : (العلقةُ التي حولَ حبّة القلب هي الحيّةُ المطوَّقةُ حول العرش من الملكوتي ، والحيّةُ المطوَّقةُ بعينِ الحياة من الجبروتي ، والحيّة المطوَّقةُ بقافٍ من الملكي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (البطنُ الأوسط من الدماغ المسمىٰ بالدودة هو الذي قوته تُنشئ حريرَ أهل الجنان) .

وكان يقول : قال روحُ علمي وأنا كالقائم : لمَّا أكل مَنْ عهدنا إليه فنسي أين كان من تقرّبه فلا ينسىٰ ؟! قلتُ : يا مولاي ، في حوصلة الروحِ الأمين ، فصوَّبَ لي ربِّي عندي ما ألهمني ، كما أشهدني وأوجدني ، وله الفضل والمنَّة .

وكان يقول : خطر بفهمي وأنا كالنائم ما صورتُهُ : يا عليُّ ؛ ما الطائرُ الذي ألزمناه عنقَ كل إنسان[1] ؟ قلتُ : يا مولاي ، ناطقه ، قيل لي : فما حوصلةُ هـٰذا الطائر ؟ قلت : يا مولاي ، قوةُ النطق الفعَّالة ؛ بآلة اللسان عبارة ، وبباقي الأعضاء كناية وإشارة[2] ، قيل لي : يا علي ؛ مهما لقطه هـٰذا الطائرُ من ساحات الحسِّ ، والخيال ، والإدراك ، والقلب ، والفؤاد تحصل في حوصلتِهِ ، ثم سرىٰ إلىٰ سائر آلاته ، ثم رشح منها بالعبارة ، والكناية ، والإشارة ، فإذا رجعتِ التراكيبُ الدنيوية إلىٰ بسائطها الأخروية صارتِ الحوصلةُ كتاباً منشوراً ، يرىٰ فيه كلَّ طائرٍ ما لقطَ ، فرحم اللهُ من تكلَّمَ بخيرٍ أو سكت) .

وكان يقول : (فضلُ العقول في ترك الفضول ، وهي كلُّ ما فضلَ عن الكتابة ، وهي محسوسٌ ومعقول ، وكلُّ مقصودٍ غيرُ ضروري فهو من الفضول ، وكلُّ وسيلةٍ لا يحصلُ مقصودُها الضروري بدونها فليس من الفضول في شيءٍ ، ويكفيك من الغذاء ما يقوِّيك علىٰ ما أمرك الله به) .

وكان يقول : (يكفيك من الملبس ما لا يسفِّهُك به العاقلُ ، ولا يَزدريك به

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء : ١٣] .

(٢) جاءت في بعض النسخ : (الكتابة) بدل (الكناية) في الموضعين .

الجاهل ، ومن المَرْكَبِ ما حملَ رحلك ، وأراحَ رجلك ، ولا يزدرىٰ بركوبهِ مثلك ، ومن السكنِ ما واراك عمن لا تُريد أن يراك ، ومن الحلائل الودودُ الولود ، ومن الخدمِ الأمين المطيع ، ومن الأصحابِ من يُعينك علىٰ كمالك في جميعِ أحوالك ، ومن الأدب ما يقيكَ غضبَ الكريم والعالمِ ، وجراءةِ اللئيم والظالم ، ومن العلم ما طابقَ الذوقَ الصحيح ، ومن الاعتقاد ما بعثَك علىٰ طاعة المعتقد من غير اعتراض ، ومن معرفةِ الحقِّ ما أسقطَ اختيارك لغيره ، ومن معرفة الباطل ما يمنعُك عن اختياره ، ومن المحبَّة ما حقَّقك بإيثار محبوبك علىٰ من سواه ، ومن حُسنِ الظنِّ بالخلق ما لا يُقبل معه سوءُ التأويل ، ولا قول العائب بغير دليل ، ومن الحذرِ ما يمنع من مراكنةٍ تجرُّ إلىٰ مباينة ، ومن الظنِّ بالله ما لا يجرِّئُ علىٰ معصيته ، ولا يؤيس من رحمته ، ومن اليقين ما يعصمُ من صرف وجهِ الطلب عن حيرةٍ ، ومن التوحيد ما لا يبقىٰ معه أثرٌ لغيره ، ومن الفكرِ ما وصل إلىٰ فهم مراده ، ومن النظرِ في آلائه ما تتَّسعُ به روح وداده ، ومن الخواطرِ ما بعثَ علىٰ تعظيم ما عظَّم ، وهضم ما هضم ، وقد وضحت لك الأنوار ، فإن شئتَ فاقتبس ، وقد ثبتت الأصولُ فافهمِ الجامع ، وانفِ المانع ، ثم قس) .

وكان يقول : (التلويحُ لأعينِ الأذهان أبلغُ من التصريح لوعي الآذان ، ومَن قبل النصيحة أمنَ الفضيحة) .

وكان يقول : (محلُّ الشَّعْر ظاهرُ الشخص لا باطنه ، ولو نبتَ في القلب شعرةٌ واحدةٌ لمات صاحبُهُ لوقته ، فلا تشغلْ باطنَك بشيءٍ من ملاذِّكَ الدنيوية الجسمانية ، وفرِّغْ قلبك من الشواغل الفانية التي هي بمنزلة الشَّعْر ؛ فالقلبُ بيت الواحد الذي من أشركَ معه شيئاً تركَهُ وشريكَهُ ، ومن وحَّدَه بالمحبَّة سكن قلبُه بنور ربٍّ لا شريك له في ملكه ، فافهم كيف يَدخلُ عبيدُ الله الجنَّةَ جُرداً مرداً مكحَّلين مُتعاضدين علىٰ قلبٍ واحد ، فاشهدِ الواحدَ إن كنتَ ذا بصيرةٍ مكحولةٍ بطلعتِهِ المنيرة ، واغتنم هٰذه الذخيرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من ظفرَ بكنزِ جوهرِ الألباب ، مرفوع الموانع ، مفتوح الأبواب . . زهدتْ واللهِ نفسُه في افتراشِ الزبالة ، وسفِّ التُّراب ، وليستِ الزينة الدنيوية إلا تراباً آيلاً إلى الذهاب ، خلقتْ بمحنةٍ يُمتحنُ بها الصادقُ في حبِّ الله من

الكذَّاب ، فمن أحبَّ اللهَ تعالىٰ لم تساوِ الدُّنيا عنده رِجلَ ذُبابة من الذباب ، بل صغرتْ عنده الأكوانُ كلُّها في جانبِ ذلك الجناب ، ومن أحبَّ صورةً عبدَها ، فمحبُّ اللهِ مخدومٌ لسائر الأحباب ، لا عبدَ شيءٍ من هٰذه الأسباب ، ومن أحبَّ صورةً التَبَسَ بها ، فلمحبِّ اللهِ تخضعُ الرقاب ، فكيف يخضعُ لزينةٍ تُرابيّةٍ من له هٰذا العزُّ المُهاب ، من كرمِ العليِّ الأعلى الوهاب ؟! ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٧-٨] الصعيدُ : هو التراب ، والجرز : القاطع لما تعلَّق به تعلُّقَ اطمئنان وإكباب ، فكن من الزاهدين في الحظوظ الترابية الجروزات عرفتَ أنك ظفرتَ بكنزِ الكنوز) .

وكان يقول : (مخالطةُ أهلِ الحجاب ، ورؤيةُ الغافلين عن ذكر الله تعالىٰ عقوبةٌ ؛ إلا على الأئمة الذين هم أطباءُ القلوب ، القائمون في مخالطةٍ ترضي النفوس لطبِّهم بروحِ أمرِ مولاهم ، و﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] والله يحيي ويميت ، والله علىٰ كل شيء قدير ، فافهم) .

وكان يقول : (النفسُ مطيّةُ المؤمن ، اسمعْ ، لا تسمحْ لنفسِك في الشراسة ، ولا تعوِّدها بالنفار ، فتتعبْ بها عند رجوعِك إلى الديار ، وتندمْ علىٰ تفريطك فيها حين سلوكِك في مفازة البرزخِ بين الجنة والنار ، واعلمْ : أنَّ النفسَ مركوبُ الوافد عند مُروره على الصراط المنصوب ، فإنْ تشارستْ أَسقطَتْهُ في الدركِ المرهوب ، وإن سهلتْ له نجا عليها إلى المنتهى المطلوب ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]) .

وكان يقول : (الذي بنى البيت باقتداره علىٰ وفق اختياره ما وضعَ فيه مزبلةً ، وبالوعةً ، وكنيفاً إلا لحكمةٍ يرضاها ، فلا ييئسِ العبدُ المنجَّسُ من روح الرحمة والرضوان ، ولو كان كيفما كان) .

وكان يقول : (لا تَشغلنَّك الوسوسةُ في غسل بدنك وثوبك عن تدقيق النظر في تطهير نفسك وقلبك . . تُضيِّع الوقتَ ، وتكتسب المقت ، وإنَّما الطهارةُ الحقيقية أن تقول : اللهم ؛ طهِّرنا بصلواتك الطيبات ، وزكِّنا بتحيَّاتك المباركات ، وطيِّبنا للموتِ ، وطيِّبْه لنا ، واجعلْ فيه راحةَ قلوبنا بروحك ، وحياةَ أرواحنا بمعرفتك

ومشاهدتك ؛ فإنك أنت الفتَّاحُ العليم ، وها أنت قد وجدت البحرَ المحيط العذبَ الصافي ، فتطهَّرْ تَطْهُر ، وقل : الحمد لله ربِّ العالمين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (انظرْ : كلُّ من رضي شيئاً تنعَّمَ به ، ولو شق ظاهرُهُ ، ومن سخطَ شيئاً تعذَّب به ، وإن حسنَ ظاهره ، فالشيءُ الواحدُ عذابٌ علىٰ من سخطه ، ونعيمٌ علىٰ من رضيه ؛ فالرضا منشأُ النعيم ، والسُّخطُ منشأُ الجحيم ، اللهم ؛ هبْ لنا منك الرِّضا المطلق بجميع أحكامك أبداً علىٰ مكاشفة وجه وحدانيتك ؛ إنك أنت الغني الحميد ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما جعل لكم الأرضَ بساطاً ليُعلِّمَكم التواضعَ ، فتواضعوا تنبسطوا) .

وكان يقول : (من ركنَ إلىٰ ظالمٍ مسَّتْه نارُ الفتنة ، إلا من رحم الله ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود : ١١٣] وكفىٰ بالخدمةِ ركوناً ، اسمعْ : مَنْ ركنَ إلىٰ ظالمٍ ، وخلصَ منه سالماً من فتنته . . فتلك له كرامةٌ إبراهيميةٌ بحسبه) .

وكان يقول : (من خاف ورجا فقد مدحَ وهجا ، ومن رضي وسلَّم فقد حمد وعظَّم ، فانظر ماذا ترىٰ إن رأيت الحقَّ بلا مرا) .

وكان يقول : (الضميرُ في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورىٰ : ٢٧] عائدٌ على الرزق ؛ أي : لو بسطَ الرزقَ لعبادِ الرزق لبغوا ، وهم الذين ليس لهم مكنةُ التصرف كالحكيم الرباني ؛ فتصرُّفاتُهم مغلوبةٌ بالشهوات والحظوظ ، فأربابُ المكنةِ عبادُ الله الرزاق ، لا عبيدَ الرزق ، فافهمِ الفرقَ بين عُبَّاد الأرزاق ، وعُبَّاد الرزاق ، هـٰؤلاء الأرزاق محتاجةٌ إليهم في كونها ، وعُبَّادُها محتاجون إلىٰ عينها ، بل إلىٰ أثرِ كونها) .

وكان يقول : (في معنىٰ قوله في الحديث : « فبِي عرفُوني »[1] : أي لأني وجودُهم ، ووجودُ عقولهم ، ووجود شواهدِ شهودها) .

وكان يقول : قالَ لي قائلٌ : ما بال الشاذليةُ يتجمَّلون في لباسهم وهيئاتهم ،

---

(١) تقدم الكلام عليه (١/ ٤٩٩) .

وطريقُهم إنَّما هي الاقتداءُ بالسَّلفِ الصالح ، والسَّلفُ الصالح كما في علمهم ما كانوا إلا على التقشُّفِ بأكلِ الخشن ، وبذاذةِ الهيئة ، ورثاثةِ الملبس ؟! فقلتُ وبالله التوفيق : إنَّ الشاذليةَ لمَّا نظروا إلى المعاني والحكم رأوا السلفَ الصالح إنما فعلوا ذلك حين وجدوا أهلَ الغفلة انهمكوا علىٰ دنياهم ، واشتغلوا بتحصيل الزينةِ الظاهرةِ تفاخراً بالدنيا ، واطمئناناً إليها ، وإشعاراً بأنَّهم من أهلها ، فخالفوهم بإظهارِ حقارة الدنيا التي عظَّمها أهلُ الغفلة ، وأظهروا الغِنىٰ بالله عما اطمأنَّ إليه الغافلون ، فكانت أطمارُهم[1] حينئذ تقولُ : الحمدُ لله الذي أغنانا به عما أفقر نفسه إليه مَنْ همُّه دنياه ، فلما طالَ الأمدُ ، وقستِ القلوب بنسيان ذلك المعنىٰ ، واتخذ الغافلون رثاثةَ الأطمار ، وبذاذةَ الهيئة حيلةً علىٰ تحصيل دنياهم . . انعكسَ الأمرُ ، فصار مخالفةُ هـٰؤلاء لله هو فعلُ السلف وطريقتهم .

وقد أشارَ إلىٰ ذلك الأستاذُ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بقوله لبعض من أنكر عليه جمالَ هيئته من أصحاب الرثاثة : يا هـٰذا ؛ هيئتي هـٰذه تقول : الحمدُ لله ، وهـٰذه هيئتُك تقول : أعطوني شيئاً من دنياكم ، والقومُ أفعالُهم دائرةٌ مع الحِكَم الربانية ، مُرادهم مَرضاةُ ربِّهم ، وإرادتُهم وجهُ ذي الجلال والإكرام في كلِّ حال ﴿ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] فإنِ اتَّسمتَ بسيماهم ، وهو التروح والتمعني[2] عرفتهم ، وظهرتْ لك مقاصدُهم التي بها ترىٰ حُسنَ أفعالهم ، فافهم .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] قال قائلٌ : لا مغفرةَ إلا حيث الذنب ، فالأمرُ بالمسارعة إليها أمرٌ به .

قلت : هـٰذا لا يقولُهُ إمامُ هدىً دياني إلا علىٰ معنىٰ أنه أَمرٌ ؛ بأن يرى العبدُ نفسَهُ مُذنباً ، وإن أطاع جهده ؛ لتحقُّق عجزه عن قيامه بتمام حقِّ ربِّه في كلِّ حالٍ ، وأما علىٰ أنه يأتي الذنبَ فلا ؛ لأن المأمور به لا يكون ذنباً ، فافهم .

وكان يقول : سمعتُ روحَ القُدس يقول في مجلسِ وعظ العقول : اعلموا أيُّها

---

(١) **الأطمار** : جمع طِمْر : وهو الثوب الخَلَق ، أو الكساء البالي من غير الصوف « القاموس المحيط » (ط م ر) .

(٢) كذا في النسخ ، **والتمعني** : طلب المعاني .

الأحلام الراضعة من ثدي الإلهام ، المحرَّمُ عليها مراضعُ الأوهام . . أنَّ كثرة المجالسةِ تولِّدُ في الفطرة صورةَ المجانسة ، فإياكم ومجالسةَ الطباع إلا لضرورة حسنٍ أَحكمتْها يدُ الأوضاع ، فإن وقع أحدٌ منكم في حماها حتىٰ ولَّدت فيه قوةً من قواها ، فليسلكْ سبيلَ خلاصه راكباً نجيبَ إخلاصه ، مُستدلاً علىٰ حضرة اختصاصه بمن حملَ في يمِّ الطباع علىٰ عرش تابوته حتىٰ دخلَ إلىٰ مدينة ناسوته علىٰ حين استغراقِ ملكوته في حضرات لاهوته ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾[1] [القصص : ١٥] وقد وجدَ المشاعر والحواس حولها ، ليكشف بالنور المجرَّد جواسيسَ خالطتْ رعيَّتَه في شكلها ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أحدهما كريمُ طبعه الغريزي في طبيعته المؤصَّل فيه من مكارم سمات أصوله الكرام ، وشيعته مصادر حقيقته ، وموارد شريعته ، والثاني صورةُ العوائد المتولدة ﴿ مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وعدو الرحمـٰن عشَّاق الرياسة والعلوِّ في الأكوان ، الملتقطين لصورة حسِّه ، الحائلين بينه وبين أبناء جنسه ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، وقد أعياه قتاله في رواحه ، فأغاثه القوي بملك نفسه الأمين علىٰ مشاهدة قدسه ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ العدو بقدم صدقه ، ﴿ فَقَضَىٰ ﴾ على العوائد التي أنكرتها محاسنُ عملِ الشيطان ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥] ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بتأخير تفقُّدِ أحوالها إلى الآن ، ﴿ فَٱغْفِرْ لِى ﴾ ظلمَ الطباع بنورِ حقِّك العظيم ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ من التأييد بروحك القوي الأمين ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فلما انجلتْ عن حواسِّه غياهبُ التكوين ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا ﴾ غوائل الدسائس والبقايا ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ما في زوايا الحظوظ من الخبايا ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ على العادة ﴿ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ على الشهوة التي هي عدوُّ الإرادة ، فلمَّا حدق في هـٰذا العدو ببصر اليقين قال له القوي : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾ به كما بطشَ بالأول ، ويا ليته أمضىٰ عزمَه ، وتوكَّل وفعلَ ما كان عليه عوَّلَ ، ولـٰكنَّ الله أحكمُ وأعدل ، قال له : إني جعلتُ في المدينة لبقاء النسلِ ، وحفظِ صور التكوين ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى ﴾ وتهلك أهل المدينة أجمعين ﴿ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ ﴾ كانت تداري وتصانع عن المستضعفين ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن

---

(١) سيشرح في هـٰذا الخبر من الآية (١٥) إلى الآية (٣٥) من سورة (القصص) .

﴿تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فأمسكَ القويُّ هنالك عن قتله ، حتىٰ بلغ دمُه إلىٰ مجمع البحرين محله ، ولو قتله يومئذ لقضى الأجلين ، ووطئ الفرشين ، وداس بالنعلين ، وخوطب من الجانبين ، ولم يسأل الرؤية المحدودة بـ (إلىٰ) قبل تجريد العين من الأين ، ولم تنقسمْ بعثتُهُ بين اثنين ، ولم يستصحبِ الفتىٰ[1] بمجمعِ البحرين ، ولم يسألِ الاطلاع في الحضرتين ، ولم يقل له ﴿لَن﴾ مرتين[2] ، ولم يتأخَّر إلىٰ حين قتل القرين مفارقة البين ، ولـٰكن حفظ كنز اليتيمين اقتضىٰ تأخير ذلك كلِّه .

ولما أعرض القويُّ الأمين عن قتل هـٰذا القرين جاءه النور الإلـٰهي من أول المصادر ﴿يَسْعَىٰ﴾ شوارع الآفاق ، ويقول له : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ القوى البشرية ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ بالتغلب علىٰ صورتك البشرية ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من مدينة التكوين إلىٰ مدائن التمكين ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ من جذب العلائق ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ به أرق طلائع الحقائق ، قال بلسان صدق المراقبة عند رؤية قواطع الواصلين : (﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جعلَ قبلة إمامه منزلَ الدليل ، و ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وما زال يقطع حزوناً ، ويسلك هولاً ، ويرتقي عقبة ، ويهبط مسيلاً ، وصدقُ الطلب يسهِّلُ عليه كلَّ المشاقِّ ، وفرطُ الأدب يحلِّي له المرَّ المذاق إلىٰ أن قطعَ حدود مصير الشهوات ، ووصل إلىٰ مدين الرعاية والخلوات ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ الذوق ، وقد أفرطت به حرارة الوجد ، وجذوة الشوق ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أفهامهم من ينابيع الحكمة ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ الفكرة والهمة ملتحفين بالهمة والتدبير والرحمة ، قد أرسلهما الساقي لحفظ رعيَّته السائمة في سمات جمعيَّته .

فلما رآهما عند حياض السماع ﴿تَذُودَانِ﴾ قوابل خواص الأتباع إلىٰ فضاء كشف القناع ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ من مورد الفرق هـٰذه الرعية ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ﴾ رعاء الأوقات

---

(١) انظر قصة موسىٰ عليه السلام مع الفتىٰ في سورة الكهف .

(٢) قال الخضر لموسىٰ عليه السلام ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ في سورة الكهف ثلاث مرات في الآيات (٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥) .

والأنفاس عين منهل المعية ، ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ ﴾ بمسالك الأزل والأبد ﴿ كَبِيرٌ ﴾ قد ماتت شهوته ، وتمَّت قوته .

فلما سمعَ أوصافَ مرشد السالكين ، ورأىٰ حسنَ رعايته لخواصِّ التابعين . . تلهَّفَ لارتقاء أرفعِ المعارج ، وتلطَّف في الوصول إلىٰ مودَّة المرشد من أقرب المدارج ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ من عين ذاته ، حتىٰ أروى الشربَ كلَّه بعد أن رفعَ لهما جبل الجبلة كأنه ظلة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ لتلقِّي سرِّ الربوبية .

فلما خلع عليه من ملابس العبودية ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فأغنني برؤية نورك المنير في آفاق أخلاق المرشد الكبير عن فكرتي وخيالي وقوتي واحتيالي ، وتجرد عن جميع مواجيده عبودية وأدباً ، وصرفَ بصرَه عن نفسه إلى الأستاذ صدقاً ، وطلباً ﴿ فَجَآءَتْهُ ﴾ في الوقت همَّةُ الإرشاد من بصيرة قلب الأستاذ ﴿ تَمْشِى ﴾ في أعضائه ﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ كما مشى الحكمُ في سيادة يحيىٰ ، فلما واجهتْ حجابَ صورته بعد أن شفَّ ورقَّ رأتْ معه صورةَ القرين الذي أسلمَ عند الغرق ، متلفتاً لاتخاذ أجر ما يحمل من الحرق ، كما قال لصاحب المنزلة الأخرىٰ : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٧ـ٧٨] فهو فراقٌ بين من يعملُ بالله وبين من يعملُ بأمر الله .

ولما رأتْ طالبَ الأجرِ قد سترَ حاله عن القويِّ البصير بـ ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ولينزلَ عملَك من الأجرِ حيث أنزلتنا ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ ورفع بحكمه جميع ما حوته القصص وقَّعَ له بقلم التأمين ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قالت الفكرة عند ذلك : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ ﴾ أن أجعل ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ ﴾ فرش فهمك ، وعرشَ علمك ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾ تماماً ، وتقوم في الخدمة مقاماً ، فترعىٰ كلمات التعريف من عوادي التحريف ، في وادي الفهم عاماً ، وترعىٰ أوامري بالرضا والائتمار من عوادي الحرج والاختيار عاماً ، وترعىٰ أحكام الذات السرية من عوادي رؤية الضرورات البشرية عاماً ، وترعىٰ أحكام سطوتي من عوادي النفور عن حضرتي عاماً ، وترعىٰ علومي ورسومي القاضية من عوادي معارضها بالأمور الماضية عاماً ، وترعىٰ إرادتي اللحظية والحفظية من عوادي المنازعة الخطية

عاماً ، وترعىٰ محبَّتي في الهجر والوصلة من عوادي الفتور والغفلة عاماً .

قلت : وبقي العام الثامن ، فليتأمَّل .

فهناك يأتيك مرادُك من ابنتي عند ظهور صورتك من بطن ابنتي ، وإنما جعلتُ الرعايةَ عاماً عاماً ليقومَ بكلِّ حالٍ في كل يومٍ منك سلاماً ، فتجري كل سلامٍ منك بما كسبت ، وتقومَ كلُّ حضرةٍ بشكرِ ما وهبت ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا ﴾ برعاية ذاتي في بصيرتك من عوادي الأينية ، ورعاية إرادتي كلِّها من عوادي الأمنية ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ تأتي حقيقتي إليك ، ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ .

وإذا رحلتَ إلى العين ، ثم رجعتَ إلى التعيين ﴿ سَتَجِدُنِيٓ ﴾ بمجمع البحرين ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ منك الأمر ومني القبول ، وعليك السير ، وعليَّ الوصول ، ولولا أن ثبت البين لم يصحَّ العمل ، ولولا فارقه بمجمع البحرين لم يبلغِ الأملَ ، فما تفهم المعاني الكامنة في النفس حالةَ السكوت ، وما كان لنفسٍ أن ترى اللهَ حتىٰ تموت ؛ ولذلك قال للسيد المرشد الجليل : ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، ثم أعطاه العطاء والأهل قوة أحكام الحرث والنسل ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ ﴾ القوي ﴿ ٱلْأَجَلَ ﴾ بخمود الحركات الحيوانية ، واستحقَّ حريمه حيث أحل من الحضرات الروحانية ، ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ من الصورة الإنسانية إلى النظرة الرحمانية ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ﴾ طور القلب ﴿ نَارًا ﴾ توجب الذكر والتقريب ، ولو لم يكنْ معه إلا جبريل عليه السلام لغشي السدرةَ نورُ التنزيل .

ولمَّا فارق المقرَّبين فاز بمشهدِ قاب قوسين ، ورُفع عنه حجاب النور والنار في ذلك المقام ، وابتدأ بالسلام قبل الكلام ، ولم تحصره حدودُ الأسماء والكنىٰ ، ولم يحتجْ لنفي إنكارٍ بـ (لن) ، ولا لإثبات تعريف بـ (أنا) ، ولم يضعْ على العين حجاباً عن الأبصار ، ولم يجعلْ مثلاً مضروباً في الأستار ، بل يكونُ بالأعين إنساناً جامعَ الأنوار ، والسلامُ عليه ستراً من جميع الأغيار .

ولما ظهرَ النور المبين بحسب استعداد ذلك القرين ، ولاح للقوي الأمين ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة : ٦-٧] وقام منها مقامَ الإمام لا بساحلة السلام ، تالياً بلسان حالِ المقام ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] ﴿ قَالَ ﴾ القوي الأمين

﴿ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ فإن حضرةَ الأحدِ لا يدخل إلىٰ رحابها العدد ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ ﴾ من حجاب الغير نارَ الراحة للسير ، لا يقابلها إلا نورانية الصور ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّآ أَتَـٰهَا ﴾ وقوة نموِّه مسعَّرة ، وقد تشكَّلت من النبات في صورة مخضرَّة ، توكَّأتْ عليها القوةُ المذكرة في حفظ مزاج بشريته المصوّرة ، وهشت بها القوة المفكِّرة على الأعضاء أعمالاً مطهَّرة ، وعلوماً محرَّرة ﴿ نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، ولولا بقاء العالم الخلقي لنُودي من الجانب الشرقي : أيُّها القوي الأمين ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أُربِّي عبدي كما اختار ، وأُخرجُ مريدي من سجنِ الاختيار ، وأقيمُهُ بقدمِ الصِّدق علىٰ بساطِ الائتمار ، وأُجرِّدُه بمرادي عن سائر الأوطار ، وأُشهدُه وجودي وإيجادي في جميع الأطوار ، وأُوحي إليه أن حُل بحولي وقوتي عن حولك وقواك ، ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ، وعلم حقيقةَ العدو الثان[1] ، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ عن تدبير نفسه بجسده ، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ علىٰ حسِّه في حضرة قدسه ، فنُودي مشافهة عند إسقاط التدبير كما قيل له في حجاب المرشد الكبير : ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فقد حقَّقتَ نجاتك من القوم الظالمين ، وأمكنه من صورة عدوِّه الذي سلف ، وقال ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ [طه : ٢١] ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ وتصرَّف بيدي في شهادتك وغيبك ، فعندما تندرجُ يدُك في نور يدي وتنوء ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ وانقلب بي إليك خير مُنقلبٍ ، فها هنا مستقرُّ سيرك ، ومعشش طيرك ، وارجعْ إلىٰ أطوار العادات ، لينفخ فيها أرواحَ العبادات ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ وأخرجتُها عن التعلُّق بهم معنىً وحسّاً ، حتىٰ أحييتَها بروحِكَ لطفاً وأنساً ﴿ فَأَخَافُ ﴾ إن رددتني عليهم ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بالتلف إليهم ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ وقد جعلتَ له حكمةَ التدبير في عالم الحكمة شأناً ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ فيصدقوني ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ولولا أمره الله بأخذ عصاه بعد أن أعادها سدرة منتهاه ، ما سأل أن يُرسلَ معه أخاه ، وأن يشدَّ به أزرَهُ وقواه ، ولـٰكن لما ردَّه الله بعد تجريده عن الوسائط إلىٰ مراتب السبب قال : ربِّ ؛ اجعل المدبِّر الحفيظ معيني في هـٰذه الرتب ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ

(١) في (ط) : (المنان) .

عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وتصرفُ يدنا إليك يكفيك ، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا﴾ من صفاتنا ﴿سُلْطَنًا﴾ ومن أصفيائنا بيوتاً وأوطاناً .

ولما وجدتِ القواطعُ سبيلاً إليك مسخناهم على مكانتهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص : ٣٥] فافهموا أيها السامعون واتَّبعوا الهادي أحقَّ الاتباع تغلبوا شياطين الطِّباع ، وإذا جاءكم الحقُّ المبين قولوا آمنا به ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص : ٥٣] .

وإذا أوتيتم أجوركم في العمل بالتوفيق ، وفي العلم بالتحقيق فإيَّاكم أن تضيفوا ذلك إلى الأسباب ، أو تظنُّوا حصولَه بالاكتساب ، فتعمىٰ عليكم الأنباء عند كشف الساق ، وتُحجبوا بما اكتسبتم إلىٰ يوم التلاق ، وقوموا لله دائماً علىٰ قدمِ الافتقار ، فإن ربَّكم يخلقُ ما يشاء ويختار ، ومن فرِحَ بالله وحده أمدَّه اللهُ بما عنده ، وأشهدَهُ سرّاً لا يبلغ الإدراكُ كنهَهُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : ٨٨] ؛ وليومه المحمديِّ يهرع تُهرع العوالم أجمعون صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ آله وشرَّفهم ، وكرَّم ، والله أعلم .

قلت : وهـٰذه القولةُ ما سمعتُ قطُّ بمثلها في كلامِ أحدٍ من الأولياء ، وهي دليلٌ علىٰ علوِّ حالِ هـٰذا الأستاذ ، رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو أَوريتَ زناد المحبَّةِ في حِراق حسِّكَ لرأيت مقعدَك من حضرة قدسك ، وحقَّقتَ حقيقةَ مطلع شمسِ طمسك حين مزَّقتْ بأشعتها غواشي ظلمِ نفسك ، فانفتحتْ بالفتح عضلُ بصيرتك بعد الانقباض ، ونادىٰ روحَك بسير قلبك بلسان السريرة : ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] وأما الآن فظلامُ أطلال الأكوان قبضَ بصرَك عن شهودِ شمس العرفان ، فإن غدوتَ عبداً للخيال الكاذب ، ورحتَ مَغلوباً مع الوهم الغالب ، فعميتْ عليك أنباءُ الحقائق ، وسقطتَ بركونك إلى العوائق ، وقد ناداك لسانُ المحبوب الغيور تخيرت فتحيرت أيها المغرور ، دهمَك وهمُك بأدهمَ ديجور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] لو أنك قابلتَ من أفق المعارف شمسَ الأزل ، وقد صقلتَ مرآةَ فطرتك من صدأ الموانع والعلل . . لظهرتْ منك أشعةُ اللطائف ، وأذابتْ ما قابلها من الكثائف) .

وكان يقول في قول أبي يزيد رضي الله عنه : (خضتُ بحراً وقفَ الأنبياء بساحله) : (يُريد أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عبروا بحرَ التكليف إلىٰ ساحلِ السلامة ، ووقفوا علىٰ ساحلِهِ يتلقَّونَ من سَلِمَ ، وبهـٰذا أُمروا ، وبهـٰذا أُرسلوا ؛ فإنَّ السفينة انكسرتْ يومَ أكلَ آدمُ عليه السلام من الشجرة) .

وكان يقول : (أمينُ روح الإمامة مجمعُ الخزائن السنية ، فمن نفخت فيه تنزَّلت منه أمورُ الخلق بقدر معلوم ، فلا تجوزُ منازعتُه في الأمر) .

وكان يقول : (أخلاقُ الخلقِ معانٍ صفاتية في فطرهم الذاتية ، من استعملها بغلبة الهوىٰ قبحت ، ومن أقامَها بأمرِ الهُدىٰ صلحتْ ، انظرْ إلى الخديعة كيف تصلحُ في الحرب لإعلاءِ كلمة الحقِّ ، وكذلك الكذب للإصلاح بين الخلقِ ، وغير ذلك من المصالح المأذون فيها شرعاً[1] ، ومتىٰ لم تُستعملْ إلا لمحبوبٍ طبعاً ، مكروهٍ شرعاً كان ذلك هو اتباعُ الهوىٰ بغير هدىً ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ربَّما يظنُّ الجاهلُ بنا أَننا إنَّما نتعاطىٰ أخبارَ العباد لنستفيد ، وغاب عنه أنَّ العارفَ إنما وظيفتُه أن يُعطي غيره ، ويمنحَهُ ، ويفيدَهُ ، وربَّما خاطب جلساءَ المكان المشرف ليسمعَ عقولاً طارتْ من أقفاص أشباحها إلىٰ رياضِ اختصاص أرواحها ، جيعانةً عطشانة ، هيمانة لهفانة ، حلفت بصدقِ هواها ، وذلِّها لعزِّ مناها ، ألا تشربَ إلا من عين خطابه شفاهاً ، ولا تعتدَّ إلا برؤية وجهه وجاهاً ، فلما دخلتْ إلىٰ حضرة مولاها ، وشكتْ إليه ما بها أشكاها ، وعطف عليها ، فأطعمها وسقاها) .

وكان يقول : (العارفُ عينُ معروفه ، والمحقِّقُ حقيقةُ ما حقَّقه ، وعلىٰ قدرِ شهود الكمال والتكميل تكونُ محبَّةُ الشاهد لمشهوده ، وعلىٰ قدرِ المحبَّة يكون تحقُّقُ المحبِّ

---

(١) روى الترمذي (١٩٣٩) عن سيدتنا أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاثٍ : يُحدِّثُ الرجل امرأته ليُرضيَها ، والكذبُ في الحرب ، والكذبُ ليصلح بين الناس » .

بمحبوبه ، وعلىٰ قدرِ التحقق يكونُ ظهورُ المتحقِّق بحكم ما تحقَّقَ به عيناً وأثراً ، والله بكلِّ شيء عليم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قيل لي : اسمعْ ، كلُّ الموجودات موجوداتي ، فسمِّني بما شئتَ ، وصفني بما أردتَ ، وكلُّ مَنْ سمَّيتَهُ أو وصفتَهُ فإنما سمَّيتني ووصفتني مع تجرُّدي عن كلِّ ذاتك بذاتي ، وقيُّوميَّتي فيه بتعيناتي ، اسمع ، لا يدعو عبدٌ ربَّه إلا كنتُ أنا الداعي ، ولا يرىٰ عبدٌ قصْرَ أخيه كما يُرىٰ سهيلٌ في جنته إلا كان المرئيُّ قصري ، ولا حفَّ ملائكةٌ بعرشٍ إلا كان المحفوفُ عرشي ، ولا تكلَّمتَ بكلمةٍ إلـٰهية إلا واللهُ متكلِّمٌ بها ، ولا أتيتَ بأمرٍ إلا واللهُ آتٍ به ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ١٦٦]) .

كان يقول : (ناطقي هـٰذا الوفري لناطق المحققين كالناطق المحمدي لنواطق النبيين ، فهو حقُّهم اليقين ، ونورُهم المبين) .

وكان يقول : (من جذبَهُ المحبوبُ فلا عائق ، ومن دعاه داعي الغيوبِ ، فما على القلوب دروب ، ومن شُغل عن المطلوب ، فآه ثم آه على المحجوب ، متىٰ تنكشفُ الكروب ، والنفسُ غارقةٌ في الذنوب ؟! أين من يتفانىٰ[1] ويؤوب ، لربِّ يفرحُ بعبدٍ يتوب ؟! متىٰ فرحَ بك المحبوب أنالَكَ منه فوقَ المرغوب) .

وكان يقول : (الربُّ هو الموجود المصلح في كلِّ مقام بحسبه ، فلا ربَّ إلا الله) .

وكان رضي الله عنه يُشير لغلمانه إذا كتبَ أحدٌ منهم لأخيه كتاباً أن يجعلَ صدرَ الكتاب دائماً : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، يا مولاي يا واحد ، يا مولاي يا دائم ، يا عليُّ يا حكيم ، من عبدِ الله أبي فلان إلىٰ أخيه أبي فلان ، متَّعه اللهُ بما منَّ الله به عليه ، وبلَّغه ما وجَّهه منه إليه ، أما بعد : فإني أحمدُ اللهَ إليك الذي لا إلـٰه إلا هو ، وهو هو بما هو سيدي وربِّي ، وهو مولاي وحسبي ، ليس إلا هو ، وصلَّى الله بذاته ، وسلَّم بأسمائه ،

(١) في (ب) : (يتعانىٰ) ، وفي (و ، ط) : (يتغانىٰ) .

وبارك بصفاته علىٰ أحمدِهِ ومحمَّدِهِ ، إحاطة تنزُّلاته ، وحيطة تجلِّياته ، وعلىٰ آلهِ وصحبه ومحبّيه عيون تعيناته ، ومثل تمثلاته بمحامده وسبحاته ، وكلٌّ من عند الله ، وإلى الله تُرجعُ الأمور) .

وكان يقول : (نفوسٌ هي للمنقولات أقبلُ ، لا تأمنْ مِن انتقالها عما كانت معك عليه ؛ فإنها بالطبعِ منقولة ، ونفوسٌ هي للمعقولات أميلُ ، لا ترجو منها إطلاقاً ، وإن أظهرت لك الميل إليه بِجِدٍّ فإنها بالأصل معقولة ، واخترْ لنفسك ما عدَّلَه الله وزكَّاه مما سوَّاه ، فهو لا يعبدُ إلا إيَّاه ، والله بكلِّ شيءٍ عليم) .

وكان يقول : في حديث : « مَنْ جاءَ منكمُ الجمعةَ فليغتسلْ »[1] : (غسلُ الجسم بالماء ، وغسلُ القوىٰ بالمسارعةِ لامتثالِ الأمر والعمل به ، وغُسلُ النفس بالتوبة ، وغسلُ الهمَّةِ بالإخلاص ، وغُسلُ القلب بالتوحيد) .

وكان يقول لأصحابه : (أوصيكم بتوحيد المحبوب كما أمر ، ولزومِ ذكره ، فإنَّه تعالىٰ جليسُ من ذكر ، ولن يعدمَ جليسُ الملك مِنْ ظَفَر ، لازموا ذكرَ محبوبكم ؛ فذكرُهُ لا يُقابلُ صعباً إلا سهَّله ، ولا يقارن طلباً إلا حصَّله ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] واعلموا أنه لا رخصةَ في ترك وظيفةِ العِشاء والصُّبح في سفرٍ ولا حضر ، فتلك صدقةُ الله تعالىٰ علىٰ صادقيه ، فالبسوا حُللَ الإحسان بأمانٍ من الرحمـٰن ، وتناصحوا ولا تفاضحوا ، وتسامحوا ولا تشاححوا ، ويسِّروا ولا تُعسِّروا ، وأبشروا ولا تنفِّروا ، وكونوا رحماء رحمانيين ، حكماء ربانيين) .

وكان يقول : (من سمعَ بأمرنا ذاقَ حقيقة الطاعة ، ومن ذاقَ حقيقة الطاعة اتَّصل في ساعة) .

وكان يقول : (المراقبةُ هي انصرافُ كلِّيتك إلىٰ وجه محبوبك ، والتوجُّهُ من العبد هو استعدادُ مرآة قلبه بصفاها ؛ ليظهرَ محبوبُهُ فيها ، والاستعدادُ هو الخلوُّ من جميع المراد ؛ ليفعل بك ما أراد ، فهـٰذا مقامُ الاستعداد) .

---

(١) رواه البخاري (٨٧٧) ومسلم (٨٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وكان يقول : (سرُّ نورِ الموجوات في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فجمعُ جميع الحقائق واحد ، وإنْ تعدَّدَ فهو أحدٌ من الواحد ؛ لأنَّ الواحدَ يتعدَّدُ بالمظاهر ، والأحدُ لا يتعدَّدُ ؛ لأنَّه خلاصةُ الواحد ، فجمعُ جميع الكلِّ من الواحد ، وإن كان الواحدُ افتتاحَ الأعداد فهو اختتامُهُ ، فهو عينُ الدليل ؛ لأن الأحدَ مفردٌ ، والواحدَ جامعٌ للكلِّ ، فيصير مفرداً جامعاً ، فالكلُّ بالظاهر منه وإليه ، والدليلُ عليه قولهم : هو الواحد الأحد ، فإذا تعدَّدَ الواحدُ فهو تنزل لكمال الدائرة ، وإذا تكمَّلَتْ صارتْ حقيقةً واحديَّةً أحديَّةً لجميع الدوائر ، فهٰذه هي خلاصة الحقائق ، فمن صدق لله وحَّده الله ، وصار واحداً عارفاً بالله لله) .

وكان يقول : (لا يُباع ويشترىٰ بالأعمال إلا ما استحسنتْهُ العقول النظرية من الصور في سوق الخيال في الحال أو في المآل ، أما الحقائقُ فكلُّ أمرٍ مُستترٌ بأستارِ أوهام النفوس ، فمن تجرَّدَ عن النفس وعالمها ، وأَخرجه التحقيقُ من سجن وَهْمِ مؤلمها وملائمها . . ظهر له محجوبه ، وانجلتْ في عيونه غيوبه ، واتَّحد طالبه ومطلوبه ، وتوحَّد محبُّه ومحبوبه ، وصارَ بتحقُّقِ الجمع مرغوبُه مرهوبَه ، وأما ما وراء ذلك فلا يسأل عما هنالك) .

وكان يقول : (النورُ جسدٌ لطيف بسيط ، والضياءُ معنىً قائمٌ به قيامَ الروح بالجسد ، أو قيام الحياة بالروح ، ألم ترَ إلى القمرِ الذي هو نورٌ متى احتجبتْ عنه الشمس التي هي ضياءٌ كيف يكونُ حالُه ، مع كونه يرىٰ نوراً لٰكن بغير ضياء ؟! فذلك موتُهُ أو نومه ، هٰكذا حالُ الشمس مع جميع الكواكب برقائقها ، وأما القمرُ فيتمثَّلُ حقيقتَها ؛ لذلك يميز ، ولما لم يكن للروح المحيطةِ مظهرٌ في عالم الكون إلا آدم ، نزل فلكُ القمر ليعلمَ حالَ من يكون في هٰذه الصورة عند تجلِّي هٰذه الروح فيها ، وحجابها عنه) .

وكان يقول : (النفسُ الدموية روحُ حياتها النفسُ الشهوانية التي هي مظهرُ الروح الحيواني ، وبها وقعَ الحجابُ الكثيف جسماً متلاحماً ، فإذا زالتِ النفس الدموية التي هي الدنيا ، ظهر حكمُ الآخرة في الشهوة بخلاف ما قارن الإزالة ؛ ولذلك طاب المُذَكَّىٰ باسم الله) .

وكان يقول : (العارفُ ليس له أن يظنَّ أنه مفتون بمعنى الضلالة ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ [ص : ٢٤ـ٢٥] وكيف لا ، وهو عينُ معروفه ؟! فافهم) .

وكان يقول : (أنت لا ترضىٰ أن يدخلَ بينك وبين ثوبك ذبابةٌ ، ولا نملة ، ولا برغوث ، ولا قملة ، وتدفعُ ذلك ما استطعتَ ، فإنْ لم يندفعْ اخترتَ التجرُّدَ عنه علىٰ لبسه ، فكيف ترضىٰ أن يدخلَ غيرٌ بينك وبين حقيقتك ؟! فافهم ، فإنَّ كلَّ من له تعلُّقٌ بغيرك فهو غيرك ، ولو حسبتَهُ أنت ، فافهم) .

وكان يقول : (إنْ وجدتَ أستاذَكَ المحقِّقَ وجدتَ حقيقتك ، وإذا وجدتَ حقيقتَك وجدت الله تعالىٰ ، فوجدتَ كلَّ شيءٍ ، فليس كلُّ المراد إلا في وجد هٰذا الأستاذ ، فافهم) .

وكان يقول : (المريدُ الصادقُ عينُ أستاذه بعد تجريده ، فافهم) .

وكان يقول : (مرتبةُ السيادة لا تقبلُ الشركةَ ، ولا تحتملها ، فهي تدفعُها عن نفسِها بغيرةٍ ، من أصابته تركتْهُ كالرميم ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يدلُّكَ مظهرُ الحقِّ علىٰ نفسه حتىٰ لا يكونَ للحقِّ عندك عينٌ سواه ، ومن لك بذلك ما دمتَ غيره ، فإذا خلَّصك من قيدِ المغايرةِ أراكَ نفسَه بنوره ، فتحققتَ عين اليقين أنْ لا عينَ له سواه ، فهنالك يدعوك إلى الحقِّ علىٰ بصيرةٍ حيث يقول لك : أنا ربُّك ، أو : « منْ رآني فقدْ رأى الحقَّ »[1] ، ومن لا فلا ، فافهم) .

وكان يقول : (ما دمتَ ترىٰ لنفسك عيناً ترشدُكَ إليه فأنت من المؤمنين بالغيب) .

وكان يقول : (أنتَ على الصورة التي تشهد أستاذك عليها ، فاشهدْ ما شئت ، وانظرْ ماذا ترىٰ ؛ إن شهدته خلقاً فأنت خلقٌ ، وإن حقّاً فأنتَ حقٌّ) .

وكان يقول : (الفرقانُ نورٌ ، والجمعُ ظلمة ، فكيف بالوحدة ، ورجالُ الليل هم الرجال حيث لا إزارَ ولا سربال ؟! ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] أي : ليراه بلا فرقان ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١]) .

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٦) ، ومسلم (٢٢٦٧) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه .

وكان يقول : (شرفُ العبد أن يستخدمَهُ مولاه ؛ فإنَّ ثوباً لا يلبسُهُ صاحبُه يلبسُ نفسَه ، فتقطِّعه الأوساخ ، ويمزِّقه الغسل ؛ فلذلك يعرضُ مولاه عن تطهيره ، فاستخدمْ نفسَك لربِّك ، فذلك شرفُك ، واحذرْ أن تخدمَ نفسَك ، ففي ذلك تلفك) .

وكان يقول : (ما هو إلا أن تجدَ أستاذَكَ وقد وجدتَ مرادَكَ ، فهيِّئ لله فؤادك ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما هي موجوداتُك تظهرُ بها في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فالرفيعُ رفيعك ، والوضيعُ وضيعُك) .

وكان يقول : (مَنْ يُحصي ثناءً علىٰ موجودٍ لا يُحاط به علماً ؟!) .

وكان يقول : (حيث كانتِ المماثلة والمقابلة فالمغايرةُ حاصلةٌ ، فافهم) .

وكان يقول : (من كفرَ بآيةٍ كان شخصُه أكثفَ حجاباً له عنه ، فقل لي : متىٰ يراه وهو كافره ؟! فيا سعادةَ أهلِ الإيمان ! فكيف بمن فوقهم ؟! وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم ، فافهم) .

وكان يقول : (صاحبُ كلِّ زمانٍ هو آية الله الكبرىٰ فيه ، فوجودُه أكبرُ آية ظهر بها وجوده هناك ، فافهم) .

وكان يقول : (علمُ العالِمِ جهلُ الجاهل ، عرفُ العارف أنكر المنكر ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤]) .

وكان يقول : (ما دمتِ أيَّتُها النفسُ مملوكةً في يد صاحبِ الوقت فهو يدخلكِ مدخل المقرَّبين ، ومتىٰ ألقاك من يدِهِ في غير خدمته بدَّلَ أنسَكِ وحشةً ، وجمعَك فرقاً ، فإذا تعطَّفَ عليكِ ، ورجعتِ في يده عدتِ إلىٰ سيرتك الأولىٰ ، فافهمي) .

وكان يقول : (تجنَّبِ الإنكارَ ، فمن ملأ آذانه بحقٍّ أنكره جنانه . . صُبَّ في أُذنيه الآنُكُ ؛ يعني : الرصاص المذاب) .

وكان يقول : (الحكيمُ لا يُطالبُ كلَّ مرتبةٍ إلا بلسانها ، ولا يعاملُها إلا بكيلها وميزانها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ﴾ الآية [إبراهيم : ٤] ، فافهم) .

وكان يقول : (إن كنتْ متمكِّناً من صبغة جليسك ، وهو مصدِّقٌ بقلبه لما جئته به . . فأنت رحمةٌ للعالمين ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] ، فافهم) .

وكان يقول : (ربَّما أنكرتِ النفسُ لغرضٍ ما عرفه القلب بلا مرضٍ ، فأنكره معها بالعرض ، ولئن صرفتَهُ عن ذلك يوماً ما لينقلبنَّ بها إليه يوماً ما .

ما سُمِّيَ القلبُ إلا مِنْ تقلُّبِهِ . . . .(١)

فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : في قوله تعالىٰ : ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ . . . ﴾ الآية [النساء : ١٤٠] : (في هٰذه الآية دليلٌ لمنع السالكين أن يَتظاهروا للجمهورِ بما هو عندهم مما يَدقُّ عن مداركهم ، وما للسالك والهالك ؟!)

وكان يقول : (مهما شهدتَهُ فهو لديك ، ومنك ، وإليك ، فافهم) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] : (هو أعلىٰ علِّيين بإشارة ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين : ٥]) .

وكان يقول : (حيثما جاءَ كشفُ سوءٍ ، أو عذابٍ ، أو ضرٍّ ، أو غطاء . . فالمرادُ به الحجاب ؛ إذ لا يُكشفُ إلا الحجاب ، والحجابُ بلا شكٍّ مانعٌ من اللقاء الحقيقي في كلِّ مقامٍ بحسبه) .

وكان يقول : (احذرْ أن تدعو علىٰ من ظلمك ، فإنَّك إذن تدعو علىٰ نفسك ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٩] فمن شهدَ ظلماً فإنما هو منه وإليه ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] فأين الظلم ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذرْ أن تدَّعي قدرةً وأنت في قيودِ مرتبةِ الاضطرارِ ،

---

(١) صدر بيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعجزه :

. . . . ولا الفـؤاد فـؤاداً غيـرَ أَنْ عَقَـلا

انظر « ديوانه » (ص ٢٢٠) .

أوِ استغناءً وأنت في مرتبة قيود الافتقار ، واعملْ في كلِّ مقامٍ على شاكلته ؛ فإنَّ التظاهرَ بالجهالة لا يليق بمثلك ، وشأنُك أحسنُ تقويم ، فافهم) .

وكان يقول : (من هو بكلِّ شيءٍ محيطٌ لا يسعُهُ شيءٌ ، هـٰذا ومعه شيء ، فكيف بمن هو كلُّ شيءٍ ، ولم يكنْ شيءٌ غيره ؟! ويكفيك هـٰذا ، فاصبرْ نفسَك في جدِّك ، أو أثبت التجريد ، فتلك الطَّامَّةُ الكبرىٰ ، فافهم) .

وكان يقول : (العبدُ لمولاه ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم ﴾ [الزمر : ١٥] فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ مرتبةٍ فإنما عبدَ الحقَّ فيها من شاءها ، إلا مرتبة الحقيقة المبيَّنة فإنَّما يعبدُ الحقَّ من شاءه ، فمن ثَمَّ قال الحقُّ بناطقه المحمدي : (﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۞ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : ١٤-١٥] أي : وأمَّا هو فما يعبدونه إلا بمجرد إشاءته ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ ﴾ أي : بي ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس : ١٠٠]) .

وكان يقول : (سجنُك قيودُك البشرية ، ووليُّك من تمكَّنَ من خلاصك منها ، فلا تجهلنَّه فتظنَّه من يؤكِّدها ويخلِّدها ، فتطلب أن يُوسِّعَ عليك دنياك ، وأمورَ هواك ، وأن يمنعَ عنك ما يزحزحك عنها ، فإن ذلك عكسُ ما يُريده منه مَنْ عرفه ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يعرفهم بآبائهم إلا من تحقَّق بحقائقهم ، ولا يَعرفُهم بسيماهم إلا من تخلَّق بخلائقهم ، فافهم) .

وكان يقول : (جُبلتِ القلوبُ علىٰ حبِّ علاَّم الغيوب ، ومن ثَمَّ أحبَّ الناسُ من كاشفهم بما وارَتْه أجسامُهم ، وحذَّرهم من وساوسَ ، وأوهامَ ، وأعراض ، وأجرام ؛ لأنَّ ذلك من عزيزِ الغيب عندهم ؛ لقصورِ إدراكهم عنه ، وآخرون أحبُّوا من كاشفَهم بدقيق النظر في أمور دنياهم ، وآخرون أحبُّوا من كاشفَهم بمعارف الحقِّ وحقائقه ؛ لأنهم لا غيبَ عندهم إلا الله) .

وكان يقول : (الشيءُ في مرتبته الأصليةِ لا تُعرف قيمتُه ، وإنما تظهرُ عزَّتُهُ في غربته ، واعتبرْ هـٰذا في كلِّ جوهرٍ وشيءٍ نفيس ، هـٰكذا العارفُ المحقِّقُ هو عين معروفِهِ ، ومعروفُهُ حقيقتُهُ ، ومتىٰ ظهرَ بحكم حقيقته هـٰذه حجبَهُ التنزيهُ له من حيث إنه الحقُّ عما تعيَّن به من حيث إنه الخلق ، فامتهن ، ورد عليه قوله : « أنا الحقُّ » فإذا

تغرَّب إلىٰ مرتبة العبودية ، وأحكام الخليقة عُرف في كنزه ، وظهر بحكم تعظيمه وعزِّه) .

وكان يقول : (لا يأمرُكَ الأستاذُ الناطقُ بأمرٍ ويتعذَّرُ عليك فعلُه إلا لعدمِ كمال قبولك لذلك ، ونقصِ استعدادك) .

وكان يقول : (إذا اعتنى الحقُّ تعالىٰ بعبده أماته عن كلِّ حركةٍ لا نفعَ فيها له ، أو لأحدٍ من الخلق ، وقد وقعَ لي ذلك فلا أجدُ قوَّةً إلا حالَ فعلِ خيرٍ ، أو قولِ خيرٍ ، وفي غير ذلك أعجزُ عن عصرِ ليمونةٍ ، فأنا ميتٌ في صورةِ حيٍّ) .

وكان يقول : (لا تطلب ألا يكونَ لك حاسدٌ ، ولا ألا يحسدَكَ حاسد ؛ فإنَّ الحكمَ الوجودي اقتضىٰ مقابلة النِّعم بالحسد ، فمن طلب ألا يكونَ له حاسدٌ ، فقد طلبَ ألا يكون له نعمةٌ ، ومن طلبَ الوقايةَ من شرِّ الحاسد المتحقق الحسد فقد طلبَ ظهورَ النعمة عليه ، مع الأمانِ من التشويش فيها ، فافهم ؛ فلذلك قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . . . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق : ١-٥] وأتىٰ بـ : ﴿إِذَا﴾ ولم يقل « إن حسد » فافهم) .

وكان يقول : (العليمُ الحكيم الهادي إذا تحوَّل لأهل زمانه في صورةٍ آدمية . . فظاهرُهُ إمامُ هدىً لأهل زمانه ، وباطنُهُ الربَّانيُّ ربٌّ لأهل زمانه ؛ أي : سيِّدٌ أتاهم في صورة يعرفونَه بها ، ولا يراه من هـٰذه الحيثية إلا من ماتَ الموتةَ المعنوية ؛ بأن تجرَّدَتْ نفسُه عن أوهامها البهيمية ، كما أشار إليه حديثُ : (« إنكمْ لنْ تروا ربَّكمْ حتىٰ تموتُوا »[1]) .

وكان يقول : (إنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه رُفع كما رُفع عيسىٰ عليه السلام ، وسينزل كما ينزلُ عيسىٰ عليه السلام) .

قلت : وبذلك قال سيدي عليٌّ الخوَّاص رضي الله عنه ، فسمعته يقول : إنَّ نوحاً عليه السلام أبقىٰ من السفينةِ لوحاً على اسم عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه ، يرفع

---

(١) تقدم تخريجه (٢/١١٩) .

عليه إلى السماء ، فلم يزلْ محفوظاً في صيانة القدرة حتىٰ رفع عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه[1] ، فالله أعلم بذلك .

وكان يقول : (العارفُ بالله إذا ذُكر الله رأى اللهَ تعالىٰ يذكر نفسَه وهو يسمعُه ، وهـٰكذا من عرفَ حالَ هـٰذا العارف حقَّ اليقين فإنه عينُ معروفه ، فافهم) .

وكان يقول : (حقيقةُ المريد المخصوصِ مَنْ أستاذه بمنزلة ما يراه الناظرُ في المرآة من نفسه مُطابقاً بواسطتها ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العورةُ محلُّ الخيانة ، فالمعصوم من ليس فيه محلٌّ لخيانةٍ ، فلا عورةَ له ، ومن ستر الحقُّ عورتَه أَمِنَ روعته ؛ إذ لا روعةَ إلا من خائنٍ علىٰ ما أنت له صائن ، فافهم) .

وكان يقول : (من شهدَ أنَّ القدوسَ هو القائمُ بالأمور لم يشهدْ في الوجود إلا الكمال ، ومن انعكس انتكس ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٩] ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [الزمر : ١٥] فافهم) .

وكان يقول : (المَلَكُ مقيَّدٌ بالتنزيه ، والشيطانُ مقيَّدٌ بضدِّهِ ، وكلاهما في دائرة الفرقان مقيَّدٌ ، والمُخلصُ من خلصَ من المقيَّدين بشهود الإحاطة الخفية في الكلِّ ، فلم يبق لمقيدٍ عليه سلطانٌ ، فهو القائم فـ ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] ، فافهم) .

وكان يقول : (حضراتُ قدسِ الله هي مَداركُ العارفين به ، الهادين إليه ، فاتخذْ لك في شيءٍ منها مستقرّاً بحسن المودَّة ، والخدمة ، وصدقِ المحبة ، والتعظيم ، فلا تُعلِّقْ همَّتَكَ بغيرِ أهل الحقِّ تندمْ ، واجعلْ همَّتَكَ الحقَّ حيثما توجَّهتَ تسلمْ وتغنم ، والله أعلم) .

وكان يقول : (ما تعلَّقتْ محبةُ الله تعالىٰ حقيقةً لمن أحبَّه إلا بأخلاقه تعالى التي تخلَّق ذلك العبدُ بها ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : « تخلَّقُوا بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ »[2] ،

---

(١) في (ح) : (خزائن) بدل (صيانة) .

(٢) أورده الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٠٥) وروى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق »=

وما كره الناسُ أحداً بحبّه لأمرٍ إلا لجهلهم به ، وتصوُّرِهم لهم علىٰ خلاف ما هم عليه من الأمر ؛ ولذلك سمَّوهم ضلاَّلاً وسحرةً وكهنة ، ولو أنهم رأوهم علىٰ ما هم عليه لأحبُّوهم ، فما كره الناسُ الأولياءَ إلا من حيث موهومِ نفوسهم فيهم ، لا غير) .

وكان يقول : (من شهدَ أنَّ كلَّ ذي نفعٍ عينٌ من أعيان الحقِّ ، وكلَّ ذي ضرٍّ من أعيان الضارِّ الحق ، وقسْ علىٰ ذلك جميعَ الأمور حتى الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والخوف ، والضحك ، وسائر الصفات ، فلم ير شيئاً منها بالحقيقة إلا لربّه الحقّ ، فحيثما ولَّىٰ هـٰذا فثَمَّ وجه الحق فلا تلمْه إذا قال : حيث اتجهتُ رأيتُ وجهَ الحقِّ ظاهراً ، وإذا لمتَهُ قال له وجده : ﴿ لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق : ١٩] يعني : لكلِّ المظاهر ، فافهم) .

وكان يقول : (انظر الحقَّ قبل خلق الخلق ، وانظرْ ماذا ترىٰ ، فلن ترىٰ غيرَهُ) .

وكان يقول : (وجودُك وموجودُك اثنان بالبيان ، واحدٌ بالحقيقة ، فافهم) .

وكان يقول : (صلاةُ كلِّ ربانيٍّ صورةُ إسرائه ، وما ثَمَّ أعلىٰ من صورةِ الإسراء المحمدي ؛ ولذلك لم يفرضْ في مشهد الإسراء سواها ، فافهم ، إن المُصلِّي يُناجي ربَّه ، وما ثَمَّ سواه ، فالكليمُ كليمُهُ ، والسميعُ سميعه ، ما من الله إلا وإليه ، فافهم ، فإذا أحببتَهُ كنتَ هو ، وما زلتَ هو ، فإن لم تكنْ كنتَ سمعَه ، ولسانَه ، فأنا المتكلِّمُ السميعُ) .

وكان يقول : (ما أغرب الحقَّ في أهله ! فافهم) .

وكان يقول : (الاسم عينُ المُسمَّىٰ في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وإن كان عينكم إليه ، فمن أنتم ؟ يا دليلَ من ليس له دليل ، فهو هو ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الضروريات والبديهيات إنما هي أمورٌ وجدانياتٌ ، وهي أصولُ النظريات ؛ فالوجدُ أصلُ أُصول هـٰذا الباب ، فافهم ، وإنما احتيجَ إلى

= (٢٧) : « لله عز وجل مئة وسبعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها أدخله الله عز وجل الجنة » عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

الحججِ ، والأدلة ، والتعاليم لتوقعَ المطالبَ من النفس موقعَ الوجدان ، أو ما يقاربه ، ومتىٰ وجدتَ المطلوبَ لم تحتجْ إلىٰ شيءٍ من ذلك ، ومن ثَمَّ لم تحتج الضروريات إلىٰ دليلٍ ، فافهم .

فيا واجدَ الحقِّ تحقيقاً أو تصديقاً حسبُك وجدك .

فإن قال لك معترضٌ : ما دليلُكَ علىٰ حقيقة هٰذا ؟ فقل : وجدي ، فإن قال لك : وما يؤمنك أن أقولَ لك : بل هو الباطل ، والدليل علىٰ ذلك وجدي ، فلا تُجبْه أيُّها المحقِّقُ ، وقل له : ومن يُنازعك في وجدك هو لك كما وجدت ، وهو لي حقٌّ كما وجدت ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ . . . ﴾ الآية [فصلت : ٤٤] ، فافهم ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] فالأمر عندهم وجدانيٌّ ، فافهم ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] فهو عندهم بالوجدان ، فافهم) .

وكان يقول : (الكلامُ عينُ المتكلِّم في الدائرة السمعية ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ . . . ﴾ الآية [الأعراف : ٥٢] فهو المتكلِّمُ ، وهو الكلام ، والقرآنُ عينُهُ العقلي ، والفرقانُ عينُهُ الخيالي ، والمقروء المعبَّر عنه بضميرٍ تقرؤه عينه الحسي ، فالمقروءُ تنزُّل الفرقان ، والفرقانُ تنزُّل القرآن ، والقرآنُ تنزُّل الكلام ، والكلامُ عين المتكلِّم ، والكلُّ تعيناته التفصيلية من مجمل تجلِّيه المعبَّر عنه بالكلام ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الخلقُ هو التقدير ، فالذي هو عينٌ بالتحقيق هو مثلٌ أو غيرٌ بالتخليق ، ألم تسمع قول الحقِّ بلسانه المحمَّدي الجمعي : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] برفعِ لفظة ﴿ كُلَّ ﴾ علىٰ أنها خبر ﴿ إِنَّا ﴾ ؟! فافهم) .

وكان يقول : (حقيقةُ الواجب علمٌ فعليٌّ بَطَنَ فيه قائلُهُ ، وحقيقةُ الممكن علمٌ انفعاليٌّ بَطَنَ فيه فاعله ، وحقيقةُ الممتنع علمٌ مجرَّدٌ لم يحصل في صيغة التميز الإثباتي إلا في القول ؛ لأن هٰذا التعريفَ وكلَّ التعاريف صيغٌ تمييزية إثباتية ، فافهم) .

وكان يقول : (من أحاطَ بك ولم تُحط به فلستَ مثلَهُ ، ولا علىٰ صورته ، فافهم) .

وكان يقول : (ما دمتَ في دائرة الفرق فلا بدَّ لك من شرك واشتراك ، اللهم ؛

خلِّصنا واستخلصنا آمين ، وقد فعلت ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا كانت صفاتُكَ بالأصالة له فوهمُكَ علمُهُ ، وحسُّك علمه ، وفكرُك علمه ، وتعقُّلك علمُه ، وفعلُك علمه ، وقولُك علمه ، واختيارُكَ علمُه ، وتخيُّلُك علمه ، وعلىٰ هـٰذا فقس ، ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ١٢] ، ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] فإن لم يكن كلُّ ما هو شيء بأيِّ اعتبارٍ كان معلومه لم تتمَّ هـٰذه الإحاطة فافهم ، ومن لم يشهدْ ذلك كذلك لم يشهدْ حقيقةَ قوله : ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ وإنما شهدَ ما أوَّله ، وخصَّ به هـٰذا العموم ، وقيَّد به هـٰذا الإطلاق ، بل تقيَّدَ به هـٰذا عن شهوده ، ومن ثَمَّ يظهرُ معنىٰ قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] فافهم) .

وكان يقول : (إذا كان هو الناظرَ إليك بكلِّ عينٍ ، والعالمَ بك بكلِّ إدراكٍ وعلمٍ . . فما ثَمَّ من تُرائيه إلا هو ، فلا يحجبك الرياءُ عن القيام بما يرضىٰ ، واحذرْ أن يراك رأي حي ، ولا أنت حيث تظنُّ أنه لا يرضىٰ ؛ فإنه هو ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الشعراء : ٢١٨] في كلِّ مظهرٍ يرىٰ ، ومتىٰ صحَّ لك هـٰذا الشهودُ استغرقَكَ في الله من كل جهاته ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة : ١١٥] فافهم) .

وكان يقول : (الحقائق لا تنقلب ؛ فالمقيَّد لا يكون مطلقاً ، والمطلقُ لا يكون مُقيَّداً ، وإنما تعاقبتْ صورُ المراتب المقبولة علىٰ قابلها فقط ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس : ٦٤] فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ متميِّزٍ بنفسه أو غيره ثابتٌ حتى النفي ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [الحج : ٦٢] وإن تباينتِ الأسماءُ ، فافهم) .

وكان يقول : (حبُّك للشيءِ علىٰ قدرِ بُغضك لضدِّه ، وكذلك العكس وزناً بوزن ، مثلاً بمثل ، سواءً بسواء ، وهـٰكذا أمورُ كلِّ مقابلٍ بالنسبة إلىٰ مقابله ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تستعذْ من شيءٍ ، ولـٰكنِ استعذْ من شرِّه) .

وكان يقول : (التأثيرُ ربوبية ، والتأثُّرُ عبودية ، في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

وكان يقول : (الخلقُ : هو التقدير ، والتقديرُ : هو التنزيل منزلة النقيض في المعاملة في كلِّ مقامٍ بحسبه ، وإذا ظهرَ هـٰذا فهو تعالىٰ ذاتُ كلِّ موجودٍ ، وكلُّ موجودٍ

صفتُهُ ، وليس لها مبدأ أول إلا هو ؛ إذ ليس بعده إلا العدم ، والعدمُ لا يكون مبدأً ، سيما لموجود ، وإذ قد تبيَّنَ لك أمرُ الوجود هـٰذا فأنت تعلمُ أنَّك إذا نظرتَ إلىٰ أيِّ موجودٍ نظرتَ إليه من حيث هو . . وجدتَه ذاتاً ، وقد تبيَّنَ : أنْ لا ذاتَ إلا الوجود ، فظهر أنَّ الوجودَ بالحقيقة هو الموجود ، والموجودُ هو الوجود ليس إلا) .

فإن قلتَ : فمن أين جاء الفرقُ ؟ وإلىٰ أين ؟ **قلتُ** : جاءَ من الوجود إلىٰ نفسه .

فإن قلت : فكيف يتأتَّىٰ هـٰذا ؟! **قلتُ** : يتأتَّىٰ بأن يقدر نفسه مراتبَ علىٰ طريقة التجريد البياني المذكور في علم المعاني والبيان ، وأنتَ تعلمُ أنَّ لك أن تجرِّدَ من نفسك لنفسك في نفسك علىٰ كلِّ صورةٍ ، وتكونَ تلك الصورةُ كلُّها في خيالك ، وتعاملَ نفسَكَ من حيثية كلٍّ منها معاملةً خاصة ، وتصوِّرَ نفسَك ناسياً ؛ لأنك جرَّدتَ نفسك ، وناسياً أيضاً لذلك النسيان ، ومتحقِّقاً لتلك الكثرة ، وتكونَ كذلك من تلك الحيثيات ، وما هـٰذا ونحوه إلا عينُ فعل الوجود الذي هو أنت ، لا مثاله ، وما تلك الأمورُ كلُّها بالحقيقة إلا أنت بلا زيادةٍ ، فما ثَمَّ علىٰ كثرةِ الموجودات إلا الوجودُ بلا زائد حقيقةً .

فإن قلت : فما مبدأُ هـٰذا التقدير من الوجود ؟ **قلنا** : مبدؤه اقتضاؤه لذاته أن يقضي ، وما ثَمَّ إلا هو ، فيقضي بنفسه لنفسه وعليها علىٰ طريق التجريد كما مرَّ ، قضايا لا تتناهىٰ للزوم القضايا للاقتضاء الذاتي ، وتلك التقديراتُ تنزيلاتُ الوجودِ منزلةَ ما ليس بموجودٍ في المعاملة ، وتُسمَّىٰ هـٰذه موجوداتٌ ، وبالضرورة يكونُ هـٰذا التقدير أولاً في الوجود ؛ إذ لا موجود ثَمَّ ، **وهـٰذا هو الخلقُ الأول** ، وتُسمَّىٰ هـٰذه الموجودات مراتبَ قدمٍ وأزل ، وإيجاب ، وصفات ومعاني ، وحقائق كذلك .

وبعد هـٰذا يكونُ تقديرُ هـٰذه الأمور التي هي لا وجودات وجودات ، فيقدر ما تُسمَّىٰ ذوات ، وماهيات ، وتعينات ، وأينيات ونحوَه ويقدِّرُ فيها مراتبُها اللاحقةُ، **وذلك هو الخلق الثاني** ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [ق : ١٥] فالأولُ تنزيل الوجود منزلة ما ليس الوجود ، والثاني منزلةُ ما ليس الوجود منزلة الوجود ، فانظر إلىٰ هـٰذا النمطِ ما أعجبه وأغربه ! وأطال في ذلك ، ثم قال : وقد فتحتُ لك بابَ التحقيق ، فإن كنتَ من أهله فتقدَّم ، وإلا فلا ، فافهم .

قلت : جميعُ ما في هـٰذه القولة مبنيٌّ علىٰ مذهب أهل الوحدة المطلقة ، وهي مرتبةُ نقصٍ بالنظر لمراتب المحقِّقين ، فكانَ الشيخُ فيها كالمغلوبِ علىٰ إظهارِ ما شهدَ بقرينةِ كلامه في مواضعَ من هـٰذه الوصايا ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (سُمِّي العقل عقلاً لموضع التقييد التحديدي الذي هو شأنه ، ويُسمَّىٰ لبّاً من حيث تنزُّلُه بذلك في لبس الخلق الجديد ؛ لأن اللُّبَّ محتجبٌ بقشورٍ لا تلزمه ، وهو مبدؤها ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أينما توجَّه الفكرُ لا يأتي إلا بمغايرات الحقِّ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] فهو لا يأتي في الحقيقةِ إلا بالضلال ؛ أي : عن الحقيقة التي هي الخيرُ المحضُ ، فهو لا يأتي بخيرٍ محضٍ قطُّ ، فافهم) .

وكان يقول : (الجَعْلُ والصنعُ ، والإبداعُ والتكوين ، والتمييز ، ونحو ذلك كلُّه تقديرٌ ، فهو خلقٌ بمعنى التقدير ، وإن لم يُسمَّ في بعض المراتب خلقاً ، فافهم) .

وكان يقول : إذا وجدتَ أيُّها الذائقُ أمراً ، وسألك أحدٌ عمَّا وجدتَ سؤالَ تقييد ؛ كأن يقول لك : ماذا تقولُ في كذا ؟ قل له : هل قالَ أحدٌ سواي في ذلك شيئاً ، فإن قال لك : لا ، أو : لا أدري ، قل له : فهو عندي كذا ، فإن اعترفَ به فذاك ، وإلا كان لك مخلصٌ من شرِّه إن أنكره ، وإن قال لك : نعم ، فقل : لا حاجةَ إذاً بك لقولي في هـٰذه ، فإن قال لك : بل لي حاجة ، فقل له : أنا عندَك أفضلُ من ذلك القائل ، وأولىٰ بالحقِّ ، أم هو ؟ فإن قال لك : هو ، فقل له : فأنتَ عن تصديقي أبعدُ منك عن تصديقه ، فلا حاجةَ لي أن أقول لك شيئاً ، وإن قال لك : أنتَ عندي أفضل منه فأجبْهُ ولك الحجَّةُ عليه ، وإن كان منفعلاً ، فافهم .

وكان يقول في حديث : « الأنصارُ شِعارٌ والناسُ دِثارٌ »[1] : (لا يمس بشرتَك ثوبان معاً ، إنما يمسُّك شعارٌ واحد ، وما بعده دثار ، وإنما كانَ الأنصارُ شعاراً لرضاهم به عما دونه ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ الآيةَ [الحشر : ٩] فحبُّهم لا لعلَّةٍ سوى التحقق به ، وإنما كان الناسُ دثاراً لتعلُّقهم بالعلل الخارجة عن التحقق به : « أمَا

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١) عن سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنهما .

ترضونَ معاشرَ الأنصارِ أنْ يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ، وتذهبونَ بي إلىٰ رحالِكم ؟! »[١] قالوا : رضينا ، فاعرفْ يا أخي الأنصارَ بسيماهم ، فهٰذه آيتُهم لمن توسَّمَ ، ولا تقيِّدْهم بقبيلةٍ ولا طائفة سوىٰ مَنْ بهم هٰذه العلامةُ ، مَنْ كانوا ، وأين كانوا ، فافهم) .

وكان يقول في قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] : (أي : لتكونَ ثيابَ صلاة ، فافهم من لم يتجرَّدْ عما سوىٰ أمرٍ لم يباشرْهُ تحقيقاً) .

وكان يقول في قوله : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] : (أي : لا يتحقَّقُ به إلا المتجرِّدون للصلة به عن موانعها المانعة ؛ إذِ الطهارةُ التجرُّدُ عن موانعِ التلبيس بحقيقة الصلاة ، التي هي صلةٌ بين العبدِ وربِّه ، فافهم) .

وكان يقول : (قيامُك بالأمرِ لأجلِ الأمرِ وحده إخلاصٌ ، وميزانُ ذلك : أن تفرضَ أنه نهاك عنه موضعَ أنه أمرَك به أو عكسه ، فإنْ وجدتَ نفسَك تنبسطُ بأحدِهما أكثرَ من الآخر فاعلمْ أن قيامك به معلولٌ ، وأنه شهوةُ نفسٍ ، وإلا فلا ، فما أعزَّ الإخلاص ! وما أدقَّ إدراكه ! فافهم) .

وكان يقول : (الواحدُ أصلُ العدد ، فما لا ينقسمُ أصلُ ما ينقسمُ في كلِّ مقامٍ بحسبه فافهم ؛ فإن سُكنىٰ ما لا ينقسم ليسَ كسُكنى المنقسم في المنقسم ، فلا تتخيَّلِ الحلولَ الظرفيَّ في جانب الربوبية ما دمتَ في حُكم مراتب الخلق الجديد اللبسي ، فافهم ، فـ : « القلبُ بيتُ الربِّ »[٢] ، وربُّ البيتِ يسكنُ باطنَه ، وينزلُ إلىٰ ظاهره ، فافهم) .

وكان يقول : (ليستِ المستحيلاتُ إلا أموراً في غيبك ، وقوتك لم يتعين بها قوابلُ حاجبةٌ بالنسبة إليك ، ألا ترىٰ أنها قائمةٌ في تخيُّلِك وتوهُّمِك ؟! فافهم) .

---

(١) هو جزء من الحديث السابق قبل قليل .

(٢) قال العجلوني في « كشف الخفا » (١٨٨٤) : (قال الزركشي ، والسخاوي ، والسيوطي : لا أصل له ، قال النجم : قلت : رواه ابن ماجه عن أبي عنبسة بلفظ : « إن لله آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها » وهو شاهد لما هو دائر علىٰ ألسنة الصوفية وغيرهم : « ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن ») .

وكان يقول : (لا تطالبْ ربَّك بشيءٍ ولو بقلبك ؛ فإنَّ المطالبةَ ترتبٌ ، وليسَ ذلك شأنَ العبيد ، فافهم) .

وكان يقول : (من أبعدِ المطالبِ عن الصواب مطالبةُ العبد ربَّه بعلةِ أَمره أو نهيه ؛ فإن الربَّ حقُّه أن يفعل ما يختار ، ويحكم ما يريد ، وشأنُ العبد القبولُ من ربِّه ليس إلا ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من حقَّقَك بالله لا تقدرُ علىٰ مكافأته بشيءٍ قطُّ) .

وكان يقول : (الذاتُ لا تدخلُ تحت إحاطةِ علمٍ ، ولا إدراك) .

وكان يقول : (العارفُ المحقِّق يأبى اللهُ أن يأتيه بالأمور التي يختارها إلا من حيثُ لا يشغلُ همَّتَهَ بأسبابها العادية ، حتىٰ إنك تراه يتسببُ في أمرٍ بالتوجُّه والدعاء ، فيمسك عنه ذلك الأمر لذلك التسبب ، وما ذاك إلا لأنه صارَ عينَ معروفه الذي لا ينبغي أن يظهرَ إلا بوجه السيادة والعزِّ فعالاً لما يريد ، فلما ظهرَ بوجهِ التسبب تنكر ، فتوقفَ المرادُ وتعذَّرَ ، فلكلِّ مجالٍ رجالٌ ، فافهم) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٨] : (أي : قد جاءَ ربُّكم بعينه الحق ، لا بمثالٍ موهوم ، فافهم) .

وكان يقول : (العقولُ حقائقُ أسماء الذات ، والأرواحُ حقائقُ أسماء الصفات ، والنفوسُ حقائقُ أسماء الأفعال ، ولكلِّ اسمٍ دائرةُ تأثيرٍ هو سلطانُها ، وتجلِّياتُهُ فيها أسبابُ مسبِّباتها ؛ فأسباب الخلقِ تجلِّيات الخلاَّق ، وأسباب الرزق تجلِّيات الرزَّاق ، وقسْ علىٰ هٰذا) .

وكان يقول : (صورُ أسباب الأرزاق أربابٌ للعوام القاصرين نظرهم علىٰ شهود الخلق ، وعبيدٌ للخواصِّ النافذين إلى التحقق بالحقِّ ، ألا ترىٰ كيفَ العوامُ يتولَّون الإنفاقَ علىٰ عبيدهم ، وخواصُّ الناس كالوزراء والأمراء يولونَ الإنفاقَ بعض خدمهم ، وقد كان بلالٌ متولِّي نفقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة : ٤٠]: (كلمةُ الله هي النفس التي غلبَ عليها الحكمُ الإلـٰهي بظهوره فيها تخلُّقاً وتحقُّقاً ،

وكشفاً وبياناً ، هـٰذا هو حقيقةُ معنى الآية ، وفيها أيضاً أنَّ كلمةَ الله ؛ أي : اسم الله هي العليا ؛ لأنه الاسمُ الأعظم الجامعُ لحقائق جميع الأسماء) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مَنْ عرفَ الحقَّ لم يرَ إلا الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس : ٣٢] فافهم) .

وكان يقول : (مهما رآه المأمومون في أئمتهم من كمالٍ أو نقص فهو صورةُ بواطن المأموم أشهدَه إمامُهُ إياها ، وللإمام فوق ذلك مظهرٌ آخرُ ، فإيَّاك أن تظنَّ نقصاً بأهلِ الكمال فتقول : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه : ١٢١] بل اعرفْ أن ذلك إنما كان إظهاراً لك كيف تَتداوىٰ إذا ابتُليتَ في صفاءِ تلك الحضرة ، وقسْ علىٰ هـٰذا ، فافهم) .

وكان يقول : (**الاستغفارُ** : **استمداد الغفران** ، وحقيقتُهُ التوجُّه بوجه الاستعداد إلى التحلِّي بالكمال بدلَ النقص ، وبالإحسانِ بدل الإساءة ، وغايتُهُ التحقُّقُ بالمحبوب تحقُّقاً ذاتياً يستحيلُ به عروض ضده ؛ وذلك هو العصمةُ في كلِّ مقام بحسبه ، وإليه الإشارةُ بقوله : ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح : ٢] وغاية الغاية في هـٰذا الباب أن يغفرَ اللهُ منك بحكمِهِ حكمَ ما دونه ، فلا ينكشفُ فيك إلا وجهه الحميد ، فافهم ، فإنَّ الغفران هو الوقايةُ مما يضرُّ بما يسرُّ ، ومنه سُمِّيتِ البيضةُ مِغفراً ، فلكلِّ مقامٍ مقال) .

وكان يقول في كلام الأطباء (إنَّ بردَ الرحم سببٌ في عدم الحمل) : (هكذا نفسُ التلميذ ، متىٰ لم يجدْ لوعةَ الوجد ، وحرقةَ الطلب من الشوق إلى المقصود . . لم يتولَّدْ فيها من فيضِ أستاذه فيها صورةُ أمره ، فهو مثلُ الوقود البارد ، لا يؤثِّرُ فيه القبس إلا دخاناً ؛ كالدعاوي الكاذبة ، والرُّعونات الحاصلةِ للنفوس الداخلةِ بين القوم بغير حرقةِ شوق ، وصدقٍ ، وطلب وجد ، ومثلُها : أن تكونَ ورقة مبلولة ، لا يثبت عليها كتابةٌ ، ومثلها أيضاً كحراقٍ باردٍ ؛ أي : رطب لا يعلقُ فيه قبس) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من تحقَّق بمرتبةٍ حصلت له خصائصُها وأمورُها علىٰ قدر تحقُّقه بها ؛ كالمتحقِّق بصورةٍ محمدية بشرية ، فيقول : اللهم ؛ صلِّ علىٰ محمد ، وآته الوسيلةَ والفضيلة . . . إلىٰ آخره ، فإنَّما هو في الحقيقةِ يطلبُ ذلك لنفسه منه ومن حيث إنه متحقِّقٌ به ، ويُقال لمن تحقَّقَ بصورةٍ محمدية : يا محمد ، أو

موسوية : يا موسىٰ ، أو عيسوية : يا عيسىٰ ، وقسْ علىٰ هـٰذا ، وارْقَ إلىٰ حيث نفذ ذوقُك ، فلكلِّ مجالٍ رجالٌ) .

وكان يقول : في قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّا معاشرَ الأنبياءِ نبتت أجسادُنا علىٰ أرواحِ أهلِ الجنةِ »(١) (فأرواحُهم سماويةٌ ، متمثِّلةٌ في هياكل أرضية ، وكلٌّ إلىٰ بدنه راجعٌ ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما أمرَ الحقُّ ونهىٰ منك قلبَكَ السَّامعَ الفاهم ، ولا يؤدِّي عن المكلَّف ما كُلِّفَ به إلا هو ، فمتىٰ عمل جسمُك عملاً وقلبُك غافلٌ عنه لم يحسب لك ، ولم يؤدِّ عنك ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥] وإنما سقطَ اللَّومُ الظاهرُ بمباشرةِ الجسم للعمل ؛ لظنِّ حضور القلب وقصده إلىٰ ذلك ، فراقبْ علاَّمَ الغيوب ؛ فإنه الناظرُ إلى القلوب ، فافهم) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] : (أي : منك ، ولا يتكلَّم بكلامِ الله إلا الله ، فإذا ناجاك هاديك إلىٰ حقٍّ فاسمع من الله ، وأطع تغنم ، واعرفْ أنَّ ربَّك قد تحوَّل لك في صورةٍ من صور المعارف يتعرَّفُ إليك بها لتعرفه فتحبَّهُ ، فتتحقَّق به ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (السرُّ ما لا يشهدُهُ إلا واجدُه ، فمن شهدْتَ سرَّه فاعلمْ أنَّك أنت هو من حيث حصل لك هـٰذا الشهود ، وهل المستفيد شيءٌ إلا صورة مفيده فإذاً كلُّ ما من المستفيدِ إلى المفيد إنما هو في الحقيقة من المفيدِ لنفسه ، إنَّ العبدَ من مولاه ، عَبْدُ القوم من أنفسهم ، وما من الله إلا وإليه .

وليس يَفهمُ عنِّي غيرُ إياي(٢)

فافهم) .

---

(١) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٧٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٦٢) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢٨٨) وقال : (فيه الحسين بن علوان ، كذبه أحمد ويحيىٰ ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال ابن عدي : كان يضع الحديث) .

(٢) تقدم (٢/ ١٢٥).

وكان يقول في قوله : ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس : ٦٠] : (أي : لا تُطيعوه وتَنقادوا له راضين بأمره ، فمن كان هٰكذا لأحدٍ فقد عَبَدَهُ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] وما أكثر ما يعبد المقلِّدون أئمةَ الضلال علماءَ السوء الذين يُريدون بعلمِهم ما ليس من الله في شيء ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا كانَ إبليسُ كَفَرَ بتركِ سجدةٍ واحدة لآدم ، فكيف يَرضى ابنُ آدم أن يَكفرَ بتكرارِ السُّجود لإبليس ؟! ولٰكنَّ الكفرَ دركاتٌ ، كما أنَّ الإيمانَ بالحقِّ درجاتٌ ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذرْ أن تزدريَ أصحابَ الخلع الخفية من الشَّعثةِ رؤوسُهم ، المغبرة وجوههم ، فإنَّ وجوهَهم ﴿ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ـ٢٣] وإنما أنت أَغشى العين) .

وكان يقول : (إياك أن تحسدَ من اصطفاه الله عليك ، فيمسخك الحقُّ كما مسخ إبليسَ من الصُّورة الملكية إلى الصورة الشيطانية لما حسد آدم[1] ، وأبىٰ وتكبَّرَ عليه ، وفي هٰذا تحذيرٌ لك إذا رأيتَ إمامَ هدىً إلى الحقِّ أن تحسدَهُ ، أو تتكبَّرَ عن الخضوعِ له ، والائتمام به ، فإنَّ ذلك يسلبُكَ ما فيك من الصُّور المرضية ، ويُدخلُكَ في الصور الغضبية ، وإذا خضعْتَ له ، وكنتَ بالعكس نقلَكَ من الصُّورةِ الشيطانية إلى الملكية) .

وكان يقول في حديثِ صوم يوم عاشوراء « نحنُ أحقُّ بموسىٰ منهمْ »[2] : (أي من اليهود ، إنما كانتْ هٰذه الأمَّةُ أولىٰ بموسىٰ عليه السلام من قومه ؛ لأنا نُؤمنُ بموسىٰ كإيمانِ من عاصره ؛ لدلالةِ معجزة نبيِّنا التي هي القرآن الذي نعرفُ إعجازه بالمشاهدةِ لا بالخبر ، وأما اليهودُ الذين لم يُعاصروه فإنما آمنوا به تقليداً للخبر ، وأين من يُؤمنُ

---

(١) إبليس لم يكن ملكاً ، وإنما كما قال تعالىٰ في سورة الكهف (٥٠) : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ .

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٤) ، ومسلم (١١٣٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

تقليداً ممن يؤمنُ عياناً وتحقيقاً في المعجزة القرآنية ؟! فنحن أحقُّ بجميعِ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام ممن لم يُعاصرْهم من أممهم ، والسلام) .

وكان يقول : (إنما كان يومُ عرفة أفضلَ من يوم عاشوراء لفضيلته علىٰ عاشوراء بالحجِّ المشروع فيه ، وهو ركنٌ من أركان الإسلام ، وليس في يوم عاشوراء ركنٌ من أركان الإسلام يختصُّ به كيوم عرفة ، فافهم) .

وكان يقول : في قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] : (﴿ صِدْقًا ﴾ هنا وضع موضع (فضلاً) إذ قوبل به ﴿ وَعَدْلًا ﴾ فافهم ؛ أي : تفضَّلَ اللهُ تعالىٰ بصدقها علىٰ قلوب قومٍ حتىٰ صدَّقوها ، وعدلَ اللهُ بقلوبِ قومٍ حتىٰ عَدَلوا عن تصديقها) .

وكان يقول : (كلُّ ما أتاك به إمامُ هدايتك فهو ذكرٌ من ربِّك ورحمة بك ، محدث الإتيان إليك ، والظهورُ عن ذلك الإمام من حيث كونُهُ ، فأمَّا من حيث وجودُهُ الحق المبين المتجلِّي في عينه الناطق بمرتبة الربوبية والرحمانية . . فلم يزلْ قديماً ؛ لأن الحقَّ المذكورَ من المرتبة المذكورة لم يزلْ مُتكلِّماً ؛ إذ هي له ذاتية ، وإنما الحدوثُ من جهة التعلُّق الظهوري ، من حيث الحكم بالحدوث ، فافهم) .

وكان يقول : (من أتىٰ بما لم يُسبق به فقد أَبدعَ وأبدأ ، ومن كرر مثالاً فقد أعاد واخترع ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يظهرُ سرُّ السيادة الربانية في أحدٍ إلا ويجعلُ له أتباعاً ؛ لأن السيِّدَ هو الربُّ المصلحُ المدبِّرُ ، فلا بدَّ له من حضرةٍ يحكم فيها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : ٣٨] أي : معنوية ، فقد كان فيهم من ليس له زوجةٌ صورية ، ولا ولدٌ صلبي ؛ كعيسىٰ ويحيىٰ ، ومن هنا يُفهم المرادُ بقول زكريا ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ [الأنبياء : ٨٩] فكأنَّه قال كما قال إخوانه : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] وأحبُّ الخلقِ إلى الله تعالىٰ أنفعُهم لعباده ، فكفى المصلحَ لشأنهم شرفاً أن يكونَ أحبَّ إلى الحقِّ ممن ليس همُّهُ إلا صلاحَهُ وحده) .

وكان يقول : (من كان خلقُهُ القرآنَ يرضىٰ لرضاه ، ويغضبُ لغضبه ، فهو نسخةُ

الحق ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ٢] فافهم ، فمنِ اتَّخذه إمامَ هدىً ، وجعله كتابَهُ ، ينظرُ في أموره بعين الإيمان ، فيتبعُها بإحسانٍ . . فقد أُوتي كتابه بيمينه ، ومن اعتمدَ على الأساطير فإنما اعتمدَ علىٰ تَحَكُّم وهمه ، أو حكمة فهمه ، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] أي : معناه مبينٌ في نواطق العلماء) .

وكان يقول : (إنما أحبَّ اللهُ عبدَهُ المسلمَ ؛ لأنه مخلوقٌ علىٰ صورته ، وهو تعالىٰ أجلُّ من أن يحبَّ خلافَ صورته التي هي الكمالُ المطلق الأقدس ، فافهم) .

قلت : والمرادُ هنا بصورة الحقِّ صورةُ آدم عليه السلام ؛ لأنها أشرفُ الصور ، وليس المرادُ بها صورةَ الذات الإلـٰهيِّ ، والله أعلم) .

وكان يقول : (ما دمتَ أيُّها الآدميُّ صاحبَ صفات كريمة فأنت إنسانٌ باقٍ علىٰ أصلك لم تنسخ ولم تمسخ ، ومتىٰ نُسخت منك الكرائم بالذمائم فقد نُسختْ عنك الإنسانيةُ بالصورة الشيطانية التي انمسختَ بها ، وإن خلطتَ لم تكن إنساناً خالصاً ، ولا شيطاناً محضاً ، وفي ذلك يتفاوت المتفاوتون ، والحكمُ للغالب ، فافهم) .

وكان يقول : (**إذا قالَ لك قائلٌ** : لِمَ دوَّنَ العارفون المعارفَ التي تضرُّ بالقاصرين من العلماء فضلاً عن العوام ؟! أما كان من الحكمةِ وحسنِ النظر والرحمة ما يمنعُهم من تدوينها ؟! فإنْ كان عندهم ذلك فمخالفتُهُ نقصٌ ، وإن لم يكن فكفاهم نقصاً أنه غيرُ حكيم .

فقل له : أليسَ الذي أَطلع شمسَ الظهيرة ، ونشرَ فاضحَ شعاعها صحواً مع إضراره بالأبصارِ الضعيفة ، وسائر الأمزجةِ التي تتضرَّرُ به عليماً حكيماً ؟!

فإن قال : بلىٰ ، ولـٰكن عارضَ ذلك مصالحَ تربو علىٰ هـٰذه المفاسد .

فقل له : وهكذا الجوابُ عن مسألتك .

وحسبك جواباً : أنَّ من دوَّنَ ذلك لم يدوِّنه للجمهور ، ولا أذن في ذلك ، ولا سكتَ عنه ، بل نهىٰ عن إظهاره لهم ، وشدَّد في النهي والتحذير إلى الغاية ، وصرَّحَ بأنه لم يدوِّنه إلا بإذنٍ من الله في تدوينه لأهله فقط ، فيكونُ في التدوين أمانةٌ

لهم ؛ ليظفروا من معانيه بما تنفتحُ به أبوابُ كمالاتهم الباعثة لسحائب الرحمة في قلوبهم وعلىٰ ألسنتهم ، فتشرقُ الأرضُ بنور رشدهم ، وتحيا بأثرِ هدايتهم ، فتعدَّىٰ أهلُ الغفلة والحجاب حدودَ هـٰؤلاء السادات ، وأظهروا دواوينهم لغير أهلها ، كما تعدَّى الغافلون حدودَ ربِّهم ، فسافروا بالقرآن إلىٰ أرض العدو ، ومكَّنوا أعداءَ الله من قراءته بقلوبٍ زائغة ، وألسنٍ معوجَّةٍ ، فحرَّفوه ، واتَّبعوا ﴿ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٧] وهل دوَّنَ الأئمةُ المجتهدون ما دوَّناه عنهم من العلم ليستعانَ به علىٰ هوى النفس ، وكسب الدنيا ، وتوليدِ مسائلَ موافقةٍ لهوى الظلمة والأمراء ، لا والله ، ولـٰكن ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

وحيث ظهرَ أنَّ فائدةَ تدوين هـٰذه المعارف من أعظمِ الفوائد ظهرَ أنَّ تدوينها من أحقِّ الحقوق ؛ إذ فائدتها بقاءُ روح اليقين ، وإشراقُها في مظاهر الهادين بالحقِّ ، كما في فائدة تدوين علمِ الظاهر بقاء روح الاجتهاد الظني الموجب للعمل ، وظهوره في مظاهر المرشدين ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : في حديث : « القلبُ بيتُ الربِّ »[١] ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : ٩٦] : (فاعرفْ بيتَ الربِّ من بيت الناس ، وتوجَّه إلىٰ كلٍّ منهما بشرطه ، وقمْ له بحقِّه ، واستقبله ، وطفْ حوله ، وادخلْه بما يُناسبه منك ، فالجسمُ بالجسمِ ، والقلبُ بالقلب ، والروح بالروح ، ولكلِّ مجالٍ رجالٌ ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] : (النزلُ إكرامُ الضيف أول ما يُكرم ، فإذا كان الفردوسُ أولُ ما يُكرمون به إذا كانوا ضيوفاً فكيف بغايةِ إكرامهم ؟! بل كيف إكرامُ الأحباب الذين لا حجابَ عليهم أبداً ؟! فافهم) .

وكان يقول : (عجباً لملاذِّ الدنيا كيف يُذهبُ الملالُ حلاوتَها إنْ دامت ؟! وتعقبُها الرغبةُ فيها والحزن عليها إن زالت ! فلا راحةَ للمؤمن دونَ لقاءِ ربِّه ، فافهم) .

---

(١) تقدم الكلام عليه (٢/١٦٧) .

وكان يقول : (انظرْ إلى النفسِ المدركة المفارقةِ التي تُشير إليها منك بقولك : (أنا) كيف هي متعلِّقةٌ بسائر أبعاض جسمك ، وأعضاء جرمك ؟ وكيف لها مع كلِّ بعضٍ[١] وعضوٍ معنىً وأثرٌ خاصٌّ ، تارةً يُماثل ما هو لها مع غيره كاللمسِ بسائر سطح البدن ، والإبصار بالعينين ، والسمع بالأذنين ، وما أشبه ذلك ، وتارةً يُباينُ ما هو لها مع غيره ، كالتكلُّم باللسان وحده ، والذوقِ باللثَّة وحدها ، وما أشبه ذلك ، فهكذا حكم النفس مع ما تعلَّقتْ به من الأعضاء والأبعاض ، وهي نفس الكلِّ الموصوفة بسائرِ المعاني ، و«منْ عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ»[٢] فافهم) .

وكان يقول : (الأستاذُ مظهرُ سرِّ الربوبية لمريده ، فعلى المريدِ أن يقفَ عند أمرِ أستاذه ، وألا يلتفتَ عن أستاذه يميناً ولا شمالاً ، ألم تسمعْ إلىٰ قول أكبر ولد يعقوب : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ [يوسف : ٨٠] ثم قال لهم : ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف : ٨١] ؟! فبين أن المريدَ ما له وجهٌ يتوجَّه إليه إلا أستاذه ، حتىٰ إذا تحقَّق بحقيقة أستاذه ، وسقط حكم المغايرة بين مرتبتيهما . . كان الله وجهَهُ من حيث وجه ذلك الأستاذ الذي تحقَّق به ذلك المريد) ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (ينبغي للعالم أن يَرى القرآنَ هدىً ورشداً لأهلِ كلِّ صراط مستقيم ، فلا يُنكر علىٰ أحدٍ لما فهمه منه من الهدىٰ عند ذلك الفاهم ، وإنْ كان مخالفاً لفهمه ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ أي : عند كلِّ تأويلٍ فيه هدايةٌ لغيرهم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، و﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] فافهم) .

وكان يقول في منكر ونكير : (إنهما يأتيان للميت في صورةِ إنكاره وتنكيره ، فإن كان مُنكراً للمنكر ، مُتنكِّراً علىٰ أهله في اعتقاده الجازم عنده ببرهانه ، وبذلك يثبتُ علىٰ معتقده ، ومن عكس انتكس)[٣] .

---

(١) في (ب) : (بضع) .

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٥٧٥) ، و(٢/ ٩٠) .

(٣) كذا العبارة في النسخ ، وفي « الواردات الإلـٰهية » (ص٩٥) : (متنكراً على أهله في اعتقاده الثابت عنده ببرهانه ، أتياه في صورة اعتزامه بالمعروف ، وتعرفه إلى أهله في اعتقاده الجازم عنده ببرهانه ، وتلك هي الحياة التي يحبها منهما ويرضاها ، وبذلك يثبت . . .) .

وكان يقول : (ملوكُ الدنيا محتاجون إلىٰ ملوكِ الآخرة ، وذلك ظاهرٌ في الدنيا بزهدِ ملوكِ الآخرة في الدنيا ، وعنايةِ الحقِّ بهم ، وأما غنىٰ ملوكِ الدنيا فلا يظهرُ للشَّاكِّ صحتُهُ من بطلانه إلا بعد الموت ، حين يفوتُ الفوت ، ومن قَبِلَ النصيحةَ أمنَ من الفضيحة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مَنْ أرشدَكَ إلىٰ ما به تخلصُ من غضبِ الحقِّ وتحصلُ به في رضوانه . . فقد شفعَ فيك ، فإن أطعتَهُ واتَّبعتَهُ ، وقبلتَ منه فقد قبلتْ فيك شفاعتُهُ فنفعتك ، وإلا فلا ، فنعوذُ بالله من حالة قومٍ لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين ، حيث كانوا عن التَّذكرةِ مُعرضين ، فافهم)[1] .

وكان يقول : (ثِقلُ موازين الأجر علىٰ قدرِ التعب ، ومثالُ ذلك : أن يقول لك كريمٌ : من أتاني بشيءٍ وزنتُ له ثقلَهُ فضَّةً ، فجهد رجلٌ ، فأتىٰ بصخرةٍ ، فوزن له ثقلَها ، وأتاه رجلٌ بريشةٍ فوزن له ثقلها) .

وكان يقول : (جلوسُك في خصٍّ وأنت في عتقٍ من أسرِ الشهوات خيرٌ لك من قصرٍ مشيد وأنت مسجونٌ في أسرها ، محجوبٌ عن محبوبك ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة : ٨٧] : (الروحُ الأمينُ علىٰ ما يتلقَّاه من روح القدس هو الفكرُ الصادقُ ، وروحُ القدس هو العقلُ الناطقُ الحكيم ، الحاكمُ في النفس الحيوانية التي يطهِّرُها من الرذائل ، ويحلِّيها بالفضائل في كلِّ مقامٍ بحسبه ، فافهم) .

وكان يقول في قوله : ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف : ١١١] : (أي ينفخُ بكشفه وبيانه في قلوبِ الحاضرين بين يديه حضوراً إيمانياً أرواحَ الصدق ، فيصيرُوا من الصادقين ، وأما تصديقُهُ للكتبِ الماضية بمطابقة ما فيه لما فيها فشيءٌ معروف ، فافهم) .

وكان يقول : ([الفقد] مخبوءٌ في « لا » ، والوجدُ مخبوءٌ في « نعم » فقابل كلَّ حكمٍ أتاك من الحقِّ باختياره لك بـ « نعم » يجعلْه عليك نعمةً من النِّعم ، فافهم) .

وكان يقول : (علىٰ قدرِ المعرفة يكونُ الحبُّ ، وعلىٰ قدرِ الحبِّ يكونُ القُربُ) .

---

(١) قال تعالىٰ في سورة المدثر ، الآية (٤٨ـ٤٩) : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ .

وكان يقول في قوله : ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [النور : ٣٧] : (أي : يصير حكمُ القلوب ظاهراً علىٰ حكم القوالب ، فمن كان في قلبه خيرٌ ظهرَ عليه ظاهراً ، وأما تقلُّبُ الأبصار فهو أن يظهرَ حكمُ البصائر في الأبصار ، فما لا يصحُّ له في دنياه أن يَراه إلا إيماناً يراه يومَ القيامة عياناً ، وكلُّ من رأى الآن ما لا يَراه الناس فما رأىٰ ذلك حين رآه إلا وهو في حالِ قيامي ، فافهم) .

وكان يقول : (العاقلُ بخيلٌ بعرضه ، جوادٌ بجسمه ، وضدُّه بضدِّ ذلك ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما كان أبو بكر رضي الله عنه أسبقَ رجالِ قريشٍ إلى التصديق والهدىٰ ؛ لأنه كان أضعفَ قريشٍ رابطةً بما كانوا عليه مما يُضادُّ الهدىٰ ، فافهم) .

وكان يقول : (الصومُ في اللغة : الثبوتُ علىٰ أمرٍ واحد ؛ لقولهم : صامَ النهارَ : إذا وقفتِ الشمسُ في مستواها ، فـ ﴿ نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ [مريم : ٢٦] أي نذرتُ ثبوتاً للرحمـٰن علىٰ إفرادِ مُشاهدته ، فلا أشهدُ سواه ، ونحو هـٰذا ، وما الصومُ لعمرُك إلا الثبوتُ للحقِّ وفيه ، فافهم) .

وكان يقول : (من عرفَ الله فكلُّ أوقاته ليلةُ قدرٍ) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ »[1] : (فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله يحبُّ ألا يرىٰ أحدٌ في عبيدِهِ نقصاً لا باطناً ولا ظاهراً ؛ لأن العبدَ من مولاه ، وأمرُهُ راجعٌ إليه ، فافهم) .

وكان يقول : (من أحبَّ أن يكونَ في حفظ ربِّ العالمين فليخدمْ أولياءه العارفين بصدق ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١ـ٨٢] فانظرْ كيفَ حفظَ الله الشياطينَ لمَّا كانوا في خدمة أوليائه العارفين ، ومعنىٰ « حفظ رب العالمين » : أن يحفظَ العبدَ من الوقوع في المخالفات) .

وكان يقول في قوله : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۞ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ . . . ﴾ الآية

(١) رواه مسلم (١٤٧/٩١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

[الشعراء : ٦٢-٦٣] : (فرتَّب هـٰذا الوحي علىٰ هـٰذا القول بـ (الفاء) إشارةً إلىٰ أنَّ كلَّ من قال هـٰذا القول بصدقٍ ألهَمهُ ربُّهُ رشدَهُ فيما يحاول) .

وكان يقول : (كلُّ من دخلَ مقامَ الإحسان فقد بلغَ أشدَّه واستوىٰ ولو كان صبيّاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] أي : علىٰ إحسانهم ، ومشاهدتِهم لمعبودهم) .

وكان يقول : (المحبَّةُ دائرٌ معها التوحيدُ والإخلاص ؛ فكلُّ من أحبَّ شيئاً لا يُريدُ أن يكونَ له فيه شريكٌ ، حتى الرجل يحبُّ امرأةً فلا يحبُّ أن يكونَ له فيها شريك ، وكذلك المرأةُ ، فما أحبَّ الله عبداً إلا ملأ قلبه استغراقاً في محبَّةِ مرضاته ، ولا كره عبداً إلا ملأ قلبَه محبةً لمكروهاته) .

وكان يقول : (روحُ المتعلِّم من روح المعلِّم ، وعقلُ المستفيدِ من عقلِ المُفيد ، فرعٌ من أصلٍ ، وأيُّما مُريد أرادَ الكمالَ بغير أستاذه وهاديه فقد أخطأ طريقَ المقصود ؛ لأن الثمرةَ لا تكملُ إلا بوجود النواة التي هي أصلُها ، فكذلك كلُّ مُريدٍ لا يكملُ إلا بوجود أستاذه ، متعيِّناً عنده بحقيقة نفسهِ وروحه ، وقلبه وفؤاده ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يتبعُ إمامَ الضلال إلا أهلُ الغي ؛ لأنه صورةُ غيِّهم تشكَّلتْ لهم حتىٰ رأوها ، فَصَبوا إليها ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٨] مشكلاً ، ومن هنا يتبعُ الدَّجالَ كلُّ من في قلبه كفرٌ ونفاق ، وحكمُ إمام الهدىٰ بالعكس ، لا يتبعُهُ إلا أهلُ الهدىٰ) .

وكان يقول : (كيف يخاف الباطل من عرف الحقَّ ؟!) .

وكان يقول : (لم يطلبْ كلُّ طالبٍ إلا الحق ، لـٰكن تارةً يظفرُ به حقّاً فيعبدُهُ عن مكاشفةٍ ، وتارةً يظفرُ به وهماً فيعبدُهُ علىٰ حجابٍ ، فما عبدَ عابدٌ في الحقيقة إلا الله) .

قلت : والمرادُ بهـٰذا العابدِ الموحِّد من أهل الإسلام العام ، فافهم ، وإياك والغلطَ ، واللهُ أعلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من تعلَّقَ بغيرِ مولاه ضرَّه : إما بأن يحبَّهُ فيشغله عن

مولاه ما منه فتنته ، أو يكرهُهُ فيشغله عن مولاه ما به حزنه ، فلا راحةَ للمؤمن دون لقاء ربِّه ، ولا يلقىٰ ربَّهُ وفيه تعلُّقٌ لغيره ، فالخيرُ كلُّ الخيرِ في مفارقة الغيرِ ، فافهم) .

وكان يقول : (جميعُ الأعمالِ إنما شُرعت تذكرةً بمشرِّعها كي لا ينسوه ، ولا يَصْبُوا إلىٰ غيره ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] فافهم) .

وكان يقول : (الخليفةُ في كلِّ دائرةٍ هو مَنْ أتمَّ القيامَ فيها بحسنِ نظامِ العبودية ، معترفاً أنه العبدُ مع كمالِ القيام بنظام الربوبية ، معترفاً أنَّ كلَّ ما جاءَ به من ذلك فهو لربِّه ، ولربِّه الحمدُ ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا أردتَ ثباتَ الإخوان علىٰ محبَّتك ؛ القاصي منهم والدان ، وأن يُثنوا عليك بكلِّ لسانٍ ، فقابلْهم بالحلم والغفران ، وتأمَّلْ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١] فأخبرك أنَّه ليس بعد « الحليم الغفور » من يُمسكهما ، فافهم) .

وكان يقول : (متىٰ شَغَلَ الإنسانُ قلبَه بالأكوان عن ربِّه الرحمـٰن ذَلَّ وهان ؛ وذلك لأنه جعلَ نفسَه عبدَ عبدِهِ ، ومتىٰ شغلَ قلبَه بالرحمـٰن عزَّ ؛ لأنه ردَّ نفسَه إلىٰ غايته ومجَّده « خلقتُ كلَّ شيءٍ منْ أجلكَ ، وخلقتُكَ منْ أجلي ، فلا تشتغلْ بما خُلقَ لكَ ، عمَّا خُلقْتَ من أجله »[1] ألا ترىٰ أن الرجلَ الكبير القدر ؛ من أميرٍ ، أو وزير متىٰ شغلَ نفسَه بحبِّ امرأةٍ ينكحها ، أو بهيمةٍ يخدمها امتهنتْهُ القلوبُ بعقولها ؟! وإن عظَّموه في الظاهر رغباً أو رهباً ، والرَّجل ـ ولو كان شحاتاً ـ متىٰ شغلَ قلبَهُ بربِّه الحقِّ عظَّمته القلوبُ بعقولها ، وإن أعرضَتْ عنه لهواً أو تكبُّراً ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة : ٣٠] وعدَهُ بأن يجعلَه خليفةً في الأرض للملأ الأدنىٰ ؛ لأنه كان يومئذٍ خليفةً في السماء للملأ الأعلىٰ ، حيث خرُّوا له ساجدين ، فافهم) .

وكان يقول: (أكملُ المظاهر في كلِّ زمانٍ هو الذي يظهرُ بكشفه وبيانه لأهل زمانه ما لم يكونوا يحتسبون من الله ، وهو غيبُ الله الذي لا يُطْلعُ عليه إلا من ارتضى) .

---

(١) أورده المناوي في « فيض القدير » (٢/ ٣٠٥) .

وكان يقول : (إذا اشتغلَ البدنُ بهمِّ الرزق مع راحةِ القلب من الالتفات إليه كان ذلك تعباً فيما لا حاجةَ إليه ، ومتىٰ تفرَّغَ البدنُ من همِّه مع شُغلِ القلب به كان ذلك عذاباً بحبٍّ ما لا يحصل ، فكلاهما عذابٌ ، فافهم) .

وكان يقول : (الكاملُ من يهضمُ نفسَه حتىٰ يزكِّيَهُ ربُّه ، فاحذرْ أن تتبعَ من قال بلسان خلق ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] فيأخذك اللهُ نكالَ الآخرة والأولىٰ ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] واتَّبع من قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٧ـ٦٨] فافهم) .

قلت : معنىٰ قوله (حتىٰ يزكِّيَهُ ربُّهُ) أي : يُنزلُ في قلوب عباده تعظيمَه ، ويُطلقُ ألسنتَهم بحسنِ محامدِه ، وإلا فالوحيُ قد انقطع ، وما بقي إلا الإلهامُ الصحيح ، وهو أعزُّ من الكبريتِ الأحمر ، والله أعلم .

وكان يقول : (من أراد أن يخلِّدَ اللهُ عليه ما خلعه عليه من المحامد فليضفْها إلىٰ ربِّه ، ويحمده بها ، فإذا أَنِسَ من قلبه علماً قال : ربِّي هو العليم ، أو قدرةً قال : ربِّي هو القدير ، وهٰكذا كلُّ المعاني ، فافهم) .

وكان يقول : (أيُّما فَهِمٍ استخرجَ ممَّا أغفلَه الناس واتَّخذوه لهواً حكمةً وإرشاداً . . فقد غاصَ في بحرِ الظُّلمات ، فأخرجَ منه الجواهرَ المنيرة ، فهو في حقِّه بحرُ الأنوار ، فافهم) .

وكان يقول : (المعاني في جواهر أصداف قوالبها ؛ فجواهرُ قومٍ أصدافُ قومٍ آخرين ، فافهم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]) .

وكان يقول : (إذا ذكرتَ ذنوبَك فلا تقل عليها : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولٰكن قل : ربِّ إني ظلمتُ نفسي ، فاغفر لي ؛ إنك أنتَ الغفورُ الرحيم[1] ، فافهم) .

وكان يقول : (من تجمَّل بصحبة المُعرضين عن ربِّه فقد نادىٰ علىٰ نفسه بأنه ممن أهانَهُ اللهُ ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] فافهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ

---

(١) قال تعالىٰ في سورة القصص (١٦) : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم : ٢٩] وأقبلْ بكلِّيتك علينا تغنمْ ، والله أعلم) .

وكان يقول : (كلُّ ما أغفلَ قلبَك عن ربِّك فهو عدوٌّ لربِّك ، فمن أعرضَ عنه ، وتبرَّأ إلى الله منه ، وتوجَّه بقلبِهِ وجسده لربِّه . . فهو الأوَّاهُ الحليم ، فافهم ، فانظر حالك ، فإنَّ صديقَ العدوِّ عدو ، ولا تصحبْ غيرَ من يحبُّه ربُّك ، وهو من يذكِّرُك بربِّك) .

وكان يقول : (ليس أبوك حقيقةً إلا من تولَّدتْ صورةُ نفسك عن كشفه وبيانه ، حتىٰ صارتْ عقلاً بالفعل ، وأما أبو جسمك فهو أبوك مَجازاً ؛ لأنك ما أنت هٰذا الجسم ، بل روحه ، فمتىٰ أغفلَكَ أبو جسمك عن أبي روحك وجبَ عليك البراءةُ من أبي جسمك ، ولا يحلُّ لك أن تدَّعي إلى غير أبيك الحقيقي ، فإن ذلك كفرٌ بفاعله ، فافهم ، وقولُ الحقِّ فيما وجد في قراءةِ ابن مسعود : (النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجُه أمهاتُهم ، وهو أبٌ لهم)[1] . . يدلُّك بضمير الفصل ، وتقديمه علىٰ أب أنه لا أبَ لهم على الحقيقة إلا هو ، لموضعِ الدلالة على الاختصاص بذلك الضمير ، وتخصيصه ، وكفاك إنْ كنتَ مُتَرَوْحناً قد تجرَّدَ جوهرُ نفسك عن لبس الخلق الجديد قوله : « كلُّ نسبٍ منقطعٌ إلا نسبي »[2] ، والله أعلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما دام المريدُ تحت حكم أستاذه فترقيتُهُ دائمةٌ ، فإن خرج عن حكمه اتِّكالاً علىٰ ما حصل منه قولاً وفعلاً فهو كالحجر المرفوع إلى السماء ، ما دامت تلك القوَّةُ الرافعةُ مصاحبةً له فهو متعال ، ومتىٰ فترَ انحطَّ إلى الأرض ، فكن تحتَ حكم أستاذك تغنم) .

وكان يقول : (مهما أضمرته في نفسك ، وكتمتَهُ عن الخلق في خاطرك ظهرَ يوم تتقلَّب القلوب ، وتُبلى السرائر ، فافهم ، واعملْ ألا يكونَ في سريرتك إلا الحقُّ تغنم ، فافهم ، والله أعلم) .

وكان يقول في قوله : ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] : (« التي هي أحسن » عبارةٌ عما يحصلُ به التسليم للحقِّ ، والإذعان لحكمه ، فإن حصل لك

---

(١) قال تعالى في سورة الأحزاب (٦) : ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ . . .﴾ .
(٢) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٤/ ٣٣٢) عن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما .

بالاستدلال والبحث فهي التي هي أحسن ، وإن لم يحصل إلا بالترغيب فالترغيبُ إذاً « التي هي أحسن » ، وإن لم يحصل إلا بالترهيبِ فالترهيبُ إذاً هو « التي هي أحسن » ، وربما كان القتالُ هو « التي هي أحسن » ، وربما كان الإغضاءُ والاحتمالُ هو « التي هي أحسن » فافهم) .

وكان يقول : (مرشدُك الذي يهديك اللهُ به لما هو الأولىٰ بك عند ربك . . هو حضرةُ ربِّك ، به تقول ، وبه تفعل ، ومهما دعتْكَ نفسُك إليه فلا تعجلْ به قبل معرفة رضاه به ، ومهما دعاك إليه ، فبادرْ إليه ، ولا تتوانَ فيه حتىٰ ترضي به نفسك ، فإن فوزَك في امتثال أمره ، لا في شهوتك ، فافهم) .

وكان يقول : (ذات الذوات وراء كلِّ معلوم) .

قلت : والمُراد بـ (ذات الذوات) : الرُّوح الكلِّي الذي تفرَّعتْ منه سائرُ الأرواح ، فافهم ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (أُلهمت إلهاماً عامَ تسعٍ وتسعين وسبع مئة ما صورته : يا عليُّ ؛ إنا اخترناك لنشرِ الأرواح من ألحاد أجسادها ، فإذا أمرناك بأمر فاستمع ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية : ١٨ـ١٩]) .

وكان يقول : (نواطقُ الأستاذين مطالعُ شموس حقائقهم ، وقوابل علمائهم مَرايا وجوه رقائقهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] : (الشأنُ السيادي لا يحصلُ لمن اشتهاه ، ولا يُكره عليه من أباه ، فلازمِ الحبَّ والتمحيص ، ومحبوبُك وليُّ الوهب والتخصيص) .

وكان يقول : (الرجالُ للمنن القُدسية ، والنِّساءُ للزين الحسية ، فأيُّما امرأةٍ تعلَّقت همَّتُها بالمنن صارت رجلاً ، وأيُّما رجلٍ تعلَّقتْ همَّته بالزين صار امرأة) .

وكان يقول : (من صدَّقَ العلماء والعارفين فهو الرجل ، وإن كان أنثىٰ ، ومن كذَّبهم فهو من النساء ، وإن كان ذكراً ؛ وذلك لأن العارفين بالله تعالىٰ كلمةٌ تامَّةٌ صادقة ، والعلماءُ بالله كتبٌ جامعة ، فافهم) .

وكان يقول : (لما كان من خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يواجِه أحداً بما يكره جازاه بأن ذكَّرَ أمَّتَه ووعظهم بتنبيههم علىٰ ما فيهم من المعايب بذكرِ عيوب غيرهم من الأمم السابقة التي قصَّ اللهُ عليهم في القرآن لينزجروا ويعتبروا بغيرهم بحسنِ عبارةٍ) .

وكان يقول : (العاقلُ لا يمدحُ نفسه بقاله ، ولا يذمُّها بحاله إلا لحكمةٍ تنفي النقص عن كماله ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تأمنِ المعتقِدَ فيك ، ولو ظهرَ لك من نفسِه غايةَ السُّكون ؛ فإنها إنما سكنَتْ حيث عَقَلَها عَقْلُها النظري بعقالٍ ظنِّيٍّ مُسْدُهُ من لحىٰ عوارض الأحوال والأعمال والأقوال ، والظُّنون تتناسخ ، والأعراضُ لا تبقىٰ ، فكأنَّكَ بالعقال وقد انحلَّ أو تمزَّقَ ، ورجع المعقولُ إلىٰ توحُّشه وإفساده ، والمحبُّ من النارِ في قرار البحار ، لا يُريد إلا ما تريد ، شغلُهُ ذاتُك وإنْ تلوَّنت صفاتُك) .

وكان يقول : (المحبُّ كإنسان العين[1] ، صغيرٌ وجوده ، كبيرٌ شهوده ، إلا أنه لا يتأثَّر لعارضٍ ، ولا تُضعِفُ شهودَه العوارضُ ، فبهـٰذا تميَّز عن الباصر ، وعزَّ عن مناظر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (المحبُّون قليل ، والمعتقدون كثير ، وما قلَّ ونفع خيرٌ مما كثر وألهىٰ ، وكفىٰ باللهو ضرراً) .

وكان يقول : (من ظنَّ أنه حصلَ على المراد بالاعتقاد فذلك الذي ضلَّ بالله عن الله في كلِّ واد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : ٣٣] ومن علمَ أنه ليس إلا بالله إلى الله يصل فهـٰذا الذي هيهاتَ أن يقف أو يضل ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزمر : ٣٧]) .

وكان يقول : (إذا عرفَت الواجدُ للحقِّ من حيث هو واجد للحق فهو وجه الحقِّ الذي واجهك به ، فالزم طاعته ، وكنْ من ﴿ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا انصبغتْ عندك الأشياءُ كلُّها بالحكمة التي لم ترها

(١) إنسان العين : المثال الذي يُرىٰ في سواد العين .

إلا محامد وسبحات بحمد الكريم المنعم بها. . فالنَّفَسُ الخارجُ من الدُّبرِ قائلٌ عندك : سبحان المُنعم بالفرج والراحة)[١] ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (ينبغي للملك التغافلُ عمَّن أتىٰ بما يُغضبه مستتراً عنه ، وينبغي عقوبةُ من أتىٰ ذلك مجاهرةً له في حضرته ، حيث ينخرمُ النظام بإهماله ، فافهم ، واحذرْ مظاهر الحقِّ تخرم .

فعلم : أن مخالفةَ الحقِّ على المشاهدة تُوجبُ العقوبة في الوقت ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] وإلىٰ ذلك الإشارةُ بلعن إبليس علىٰ سجدةٍ واحدةٍ تركها بعد أَمرِه بها في حضرة المعاينة ، وكم تركَ غيرُهُ صلواتٍ كثيرةً ، لـٰكن علىٰ حجابٍ وجهل ، فأمهل ، ولم يُعاجل ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ [الصافات : ٩٩] : (أي : إني عدم في وجودِ ربِّي ، لا حولَ لي ولا قدرة ، إنما أمري كلُّه لربِّي ، فافهم ، فما ثَمَّ إلا اللهُ في الحقيقة ، فمتىٰ ملأك به أوجدك كل شيء) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُفاتحُ الربُّ عبادَهُ إلا عما خبأته عقولهم ومداركهم ، فمفاتحتُهُ ذكر ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١]) .

وكان يقول : (ما تعيَّن الحق المبين بعينه المخصوص الناطقي الزماني في زمان قطُّ إلا قال ملائكةُ المدارك النظرية فيه : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن ﴾ [البقرة : ٣٠] لا يزالون كذلك إلىٰ أن يتنزَّلَ برهبوته ، وبسطِ يدِ سلطان جبروته ، ومكنة إدخال ممالكهم تحت ملوكته ، فهناكَ يقعوا له ساجدين ، ويصيرُ عدوُّه شيطانُ الوهم البهيم مُستمرّاً علىٰ عداوته ؛ لأنه يُحاول إخراجَ كلِّ حاكمٍ دونه عن حكمه ، وقد ظهرَ بشعار ذلك ورقةُ ، فقال : ما جاء أحدٌ بما جاء به محمدٌ إلا عُودي)[٢] .

وقال آخر : وكذلك الأنبياءُ تُبتلىٰ ، وتكونُ لهم العاقبةُ ، فاصبروا و﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٠٩] . أي : يظهرُ ويتجلّىٰ بأمره ، فافهم .

---

(١) في (ز) : (والرحمة) بدل (والراحة) .

(٢) انظر « أعلام النبوة » لأبي الحسن الماردوي (ص٢٧٥) .

وكان يقول : (إن خالَقَكَ شخصٌ بأخلاق البهائم فخالقه أنت بأخلاقِ الأكارم[1] ، فكلٌّ يعملُ علىٰ شاكلته التي هي جزاؤه ، فافهم) .

وكان يقول : (فضلُ مرشدِكَ إلى الله علىٰ كلِّ ما ترجوه من إمداده كفضل الله علىٰ عباده ، فافهم ؛ فإنَّ مرشدَك إلى الحقِّ هو عينُ الحقِّ التي ينظرُ بها إليك ، ووجهك الذي يُقبلُ به عليك ، فاعرفْ والزم ، وانظرْ ماذا ترىٰ ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تطلبْ أن يُحصرَ مرشدُك إلى الحقِّ في حدودك ؛ فإنَّك إن لم تعرف أنه محيطٌ بك فإنك تعرفُ أنه أكبرُ منك قياماً ، وأوسع منك مقاماً ، وكيف ينحصرُ الأكبر الأوسع فيما دونه ؟! حسبك أن يغلبَ حكمُهُ عليك عيناً وأثراً بحسب استعدادك ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يخلو مخلوقٌ من محبَّة الحقِّ لعلةٍ ، وصدقُ المحبَّةِ فوقَ العلل ، فافهم ؛ فلذلك كان لا يجدُ صدقَ محبَّة الحقِّ إلا حقٌّ ، وإذا وجدها فلا يفقدُها أبداً ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس : ٦٤] . فافهم) .

وكان يقول : (ألسنةُ المحبَّة أعجميةٌ علىٰ غير أهلها ، وهي لأهلِها لسانٌ عربي مبين ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يصحُّ تجرُّدُك عن نفس خلقك ما بقي لك شغلٌ شاغلٌ بمحبة مخلوقٍ عن حقِّك ، فافهم) .

وكان يقول : (دعِ الدنيا للغافلين ، والبرزخَ للجائزين ، والجحيمَ للشياطين ، والجنة للجانِّ ، وقل : يا عُبَّاد الديَّان ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يسٓ : ٥٨]) .

وكان يقول : (من تنبَّه لنقصِهِ لم يقنع بالقالِ عن الحال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنِ التفتَّ يميناً حجبتْكَ الأنوار ، وإن التفتَّ شمالاً حجبتك شعبُ النار ، وإن لم تلتفتْ وجدتَ حبيبك بلا حجاب ، وكلُّ حجابٍ عن الحبيب عذاب ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ [الدخان : ١٢] فافهم) .

---

(١) في (ز) : (الكرام) .

وكان يقول : (ما دمتَ بين الأضداد فأنتَ في غلبةٍ ، فإذا خلصتَ لِمَا لا ضدَّ له استرحتَ من هٰذه الغلبة ، فافهم) .

وكان يقول : (لا يظفرُ بأستاذٍ إلا مخصوصٌ عند الله ؛ لأنه يُوصلك إلى الله ، فسلِّمْ له إن وجدْتَهُ تَسْلَم وتغنم) .

وكان يقول : (أستاذُك بالنسبة إليك هو فضلُ الله عليك ، ورحمتُه بك ، فتحقُّقك به خيرٌ من جميع ما استفدته ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] فافهم) .

وكان يقول : (القلبُ بيتُ الربِّ ، عمارتُهُ وجدُ ساكنه ، وساكنُهُ روحه ، ولا يملك الكعبةَ ، ولا يَملكها مخلوقٌ ، وإنَّما تتردَّدُ إليها الملائكةُ ، ويدخلونها من حيث لا يشعرُ البشر مثلاً من ذلك ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فلم يحجبهم مال ولا نفس ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة : ٢٠] بربهم ، فافهم) .

وكان يقول : (من رأيتَه علىٰ عظمِ مرتبته ، وعلوِّ قدره عندك يتواضعُ لعظمة الله ، ويتصاغرُ من خشيته علماً وحكمةً . . فالزمْ قدمه ؛ فإنه الذي ينفخُ الأنوار النورانية في صورِ صورك ، وسلامٌ علىٰ إسرافيل ، وما أدراك ما إسرافيل : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه : ٤٧] فافهم) .

وكان يقول : (اثبتْ تنبت ، فما نبتتْ شجرةٌ قطُّ قَطَعَتْ زمانَها في التنقُّل من مغرسٍ إلىٰ مغرس ، فافهم) .

وكان يقول : (لولا تناهت صورةُ ما لا يتناهىٰ في الإدراك ما أحاطَ بها الفهم ، فافهم) .

وكان يقول: (إن أردتَ التحقُّق بالأحدِ فتهيَّأ لفناء مراتبك الخارجية كلِّها ، وإنَّ من دون ذلك أهوالاً ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]).

وكان يقول : (كنْ إما في مرتبةِ تحقيق وإما في مرتبة تصديق ، واحذر ما دونهما ، فما دونهما خيرٌ من طريق ، فافهم) .

وكان يقول : في حديث إنَّ الله يقولُ لقومٍ يوم قيامتهم : « أنَا اليومَ رسولُ نفسي إليكمْ »[1] : (فهو إلـٰههم بإلـٰهيته ، وهو رسولُهم برسليَّته ، ومن كشفَ عن ساق إدراكه حجاب وهمه البشري لم يرَ الأمرَ إلا كذلك في كلِّ مقام بحسبه ، فافهم) .

وكان يقول : (الصلاةُ من أذانها إلىٰ سلامها صورةُ حالِ المريد من دعائه عن حجبه إلىٰ رجوعه بربّه ، إلىٰ حجبه ، فافهم .

فالتكبير صورة الإخلاص ، وهو مفتاح حرم المناجي ، فافهم ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [النمل : ٤٠] ومن ثَمَّ افتُتحتِ الصلاةُ بحمدِ الربِّ نفسه علىٰ لسان عبده ، فإذا أحبَّه فكان لسانَهُ سقطت الوسائط ، فافهم ، ولما رجعَ حجابُ المناجي رأىٰ قيُّوميَّة الربِّ بعبده ، فكبَّرها عن المماثلة بقيُّوميَّة العبد ، فركعَ معظماً ، فكان ركوعُهُ مظهرَ عظمة القيُّوم ، ثم قامَ فجدَّد الفاتحة بالحمد وهو كليمٌ وربُّه سميع ، فلم يلبثْ أن أدركته الغيرة ، فأفنتْ بقيَّةٌ حجابيةٌ قيامه ، فسجدَ مُسبِّحاً لأعلويةِ من تفرَّدَ بالقيُّوميَّة حيث لا يشهد سواه ، فكان سجوده مُظهراً علوية ربِّه في أقربيَّتِهِ ، وقام فتمكَّنَ متحقِّقاً بربِّه ، وأخذَ يرجعُ به إلىٰ حجبه ، فأثبتَ أنَّه مسلوبُ المغايرة في قيامه وسلامه ، فقال : التحيات لله ، وهي التَّسليماتُ التي يبدأ بها الداخلُ في حضراته التي رجع إليها ، ثم دخلَ حضرته النفسانيةَ الجامعة لكلِّ الصُّور ، فقال : السلام عليك ورحمةُ الله وبركاته ، السلام علينا وعلىٰ عبادِ الله ؛ يعني : لكلِّ عبدٍ صالح ، فمن هو إذن ؟! ومن النبي في شهوده ؟! فانظر ماذا ترىٰ ، وكيف اختصرَ لك في الصلاة مشهد الإسراء ، فافهم ؛ فإن العارفَ عينُ معروفه ، والمحقِّقَ حقيقةُ ما حقَّقه ، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]) .

وكان يقول : (ما حققت دائرة الخلق إلا لتعرفَ الحقَّ بتفصيل أسمائه وصفاته في مظاهر آثاره « كنتُ كنزاً لا أُعرفُ ، فخلقتُ خلقاً ، وتعرَّفتُ إليهمْ ، فبي عرفُوني »[2] ، ومصداق ذلك ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] أي : ليعرفونِ ، فكلُّ

---

(١) أخرجه البزار كما في « كشف الأستار » (٢١٧٧) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٢٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٣٥) .

من كان أعرفَ بحالِ الآثار كان أعرفَ بمظاهر الأسماء والصفات ، وكلُّ من كان أعرفَ بمظاهر المُسمَّى الموصوف كان أعرفَ بحقائق تلك المظاهر علىٰ قدرِ معرفته بالحقائق الظاهرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ نَفَسٍ كلمةٌ بالنسبة إلىٰ جسمها ، وكلُّ عقلٍ كلمةٌ بالنسبة إلىٰ ذاته ، وكلُّ معنىً كلمةٌ بالنسبة إلىٰ عينه : ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة : ٤٠] فلكلٍّ مقامٍ مقال ، ولكلٍّ مجالٍ رجال ، فافهم) .

وكان يقول : (مَنْ قتلَ نفسَه الرديَّةَ بالتجرُّدِ عنها أُبدِلَ مكانها نفساً زكيةً ، فإن قتل نفسه الزكية بتجريدها عن الدعوىٰ ، بل عن شهودِ الثنوية في الأمرِ لها مع الله تعالىٰ ، فإذا تجرَّدت عن ذلك فقد تقرَّبَ العبدُ حينئذٍ إلى الله بنافلته ، فأحبَّه ، فكان له بروحه مكان أنِّيَّتِهِ التي تجرَّدَ عنها بشهود وحدة هويَّتِهِ ، وتلك الروحُ خيرٌ من تلك النفس الزكية زكاة ، وأقربُ رحماً[١] ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مهما حقَّقَهُ المحقِّقُ عندك فاعلمْ أنَّ ذلك تجلٍّ من تجلِّياته ، وأن الذي تعيَّنَ به من ذلك في إدراكك تمثُّلٌ من تمثُّلاته ، وذلك المحققُ هو أجلُّ أو من أجلِّ حقائق وجودك الذي قام بها في شهودك ، فافهم ؛ فإن المريدَ عينٌ من عيون وجود أستاذه بالنسبة إلىٰ أستاذه ، والأستاذُ حقيقةُ وجود المريد بالنسبة إلى المريد ، والوجودُ في الكلِّ واحدٌ محيط ؛ ولذلك يتحقَّقُ المُريد بأستاذه في معاني الكمال وجوداً ، ويتحقَّقُ الأستاذ بمُريده في مَدارك المتعرِّفين شهوداً ، ومن ثَمَّ قال السيدُ الكمال لمريده الكامل : « أنتَ منِّي ، وأنَا منك يا عليُّ »[٢] ، فافهم) .

وكان يقول : (من كان لا يرىٰ من أستاذه إلا وجهَ البشرية فلا يزيدُهُ ما كُشِفَ له من الحق المبين إلا إعراضاً وتكذيباً ونفوراً ، ومن ثَمَّ لا تجدُ محقِّقاً يظهرُ لقوم إلا من حيث يشهدونه ، وما دامَ في ظهورِ المماثلة لهم لا يُكلِّمُهم إلا بلسانهم ، ولا يُعاملُهم

---

(١) قال تعالىٰ في قصة قتل الغلام في سورة الكهف (٨١) : ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ .

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٩) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

إلا بكيلهم وميزانهم ، ومن ثَمَّ قال النبي صلى الله عليه وسلم لعموم أصحابه : « لا تفضِّلوني علىٰ موسَىٰ »[١] ، ثم بعد مفارقته لبشريَّتِهِ قال على لسان خواصِّ أصحابه : إنه أفضلُ من جميع المرسلين ، والملائكةِ المقرَّبين ، فقبل ذلك منه ببشاشةٍ وتصديقٍ خالص من لو قال له ذلك وهو في بشريَّته لارتاب ، وهـٰكذا كلُّ وليٍّ في حالِ ظهوره بشراً لا يُقبلُ منه أكثرُ كشفه الصادق ، ويُقبلُ ذلك منه إذا تجرَّدَ عن بشريَّتِهِ ، وألقاه علىٰ لسان صدِّيقه ، فيقبل من المحبِّين في محبوبهم ما لا يُقبلُ من المحبوب عن نفسِهِ عند أهلِ حجابِ المماثلة ، فافهم) .

وكان يقول : إن قال لك قائلٌ : ما الذات ؟ فقل له : الذاتُ والوجود بديهيان ، فلا يُسأل عنهما بـ : (ما) ، ولا يُطلبان بالتحديد ، فإن قال : أُريد التنبيه ، فقل له : (الذاتُ ما به قيامُ كلِّ حاكمٍ ، وحكم ، ومحكوم ، فمهما أدركته من هـٰذا فهو مما قامَ بالذات لا الذات ، فقد نبَّهتُك علىٰ عجزك .

فإن قال : بيِّنْ لي ما هو البديهي ، فقل له : الذاتُ بما هو الذات كما قد سمعت معجوز عنه ، وهو بديهي ، وليس ذلك إلا من جهةٍ ، لا من جهات ؛ لأنه المقتضىٰ لذاته أن يقتضي ، وما ثَمَّ إلا هو ، فيقضي بنفسه لنفسه ، وعليها قضايا لا تتناهىٰ لوجوب قضائه له بذلك ، وذلك على الطريقة التي يُسمِّيها علماءُ البيان تجريداً بيانياً ، فأنت إذا جرَّدْتَ نفسَك من نفسك ، طالباً ، ومطلوباً ، وطلباً ، وذاكراً لذلك . . لا يُمكنك تشابهه ، وناسياً له لا يتأتَّىٰ منك ذكره ، ألست يقومُ عندك بهـٰذه الأحكام صورٌ متقابلة لا يشغلُك شيءٌ منها عن شيءٍ ؟! فأنتَ حقيقتُها جميعاً ، وليست هي زائدةً عليك بالحقيقة ، وهي أغيارُك ومتغايرك ، هي في نفسها حكماً ومعاملة ، فهكذا فافهم هـٰذا ، فالذاتُ من هـٰذه الحقيقة القضائية للذات الاقتضائية تُسمَّى الذات الوجود ، وتُسمَّى القضايا موجودات ، ومراتب الوجود ، ثم الموجودُ جهاتٌ ، جهةٌ ما هو الوجود مطلقاً ، وعلمه اللفظي العربي من هـٰذه الحيثية هو وجهة ما هو الوجود المجرَّد عن كلِّ ما يحكم بزيادته عليه ، واسمه العلم هنا هو هو وجهة ما هو الوجود

---

(١) رواه البخاري (٢٤١١) ، ومسلم (٢٣٧٣/ ١٦٠) بلفظ : (لا تُخيِّروني علىٰ موسىٰ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

المحيط تعيُّناً بكلِّ موجودٍ ، فهو ذاتُ كلِّ موجود ، وكلُّ موجودٍ صفته ، وتعينه ، واسمه العلم الجلالة الغير مشتقة من شيءٍ أصلا (الله) ، وأطال في ذلك بما لا تسعهُ العقولُ السليمة ، فضلاً عن غيرها ، والله أعلم .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] : (وإذا أحبَّهم فيكوِّنهم في مدارك المدركين ، فإذا أحببتُهُ كنته ، وقس علىٰ هـٰذا ، فافهم ، انظر كيف لا يعبدون قالاً إلا من قامَ لهم بما يَشتهون حالاً ، فافهم ، ما منك إلا وإليك ، ولا إليك إلا ومنك ﴿ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٩]) .

وكان يقول : (الجودُ سعةُ العطاء ، والهبةُ إثباتُ العطية ، وإتمامُها علىٰ من أُعطيها ، والسماحةُ سهولةُ العطاء ، والسخاءُ إعطاءُ المحتاج لتفريج ما به من العطية ، فافهم) .

وكان يقول : (لما كان الوجودُ في دائرة الدلالة يظهر بموجوده سُمِّي الموجود مظهراً ، والوجود ظاهراً به في كلِّ مقامٍ من هـٰذه الدائرة بحسبه) .

وكان يقول : (لا يظهرُ لك الوجودُ حيث ظهر ، وكيف ظهر ، وبمهما ظهر . . إلا من حيث هو وجودك ، وأنت لا تُدرك ذلك ، ولا شيئاً منه ، إلا بأنه وجودُكَ المدرك لذلك بإدراكه من حيث إنه وجودك المدرك ، ما ثَمَّ شيءٌ خلافُ هـٰذا ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ [فصلت : ٥٤] فافهم) .

وكان يقول : (لما كان الحقُّ تعالىٰ ﴿ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ٤٨] فكذلك مظاهرُهُ لا يَغفرون أن يُشركَ بهم ؛ لأنه حقيقتُهم الظاهرة المتمثِّلة بهم ، فهو هم ، وهو قواهم ، وأمورُهم كلُّها أمورُه ، فإذا رأيتَ أحداً منهم يكره ممن يتعيَّنُ عليه حبُّه وتعظيمه أن يحبَّ سواه ، ويعظِّمه كحبِّه وتعظيمه . . فاعلم أن ذلك شأنُ الله الذي لا يَغفرُ أن يُشركَ به ، ظهر به في مظهره ، فافهم ، واعرفْ ، والزم) .

وكان يقول : في قوله صلى الله عليه وسلم : « منِ اعترفَ بذنبِهِ ثمَّ تابَ تابَ اللهُ عليه »[1] : (أي : لأن إنكارَ الذنب والاعتذار عنه بالكذب تزكيةٌ للنفس المذنبة ،

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وشهادةُ زور ، وتجهيلٌ للمنكر منه المعتذر عنده ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت : ٢٣] ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام : ٢٤] وهـٰذا شيءٌ نجده من نفوسنا أنَّ المذنبَ إذا اعترفَ وخضع رقَّيْتَ له ، وكرهتَ عقوبتَه وتوبيخه بعد ذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [يوسف : ٩١-٩٢] والعكسُ بالعكس ، فافهم) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ له مُلكاً دون سيِّده في شيءٍ من الأمور ، فقد خانَ وافترىٰ ، وكان عليه فتنةً ، ومن اعترف بأنَّ ما في يده لسيِّده جعله عاملاً فيه ، فلا يستكثر عليه ما في يده إلا جاهلٌ[1] ، وإنما الإنكارُ وموضعُ الفتنة ، والاستدراجُ علىٰ من زعم أن ما في يده له ، وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم : (« أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرضِ »[2] ، فكان يعلمُ أنَّ العبد كلَّما كثرَ ما في يده كثرَ فضلُه واتَّسع علىٰ غيره ، وكثرَ فضلُ الله عليه ، فافهم ، فإضافة الأموالِ إلى العبدِ كإضافة الإقليم إلى العامل عليه ، والله أعلم) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢] : (أي : لأنَّهم مع اعترافهم بأنه الله وَصَفُوه بالبنوة لمريم ، ولأنهم وَصَفُوه بالله في الزمن الذي ليس هو موصوفه فيه ، فإن موصوفَهُ بوصف الحقِّ المبين من حيث وجهه المحمَّدي ، ولا يتسمَّىٰ في كلِّ زمنٍ إلا موصوفه من الوجه الذي ظهر به منه ، سيما وهـٰذا الوجه المحيطُ بجميع الوجوه العينية الإلـٰهية الفرقانية عيسىٰ وسواه ، ولأنهم وَصَفُوه بالله ، ولم يقوموا بمقتضى الإيمان بقوله : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] وقوله : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ٧٢] يعني : الظاهر بوجه المحمَّدي ، فافهم) وأطال في ذلك .

وكان يقول : (لما كان الروحُ الخضري مشوباً رحمانياً رحيماً من سريان سرِّ الأحدية في دائرته ومقامه بحسب مرتبته . . قال لذي النسبة الربانية الإلـٰهية في زمنه : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٧] كقوله له بلسان حقيقته : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣]

---

(١) في (ب ، و) : (فلا يستكثر عليه ما بكثرة ما في يده إلا جاهل) .

(٢) رواه البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦/ ٣٠) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

فإنه منه ، وإليه ، ما ثَمَّ إلا هـٰذا ، فافهم كيف يستطيعُ الصبرُ ذو مقامٍ معلوم لا يعرف ولا يألف سواه ، أو ما ناسبه مع من لا مقامَ له ، فهو كل آنٍ في شأن ، أَلا ترىٰ أن الذي لا يُعهدُ له في النفسِ روعةٌ ، فإذا أُلفَ واعتيد زالت ؟! فافهم) .

وكان يقول : (ما دامتِ الملوكُ مطيعةً للأولياء الذين هم العلماء بالحقِّ ، وأمرُهم بينهم نافذٌ قائم ، فأمرُهم فالحٌ ، ونظامهم صالح ، ونورُهم واضح ، ومتى انعكس الأمر انتكسوا ؛ لأن الأولياءَ هم ورثةُ الأنبياء على التحقيق ، وأما حملةُ العلم المولِّدون للمسائل علىٰ وفق الأغراض ، واتِّباع الأهواء . . فليسوا من هـٰذا الأمر في شيء ، وإنَّما هم كما وُصِفَ الذين ﴿ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة : ٥] فالصوابُ الانتفاعُ بمحمولهم من غير تحكيمٍ لهم ، ولا رجوع لرأيهم ، ولا تمكين لهم من تصرُّفٍ ؛ إذِ الحمارُ للحمل وللانتفاع ، لا لأنْ يحكم أو يُسمع له ، أو يُطاع ، فافهم) .

قلت : ولعلَّ مرادَ الشيخ قوماً ينتصرون لأهوائهم بالباطل ، كالواضعين للحديث ترويجاً لبدعهم ، وليس المراد بهم هـٰؤلاء العلماء الذين نصَّبهم الله تعالىٰ لإقامة الشريعة ، والله أعلم .

وكان يقول : (أئمةُ الهدىٰ في الحقيقة أرواحٌ مقدَّسون ، يتحوَّلون في بشرياتهم ، فمن نظرَ إلىٰ ظاهرهم تحيَّرَ ، ومن نظر إلىٰ نورِ بواطنهم تبصَّر ، واللهُ أعلم) .

وكان يقول : (ورثةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كلِّ زمانٍ هم أنوارُ أزمنتهم ، سراجيَّتهم المقتبسةُ بالتخصيص لهم من سراجيته المشارُ إليه بقوله : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٦] فما داموا ناطقين ظاهرين فالنورُ ظاهرٌ شائع ، والأبصارُ مُدركةٌ ، والفرقُ واضحٌ بين المفاسد والمصالح ، ومتىٰ سكتوا عن بيان الحقِّ تلفوا وتحيَّروا واختلفوا ، فلا تُقابلْ سراجَ زمانك بالأهواء ، وارع له حقَّه تدمْ لك الأضواء ، فافهم) .

وكان يقول : (من شرط إمام الهدىٰ : أن يُهاجرَ بهمَّتِهِ عما تشتهي الأنفس البشرية ، ألا ترىٰ إلىٰ آدم عليه السلام ما أُعطي الخلافةَ إلا لما هاجر من الجنة وما فيها من شهوات النفوس إلى الأرض ؟! وهـٰكذا كلُّ من أُريد لحقٍّ فإنه لا يقومُ به حتىٰ يخرجَ ويهاجرَ بهمَّتِهِ عما يشغل عنه ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٨٩] ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا قال الجمهورُ عن عارفٍ : لِمَ لا يُظهرُ معارفَهُ العزيزةَ الإلـٰهية إلاّ في مقامٍ خاصٍّ بين قومٍ خاصِّين ؟! ولِمَ لا يُظهرُها للناسِ ويتكلَّمُ بها على الجمهور إنْ كانت حقّاً كما يزعم ؟!

فقل لهم : افهموا هـٰذا المثال : الدنيا غابة ، والنفوسُ المحجوبةُ عن حقائق الحقِّ المبين فيها سباعٌ ، ووحوش كواسر ، وصاحبُ القلبِ السليم ، أو السمع الشهيد بينهم كإنسان دخل ليلاً إلىٰ تلك الغابة ، وهو حَسنُ القراءة والصوت ، فلما أحسَّ بما فيها من السباع والوحوش آوىٰ إلىٰ شجرةٍ يختفي فيها منهم ، ولم يجهرْ بالقرآن يتغنَّىٰ به هناك حذراً منهم ، فهل يدلُّ اختفاؤه عنهم علىٰ أنه حكيم ، أو علىٰ أنه غيرُ إنسان ؟! لا واللهِ ؛ لأنه لو تراءىٰ لهم ، أو أَسمعَهم صوتَه وقراءته لم يهتدوا به ، ولم يَفهموا عنه ، وسارعوا إلىٰ تمزيقه وأكله ، وكان هو الملقي بيده إلى التهلكة ، فافهم هـٰذا المثال ، وقلْ للمعترضِ المذكور ، قد قال الله تعالىٰ ، لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : ١١٠] فأمرَهُ ألا يجهرَ بالقرآن بحيث يسمعُه الجهلةُ المنكرون فيسبون بجهلهم ، ولا يُخفيه عمن يؤمنُ به ، فهل يدلُّ إخفاءُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قراءته عن الجاهلين المُنكرين علىٰ بطلان قراءته ؟! أو يقدحُ في حقيقته ؟!

ثم إذا تهيأت لهـٰذا العارف أسبابُ إظهار أمره بما ينقهرُ له المنكرون ، ويقرُّون له طوعاً أو كرهاً . . فحينئذٍ يُظهرُ عرفانَهُ في الملأ اتِّباعاً واقتداءً بإظهار القرآن عند تهيُّؤ أسباب إظهاره بكثرة أنصاره وتمكينه ، كما أن الإنسان لا ينبغي له مقابلةُ السباع والظهورُ لهم حتىٰ يتهيَّأ له أسبابُ القهر لهم من قوَّةٍ ومكنةٍ ، وأنصار .

فإن قال المعترض : فلِمَ لا يتركُ هـٰذا العارفُ إظهارَ معارفه ، ويدخلُ فيما فيه الجمهور حتىٰ يتمكَّن ويقوىٰ ، فيكون أسلمَ له ؟! فقل له : إن ورثةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم لا يخالفون أمرَهُ ؛ لأن نورَهُ إمامُ نفوسهم ، فحيثُ سلك سلكوا ، فكما أَخفىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما معه من الحقِّ وكتمَهُ عن الجهلة المنكرين حتىٰ أتاه أمرُ الله تعالىٰ بإظهار ما معه . . فكذلك ورثتُهُ .

وقلْ للمعترض أيضاً : أرأيتَ لو أنكرَ المجانينُ علىٰ رجلٍ عاقلٍ مُخالفتَه لأمرهم ؛

أينبغي له أن يُوافقهم علىٰ جنونهم ، فيتجنَّنَ مثلهم ويذرَ عقله حتىٰ يألفوه ، وهو يُمكنه الفرارُ منهم بعقله ؟!

وقل له أيضاً : أرأيتَ الإنسانَ الكائنَ بين الكلاب الضواري ، إذا لم يرضوه بينهم حتىٰ يَمشي مثلَهم مُكبّاً علىٰ وجهه ، ويعوي كعيهم ؛ أينبغي له أن يفعلَ ذلك ليقيمَ بينهم ، ويألفوه ، وهو يُمكنه الفرارُ عنهم ، والحذر منهم مع بقائه علىٰ طريقته الإنسانية ؟! لا والله ، لا ينبغي للقادر على الخير أن ينسلخَ منه ليُرضيَ أهلَ الشر ، ويقيم معهم فـ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] إلىٰ آخر النسق ، فنعوذُ بالله أن نُردَّ علىٰ أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، فافهموا أيها المريدون ، ولا يستخفنَّكم الذين لا يوقنون ، وإيَّاكم أن يُلبسوا عليكم دينكم بجدالهم في الحقِّ بعد ما تبيَّن ، ومن عرفَ الحقَّ فليلزم ، والله أعلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أقلُّ حال المريد مع أستاذه في حياته أن يكون لأستاذه كالأمِّ لواحدِها ، يؤثره بالراحات ، ويحملُ عنه المشقَّات ، ويحبُّه علىٰ جميع أحواله ، وهٰكذا يكونَ الأستاذُ لمريده في معنوياته ، فافهم ، فإن إمامَ هدايتك يهتمُّ بأمرك عند ربِّك أكثر من اهتمامه بنفسه ، فهل يرحمُك هٰكذا أبٌ أو مألوف سواه ؟! وتأمَّلْ في قول موسىٰ عليه السلام عن عصاه : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ [طه : ١٨] لم يقل : أخبط بها حاجتي من الثمر ، وإنما ذكرَ أمرَ رعيَّتِهِ ذكرَ شكرٍ في حضرة المنعم ، وما قال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلا إظهاراً للضعف والعجز ، فافهم ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ١٨] إنما أجملَ ما له فيها من المآرب كي لا تحصرَها مرتبةٌ عددية ، فيكون إمدادُها محصوراً ، فهكذا إذا لم يعدَّ ذلك أستاذُك خدمك ، فاعلمْ أنَّه أراد أن يجبرَك من كسرِ نقصِ الحصر إلىٰ كمالِ الإطلاق ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] فتأمل ذلك) .

وكان يقول : (الحقُّ هو الوجودُ الثابت علىٰ مرتبته ، والحقائقُ لا تنقلب ، فكلُّها حقٌّ حتى الباطل في أنه باطلٌ هو حق ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ . . . ﴾ الآية [الحج : ٦٢] فافهم) .

وكان يقول : (المقصودُ الخلوص من حكم الحجاب ، لا من صورته ، ألا ترى

الزجاجةَ وسائرَ الأجسام الشَّافة كيف هي صورةُ حجابٍ يمنعها وصول الأجسام إلىٰ ما في باطنها وليس لها حكمُ الحجاب بالنسبة إلىٰ ظهور الضوء المختزن فيها ، ونفوذ البصرِ إلىٰ ما في باطنها ؟!

وانظرْ إلىٰ قوله عليه السلام : « فرُفِعَ لي كلُّ حجابٍ » أي : خلصتُ من منعِ كلِّ مانعٍ وصورته « إلا حجابَ العزةِ » الذي يلي الرحمـٰن ، وهو مظهرُ حكم العبودية ، قال في الحديث : « فخرج ملكٌ من الحجاب ، فقال : الله أكبر ، الله أكبر ، فقال من وراء الحجاب : صدق عبدي ، أنَا أكبرُ أنَا أكبرُ »[1] فانظرْ كيف حصلَ في صورة الحجاب ، ورُفِعَ عنه حكمه ، حتىٰ عرفَ المتكلِّمُ من وراء الحجاب ، فبحقٍّ قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : ٢٢] أي : ما هو بمحجوب ، فافهم ، والله أعلم) .

وكان يقول : في حديث : « خزائنُ اللهِ الكلامُ »[2] : (ليس في الكلام إلا المعاني التي يأخذُ منها كلُّ فَهِمٍ بوسعه ، ويلهمُ الحقُّ منها كلَّ مُدركٍ ما يُناسب استعداده ، وانظر إلىٰ صواحبِ زليخا ، كيف قالوا في يوسف : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] وأما الأغيار فلم يروه إلا فتىٰ زليخا ، وأما زَليخا فما ظهرَ لها عند مشاهدته إلا الحق ، فقالت ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ [يوسف : ٥١] أي : ظهر وتجلّىٰ لها عين معنىٰ قول الملائكة لجدِّه إبراهيم عن جدِّه إسحاق : ﴿ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٥٥] بعد ما سمَّوه غلاماً عليماً ، والولدُ سرُّ أبيه ، وهـٰذا هو المراد بإتمام النعمة عليه وعلىٰ آل يعقوب ، ثم إنه عرَّفه أن الربوبية له من دائرة العليم الحكيم فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] فافهم) .

وكان يقول : (يومٌ من أيام الأستاذ عند ربِّه كألفِ سنةٍ مما يعدُّ المريدون عند ربِّهم) .

وكان يقول : (أنوارُ المريدين رقائقُ أنوار أستاذيهم ، وأنوارُ الأُستاذين حقائقُ أنوار مريديهم ، فكما أنه ليس في مرآة البدر إلا الشمسُ ، فيضيء الليلُ كلُّه كذلك ليس في

---

(١) روى الحديث البزار كما في « كشف الأستار » (٣٥٢) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البزار في « مسنده » (١٠٠٨١) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢/٤٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

المريد الكامل إلا أستاذه ، فيفيده المدد القبولي كلَّه ، فافهم واعرفْ ، والزمْ تغنم) .

وكان يقول : (أدنى التقوى الاحتجابُ بالحسناتِ عن السيئات ، وأعلاها الاحتجابُ بالحقِّ تعالىٰ عن الخلق ، وغايتُها الوافية الاحتجابُ بشهود الله الأحدِ عن رؤية سواه ، فافهم) .

وكان يقول : في حديث : « إنَّ اللهَ خلقَ الأجسامَ في ظلمةٍ ، ثمَّ رشَّ عليهمْ منْ نورِهِ »[١] : (ومعنىٰ كون الأجسام في ظلمة : أنها مراتبُ إبهام وإيهام ، مشابهاً من حيث جرمها الوهمُ البهيم ، والنورُ المرشوش عليها هو الروحُ ، فمثالُ الأجسامِ على الأرواح المرشوشة فيها من نورِ الله كنقابٍ أسودَ مغبرٍّ علىٰ وجهٍ مُبهجٍ أقمرَ ، فمن لم يرَ من ذلك الوجه إلا نقابَهُ لم يبتهجْ ، ولم يجد سروراً ، وكذلك أولياءُ الله تعالىٰ من رأىٰ أجسامَهم لم يبتهج بهم ، بل لم تزدْهُ تلك الرؤيةُ إلا غفلةً واستغراقاً في سوء الظنون بهم ، وقلَّة الأدب معهم ، وما ذاك إلا أنه حُجب برؤية الحجابِ عن رؤيةِ الأحباب) وأطال في ذلك .

وكان يقول : (إذا وجدتَ من كمالاتك في نظامه ووسائلها من حكمه وأحكامه . . فاعلمْ أنه مولاك ومربِّيك بوجوده ، وأستاذك وإمامك ووليُّك بموجوده ، فمن أي الجهتين شهدته فعامله علىٰ شاكلة شهودك ، ولكلٍّ مقام مقال) .

وكان يقول : (إذا تجلَّىٰ سرُّ الوجود بمخصوصٍ في زمان ، فقام به ناطقُهُ . . نادىٰ منادي تخصيصه في ملأ الأرواح والمعاني : « إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ بنىٰ لكمْ بيتاً ، فحجُّوه »[٢] ، فتأتي وفودُ المعاني والأرواح إلىٰ ذلك الناطق ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ قريب و﴿ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ بالتكميل بين يديه ، ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ الذي يلقيه إليهم زيادةً إلـٰهيةً ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ [الحج : ٢٧-٢٨] قبل ذلك) ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : (جميعُ ما تراه من المحقِّق راجعٌ إليك ، فمن رآه زنديقاً فذلك الرائي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٥٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٧٦) ، و« شعب الإيمان » (٣٧١٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

هو الذي سبقَ له في الغيب الأزلي أنه زنديق ؛ لأن المحقِّق مرآةُ الوجود ، وإن رأىٰ أنه صدِّيق فهو الذي سبقَ له أنه صديق في الغيب الأزلي ، وأما حقيقة ذلك المحقِّق فلا يراها إلا هو في كماله ، أو من هو محيطٌ به ، فافهم ، واعرف الحقَّ لأهله ، واشهدْه في مظاهره ، والزمِ القيامَ بحقِّه علىٰ قدر طاقتك تسلم ، وتغنم ، والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٣ـ ٤] : (القِلى : البغضُ ، والتوديعُ : البعد ؛ أي : عدمُ قلاه لك خيرٌ لك من عدم توديعه لك ، فـ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ هي الأولىٰ من هاتين الكلمتين ، و﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ هي الأخرى منهما ، وإنما كان كذلك لأن البعدَ مع المحبّة والرضا خيرٌ من القُرب مع البغض والغضب ، فافهم ، فمن جعل آخر أمره في كلِّ حالٍ خيراً له من أوله ، فهو محمَّديٌّ ، له نصيب من كنز ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ٤]) ، وأطال في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (الذاتُ شيءٌ واحدٌ ، لا كثرة فيه ، ولا تعدَّد بالحقيقة ، وإنما تتعدَّدُ الذات باعتبارِ تعيُّنها بالصفات تعدداً اعتبارياً فقط ، والتعدُّدُ الاعتباري لا يقدحُ في الوحدة الحقيقية ؛ كفروع الشجرة بالنظرِ لأصلها ، فافهم) .

وكان يقول في حديث : « منِ اغبرَّتْ قدماهُ في سبيلِ الله بعَّدَ اللهُ وجهَهُ عنِ النارِ سبعينَ عاماً »[1] : (يدخلُ فيه من مشىٰ مع وليٍّ لوجه الله تعالىٰ وابتغاءِ مرضاته ، فإن الله تعالىٰ يُبعِّدُ وجهَه عن النار حقّاً ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] : (أي : ومنكم من يُريدنا لا يُريد سوانا ، وفي الآية دليلٌ علىٰ أن المؤمن قد يُريد الدنيا ولا يقدحُ ذلك في أصلِ إيمانه ، قال : وكلُّ من كان طلبُه النعيمَ الجثماني بعد الموت فهو يُريد الدنيا ؛ فأهلُ الله تعالىٰ مجرَّدون عن المقامين ، فلم يُريدوا الدنيا ولا الآخرة ، لتعلُّق همَّتِهم بلا أين ، وما لا يقبلُ الشركة والبين

---

(١) رواه البخاري (٩٠٧) بلفظ : « منِ اغبرتْ قدماه : في سبيلِ اللهِ فهو حرامٌ على النارِ » عن سيدنا أبي عَبْسٍ رضي الله عنه .

لا ينقسم إلى اثنين ؛ لأن الأحدية الفردية أمرٌ ذاتي له لا قبله ، ولا بعده ، ولا معه عدد) ، وأطال في ذلك .

وكان رضي الله عنه يقول : (كما أن العبد من مولاه وجوداً فكذلك المولىٰ من عبده شهوداً « أنتَ منِّي وأنا منكَ »[1] ، فافهم ، واعرفْ والزم ، والله أعلم) .

وكان يقولُ : (المرادُ من العبد ذُلُّه الذي يظهرُ به عزُّ ربِّه ؛ ولذلك أُمِرَ بالتعبُّدِ ، فافهم ، فإذا فعلتَ ما يريدُهُ منك ربُّك فعل لك ربُّك ما تريدُهُ منه ، فاجعلْ مرادَكَ منه هو : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] فافهم) .

وكان يقول : (إذا بعتَ نفسَك لمظهرٍ من مظاهر الحقِّ المبين الهادي فلا تُخْفِ عنه شيئاً من عيوبك ؛ فإن البائعَ إذا بيَّن وصدق بُورك له في بيعه ، وإذا كذب وكتم مُحقَتْ بركةُ بيعه ، والمشتري إذا اشترىٰ بعدَ بيان العيبِ لم يبقَ له أن يردَّ السلعة ، وإذا اشترىٰ من غير بيانٍ كان له الردُّ ، ومن ثمَّ جاء في الخبر الصحيح : « منِ اعترفَ بذنبِهِ ثمَّ تابَ تابَ اللهُ عليه »[2] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (متىٰ رأيتَ مظهراً من مظاهر الحقِّ المبين في وصفٍ من الأوصاف فتوجَّه إليه بقلبك بوجهِ صدقٍ ومحبة ، واجعلْ نفسَك له عبداً خالصاً لله ؛ فإن لسانَ الحال منه يُنادي علىٰ أسماع الأفهام في ذلك الوقت : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] وحسبُ الذي صار عبداً لله أن العبدَ من مولاه ، وكفىٰ من كان محبّاً لله « أنَّ المرءَ معَ منْ أحبَّ »[3] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله عليه الصلاة والسلام لعليٍّ رضي الله عنه : « أنتَ منِّي ، وأنَا منكَ » : (أي : أنتَ منِّي وجوداً ؛ فإني أنا المتعيِّن بك لنفسي ، وأنا منك شهوداً ؛ لأنك الذي توجدني عرفاناً للمؤمنين المتعرِّفين ، وبذلك حصلتْ بينهما الأخوَّةُ في إفادة كلٍّ منهما الآخر ، فقال له : « أنتَ أخي في الدُّنيا والآخرةِ »[4] أي :

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٨٨) .

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠) .

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٢٧ ، ٧٠) .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٢٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

في زمن ختمِ النبوات ، وفي زمنِ ختم الولايات) .

وكان يقول : (عقلُ نفسِ المتعلِّم إنما هو تمثُّلُ عقلِ المعلِّم الفعال في تلك النفس عند ملاحظة مفيد ومستفيد) .

وكان يقول : (لسانُ حال كلِّ أستاذٍ ناطقٍ بالحقِّ المبين يقول لكلِّ مريدٍ صادقٍ : تقرَّبْ إليَّ حتىٰ أُحبَّك ، فإذا أحببتُكَ رأيتُك أهلاً لي ، فظهرتُ فيك بما أنتَ مستعدٌّ له ، فافهم) .

وكان يقول : (ما وجودُ المريد الصادق الذي هو به حقٌّ إلا عند أستاذه الناطق بالحقِّ المبين ، فإنْ تحقَّقَ المريدُ بأستاذه كان حقّاً ، وإلا فلا يزالُ خلقاً ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول وهو في عام أربعٍ وثمان مئة : (لم أجدْ إلى الآن مُريداً صادقاً يتقرَّبُ إلىٰ حقيقة حقِّه عندي بالنوافل حتىٰ أُحبَّه ، ولو وجدتُهُ لوافيتُهُ بحقِّه ، فأحببتُهُ ، فكنتُ هو ، فكيف بمريدي على المطابقة والتمام ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول في حديث : « أبو بكرٍ منِّي بمنزلةِ السَّمعِ ، وعمرُ بمنزلةِ البصرِ »[(١)] ، وبايع عن عثمان رضي الله عنه بيعة الرِّضوان بيده الكريمة ، وقال : « اللهمَّ ؛ هـٰذهِ يدُ عثمانَ »[(٢)] ، فعثمانُ منه بمنزلةِ اليد ، وقال : « لا يُبلِّغُ عنِّي إلا أنَا أو عليٌّ »[(٣)] ، فعليٌّ لسانه ، واللسانُ أخصُّ المراتب بالناطق ؛ فلذلك قال عليٌّ رضي الله عنه : أنا الصدِّيق الأكبر ـ يعني : للحقِّ المحمَّديِّ الصادق عليه ـ لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ ، ولما كان اللسانُ بابَ مدينة روح الكشف والبيان جاء في الخبر : « أنَا مدينةُ العلمِ ، وعليٌّ بابُها »[(٤)] ، وهـٰذا الخبر وإن كان في سندِهِ مقالٌ فإن شاهدَ الحال يشهدُ به ، وهو الثقةُ الأمين ، فافهم) .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في « الكبير » (١٣/ ٣٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٣) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٣٦٩٨) عن سيدنا عثمان بن عبد الله بن موهب رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٦٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٢٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال في قوله : ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ [يوسف : ٦٥] : (إذا وجدتَ أخاً في الحقِّ فاحفظْه تزددْ به ممن آخيته من أجله ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا جئتَ إلىٰ أئمة الهدىٰ فلا تأتهم إلا لتهتدي بهم ، ولا يحصلُ ذلك إلا بأن ترىٰ نفسَك علىٰ غوايةٍ وأنت مضطرٌ إلىٰ كشفِ غُمَّتِها بنور روح الهداية ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢]) .

وكان يقول : (من قامَ به روحُ العليم الحكيم تمامَ القيام فهو آدمُ عباد الله تعالىٰ في زمانه ، فيجبُ عليه القيامُ بمصالحهم كما يجبُ للأولاد علىٰ أبيهم ، ومن ثَمَّ لم يسعِ الأقطابُ وأئمة الهدىٰ أن يعتزلوا الناسَ ويقطعوا عنهم مددَ رحمتهم ورشدَ حكمتهم ، فحاشا مثلهم أن يضيِّع من يعول ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ولولا أوجبتْ لهم الرحمةُ ذلك ، وإلا فلِمَ صبروا علىٰ ما كذِّبوا وأوذوا ؟! ولـٰكن ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو لم يَصِرْ صدرُ أبي بكر من رِقٍّ وهمه عتيقْ ، لم يسع ما صبَّه الصدرُ المحمَّدي فيه من التحقيق ، وهـٰذا أصلُ تسميته عتيق ، فافهم) .

وكان يقول : (من أرادَ أن يظهرَ في هـٰذا الوجود دون سيِّده فجزاؤه الخفاء عكس ما قصد، ومن طلب الخفاء ليظهرَ مجدُ سيِّده جُوزي بالظهور وتفرُّد الكلمة ، فافهم) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] : (شاكلته هي مرتبته الوجودية ، فلا يمكن كائنٌ أن يخرجَ عن حكم مرتبته الوجودية ، وانظرْ كيف مَنْ شاكلتُهُ مرتبةُ جهلٍ وحجابٍ كيف كلَّما توغَّل في الفنون العلمية ، وتبحَّرَ في الكشوفات النظرية . . لا يزيدُهُ ذلك إلا شكّاً في الحقِّ ، وبعداً عن الصواب ، ومَنْ شاكلتُهُ مرتبةُ علمٍ وكشف ، كلَّما اعترضتْهُ الشكوكُ والأوهام . . انفتحَ له فيها أعينٌ يُبصر بها الحقَّ ، ويرىٰ بها الصوابَ ؛ إما بإلهامٍ ، أو بفهمٍ عن تعليمٍ ، وانظر مَنْ شاكلتُهُ شاكلةُ ضعةٍ كيف يتكبَّرُ ، فلا يزدادُ بتكبُّرِه في النفوس إلا ضعةً ، وهو مذمومٌ موزور ، وآخَرُ مرتبةُ شاكلته عزٌّ ، فلا يزيدُهُ التواضعُ إلا عزّاً ، وهو ممدوحٌ مأجور ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (وجهُ الحقِّ في لسانهم هو الوجهُ الذي شهدْتَهُ من

أستاذك ، فهو الوجهُ الذي تعرَّفَ الحقُّ به إليك ، فافهم) .

وكان يقول : (أوَّلُ من وصِفَ بالحسد بغياً ، والغرورِ حقداً ، وسوء الظن بربِّه ، والتحكُّم علىٰ أمرِ سيده ومعارضة علمه ، واختياره لهواه ووهمه . . هو إبليس ، فمهما وقعَ ممن بعده شيءٌ من ذلك فهو قرينُ إبليس ، فإن لم يعملْ بقول ذلك القرين فهو محفوظٌ منه ، وإلا فهو مصروعٌ معه ، وكلَّما قلَّتْ قرناءُ السوء كثرتِ القرناءُ الكريمة ، فافهم) .

وكان يقول : (المعاني أرواحُ الأعيان ، فما أرواحُ الكلم إلا ما تبيَّن فيها من الأحكام والحكم ، وعلىٰ قدرِ علوِّ هٰذه المعاني تكون حياةُ كمالِ هٰذه المعاني ، فمن منعَ العارفين بإنكارِهِ العنيف أن يبيِّنوا في الحديث الكلامي ما يأتون به من معنىً لطيف ، وروحٍ شريف . . فإنه عدوُّ ذلك الكلام ، بجهله يريد أن يذره ميتاً دارساً ، وهو يحسبُ أنه يحفظُهُ من اللغو والتحريف ، فيا أيُّها العارف ؛ إذا رأيتَ مَنْ هٰذا شأنُهُ فانزل له إلى اللفظ الذي ليس عنده من الحقِّ سواه ، وائتِ أنت بمواجيدِك ، وما أحوج العارفين إلى التعرُّضِ عن إظهار معارفهم في مظاهر ظواهر النصوص التي ليس بيد المنكرين من الحقِّ سواها ؛ فإن نفوسَ غالبِ الناس كثيفةٌ ، ومشاهدُ الحقِّ شريفةٌ ، ولا يؤذي الأستاذين بالإنكار إلا أصحابُ النفوسِ الكثيفة ، فافهم) .

وكان يقول : (مددُ أمرِ الأستاذ حبَّةٌ وضعها في أرض قبول تلميذه ، وسقاها بتفهيمه وتأييده ، فمهما ظهرَ من التلميذ أو عنه من ذلك فهو من ثمراتِ تلك الحبَّة ، ونتائج الحبة وثمراتها وإن كثرتْ إنما هي ملكٌ لغارسِ الحبَّة في أرضٍ يستحقُّها ، فكلُّ ما للتلميذ من أمر رشيد فإنما هو في الحقيقة حقٌّ لأستاذه ، فلا يظنُّ مريدٌ أنه ظفرَ بشيءٍ لم يظفر به أستاذه ، ومن ظنَّ ذلك فهو جاهل) .

وكان يقول : (انظرْ إلى السحاب كيف يتفرَّقُ وينحطُّ لجهة التراب ، فاجعلْ نفسَك بالعبودية تراباً . . يخدمْك من جعل نفسه بالرياسة سحاباً ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الترابُ محلُّ الراحة ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم : ٢٠] وانظرْ إلى الإشارة في تكنية عليٍّ بأبي تراب تجدِ العلوَّ في التنزُّل ، من لم يطرحْ نفسَه في التراب لم يسترحْ ، فافهم) .

وكان يقول في قوله : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف : ١٤٣] : (لولا وجدُ التجلِّي ما اندكَّ ، فإذا وجدتَ مَنْ خشعَ للحقِّ جهراً فاعلمْ أنه قد وجد الحق ؛ فلذلك خشع ، وإن لم يشعرْ هو ، واحفظْ له حرمةَ ذلك الوجدِ تسلمْ ، وتغنم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من شهدَ أن الأمرَ كلَّه لواحدٍ ما ثَمَّ فعلُ غيره وإيجاده ، ومطابق معلومه ومراده لم يرَ في العالم إلا صادقاً مطابقاً ، فليس عنده في العالم إلا الصدق ، لا ضده ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من شهدَ أن الوجودَ لا يُمكنُ أن يقومَ به نقيضُه ، ولا واسطةَ بينهما . . لم يشهدْ في الوجود إلا حقّاً ، وإن بطن شيء بعد ظهوره لشيءٍ ، أو ظهر له بعد بطونِهِ عنه ، ومتىٰ تمَّ لهـٰذا شهودُه وكمل لم يشهدْ إلا واحداً ، وشاهدُهُ مشهوده ، فافهم) .

وكان يقول : (من حدَّدَ عدَّد ، ومن جرَّدَ وحَّد ، ومن تمكَّنَ من التصرُّف بالحكمة في أحكام الأمرين أُطلقَ وقيِّد ، وذلك هو الحقُّ المبين ، فافهم) .

وكان يقول : (صورُ الخيرات ملكية ، وصورُ الشرور شيطانية ، فأيُّما صورةِ خيرٍ عرضَ لها ما به تكونُ سيئةً فإنها شيطانٌ تشكَّل بصورةٍ ملكية تشبُّهاً وتلبُّساً ، وأيُّما صورة شرٍّ عرض لها ما به تكونُ حسنةً فإنها شيطانٌ أعانَ الحقُّ عليه فأسلمَ ، فهو لا يأمرُ صاحبَه إلا بخيرٍ ، مثالُ هـٰذا صورةُ الكذبِ شيطانيةٌ ، فإذا كذبَ لإصلاحِ ذات البين ، أو لإقامةِ حقٍّ من حقوق الربِّ كحقن دمٍ أو نصرةِ مظلوم ، أو كفِّ ظالمٍ عن ظلمه ، وما أشبه هـٰذا . . فتلك الصورةُ الشيطانيةُ حينئذٍ مسلمٌ لا يأمرُ إلا بخيرٍ ، وقسْ علىٰ هـٰذا ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا ظهرَ الوجودُ في موجودٍ بوصفٍ أحبَّ أن يوافق ، ومتىٰ خُولف فارقَ ، فمن ثَمَّ لا تعيبُ علىٰ موجودٍ أمرَهُ إلا كرِهَ منك ذلك ، ولا يقبلُ منك إلا أن تسلمَ له ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥] فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الجنانُ درجاتٌ أعلاها الفردوس التي سقفُها عرشُ الرحمـٰن الربِّ الأعلى الذي يُطعِم ولا يُطعَم ، ومنه يأتي لأهلِ كلِّ جنةٍ ما لا عينٌ ـ

منهم ولا ممن دونهم ـ رأت ، ولا أُذنٌ من ذلك سمعت ، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر من أولـئك ، فالعرشُ عنده ما لا يعلمُهُ إلا رحمانه الحق المجرَّد ، والفردوسُ عنده من الرحمـٰن ما جاءه بواسطة العرش ، فلا يطَّلعُ عليه إلا العرش وأهله ، والجنة التي سقفُها الفردوسُ عند أهلها من الرحمـٰن بواسطة الفردوسيين ما لا عَلِمَه ولا أدركه إلا أهلُ العرش وأهل الفردوس ، وهـٰكذا إلىٰ آخرِ الزمان ، فأدناها أدناها عطاءً ، وأعلاها أعلاها علاءً ، وأهلُ كلِّ جنةٍ يرون سقفَها عرشَ الرحمـٰن ؛ لأنهم لا يرون ربَّهم الرحمـٰن إلا في مظاهره) ، وأطال في ذلك .

وكان يقول : في قول أبي يزيد رضي الله عنه (حججتُ ، فرأيتُ البيتَ ، ولم أرَ ربَّ البيت ، ثم حججتُ ثانيةً ، فرأيتُ البيتَ ، ورأيتُ ربَّ البيتَ ، ثم حججتُ ثالثةً ، فرأيتُ ربَّ البيت ، ولم أرَ البيت) انتهىٰ قال : (لو أن أبا يزيد عرفَ الحقيقةَ حقَّ معرفتها لأنزلَ كلَّ شيءٍ منزلته ، ولم يغبْ عنه أنَّ الكلَّ واحدٌ إذا رأى العدد ، ولا غابَ عنه العددُ إذا رأى الواحد ، فافهم) .

وكان يقول : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴾ [الصافات : ٥] : (أي : له في كلِّ دائرةٍ مشرقٌ لا يعرفُهُ أهلُ تلك الدائرة إلا من ذلك المشرق ، ولا تسجدُ له إلا من تلك الجهة ؛ فالفقهاءُ مشارقُ الربوبية للجحيميين ، والصوفيةُ مشارقُ الربوبية للفقهاء ، وأهلُ الذوق الباطنِ مشارقُ الربوبية للصوفية ، وهـٰكذا إلىٰ أعلى المشارق ، وهم نواطقُ التحقيق ، فلا يحاول من عبدٍ سجوداً للربِّ إلا إن أتاه من مشرق دائرته ، وهو الصورةُ التي إذا أتاه فيما فوقها قال له : أعوذ بالله منك ، ما أنت ربِّي ، فإذا تحوَّلَ له فيها قال : أنت ربِّي ، وخرَّ له ساجداً ؛ لأنَّه تحوَّلَ له في الصورة التي يعرفه بها ، وفيها ، فافهم)(١) .

وكان رضي الله عنه يقول : قال بعضهم في حديث : « ما تركتُ شيئاً يُقرِّبُكمْ إلى اللهِ إلا وقدْ بيَّنتُهُ لكمْ . . . »(٢) إلىٰ آخره ، فعلىٰ هـٰذا كلُّ شيءٍ لا يوجدُ في

---

(١) يلمح إلىٰ حديث طويل رواه البخاري (٤٥٨١) ، ومسلم (١٨٣/ ٣٠٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٧٣) ، =

الكتابِ ، ولا في السنة فليس بخيرٍ ، ويؤيِّدُهُ « كلُّ عملٍ ليسَ عليهِ أمرُنا فهوَ ردٌّ »[(١)].

قلت : هٰذا صحيح لو قامَ دليلٌ علىٰ أنَّ كلَّ ما بيَّنَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ودلَّ عليه . . نُقل عنه وبلغنا ، لٰكنَّ الصحابة قد اعترفوا بأنهم نَسوا كثيراً ، وأخفوا أشياءَ رأوا المصلحةَ في إخفائها ، ومع هٰذا كيف يعرفُ أن ما لا وجدنا له ذكراً فيما بلغنا من السُّنة ليس ممَّا بيَّنه ودلَّ عليه الشرع ، ولم يبلغنا ؟! وإذا لم نعرف ذلك فكيف نحكمُ أنه ليس بخيرٍ ؟! لٰكنَّ الحقَّ أنَّ ما وجدنا له أصلاً ولو علىٰ بعدٍ ، ولم نجد صريحاً يُبطله . . فهو خيرٌ ، وما لا نجدُ له أصلاً ولا مُبطلاً فهو موقوفٌ موكولٌ أمرُه إلى الله تعالىٰ ، وما وجدنا له مُبطلاً فالأصلُ بطلانه بذلك حتىٰ يأتي ما يُصحِّحُه ، ولعلَّ من قال بصحَّةِ العملِ بالإلهام فيما يُبطله بعضُ العمومات أو النصوص يخصِّصُ تلك المبطلات بقصَّة الخضر عليه السلام وأمثالها ، ولقد أنصف من قال في أصحاب الأحوال : إنَّنا نُسلِّمُ لهم أحوالَهم ، ولا نقتدي بهم حيث لم نجد ما يُبطلها ، ولا ما يُصحِّحُها .

وكان يقول : (من توهَّمَ في نفسه الكبرياءَ والعظمة فلا فرقَ بينه وبين من قال ﴿ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الأنبياء : ٢٩] وكفىٰ بذلك افتراءً) .

وكان يقول في حديث : « وأعوذُ بكَ أنْ أُغتالَ منْ تحتِي »[(٢)] : (أي : أعوذُ بك أن يتغلَّبَ مَنْ مرتبتُهُ دون مرتبتي عليَّ بتحكُّمه حتىٰ يُخرجَني من نفوذ حكمي بالدخول في قيودِ حدود مرتبته ، فهٰذا هو الاغتيالُ من تحت ، وهٰذا هو حقيقةُ قوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر : ٧٤] فافهم) .

وكان يقول : (المحقِّقُ المجرَّدُ المُطلق يُخاطبُ كلَّ أهل مرتبةٍ بلسانها ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ، فيخاطبُ أهلَ الخبر بخبرهم ، وأهل النظرِ بنظرهم ، وأهلَ الذوق بذوقهم) .

= والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩١) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(١) روى البخاري تعليقاً بصيغة الجزم قبل الحديث (٢١٤٢) ، ومسلم (١٧١٨) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) حديث رواه أبو داود (٥٠٧٤) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

وكان يقول : (**علامةُ الذِّكر بالحقِّ** : أن يأتيك من الحقِّ بما إذا بيَّنْتُهُ لك تجده في قلبك ثابتاً كأنه لم يزلْ متحقِّقاً عندك إلا أنك نسيتهُ بعارضٍ ، ثم لمَّا بيَّن لك بذلك البيان ذكرتَه ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١] . **فافهم**) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٠] : (أي : لأن كمالَ التابع أن يتحقَّقَ بمتبوعه ، وطريقُ ذلك المحبةُ والتعظيم ، ومن توابعها مطابقةُ إرادةِ المحبِّ لإرادةِ محبوبه ، فلا يسبقُهُ بقولٍ ولا فعل ، وأيضاً فإنَّ التابع إذا سألَ متبوعَه عما لم يحدثْ له منه ذكراً . . فقد تقتضي حكمةُ المتبوع ألا يُجيبَ التابع عن ذلك ، فإنْ أجابه حصلَ الضررُ بمخالفة الحكمة ، وإن لم يجبه فلا يؤمنُ من ثوران نفسِ التابع ، فيكدِّرُ عليه صفاءَ المودة ، ويقطعُ عليه طريق المطلوب من متبوعه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الذكرُ : البيان ؛ وهو إلـٰهيٌّ ذكرُ الله ، ورحمانيٌّ ذكرٌ من الرحمـٰن ، وربانيٌّ ذكرٌ من ربِّهم ورحمة ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : ٢] ولم يُوصف في لسان القرآن بالحدوث من هـٰؤلاء إلا ما دون ذكر الله تعالىٰ ، فأيما ذكرٍ وُصِفَ بالحدوث فهو من إحدىٰ تلك الدوائر ، فافهم) .

وكان يقول : (ليس لك من كلام العارفِ الحقِّ إلا ما فهمتَ منه ، وليس لك منه إلا ما شهدْتَه فيه ، فاعملْ علىٰ أن تتحقَّقَ بأستاذك ، فتقوم حقّاً لا خلقاً ، فافهم) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ . . . ﴾ الآية [البقرة : ٢٦٠] : (**الكلامُ عليها من وجهين ؛ أحدُهما** ما يقتضيه ظاهرُ اللفظ ، **والثاني** ما يقتضيه حقيقته ، **فأما الأول ففيه أسئلةٌ** :

الأول : ما الحكمةُ في كون إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام مع فضلِهِ على الذي ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ سألَ أن يُريه ربُّه كيف يُحيي الموتىٰ ، وذلك أُري ذلك بلا واسطة سؤال ، فقيل له ابتداءً : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ . . . ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٩] .

والجواب : إن الذي مرَّ على القرية حصلَ منه سؤال من غير تعيين مسؤول منه ، فقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] وذلك إما لغفلتِهِ ، أو لجهله إن لم

يكن نبياً ، وإلا لشغله بالتعجُّب إن كان نبيّاً ، أو غير غافلٍ ولا جاهل ، وأراه الله ُما أراه بياناً وكشفاً لا من حيث يظهرُ أنه إجابةٌ لسؤاله ، وأراه ذلك بعد أن أماتَهُ مئةَ عام ثم بعثه ، فلم يرَ ذلك إلا في حال بعث بعد الموت) .

وأما إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام فتوجَّه بسؤاله إلى الحقِّ قصداً لكمال حضوره ، وأعطىٰ مسؤوله إجابةً لسؤاله على الفور ، كما دلَّ عليه قوله ﴿ فَخُذْ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] فأتىٰ بالفاء المقتضية للفورِ تنويهاً بالاعتناءِ بأمره ، وإظهاراً لكرامته ، ورأىٰ قبل الموت والبعث منه ما لا رآه ذلك إلا بعد البعثِ من الموت ، فظهر فضلُهُ بذلك على الذي مرَّ على القرية .

السؤال الثاني : فيما وقع الاستدراك بقوله : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] وما المرادُ بالاطمئنان للقلب هنا ؟

الجواب : أن الاستدراك وقعَ من نفي كون السؤال لعدمِ الإيمان وتقرير كونه لاطمئنان القلبِ فقط ، والمرادُ بالاطمئنان السكونُ من قلقِ التشوُّف لحصول هـٰذا المسؤول والتشوُّف لقضاء الوطرِ منه ، لا السُّكون من قلقِ تردُّدٍ وشكٍّ فيه .

السؤال الثالث : ما وجهُ تقريرٍ يُوجبه مقابلةَ سؤاله هـٰذا بأن يُقال له : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة : ٢٦٠] وقد سبق الإخبارُ عنه بأنه المصطفىٰ في الدنيا ، وأنّه في الآخرة لمن الصالحين ؟

والجواب : أنَّ ﴿ أَرِنِى ﴾ تُستعمل تارةً في طلب مشاهدة كيفية المعلوم المتحقِّق بالبرهان لتتحقَّقَ مع ذلك بالعيان ، ويستعملُ أيضاً هـٰذا في الإفحام والتعجيز ؛ لعدم اعتقادِ وجودِ صاحب ذلك الكيف ، أو إمكانه ، كما تقولُ لضعيفٍ ادَّعىٰ حملَ صخرةٍ كبيرة وحده : أرني كيف تحملها ؟! وأنت تعتقدُ أنه لا يستطيعُ حملها ولا يمكنه ، وإبراهيمُ عليه السلام لم يردْ هـٰذا الثاني ، ولا بطريقِ توهُّمه ، وإنَّما اقتضتْ حكمةُ الربِّ بعباده أن قال لإبراهيم : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] فحفظَ عبادَهُ المؤمنين بذلك عند سماعَ هـٰذه الآية من أن يُخالطَهم الوهمُ بذلك الظنِّ السُّوء في حبيبٍ من أحباب الله ، فيَهلكوا ولا يشعرون ، ويجوز أن يكونَ وقوع هـٰذا السؤال قبلَ الإخبارِ بآية الاصطفاء ، والله أعلم .

السؤال الرابع : ما الحكمةُ في تعيين الأربعة دون غيرها من العددِ ؟ وما الحكمةُ في تعيين جنس الطيرِ دون غيره ؟

والجواب : أنَّ عددَ الأربعة أَجمعُ للأعداد ؛ لأنه مجموعٌ من الفرد البسيط وهو الواحدُ ، والفردِ المركَّب وهو الثلاثة ، والزوجِ البسيط وهو الاثنان ، والزوج المركب وهو الأربعة ، فكان فيه تذكيرٌ بقيام الخلق لربِّهم مثنىٰ وفرادىٰ ؛ مثنى : اثنان بسيطان ، واثنان مركبان ، وفُرادىٰ : فردٌ بسيط ، وفردٌ مركَّب ، وفيه تذكيرٌ بأصناف المبعوثين أيضاً ؛ فمنهم كافر ، ومنهم مؤمنٌ ظالمٌ لنفسه ، أو مقتصدٌ مخلِّط ، أو سابقٌ بالخيرات[1] ، وإنما خصَّ الطيرَ لأنه أشدُّ الحيوانات نفوراً ، وأَقدرُهم على الفرار والتباعد عما ينفرون منه ، فإذا دعا هـٰذا الجنس ، وأجابه ، وأتاه يَسعىٰ كان ما دونَهُ أولىٰ ، وكان ذلك أعظمَ آيةٍ من غيره ، والطيرُ أيضاً أقلُّ رطوبةً من باقي الحيوانات ، وميتتُهُ أسرعُ جفافاً ، فيتيقَّنُ معه عدمُ الحياة الجسمانية منه باطناً وظاهراً .

السؤال الخامس : ما الحكمةُ بتخصيص الجبال بهـٰذا الجعل في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] هل الظاهرُ إرادةُ جميع الجبال ، أو أربعة أجبل فقط ، أو غير ذلك ؟ وما وجهُ كلِّ واحدٍ من هـٰذه إنْ كان هو الظاهر ؟

والجواب : المرادُ جبالٌ بعددِ الأجزاء التي يُجزِّئُها إليها ؛ إن كانتْ كثيرةً فكثيرة ، أو قليلة فقليلة ، بدليل قوله : ﴿ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ولم يأمره بتعيينهنَّ[2] ، فحَمْلُ الأمرِ علىٰ جميع الجبال متعذِّرٌ عادةً ، والظاهرُ أن المرادَ أن يجعلَ علىٰ كلِّ جبلٍ جزءاً لا بعينه من كلِّ واحدٍ منهن ؛ لأن ذلك هو المناسبُ للقصة ، وما فيها من رؤية ذلك الأمر العجيب .

السؤال السادس : ما الحكمةُ بالإتيان بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ ﴾ ؟ وما الحكمةُ في تعليق إتيانهم إليه علىٰ دعائه إيَّاهن ، ولم يحيين فيأتين من غير دعاءٍ

---

(١) قال تعالىٰ في سورة فاطر (٣٢) : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

(٢) في (ز ، ح) : (بتقطيعهن) .

لهنَّ منه ؟ وما الحكمة في إتيانهن ولم يكتف بطيرانهن حيث شِئنَ أو إتيانهن غيره ؟ وما الحكمةُ في إتيانهنَّ إليه ساعيات لا طائرات ، ولا ماشيات علىٰ هون إنْ كان سعياً متعلّقاً بهن ؟ وإن كان متعلِّقاً به هو فما الحكمة في حصول ذلك منهن وهو يسعىٰ ، أو دعائه لهنَّ وهو يسعىٰ ؟

والجواب : أنه جيءَ بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ ليحصلَ بكونهنَّ على الجبال مهلةٌ ، فلا يَبقىٰ في عدم الحياة منهنَّ لطولِ المكث في محلِّ الجفاف ريبٌ ما ، ولو لوحظ في جعلهنَّ على الجبال التي هي بلا حائل عن الشمس التي كانت النمروذية ينسبون الآثار إليها ، وتركها هناك برهةً حتىٰ يعلمَ أن الشمس لا تأثير لها حيثُ كنَّ منها بمطلعٍ ، ولم يحيين ، ولمَّا دعاهنَّ داعي الحقِّ أجبنه وأتينه سعياً لكان قولا حسناً .

وأما تعليقُ إتيانهن إليه علىٰ دعائه لهنَّ ففيه إرشادٌ إلىٰ أن إحياءَ الموتىٰ يكونُ بدعائهم ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] لـٰكنَّ الدعاءَ من الله تعالىٰ بالكلامِ النفساني اللائق به تعالىٰ يقومُ مقام الكلام اللِّساني في إيصال المراد إلى المدعو ، فجعلَ الكلامَ اللِّساني هنا من إبراهيم عليه السلام مظهراً للكلام النفساني من الحقِّ تعالىٰ في إحياء الموتىٰ بالدُّعاء ؛ ليتمكَّنَ من رؤية الإحياء برؤية نفسه حين الكلام ؛ إذ كان مظهرُ اسمه المحيي ، فلولا دعا بالقولِ لم يكنْ عنده من مظاهر الإحياء ما يحسُّ ، فيحسُّ الإحياءُ بإحساسه ؛ لأنه في مظهره ، هـٰذا مع ما في إحيائها بدعائه من البرهان الساطع علىٰ بطلان مذهب خصومه في الدين ما لا يخفىٰ ، ولو لم يكن ذلك مع قوله المسموع المتيقَّن بالحسِّ لأمكنهم مكابرته في أن ذلك الإحياءَ في غيرِ ما ينسبونه إليه ، وأما إتيانهنَّ ففيه تذكيرٌ بما أخبر به مُحيي الموتىٰ من قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٥٢] أي تُحشرون إليه .

وأما سعيُ الطائر في تحدُّرِهِ من الجبل فهو أبلغُ في قوَّته ، وتمامِ حياته ، وصحَّته من غير ذلك ، فكان سعيهنَّ هـٰذا دليلاً علىٰ أنهنَّ عدنَ إلىٰ أتمِّ ما كنَّ عليه ، وفيه تذكيرٌ بـ ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] وبحشر المبعوثين من الأجداث سراعاً) ، وأطال في ذلك إلىٰ خمسةٍ وعشرين سؤالاً وجواباً ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (من سياسةِ الداعي إلى الله أن يؤلِّفَ الناسَ عليه أولاً

بالإحسان ، وطيبِ الكلام ، وتخفيف المأمورات ، فإذا رَسخوا فله التحكُّمُ فيهم كيف شاء ، وعليه يُحملُ أمرُ بعض العارفين لمريده أن يعتزلَ زوجته وأولاده وعشيرته إذا خافَ عليه الفتنةَ والشغلَ عن الله تعالىٰ ، ولهٰذا وجبتِ الهجرةُ من أرض الفتنة) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] : (هٰذه الآيةُ تدلُّ علىٰ نفي الجهةِ عن الله تعالىٰ ، ووجهُ الدلالة : أنَّ قاعدةَ الترقِّي تقتضي أن يكون الاطلاعُ علىٰ ما في الأرضِ للأرض أقربَ من الاطلاعِ علىٰ ما في السماوات ، فلو كانتِ السماءُ جهةً لله لم تؤخَّرْ في الآية ؛ إذ لا يحسنُ أن يُقال : لا يخفىٰ على الملكِ شيءٌ في البلاد القاصية ولا في بيته أو بلده ، وإنما يحسنُ أن يُقال : لا يخفىٰ عليه شيءٌ في بلده ، ولا في البلاد القاصية عن بلده ، فلو كان للحقِّ جهةٌ لاقتضتْ هٰذه الآية جهته ، لٰكن نحن متوافقون علىٰ أنَّ الحقَّ تعالىٰ منزَّهٌ عن جهةِ الأرض ، والآية تدلُّ علىٰ أنَّه تعالىٰ منزَّهٌ عن جهة السماء فما فوقها ولا جهة غيرهما ، فلا جهةَ للحقِّ أصلاً ، فافهم) .

وكان يقول : (من نسبَ إلىٰ نفسه الإمكانيةَ فقد نسبه إلىٰ محلِّ الزوال والفناء ، فهو عرضةُ الزوالِ والمحو ، ومن نسبَ الأمرَ إلىٰ مولاه الحقِّ الواجبِ فقد نسبه إلىٰ حضرةِ البقاء والدوام ، فهو في مراتبِ البقاء باقياً دائماً ، فانسبْ لنفسك أيُّها العبدُ ما تحبُّه أن يزول ويفنىٰ ، وانسبْ لربِّك الحقِّ ما تحبُّ أن يدوم ويبقىٰ) .

وكان يقول : (من شغلَهُ الحقُّ به لم يشغلْه شيء عنه أقامه فيه من الخلق ؛ لأنه في ذلك بظاهره ، وأما باطنُه فعندَ ربِّه ، يقول الله عز وجل في العبد إذا نام في سجوده : « انظرُوا إلىٰ عبدِي جسمُهُ بينَ يدَي ، وروحُهُ عندي ، فيُباهي بِهِ ملائكتَهُ حيثُ لَمْ يشتغلْ بسجودِهِ عنْ معبودِهِ »[1] ، فافهم) .

وكان يقول : (إذا دعوتَ ربَّك ولم تُجبْ فذلك لعدمِ صدقِ اضطرارك عند الدُّعاء كما وجب) .

وكان يقول : (يجبُ علىٰ أئمة الهدىٰ ألا يقطعوا مددَهم وغذاءَ حكمتهم عن

---

(١) لم أجد الحديث في المصادر التي بين يدي .

العباد ؛ فإنهم عياله ، والكريمُ لا يضيِّعُ عياله) .

وكان رضي الله عنه يقول : (السرُّ في المتكلِّمِ لا في كلامه ، فمتى انبسطَ المتكلِّمُ إلى السامع انشرحَ له كلامه وإن قلَّ ، ومتى انقبضَ المتكلِّمُ لم تنبسطْ للسامع معاني كلامه وإن كثر ، والكلامُ صفةُ المتكلِّمِ ، فمن وجدَ الموصوفَ وجدَ صفته ، وإلا فلا ؛ إذِ الصفةُ متى انفصلتْ عن موصوفها زالتْ مرتبتُها ، وغاب عينها ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قوَّةُ الاعتقادِ موجبةٌ لقبولِ النُّصح ، وعدمُ الاعتقاد أو ضعفُه موجبٌ للردِّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا بدَّ لكلِّ إمامِ حقٍّ أن يقابلَهُ إمامُ باطل ، فآدمُ عليه السلام قابله إبليس ، ونوح عليه السلام قابله حام وغيره ، وإبراهيمُ قابله نمروذ ، وموسىٰ عليه السلام قابله فرعون ، وداودُ عليه السلام قابله جالوت وأضرابُهُ ، وسليمان عليه السلام قابله صخر ، وعيسىٰ عليه السلام قابله في حياته الأولىٰ بختنصَّر ، وفي الثانية الدجال ، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن له مقابلٌ حقيقةً ؛ لإتيانه صلى الله عليه وسلم بالإحاطة الخفية ، كما قال ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] فهو حقٌّ قُذفَ به على الباطل ، فإذا هو زاهقٌ ، حتىٰ قال أبو جهل : واللهِ ؛ إنِّي لأعلمُ أن محمداً صادقٌ ، فلم يعدُّوه مقابلاً ، فافهم) .

وفي هٰذا القدر كفاية من كلامه رحمه الله ورضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٠) سيدي يوسف العجمي الكُوراني رضي الله عنه[1]

وهو أوَّلُ من أحيا طريقةَ الشيخ الجُنيد رضي الله عنه بمصر بعد اندراسها .

وكان ذا طريقة عجيبةٍ في الانقطاع والتسليك ، وله التلامذةُ الكثيرة ، وعدَّةُ زوايا .

---

(١) انظر « طبقات الأولياء » (ص ٤٩٢) ، و« الدرر الكامنة » (٤/ ٤٦٣) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٠٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٩) (٣٦١) ، و**كُوران** : من قرىٰ أسفرايين ، من نواحي نيسابور . « معجم البلدان » (٤/ ٤٨٩) .

مات في زاويته بالقَرَافة الصُّغرىٰ في يوم الأحد نصف جُمادى الأولىٰ سنة ثمان وستين وسبع مئة ، وصلَّىٰ عليه خلقٌ لا يُحصون .

وأخذ العهدَ ، ولبسَ الخرقةَ عن الشيخ نجم الدين محمود الأصفهاني ، وعن الشيخ بدر الدين حسن الششتريِّ[1] ، وتلقَّن الذكر ، وهو (لا إلـٰه إلا الله) عليهما ، وهي سلسلةُ الشيخ الجُنيد رضي الله عنه .

ولما ورد عليه واردُ الحقِّ بالسَّفر من أرض العجمِ إلىٰ مصر فلم يلتفتْ إليه ، فورد ثانياً فلم يلتفتْ إليه ، فورد ثالثاً ، فقال : اللهم ، إنْ كان هـٰذا واردَ حقٍّ ؛ فاقلبْ لي عينَ هـٰذا النهر لبناً حتىٰ أشربَ منه بقصعتي هـٰذه ، فانقلبَ النهرُ لبناً ، وشرب منه ، ثم ذهبَ إلىٰ مصر .

وكان سيدي حسنُ الششتريُّ رضي الله عنه أقدمَ منه هجرةً عند الشيخ ، وكان يقاربُهُ في الرتبة ، وقيل : إنه كان أرقىٰ منه درجةً ، فلحقه بأرض مصر ، فقال له سيدي يوسف : يا أخي ؛ الطريقُ لا تكونُ إلا لواحدٍ ، فإمَّا أن تبرزَ أنت للخلقِ وأكونُ أنا خادمكَ ، وإما أن أَبرزَ أنا وتكونَ أنت خادمي قياماً لناموس الطريق ، فقال له سيدي حسن رضي الله عنه : بل ابرزْ أنت ، وأكونُ أنا خادمك ، فبرز سيدي يوسف رضي الله عنه ، وأبرز بمصر الكرامات والخوارق .

وكانت طريقتُهُ التجريدَ ، وأن يُخرجَ كلَّ يومٍ فقيراً من الزاوية يسألُ الناسَ إلىٰ آخر النهار ، فمهما أتىٰ به فهو يكون قوتَ الفقراء ذلك النهار كائناً ما كان ، وكان يوم الفقراء يأتي أحدُهم بالحمارِ محمَّلاً خبزاً وبصلاً وخياراً وفجلاً وجبناً ولحماً ، ويوم سيدي يوسفَ يأتي ببعضِ كُسيراتٍ يابسة يأكلُها فقيرٌ واحدٌ ، فسألوه عن ذلك ، فقال : أنتم بشريَّتُكم باقية ، وبينكم وبين الناس ارتباطٌ ، فيعطونكم ، وأنا بشريَّتي فنيتْ حتىٰ لا تكادَ تُرىٰ ، فليس بيني وبين التجار والسوقة وأبناء الدنيا كبيرُ مجانسة .

---

(١) في (أ ، ب ، ج ، د) في هـٰذا الموضع : (الشمشيري) ، وفي « طبقات المناوي » : (الششري) ، وستأتي ترجمته بعد هـٰذه الترجمة مباشرة .

وكان صورةُ سؤاله أن يقفُ على الحانوت أو الباب ، ويقول : الله ، ويمدُّها حتىٰ يغيبَ ، ويكادَ يسقطُ إلى الأرض ، فيقول من لا يعرفه : هـٰذا العجمي راح في الزية .

وكان رضي الله عنه يُغلقُ بابَ الزاوية طولَ النهار ، لا يفتحُ لأحدٍ إلا للصلاة ، وكان إذا دقَّ داقٌّ البابَ يقول للنقيب : اذهبْ فانظرْ من شقوق الباب ، فإن كان معه شيءٌ من الفتوح للفقراء فافتح له ، وإلا فهي زياراتٌ فشارات ، فقال له إنسانٌ يوماً في ذلك ، فقال : أعزُّ ما عند الفقير وقتُهُ ، وأعزُّ ما عند أبناء الدنيا مالُهم ، فإن بذلَوا لنا ما لَهم بذلنا لهم وقتَنا .

وكان رضي الله عنه إذا خرجَ من الخلوة يخرجُ وعيناه كأنهما قطعةُ جمرٍ تتوقَّدُ ، فكلُّ من وقع نظرُهُ عليه انقلبتْ عينُهُ ذهباً خالصاً ، ولقد وقعَ بصرُهُ يوماً علىٰ كلبٍ فانقادتْ إليه جميعُ الكلاب ، إن وقفَ وقفوا ، وإن مشىٰ مشوا ، فأعلموا الشيخَ بذلك ، فأرسلَ خلفَ الكلب ، وقال : اخسأْ ، فرجعتْ عليه الكلابُ تعضُّه حتىٰ هربَ منها .

ووقع له مرَّةً أخرىٰ أنه خرجَ من خلوةِ الأربعين ، فوقع بصرُهُ علىٰ كلبٍ ، فانقادتْ إليه جميعُ الكلاب ، وصار الناسُ ينذرونه في قضاءِ حوائجهم ، فلمَّا مرضَ ذلك الكلبُ اجتمعَ حوله الكلابُ يبكون ، ويُظهرون الحزنَ عليه ، فلما ماتَ أظهروا البكاء والعويل ، وألهمَ اللهُ تعالىٰ بعضَ الناس ، فدفنوه ، فكانت الكلابُ تَزور قبره حتىٰ ماتوا ، فهـٰذه نظرةٌ إلىٰ كلبٍ فعلَتْ ما فعلت ، فكيف لو وقعتْ علىٰ إنسان ؟!

وهرب بعضُ مماليك السلطان عنده خوفاً من السلطان ، فأرسلَ يقول للسلطان : اصفحْ عن هـٰؤلاء ، فقال : إن كنتَ فقيراً فلا تدخلْ في أمرِ السلطنة ، فطلبَ السلطانُ منه مماليكه ليردَّهم ، فلم يفعلْ ، فقال : أنت تُتلفُ مماليك السلطان ، فقال : إنما أنا أصلحُهم ، فنزلَ إليه السلطانُ ، فأخرج له الشيخُ مملوكاً منهم ، وقال له : قلْ لهـٰذه الأسطوانة كوني ذهباً ، فقال لها ذلك ، فصارتْ ذهباً يراه السُّلطان بعينه ، فاستغفرَ ربَّه في حقِّ الشيخ ، وقبَّل رجلَ الشيخ ، وقال له الشيخ : هـٰذا صلاحٌ أو فساد ؟! فعرض على الشيخ أرزاقاً يُوقفها على الفقراء ، فأبىٰ ، وقال : لا أعودُ أصحابي علىٰ معلومٍ .

وأنشد فيه الشيخ يحيى الصَّنافيري حين وقع بينه وبينه ما وقع في معارضة الشيخ يوسف في دخول مصر : [من الوافر]

أَلَــمْ تعلَــمْ بــأنِّــي صَيــرفــيٌّ ... أَحــكُّ الأَوليــاءَ علــىٰ مِحَكِّــي

فمنهــم بَهْــرَجٌ لا خيــرَ فيــه ... ومنهــم مــن أُجَــوِّزُهُ بشكِّــي[(١)]

وأنتَ الخالصُ الذَّهبُ المُصَفَّىٰ ... بتــزكيتــي ومثلــي مَــنْ يُــزَكِّــي[(٢)]

ومنهم :

(٣٢١) الشيخ حسن الششتري رضي الله عنه[(٣)]

تلميذُ الشيخ يوسف العجميِّ ، وأخوه في الطريق ، جلسَ للمشيخة بعده في مصر وقراها ، وقصدتْهُ الناسُ من سائر الآفاق .

وكان ذا سمتٍ بهيٍّ ، وكمالٍ في العلم والعمل ، وانتهتْ إليه الرياسةُ في الطريق .

وكان السلطانُ ينزلُ إلىٰ زيارته ، فلم يزلِ الحاسدون من أرباب الدولة وغيرهم بالسلطان حتىٰ غيَّروا اعتقاده فيه ، وهمَّ بحبسِهِ أو نفيه ، فأرسل الوزيرَ إلىٰ زاويتِهِ ليسدَّ بابها ، وكان الشيخُ خارجَ مصر في المطرية هو والفقراء[(٤)] ، فرجعوا فوجدوا الباب مسدوداً ، فقال الشيخ : من سدَّ هـٰذا الباب ؟! فقالوا : سدَّه الوزيرُ فلان بأمر السلطان ، فقال : ونحن نسدُّ أبوابَ بدنه وطيقانه ، فعميَ الوزير وطرش وخرس ، وانسدَّ أنفُهُ عن خروج النَّفَسِ ، وقُبله ودُبره عن البول والغائط ، فماتَ الوزيرُ في الحال ، فبلغ ذلك السلطانَ ، فنزل إليه وصالحه ، وفتح له الباب .

---

(١) في « طبقات المناوي » : (أجوِّده) بدل (أجوزه) .

(٢) تقدمت الأبيات (٢/ ٦٦) .

(٣) في (أ ، ج) : (التستري) بدل (الششتري) . انظر « تاريخ ابن قاضي شهبة » (١/ ٦٣١) ، و« إنباء الغمر » (٣/ ٣٤٥) ، و« السلوك » للمقريزي (٣/ ٢/ ٨٨٣) (حسن القشتمري) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢) (٣٦٢) .

(٤) **المطرية** : من القرى القديمة ، تابعة لمديرية القليوبية . « قاموس رمزي » (٢/ ١/ ١١) .

وكان عسكرُ السلطان كلُّه قد انقادَ لسيدي حسن رضي الله عنه ، حتىٰ خرجوا عن طاعة السُّلطان إلىٰ طاعته رضي الله عنه .

وجاءه مرَّةً نصرانيٌّ صائغ ، فقال : إن السُّلطانَ أرسلَ إليَّ فصّاً من المعادن الغالية أصنعه له في خاتم خاتون ، فطرقتُهُ ، فانكسر نصفين ، وأنا خائفٌ من القتل ، وطابَ خاطري بوزن ثمنه ، ولو كان بعشرةِ آلاف دينار ، وما أعرفُ يا سيدي ردَّ السُّلطان عني إلا منك ، فدخلَ الشيخُ رضي الله عنه الخلوةَ ، فحوَّلَ قلب السلطان إلىٰ أن صارَ هو يَطلبُ قسمَ الفصِّ نصفين ؛ وذلك أن سُرِّيَّتَهُ المحظيةَ طلبتْ هـٰذا الفصَّ ، فبذلَ لها جملةَ فصوصٍ ، فلم ترضَ ، فسألا أن يكونَ الفصُّ بينهما نصفين ، فأرسل السلطانُ قاصده إلى الصائغ بذلك ، فأخبرَهُ الجيران بما وقعَ للصائغ ، وقالوا : إنه عند الشيخ ، فذهبَ القاصدُ إلى الشيخ ، فأخبرَ بذلك الصائغَ ، فأسلم ، ودُفن في زاوية الشيخ .

ولما أرادَ ابن أبي الفرج تربيعَ جنينتِهِ حَكَمَ التَّربيعُ علىٰ جعل زاوية الشيخ ، فقال للخادم : انقلِ الشيخَ إلىٰ موضعٍ آخر وأنا أبنيه لك ، فعزم الخادمُ علىٰ ذلك ، فجاء إليه في المنام ، وقال له : قلْ لابن أبي الفرج : لا تَنقلنا ننقلُكَ ، فأخبره الخادم بذلك ، فقال : هـٰذه أضغاثُ أحلام ، فشرعَ في نقله ، فلحقَهُ شيءٌ في جنبه ، فطلعت روحُهُ في الحال .

توفي رضي الله عنه في شهور سنة سبعٍ وتسعين وسبع مئة ، ودفن في زاويته في قنطرة الموسكي على الخليج الحاكمي بمصر المحروسة ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٢٢) سيدي الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي رضي الله عنه[(١)]

كان من الظرفاء الأجلاء الأخيار ، والعلماء الراسخين الأبرار .

أُعطي رضي الله عنه ناطقة سيدي علي بن الوفا ، وعمل الموشَّحات الربانية ، وألَّفَ الكتبَ الفائقة اللدنية .

---

(١) انظر « وجيز الكلام » (٣/٨٨٦) ، و« الضوء اللامع » (٧/٦٦) ، و« طبقات المناوي » (٣/٢٤٢) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٥٢) ، وستأتي ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٢/٦٤) (٣٦٦) .

وكان مُقيماً بالقرب من الجامع الأزهر ، وكان له خلوةٌ فوق سطحه ، موضع المنارة التي عَمِلَها السُّلطان الغوري .

وكان يغلبُ عليه سكرُ الحال ، فينزلُ يتمشَّىٰ ويتمايل في الجامع الأزهر ، فيتكلَّمُ الناسُ فيه بحسب ما في أوعيتهم حسناً وقبحاً .

وله كتاب « القانون »[1] في علوم الطائفة ، وهو كتابٌ بديعٌ ، لم يُؤلَّفْ مثله ، يشهدُ لصاحبه بالذوقِ الكامل في الطريق .

وكان أولادُ أبي الوفا لا يُقيمون له وزناً ؛ لأنه حاكىٰ دواوينَهم ، وصار كلامُهُ يُنشد في الموالد والاجتماعات والمساجد علىٰ رؤوس العلماء والصالحين ، فيتمايلون طرباً من حلاوته ، وما خلا جسدٌ من حسد ، وكان هو معهم في غاية الأدب والرقة والخدمة ، وأمسكوه مرَّةً وهو داخلٌ يزور السادات ، فضربوه حتىٰ أَدْمَوا رأسَه وهو يتبسمُ ويقول : أنتم أسيادي وأنا عبدُكم .

ومن كلامه رضي الله عنه : (إذا أردتَ أن تهجرَ إخوانَ السوء فاهجر ـ قبل أن تهجرهم ـ أخلاقَك السوء ؛ فإن نفسك أقربُ إليك ، والأقربون أولىٰ بالمعروف) .

وكان يقول : (كلُّ أبناء الدنيا يُقبلون عليها ، وهم راحلون عنها في كلِّ نَفَسٍ ؛ لأنهم عميٌ عن شهودِ ما إليه يصيرون) .

وكان رضي الله عنه يقول : (تفاخرَ الغنىٰ والفقر ، فقال الغنىٰ : أنا وصفُ الربِّ الكبير ، فمن أنت يا حقير ؟! فقال له الفقر : لولا وصفي ما تميَّزَ وصفُك ، ولولا تواضعي ما رُفع قدرُك ، وإن وصفي وُسِمَ بذلِّ العبودية ، وأنت وصفك نازع الربوبية) .

وكان يقول : (الفقيهُ من ارتضعَ بلبن حيِّ الصدور ، دون قديدِ ميِّت السطور) .

وكان يقول : (من علامة المرائي إجابتُهُ عن نفسه إذا أُضيف إليه نقصٌ ، وتنقيصُ الصالحين من أهل زمانه إذا ذُكروا) .

---

(١) واسمه : « قوانين حكم الإشراق إلىٰ كافة الصوفية في جميع الآفاق » نثرٌ ممزوج بقليل من الشعر . انظر « إيضاح المكنون » (٢/ ٢٤٤) ، و« تاريخ بروكلمان » (٦/ ٥٠٥) .

وكان يقول : (الفقراء يراؤون بالأحوال ، والفقهاء يراؤون بالأقوال) .

وكان يقول : (من طلبَ الشهرةَ بين الناس فمن ملازمِهِ أن يُرضيَهم بما يُسخط الله تعالىٰ ، وأن يصحبَهم لهواه لا لله) .

وكان يقول : (العارفُ ينمو حالُهُ حالَ حياته ، ولا يَشتهرُ إلا بعد مماته) .

وكان يقول : (العارفُ كلَّما علا به المقامُ صغرَ في أعين العوام ؛ كالنجم يُرىٰ صغيراً ، وإنما العيبُ من العيون) .

وكان رضي الله عنه يقول : لو أن الحلاجَ رضي الله عنه كمل حقيقة الفناء لتخلَّصَ مما وقع فيه من الغلط بقوله : « أنا هو » ، ومن قوله[1] : [من المضارع]

أدنيتَنِي منكَ حتَّىٰ ظننتُ أنَّكَ أنِّي

وكان يقول : (ثَمَّ من يدخلُ مقام البقاء قبلَ الفناء بحكمِ الإرثِ للأنبياء ، ولـٰكنه قليلٌ وقوعُه في القوم ؛ ولذلك أنكروه) .

وكان يقول : (إذا أردتَ أن تفتحَ كنزاً فإياك أن تلهوَ عن صرفِ العوائق ، أو تغفلَ عن العزيمة قبل حضور صاحب الكنز ، فإذا فتحتَ الكنزَ فإياك أن تشتغلَ بشيءٍ من الأمتعة عن الملك ، بل اجعلْ قصدَك الملكَ لا غير ، حتىٰ يهبَكَ خاتم الاستخدام إن شاء ، فإنْ لم يُعطِكَ الملكُ سرَّ الخاتم فإنما ذلك لكونه يُريدُ اتخاذك جليساً له ، وذلك أعظمُ من سرِّ الخاتم ؛ فإنَّ جليسَ الملك لا يحتاجُ قطُّ إلى استخدام ولا تعب) .

وقال : في معنىٰ قولهم : (إن للربوبية سرّاً لو ظهر لعطَّلَ نور الشَّريعة) : (المراد به الفناء ، وإعطاءُ سرِّ التكوين ، وأن العبدَ يفعلُ ما يشاء ؛ يعني : لو أُعطي العبدُ ذلك لتعطَّلت أفعالُ الشريعة كلُّها ، وبطلَ القولُ بالكسب ، واختلَّ النظام) .

وقال رضي الله عنه في معنىٰ قولِ بعضهم : (يصل الوليُّ إلىٰ حدٍّ يسقطُ عنه التكليف): (المراد به سقوطُ كلفة الأعمال ومشقَّتها من باب : « أرحْنَا بهَا يا بلالُ »)[2] .

---

(١) ديوان الحلاج (ص ٦٨) .

(٢) تقدم تخريجه (١/٣٤٩) .

وقال في معنىٰ قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه : (وكلُّ بَلا أيوبَ بعضُ بليَّتِي)[١] :

(أي : لأن بلاءَ أيوب عليه السلام في الجسدِ دون الروح ، وبلاءُ العارف فيهما معاً) .

وقال في معنىٰ قولِ بعضهم : [من المتقارب]

مقـــامُ النُّبـــوَّةِ فـــي بـــرزخٍ فُـوَيْـقَ الـرَّسـولِ ودون الـولـي

(يعني : أنَّ مقامَ النبوَّة يُعطي الأخذ عن الله بواسطةِ وحي الله ، ومقامُ الرسالة يعطي تبليغ ما أمره الله به للعباد ، ومقامُ الولاية الخاصَّة يعطي الأخذَ عن الله بالله من الوجهِ الخاص ، قال : وهـٰذه الحقائقُ الثلاثةُ كلُّها موجودةٌ فيمن كان رسولاً ، فافهم ، ولا تظنَّ أن أحداً من أهلِ الله تعالىٰ يعتقدُ تفضيلَ الولاية على النبوة والرسالة) .

وقال في معنىٰ قولِ الشيخ مُحيي الدين بن العربي رحمه الله تعالىٰ : [من الطويل]

توضَّأْ بماءِ الغيبِ إنْ كنتَ ذا سرٍّ وإلا تيمَّـمْ بـالصَّعيـدِ وبـالصخـرِ
وقـدِّمْ إمـامـاً كنـتَ أنـتَ إمـامَـهُ وصلِّ صلاةَ الفجرِ في أوَّلِ العصـرِ
فهـٰذِي صـلاةُ العـارفيـنَ بـربِّهـمْ فإنْ كنتَ منهمْ فانضحِ البرَّ بالبحرِ

المرادُ بـ (الوضوء) : طهارةُ أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية ، و(ماءُ الغيب) : هو خلوصُ التوحيد ، فإنْ لم يخلصْ لك بالعيان فتطهَّرْ بصعيدِ البرهان ، (وقدِّمْ إماماً) كان إمامَك في يومِ الخطاب ، ثم صرتَ (أنت إمامَه) بعد سدلِ الحجاب ، (وصلِّ صلاةَ الفجرِ) التي هي صلاةُ نهار كشفِ الشهود بعد حجابِ ظُلمة الوجود (في أوَّل العصرِ) الذي هو أوَّلُ زمانِ انفجارِ فجرك ، ولا تتأخَّرْ لآخرِ دورك ؛ لأن الحكمَ للوقت ، والتأخيرُ له مقت ، (فهـٰذه صلاةُ العارفين بربِّهم) وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهد الربوبية ، (فإنْ كنتَ منهم فانضحْ) يعني : اغسلْ بماءِ بحر الحقيقة ما تدنَّس من برِّ الشريعة .

وقال في قولهم : (النبيُّ مشرِّعٌ للعموم ، والوليُّ مشرِّعٌ للخصوص) : (أي :

(١) عجز بيت من « التائية الكبرىٰ » (ص ٤٧) (من الطويل) ، وصدره : وحزنيَ ما يعقوبُ بثَّ أقلَّهُ .

النبيُّ مبيِّنٌ للعوام برسالته ، ومبيِّنٌ للخواص بولايته ، لا أن الوليَّ يُشرِّعُ الأحكام الشرعية ؛ فإنه ليس له ذلك ، وإنما له تبيينُ الحقائقِ الكشفية بطريقِ الولاء ؛ أي : الوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما أن الأولياء تُبيِّنُ ما أُجملَ في السُّنةِ ، والنبيُّ يُبيِّنُ ما أجمل في القرآن) .

وقال في إنكار بعض المنكرين علىٰ قول بعض العارفين : (إن الخضرَ مقامٌ لا إنسان) : (لا إنكار ؛ لأن الوليَّ المحبوب يُعطىٰ من الكرامات كما كان للخضرِ من المعجزات ، وذلك عند الوراثة الخضرية قبل الوراثة الموسوية ، والوراثة بلا شك مقامٌ ، فافهم تغنم يا غلام) .

وقال في إنكارِ بعضهم علىٰ من قال : (حدثني قلبي عن ربي) : (لا إنكارَ ؛ لأن المرادَ أَخبرني قلبي عن ربِّي من طريق الإلهام ، الذي هو وحيُ الأولياء ، وهو دون وحي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا إنكارَ إلا علىٰ من قال : « كلَّمني الله تعالىٰ كما كلَّم موسىٰ » ، ففرقٌ بين (أخبر) ، و(كلم) يا مَنْ أنكر ، وتوهَّم) .

وكان يقول : (إثباتُ المسألةِ بدليلها تحقيقٌ ، وإثباتُها بدليلٍ آخرَ تدقيق ، والتعبيرُ عنها بفائقِ العبارة ترقيق ، ومراعاةُ علمِ المعاني والبيان في تركيبها تنميق ، والسلامةُ من اعتراضِ الشرع فيها توفيق) .

وكان يقول : (أَقسمَ الحيُّ القدُّوس ألا يدخلَ حضرتَه أحدٌ من أصحاب النفوس) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذرْ أن تخرقَ سورَ الشرع يا مَنْ لم يخرجْ عن عادة الطبع ، واحذرْ أن تقولَ : أنا مطلوقٌ من الحدود ؛ لأنني دخلتُ حضرةَ الشُّهود ؛ فإن الذي دَعاك هو الذي نهاك) .

وكان يقول : (أهلُ الخصوصية مزهودٌ فيهم أيامَ حياتهم ، مُتأسَّفٌ عليهم بعد مماتهم ، وهناك يعرفُ الناسُ قدرَهم حين لم يجدوا عند غيرهم ما كانوا يجدونه عندهم) .

وكان يقول لأصحابه : (عليكم بالتسليمِ للفقراء فيما ادَّعوه من المقامات والأحوال) .

وكان يقول : (من تحقَّق بمعارف الحضرةِ الإلـٰهية ، وانمحقَ وصفُه بوصفها . . خرجَ من الاعتمادِ علىٰ عمله وعلمه ، وعن كلِّ شيءٍ من بقايا كونه وكينونته التي كان بها مع معية وجوده تدقيقاً وتحقيقاً ، لا بباطل وهمِهِ في إثبات وجوده ، فافهم) .

وكان يقول : (الاعتمادُ على العملِ أوَّلُ عائقٍ يعرض لأصحاب السلوك في بدايتهم ؛ وذلك من غلبةِ الوهمِ علىٰ وجودهم ، وتَراكُمِ الخيالِ علىٰ مرايا عقولهم ، فلا يخرجون عن ذلك إلا بنورِ الكشف بأنه تعالىٰ خالقٌ لأعمالهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قد ادَّعىٰ أقوامٌ محوَ آثار البشرية ، فأخطؤوا الطريق ؛ فإن الأكابرَ من الصحابة والتابعين وصلوا إلىٰ محوِ الصفاتِ البشرية ، وما تركوا قطُّ شيئاً من الواجبات الدينية ، علماً منهم أنها اختيارُ الربِّ لهم ، ودعوتُه لهم حين أذنَ بها أن يأتوه بها ، ومن كان بأمرِ سيِّده كانَ بغيرِ أمرِ نفسه ، فافهم معنى الفناء يا من وقع في العناء ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣]) .

وكان يقول : (علامةُ الخروج عن الشيءِ تعسيرُهُ ، وعلامةُ الدخول في الشيءِ تيسيرُهُ ، فمن صدقَ في خروجهِ عن الدنيا تعسَّرتْ أسبابُها عليه ، فلا يتيسَّرُ له إلا ما كان على اسم غيره) .

وكان يقول : (لا تطلبِ الأكوان ؛ فإنها ما خُلقت بالأصالة إلا لك ، وأنت خُلقتَ لربِّك ، فإن طلبتَ ما خُلق لك ، وتركتَ ما أنت مَطلوبٌ له انعكس بك السير ، وإن أقبلتَ علىٰ ربِّك طلبتْكَ الأكوانُ بنفسها ، وخدمَكَ كلُّ شيءٍ ، فافهم ، وقد قال الحقُّ لسيِّدي أحمد بنِ الرفاعي رضي الله عنه في منامه : ما تُريد يا أحمد ؟ فقال : أريدُ ما تريد ، قال تعالىٰ : لك المرادُ ، ولك مني كلَّ يومٍ مئةُ حاجةٍ مقضيَّة) .

وكان يقول : (إذا فتح على السَّالك فتحَ التعرُّف لا يُبالي قلَّ العملُ أو كثر) .

وكان يقول : (لما علمَ أهلُ الله تعالىٰ أن كلَّ نباتٍ لا يَنبتُ ويُثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه الأَرجلُ . . جعلوا نفوسَهم للكلِّ أرضاً ؛ ليُعطيهم ما أَعطىٰ أصفياءه وأولياءه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (وقوعُ بعضِهم في بعضِ المحرَّمات ليتستَّرَ بها عن أهل

الزمان يقاسُ علىٰ من لم يجدْ ما يسيغُ به اللُّقمةَ إلا الخمر ، قاله الغزالي ، قال : وإذا ساغَ ذلك لأجلِ فوات حياةٍ دنيوية ، فأولىٰ ما يفوت به حياة أخروية ، لا يقال : ارتكابهم فيما يُوقع الناس في سوءِ الظنون بهم حرامٌ ، لأنا نقولُ : إن من أخلاقهم العفوَ والصفح ، وعدمَ المؤاخذة ، بل هم رحمةٌ بين أظهر العباد) .

قلت : ولو سامحَ العبدُ فحقُّ الله باقٍ من حيث إنه تعدَّىٰ حدود الله تعالىٰ ، فالإشكالُ باقٍ ، والله أعلم .

وكان يقول : (قال علماؤنا : لا تصلحُ العزلةُ إلا لمن تفقَّه في دينه ، وقد كان السلفُ يشتغلون أولاً بالعلم إلىٰ سنِّ الأربعين ، ثم يعتزلون للاستعانةِ بالعزلة على العملِ بما علموا ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**دليلُنا في القول بالخلوة** ما صحَّ أنه صلى الله عليه وسلم كان يختلي في غارِ حراء حتىٰ فَجَأَهُ الوحي ، فدلَّ علىٰ أن الخلوةَ حكمٌ مرتَّب عليه الوحي ، وذريعةٌ لمجيء الحقِّ ، وظهورِ نور الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من شرطِ الخلوة الطيُّ ، وله تأثيرٌ كبير ، واختارَ القومُ الأربعين ؛ لأن الأربعين فيها يكونُ نتاجُ النُّطفة علقة ، ثم مضغةً ، ثم صورةً ، وهي مدةُ الدُّرِّ في صدفه ، وعددُ أيام توبةِ داود عليه الصلاة والسلام) .

وكان يقول : (الفرقُ بين الكشفِ الحسِّيِّ والخيالي أنك إذا رأيتَ صورةَ شخصٍ ، أو فعلاً من أفعالِ الخلق فغمِّضْ عينيك ، فإنْ بقي لك الكشفُ فهو خيالي ، وإن غابَ عنك فهو حسيٌّ ، فإن الإدراكَ تعلق به في الموضع الذي رأيته) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا وردَ عليك واردُ الوقتِ فاقبلْه ، ولا تتعشَّقْه ، فإن تعشَّقْتَهُ حُجبتَ به عن الترقِّي) .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك واردٌ فاحفظْه ؛ فإنك تحتاجُ إليه إذا رُبِّيتَ ، فإن أكثرَ الشيوخ إنما أُتي عليهم في التربية ؛ لتفريطهم في حفظِ ما ذكرناه ، وزهدِهم فيه) .

وكان يقول : (من المُحال أن ينفتحَ بابَ الملكوت والمعارف ، وفي القلب شهوةٌ ، كما أنه من المُحال أن ينفتحَ بابُ العلم بالله من حيث المشاهدة وفي القلب

لمحةٌ للعالم بأسره الملكي والملكوتي) .

وكان يقول : (إذا وردَ الواردُ بخفَّةٍ ولطافةٍ ، وأعقبَ علماً فهو من الملك ، وإن وردَ بثقلٍ وتعبٍ في الأعضاء ، فهو من الشيطانِ ، فاعلمْ ذلك تفرقْ بينهما) .

وكان يقول : (لما خلتِ المرآةُ المحسوسة من جميع الألوان انطبعتْ فيها صور الأكوان ، وكذلك القلبُ إذا تفرَّغَ من انطباع الطباع والأوهام أشرقَ فيه نورُ الشعاع ، فأحرقَ هشيمَ الشهوات ، وتراءت له المُغيَّبات ، وأبصر ما مضىٰ ، وما هو آت) .

وكان يقول : ما يبدو لك من الإشراقِ إنما هو نورُ ذكرِك يشرقُ في مرآة قلبك ، ثم ينشد : [من البسيط]

مثِّلْ لنفسكَ بيتاً أنتَ ساكنُهُ ... منَ المرائي وأثبتْ قُطْبَ مَركزكَا

وقلْ لهُ يا أَنا هلْ كنتُ قطُّ أنَا ... فلا يُجيبُكَ إلا أنتَ عنكَ بِكَا

وكان يقول : (التطهُّرُ من الجنابة المعنوية مقدَّمٌ على الحسِّية ؛ فإن الجنابةَ الحسِّية ربما رُخِّصَ لصاحبها في بعضِ الأوقات ، والمعنوية لا رخصةَ فيها ألبتة ، ولهٰذا ترىٰ كثيراً من الموسوسين ليس عنده نشقةٌ من نسيم الحضرة القدسية ، لعمىٰ بصيرةِ قلبه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أهلُ الطبيعة هم الدهريةُ القائلون بألا صانعَ للعالم إلا وجود الطبيعة ، وأهلُ العلَّة هم الفلاسفةُ القائلون بقِدَمِ العالم ، وكلُّهم في ظلماتِ بعضُها فوق بعض) .

وكان يقول : (كلُّ ما دلَّكَ على الله فهو نورٌ ، وكلُّ ما لم يدلَّكَ عليه فهو ظلمةٌ ، فتأمل) .

وكان يقول : في معنىٰ قول بعضهم : (في كلِّ شيءٍ اسمٌ من أسمائه تعالىٰ) : (أي : أن وجودَ الأشياء كلِّها مضافةٌ إلىٰ أسمائه تعالىٰ متعلِّقةٌ بها ، غير خارجةٍ عنها ؛ من خيرٍ وشرٍّ ، ونفعٍ وضرٍّ ، وعطاءٍ ومنع ، إلىٰ غير ذلك) .

وكان يقول : (يصلُ العارفُ إلىٰ مقامٍ يكونُ خطابُهُ لغيره من باب خطاب الصفةِ لموصوفها ، فافهم ما تحته) .

وكان يقول : ليس في الوجودِ إلا ما سبقَ به العلمُ ، وأوجدتْهُ القدرةُ ، وخصَّصتْهُ الإرادةُ ، ورتَّبته الحكمة ، فذرَّاتُ الوجود ما خرجتْ عن حكمِ هـٰذا الشهود ، فكيف يكون الغيرُ حجاباً على الحق ، والغير منفيٌّ بهـٰذا الاعتبار ؟! الله أكبر ، قد طلعَ النهار ، وأضاءتِ الأنوار علىٰ رغمِ أنفِ الكفار : [من الطويل]

إذا مَا تجلَّى الحقُّ منْ غيبِ ذاتِهِ ... تلاشَىٰ وجودُ الغيرِ حقّاً بلا شكِّ
وطاحَ حجابُ الكونِ في كلِّ مشهدٍ ... فنزِّهْ وجودَ الحقِّ منكَ عنِ الشِّـرْكِ

وكان يقول : (لما طلبَ موسىٰ عليه السلام من الحقِّ الرؤيةَ زيادةً علىٰ ما آتاه من الكلام لم يجبه ، وقال : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] فدلَّتِ الآيةُ علىٰ أنه لا ينبغي للعبدِ أن يطلبَ الزيادةَ علىٰ ما أعطاه الله تعالىٰ إلا مع التفويض) .

وكان يقول : (الفتحُ على المريد بالأمور قد يكونُ امتحاناً ، وقد يكون تأنيساً ، وقد يكون تثبيتاً) .

وكان يقول : (ينبغي للمريدُ أن يجتهدَ ألا يَخرجَ له نَفَسٌ إلا بمحمودٍ ، ولا يدخلَ عليه نَفَسٌ إلا بمحمود ، فإنْ تمَّ له ذلك فهو المريد) .

قلت : هـٰذا شيءٌ لا يجيء بالتفعُّلِ ، إنما هي خلعةٌ يَخلعُها اللهُ تعالىٰ علىٰ من يشاء ، والله أعلم .

وكان يقول : (إنما كان « الأين » في حقِّه تعالىٰ محالاً ؛ لأن الأينَ محتاجٌ إلىٰ « أين » ، فيتسلسلُ ، وما يتسلسلُ فلا يتحصَّلُ ، ولا يلزمُ من إطلاق مجازِ اللفظ أن يكونَ له حقيقة ، فافهم ، وإذا فهمتَ المعاني فلا مشاحةَ في الألفاظ ، وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه : بالمعاني تعبَّدنا لا بالألفاظ) .

وكان يقول : (كلُّ ما سوى الله تعالىٰ لهوٌ ولعب ولو أعطاكَ من الشهود ما أعطاك ، فلكلِّ مقام مقال ، ولمَّا سمعتْ رابعةُ العدوية رضي الله عنها شخصاً يتلو قوله تعالىٰ : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢٠-٢١] . قالت : نحن إذاً صغارٌ حتىٰ نفرحَ بالفاكهة والطير ، فانظرْ رحمك اللهُ تعالىٰ كيف لم تفرحْ بغيرِ الله تعالىٰ ، وعلمتْ أن كل ما سواه من الموهبةِ والعطاء كالخشخاشة التي يُسكَّتُ بها الصغير) .

وكان يقول : (نظرُ الحقِّ تعالىٰ بالبصر جائزٌ وقوعه في الدنيا عقلاً لمن شاء الله تعالىٰ ، صرَّحَ بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، ولا يلزمُ علىٰ ذلك محالٌ ، فإياك يا أخي أن تقعَ في ورطةِ الإنكار ؛ فإنه يستحيلُ على السيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام أن يسألَ ما كان مستحيلاً ، أو أن يُعطِّلَ صفةً من صفات ربِّه ، أو أن يجهلَها) .

وكان يقول : (إنما حجَبَ الخفَّاشَ عن الإبصار لضوء النهار ما غلب عليه من تراكم الأنوار ، فافهم) .

وكان يقول في معنىٰ قول موسىٰ عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] : (بلسان الإشارة « أرني » ؛ أي : بالغيبةِ عني « أنظرُ » قدسَ ذاتك ، بتنزيه صفاتك ؛ إذ لا يَراك سواك ، وامحُ عني الظلال ، ولا تحجبني بوهمِ الخيال) .

وكان يقول : (شهودُ حضرةِ الحقِّ بحسب الحاضر ، لا بحسب الحضرة ؛ لأن الحقائقَ الربانية لا تُدركُها الإنسانية من جميعِ وجوهها ، فافهم تعلم أن تلوُّنَ حقائقِ التجريد في مقاماتِ التوحيد بحسب الرائي ، لا بحسب المرئي في جميع أطوارِ التجلِّيات مما يُقال ، ومما لا يقال) .

وكان يقول : (احذروا زخارفَ أقوال أهلِ الرِّضا عن النفس ؛ خصوصاً الذين اتخذوا العلمَ حرفةً وشبكةً لصيد حرام الدنيا مع تكبُّرِهم على الناس ؛ فإنهم قد حُرِموا خَيرَي الدُّنيا والآخرة ، ولهم نعوتٌ ممقوتة ، وأحوالٌ مُزريةٌ لم تبقِ لهم بين الناس حرمةً ، ولا قبولَ شفاعة ، اتَّخذوا حسنَ الزِّيِّ شعاراً ، وتكبَّروا بذلك استكباراً ، وقد قال الشيخُ تاج الدين رحمه الله تعالىٰ في « الحكم » : لأَن تصحبَ جاهلاً لا يرضىٰ عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحبَ عالماً يرضىٰ عن نفسه ، فافهم .

ومما جرَّبناه فصحَّ : أنَّ من أرادَ قضاءَ حوائجه ، ودفعَ مصائبه فليرفع الأمرَ إلى الله تعالىٰ قبل أن يُعلمَ بها الناس ، هـٰكذا عادةُ الله تعالىٰ مع من يتعلَّقُ به أوَّلَ أمره ، فاعملْ علىٰ ذلك ؛ فإنه الكبريتُ الأحمر ، والفرجُ القريب ، والمُعينُ علىٰ ذلك الصبرُ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (بلغنا : أن يونسَ عليه السلام اجتمعتْ روحُهُ بروح

قارون لمَّا التقمَهُ الحوت ، فرأىٰ قارون نازلاً ، فقال ليونس عليه السلام : تعلَّقْ بربِّك يا يونسُ في أولِ أمرك يُنْجكَ ، فقال له يونس : وأنت ؟! قال : تعلَّقتُ بابن الخالة موسىٰ ، فوَكَلني إليه ؛ ولهـٰذا كما قيل : عاتبَ اللهُ موسىٰ عليه السلام ، وقال : وعزَّتي وجلالي ؛ لو استغاث بي لأغثتُهُ) .

وكان يقول : (أحسنِ الظنَّ بربِّك من حيث محبَّة جماله وجلاله ، فإن ذلك وصفٌ له لا يتحوَّلُ ، ولا تُحسنِ الظنَّ بربِّك لأجل إحسانه إليك ، فربَّما قطعَ ذلك عنك ، فتسيءُ الظنَّ به ، فليحذرِ السالكُ من علَّةِ هـٰذا المقام) .

وكان يقول : (غايةُ رحلةِ السائرين بالأشباح السيرُ إلى الله ، وبدايةُ رحلة السائرين بالأرواح في الله ؛ أي : في التنزُّهِ في عجائب قدرته ، فافهم ، فالأوَّلون ينتهي سيرُهم ، والآخرون لا ينتهي لهم سيرٌ ، وقد قيل مرَّةً للشيخ أبي الفتح الواسطي رضي الله عنه : ما تقول في جماعةٍ من أئمَّة الزهَّادِ ، ومن صدورِ هـٰذه الأمة فلان وفلان وفلان ؟! فقال : أولـٰئك قومٌ خرجوا عن شهواتهم الدنيوية لأجل شهواتهم الأخروية ، فأين الفناءُ في الله والبقاءُ به ؟! ولمَّا سمعَ الشبليُّ رضي الله عنه قوله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . . صاحَ صيحةً عظيمة ، وقال : فأين الذين يُريدون اللهَ تعالىٰ ؟!) .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ [البقرة : ٦٠] : (وإن كان ظاهره إنعاماً فباطنُهُ انتقامٌ وابتلاء واختبار ؛ لينظرَ تعالىٰ مَنْ هو معه ، ومَنْ هو مع حظِّ نفسه ، فافهمْ دقائق أحكامِ الباطن ، ولا تغترَّ برُخَصِ الظاهر تكنْ من العارفين أهل الفهم عنه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا لم تجدْ أيُّها المريدُ صاحبَ الحال فعليك بصاحبِ القال ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] وإياك ، وصحبةَ مَنْ لا قالَ له ولا حال) .

وكان يقول : (يجبُ على الفقير إذا آخىٰ في الله تعالىٰ أن يُشاطرَ أخاه في ماله كما فعلتِ الأنصارُ مع المهاجرين حين قَدِموا عليهم المدينة وهم فقراءُ ، فكلُّ من ادَّعى الأخوَّة في الله فامتحنْه بهـٰذه الميزان) .

وكان يقول : (أخوك حقيقةً من وافقَكَ في الذوق ومددِ الإفهام ، لا مَنْ شاركك في معنىٰ صورةِ النُّطفة في الأرحام) .

وكان يقول : (ما رقي أحدٌ إلىٰ مركزٍ عالٍ إلا قلَّتْ أشكالُه المعنوية ، وجلَّتْ نفائسُ دقائقه علىٰ غالب الأفهام ، وهـٰذا موجبُ قلَّةِ الأتباع والأصحاب لكُمَّلِ العارفين) .

وكان يقول : (الأدبُ ألا يقول العبدُ : فلانٌ من أصحابي ، إلا إنْ كان دونَه بدرجات ، فإن كان مساويه أو فوقه فليقلْ : أنا خادمُهُ أو مُريدُهُ ، هـٰكذا درج السلف) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ينبغي لمن خدمَ كبيراً كاملاً ثم فقدَهُ ألا يخدمَ مَنْ دونه ، إلا إذا كان أكملَ منه ، وإلا جعل صحبتَهُ مع الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما ثقلَ على الأشياخ خدمةُ أحدٍ من الفقراء لهم إلا لعلَّةٍ في قلب الخادم كتمها عنهم ، وهـٰذه علَّةٌ لا يسلمُ منها إلا من أتى الله بقلب سليم ، ولو أن الخادمَ كان أظهرَ لهم تلك العلَّةَ لربما وصفوا له دواءها ، أو شَفعوا له فمحاها الله تعالىٰ عنه من اللوح ، أو سألوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم في الشفاعةِ فيه فيشفع ، إلا إذا كان قضاءً مُبرماً لا مردَّ له ، وقد رأى السيدُ عبدُ القادر الجيلي لمريدٍ له أنه لا بدَّ أن يزني بامرأةٍ سبعين مرة ، فقال : يا ربِّ ؛ اجعلْها في النوم ، فكان كذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مما اخترتُهُ من أدبِ المصاحبة والمجالسة أنك **إذا جالستَ أهل الدنيا** فحاضرْهم برفعِ الهمَّة عما بأيديهم مع تعظيم الآخرة ، **وإذا جالستَ أهلَ الآخرة** فحاضرْهم بوعظِ الكتاب وآداب السنة ، وتعظيمِ دار البقاء ، **وإذا جالستَ الملوكَ** فحاضرهم بسيرةِ أهلِ العدل ، وسياسةِ العقلاء مع حفظِ الأدب معهم والعفاف عما بأيديهم ، **وإذا جالستَ العلماءَ** فحاضرْهم بالروايات الصحيحة والأقوالِ المشهورة في المذاهب المعلومةِ بالحقِّ دون الهوىٰ ، مع الإنصاف لهم في القول والفهم المبتكر إذا وافق الصوابَ ، مع عدم الجدال والمراء المُظهر لحبِّ العلوِّ عليهم ، **وإذا جالستَ**

الصوفيةَ فحاضرْهم بما يشهدُ لأحوالهم الحقَّانية ، ويُقيمُ لهم الحجَّة على المُنكر عليهم مع أدبِ الباطن قبل الظاهر ، وإذا جالستَ العارفين فحاضرْهم بما شئتَ ؛ فإن لكلِّ شيءٍ عندهم وجهاً من وجوه المعرفة ، لـٰكن بشرطَيْنِ : لينِ الكلام ، وحفظ الحرمة والأدب ، فإنَّ حَضْرتَهم صبَّاغة ، فالمعنى الذي تدخلُ عليهم به تخرج منهم ؛ يكسوك مشهدك فيهم ، ويلبسوك ما توجَّهت به إليهم ؛ إنْ خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر) .

وكان يقول : (عليك بتكثيرِ سوادِ القوم ، فإن « منْ كثَّرَ سوادَ قومٍ فهوَ منهمْ »)[١] .

وكان يقول : (سمعت شيخنا أبا عثمان رضي الله عنه يقول : إذا زار إنسانٌ قبرَ وليٍّ فإن ذلك الوليَّ يعرفُهُ ، وإذا سلَّمَ عليه ردَّ عليه سلامه ، وإذا ذكَرَ اللهَ علىٰ قبره ذكرَ معه ، لا سيما إنْ ذكرَ لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، فإنه يقومُ ويجلسُ متربِّعاً ، ويذكرُ معه) .

ثم قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه : (وحاشا قلوب العارفين أن تُخبرَ بغير فهمٍ ، ومعلومٌ : أنَّ الأولياء إنما يُنقلون من دارٍ إلىٰ دار ، فحرمتُهُم أمواتاً كحرمتهم أحياء ، والأدبُ معهم بعد موتهم كالأدبِ معهم حالَ حياتهم ، فلا تعرضْ عنهم بقدميك ، ولا تمش علىٰ قبره برجليك ، ولا تعاشرِ الأولياء إلا بالأدب في حالَ الحياة وفي حال الموت ، قال : وإذا ماتَ الوليُّ صلَّىٰ عليه جميعُ أرواح الأنبياء والأولياء ، ثم قال : (وعلىٰ هـٰذا الذي ذكرَهُ شيخُنا قول صاحب « الحقائق والرقائق » حاشا الصوفي أن يموتَ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من الأولياء من ينفعُ مريدَه الصادق بعد موته أكثرَ ما ينفعه حالَ حياته ، ومن العبادِ من تولَّى اللهُ تربيته بنفسه بغير واسطةٍ ، ومنهم من تولاه بواسطةِ بعضِ أوليائه ولو ميتاً في قبره ، فيربِّي مريدَه وهو في قبره ، ويسمعُ مريدُه صوته من القبر ، ولله عبادٌ يتولَّىٰ تربيتَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنفسه من غيرِ واسطةٍ بكثرة صلاتِهم عليه صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) أورده الديلمي كما في « الفردوس » (٥٦٢١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١١٧٠) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سمعت شيخنا أبا عثمان رضي الله عنه يقول بالدرس علىٰ رؤوس الأشهاد : (لعن اللهُ من أنكرَ علىٰ هـٰذا الطريق ، ومن كان يُؤمنُ بالله واليومِ الآخر فليقلْ : لعنةُ الله عليه) .

وكان يقول : (من اعترضَ علىٰ هـٰذا الطريق لا يُفلحُ أبداً) .

قال : وسمعتُ شيخنا أبا عثمان يقول : (إنما جاءتْ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح : ١] عقب ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] إشارةً إلىٰ أن من حدَّثَ بالنعمة فقد شرحَ اللهُ تعالىٰ صدرَهُ ، كأنه تعالىٰ يقول : إذا حدَّثْتَ بنعمتي ونشرتها فقد شرحتُ صدرك ، ثم قال رضي الله عنه : اعقلوا هـٰذا الكلام ؛ فإنه لا يُسمعُ إلا من الربَّانيين) .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الرؤيا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول : (قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الناس يكذِّبونني في صحَّة رؤيتي لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعزَّةِ الله وعظمتِهِ ؛ من لم يؤمنْ بها أو كذَّبك فيها لا يموتُ إلا يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً) هـٰذا منقولٌ من خطِّ الشيخ أبي المواهب رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ سطح جامع الأزهر عام خمسةٍ وخمسين وثمان مئة ، فوضعَ يدَه علىٰ قلبي ، وقال : يا ولدي ؛ الغيبةُ حرام ، ألم تسمع قولَ الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] ؟! وكان قد جلسَ عندي جماعةٌ ، فاغتابوا بعضَ الناس ، ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن كان ولا بدَّ من سماعك غيبة الناسِ فاقرأْ سورةَ الإخلاص والمعوذتين ، واهدِ ثوابها للمُغتاب ، فإنَّ الغيبةَ والثوابَ يُتوارثان ، ويتوافقان[1] إن شاء الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : هاتِ يدك أُبايعك ، فقلت : يا رسول الله ؛ لا قدرةَ لي ، أخاف أن يقعَ مني معصيةٌ بعد المبايعة ، فقال : هات يدك فبايعني ، ولا تضرُّكَ الفلتةُ والزلَّة إن وقعتْ وتبتَ منها ، وكأنه يُشير صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن العبدَ قد يُصلحُ اللهُ تعالىٰ حالَهُ ليسدَّ عنه بها ثلمةً

(١) في (أ، ب) : (يتوقفان) ، وفي (و) : (يتوفقان) .

تقعُ في دينه بعُجبٍ أو كبر ، ونحوهما) ، هـٰذا منقول من خطه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (جاءني جماعةٌ يأخذون عني الطريق ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : الجماعةُ غيرُ مؤمنين بك إلا واحداً بعضَ الإيمان ، فهو يَراك بالعين العوراء ، وسيختمُ الله له بالموتِ على الإسلام) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أَلبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم خرقةَ التصوُّف) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال لي : قل عند النوم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم خمساً ، وبسم الله الرحمـٰن الرحيم خمساً ، ثم قل : اللهم ، بحقِّ محمدٍ ؛ أرني وجهَ محمد حالاً ومآلاً ، فإذا قلتَها عند النوم فإنِّي آتي إليك من كل بد ، ولا أتخلَّفُ عنك أصلاً ، ثم قال : وما أحسنها من [رقية][1] ، ومن معنىً لمن آمن به !) . هـٰذا منقول من لفظه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ لا تدعني ، فقال : لا ندعُكَ حتىٰ تَرِدَ عليَّ الكوثرَ وتشربَ منه ؛ لأنك تقرأُ سورة الكوثر ، وتصلِّي عليَّ ، أما ثوابُ الصلاة فقد وهبتُهُ لك ، وأما ثواب الكوثر فأبقيه لك ، ثم قال : ولا تدع أن تقول : أستغفرُ الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم ، وأتوب إليه ، وأسألُه التوبةَ والمغفرة ؛ إنه هو التوابُ الرحيم ، مهما رأيتَ عملك ، أو وقع خللٌ في كلامك) هـٰذا منقولٌ من لفظه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : أنتَ تشفعُ لمئة ألف ، قلت له : بم استوجبت ذلك يا رسول الله ؟! قال : بإعطائك لي ثوابَ الصلاة عليَّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (استعجلتُ مرةً في صلاتي عليه صلى الله عليه وسلم لأُكمِلَ وردي ، وكان ألفاً ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : أما علمتَ أن العجلة من

---

(١) ترددت النسخ بين (ورقة) و(رقة) ، ولعل المثبت هو الصواب والموافق للمصادر .

الشيطان ؟! ثم قال : قل : اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آلِ سيدنا محمد بتمهُّلٍ وترتيلٍ ، إلا إذا ضاقَ الوقت فما عليك إذا عجلت ، ثم قال : وهـٰذا الذي ذكرتُهُ لك علىٰ جهةِ الأفضل ، وإلا فكيفما صلَّيت فهي صلاةٌ ، والأحسنُ أن تبتدئ بالصلاة التامَّةِ أوَّل صلاتك ولو مرَّةً واحدة ، وكذلك في آخرها تختم بها ، قال لي صلى الله عليه وسلم : **والصلاةُ التامَّةُ** هي : اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيِّدنا محمدٍ وعلىٰ آلِ سيِّدنا محمد كما صلَّيتَ علىٰ سيِّدنا إبراهيمَ وعلىٰ آلِ سيِّدنا إبراهيم ، وبارِكْ علىٰ سيِّدنا محمدٍ وعلىٰ آلِ سيِّدنا محمد ، كما باركتَ علىٰ سيِّدنا إبراهيم وعلىٰ آل سيدنا إبراهيم في العالمين ؛ إنك حميدٌ مجيد ، السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته) هـٰذا منقول من لفظه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : إن شيخك أبا سعيد الصفروي يُصلِّي عليَّ الصلاةَ التامة ، ويُكثرُ منها ، وقل له إذا ختمَ الصلاة أن يحمدَ الله عز وجل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إذا كانَ لك حاجةٌ وأردتَ قضاءها فانذرْ لنفيسةَ الطاهرةَ ولو فَلساً ؛ فإن حاجتَك تُقضىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (خذوا من مالِ السُّلطان دون حواشيه ، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أطلعَ إلى السلطان جقمق ، وأسألَه من الدنيا شيئاً ، فطلعتُ له ، فأعطاني مئة دينار ، واعتذرَ إليَّ بأن ما عنده غيرها) .

وكان رضي الله عنه كثيرَ البكاء والحزن قريبَ الخشية ، قَلَّ من يسمعه يبكي إلا ويبكي معه .

وكان يقول : رأيتُ امرأةً بمصر تدورُ على الأبواب وهي تُغنِّي في مدح المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال لي : هي وليَّةٌ كبيرة ، ولـٰكنَّها تتستَّرُ بذكر محبوبها ، أَلا تراها لا تذكرُ في كلامها إلا جدّاً ؟! .

وكان يقول : وقعَ بيني وبين شخصٍ من الجامع الأزهر مجادلةٌ في قول صاحب « البردة » رحمه الله تعالىٰ : [من البسيط]

فمبلـغُ العلـمِ فيـهِ أنَّـهُ بشـرٌ ... وأنَّـهُ خيـرُ خلـقِ اللهِ كلِّهـمِ

وقال لي : ليس له دليلٌ علىٰ ذلك ، فقلت له : قد انعقدَ الإجماعُ علىٰ ذلك ، فلم يرجع ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر جالسينَ عند منبر الجامع الأزهر ، وقال لي : مرحباً بحبيبنا ، ثم قال لأصحابه : أتدرون ما حدثَ اليوم ؟! قالوا : لا يا رسول الله ، فقال : إن فلاناً التعيس يَعتقدُ أن الملائكةَ أفضلُ منِّي ! فقالوا بأجمعهم : لا يا رسول الله ؛ ما علىٰ وجه الأرضِ أفضلُ منك ، فقال لهم : فما بال فلان التعيس الذي لا يعيشُ ، وإن عاشَ عاشَ ذليلاً خمولاً مُضيَّقاً عليه ، خاملَ الذكر في الدنيا والآخرة ، يعتقدُ أن الإجماع لم يقعْ علىٰ تفضيلي ، أما علم أن مخالفةَ المعتزلةِ لأهلِ السنة لا تقدحُ في الإجماع .

قال رضي الله عنه : ورأيتُهُ صلى الله عليه وسلم مرَّةً أخرىٰ ، فقلت : يا رسول الله ؛ قولُ الأبوصيري : (فمبلغ العلم فيه أنه بشر) .

معناه عندي : مُنتهى العلم فيك عندَ من لا علمَ عنده بحقيقتك أنك بشرٌ ، وإلا فأنتَ وراءَ ذلك كلِّه بالروح القدسي ، والقالب النبوي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقتَ ، وفهمت مرادك .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : ما أحسن مجلسك ! قد غفرَ اللهُ لكلِّ من حضره ، بذكركم لله تعالىٰ عقب فراغ القارئ) .

وكان يقول : (رأيتُ مرَّةً كأنَّ حنشاً دخلَ بين ثيابي ، فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُهُ عن ذلك ، فقال : الحنشُ هو صاحبُك فلان ، قد بدا له فيك ، ورجع يُؤذيك ، ولولا خوفُهُ منك لعمل جهدَه في إيذائك ، فكان الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كنَّاني سيِّدي يحيى بن أبي الوفاء بأبي عابد ، فرأيتُ سيِّدي عليّاً رضي الله عنه ، وقال لي : هٰذه الكنية لا تصلحُ لك ، إنما تصلحُ لأرباب الأثقال ، وإنَّما كنيتُك أبو حامد ، قال : ثم رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : كنيتُك عندنا أبو حامد ، وكذلك في السماء ، وقد دخلتَ في دائرة بني الوفا ، ومقامك كبيرٌ ، وأنت وليٌّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كنتُ أطلبُ من شيخي أبي سعيد الصفروي رضي الله عنه أن أُقبِّلَ قدميه ، فكان يُوعدني بذلك ويقول لي : حتىٰ يجيءَ الوقت ، فلما ماتَ سنة إحدىٰ وخمسين وثمان مئة رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : اطلبْ من شيخك ما وَعدَك ، فأخذت قدميه رضي الله عنه بعد وفاته وقبَّلتهما ، وقلتُ له : يا سيدي ، هـٰذا إنجاز وعدك ، وحرمتُك ميتاً كحرمتِك حيّاً) .

وكان يقول : (قلتُ لسيدي وشيخي أبي سعيد الصفروي رضي الله عنه : هل أترك أصحابي وأعتزلُ عنهم ؟ خصوصاً الذين يُؤذونني ، فقال : لا تتركْهم ، وخالطْهم بحسنِ الظاهر وجاملْهم ، وابق علىٰ ما أنت عليه ، ثم رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن قول شيخي ، فقال : هو صحيح ، وامشِ علىٰ طريقة شيخك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (انقطعتْ عنِّي رؤيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مدةً ، فحصل لي غمٌّ بذلك ، فتوجَّهت[1] بقلبي إلىٰ شيخي ليشفَعَ فيَّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحضرَ عنده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـٰأنا ، فنظرتُ فلم أرَهُ ، فقلت : ما رأيته ، فقال عليه الصلاة والسلام : سبحان الله ! غلبتْ عليه الظُّلمةُ ، وكنتُ قد اشتغلتُ بقراءة جماعةٍ في الفقه ، ووقعَ بيني وبينهم جدالٌ في إدحاضِ حججِ بعضِ العلماء ، فتركتُ الاشتغالَ بالفقه ، فرأيتُهُ ، فقلت : يا رسول الله ؛ إن الفقه من شريعتك ؟! فقال : بلىٰ ، ولـٰكن يحتاجُ إلىٰ أدبٍ مع الأئمة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (تفلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في فمي ، فقلت : يا رسول الله ، ما فائدةُ هـٰذا التفل ؟! فقال : لا تتفلُ بعدها علىٰ مريضٍ إلا ويبرأ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (امتنعتْ عني الرؤيا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيتُهُ ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما ذنبي ؟! فقال : إنَّك لستَ بأهلٍ لرؤيتنا ؛ لأنك تُطلع الناسَ علىٰ أسرارنا ، وقد كنتُ أخبرتُ شخصاً من إخواني بشيءٍ من الرؤيا ، فتبتُ إلى الله تعالىٰ ، فرأيتُهُ بعد ذلك) .

---

(١) في (ح) وحدها : (فلهجتُ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنا لا أجتمعُ بمن يجلسُ مجالسَ الغيبة مع الناس ولا يقومُ منها) .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا محمد ؛ ما هٰذه الغفلةُ ؟! وما هٰذه الرقدةُ ؟! وما هٰذا الإعراضُ ؟! ما لك تركتَ تلاوة القرآن ؟! وما هٰذه الوُرَيْدَاتُ في جانب تلاوة القرآن ؟! لا تفعلْ ذلك أصلاً ، بل اتلُ كلَّ يومٍ ولو حزبين لا أقلَّ من ذلك كلَّ يوم) ، قال بعضُ أصحاب الشيخ : فما تركَ الشيخُ تلاوةَ القرآن من ذلك اليوم .

وكان يردِّدُ بعضَ الآيات مراراً كثيرة ، ويبكي وتنحدرُ دموعُه علىٰ خدَّيه ولحيته ، ويتأوَّهُ حتىٰ لا يقدرُ أحدٌ أن يتكلَّمَ بحضرتهِ ، لِمَا يرىٰ من وَجْدِهِ ، وكثرةِ بكائه .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يسجدُ بعد السلام من النافلة سجودَ الشكر بعد ما يدعو .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، قد وهبتُ لك ثواب صلاتي عليك ، وثوابَ كذا وكذا من أعمالي ، إن كان ذلك ما أردتَهُ بقولك للسائل الذي قال لك : أفأجعلُ لك ثوابَ صلاتي كلها ؟ فقلت له : « إذاً تُكفَىٰ همَّكَ ويُغفرُ لكَ ذنبُكَ »[(١)] ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، ذلك أردتُ ، ولٰكن أبقِ لنفسك ثوابَ الكذا والكذا ؛ فإني غنيٌّ عنه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقبَّل فمي ، وقال : أُقبِّلُ هٰذا الفمَ الذي يُصلِّي عليَّ ألفاً بالنهار وألفاً بالليل ، ثم قال لي : وما أحسن (إنا أعطيناك الكوثر) لو كانت وردَك بالليل ! ثم قال لي : ويكونُ دعاؤك : اللهم ؛ فرِّج كُرباتنا ، اللهم ؛ أقلَّ عثراتنا ، اللهم ؛ اغفرْ زلاَّتنا ، وتُصلِّي عليَّ وتقول : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١-١٨٢]) .

وكان يقول : (لا يأتي النصرُ قطُّ إلا بعد حصولِ الذلِّ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[(٢)] [آل عمران : ١٢٣] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٧) عن سيدنا أُبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢) للخبر تتمة : (٣/٧٣) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ صلاةُ الله تعالىٰ عشراً علىٰ من صلَّىٰ عليك مرَّةً واحدة : هل ذلك لمن كان حاضر القلب ؟ قال : لا ، بل هو لكلِّ مصلٍّ عليَّ غافلاً ، ويُعطيه الله تعالىٰ أمثالَ الجبال من الملائكةِ تدعو له وتستغفرُ له ، وأما إذا كان حاضرَ القلب فيها فلا يعلمُ ذلك إلا الله) .

وكان رضي الله عنه يقول : (قلتُ مرَّةً في مجلسٍ : محمدٌ بشرٌ لا كالبشر ، بل هو ياقوتٌ بين الحجر ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : قد غفرَ الله لك ، ولكلِّ من قالَها معك) وكان رضي الله عنه لم يزلْ يَقولُها في كلِّ مجلسٍ إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : كَنِّ أصحابَك فلاناً كذا ، وفلاناً كذا ، وكنِّ فلاناً أبا الظهور ؛ لأنه يتبعُ ظهورَ النساء ببصره ، ولا عليك منه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ له : يا رسول الله ؛ إني متطفِّلٌ في علم التصوف ، فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ كلامَ القوم ، فإن المتطفِّلَ علىٰ هـٰذا العلم هو الوليُّ ، وأما العالمُ به فهو النجمُ الذي لا يُدرك) . هـٰذا منقولٌ من لفظه رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي عن نفسه : لستُ بميِّتٍ ، وإنما موتي عبارةٌ عن تستُّري عمَّن لا يفقهُ عن الله ، وأما من يفقهُ عن الله فهـٰأنا أراه ويراني) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن الحديثِ المشهور : « اذكرُوا اللهَ حتىٰ يقولُوا : مجنونٌ »[1] وفي « صحيح ابن حبان »[2] : « أكثرُوا منْ ذكرِ اللهِ حتىٰ يقولُوا : مجنونٌ » ، فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (١٣٧٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) صحيح ابن حبان (٨١٧) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٩) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٦٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

صدقَ ابنُ حبان في روايته ، وصدقَ راوي : « اذكرُوا اللهَ » ، فإني قلتُهما معاً ، مرَّةً قلتُ هـٰذا ، ومرَّةً قلتُ هـٰذا) .

وكان رضي الله عنه يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : لا تخفْ من الحسَّاد ؛ فإنهم إن كادوك فإن الله عز وجل يَكيديهم ، ألم تسمعْ قولَ الله عز وجل ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۞ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٥-١٧] ؟!) .

ورأىٰ بعضُ العارفين رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جالساً في مكانٍ ، فدخل عليه الشيخُ أبو المواهب ، فقام له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقصَّ ذلك علىٰ سيدي أبي المواهب ، فقال له : يا فلان ؛ اكتمْ ما معك ؛ فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم هو روحُ الوجود ، وما قامَ لأحدٍ إلا قامَ له الوجود .

وكان رضي الله عنه يقول : (من أرادَ أن يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فليكثرْ من ذكره ليلاً ونهاراً ، مع محبَّتِهِ في السادة الأولياء ، وإلا فبابُ الرؤيا عنه مسدودٌ ؛ لأنهم ساداتُ الناس ، وربُّنا يغضبُ لغضبهم ، وكذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إن أولياء الله يطَّلعون علىٰ أمورٍ لم يطَّلعْ عليها العلماء ، فلا يسعُ الخائفَ علىٰ دينه إلا الأدبُ والتسليم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليك بصحبة الفقراء ، لو لم يكنْ إلا أخذُهم بيدك يومَ القيامة مع ما يحملونه عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب والهموم والأحزان ، وما يتلقَّون به القادمَ عليهم في البرزخ من الفرحِ والإكرام) .

وكان يقول : (ينبغي للفقيرِ أن يتعاهدَ مع أخيه : أنَّ كلَّ من سبق إلى حضرةِ الله تعالىٰ منهما يكونُ وسيلةً له عند ربِّه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (انظرْ إلى المؤمن لمَّا صحبَ الحقَّ تعالىٰ من حيث تخلُّقُه باسمه المؤمن كيف لا تقدرُ عليه النار ، وتقول له : « جُزْ يا مؤمنُ ، فقدْ أطفأَ نورُك لهبِي »)[١] .

وكان يقول : (بلغنا : أنه يُؤتىٰ بمن اسمُه محمد يومَ القيامة ، فيقول الله له : أما

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٦٩) .

استحييتَ إذْ عصيتني ، وأنت سَميُّ حبيبي ، لٰكن أنا أستحي أن أُعذِّبَك وأنت سَميُّ حبيبي ، اذهب فادخلِ الجنة) .

وكان يقول : (صحبة المبتدئ للمنتهي الذي لم يقفْ علىٰ مراسمِ الرسوم مضرَّةٌ غيرُ نافعةٍ ، لا سيما إن كان المنتهي خضريَّ المقام ، المباين لحكم عالم الملك والشهادة ، فهٰذا ليس به انتفاعٌ لأصحاب البداية ألبتة) .

قال المحقِّقُ أبو عبد الله النفريُّ[١] : (أوقفني الحقُّ تعالىٰ في التيه ، ثم قال لي من جملة كلامه : اصحبْ المحجوبَ ، وفارقِ الموصول ؛ وذلك لأن صحبةَ المحجوب أنفعُ للمحجوب من صحبة المكاشف بالغيوب ؛ لأنه يفعلُ علىٰ شاكلة ما شهدَ في الملكوت ، وربما يكونُ ذلك غيرَ مطابقٍ له في الملك ؛ لأن حكمَ الغيب غيرُ حكم الشهادة ، واعتبرْ أيُّها المنكرُ بقصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر عليه السلام ، ففي ذلك مقنعٌ للعاقل ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (التسليمُ للقوم أسلمُ ، لٰكن الاعتقادَ فيهم أغنم ، فكمِ استغنىٰ بصحبتهم فقير ، وجُبر كسير ، وارتفع وضيع ، وسُتر شنيع ، ومات غويٌّ ، وهلك ظالم ، ورُفعتْ مظالم ، وفيهم ورد الحديث : « بهمْ تُرزقونَ وتُمطرونَ وتُرحمونَ »)[٢] .

وكان رضي الله عنه يقول : (قد غلطَ أكثرُ الناس في وصفِ أهل الصلاح بالنحول والتقشُّف فقط ، وليس الأمر كما ظنُّوا ، بل فيهم السمينُ والهزيل ، والمترفِّهُ والمتقشِّفُ ، ودليلُ السمين قوله تعالىٰ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] وكان صلى الله عليه وسلم له عكَنٌ[٣] من السِّمن ، وكان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بديناً غليظَ الساقين ، عظيمَ البطن) .

وكذا ذكر شيخُنا الحافظُ ابنُ حجر في صفةِ الأستاذ الكبير سيِّدي أحمد البدوي

---

(١) المواقف (ص ٧٥) الموقف (٤٦) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٨/ ٦٥) بلفظ : (لا تسبوا أهل الشام ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فيهم الأبدال ، وبهم تنصرون ، وبهم ترزقون ») .

(٣) **العُكْنَة** : الطي في البطن من السِّمن ، والجمع عكن ؛ مثل غرفة وغرف .

رضي الله عنه : أنه كان غليظَ الساقين ، عظيمَ البطن .

وأما دليلُ المترفِّهِ والمتقشِّفِ فكثير في السنة المحمدية .

وكان رضي الله عنه يقول : احذرْ بعد صحبةِ القوم أن تُفشي أسرارَهم لغيرهم ومَنْ ليس له مشربُهم ولا ذوقُهم ؛ فإن الله تعالىٰ ربَّما مقتَكَ فخسرتَ الدنيا والآخرة ، ولا يخفىٰ أن إظهارَ السرِّ كإظهار العورة ، وقد حرم كشفها ، والنظر إليها ، والتحدُّث بها ، ووردَ : « منْ سترَ عورةَ أخيهِ سترَ اللهُ عورتَهُ ، ومنْ كشفَ عورةَ أخيهِ كشفَ اللهُ عورتَهُ حتَّىٰ يفضحَهُ »[١] ، وهـٰذا الأمرُ يقع فيه كثيرٌ ممن يدخلُ في صحبة الفقراء من غير صدق ، ويُفارقهم بغيرِ جميلٍ ، وأنشد بعضهم[٢] : [من المتقارب]

تغيَّـرَ إخـوانُ هـٰـذا الـزَّمـانِ ... فكـلُّ خليـلٍ عَـراهُ الخَلَـلْ
وكـانـوا قَـديمـاً علـىٰ صِحَّـةٍ ... فقـدْ دَاخلَتْهُـمْ حـروفُ العلـلْ
قضيـتُ التعجُّـبَ مـنْ أمـرِهـم ... فصـرتُ أُطـالـعُ بـابَ البـدلْ

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا نقلَ إليك أحدٌ كلاماً عن صاحبٍ لك فقل له : يا هـٰذا ، أنا من صحبة أخي وودِّهُ علىٰ يقين ، ومن كلامكَ علىٰ ظنٍّ ، ولا يُتركُ يقينٌ لظنٍّ) .

وكان ينشد كثيراً : [من البسيط]

شـاورْ أَخـاكَ إذَا نـابَتْـكَ نـائبـةٌ ... يوماً وإنْ كنتَ منْ أهلِ المشوراتِ
فالعينُ تلقَىٰ كِفاحاً ما نأَىٰ ودَنَا ... ولا تـرىٰ نفسَهـا إلا بمـرآةِ

وكان رضي الله عنه يقول : (إياك وعثراتِ اللسان عند بعض الأصدقاء ، فقد أُصيبَ من هـٰذا الباب خلقٌ كثيرٌ لثقتهم بأصدقائهم ، وما علموا أنهم جعلوا ذلك سلاحاً لوقتِ العداوة ، فإياك ثم إياك) .

وكان يقول : (من صحبَ ظالماً فهو ظالمٌ ؛ لأن مشاهدةَ الظالمِ تُورث الغفلةَ عن الله تعالىٰ والرضا عن النفس ، وتعقبه مجالسة الشيطان) .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الأبيات لابن جبير ، وانظر « نفح الطيب » (٢/ ٤٩١) .

وكان يقول : (إياكم وصحبةَ الأحداث والنساء ، والأمراء والسلاطين ، وأرباب الدنيا الذين لا خيرَ فيهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كثرتِ النيات كثرَ معنى العمل وإن كان مفردَ الصورة ، وذلك كمَنْ صَلَّىٰ صلاةً واحدةً ناوياً بها أداءَ الفرض ، وإحياءَ سُنةِ الجماعة ، والاقتداءَ به في ذلك ، وإظهارَ أبهة الإسلام ، وتكثيرَ سواد المصلِّين مع زيادة الزهد في الثناء عليه بذلك ، وعدم الالتفاتِ إليه ، ونحو ذلك ، فهٰذه حسناتٌ كثيرةٌ حفَّتْ عملاً واحداً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العبادةُ مع محبّة الدنيا شغلُ قلبٍ ، وتعبُ جوارحَ ، فهي ـ وإن كثرت ـ قليلةٌ ، وإنما هي كثيرةٌ في وهمِ صاحبها ، وهي صورٌ بلا أرواح ، إنما هي أشباحٌ خالية غيرُ حالية ، ولهٰذا ترىٰ كثيراً من أربابِ الدنيا يصومون كثيراً ، ويُصلُّون كثيراً ، ويحجُّون كثيراً ، وليسَ لهم نورُ الزهاد ، ولا حلاوة العبَّاد) .

وكان يقول : (إنما ضربَ الله مثلَ الحياة الدنيا بالماءِ ؛ لأن الماءَ إذا أمسكتَهُ تغيَّرَ ونتن وصارَ بليّةً ، وكذلك الدنيا تصيرُ بليةً) .

وكان يقول : (**أعلى الزهدِ** زهدُ الرجل في المقاماتِ العلية ، والأحوالِ السَّنية) .

وكان يقول : (إنما كان ذكرُ الله أكبرَ من الصلاة ؛ لأن الصلاة وإن كانت أشرفَ العبادات . . فقد لا تجوزُ في بعض الأوقات ، بخلافِ الذكر ؛ فإنه مُستدامٌ في عموم الحالات)[1] .

وكان يقول : (لا يجدُ أُنسَ الذكر إلا من ذاق وحشةَ الغفلة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (اختلفوا أيُّما أفضلُ : الذكرُ سرّاً أو جهراً ، والذي أقول أنا به : إن الذكرَ جهراً أفضلُ لمن غلبتْ عليه القسوةُ من أهل البداية ، والذكرُ سرّاً أنفعُ لمن غلبتْ عليه الجمعية) .

وكان يقول : (إنما اختار أهلُ التعريف ذكرَ « الله ، الله ، الله » فقط دون « لا إلـٰه

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

إلا الله » لوحشتهم من توهُّم ثبوتِ الإلـهية حتىٰ يَنفونها ، والذي أَقولُ به : إن مَنْ غلبت عليه الأهواءُ فذكرُ « لا إلـه إلا الله » أنفعُ له ، ومن خلصَ من الأهواء فذكرُ الجلالة فقط أنفعُ له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ عملٍ اتَّصلَ بك شهودُهُ فهو غيرُ مُتقبَّلٍ ؛ لأنه تعالىٰ يقول : ﴿ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر : ١٠] فمن شهدَ له عملاً ، ودام ذلك فعملُه عند نفسه لا عند ربِّه ، فافهم) .

وكان يقول : (الطامعُ كلبُ المطموع فيه ، فإن لم يكن عنده طمعٌ سَلِمَ من ذُلِّ الكلاب) .

وكان يقول : (الله أكبرُ ما أَخفىٰ لطائف التعريف ! يشردُ عبدُهُ عن حضرته ، فيردُّه إليها بالتعنيف ، مع أنه في ذلك ربٌّ لطيف) .

وكان يقول : (سألتُ ربي ليلةً أن يُلهمني حمداً أَحمدُهُ به ، فأملىٰ علىٰ لساني الواردَ في الحال : الحمدُ لله ، ولله الحمدُ بكلِّ المحامد علىٰ كل المحامد ، بجميع المدائح المحمودة في جميع الحمد ، والمدحُ بما يجبُ للحمد لك حمداً أَزلياً ، لا أَوَّلَ لبدايةِ حمده غيرُ حمدِهِ بحمده لحمده في جميع المحامد الأزلية والأبدية بلسانِ جمع الحمد ، وفرقِهِ في جميع المحمود بذاته لذاته ، وبصفاته لصفاته ، وبفعلِهِ علىٰ فعله) ، وأطال في ذلك في شرح قوله في « الحكم » : (مَنْ لم يَشكرِ النِّعَم فقد تعرَّضَ لزوالها) ، فراجعْهُ إن شئتَ .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذرْ أن يكونَ شكرُكَ لأجلك ، بلِ اجعلْ شكركَ امتثالاً لأمر ربِّك لك بالشكر ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي ﴾ [لقمان : ١٤] فافهم تعلم ، وإن لم تعلم تعلَّمْ ، واعرفْ قدرَ ذوق أهل المعرفة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مقامُ الفقر في كلِّ شيءٍ لله أتمُّ من طلب المزيد) .

وكان يقول : (ذكرُ أهلِ الحضرة : الحمدُ لله ، وأستغفرُ الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وزدت أنا عليهم آيةً من كتاب الله تعالىٰ لتكونَ حِرزاً عليهم ؛ لأن كلَّ أحدٍ يحبُّ دوامَ النعمة عليه ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [الكهف : ٣٩] وهي

كانت هِجِّيرَ الإمامِ مالك رضي الله عنه[١] ، فكان لا يقومُ ولا يقعد إلا قالها ، حتىٰ إنه كتبها علىٰ بابِ داره ، وقال : جنَّةُ الرجل دارُهُ ، واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الكهف : ٣٩] أي : لو قالها الرجلُ لسلمتْ جنَّتُهُ من الآفات) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢] : (أي : بحقيقةِ الاستدراج ، وذلك أن يُغطِّي عليهم حقائقَ الحقِّ ، ويلقي في أوهامهم أنهم علىٰ صوابٍ وحقٍّ ، وأنهم غيرُ مؤاخذين علىٰ أفعالهم ، نسأل اللهَ اللُّطفَ ، فمن أراد الوقايةَ من الاستدراج فليخف عند ورودِ النعم عليه أن يستعملَها في غيرِ ما وضِعَتْ له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ربما مُنِعَ المريدُ من المزيد من أجل قوله لشيخه « لِمَ » فإنه ذنبٌ عند أهل الطريق لا يشعرُ به كلُّ أحدٍ) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أدب وتأديب ، فهم يُناقشون من جهة الحقِّ مناقشةَ الجليسِ جليسه ، والصاحبِ صاحبه ؛ لأنهم جلساءُ الحقِّ ، وصاحبُ الأدب لم يزل مستورَ العورة في الدنيا والآخرة ، والعكس بالعكس) .

وكان يقول : (لا تُجالسوا العارفين إلا بالأدب ، فرُبَّما مُقتَ من أساء أدبَه معهم ، ومُحي من ديوان القرب) .

وكان يقول : (من لم تؤدِّبْهُ الصُّوفية فليس بأديب) .

وكان يقول : (الوارداتُ مختلفةٌ من حيث الموروثة عليه لا من حيث نفسُها ؛ فإنها واحدٌ ، فهي كالمطر علىٰ أرضٍ فيها أنواعٌ من البذر ، فالمطرُ واحد ، والنباتُ مختلفٌ ﴿ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ [الرعد : ٤] فافهم) .

وكان يقول : (التعبُّدُ هو مفتاحُ باب الخير ، فمن فاتتْهُ الأورادُ في بدايته فقد حُرِمَ الواردات في نهايته ، فللأعمال أنوارٌ كما أن للمعارف أسراراً ، فعليك أيُّها السالكُ بالدوامِ على الأوراد ولو بلغتَ المراد) .

---

(١) **الهِجِّيري** : الدأب والعادة والدَّيدنُ .

وكان يقول في معنىٰ قول القوم : (فلان عنده استعداد) : (أي : صَقَلَ مرآةَ قلبه بأنواعِ المجاهدات التي بسببها يكونُ الجلاءُ الموجب لتجلِّي صور الحقائق في القلب الصافي كما هو معلومٌ حسّاً ، هـٰذا في المحبِّين ، وأما في المحبوبين فقلوبُهم منوَّرَةٌ مصقولةٌ اختصاصاً إلـٰهيّاً) .

وكان يقول : (ما وردَ عليك هو ما ظهرَ منك لك ، وما جلا عليك هو منك إليك ؛ مثالُ ذلك النواةُ إذا زُرعتْ ؛ فكلُّ شيءٍ وردَ عليها من ورقها وثمرِها كان فيها مُودعاً بالقوة ، كذلك أنت أيُّها الإنسانُ لا يردُ عليك قطُّ خارجٌ منك من غيرك ، بل الواردُ عليك فيك غيباً ، ثم ظهرَ لك شهادةً ؛ لتعرفَ مقدارَ ما أنعمَ اللهُ عليك ، ووراء ما أَشرتُ إليه رموزٌ ولغوزٌ ضمنها كنوزٌ ، سَعدَ مَنْ لها يحوز وبحرَها يجوز) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ثَمَّ من العلوم اللدنية ما لا يُمكنُ الجوابُ عنها حقيقةً ولا شريعة ، مع أن التعبيرَ عن كلِّ ما يشهدُهُ الإنسان غيرُ ممكنٍ ؛ وذلك أن منَ المشهودِ ما هو أوسعُ أن يدخلَ في ضيقِ العبارة ، وألطفُ من أن تكشفه الإشارة ، وذكرُ كلِّ معلوم يدلُّ علىٰ قلَّةِ علمِ صاحبه ؛ لأن من العلومِ ما لا يدخلُ تحت دائرةِ الحصر ؛ كالعلوم الملكوتية المُفاضةِ من عوالم الغيوب ، ممَّا لا يفهمه العقل ، ولا يُدركه الوهمُ ، ولا يسعه الحفظُ ، وهو في قلوب العارفين به يكونُ أولاً مجملاً ، ثم يفصَّل لهم بحسب الوقائع والحاجةِ إليه .

ثم منه ما لا يكونُ إلا غيباً في غيب ، ومنه ما يكون غيباً في شهادةٍ ، ومنه ما لا يؤذن في إفشائه لأحدٍ ألبتةَ ، ومنه ما يُؤذن في إفشائه لقومٍ دون قوم ، وإذا كان ذلك كذلك فالجوابُ عن كلِّ سؤال) .

قال بعضُ من لاح له ما أشرنا إليه : أكونُ حالةَ الأخذِ عن البشرية في حضرةٍ أُشاهدُ فيها ملائكةً يتكلَّمون بعلومٍ لدُنِّية أفهمها هناك بفهمٍ يُناسب تلك الحالة الملكية ، فإذا عدتُ إلىٰ بشريَّتي نَسيتُ ما علمتُ ، ولم أذكرْ شيئاً ممَّا سمعتُ ؛ وذلك لأني خرجتُ من وصفٍ إلىٰ وصف ، ومن عالمٍ إلىٰ عالم ، وكلُّ علمٍ له ما لا يوصف ذلك العالم يُدركُ حقائقه العالِم[1] ؛ ولهـٰذا كانتِ العلومُ الكشفية غيرَ العلوم العقلية ، والعقليةُ غيرَ

---

(١) في (أ ، و) : (وكل علم له عالم يوصف ذلك العالم بدرك حقائقه العالم) .

النقلية ، وعلمُ العبارةِ غيرَ علم الإشارة ، فمن أرادَ أن يأخذَ علمَ الإشارةِ من العبارة فقد طلبَ المُحال ، وأنكرَ على الرجال ، وحُرِمَ تمام الكمال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الدرجاتُ في الدنيا دليلٌ على الدرجاتِ في الآخرة ، والكراماتُ هنا دليلٌ على الكرامات في الآخرة ، كما أن البعدَ هنا دليلٌ على الطردِ في الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء : ٧٢] والمرادُ بهٰذا العمىٰ هو عمى البصيرةِ بالضلالِ عن الرشد وطريقِ الحق ، نسألُ اللهَ العافية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من كان علمه متعلِّقاً بالظواهر فله في الجنة منزلةٌ تُناسب الظواهر ، ومن كان علمه متعلِّقاً بالبواطن فله منزلةٌ تُناسب البواطن ، ومن كان علمه بدنيّاً فله منزلةٌ في الآخرة تُناسب أعمالَه العملية[1] ، وكذلك القولُ فيمن كان عمله قلبيًّا أو روحيّاً أو سرِّيّاً ، فلكلِّ حالٍ مقامٌ عند الله تعالىٰ ، وعلىٰ قدرِ سلوك الطريقِ يكونُ التحقيق) .

وكان يقول : (احذروا من قولكم : « ذهب الأكابرُ والصادقون من الفقراء » فإنهم ما ذهبوا حقيقةً ، وإنما هم ككنزِ صاحب الجدار[2] ، وقد يُعطي اللهُ تعالىٰ من جاء في آخر الزمان ما حجبَهُ عن أهلِ العصر الأول ، فإن الله تعالىٰ قد أعطىٰ سيدنا وحبيبنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما لم يُعطِ الأنبياء قبله ، ثم قدَّمه في المدح عليهم .

ويا لله العجب من كثيرٍ من المتفقهة يُنكرون ما أجمعَ عليه الأولياء ، ويصدِّقون بما وصلَ إليهم علىٰ لسان فقيهٍ واحد ! وربما يكون استنادُهُ في ذلك القولِ إلىٰ دليلٍ قياسيٍّ ضعيف ، أو إلىٰ شذوذٍ من القول ، ما ذاك واللهِ إلا لغلبةِ الحرمان .

ثم مع إنكارِهِ إذا أصابَهُ همٌّ أو مصيبةٌ يأتي إلىٰ قبورِهم ، فيحمِّلُهم الحملةَ دون الفقيه الذي صدَّقَ قولَهُ وقدَّمَه عليهم ، وكان الأمرُ بالعكس ، فإياكَ يا أخي أن تُحرمَ احترامَ أصحاب الوقت ، فتستوجب الطرد والمقت ؛ فإن من أنكرَ علىٰ أهل زمانه حُرِمَ بركةَ أوانه) .

---

(١) كذا في النسخ : (علمه) في المواضع الثلاثة ، بتقديم اللام على الميم .

(٢) انظر الآيات (٧٧ـ ٨٢) من سورة الكهف .

وكان يقول : (من وقفَ مع عاداته وعلومه ، ولم يظنَّ أنَّ فوق علمِه علوماً . . فهو محرومٌ من جميع المواهب ، حتىٰ من أهلِ مذهبه ، ويُسمّىٰ هـٰذا بالجاهل المركب ، فإياك والبحثَ مع مثل هـٰذا أو الجدالَ ليرجع ؛ فإنه لا يرجعُ ، ويتَّسعُ المجال بينكما ، وربما صار يستفتي عليك وينسبُكَ إلىٰ أمورٍ أنت منها بريء حتىٰ يُتعبَ سرَّك ، فكفَّ عنه ما دام يَرىٰ نفسَه عليك ؛ فإن الجاهلَ لا يُنصفُ المحقَّ أبداً ؛ لعدم ذوقهِ لِحاله ، إلا أن يُداركَهُ اللهُ تعالىٰ بالتسليم، وآمن أنَّ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]) .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقير أن يستكثرَ شيئاً من الدنيا في مقابلةِ عملٍ قليل أُخروي يبقىٰ ، وقد أعطى الشيخُ ابنُ أبي زيد القيروانيُّ(١) مؤدِّبَ ولده مئةَ دينار حين أقرأه حزبين من القرآن ، فقال المؤدِّبُ : هـٰذا كثير ! فأخرجَ ولده من عنده ، وقال : هـٰذا يعظِّمُ الدنيا) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ نفسَك مُعْرضةً عن موادةِ أهل الله تعالىٰ فاعلم أنك مطرودٌ عن باب الله) .

وكان يقول : (إذا رأيت مَنْ رُزقَ العلوم ، وفُتح له خزائنُ الفهوم فلا تُحاججه بنقل الطروس ، ولا تُجادله بعزَّةِ النفوس ، وتقول : هـٰذا لم نجدْه في الأسفار عن أحدٍ من الأخيار ؛ فإن المواهبَ تَفوقُ المكاسب) .

وكان يقول : (من أنكرَ ما لم يجدْ حُرم بركةَ ما وجد ، ومن كان كثير النكير فهو فاقد التنوير) .

وكان يقول : (تأولوا الجميلَ للرجل الجليل) .

وكان يقول : (من علامةِ من أُذن له في الكلام قبولُ الناس له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من ادَّعىٰ أنه برٌّ فلا يُؤذي الذَّر) .

وكان يقول في قول بعضهم : (ما فعلتُ كذا إلا بإذنٍ من الله تعالىٰ) : (مرادُه بالإذن : نورٌ يقعُ في القلب ، ينشرحُ له الصدر ، وليس ذلك بحجَّة لفقد العصمة ،

---

(١) عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمـٰن القيرواني المالكي : فقيه مفسِّر ، له كتاب « النوادر والزيادات » ، و« إعجاز القرآن » ، توفي سنة (٣٨٦هـ) ، وقيل : (٣٨٩هـ) .

لا سيما إن كان علىٰ غير قانون الشرع ، فما كلُّ واقعٍ للفقير حقٌّ) .

وكان يقول : (هـٰذا الكونُ كبيت نغمة الصَّدىٰ ما قلتَهُ فيه ردَّهُ عليك ، ومرآةٍ يتجلَّىٰ فيها ما بدا منك إليك) .

وكان يقول : (العابدُ في وهمٍ وتقييد ، والمقرَّبُ في فرحٍ وتأييد) .

وكان يقول : (تنزَّهتْ أبناءُ الأزل عن الوقوفِ مع العملِ بالعلل) .

وكان يقول : (لا تكنْ ممن يَعبدُ ليعبدَ ، ولا ممَّن يسوِّدُ الجباه للجاه ؛ بل اعبدْ ربَّك لا لغرضٍ ولا لعرض) .

وكان يقول : (علمُ اليقين يحصلُ عن قاطع البرهان ، وعينُ اليقين يحصلُ بشهود العيان ، وحقُّ اليقين تحقيقُ صورة العيان ؛ مثال ذلك : ما استُفيدَ بالعلم المتواترِ علمُ يقين ، وفوقه عينُ يقين ، والحلولُ به حقُّ يقين) .

وكان يقول : (الواردُ مثلُ العطاس ، لا يُردُّ إذا ورد ، ولا يُستجلبُ بحيلةٍ ، ولو دُفِعَ كان عناءً وتعباً وعللاً ، وكلُّ واردٍ لا يُوافقُ الشرعَ فهو ظلمة) .

وكان يقول : (أحسنُ بذر الفلاح ما بذرَهُ الفلاحُ ، ثم سترَهُ بعد بذرِهِ حتىٰ ينبتَ في بطن الأرض ، وأَقبحُهُ ما نبتَ فوقها ؛ لأنه لا ثباتَ له) .

وكان يقول : (اتِّباعُ شهوات النفوس هي التي تُنكِّسُ الرؤُوس ، ومن أطلعَه اللهُ تعالىٰ علىٰ دسائسِ نفسه أمنَ من عكسه ونكسه) .

وكان يقول : (علامةُ فتح القلوب ألا يدخلَ فيه خلل ، وعلامةُ فتح النفوس السآمةُ منه والملل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (حقيقةُ الكشفِ أن تنظرَ الظلمة عينَ النور ، وتشهدَ رفعَ الغِطاء في الستور ، وأَعلىٰ مراتبِ الكشف أن يُطلعَهُ اللهُ على المقرِّ والمستودع ، ودونه من أطلعَهُ اللهُ على البداية دون الغاية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من شهدَ باطنَ الأواني نال أسرار المعاني) .

وكان يقول : (ظهور الأخيار من غير اختيار) .

وكان يقول : (من علامة المُعتَنَىٰ به في الأزل ألا يُسلبَ ما فتح ولا يُخلع ، ومَنْ رام مزاحمةَ أهل العناية وقعَ في شرك العناء والتعب ، ولا يَقضي أرب) .

وكان يقول : (إن أردتَ الوصولَ بلا تعب فاستمسكْ بأهلِ الحسب) .

وكان يقول : (من كان له بالتعظيم بين العوام صورة لم يكنْ له بالتخصيص عند أهل التحقيق صورة ؛ وذلك لأن محبَّ الله مشهور ، ومحبوبَ الله مستور) .

وكان يقول : (إساءةُ الأدب علىٰ أهلِ الرُّتب تُوجب العطب) .

وكان يقول : (الإسرارُ بالذكر من شأن الخواصِّ لا المريدين ؛ لأن المريدَ يذكرُ ليستنير قلبُه ، والمُرادُ وجدَ النورَ قبل الذكر[1] ، ومن العجبِ ذكرُ الحاضرِ القريب ، فما بقي للذكر سُلطانٌ إلا علىٰ سبيل التعليم ، أو حال غيبة الذاكر عن المذكور) .

وكان يقول في قولهم : قيل لي ليلةَ البارحة كذا مثلاً ، مُرادهم : إما هاتفُ الحقيقة ، أو أنه سمعَ الملَكَ من غير رؤيةٍ لشخصه ، أو رؤيته علىٰ غير صورته الأصلية ، أو مرادهم ما يسمعونه من قلوبهم ، أو ما يُفهم من حال الشيء بحسب مراتبهم في ذلك الوقت ، والأخيرُ خاصٌّ بالمريدين .

وكان يقول : (من كان للخلقِ أرضاً فهو لربِّه أرضىٰ ، ومَنْ على الخلقِ تعالىٰ . . لا يُقال له : تعال) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ في منامك شيئاً من البُشرىٰ فلا ترضَ عن نفسك حتىٰ تعلمَ رضا الله عنها) .

وكان يقول : (رُبَّ امرئ مُزار حمَّلَهُ الزائرُ الأوزار ، فتفقَّدوا نفوسَكم عند قدوم الزائر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من حمَّلَ الفقراءَ ما يردُ عليه من النكد . . فكأنه بال عليهم إذا ورد) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كان الإسراءُ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

---

(١) المراد في مقابلة المريد ؛ وهو المجتبىٰ .

المراكز العليّة ؛ ليشهدَ الملائكةَ الملكوتية ما ليس فيهم ولا في الملكوت مِنْ عزيز الخصائص وكمال النعوت ، فأراد الحقُّ بالإسراء أن يُري محمداً صلى الله عليه وسلم قدرَ ما أنعم به عليه ، فكان ظاهرُهُ اجتباءً ، وباطنه ابتلاء ؛ لعدم قيامِ العبدِ بشكرِ جميع النعم الربانية ، فافهم) .

وكان يقول : (لا تستقلَّ بالعالِمِ الفقير ، ولا تنظرْ إليه بالتحقير ، فربَّما تقدَّم علىٰ أهل الزمان ، إذا جاء وقتُ الامتحان لهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (شيخُ الأمير طبلٌ كبير ، وشيخ السُّلطان أخو الشيطان) .

وكان يقول : (الأستاذُ هو مَنْ كمَّلَ الدوائر وانطوىٰ فيه علمُ الأوائل والأواخر ، ويُسمَّىٰ بالعالمِ المطلق ، فكلُّ أستاذ شيخٌ ، ولا عكس) .

وكان يقول : (من شرط المريد ألا يخرجَ عن التحديد) .

وكان كثيراً ما يتمثَّلُ بقول الشيخ محيي الدين رضي الله عنه حين يستغربُ أحدٌ قولاً : [من البسيط]

تـركنَـا البِحـارَ الـزاخـراتِ وراءَنـا ... فمنْ أينَ يَدري النَّاسُ أينَ توجُّهنا

وكان رضي الله عنه يقول : (كان سجودُ الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام إشارةً لتواضع الصغير للكبير ، وإظهاراً للكرامةِ بظهورِ صورته بسِمَة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن رأسَ آدم عليه السلام ميم ، ويديه حاء ، وسرَّتَه ميم ، ورجليه دال ، وكذا كان يُكتب في الخطِّ القديم وإنما لم تظهرِ اليدُ الأخرىٰ حتىٰ يكون يميناً وشمالاً هٰكذا ؛ لأن الأولَ أعظمُ في المدح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظرُ من خلفه كما ينظرُ من أمامه ، فيصيرُ يسارُ الخلق يميناً لذلك الوجه المختصِّ به صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا قال بعض العارفين : لا يُقال ليدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسار ، وإنما يُقال : اليمينُ الأول ، اليمين الثاني ، أو يمين وجههِ ، ويمين خلفه .

وهنا دقيقةٌ ؛ وهي خروجُ عددِ المرسلين الثلاث مئة والأربعة عشر من اسمه صلى الله عليه وسلم وذلك أن اسمه محمد ، فالميمُ الأول منه إذا نطقتَ بها كانتْ ثلاثةَ أحرفٍ ، والحاءُ حرفان حاء وألف ، والهمزة ساقطة لأنها ألف ، والميمان المدغمتان كذلك ستة أحرف ، والدالُ كذلك دال وألف ولام ، فإن عددتَ حروفَ اسمه كلَّها ظاهرها وباطنها ، حصل لك من العدد ثلاث مئة وثلاثة عشر على عدد الرسل المتفرِّعين منه صلى الله عليه وسلم الجامعين للنبوة ، ويبقى واحدٌ من العدد هو لمقامِ الولاية المفرَّقِ على جميع الأولياء التابعين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وله صلى الله عليه وسلم ، فافهم) .

وقد التقطتُ جميعَ ما نقلته عنه من شرحه لـ : « الحكم » ، ومن كتاب « القانون » له ، رضي الله عنه ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٢٣) الشيخ حسين الأَدمي رضي الله عنه(١)

أحدُ مشايخ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه .

وكان مُقيماً بالحسينية بمصر .

قال سيدي أحمدُ الزاهد : (وكان أصلُه من مُرَّاكش بأرض المغرب ، وكان له هناك أرضٌ يزرعها ، ويرعى فيها غنمه ، فلما جاءَ إلى مصر كان في كلِّ يومٍ يُرسل غُنيماته مع النقيب يرعاها بمرَّاكش ، ويبيِّتُها بمصر) .

قال سيدي أحمد رضي الله عنه : وكنتُ جالساً عنده يوماً ، فجاء يهوديٌّ ، وقدَّم رجلَه(٢) وهي في النعل ، وقال : يا مسلم ؛ اقطعْ لي هـٰذه الجلدة التي تُؤذيني ، فقال : باسم الله ، وأخذ الشفرة ، وقال : الله أكبر ، فصاح اليهوديُّ : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله ، وقال : يا أحمد ؛ إن عشتَ أفعلْ كذا ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ١٨٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٤٠٥) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ٣٤) (٣٦٣) .

(٢) في « طبقات المناوي » : (أنه كان يخيط النعال بالحسينية ، فجاءه نصراني ، فمدَّ رجله) .

ومنهم :

(٣٢٤) الشيخ أحمد بن سليمان الزاهد رضي الله عنه[١]

هو الشيخ الإمام العالم العامل الربَّاني ، شيخُ الطريق ، وفقيه أهلها .

ربَّى الرجال ، وأحيا طريقَ القوم بعد اندراسها .

وكان يقال : هو جُنيد القوم .

وكان يتستَّرُ بالفقه ، لا تكادُ تسمعُ منه كلمةً واحدة من دقائق القوم .

وصنَّفَ عدَّةَ رسائل في أمور الدين .

وكان يعظُ النساءَ في المساجد ، ويخصُّهنَّ دون الرجال ، ويعلمهنَّ أحكامَ دينهنَّ ، وما عليهنَّ من حقوقِ الزوجية والجيران ، وعندي بخطِّه نحو ستين كرَّاساً في المواعظِ التي كان يعظها لهنَّ .

وكان رضي الله عنه يقول : (هٰؤلاء النساءُ لا يحضرنَ دروسَ العلماء ، ولا أحدَ من أزواجهنَّ يُعلِّمهنَّ) .

وكان يقول : (بينما أنا ذاهب إلى المكتب وأنا صبيٌّ عارضني شخصٌ من أولياء الله أَشعثُ أغبر ، فطلب مني غدائي ، فأعطيتُهُ له ، وعزمتُ على الجوع ، فأخذه مني ، وقال لي : يا أحمد ؛ تبني لكَ جامعاً في خطِّ المقسم ، وتلقَّبُ بالزاهد ، ويعارضُك في عمارته جماعةٌ ، ويخذلُهم الله عز وجل ، وتصيرُ المشارَ إليه في مصر ، ويتربَّىٰ علىٰ يديك رجالٌ ، فكان الأمرُ كما قال ، ولم أجتمعْ بذلك الرجل بعد ذلك اليوم) .

قلت : وقد عارضَهُ من العلماء جماعةٌ ؛ منهم : شيخ الإسلام ابنُ حجر ، وجمال الدين صاحب الجمالية التي بالقرب من خانقاه سعيد السعداء ، حتىٰ أرسل وراءَ التَّرَّاب ، ومنعه أن ينقلَ ترابَ عمارة جامع الشيخ ، فقال الشيخُ : كلُّ فقيرٍ لا يظهرُ له برهانٌ لا يُحترمُ له جناب ، ثم وضعَ رأسَه في طوقه ، وتوجَّه في تغيير خاطرِ السُّلطان

---

(١) انظر « إنباء الغمر » (٧/ ٢٢٩) ، و« الضوء اللامع » (٢/ ١١١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٤٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٤) (٣٦٤) .

علىٰ جمال الدين ، فأرسل ذلك الوقت وراءه ، وحبسَهُ ، ولم يذكرْ له ذنباً ، ولم يزل جمالُ الدين محبوساً حتىٰ فرغَ الشيخُ من تعمير الجامع ، وقال للتَّرَّاب : انقلْ وقلبُك قويٌّ طيِّبٌ ، لا نُطلقه من الحبس حتىٰ تفرغَ تنقل التُّراب .

وأنكرَ عليه أيضاً قبل ذلك الشيخ سراجُ الدين البُلقيني ، وبالغ في إنكاره عليه ، فبلغ ذلك سيدي أحمد ، فقال : ماذا يُنكر علينا ؟ فقال : يقولُ إنك تأخذُ طوبَ المساجد الخراب تبني بها جامعَك ، فقال : كلُّها بيوتُ الله .

ثم إن الشيخَ دخل الجامع الأزهر بقصد البُلقيني ، ونصبَ كرسيّاً في صحن الجامع وهو في حالٍ ، حتىٰ صارتْ عيناه كالجمر الأحمر ، ثم جلسَ على الكرسي ، وقال : من يسألني عن كلِّ علمٍ نزلَ من السماء أُجبه عنه ، فبُهتَ الناسُ كلُّهم ، ولم يسألْه أحدٌ ، فلما سُرِّي عنه قال : من جاء بي إلىٰ هنا ؟! فقالوا له : وقع منك كذا وكذا ، وقلت : كذا وكذا ، فقال لهم : هل سألَ أحدٌ ؟ فقالوا : لا ، فقال : الحمدُ لله ، لو خرجَ إلينا أحدٌ لافترسناه ، ثم خرجَ من الجامع .

وكان رضي الله عنه إذا دُعي إلىٰ شفاعةٍ عند من لا يعرفه يقول لصاحب الحاجة : اذهبْ فخذْ لك أحداً من وجوه الناس ، واسبقني إلىٰ بيتِ الرجل ، فإذا جئتُ فقوموا وتلقَّوني وعظِّموني حتىٰ تمهِّدوا لي مكاناً للشفاعة ، فإني رجلٌ مجهول الحال بين هٰؤلاء .

وكان يقول : (ما دخلَ أحدٌ إلىٰ مسجدي هٰذا ثم صلىٰ ركعتين إلا أخذتُ بيده في عرصاتِ القيامة ؛ فإن اللهَ شفَّعني في جميعِ أهل عصري) .

وكان يسترُ نفسَه ، ولا يذكرُ قطُّ شيئاً من الكشفِ إلا علىٰ لسان بعضهم .

وأخلىٰ مرةً مُريداً ، فكُشِفَ للمُريد أن الشيخَ من أهل النار ، فتوجَّه إلى الله أن يمحوَ اسمَ شقاوته ، فدقَّ الشيخُ على المريد وقال : يا ولدي ؛ أنا لي منذ ثلاثين سنةً أرىٰ ذلك ولم أعترضْ ، ولا سألتُ التغييرَ ، فأنت في ساعةٍ واحدة تقلقتَ ، ثم توجَّه الفقير فوجد الشيخَ قد حُوِّل اسمُه في السعداء .

وكان رضي الله عنه يمتحن المريدَ قبل أن يأخذَ عليه العهدَ سنةً وأكثر .

ولما جاء سيدي محمد الغمري ليأخذَ عنه الطريق وافقَ الدخولُ بعد العشاء وقد أُغلق باب الجامع ، فقال : افتحوا لنا ، فقال الشيخ : نحن لا نفتحُ الجامعَ بعد العشاء ، فقال : إن المساجد لله ، فقال الشيخ لخادمه : نفسُ فقيه ، يا فلان ؛ افتحْ له ، ففتحوا له ، فدخل ، فقال : أين الشيخُ ؟ فقال له الشيخ : ما تفعلُ به ؟ فقال : أطلبُ الطريق إلى الله ، فقال : ما أنت أهلاً لها ، فقال : ببركةِ الشيخ أكونُ إن شاء الله أهلاً لها ، فتعرَّفَ له الشيخ ، فعرفه ، ولقَّنَهُ الذكر ، وجعله خادماً في الميضأة ، ثم نقله إلى البوابة ، ثم نقلَه إلى الوقادة ، فمكث عشر سنين ، فنام عن الوقود في الفجر ، فخرجَ الشيخُ ، فقال : يا محمد ؛ فقال : نعم ، فقال : أوقد الجامع ، فقال بيده ، وحلق على الجامع فأُوقدتْ مصابيحه كلها[١] ، فقال له الشيخ : اذهب إلىٰ بِلْبِيس انفعِ الناسَ ، ما بقي لك إقامةٌ هنا ، فذهب إلىٰ بِلْبِيْس ، فلم يصحَّ له فيها قدمٌ ، فانتقل إلىٰ محلَّة أبي الهيثم[٢] ، فلم يصحَّ له فيها قدمٌ ، فذهب إلى المحلَّة الكبرىٰ ، فكان من أمره ما كان ، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالىٰ[٣] .

وكان سيدي أحمد رضي الله عنه لا يدخلُ إلىٰ بيته من الجامع إلا بعد صلاة الجمعة ، فكان يُصلِّي ويدخلُ ، فيمكث إلى العصرِ ، فدخل يوماً فرآهم يضحكون وهم مبسوطون ، فقال : ما لكم ؟! فقالوا : شخصٌ يُسمَّىٰ عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر أرسلَ إلينا لحماً وملوخية وعسلاً ، وقال اطبخوا وكلوا ، فقال الشيخ : وجبَ حقُّه علينا ، فأرسل وراءه وأخذ عليه العهد .

وكانت مجاهداتُهُ فوق الحدِّ ، وقد رأيتُ له حبلاً مربوطاً في السقفِ في خلوته فوق ميضأة جامع سيدي أحمد الزاهد رضي الله تعالىٰ عنه ، فكان لا يضعُ جنبَه إلى الأرضَ سنين ، حتىٰ وقعَ له الفتح وكان من أمره ما كان .

وأما سيدي مدين فجاء إلىٰ سيدي أحمد بعد أن كان اشتغلَ بالعلم زماناً ، فأخذ

---

(١) في (ح) : (قناديل الجامع جميعها) .

(٢) **محلة أبي الهيثم** : قرية من أعمال الغربية في المحلة الكبرىٰ ، واسمها الآن الهياتم ، « قاموس رمزي » (٢/ ١٨) .

(٣) انظر ترجمته في « الطبقات الوسطى » (٤/ ٣٤ـ ٤١) .

عليه العهدَ وأخلاه ، ففُتحَ عليه ثالث يوم ، فكان سيدي أحمد رضي الله عنه يقول : كلُّ الناسِ جاؤونا وسراجُهم مطفأٌ إلا مدين فإنه جاء وسراجُهُ موقدٌ ، فقوَّيناه له .

وسافر سيدي محمد الغَمري إلىٰ ناحيةِ دمياط ، فاشترىٰ لبيتِ الشيخ علبةَ حلاوة ، فتحرَّكَ الريحُ ، فجاء فيها حبلُ الراجع ، فرماها في البحر ، فلما وصلَ سيدي محمد إلى القاهرة ودخلَ وسلم على الشيخ قال له : يا محمد ؛ أين هديَّتُك ؟ فقال : يا سيدي ، رماها الراجعُ في البحر ، فقال للخادم : ادخلْ به هـٰذه الخلوة واعرضْ عليه الخبرَ[1] ، فدخل ، فوجد العلبةَ على الرفِّ وهي تقطرُ ماءً ، فقال : يا محمد ، وصلتْ هديتُك .

ولما حضرته الوفاة تطاول بعضُ الفقراء للإذن له بالجلوس في الجامع بعد الشيخ ، فجمعهم الشيخ وقال : أنا أقسم بينكم الميراثَ في حياتي ؛ لئلا تتنازعوا بعدي ، فقال لسيدي محمد الغَمْري : يا محمد ؛ أنت خيرُك في الطريق لذرِّيتك ما لأصحابك منه شيءٌ سوى الرشاش ، وقال لسيدي مدين رضي الله عنه : يا مدين ، أنت خيرُكَ لأصحابك ما لذرِّيتك منه شيءٌ ، وقال لسيدي عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر : يا عبد الرحمـٰن ، أنت خيرُك لنفسك ، ما لذرِّيتِك ولا لأصحابِكَ منه شيءٌ .

وكان يقول : (الطريقُ بالمواهب ، ولو كانت بالاختيار كان ولدي أحقَّ بها) .

وكان يقول : (يا مَنْ يُربِّي لنا ولدنا ونربِّي له ولده) .

وكان يخرجُ في السحر علىٰ باب الجامع يتبرَّكُ بكلِّ من دخل مصر من المتسفِّرين[2] ، ويقول : إنهم مرَّ عليهم نسيمُ الأسحار .

وكان إذا جاءه إنسان بولدِهِ الصغير ليدعو له يقول : اللهم ؛ لا تجعلْ لهـٰذا الولد كلمةً ولا حرمةً في هـٰذه الدار .

وكان يهجرُ الفقراءَ كثيراً ، وربما يأمرُ الفقيرَ بالإقامة في الميضأة سنةً كاملة ، فيفعل .

وكان إذا جاءه شخصٌ يُريد المجاورةَ للاشتغال بالعلم يقول : يا ولدي ؛ ما نحن معدِّين لذلك ، اذهبْ إلى الجامع الأزهر .

---

(١) في (هـ ، و ، ط) : (الخبز) بدل (الخبر) .

(٢) في (ط) : (المسافرين) .

وما كان يأذنُ للفقراء القاطنين عنده إلا في تعليم فرائضِ الشرع وواجباته المتعلقة بالعبادات .

وكان يمنعُهم من تعلُّم الأمورِ المتعلِّقة بفصلِ الأحكام في البيوع والرُّهون والشركات ، ونحو ذلك ، ويقول : ابدؤوا بالأهم ، ولا أهمَّ من معرفة الله في هـٰذه الدار ، والفقهاءُ قد قاموا عنكم بفروع الشريعة ، فإن قلوا ـ والعياذ بالله ـ وتعطَّلتِ الأحكامُ وجبَ عليكم تعلُّمُ هـٰذه الفروع ؛ لئلا تندرسَ الشريعة ، رضي الله عنه .

قلت : وقد سألتُ سيدي الشيخ محمدَ الحُرَيْفيش الدُّنوشري وكان قد رأىٰ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه عن سببِ تسميتِهِ بالزاهد ، وإن كان كلُّ وليٍّ لا بدَّ له من الزهد ، ومع ذلك فلم يشتهرْ به في مصر إلا هو فقط ، فقال : صنعَ مرَّةً الكيمياء نحو خمسة قناطير ذهباً ، ثم نظرَ إليها وقال : أفٍّ للدنيا ، ثم أمرَ بطرحِها في سراب جامعه ، فأشهره الله تعالىٰ من ذلك اليوم بالزاهد .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وعشرين وثمان مئة ، ودُفن بجامعِهِ ، وقبرُهُ ظاهرٌ يزار ويَتبرَّكُ الناسُ به ، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وإخواننا والمسلمين .

ومنهم :

(٣٢٥) سيدي عمر الكردي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه مقيماً ببركة قَيْدَان خارج القاهرة[٢] .

وكان يغتسلُ لكلِّ فريضةٍ صيفاً كان أو شتاء .

وكان الأمراء والخوندات والأكابر يأتون له بالأطعمة الفاخرة والحلاوات ،

---

(١) انظر « النجوم الزاهرة » (١٦/٣٢٨) ، و« وجيز الكلام » (٢/٧٦١) ، و« الضوء اللامع » (٦/٦٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/٢١٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٨٨) (٣٦٧) .

(٢) أي : بجامع قيدان : ويقع على الجانب الشرقي للخليج خارج باب الفتوح ، عمل فيه الأمير مظفر الدين قيدان الرومي منبراً لإقامة الخطبة يوم الجمعة ، فنسب إليه . انظر « خطط المقريزي » (٤/١١٢) .

فيُطعمُها للحشَّاشين الذين يتفرَّجون ، ويقول لهم : يا إخواني ، ما لي أرىٰ أعينَكم حمراً ، لا يزيدُهم علىٰ ذلك .

وكان النقباءُ يلومونَه علىٰ عدمِ إطعامهم من ذلك الطعام ، فقال يوماً للنقيب : املأْ لك صحناً من هٰذه الحلاوة وغطِّه ، وقم بنا نأكله في تلك الجزيرة التي في وسط البركة ، فمضىٰ هو والنقيب ، وقال : اكشفْ وكلْ ، فوجدَه النقيبُ كلَّه خنفساً ، فقال : كلْ ، فقال : إنه خنفس ! فقال : أتلومني علىٰ عدم إطعامكم الخنفسَ كلَّ يوم ؟!

قال الشيخ أمينُ الدين إمام جامع الغَمْري رضي الله عنه : ولما دفناه في تربة خُشْقَدَم كان من جملةِ الحاضرين سيدي إبراهيمُ المتبولي رضي الله عنه فقال : وعزَّةِ ربِّي ؛ ما رأيتُ أصبرَ منه ؛ نازلٌ في قطعةٍ من جهنم وما فيه شعرة تتغيَّرُ ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٢٦) سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه[١]

كان من أصحاب الدوائر الكبرىٰ في الولاية .

ولم يكن له شيخٌ إلا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يبيعُ الحِمَّصَ المسلوقَ بالقرب من جامع الأمير شرف الدين بالحُسينية من القاهرة المحروسة .

وكان يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم كثيراً في المنام ، فيُخبرُ بذلك أمَّه ، فتقول : يا ولدي ؛ إنما الرجلُ من يجتمعُ به في اليقظة ، فلما صارَ يجتمعُ به في اليقظة ويشاورُهُ علىٰ أموره قالت له : الآن قد شرعتَ في مقام الرجولية .

وكان مما شاوره عليه عمارةُ الزاوية التي ببركةِ الحاج[٢] ، فقال صلى الله عليه =

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١/ ٨٥) ، و« بدائع الزهور » (٢/ ١٤٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١١٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٨٩) (٣٦٨) ، **ومتبول :** مركز كفر الشيخ من محافظة الغربية بمصر . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٤٦) .

(٢) **بركة الحاج أو بركة الجب :** محلُّها اليوم القرية التي تُعرف باسم البركة من قرىٰ مركز شبين =

وسلم : يا إبراهيم ، عمِّرها ها هنا ، وإن شاء الله تعالىٰ تكون مأوىً للمُنقطعين من الحاجِّ وغيرهم ، وهي دافعةٌ للبلاء الآتي من الشرق عن مصر ، فما دامتْ عامرةً فمصرُ عامرةٌ .

ولما شرعَ في غرسِ النخلِ بالقرب من البركة لم يصحَّ له بئرٌ ، فاستأذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فقال : غداً إن شاء الله تعالىٰ أُرسلُ لك عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه يعلمُ لك علىٰ بئرِ نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم التي كان يَسقي منها غنَمَهُ ، فأصبح ، فوجد العلامةَ مخطوطةً ، فحفرَ فوجدها ، وهي البئرُ العظيمةُ بغيطه إلى الآن .

وأخبرني الشيخ جمالُ الدين الكردي رضي الله عنه : أن الغلاءَ وقعَ أيام السلطان قايِتْباي[١] حتى اجتمعَ عند الشيخ في الزاوية نحوٌ من خمس مئة نفس ، فكان كلَّ يومٍ يعجنُ لهم ثلاثة أَرادب ، ويُطعمها لهم من غير إدامٍ ، فطلب الناس منه أُدماً ، فقال للخادم : اذهب إلى الخصِّ الذي في النخل ، فارفعِ الحصيرَ الخوصَ ، وخذ حاجتَك ، فذهب ورفعَ الحصيرَ ، فوجد قناةً تجري ذهباً وفضة من علوٍّ نازلة في السفل ، فأخذ منها قبضةً ، فاشترىٰ بها ذلك اليوم أُدماً ، فقال النقيب : يا سيدي ، إذا كان الأمرُ كذلك دستورك نُوسِّعْ على الناس ، فقال : ما ثَمَّ إذنٌ ، فذهبَ الخادمُ من وراء الشيخ فلم يجد القناةَ ، فحفرَ فلم يجد شيئاً .

ولما سافرَ إلى القدس زار السيدةَ مريمُ عليها السلام بنت عمران ، فقرأ عندها ختماً تلك الليلة ، فرأىٰ بعضُ الفقراء سيدَنا عيسىٰ عليه السلام وهو يقول : سلِّم لنا علىٰ

= القناطر بمحافظة القليوبية في الشمال الشرقي من القاهرة شرقي محطة المرج ، عُرفت قديماً بجُبِّ عُمَيْرة ، نسبة إلىٰ عُمَيْرة بن تميم التجيبي ، وسبب تسميتها بركة الحاج : لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة . عن حاشية « المقريزية » (٢/ ٥٨٨) .

(١) قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري ، الملك الأشرف ، أبو النصر ، سيف الدين ، سلطان الديار المصرية ، من ملوك الجراكسة ، اشتراه الأشرف برسباي صغيراً من الخوجه محمود ، وكانت مدته حافلة بالعظائم والحروب ، وسيرته من أطول السير ، كان متقشفاً ، له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة ، شجاعاً ، عارفاً بأنواع الفروسية ، أبقىٰ كثيراً من آثار العمران في مصر والحجاز والشام ، توفي سنة (٩٠١) للهجرة . انظر الأعلام (٥/ ١٨٨) .

إبراهيم وقل له : جزاكَ الله عنه وعن والدتِهِ خيراً .

وأخبرني الشيخ جمالُ الدين أيضاً قال : اشتقتُ إلىٰ أهلي بحصن كَيْفا من بلاد الأكراد[1] ، فشاورتُ الشيخَ ، وكان ذلك بعد العصر ، فقال : إن شاء الله يكون ، فدخلتُ الخلوة أقرأُ وردَ العصر ، فرأيتُ نفسي داخلاً بلدي والناسُ تُسلِّم عليَّ ، وشالوا الأعلامَ قدَّامي ، فدخلتُ دارنا ، فسلَّمتُ علىٰ أمي وأبي ، ومكثتُ عندهم أخطبُ في الجامع ، وأُقرئُ أطفالاً مدَّةَ تسعة شهور ، فقويَ اشتياقي إلى الشيخِ ، فشاورتُ والدي ووالدتي ، فأذنا لي ، فخرجتُ إلىٰ موضعٍ خارجَ البلد فإذا أنا في خلوتي ببركة الحاج ، فخرجتُ لأُسلِّمَ علىٰ إخواني ، فلم يُسلِّموا عليَّ ، فأخبرتهم بسفري ، فقالوا : يوسفُ حصلَ له جنونٌ ، فعلم الشيخُ بذلك ، فقال : اكتمْ يا ولدي ما معك ، ثم بعد ثلاث سنين جاءت والدتُهُ بصحبة والده ، وقالا : يا سيدي ، لولا خاطرُكَ ما خلَّينا يوسف يجيءُ إلىٰ سنةٍ .

قلت : وهـٰذه القصةُ من مسائل ذي النون المصري ، وهي تُشبه مسألةَ الجوهريِّ الذي غطسَ في البحر فرأىٰ نفسَه ببغداد ، فتزوَّجَ ، وجاء بالأولاد ، ثم رفعَ رأسَه فإذا هو عند ثيابه بساحل النيل بمصر ، فخرج في الحسِّ ما كان في عالم الخيال .

وكان هـٰذا الشيخ يوسفُ من عباد الله الصالحين ، وكان يُذكرُ أنه يجتمعُ بالخضر عليه السلام كثيراً ، فكانتْ لوائحُ الصدق ظاهرةً علىٰ وجهه .

وكان يقرأُ القرآنَ بالسبع ، وحدَّثني بهـٰذه القصَّة في حال كمالِهِ وعقله ، رضي الله عنه .

ولما اجتمع عنده بنو حرام في زاويته خوفاً من بني وائل أرسلَ الشيخُ لبني وائل قاصداً يأمرُهم بالصلح ، فقالوا : أيشٍ للمتبولي في هـٰذا ؟! يروح يقعد هو وصغاره في الجبل ، واللهِ ؛ لا نرجع حتىٰ نسقي خيلنا من حيضان المدينة ، فقال الشيخ : وعزَّةِ ربِّي ؛ ما عادت تقوم لبني وائل رأسٌ إلىٰ يوم القيامة ، فهم إلىٰ وقتنا هـٰذا تحت حكم بني حرام .

---

(١) حصن كَيْفا : بلدة عظيمة مشرفة علىٰ دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . « معجم البلدان » (٢/ ٢٦٥) .

وكان سيدي إبراهيمُ رضي الله عنه مبتلىً بالإنكار عليه من كونه لم يتزوج .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما في ظهري أولادٌ حتى أتزوَّجَ بقصدهم) .

ومكث نحو الثمانين سنة حتى مات لم يغتسلْ قطُّ من جنابةٍ ؛ لأنَّه لم يحتلمْ قطُّ .

وكان إذا جاءه الشابُّ وشهوتُهُ ثائرةٌ عليه يقول له : تطلبُ لك مدةً وإلا دائماً ؟ فإن قال : أُريدُ مدةً حتى أقدرَ على مؤنة التزويج يقول له : خذْ هذا الخيطَ فشدَّ به وسطَك ، فما دامَ معك لا يتحرَّكُ لك شهوة ، وإن قال : أُريد عدمَ تحرُّك الشهوة طولَ عمري يمسح على ظهره ، فلا تتحرَّكُ له شهوةٌ إلى أن يموت[1] .

وكان يقول لمن يبلغه عنه إنكار : (يا أولادي ؛ أنا سمٌّ ساعة ، فما للناسِ ولي)[2] .

وكان يسأل الفقراءَ القاطنين عن أحوالهم ويباسطهم ، فرأى يوماً شخصاً منهم كثيرَ العبادة والأعمال الصالحة ، والناسُ منكبُّون على اعتقاده ، فقال : يا ولدي ؛ ما لي أراك كثيرَ العبادةِ ناقصَ الدرجة ، لعلَّ والدَك غيرُ راضٍ عنك ؟! فقال : نعم ، فقال : تعرفُ قبره ؟ فقال : نعم ، فقال : اذهب بنا إلى قبره لعله يرضى عنك ، قال الشيخ يوسف الكردي : فواللهِ ؛ لقد رأيتُ والدَهُ خرجَ من القبر ينفضُ الترابَ عن رأسه حين ناداه الشيخ ، فلما استوى قائماً قال الشيخ : الفقراء جاؤوا شافعين بأن تطيبَ خاطرِك على ولدك هذا ، فقال : أُشهدكم أني قد رضيت عنه ، فقال : ارجعْ مكانَك ، فرجع ، وقبرُه بالقرب من جامع شرف الدين برأس الحسينية .

قال : فلما رجعنا إلى البِركة وإذا بامرأةٍ تقول : يا سيدي ؛ قفْ ، فوقفَ بالحمارة ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : ابني أخذَه الإفرنجُ ، وأُريد منك أن تدعو الله تعالى يردُّه عليَّ ، فقال : باسم الله ، فدعا ، ثم قال : ها هو ولدُكِ ، فوقعَ بصرُها عليه ، فلما اجتمعتْ بولدها ذهبنا ، فقال : اشهدوا بأنَّ لله رجالاً في هذا العصر يُجيب سؤالَهم في الحال .

---

(١) في (أ ، ح ، د ، هـ ، ز) : (بشرة) ، وفي (ب) : (شهوة بشرة) .

(٢) في (و) : (فما للناس وما لي) .

وخرج رجل من الخوارج يسمى الشعشاع ، وحصل للناس منه ضرر عظيم ، فقال سيدي إبراهيم لفقير عنده اسمه عفش : يا عفش ؛ انشبه بنشابة ، فأخذ عوداً وعمل فيه ريشة ، ونشب نحو الشرق ، فوقعت في نحر الشعشاع إلىٰ أن خرجت من ظهره ، فجاء الخبر بعد ذلك أنه قتل في ذلك الوقت وما عرفوا له قاتلاً[١] .

وكان يقبضُ علىٰ لحيته ويقول : (يا ما تقاسي مصرُ بعد هـٰذه اللحية ! أنا أمانٌ لها ، أنا أمان لها ، أنا أمان لها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (وعزَّةِ ربِّي ؛ لتتوزَّع أحوالي بعدي علىٰ سبعين رجلاً ، ولا يحملون) .

وكان إذا ذهبَ إلىٰ أحدٍ من الأكابر لا يأخذُ معه أحداً من الفقراء ، ويقول : ارجعوا ؛ فإني عازمٌ علىٰ أكلِ السُّمِّ ، ولم تطيقوه .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كان طعامُ الأمراء سُمّاً فكيف بطعام الملوك ؟!)

وظلم ابنُ البقريِّ رجلاً ، وأخذ بقرتَه التي يشربُ هو وأولاده لبنَها ، فجاء إلىٰ سيدي إبراهيم رضي الله عنه ، فركب معه إلى ابن البقري ، فوجد عنده شيخَه ابن الرِّفاعي ، فتكلَّمَ سيدي إبراهيمُ رضي الله عنه كلاماً بعزَّةٍ بحضرة شيخه ، فقال له : شيخُك هـٰذا كان أبوه قرَّاداً في بلاده ، فما قال الشيخُ رضي الله عنه ذلك الكلامَ إلا والقردُ والدبُّ والحمار والكلب في وسط داره ، حتىٰ شهدَهم الحاضرون تصديقاً لكلام الشيخ ، ثم غابوا ، فاستغفر ابنُ البقري ، وقضى الحاجة .

ونام عنده جماعةٌ من فقهاء الأزهر في بركة الحاج ، فوجدوا عند الشيخ مملوكَيْنِ أمردَيْنِ من أولاد الأمراء ينامان معه في الخلوة ، فأنكروا عليه ، ثم رفعوا أمرَهُ إلى الشرع بالصَّالحية ، فأرسلَ القاضي وراءه ، فحضر ، فدخل الصالحية ، فقال : ما لكم ؟! فقال القاضي : هـٰؤلاء يدَّعون عليك أنك تختلي بالشباب ، وهـٰذا حرام في الشرع ، فقال : ما هو إلا هـٰكذا ، وقبضَ علىٰ لحيته بأسنانه وصاحَ فيهم ، فخرجوا صائحين ، فلم يُعرفْ لهم خبرٌ بعد ذلك الوقت ، ثم جاء الخبرُ أنهم أُسروا ، وتنصَّروا

(١) أثبت هـٰذا الخبر من (و ، ط) .

في بلاد الإفرنج ، فشفعوا فيهم عند الشيخ ، فلم يقبلْ شفاعةَ أحدٍ ، ثم انقطعَ خبرُهم .

ورماه أهلُ بيتٍ من مَتبول باللِّواط مع ولدهم ، فقال : هتك اللهُ ذراريهم ، فمن ذلك اليوم صار أولادُهم مَخانيثَ وبناتُهم زناةً إلىٰ يومنا هـٰذا .

ورماهُ واحدٌ أيضاً بفاحشةٍ ، فقال له : سوَّدَ اللهُ نصفَ وجهك ، فصار له خدٌّ أسود ، وكذلك ذرِّيتُهُ إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وكان يقول : (وعزَّةِ ربِّي ؛ ما رأيتُ في الأولياء أكبرَ فتوَّةً من سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ؛ ولذلك واخىٰ بيني وبينه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هناك من هو أكبرُ فتوَّةً منه لآخىٰ بيني وبينه) .

ودخل عليه مرَّةً رجلٌ ومعه ولدٌ صغير ، فقال للولد : هزَّ هـٰذه النبقةَ ، فهزَّها ، فوقع منها اثنتان وثمانون حبَّةً ، فقال للولد كلْها كلَّها ؛ فإنك تأخذُ بعددها نساءً ، فتزوَّج ذلك الولد اثنتين وثمانين زوجة .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تكبِّروا خبزي علىٰ خبزِ أخي أحمد البدوي) .

وكان سُمّاً ناقعاً على الولاة ، فإذا تشوَّشَ من أميرٍ أو وزير ماتَ لوقته ، أو في ليلته .

وتعرَّض جماعةٌ من الظلمةِ إلىٰ جماعةٍ غيطه ، وأراد الوزيرُ ـ وكان يُسمَّىٰ قانم التاجر ـ أن يحدثَ عليهم مظلمةً ، وقال : إن كان المتبولي شيخاً ينفخني ، فقال : يا ولدي ؛ ما أنا أنفخُ ، وإنَّما أُفوِّقُ سهمي فلا يُرَدُّ[1] ، فدخل الوزيرُ بيتَ الخلاء ، فانتظروه ليخرج ، فلم يخرج ، فدخلوا عليه ، فوجدوا لحيتَه ووجهَهُ في حلق الخلاء ، وهو ملطَّخٌ بالعذرة ، وهو ميت ، فرجع غالبُ الولاة عن معارضته في أمرٍ من الأمور .

وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه : (إذا غيَّر أحدُكم منكراً فليتوجَّه بقلبه إلى الله تعالىٰ في إزالته ويقلب أصحابَ المُنكر ، فيزيلوا ذلك المنكر) .

قال الشيخ يوسف رحمه الله تعالىٰ : ولقد كنَّا يوماً في حصنِ مسلَّة فرعون

---

(١) **الفُوق** : موضع الوتر من السهم ، وهما فوقان ، فوَّق السهمَ : جعل الوتر في فوقه عند الرمي . « متن اللغة » (ف و ق) .

بالمطرية[١] ، فجاء جماعةٌ من الجند بجرارِ خمرٍ ، فجلسوا يشربون ، فقال سيدي إبراهيم رضي الله عنه : من يُزيلُ هـٰذا المنكر ؟ فقال فقير : أنا ، فوضع رأسَه في طوقه ، فما كان بأسرع من أن وقعَ الجندُ في بعضهم بعضاً بالدَّبابيس والنعال ، وكسروا الجرارَ ، ثم جاؤوا واستغفروا وتابوا علىٰ يد الشيخ ، وقالوا كلهم : نقول : نستغفر الله .

قال الشيخ محمد النامولي رحمه الله : (وكنَّا إذا سافرنا معه إلىٰ ناحية طندتا يقول لنا : البياتُ عند الشيخ علي بنِ الصعيدي ؛ يعني : جدِّي أنا ، لأجلِ حلِّ طعامه) .

وقد كان جدِّي رحمه الله قد دقَّقَ في الورع كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالىٰ[٢] .

وسمعتُ سيِّدي الشيخ عبدَ القادر الدَّشْطوطي رحمه الله يقول : (ليس أحدٌ من الأولياء له سماطٌ يُمدُّ كلَّ سنةٍ فوق سدِّ إسكندر ذي القرنين غير سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، ولا يتخلف أحدٌ من الأنبياء والأولياء عن حضوره ، فيجلس النبيُّ صلى الله عليه وسلم صدرَ السِّماط والأنبياء يميناً وشمالا علىٰ تفاوتِ درجاتهم ، وكذلك الأولياء ، ونقباءُ ذلك السماط المقدادُ بنُ الأسود رضي الله عنه ، وأبو هريرة رضي الله عنه وجماعةٌ) ، هـٰكذا سمعتُهُ من سيدي عبد القادر الدشطوطي ، قال : (وقد حضرته سنين) .

وكان جماعةٌ من رعيان الغنم يَرعون برسيمه في ناحية المطرية ، فأغلظ عليهم جماعةُ الشيخ ، فبينما الشيخُ رضي الله عنه يوماً راكب وهو راجع من مصر إلى البركة ومعه جماعةٌ من الفقراء . . إذ أرسلوا إليه عشرةَ كلاب شؤام بأطواق الحديد ليعقروا الشيخَ وجماعته ، فلما وصلوا إلى الشيخ بصبصوا بأذنابهم ، ولاذوا بالشيخ ، فجاء أصحابُهم إليهم ، فرجعوا عليهم فعقروهم ، ومضوا مع الشيخِ رضي الله عنه .

---

(١) المطرية : قرية قديمة ، تابعة لمديرية القليبوية . « قاموس رمزي » (٢/١/١١) .

(٢) انظر ترجمته (٢/٣١٧) (٣٤١) .

وكان إذا حصل بين المجاورين نكدٌ وتشويش يدخلُ إلى المطبخ ، ويضرب الدستَ بعصاه ، ويقول : أنت الذي جمعت عندي هـٰؤلاء المخاميل ، فلا يطلعُ النهار حتىٰ يَتَشَتَّتوا عن المكان بأنفسهم من غير أن يُخرجهم أحدٌ .

وكان رضي الله عنه لا يراه أحدٌ يُصلِّي الظهرَ في مصر أبداً ، وكان بعضُ الفقهاء يُنكرُ عليه ، فسافر إلى الشامَ ، فوجد سيدي إبراهيم في الجامع الأبيض برملة لُدٍّ يُصلِّي ، فسلم عليه ، وسأل قيِّمَ الجامع عنه ، فقال : سيدي إبراهيمُ دائماً يُصلِّي الظهرَ عندكم ؟ فقال : نعم ، فرجع عن إنكاره .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تكبُرْ تعظم) .

وكان يقول : (طهِّرْ قلبَك من محبَّة الدنيا يجرِ ماءُ الإيمان في قلبك جداول ، ومن لم ينظِّفْ قلبَه من ذلك لا يجري في قلبه ماءُ الإيمان) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا أُحبُّ الفقيرَ إلا إن كان له حرفةٌ تكفُّه عن سؤال الناس) .

ولما وقعَ من البقاعي وغيره الكلامُ في شأن سيدي عمر بن الفارض جاؤوا إليه وقالوا له : مثلُ سلطان العارفين يُتكلَّمُ فيه ؟! فقال لهم : من سلطان العارفين ؟ فقالوا : سيدي عمر بن الفارض ، فقال سيدي إبراهيم : هـٰذا وأمثالُه ممَّن ملؤوا الأرضَ عياطاً ، ما أُعطي أحدُهم من سرِّ الله عز وجل ما يُعطِّي شارب ناموسة .

وكان يحطُّ علىٰ من يسلكُ برياضات البوني وغيره[١] ، ويقول : وعزَّةِ ربِّي ، إن عبَّادَ الأصنامِ أحسنُ حالاً من هـٰؤلاء ، فإنَّ الله عز وجل أخبرَ عنهم أنهم كانوا يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] وهـٰؤلاء اتَّخذوا أسماءَ الله المشرَّفة المعظَّمة لحصولِ أغراضٍ خسيسة من مناصب الدنيا ، لو عُرضتْ علىٰ عاقلٍ بلا سؤال كان من الأدب ردُّها ، فكيف بمن يَطلبها بمعصار التوجُّه والجوع ليلاً ونهاراً حتىٰ يخفَّ

(١) البوني : هو أحمد بن علي بن يوسف ، أبو العباس البوني ، صاحب المصنفات في علم الحروف . متصوف مغربي الأصل ، نسبة إلىٰ بونة بإفريقية ، توفي بالقاهرة سنة (٦٢٢هـ) له « شمس المعارف الكبرىٰ » ، و« الوسطىٰ » ، و« الصغرىٰ » .

دماغُه ؟! وبعضُهم يحصلُ له الماليخوليا والجنون .

وكان رضي الله عنه يلبس الصوفَ ويتعمَّمُ به ، وكان له طليحيةٌ حمراءُ ، ويقول : أنا أحمدي .

وكان رضي الله عنه يعملُ في الغيط ، ويديرُ الماء ، وينظِّفُ القناة من الحشيش .

وكان إذا رأىٰ إنساناً يعلمُ ما في نفسه وما هو مرتكبُه من الفواحش .

وجاءته امرأةٌ بولدها ليقرأ عنده في بركة الحاج ، فقال : أنا ما أجمعُ عندي أحداً من الحرامية المقطوعين اليد ، فقالت أمُّه : باسم الله حوالَي ولدي ، فخرجت به إلى الخانكاه ، فسرقَ ، فقُطعت يده ، وصدقَ الشيخ .

وكان الشيخ إذا جاءه جبَّةٌ أو جوخة مثمنة يتحزَّمُ عليها بحبلٍ ، ويَعزقُ الغيطَ وهو لابسُها[1] ، ويقول : ليس لملابسِ الدنيا عندنا قيمة .

وكان إذا فارقه إنسانٌ من مريديه إلىٰ أصحابِ الخلوات والرياضات يهجُره ويقول له : يا ولدي أنا أُريدُ أن أجعلك رجلاً وأنت تُريد أن تصيرَ كالبومة العمياء لا تنفعُ أحداً .

وأخباره مع الولاة وغيرهم مشهورة .

وكان رضي الله عنه يقولُ : (كلُّ فقيرٍ لا يقتلُ بعدد شعر رأسه من الظَّلمة فليس بفقيرٍ) .

وكان يُعارض السُّلطان قايتباي في الأمور ، حتىٰ قال له السلطانُ يوماً : إما أنا في مصر أو أنت ، فخرج سيدي إبراهيم رضي الله عنه متوجِّهاً نحو القدس ، فقالوا له : إلىٰ أين ؟! فقال : إلىٰ موضع تقف فيه حمارتي ، فوقفت بإسدود ، تجاه قبر سيدي سلمان الفارسي[2] ، رضي الله عنه ، فماتَ هناك سنة نيِّفٍ وثمانين وثمان مئة ، وخلع عليه سيدي سلمان رضي الله عنه الشهرةَ ، فانطفأ اسمُه من ذلك اليوم ، وصارَ الاسمُ لسيدي إبراهيم .

---

(١) **عزق الأرض** : شقَّها .

(٢) كذا في النسخ ، **وإسدود** : تقع إلى الشمال الشرقي لغزة ، والمعروف أن سيدنا سلمان دفن بالمدائن .

والمشهور بين الناس : أنه خرجَ في غيظٍ من قايِتْباي ، وذلك لا يليقُ بمقام الشيخ ؛ لأن الكُمَّل لا يغضبون لأنفسهم ، وإنما ينتقلون من مكانٍ إلىٰ مكانٍ لترابهم ، أو بنيَّةٍ صالحة ، أو غير ذلك ، والله أعلم .

وعشق رجلٌ أمردَ ، فهرب الأمردُ منه إلىٰ سيدي إبراهيم ، فوضعه في خلوة ، فبلغ ذلك الرجلَ ، فغيَّرَ هيئته في صفةِ فقيرٍ ، وجاء إلىٰ سيدي إبراهيم يطلبُ الطريق ، فأدخله مع ذلك الأمرد ، فأنكرَ بعضُ الناس علىٰ سيدي إبراهيم ، فلمَّا كان الغد خرجَ الفقيرُ وقال للشيخ : يا سيدي ؛ أنا تائبٌ إلى الله تعالىٰ ، فقال : لِمَ ذلك ؟! فقال : يا سيدي ؛ وضعت يدي على الشابِّ ، فأخذتني الحُمَّىٰ إلى الصباح حتىٰ لم أستطعْ أن أجلسَ ، وقد تبتُ إلى الله تعالىٰ ، رضي الله عنه .

قال له الشيخ : حتىٰ تأخذ حدَّها منك ، فمكثَ بها نحو ستَّةَ شهور تخضُّه حتىٰ خرجتْ شهواتُهُ من الدنيا وما فيها ، رضي الله عنه ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٢٧) الشيخ حسين أبو علي رضي الله عنه[١]

كان هـٰذا الشيخ رضي الله عنه من كُمَّل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرىٰ .

وكان كثير التطوُّرات ، تدخلُ عليه بعضَ الأوقات تجده جنديّاً ، ثم تدخلُ فتجده سَبُعاً ، ثم تدخلُ فتجده فيلاً ، ثم تدخل فتجده صبيّاً ، وهـٰكذا .

ومكث نحو أربعين سنة في خلوةٍ مسدودٍ بابُها ، ليس لها غيرُ طاقة يَدخلُ منها الهواء .

وكان يقبضُ من الأرض ويناولُ الناسَ الذهبَ والفضة .

وكان من لا يعرفُ أحوالَ الفقراء يقول : هـٰذا كيماوي سيماوي .

ولما شرع الخواجا ابن الفنيش البُرُلُّسيُّ في بناء زاويته قال أعداؤه : إنَّ هـٰذا المصروفَ العظيمَ إنما هو من كيمياء الشيخ حسين ، فبرطلوا عليه بعضَ العياق أن

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ١٨١) ، و« شذرات الذهب » (٩/ ٥٢٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٤٠٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٠١) (٣٦٩) .

يقتلوه ، فدخلوا على الشيخ ، فقطَّعوه بالسيوف ، وأخذوه في تليس ، ورموه على الكوم ، وأخذوا علىٰ قتله ألفَ دينار ، ثم أصبحوا فوجدوا الشيخ حُسيناً رضي الله عنه جالساً ، فقال لهم : غرَّكُم القمر .

وكانت النُّموس[١] تتبعُه حيثما مشىٰ في شوارع وغيرها ، فسَمَّوا أصحابَه بالنموسية .

وكان رضي الله عنه بريئاً من جميع ما فعله أصحابُهُ من الشَّطح الذي ضُربت به رقابُهم في الشريعة .

وكان **الشيخ عبيد**[٢] أحدُ أصحابِهِ ـ الذي هو مدفونٌ عنده الآن ـ مثقوبَ اللسان ؛ لكثرةِ ما كان ينطقُ به من الكلمات التي لا تأويلَ لها .

وأخبرني بعضُ الثقات أنه كان مع الشيخ عبيد في مركبٍ ، فوحَلَتْ ، فلم يستطعْ أحدٌ أن يُزحزحَها ، فقال الشيخ عبيد : اربطوها في بيضي بحبلٍ ، وأنا أنزل أسحبُها ، ففعلوا ، فسحبها ببيضِهِ حتىٰ تخلَّصتْ من الوحل إلى البحر .

مات رضي الله عنه في سنة نيفٍ وتسعين وثمان مئة[٣] ، ودفن بزاويته بساحلِ النيل بمصر المحروسة ببولاق ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٨) سيدي الشيخ محمد الغَمْري رضي الله عنه[٤]

أحدُ أعيان أصحابِ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه .

كان من العلماء العاملين ، والفقراءِ الزاهدين المحقِّقين ، سار في الطريق سيرةً

---

(١) **النمس** : دابة نحو الهرة ، قصير اليدين والرجلين ، أغبر اللون ، طويل الذنب ، من أخبث السباع ، تقتل الثعابين ، وتصيد الدجاج ، أو هو ابن عرس ، أو الظربان ، أو هـٰذه كلها أنواع له ، « متن اللغة » (ن م س) .

(٢) انظر ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٠٤) (٣٧٢) .

(٣) ذكره ابن العماد في « الشذرات » فيمن توفي سنة (٨٩١هـ) .

(٤) انظر « إنباء الغمر » (٩/ ٢٤٤) ، و« الضوء اللامع » (٨/ ٢٣٨) ، و« وجيز الكلام » =

صالحة ، وكانت جماعته في المحلَّة الكبرىٰ وغيرها يُضربُ بهم المثلُ في الأدب والاجتهاد .

ولما أذن له سيدي أحمدُ الزاهد أن يذهبَ إلى المحلَّة ، وقال له : إن مقامَك بها . . عارضه الشيخُ أبو بكر الطريني ، فردَّه إلىٰ محلَّة أبي الهيثم مدةً ، ثم رجعَ إلىٰ مصر ، فقال سيدي أحمد لسيدي مدين : اذهبْ وطِّنْ أخاك في المحلَّة ، فسافرَ معه سيدي مدين ، ولم يجيءْ إلىٰ أن طابَ الوقتُ بينه وبين الطرينية ، وعملوا له مولداً ، وصرفوا عليه من مالهم .

وكان رضي الله عنه يقول : (خدمتُ عند سيدي أحمد رضي الله عنه مُدَّةً في البوابة ، ومدَّةً في الوقادة ، ومدَّةً في النقابة) .

وكان قد قسَّم الفقراءَ إلىٰ ثلاثة أقسام : كهول ، وشباب ، وأطفال ، وجعلَ لكلِّ قسمٍ مكاناً يخصُّه لا يختلطُ بالآخر .

وكانوا لا يجتمعون إلا يوماً واحداً في الجمعة ، فيتناقشون فيما وقع بينهم في بقيَّةِ الجمعة ؛ لأنه كان أخذَ عليهم العهدَ ألا يجيب أحدٌ قطُّ عن نفسه ، بل يعفو عن الظالم ، أو يشكوه للشيخ يفعلُ فيه ما شاء من حيث إنهم كانوا يرونَ نفوسَهم مُلكاً للشيخ يفعلُ فيهم ما شاء ، وهم أوصياءُ علىٰ أجسامهم ، فينتصرون لها من حيث إنها مُضافةٌ إلى الحقِّ .

وما كان أحدٌ منهم يتكدَّرُ قطُّ مما يفعلهُ الشيخ معه من هجرٍ أو إخراجٍ ، أو ضربٍ ، أو جوعٍ ، أو نحو ذلك ، بل كانوا يرونَ الفضلَ للشيخ ولمن غمزَ عليهم في ذلك لمكان صدقهم في طلب الأدب .

وكان رضي الله عنه يقول : (كان سيِّدي أحمدُ رضي الله عنه لا يأذنُ قطُّ لفقيرٍ أن يجلسَ علىٰ سجادة إلا إنْ ظهرتْ له كرامةٌ ، وكانت كرامتي أنني نمتُ عن الوقود ، فأشرتُ إلى القناديل ، فاتَّقَدَتْ كلُّها) .

= (٢/ ٦٠٣) ، و« شذرات الذهب » (٩/ ٣٨٦) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٥٢) ، وسترد ترجمته ثانية « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٠٤) (٣٧٢) .

وأخبرني الأخُ الصالح الشيخُ شمس الدين الطنيخي : أن الفقراءَ أرسلوه يوماً إلى البستان ، فأتىٰ بشيءٍ من الرُّطب للفقراء ، فغلبتْهُ النفسُ فأكل ثلاث رطبات ، فأول ما رآه النقيبُ قال : هـٰذا أكلَ من الرُّطب من وراء إخوانه ، فأخبرتُهم بأني أكلتُ ثلاثَ رطبات ، فأمرَ الشيخُ بهجري عن كلِّ رطبةٍ يوماً .

وأخبرني رحمه الله أنَّ الفقيرَ كان يأتيه أبوه أو أخوه من البلاد ، فيقع بصرُهُ عليه ، فلا يقدرُ يُسلِّمُ عليه حتىٰ يُشاور النقيب .

ودخل عليه سيدي محمدُ بن شُعيب الحبشي يوماً الخلوة ، فرآه جالساً في الهواء ، وله سبعُ عيون ، فقال له : الكاملُ من الرجال يُسمَّىٰ أبا العيون .

ووقع الغلاءُ في سنةٍ ، فأخرج الشيخُ جميعَ ما في المخزن من القمح ، فباعه للناس ، وصارَ يشتري مثل الناس ، وقال : إن اللهَ يكرهُ العبد المتميِّزَ عن أخيه .

ولما أرادَ عمارةَ جامعه بمصر بسُويقة أمير الجيوش[١] أرسلَ يستأذنُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في عمارته علىٰ يد شخصٍ يرعى المِعزىٰ في مصر كان مشهوراً بالولاية بباب النصر ، فقال له : أردُّ لك الجواب غداً ، فلما كان الغدُ قال له : عمِّرْ ، أذنَ لك النبيُّ صلى الله عليه وسلم .

وكان رضي الله عنه يحبُّ المشيَ إلى الشفاعات مع قدرتِهِ علىٰ قضاء الحاجةِ بقلبه ويقول : إن الحديثَ ورد فيمن مشىٰ في قضاء الحاجةِ ، لا فيمن يقضيها بقلبه[٢] .

---

(١) **سويقة أمير الجيوش** : كانت تعرف بسوق الخروقيين ، وهـٰذه السويقة من أكبر أسواق القاهرة ، بها عدة حوانيت ، فيها الرفاؤون والحباكون ، وعدة حوانيت للرسامين والفرَّائين والخياطين ، ومعظمها لسكن البزازين والخلعيين ، وهو شارع من شوارع القاهرة ، يسلك فيه من باب الفتوح وبين القصرين وباب النصر إلىٰ باب القنطرة وشاطئ النيل وغيره . انظر « الخطط المقريزية » (٣/ ١٦٤) .

(٢) روى الطبراني في « الأوسط » (٧٣٢٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من مشىٰ في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق ؛ كلُّ خندق أبعد مما بين الخافقين » قال الهيثمي : (إسناده جيد) ، وروىٰ في « الكبير » (١٢/ ٤٥٣) ، =

ولما أرسلَ السلطانُ جَقْمَقُ تجريدةً خلفَ ابنِ عمر أميرِ الصعيد جاؤوا به في الحديد ، فعثر حمارُ بيَّاع فجلٍ من فقراء سيدي محمد في الصعيد ، فقال : يا سيدي محمد ، يا غَمْري ، فسمعه ابنُ عمر ، فقال : من هٰذا ؟ فقال : شيخي ، فقال : وأنا الآخر أقول : يا سيدي محمد يا غَمْري ؛ لاحظني ، فسمعه سيدي محمد وهو في المحلَّة ، قال الحاكي لي الشيخ شهاب الدين بن النحَّال : فطلب الشيخ رضي الله عنه ثلاثَ حمير ، وقال : اركبوا ، فركبنا مع الشيخ ، وسافرنا إلى القاهرة ، فجلس الشيخُ تحت قبة السُّلطان حسن لحظةً ، وإذا هم طالعون بابنِ عمر في الحديد إلى القلعة ، فقال لابن النحَّال : اطلعْ خلفَ هٰذا الرجل ، فإذا رأيتَ السُّلطان قد أغلظَ عليه وأمرَ بإتلافه . . فضع إصبعَكَ السَّبابَة على الإبهام وتحاملْ عليه ، فإن كلَّ مَنْ في الموكب يضيقُ نَفَسُه ويختنق حتى السلطان ، فلما طلعَ وراءه وجد السلطان قد أغلظَ عليه ، فصنع ما أمره به الشيخُ ، فصاح السُّلطان : أطلقوه واخلعوا عليه ، فتلطَّخَ جماعته بالزعفران ، فنزل ابنُ النحَّال ، فأخبر الشيخ ، فقال : اركبوا قُضيتِ الحاجة ، ولم يكن أحدٌ يُعلم ابنَ عمر بالواقعة ، ولا بمجيءِ الشيخ ولا برجوعه إلى المحلَّة ، وقال : المعاملةُ مع الله تعالىٰ ، وما مع أحدٍ منكم دستورٌ يَتكلَّمُ بذلك حتىٰ أموت ، قال لي ابن النحَّال : فما أخبرتُ بها أحداً قبلك .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وخمسين وثمان مئة[1] ، ودُفن بجامع المحلَّة ، رضي الله عنه .

= و« الصغير » (٦٠٢٦) عن عبد الله بن عمر : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أي الناس أحبُّ إلى الله ؟ وأيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبُّ الناسِ إلى اللهِ تعالىٰ أنفعُهم للناس ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالىٰ سرورٌ يدخلُهُ علىٰ مسلم ، أو يكشف عنه كربةً ، أو يقضي عنه ديناً ، أو يطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هٰذا المسجد شهراً ، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة ، ومن مشىٰ مع أخيه في حاجةٍ حتىٰ تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام » .

(١) ذكر المناوي في « الطبقات » (٣/ ٢٥٧) أن وفاته في شعبان سنة (٨٤٩هـ) ، وكذلك ابن العماد في « الشذرات » (٩/ ٣٨٦) .

ومنهم :

(٣٢٩) سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي رضي الله عنه[1]

كان رضي الله عنه من أجلاء مشايخ مصر وسادات العارفين .

صاحبُ الكرامات الظاهرة ، والأفعالِ الفاخرة ، والأحوالِ الخارقة ، والمقاماتِ السنية ، والهممِ العلية ، صاحب الفتحِ الموفَّق ، والكشفِ المخرَّق ، والتصدر في مواطن القدس ، والترقِّي في معارج المعارف ، والتعالي في مراقي الحقائق .

كان له الباعُ الطويل في التصريف النافذ ، واليدُ البيضاء في أحكام الولاية ، والقدمُ الراسخ في درجات النهاية ، والطُّور السَّامي في الثبات والتمكين .

وهو أحدُ من ملك أسراره ، وقهرَ أحواله ، وغلب علىٰ أمره .

وهو أحدُ أركان هٰذه الطريق ، وصدورُ أوتادها ، وأكابرُ أئمتها ، وأعيانُ علمائها علماً وعملاً ، وحالاً وقالاً ، وزهداً وتحقيقاً ، ومهابةً .

وهو أحدُ من أظهره اللهُ تعالىٰ إلى الوجود ، وصرَّفه في الكون ، ومكَّنه في الأحوال ، وأَنطقَه بالمغيَّبات ، وخرقَ له العوائد ، وقلبَ له الأعيان ، وأظهرَ علىٰ يديه العجائب ، وأجرىٰ علىٰ لسانه الفوائد ، ونصَّبَهُ قدوةً للطالبين حتىٰ تلمذَ له جماعةٌ من أهل الطريق ، وانتمىٰ إليه خلقٌ من الصلحاء والأولياء ، واعترفوا بفضلِهِ ، وأقرُّوا بمكانته ، وقُصد بالزيارات من سائر الأقطار ، وحلَّ مشكلات أحوال القوم .

وكان رضي الله عنه ظريفاً جميلاً في بدنه وثيابه .

وكان الغالبُ عليه شهودَ الجمال رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

توفي رضي الله عنه سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة ، رضي الله عنه .

---

(١) هو محمد بن الحسن بن علي الشاذلي ، وانظر « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٥٠٠) ، و« وجيز الكلام » (٢/ ٥٩١) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٢٨) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٤٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤١) (٣٦٥) .

وقد أفرد الناسُ ترجمته بالتأليف ؛ منهم الشيخ نور الدين علي بن عمر البتنوني ، رضي الله عنه ، وهو مجلدان[١] ، والحقُّ أنه لم يُحطْ علماً بمقام الشيخ رضي الله عنه حتىٰ يتكلَّم عليه ، إنما ذكرَ بعضَ أمورٍ علىٰ طريقة أرباب التواريخ وأهل الطبقات ، بل لو رامَ الوليُّ نفسُه أن يتكلَّمَ علىٰ مقام نفسِهِ لا يقدرُ أن يتكلَّم كما هو مقرَّرٌ في كلام أصحاب الدوائر الكبرىٰ ، والله أعلم ، ولـٰكن نذكرُ لك طرفاً صالحاً مما ذكره الإمام البتنوني ؛ لتحيط به علماً ، فنقول وبالله التوفيق :

اعلم : أنه رضي الله عنه رُبِّي يتيماً من أمِّه وأبيه ، فربَّتْه خالتُه ، فكان زوجُها يُريدُ أن يعلِّمَه الصنعةَ ، فمضىٰ به إلى الغرابلي ، فهربَ إلى الكُتَّاب ، ثم مضىٰ به إلى المناخلي ، فهربَ إلى الكُتَّاب ، فكفَّ عنه ، فحفظ القرآن ، وكان ابنُ حَجَر رفيقَه في الكُتَّاب .

قال الشيخ أبو العباس السرسي : ولما خرجَ الشيخُ محمد الحنفي من الكُتَّاب جلسَ يبيعُ الكتب في سوقها ، فمرَّ عليه بعضُ الرجال ، فقال : يا محمد ؛ ما للدنيا خُلقتَ ، فنزل من الدكان ، وتركَ جميع ما فيه من الغلَّة والكُتب ، ولم يسأل عن ذلك بعدُ .

ثم حُبِّب إليه الخلوة ، ثم اختلىٰ سبعَ سنين لم يخرجْ في خلوة تحت الأرضِ ، ودخلها وهو ابن أربعَ عشرةَ سنة .

وكان رضي الله عنه يقول : (إياكم وكراماتِ الأولياء أن تُنكروها ؛ فإنها ثابتةٌ بالكتاب والسنة ، ونقضُ العادة علىٰ سبيل الكرامة لأهلِ الولاية جائزٌ عند أهل السنة والجماعة ، وقد دعا الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يوماً فنزلت عليه مائدةٌ من السماء من حيث لا يعلم) .

قال الشيخ أبو العباس : (وكنت إذا جئتُهُ وهو في الخلوة أقفُ علىٰ بابها ، فإن قال لي : ادخل دخلت ، وإن سكتَ رجعتُ ، فدخلتُ عليه يوماً بلا استئذان ، فوقع بصري علىٰ أسدٍ عظيم ، فغُشيَ عليَّ ، فلمَّا أفقتُ خرجت واستغفرت الله تعالىٰ من الدخول عيه بلا إذن) .

---

(١) واسم كتابه : « السرُّ الصفي في مناقب السلطان الحنفي » ، وقد طبع بمصر سنة (١٣٠٦هـ) .

قال : الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : (ولم يخرج الشيخُ رضي الله عنه من تلك الخلوة حتىٰ سمعَ هاتفاً يقول : يا محمد ؛ اخرجْ انفعِ الناسَ ، ثلاثَ مراتٍ ، وقال له في الثالثة : إنْ لم تخرج وإلا هيه ، فقال الشيخ : فما بعد هيه إلا القطيعة ، قال الشيخ : فقمتُ وخرجتُ إلى الزاوية ، فرأيتُ على الفسقية جماعةً يتوضؤون ؛ فمنهم مَنْ علىٰ رأسه عمامةٌ صفراء ، ومنهم زرقاء[١] ، ومنهم من وجهُهُ وجهُ قرد ، ومنهم من وجهُهُ وجهُ خنزير ، ومنهم من وجهُهُ كالقمر ، فعلمتُ أنَّ الله أطلعني علىٰ عواقب أمور هـٰؤلاء الناس ، فرجعت إلىٰ خلفي ، وتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ ، فسترَ عنِّي ما كُشفَ لي من أحوال الناس ، وصرتُ كآحاد الناس) .

وكان في خلوةِ الشيخ توتةٌ مزروعة ، قال الشيخُ رضي الله عنه : فخطرَ لي أن أُباسطَها ، فقلت لها : يا توتة ؛ حدِّثيني حدوثة ، فقالت بصوت جهوري : نعم ، إنهم لمَّا زرعوني سقوني ، فلما سقوني أُسستُ ، فلما أسستُ فرعت ، فلما فرعتُ أورقت ، فلما أورقتُ أثمرتُ ، فلما أَثمرتُ أَطعمتُ ، قال : الشيخ رضي الله عنه : فكان كلامُها سلوكاً لي ، وقد حصلَ لي بحمدِ الله ما قالت التوتة .

وكان رضي الله عنه يجلسُ يعظُ الناس علىٰ غيرِ موعدٍ ، فيجيء الناسُ حتىٰ يملؤوا زاويته بقدرة الله عز وجل .

وكان الشيخ حسنُ الخباز المدفون بتربة الشاذلية بالقَرافة رضي الله عنه إذا رأىٰ سيدي محمداً وهو صغير يقول : سيكون لهـٰذا الولدِ شأنٌ عظيم في مصر .

ثم يقول : وأخبرني بذلك أيضاً ابنُ اللبان عن ابن عطاء الله ، عن ياقوت العرشي ، عن أبي العباس المرسي ، عن أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أنه كان يقول : سيظهرُ بمصرَ رجلٌ يُعرف بمحمد الحنفي يكونُ فاتحاً لهـٰذا البيت ، ويشتهرُ في زمانه ، ويكونُ له شأن عظيم .

وفي رواية أخرىٰ عن الشاذلي رضي الله عنه : يظهرُ بمصر شابٌ يُعرف بالشَّابِّ التائب ، حنفيُّ المذهب ، اسمه محمد بن حسن ، وعلىٰ خدِّه الأيمن خال ، وهو

---

(١) العمامة الصفراء والزرقاء كانتا لأهل الكتاب .

أبيضُ اللون ، مُشربٌ بحمرة ، وفي عينيه حَوَرٌ ، ويُربِّي يتيماً فقيراً .

أخذ رضي الله عنه الطريق بعد أن خرجَ من الخلوة عن الشيخ ناصر الدين بن المَيْلَق عن جدِّه الشيخ شهابِ الدين بن الميلق ، عن الشيخ ياقوت العَرْشي ، عن المرسي ، عن الشاذلي ؛ فلذلك كان سيدي أبو الحسن يقول : الحنفي خامسُ خليفة من بعدي .

قال أبو العباس رضي الله عنه : (وكان سيدي محمد رضي الله عنه يأمر مَنْ يراه من أصحابه عنده شهامةُ نفس بالشحاتة من الأسواق وغيرها حتىٰ تنكسرَ نفسه ويقول : رحم الله من ساعدَ شيخَه علىٰ نفسه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ظفرتُ في زماني كلِّه بصاحبين ونصفِ صاحب ؛ فأما الصاحبان : فهما أبو العباس السرسي ، والشيخ شمس الدين بن كتيلة المحلِّي ؛ أما الأول فإنه أنفقَ عليَّ جميعَ ماله ، وأما الثاني فإنه تمسَّك بطريقتي واتَّبع سنتي ، وأما نصفُ الصاحب فهو صهري سيدي عمر) .

قال أبو العباس رضي الله عنه : قال لي سيدي محمد يوماً : أما ترضىٰ أن تكونَ بدايتي نهايتك ؟! فقلت : نعم .

وكان سيدي علي بنُ وفا رضي الله عنه يوماً في وليمةٍ ، فقال الناسُ : ما تتمُّ الوليمةُ إلا بحضور سيدي محمد الحنفي ، فجاء إليه صاحبُ الوليمة فدعاه ، فأتىٰ ، فقال له : من هنا من المشايخ ؟ فقال : سيدي علي بنُ وفا وجماعتُهُ ، فقال : ادخلْ واستأذنه لي ؛ فإن من أدبِ الفقراء إذا كان هناك رجلٌ كبير لا يدخلُ عليه حتىٰ يُستأذنَ له ، فإن أذنَ وإلا رجعنا خوفَ السلب ، فدخل صاحبُ الوليمة ، فاستأذن له ، فأذن له سيدي علي ، وقام له وأجلسه إلىٰ جانبه ، فدار الكلام بينهما ، فقال سيدي علي : ما تقولُ في رجلٍ رحى الوجودِ بيده يدوِّرها كيف شاء ؟ فقال له سيدي محمد رضي الله عنه : فما تقول فيمن يضعُ يدَه عليها فيمنعُها أن تدور ؟! فقال له سيدي علي : واللهِ ؛ كنَّا نتركُها لك ونذهب عنها ، فقال سيدي محمد رضي الله عنه لجماعة سيدي علي : ودِّعوا صاحبَكم ؛ فإنه ينتقلُ قريباً إلى الله تعالىٰ ، فكان الأمرُ كما قال .

وسمع سيدي محمد رضي الله عنه هاتفاً يقول بالليل : يا محمد ؛ ولَّيناك ما كانَ بيد

عليِّ بنِ وفا زيادةً على ما بيدك ، فعلمتُ أن ذلك لا يكونُ إلا بعد موته ، فأرسلتُ شخصاً من الفقراء يسألُ عن بيت سيدي علي بحارةِ عبد الباسط ، فوجد الصائحَ أنه قد مات .

ودخل فقيرٌ إلى القاهرة ، فأشكلَ حالُهُ على الناس ، وكان يمدُّ يدَه في الهواء فيقبضُ من الدنانير والدراهم ، فبلغ سيدي محمداً ، فأحضره بين يديه وقال : أكرِمْنَا بما فتحَ الله به عليك ، فقبض قبضةً من الهواء وأعطاها لسيدي محمد رضي الله عنه ، فوجدها ثمانين ديناراً .

فطلب منه كذلك ثانياً وثالثاً وهو يُعطيه ، لـٰكن دونَ الأول ، فقال له : زدني ، فقبضَ فلم يقعْ شيءٌ بيده ، فقال له الشيخ : إنَّ خزائنَ الله لا تنفدُ ، ثم ضُرب وأُخرج ، وسُلب حاله من ذلك اليوم .

وكان الشريف النعماني رضي الله عنه أحدُ أصحاب سيدي محمد رضي الله عنه يقول : رأيتُ جدِّي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في خيمةٍ عظيمة والأولياءُ يجيئون ويسلِّمون عليه واحداً بعد واحد وقائلٌ يقول : هـٰذا فلان ، هـٰذا فلان ، فيجلسون إلىٰ جانبه صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ جاءت كبكبةٌ عظيمة وخلقٌ كثير وقائل يقول : هـٰذا محمد الحنفي ، فلما وصلَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم أجلسه بجانبه ، ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أبي بكر وعمر وقال لهما : إني أحبُّ هـٰذا الرجل إلا عمامتَه الصمَّاء ـ أو قال الزعراء ـ وأشار إلىٰ سيدي محمد ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أتأذنُ لي يا رسول الله أن أُعمِّمَه ؟ فقال : نعم ، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه عمامةَ نفسه وجعلها علىٰ رأسِ سيدي محمد ، وأرخىٰ لعمامةِ سيدي محمد عَذَبةً عن يساره[1] ، وألبسها لسيدي محمد . انتهىٰ .

فلما قصَّها علىٰ سيدي محمد رضي الله عنه بكىٰ وبكى الناسُ ، وقال للشريف محمد : إذا رأيتَ جدَّك صلى الله عليه وسلم فاسأله لي في أمارة يعلمها من أعمالي ، فرآه صلى الله عليه وسلم بعد أيامٍ ، وسأله الأمارة ، فقال له : بأمارة الصلاة التي

(١) الاعتذاب : أن تُسبِل للعمامة عَذَبتين محركةً من خلفها ، وهما طرفا العمامة .

يُصلِّيها عليَّ في الخلوةِ قبل غروب الشمس كلَّ يومٍ ؛ وهي : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمد النبيِّ الأميِّ ، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّمْ عددَ ما علمتَ ، وزنةَ ما علمت ، وملءَ ما علمت ، فقال سيدي محمد رضي الله عنه : صدقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ عمامته وأرخىٰ لها عَذَبةً ، ونزع كلُّ مَنْ في المجلس عمامتَه وأرخىٰ لها عَذَبةً ، وصار سيدي محمد رضي الله عنه إذا ركبَ يُرخي العَذَبةَ ، وتركَ الطيلسان الذي كان يركبُ به إلىٰ أن مات رضي الله عنه .

ثم إن الشريف رضي الله عنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أيضاً وقال له : إني أرسلتُ إلىٰ محمد الحنفي أمارةً مع رجلٍ من رجال الصعيد ، وأن يعملَ لعمامتِهِ عَذَبةً ، فوصل الرجلُ الصعيديُّ بعد مدة ، وأخبر سيدي محمداً بالرؤيا ، رضي الله عنه .

قال الشيخ شمسُ الدين بنُ كتيلة رضي الله عنه : وأولُ شهرةٍ اشتهر بها الشيخُ محمد الحنفي رضي الله عنه : أنَّ السُّلطان فرجَ بن برقوق[1] كان يرمي الرمايا على الناس ، وكان الشيخُ يُعارضه ، فأرسل وراء الشيخ ، وأغلظَ عليه القول ، وقال : المملكةُ لي أو لك ؟! فقال له الشيخ رضي الله عنه : لا لي ولا لك ، المملكةُ لله الواحد القهار ، ثم قام الشيخُ متغيِّرَ الخاطر ، فحصل للسُّلطان عقب ذلك ورمٌ في محاشمه كاد يهلِكُ منه[2] ، فأرسل خلفَ الأطباء ، فعجزوا ، فقال له بعضُ خواصِّه العقلاء : هـٰذا من

---

(١) **الملك الناصر فرج بن برقوق** (٧٩١ـ٨١٥هـ) : من ملوك الجراكسة بمصر والشام ، بويع بالقاهرة سنة (٨٠١هـ) ، وكان صغيراً ، فقام بتدبير ملكه الأتابكي أيتمش البجاسي ، حارب نواب حلب وحماة وصفد وطرابلس وغزة الذين امتنعوا عن الطاعة ، وانتصر عليهم ، ولما زحف تيمورلنك على الشام سنة (٨٠٣هـ) ترك الشام فريسة لتيمورلنك وعساكره نهباً وحرقاً وتعذيباً ومحواً ، وقفل لمصر ، اختفىٰ بمصر بعد أن وجد من أمرائه مخالفة ، فبايعوا أخاه عبد العزيز بن برقوق ، فلم يلبث أن ظهر وعاد للسلطنة بعد أن قتل أخاه ، وأفرط في قتل مماليك أبيه ، فخرج بعضهم إلىٰ بلاد الشام ، والتف حولهم كثيرون ، فخرج إليهم وانهزم ، فدخل دمشق ، فنادوا بخلعه ، فأرسل إليهم بطلب الأمان ، فقيدوه وسجنوه في قلعة دمشق ، ثم أثبتوا عليه الكفر وقتلوه في القلعة .

(٢) **محاشمه** : مذاكيره .

تغيُّرِ خاطرِ الشيخ محمد الحنفي ، فقال : أرسلوا خلفه لأُطيِّبَ خاطره ، فنزل الأمراءُ إليه ، فوجدوه خارج مصر نواحي المطرية ، فأخبروه بطلب السُّلطان له ، فلم يجبْ إلى الاجتماع به ، فلم يزالوا يتردَّدون بينه وبين السلطان حتىٰ رقَّ له ، وأرسل له رغيفاً مبسوساً بزيتٍ[١] ، وقال لهم : قولوا له : كلْ هٰذا تبرأ ، ولا تعدْ إلىٰ قلَّةِ الأدب نملخ آذانك ، فمن ذلك اليوم اشتهرَ أمرُ الشيخ رضي الله عنه للناس ، وصار الناسُ إذا لامَ بعضُهم بعضاً علىٰ أمرٍ لم يفعلْه يقول له : يعني ينغاض الحنفي ، وشاعتْ هٰذه الكلمة بين الناس إلى الآن .

وكان الإستادار[٢] لمَّا جاء إلى الشيخ يدعوه للسُّلطان أغلظَ على الشيخ القول ، فدعا عليه الشيخُ ، فأعلموا السلطان بذلك ، فسجنه ، ثم ضربَ عُنقَه ، وأرسل رأسه للشيخ في طبق ، فولَّىٰ بوجههِ عنه وقال : ارفعوها وادفنوها مع جثته .

وكان سيدي الشيخُ إسماعيلُ نجلُ سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه يقول : (إنَّ الشيخ رضي الله عنه أقامَ في درجةِ القطبانية [ستاً][٣] وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأياماً ، وهو القطبُ الغوث الفردُ الجامع هٰذه المدة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من الفقراءِ من يَسلكُ علىٰ يد رجلٍ وينفطمُ علىٰ يدِ غيره ؛ لموتِ الشيخ الأول ، أو غير ذلك) .

وكان شيخُ شيخه الشيخُ شهاب الدين بنُ المَيْلَق رحمه الله تعالىٰ يكتبُ بكلِّ مَدَّةِ قلم

---

(١) في (ج) : (بزيت طيب) .

(٢) **الإستادار** : لفظ فارسي ومعناه : وكيل الخراج أو المؤونة ، وأصبحت الإستادارية في زمن المماليك وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، يتولىٰ صاحبها الإستادار شؤون بيت السلطان كلها من المطابخ والشرابخاناه والحاشية والغلمان ، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه من النفقات والكساوي ، وما يجري مجرىٰ ذلك من المماليك وغيرهم ، وهم أصناف : إستادار الأملاك السلطانية ، وإستادار الذخيرة ، وإستادار العالية ، وهو أعلاهم رتبة ، ومعناه : السيد الكبير ، وإستادار صغير . « صبح الأعشىٰ » (٤/ ٢٠ ، ٥/ ٤٥٧) ، و« ذيل المعاجم العربية » عن حاشية « ذيل الدرر الكامنة » (ص ٦٨ـ ٦٩) .

(٣) في النسخ : (ستة) .

كُرَّاساً كاملاً[١] ، فسمع بذلك الناسُ ، فتعجَّبوا من ذلك ، واستبعدوا وقوعه ، فأمر الشيخُ محمد الحنفي رضي الله عنه بعضَ مُريديه أن يكتبَ بكل مَدَّةٍ كرَّاسين ، فكتب والناسُ ينظرون .

وكان رضي الله عنه يقول : (كان الشيخُ ياقوت رضي الله عنه يقول : يا دهشة ، يا حيرة ، يا حرف لا يقرأ) .

وكان يقول : (وجدتُ مقامَ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أعلىٰ من مقام سيدي عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه ، ثم قال : وسببُ ذلك : أنَّ سيدي عبدَ القادر سُئل يوماً عن شيخه ، فقال : أما فيما مضىٰ فكان شيخي حمَّاداً الدباس ، وأما الآن فإني أُسقىٰ من بحرين ؛ بحرِ النبوَّة ، وبحرِ الفتوة ؛ يعني ببحر الفتوة : عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأما سيدي أبو الحسن رضي الله عنه فقيل له : مَنْ شيخُك ؟ فقال : أما فيما مضىٰ فكان شيخي سيدي عبد السلام ابن مشيش ، وأما الآن فإني أُسقىٰ من عشرةِ أبحر ؛ خمسةٍ سماوية ، وخمسةٍ أرضية كما تقدَّم في ترجمته)[٢] .

وكان رضي الله عنه إذا وعظَ الناسَ في تركِ الزِّنا يقول : (إنَّ الذي يشبكُ الكلبَ مع الكلبةِ قادرٌ أن يشبكَ الزاني مع الزانية في حال زناه ، ثم يقول : هاه هاه ، فيصرخُ الناسُ ، ويكثر ضجيجهم) .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ علىٰ خواطر القوم ، ويخاطبُ كلَّ واحدٍ من الناس بشرحِ حاله .

وقال له رجلٌ : بلغنا عن الشيخِ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه أنه عملَ يوماً ميعاداً سُكوتياً لأصحابه ، ومُرادنا أن تعملوا لنا ذلك ، فقال : نفعلُ ذلك غداً إن شاء الله تعالىٰ ، فجلس على الكرسيِّ ، وتكلَّم بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ سرّاً ، فأخذ كلٌّ من الحاضرين مشروبَهُ ، وصار كلُّ واحدٍ يقول : أُلقيَ إليَّ في قلبي كذا وكذا ، فيقول له الشيخ : صدقت ، فحصلَ الاتِّعاظُ لكلِّ واحدٍ ، وكان ذلك من الكرامات .

---

(١) مدَّة القلم : إذا أخذت من حبر الدواة على القلم لمرة واحدة .

(٢) تقدم (٢/ ٧٤) .

وكان إذا حضرَ أحدٌ من المنكرين ميعادَهُ يصيرُ المُنكرُ يضطرب وينتفض ، ويتقلَّبُ في الأرض ويقول : واللهِ ؛ ما هـٰذا سدىً ، ثم يصحبُهُ .

وجاءه شخصٌ ، فقال : يا سيدي ؛ ادعُ الله أن يرزقني شيئاً من محبَّتِهِ ، فقال رضي الله عنه : لا أقول لك مثلَ ما قال بعض العارفين لمَّا سأله ذلك : عبِّي كفنك ، ولـٰكن أقولُ لك : احضرِ الميعاد ، فحضرَ يوماً ، فألقى الشيخُ عليه بعضَ مسائلَ من دلائل محبَّة الله تعالىٰ ، فغُشي على الرجل ، وحُمل مغشيّاً عليه ، فمكثَ ثمانيةَ أيام لا يعي شيئاً ، ثم مات ، فصلَّىٰ عليه الشيخ رضي الله عنه وقال : صلُّوا علىٰ شهيدِ المحبة ، ودفنه في القَرَافة .

وكان رضي الله عنه يلبسُ الملابسَ المثمَّنة الفاخرة ، فأنكر عليه بعضُ من لا معرفةَ عنده بأحوال الأولياء وقال : بعيدٌ أن يكونَ الأولياءُ يلبسون هـٰذه الملابس التي لا تليقُ إلا بالملوك ، ثم قال : إنْ كان الشيخُ وليّاً يُعطيني هـٰذا السَّلاريَّ أبيعه وأنفقهُ علىٰ عيالي[١] ، فلمّا فرغَ الشيخُ رضي الله عنه من الميعاد نزعه ، ثم قال : أعطوه لفلان يبيعه وينفق ثمنَه علىٰ عياله ، فأخذه الرجل ، وصار يقول : شيء لله المدد ، ثم جاء الميعادُ الثاني ، فوجده على الشيخ ، اشتراه بعضُ المحبِّين وقال : هـٰذا لا يصلحُ إلا للشيخ محمد الحنفي ، فأهداه له .

وكان رضي الله عنه لا تردُّ له شفاعةٌ ، وكان يشفعُ عند من يعرفُهُ وعند من لا يعرفه .

وقد ذكر شيخُ الإسلام العيني في « تاريخه الكبير » : واللهِ ؛ ما سمعنا ولا رأينا فيما حويناه من كتبنا وكتبِ غيرنا ، ولا فيما اطَّلعنا عليه من أخبار الشيوخ والعباد والأستاذين بعد الصحابة إلىٰ يومنا هـٰذا أنَّ أحداً أُعطيَ من العزِّ والرفعة ، والكلمةِ النافذة ، والشفاعة المقبولة عند الملوك والأمراء وأرباب الدولة والوزراء عند من

---

(١) السلاري : نسبة إلى الأمير سلار ؛ وهو قميص بغير ردنين ، أو بِردنين قصيرين للغاية ، يلبس تحت الرحبية ، يُصنع من القطن البعلبكي ، وكان يُزين بالجواهر واللآلئ ، بل كان بعضه ينسج ويطعَّم كله بالأحجار الكريمة ، وقد رفع قدره الأمير سلار ، فسمي باسمه . « المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب » .

يعرفه ، وعند من لا يعرفه . . مثلَ ما أُعطي سيدي الشيخ شمسُ الدين الحنفي .

ثم قال : وأبلغُ من ذلك أنه لو طلبَ السلطانَ أن ينزلَ إليه خاضعاً حتىٰ يجلسَ بين يديه ويقبِّلَ يديه . . لكان ذلك اليومُ أحبَّ الأيام إليه .

وفي « مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي » رضي الله عنه : أن الخليفةَ قصد يوماً زيارته ، فلما قربَ من زاويته قام سيدي عبدُ القادر من مجلسِه ، ودخلَ خلوته ، ووقفَ خلفَ الباب ، فلمَّا دخلَ الخليفةُ خرجَ إليه ، فسلَّمَ عليه وجلس ، وكان ذلك من سيدي عبدِ القادر رضي الله عنه حتىٰ لا يقومَ للخليفة .

وكان سيدي الشيخ شمس الدين الحنفي لم يقم قطُّ لأحدٍ من الملوك ، ولا من الأمراء ، ولا من القضاةِ الأربع ، ولا غيرهم ، ولم يغيِّرْ قطُّ قعدتَه لدخولِ أحدٍ منهم ، وكان هـٰؤلاء إذا دخلَ أحدٌ منهم لا يستطيع أن يجلسَ إلىٰ جانبه ، ولا يتربَّعُ بين يديه ، بل يجلسُ جاثياً علىٰ ركبتيه ، متأدِّباً خاضعاً لا يلتفت يميناً ولا شمالاً .

وكان الملكُ الظاهر جقمقَ سيِّئَ الاعتقاد في طائفة الفقراء ، وكان يكرُهُ سيدي محمداً ، ومع ذلك كان يُرسلُ له في الشفاعات فيقضيها ، ويقول لمن حوله : كلما أقول : إني لا أقبلُ لهـٰذا الرجل شفاعةً لا أستطيع ، بل أقبلُ شفاعته ، وأتعجَّبُ في نفسي من ذلك .

ونزل إليه الملك المؤيد[١] ، فجاء إلى الزاويةِ ، فوجد الشيخَ فوق سطح البيت ، فطلعَ إليه سيدي أبو العباس وأخبره ، فقال له : قل له : إنه ما يجتمعُ بأحدٍ في هـٰذا

---

(١) **الملك المؤيد** (٧٥٩ـ٨٢٤هـ) : شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري ، أبو النصر ، من ملوك الجراكسة بمصر والشام ، أصله من مماليك الظاهر برقوق ، اشتراه من محمود شاه ، وأعتقه واستخدمه ، ترقَّىٰ في المناصب ، سجنه الناصر في خزانة شمايل ـ وهي من أشد سجون مصر ـ وأطلقه ، فخرج إلى الشام ، واشترك في العصيان والهياج إلىٰ أن قُتل الناصر وولي السلطنة العباس بن محمد ، فجعله أتابكاً للعسكر ومدبراً للمملكة ، ولم يلبث أن خلع العباس وتولى السلطنة وتلقب بالملك المؤيد ، وهدم خزانة شمايل وبنىٰ مكانها جامع الملك المؤيد الباقي إلى اليوم ، كان شجاعاً ، وافر العقل ، كريماً ، بصيراً بمكايد الحروب ، عارفاً بالموسيقا ، يقول الشعر ، ويصنع الألحان ، ويغني بها ، يؤخذ عليه سفكه للدماء ، ومصادراته للرعية . انظر « الأعلام » (٣/ ١٨٢) .

الوقت ، فوضع السلطانُ يدَهُ علىٰ رأسه ، ورجعَ إلى القلعة ، ولم يتغيَّرْ من الشيخ إجلالاً له ، رضي الله عنه .

وأرسل إليه الأمير بيسق[1] بشكارةِ فضة[2] ، فوجده على الكرسيِّ ، فصار يقبضُ منها بيده ، ويرمي للناس حتىٰ أفناها كلَّها بحضرة القاصد ، كأنه يُريه أنَّ الفقراء في غنيةٍ عن ذلك ، وأنهم لو أحبُّوا الدنيا ما كان لهم هـٰذا المقام بين الناس ، ثم إنَّ الأميرَ بلغه ما وقعَ ، فجاء إلى الشيخ ، فقبَّلَ يديه ، فقال له الشيخ : قم إلىٰ هـٰذا البئرِ فاملأ منه هـٰذه الفسقية للوضوء ، فيصيرُ ثوابُ ذلك في صحيفتك إلىٰ يوم القيامة ، فخفف الأميرُ ثيابه وملأ دلواً ، فوجده ثقيلاً ، فعالجه حتىٰ طلعَ ، فوجده ذهباً ، فقال ذلك للشيخ ، فقال الشيخ له : صُبَّه في البئر ، واملأه ، فملأه فوجدَهُ كذلك ثانياً وثالثاً ، فقال : قل للبئرِ : ما لنا حاجةٌ إلا بالماء ، فاستحقرَ الأميرُ ما كان أرسله للشيخ .

وطلب الفقراءُ بالوعةً للميضأة ، فغرز الشيخُ عكازه وقال : هـٰذه بالوعة ، فهي إلى الآن ينزلُ فيها ماءُ الوضوء ، ولا يعرفون إلىٰ أين يذهب .

وكان الأمير الكبير المسمَّىٰ بططر[3] عند السلطان المؤيد[4] كلَّما يجيءُ يزور الشيخ

---

(١) **بيسق** : أمير آخور الظاهري ، مات بالقدس بطالاً ، وكان الناصر نفاه إلىٰ بلاد الروم ، فقدم في الدولة المؤيدية ، فلم يقبل المؤيد ، ثم نفاه إلى القدس فمات بها ، وله آثار بمكة ، وكان كثير الشر ، شرس الخلق ، جماعاً للأموال مع البر والصدقة . « إنباء الغمر » (٢/ ١٧٩) .

(٢) **الشكارة** : كيس من قماش أو ورق متين . « المعجم الوسيط » (ش ك ر) .

(٣) **ططر الظاهري الجركسي** ؛ المكنىٰ بسيف الدين أبي سعيد ، الملك الظاهر (٧٦٩ـ٨٢٤هـ) : من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام ، أصله من مماليك الظاهر برقوق ، اشتراه بمصر وأعتقه ، ولما آلت السلطنة إلى الناصر فرج توجه ططر إلىٰ حلب ، ولحق بأهل الشغب والعصيان ، ثم جعله المؤيد مقدم ألف ، فأمير مجلس ، ومات المؤيد ، وتسلطن ابنه المظفر أحمد ، فتولىٰ إدارة المملكة وتزوج أم المظفر ، ثم خلع المظفر وطلق أمه بدمشق ، ونادىٰ بنفسه سلطاناً ، وتلقب بالظاهر سنة (٨٢٤هـ) ، وعاد للقاهرة مريضاً فلم يلبث أن مات سنة (٨٢٤هـ) ، ومدة سلطنته ثلاثة أشهر وأيام ، وكان فيه تَدَيُّن ولين وكرم مع طيش شديد ، وأتلف في مدته علىٰ قصرها أموالاً عظيمة ، وللبدر العيني كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ، وهو رسالة في بعض أخباره . « الأعلام » (٣/ ٢٢٦) .

(٤) في (و) : (وكان أمير كبير المسمىٰ بططر عند الملك) .

يقومُ يخلع ثيابه ، ويملأ الفسقيةَ للناس بنفسه ويعودُ ، ويلبس ثيابه وتخفيفتَهُ ، ولما تَسلطنَ بعد الملك أحمد بن المؤيد كان ينزلُ إلىٰ زيارة الشيخ كلَّ يومين أو ثلاثة ، لا يستطيعُ أن يتخلَّفَ عنه ، فيقول له الشيخ : إنك صرتَ سلطاناً فالزمِ القلعة ، فيقول : لا أستطيع .

وكان يقول للشيخ : (لا تقطع شفاعتك عنَّا ، ولو كان كلَّ يومٍ ألفُ شفاعة قبلناها) .

ولما عُزِلَ شيخُ الإسلام ابنُ حجر أرسلَ الشيخُ جاريته بركةَ إلى السلطان ططر وقال لها : قولي له : ردَّ الشيخَ شهاب الدين إلىٰ ولايته ، فطلعت إليه بركة ، وقالتْ له ذلك ، فكتب لها في الحال مرسوماً بولاية شيخ الإسلام ابن حجر ، وأرسل له خلعةً ، فكان ابنُ حَجَر رحمه الله لا ينسىٰ ذلك للشيخ .

وطلع الشيخُ رضي الله عنه مرَّةً للسلطان ططر يَعودُهُ من مرضٍ ، فتسامع الناسُ أن الشيخ رضي الله عنه طلعَ للسُّلطان يعودُه ، فترادفَ عليه أصحابُ الحوائج ، فأمر السُّلطان ألا تُردَّ ذلك اليوم قضيةٌ ، وسأل الشيخ أن يعلم للناس علىٰ قضاياهم ، فعلم علىٰ خمس وثلاثين قضية ، فلمَّا أرادَ الشيخ النزول أخرجَ السُّلطانُ له فرساً بسرجٍ مُغَرَّق ، وكنبوشاً[1] ، وأمرَ بالقبَّة والطير أن يكونوا علىٰ رأس الشيخ ، وأمر الأمراء أن يَركبوا معه إلى الزاوية ، ففعلوا ذلك ، وكانتِ القبةُ والطيرُ مع أمير كبيرٍ يقال له : بَرْسْباي الدقماقي ، ثم تولَّىٰ بعد ذلك المملكة ، فكان هو الملك الأشرف بَرْسْباي ، وكان يُراعي خاطرَ الشيخ ، ويخافُ منه مدَّةَ مملكته إلىٰ أن تُوفي رحمه الله تعالىٰ .

وجاءَ مرَّةً قاضٍ من المالكية يُريدُ امتحانَ الشيخ ، فأعلموا الشيخ بذلك ، فقال الشيخ رضي الله عنه : إنِ استطاعَ يسألني ما عدتُ أقعدُ علىٰ سجادة الفقراء ، فلما جاء القاضي يسألُ قال : ما تقول في ، وتوقَّفَ ، فقال له الشيخ رضي الله عنه : نعم ، فقال : ما تقول في ، وتوقَّف ، فقال له الشيخ رضي الله عنه : نعم ، حتىٰ قال ذلك

---

(١) **المُغَرَّق** : المحلَّىٰ بنحو الفضة ، **والكنبوش** : ما يستر به ظهر الفرس وكفله ؛ يكون فيه الزركش للملوك والأمراء ، ومن الصوف المرقوم للقضاة وأهل العلم .

مراراً عديدة ، فلم يفتحْ عليه بشيءٍ ، فقال القاضي : كنتُ أريد أن أسألَكم عن سؤالٍ وقد نسيته ، ثم كشفَ رأسَه واستغفر وتاب ، وأخذ عليه العهدَ بعدم الإنكار على الفقراء والاعتراض عليهم .

وتكلَّم على الكرسيِّ في جامع الطريني بالمحلَّة الكبرىٰ يوماً في معنىٰ قولهم :

يـــا فقيـــه فـــق فـــاقـــه   يـــا صـــريـــم النـــاقـــه
قلـــتُ لـــه قـــم صـــلِّ   قـــام جـــرىٰ فـــي الطـــاقـــه

حتىٰ أبكى الناسَ ، وزعقَ بعضُهم ، وتخبَّطَ عقلُ بعضهم .

وكان من جملة ما قال : معنىٰ : (فق) أي : علىٰ أبناء جنسك ، (فاقه) أي : ولو مرَّةً ، وقولهم : (يا صريم الناقه) : أي : يا زمام الناقة التي هي مطيَّةُ المؤمنِ التي بها يبلغ الخيرَ ، وبها ينجو من الشرِّ ، وقولهم :

قلـــت لـــه قـــم صـــلِّ   قـــام جـــرىٰ فـــي الطـــاقـــه

فمعناه : أنه أُمرَ بالصلاة فقط ، فزاد علىٰ ذلك طاقتَهُ من الأذكار والصيام والقيام وجدَّ في الاجتهاد والطاعات .

ومعنىٰ : (جرى في الطاقه) : أي : أسرع وبادر ، وفعلَ ما أُمر به ، وزاد في الطاعة جهدَ الاستطاعة التي هي (الطاقه) ، وليس المرادُ بها الكوَّةُ المثقوبة في الحائط .

وكان سيدي أبو بكر الطريني رحمه الله أول ما يدخلُ القاهرة يبدأُ بزيارة سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه ، لا يقدِّمُ عليه أحداً .

وقدَّم سيدي أبو بكر طعامَ خُبَيْزَةً للشيخ حين قدم المحلَّة ، فقال له الشيخ : يا أبا بكر ، هل أذنَ لك أصحابُ الغيط أن تأخذَ من خُبَيْزَتهم ؟ قال : لا ، فلم يأكلْها الشيخ ، وكذلك سيدي أبو بكر إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه إذا نادىٰ مُريداً له في أقصىٰ بلادِ الريف من القاهرة يُجيبه ، فإن قال له : تعال سافرَ إليه ، أو افعلْ كذا فعله .

ونادىٰ يوماً أبا طاقية من بلدِ قُطُور بالغربية ، فسمع نداء الشيخ ، فجاء إلى

القاهرة ، وكان هٰذا الشيخُ من أرباب الأحوال والإشارات ، فسمع بياع الحمَّص الأخضر يقول : يا ملآنة بفليس ، فمضىٰ خلفه وصار يقول في نفسه : ملآنة وهي بفليس ؟! ثم صار يقول البياع : يا ملآنة بقلبين ، يا ملآنة بقلبين ، فقال : ما صيَّرها رخيصةً إلا كونها بقلبين ، ثم رجع .

وكان سببُ تسميته أبا طاقية أنَّ سيدي محمداً رضي الله عنه قال له : اخلعْ عمامتك ، وخمِّرْ هٰذا الطين ، ففعل ، فقيل له لما فرغَ : لِمَ لا تلبسُ عمامتك ؟! فقال : لم يقلْ لي الشيخُ : فإذا فرغت فالبسها ، فلا ألبسها إلا إن قال لي ، فلم يقلْ له الشيخ ، فأقام بقيَّة عمره بطاقية حتىٰ مات .

وركبَ مرَّةً إلى الروضة علىٰ حمارِ مُكَارٍ ، فأعطاه إنسانٌ عشرين ديناراً ، فقال : أعطها للمكاري ، فأعطاها له .

وكان إذا دخلَ الحمَّام وحلقَ رأسَهُ تقاتلَ الناسُ علىٰ شعره يتبرَّكون به ، ويَجعلونه ذخيرةً عندهم .

وكان رضي الله عنه يجمعُ الفقراء ويدخلُ بهم الحمَّامَ جبراً لخاطرهم ، وإشارةً لتنظيفهم الباطن .

وكان للشيخ بلانٌ[1] ، فسافر إلىٰ بلاد المغرب ، فعُرف أنه كان بلاَّناً لسيدي محمد الحنفي ، فصارَ الناسُ يأخذون يدَهُ يقبِّلونها ، ويقولون : هٰذه يدٌ مسَّتْ جسدَ الشيخ .

فبلغ ذلك مولاي أبا فارس سلطان تونس ، فأرسلَ وراءه ، وقبَّل يده ، ووضعَها علىٰ مواضعَ من جسده يتبرَّكُ بها ، ثم أرسلَ وكيله إلىٰ مصر ليأخذَ له العهدَ بطريق الوكالة ، فأخذ عليه العهد ، وأمره أن يأخذَ العهدَ على السلطان إذا رجع .

وكان أهلُ المغرب يُرسلون يأخذون من تراب زاويته ، ويجعلونه في ورق المصاحف .

وكان أهلُ الروم يكتبون اسمَه علىٰ أبواب دورهم يتبرَّكون به .

---

(١) **البلاَّن** : من يخدم في الحمام .

وكانت رجالُ الطيران في الهواء تأتي إليه ، فيعلِّمُهم الأدبَ ، ثم يطيرون في الهواء والناس ينظرون إليهم حتىٰ يغيبوا .

وكان رضي الله عنه يزور سكان البحر ، فكان يدخلُ البحرَ بثيابه ، فيمكث ساعةً طويلة ، ثم يخرجُ ولم تبتلَّ ثيابه .

ووقع لإمامِ زاويته أنه خرجَ للصلاة ، فرأىٰ في طريقه امرأةً جميلة ، فنظر إليها ، فلما دخلَ الزاوية أمرَ الشيخُ غيرَهُ أن يُصلِّي ، فلما جاء الوقتُ الثاني فعل كذلك إلىٰ خمسة أوقات ، فلما وقعَ في قلبه أن الشيخَ أطلعه الله علىٰ تلك النظرة استغفرَ وتاب ، فقال له الشيخُ : ما كل مرَّة تسلم الجرَّة .

ودخل مصرَ رجلٌ من أولياء الله تعالىٰ من غير استئذان سيدي محمد ، فسلبَ حالَه ، فاستغفرَ الله ، ثم جاءَ إلى الشيخ ، فردَّ عليه حالَهُ ، وذلك أنه كان معه قفَّةٌ يضعُ يده فيها ، فيُخرجُ كلَّ ما احتاجَ إليه ، فصار يضعُ يدَه فلا يجدُ شيئاً .

وكان رضي الله عنه يقول : (واللهِ ؛ لقد مرَّتْ بنا القطبيةُ ونحن شبابٌ ، فلم نلتفتْ إليها دون الله عز وجل) .

وكان يقول : (إن القطبَ إذا تقطَّبَ يحملُ همومَ أهل الدنيا كلها كالسلطان الأعظم ، بل أعظم) .

وكان يتطوَّرُ في بعض الأوقات حتىٰ يملأَ الخلوةَ بجميع أركانها ، ثم يصغر قليلاً قليلاً حتىٰ يعودَ إلىٰ حالته المعهودة ، ولما علمَ الناسُ بذلك سدَّ الطاقَ التي كانت تُشرف على خلوته رضي الله عنه .

وكان إذا تغيَّظَ من شخصٍ يتمزَّقُ كلَّ ممزَّقٍ ولو كان مُستنداً لأكبرِ الأولياء ، لا يقدرُ يدفعُ عنه شيئاً من البلاءِ النازل به ؛ كما وقعَ لابن التمَّار وغيره ؛ فإنه أغلظَ على الشيخ في شفاعةٍ، وكان مُستنداً لشيخ اسمه البسطامي من أكابر الأولياء[1] ، فقال سيدي محمد :

---

(١) البِسطامي : رجل مبارك ، له جماعة تعرف بالبسطامية ، عاش زمن صاحب الترجمة ، « السر الصفي » (١/ ٣١) .

قد مزَّقنا ابنَ التمَّار كلَّ ممزقٍ ولو كان مستنداً إلىٰ ألفِ بسطاميٍّ ، ثم أرسلَ السُّلطان فهدم دارَ ابن التمار ، وهي خرابٌ إلى الآن .

وعزم بعضُ الأمراء علىٰ سيدي محمد ، ووضع له طعاماً في إناءٍ مسموم ، وقدَّمه للشيخ ، وكان لا يتجرَّأُ أحدٌ يأكلُ معه في إنائه التي يأكلَ منها ، فأكل منه الشيخ شيئاً ، ثم شعرَ بأنه مسمومٌ ، فقامَ وركب إلىٰ زاويته ، فاختلطتِ الأواني ، فجاء ولدا الأمير الاثنان فلعقا من إناءِ الشيخ فماتا ، ولم يضرَّ الشيخَ شيءٌ من السمِّ .

وكان يتوضَّأ يوماً ، فوردَ عليه واردٌ ، فأخذ فردةَ قبقابه ، فرمىٰ بها وهو داخل الخلوة ، فذهبتْ في الهواء وليس في الخلوة طاقٌ تخرج منها ، وقال لخادمه : خذ هـٰذه الفردةَ عندك حتىٰ تأتيها أختُها ، فبعد زمانٍ جاء بها رجلٌ من الشام مع جملةِ هديةً ، وقال : جزاك اللهُ عني خيراً ؛ إنَّ اللصَّ لما جلسَ علىٰ صدري ليذبحني قلتُ في نفسي : يا سيدي محمد يا حنفي ، فجاءته في صدره ، فانقلبَ مغمىً عليه ، ونجاني الله عز وجل ببركتك .

وشفع رضي الله عنه عند أمير يُسمَّى المناطح ، كان كلُّ من نطحه كسرَ رأسه ، وكان ينطحُ المماليكَ بين يدي السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي ، فقال للقاصد : قل لشيخك : اقعدْ في زاويتك ولا تعارضه وإلا جاءَ لك ينطحُكَ ويكسرُ رأسك ، فذكر القاصدُ ذلك للشيخ ، فلم يردَّ عليه جواباً ، فلما دخلَ الليلُ كشفَ ذلك الأميرُ رأسه وصار ينطحُ الحيطان إلىٰ أن مات ، فبلغ الخبرُ السلطانَ الأشرف ، فقال : قتله الحنفي ، رضي الله عنه .

وكان له جاريةٌ مباركةٌ اسمها بركة ، أعتقها وكتب لها ، وقال لها : لا تُخبري بذلك أحداً ، فلما أعتقها أخبرتْ أهلَ البيت بذلك ، فقال لها : روحي اقعدي في المكان الفلاني ، ولم تعلمْ ما أرادَ الشيخ ، فجلستْ فيه ، ثم أرادتْ أن تقوم فما استطاعتْ ، فسألتِ الشيخ أن يأذنَ لها في القيام ، فقامتْ لـٰكن لم تستطع المشي ، فقالت : استأذنوا سيديَ في المشي ، فقال : إنها لم تسألْ إلا القيام ، والسهمُ إذا خرجَ من القوس لا يردُّ ، فلم تزلْ مقعدةً إلىٰ أن ماتت .

وكان رضي الله عنه يُقرئ الجانَّ علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ،

فاشتغل عنهم يوماً بأمرٍ ، فأرسل صهرَه سيدي عمر ، فأقرأهم في بيتِ الشيخ ذلك اليوم .

وكان سيدي عمر هـٰذا يقول : طلبتْ منِّي جنيةٌ أن أتزوَّجَها ، فشاورتُ سيدي محمداً رضي الله عنه في ذلك ، فقال : هـٰذا لا يجوزُ في مذهبنا ، فعرضتُ ذلك علىٰ ملكِهم حين نزلتُ معها تحت الأرض ، فقال الملك : لا اعتراض علىٰ سيدي محمد فيما قال ، ثم قال الملك للوزير : صافحْ صهرَ الشيخ باليدِ التي صافحتَ بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليصافحَ بها سيدي محمداً رضي الله عنه ، فيكون بينه وبين النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المصافحة رجلان ، فصافحني ، وأخبرني أنَّ بينه وبين وقتِ مصافحة النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثمان مئة سنة ، ثم قال : للجنية : ردِّيه إلى الموضع الذي جئتِ به منه .

ورآه كاتب السر ابن البارزي يوماً وهو راكبٌ ، ومعه جماعةٌ من الأمراء ، فأنكر عليه ، وقال : ما هـٰذه طريقةُ الأولياء ، فقال له ناظرُ الخاصِّ : لا تعترضْ ؛ فإن للأولياء أحوالاً ، فقال له : لا بدَّ أن أُرسلَ أقول له ذلك ، فلما دخل القاصدُ وأخبر سيدي محمداً قال له : قل لأستاذك أنت معزولٌ عزلاً مؤبَّداً فأرسل له السلطانُ المؤيدُ وقال له : الزمْ بيتك ، فما زال معزولاً حتىٰ قتله الملك المؤيد ، نعوذ بالله من الإنكار[1] . انتهىٰ .

وكانت أمُّ سيدي محمود زوجةُ الشيخ رضي الله عنه تقول : أهدتْ لنا امرأةٌ أُترجَّةً صفراء ، فوضعناها عندنا في طبقٍ ، فانقطع الجانُّ الذين كانوا يقرؤون على الشيخ ، فلما أكلناها جاؤوا ، فقال لهم سيدي : ما قطعكم عن المجيء إلينا ؟! فقالوا : لا نقدر علىٰ رائحةِ الأُتْرجِّ ، ولا نقدرُ أن ندخل بيتاً هو فيه ، فكان سيدي محمد رضي الله عنه يأمرُ من نزلَ بأن عنده الجانُّ بأن يضعَ في بيته الأترجَّ ، ويعمل من حبِّه سبحاً ، ويحفظها عنده لمن عرضَ له عارضٌ في غيرِ أوان الأُترجِّ .

ودخلتْ على الشيخ يوماً امرأةُ أمير ، فوجدتْ حوله نساء الخاصِّ تُكَبِّسُهُ ، فأنكرتْ

---

(١) انظر ترجمة ابن البارزي حاشية (٢) (٢/ ٢٨٨) .

بقلبها عليه ، فلحظها الشيخُ بعينه ، وقال لها : انظري ، فنظرتْ ، فوجدت وجوهَهنَّ عظاماً تلوح ، والصديدُ خارجٌ من أفواههن ومناخرهن ، كأنَّهنَّ خرجنَ من القبور ، فقال لها : واللهِ ؛ ما أَنظرُ دائماً إلى الأجانب إلا علىٰ هـٰذه الحالة ، ثم قال للمُنكرة : إنَّ فيك ثلاثَ علامات : علامةٌ تحت إبطك ، وعلامةٌ في فخذك ، وعلامة في صدرك ، فقالتْ : صدقتَ واللهِ ، إنَّ زوجي لم يعرفْ هـٰذه العلامات إلى الآن ، واستغفرت ، وتابت .

وأرسل ابن كُتيلةَ مرَّةً يشفعُ عند إنسانٍ من كبراء المحلَّة ، فقال : إن كان ابنُ كُتيلةَ فقيراً لا يعارضُ الولاة ، وإن لم يسكتْ ابنُ كتيلة قطعتْ مَصارينَه في بطنه ، فتكدَّرَ ابنُ كُتيلة من ذلك ، وأرسلَ أعْلَمَ سيدي الشيخ محمداً الحنفي ، فقال : هو الذي تتقطَّعُ مصارينه ، فأرسل له سيدي محمدٌ جماعةً من الفقراء ، وأمرهم إذا طلعوا المحلَّةَ أن يمرُّوا علىٰ بيت ذلك الظالم ، ويَرفعوا أصواتهم بالذكر ، ففعلوا ما أمرهم به الشيخُ ، فصار يتقايأ ومصارينُه تطلعُ قطعاً قطعاً إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه يأخذ القطعةَ من البِطِّيخةِ ويشقُّ منها حتىٰ يملأَ كذا كذا طبقاً ؛ كلُّ طبقٍ له لبٌّ خلافُ الآخر ، حتىٰ إنه يشقُّ من البِطيخ الأخضر بطيخاً أصفر حتىٰ يُبهرَ عقولَ الحاضرين رضي الله عنه .

وسُرقتْ له نعجةٌ من الحوش ، فمكثتْ ستةَ أشهر غائبةً ، فقال الشيخ رضي الله عنه يوماً لغلامه : اذهبْ إلى الروضة ، فدقَّ البابَ الفلاني ، فإذا خرج لك صاحبُ الدار قلْ له : هات النعجة التي لها عندك ستة أشهر ، فأخرجها له ، فقال الشيخ رضي الله عنه ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتۡ ﴾ [يوسف : ٦٥] .

وجاءه مرَّةً قاضٍ ، فقال : يا سيدي ، أهل بلدي رفعوا فيَّ قضيةً إلىٰ أستاذهم بأنَّني فلاحٌ ، فقال : قُضيت حاجتُك ، فركب الأميرُ ذلك اليوم فرساً حروناً ، فجرىٰ به في خوخةٍ ضيِّقة ، فانكسرَ ظهرُ الأمير ، ووقع علىٰ ظهر الأرض ميتاً ، وتولَّىٰ ذلك الإقطاعَ رجلٌ من أصحاب سيدي محمد ، فجاء إلى الشيخ يزوره ثاني يومٍ ، فكلَّمه علىٰ ذلك القاضي ، فكتب له عتاقة هو وذرِّيته .

وكان الشيخ إذا لم يجدْ شيئاً يُنفقه ، يقترض من أصحابه ، ثم يوفِّيهم إذا فَتح الله

تعالىٰ عليه بشيءٍ ، فاجتمع عليه يوماً ستون ألفاً ، فشقَّ ذلك على الشيخ ، فدخلَ عليه رجلٌ بكيسٍ عظيم ، وقال : من له على الشيخ دينٌ فليحضر ، فأوفىٰ عن الشيخ رضي الله عنه جميع ما كان عليه ، ولم يَعرفْ ذلك الرجلَ أحدٌ من الحاضرين ، فقالوا للشيخ عنه ، فقال : هـٰذا صيرفيُّ القدرة الإلـٰهية ، أرسله الله تعالىٰ يُوفي عنَّا دَيننا .

وأنشدوا بين يديه شيئاً من كلامِ ابنِ الفارض رضي الله عنه ، فتمايل الشيخُ العارفُ بالله تعالىٰ سيدي الشيخُ شمسُ الدين بنُ كُتيلة المحلِّي ، فلحظه الشيخُ ، فغابَ عن إحساسه ، فرأىٰ في منامه سيدي عمر بنَ الفارض رضي الله عنه واقفاً علىٰ باب الزاوية وفي فمِهِ قصبةُ غاب بُوص[١] ، كأنه يشربُ بها ماءً من تحت عتبة باب الزاوية ، ثم أفاق ، فقال له الشيخ : الذي رأيتَه صحيحٌ ، رأيتَ بعينك يا شمس الدين .

وكان يقول كثيراً : (لو كان عمر بنُ الفارض في زماننا ما وسعَهُ إلا الوقوف ببابنا) .

ومرضت زوجتُهُ مرَّةً ، فأشرفتْ على الموت ، فكانت تقول : يا سيدي أحمد يا بدوي ؛ خاطرك معي ، فرأتْ سيدي أحمد رضي الله عنه وهو ضاربٌ لثامين وعليه جبَّةٌ واسعةُ الأكمام ، عريضُ الصدر ، أحمرُ الوجه ، أحمرُ العينين ، وقال لها : كم تُناديني وتَستغيثي وأنتِ لا تعلمي أنَّك في حمايةِ رجلٍ من الكبار المتمكِّنين ، ونحن لا نُجيبُ من دعانا وهو في موضعِ أحدٍ من الرجال ، قولي : يا سيدي محمد يا حنفي يُعافيك الله تعالىٰ ، فقالت ذلك ، فأصبحتْ كأن لم يكنْ بها مرضٌ .

وكان الشيخ طلحةُ رضي الله عنه المدفون بالمنشيَّة الكُبرىٰ يقول : قال لي سيدي محمد الحنفي : يا طلحة ، خرجَ من زاويتي هـٰذه أربع مئة وليٍّ ـ وفي رواية ثلاث مئة وستون ـ علىٰ قدمي[٢] ، كلُّهم داعون إلى الله تعالىٰ ، وأصحابُنا بالمغرب كثيرٌ ، وبالروم والشام أكثر ، وأكثرُ أصحابنا باليمن ، وسكان البراري ، والكهوف ،

---

(١) البُوص : نبات من نباتات المستنقعات المعمَّرة علىٰ هيئة القصب .

(٢) علىٰ قدمي : علىٰ طريقتي .

والمغارات ، قال الشيخ طلحة رضي الله عنه : وكان ذلك آخرَ اجتماعي بالشيخ رحمه الله تعالىٰ .

وقال سيدي محمد رضي الله عنه في مرض موته : (من كانتْ له حاجةٌ فليأتِ إلىٰ قبري ويطلبْ حاجتَه أقضيها له ؛ فإنَّ ما بيني وبينكم غيرَ ذراعٍ من تراب ، وكلُّ رجلٍ يحجبُهُ عن أصحابه ذراعٌ من تراب فليس برجلٍ) .

وكان رضي الله عنه يُلقِّنُ الخائفَ من ظالم ويقول : إذا دخلتَ عليه فقلْ : باسم الله الخالقِ الأكبر ، حرزٌ لكلِّ خائف ، لا طاقةَ لمخلوقٍ مع الله عز وجل ، فيرجعُ إليه المظلومُ وعليه الخلعةُ ، والوصول بالتغليق .

وأنكرتْ عليه امرأةٌ ما يقدِّمُهُ للفقراء من الطعام القليل في الصحون الرملي ، فقالت : قلَّةُ هـٰذا الطعام ولا هو[١] ، ثم ذهبتْ وعملت طعاماً بكثرةٍ فيه فراخٌ وإوز[٢] ، وحملته إلى الزاوية ، فقال سيدي محمد رضي الله عنه لسيدي يوسف القطوري رحمه الله : كلْ طعامَها كلَّه وحدك ، فأكل طعامها كلَّه وحده وشكا من الجوع ، فأخذَتْه إلىٰ بيتها ، وقدَّموا له نحو ذلك الطعام وأكثر وهو يشكو الجوع ، فقال لها الشيخ : البركةُ في طعام الفقراء ، لا في أوانيهم[٣] ، فاستغفرت وتابت .

وكان إذا تذكَّر أحداً من أصحابه الغائبين عن السماط يأكلُ الشيخُ عنه لقمةً أو لقمتين ، فتنزلُ في بطونهم في أيِّ مكانٍ كانوا ، ثم يجيئون ويَعترفون بذلك .

وكان إذا سأله أحدٌ من المنكرين عن مسألةٍ أجابه ، فإنْ سأله عن أخرىٰ أجابه حتىٰ يكونَ المنكرُ هو التاركَ للسؤال ، فيقول الشيخ رضي الله عنه لذلك الشخص : أما تسأل ؟! واللهِ ؛ لو سألتني شيئاً لم يكنْ عندي أجبتك من اللوح المحفوظ .

وحضره الشيخُ جلالُ الدين البُلْقيني رضي الله عنه يوماً في الميعاد ، فسمعَ تفسيرَ

---

(١) أي : قلة الطعام وعدمه سيان .

(٢) في (ب ، هـ) : (فيه خراف وإوز) ، وفي (ج) : (خراف وإوز ودجاج وغير ذلك) .

(٣) في (ح ، ط) : (البركة في طعام الفقراء وإلا في أوانيهم) ؛ أي : (البركة في طعام الفقراء أم في أوانيهم ؟!) .

الشيخ رضي الله عنه للقرآن ، فقال : والله ؛ لقد طالعت أربعين تفسيراً للقرآن ما رأيت فيها شيئاً من هـٰذه الفوائد التي ذكرها سيدي الشيخ محمد .

وكذلك كان يحضرُهُ شيخُ الإسلام البُلْقيني ، وشيخ الإسلام العيني الحنفي ، وشيخ الإسلام البساطي المالكي[1] ، وغيرُهم .

وقبَّله الشيخُ سراجُ الدين البُلْقيني رحمه الله بين عينيه ، وقال له : أنت تعيشُ زماناً طويلاً ؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [الرعد : ١٧] .

وكان إذا استغرقَ في الكلام وخرج عن أفهام الناس يقول : (وها هنا كلامٌ لو أبديناه لكم لخرجتم مجانين ، لـٰكن نطويه عمَّن ليس من أهله) .

وكان له صاحبٌ في مكَّة المشرَّفة ، فلما بلغه وفاةُ الشيخ رضي الله عنه سافر إلىٰ مصر لزيارةِ قبر الشيخ ، ولم يكنْ له في مصر حاجةٌ غيرَ ذلك .

وجاءه رجل ، فقال له : يا سيدي أنا ذو عيال ، وفقيرُ الحال ، فعلِّمني الكيمياء ، فقال الشيخ رضي الله عنه : أقم عندنا سنةً كاملةً بشرطٍ : أنك كلما أحدثتَ توضَّأت وصلَّيت ركعتين ، فأقام علىٰ ذلك ، فلما بقي من المدة يومٌ جاء إلى الشيخ ، فقال له : غداً تُقضىٰ حاجتك ، فلما جاءه قال له : قمْ فاملأ من البئر ماءً للوضوء ، فملأ دلواً من البئر ، فإذا هو مملوءٌ ذهباً ، فقال : يا سيدي ، ما بقي فيَّ الآن شعرةٌ واحدةٌ تشتهي الكيمياء ، فقال له الشيخ : صبَّه مكانَه واذهبْ إلىٰ بلدك ؛ فإنك قد صرتَ كلَّك كيمياء ، فرجع إلىٰ بلاده ، ودعا الناسَ إلى الله تعالىٰ ، وحصلَ به نفعٌ كبير .

قال الشيخ شمس الدين بنُ كتيلة رضي الله عنه : (وكان سيدي محمد رضي الله عنه إذا صلَّىٰ يُصلِّي عن يمينه دائماً أربعةٌ روحانية ، وأربعةٌ جسمانية ، لا يراهم إلا سيدي محمد ، أو خواصُّ أصحابه) .

ووقعتْ له ابنةُ ابنٍ صغيرةٌ من موضعٍ عال ، فظهرَ شخصٌ وتلقَّاها عن الأرض ، فقلنا له : من تكون ؟! فقال : من الجنِّ من أصحاب الشيخ ، وقد أخذ علينا العهدَ ألا نضرَّ أحداً من أولاده إلىٰ سابع بطن ، فنحن لا نخالف عهده .

---

(١) في (ح) : (الباسطي) ، وفي (ز) : (البسطامي) .

وكان سكان بحرِ النيل يطلعون إلىٰ زيارته وهو في دارِهِ بالروضة والحاضرون يَنظرون ، قالت ابنتُه أمُّ المحاسن رضي الله عنها : وزاروه مرة وعليهم الطيالسةُ والثياب النظيفة ، وصلَّوا معه صلاةَ المغرب ، ثم نزلوا في البحر بثيابهم ، فقلتُ : يا سيدي ؛ أما تبتلُّ ثيابهم من الماء ؟! فتبسَّمَ رضي الله عنه وقال : هـٰؤلاء مسكنُهم في البحر .

وجاءه مرَّةً رجلٌ في جوف الليل ، فوقفَ علىٰ دور القاعة ، فقال له الشيخ : من ؟! فقال : حرامي ، فقال له الشيخ : ما تسرقُ وتعمل شغلك ؟! فقال : يا سيدي تبتُ إلى الله ، فإني تسمَّرت مكاني ، فقال له الشيخ : انزلْ ما عليك بأس ، فتاب وحسنتْ توبتُهُ ، واستمرَّ في زاوية الشيخ إلىٰ أن تُوفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ .

وأمر يوماً شخصاً من أصحابه يُنادي في شوارع القاهرة وأسواقها بأعلىٰ صوته : يا معشر المسلمين ؛ يقول لكم سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه : واظبوا على الصلوات الخمس والصلاة الوسطىٰ ، حتىٰ شاعَ ذلك في جميع البلاد : أنَّ الشيخَ أمرَ بذلك ، فاعترضَ بعضُ الشهود علىٰ منادي الشيخ وقال : هـٰذا ما هو للحنفي هـٰذا حقُّ الله عز وجل[(١)] ، فرجع الفقيرُ وأخبر الشيخَ رضي الله عنه بما وقع من الشاهد ، فسكت ، فخرجَ يومَ الثالث يُنادي ، فمرَّ علىٰ دكان الشهود ، فقال له شاهدٌ منهم : شي لله يا سيدي محمد يا حنفي ، مات البارحةَ الرجلُ الذي قال لك ما قال ، فرجع إلى الشيخ رضي الله عنه فأخبره ، فقال : لا تعدْ تقولُ لأحدٍ ما قلتُ لك .

وكان رضي الله عنه يقول : (كنَّا نقرأُ حزبَ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فكان بعضُ الناس يستطوله ، فألَّفتُ الحزبَ الذي بين أصحابي الآن وأخفيته ، ولم أظهره حتىٰ جاء الإذنُ من سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أدباً معه) .

ولعن شخصٌ إبليسَ في حضرته ، فقال له : لا تعوِّدْ لسانَك إلا خيراً ولو كان ذلك جائزاً .

ولما تزوَّج الشيخُ شمسُ الدين بنُ كتيلة رضي الله عنه بنت سيدي محمد رضي الله عنه جلسا يأكلان ، فجاءتْ هرَّةٌ فخطفت قطعةَ لحم ، فقال الشيخ رضي الله عنه :

---

(١) في (و ، ط) : (هـٰذا لله عز وجل) .

لعنك الله ، فقالت ابنة الشيخ رحمه الله : تذكرُ اللعنةَ علىٰ لسانك وأنتَ رجلٌ يُقتدىٰ بك وتُفتي المسلمين ؟! فقال الشيخُ رضي الله عنه : لا أعودُ لمثلها ، وتابَ من كلِّ لفظٍ قبيح .

وظهر شخصٌ بشعره وفي وسطه مئزرٌ يذكرُ اللهَ في زاويةٍ في حارة قناطر السباع ، فهرع الناس إليه من الأمراء والتجار وغيرهم ، فأرسل الشيخ رضي الله عنه وراءه ليحضرَ ، فاصفر لونه وتغيَّر ، وقال للقاصد : خذ هٰذه الفضة ، وأعتقني من مقابلته ، فقال له القاصد : لا بدَّ من مقابلته ، فلم يزل حتىٰ جاء به إلى الشيخ ، فلما نظر إليه الشيخ كادَ أن يذوب ، وقال : اخرج ، فخرج لا يدري أين يذهب ، وانطفأ اسمُه من ذلك اليوم ، فقال الشيخ رضي الله عنه : ما هي مائدةٌ يقعدُ عليها كلُّ طفيليٍّ .

وكان رضي الله عنه يقول : (أوَّلُ ما تنزلُ الرحمةُ علىٰ حِلَقِ الذِّكْر ، ثم تنتشرُ على الجماعة) ، فكان الفقراءُ يمدُّون أيديَهم في الحلقة لعل أن يصيبَهم شيءٌ من الرحمة .

وسمع رضي الله عنه يوماً امرأةً تقول : ما أحسنَ السجود في السماء بين الملائكة ! فقال لها : محبةُ اللهِ خيرٌ من ذلك[١] .

وكان رضي الله عنه يأمر أصحابه برفعِ الصوتِ بالذِّكر في الأسواق والشوارع والمواضع الخربة المهجورة ويقول : (اذكروا اللهَ تعالىٰ في هٰذه الأماكن حتىٰ تصيرَ تشهدُ لكم يومَ القيامة ، وتخرقوا ناموسَ طبعِ النفس ؛ فإنكم في حجابٍ ما لم تخرقوه) .

وكان أصحابُهُ إذا سألوه أن يَمضي بهم إلىٰ موضع التنزُّهات في حين . . يقول : حتىٰ تحضرَ لنا نيَّةٌ صالحة .

ودعاه ابن البارزي[٢] كاتبُ السرِّ علىٰ أيام الملك المؤيد إلىٰ وليمةٍ وقال : إنَّ الأئمةَ

---

(١) في (ز) وحدها : (صحبة الله) بدل (محبة الله) .

(٢) هو محمد بن محمد بن عثمان الجهني الحموي ابن البارزي ، تولىٰ نيابة دمشق وقضاء حلب ، ثم ولاه المؤيد كتابة سر الديار المصرية وبالغ في إكرامه والاختصاص به بحيث لم يكن يخرج =

الأربعةَ قد طلبوكم وفلان وفلان ، فقال الشيخ رضي الله عنه للقاصد : قل له : حرِّرِ النية في حضورِ الفقراء وهم يحضرون ، ولا تطلبْ حضورَهم لأجلِ أن تقول : حضرَ عندنا في الوليمة فلان وفلان ، وتجعلوا الفقراءَ حكايةً ، ثم قال رضي الله عنه : ما وطئ حافرُ فرسي بابَ أحدٍ علىٰ هـٰذا الوجه إلا وخربتْ ديارُه ، فرجع القاصدُ وأَخبر بذلك ، فسكتَ ، ولم يزل مَمقوتاً عند المؤيد حتىٰ قتلَه كما تقدَّم[1] .

وسأله شخصٌ يوماً عن قول الحلاج ، فقال : الحلاجُ تكلَّم في حالِ غلبةٍ ، هـٰذا قولي أنا ، لـٰكن ثَمَّ مَنْ يقول فيه خلافَ قولنا ؛ كسراجِ الدين البُلقيني ، وغيرِهِ .

وكان رضي الله عنه إذا عطشَ وطلب كوزَ الماءِ للشرب . . يقومُ كلُّ من في المجلس من كبيرٍ أو أميرٍ أو قاضٍ ، فلم يزالوا واقفين حتىٰ يفرغَ ، فيستأذنوه في الجلوس ، فيأذن لهم .

وكانت ملوكُ أقاليم الأرض تُرسلُ له الهدايا ، فيقبلها ، وأرسلَ إليه ملكُ الروم دابَّةً تمشي علىٰ ثلاث قوائم ؛ مؤخرُها علىٰ رجلين ، ومقدَّمُها علىٰ واحدةٍ ، وكانت قدرَ الجدي الصغير ، فأقامتْ عنده ستةَ أشهر وماتت .

وأهدىٰ له سلطانُ تونس الخضراء مشطاً لتسريحِ اللحية ، فإذا فردوه صار كرسيّاً لمصحفٍ[2] ، فأهداه الشيخُ رضي الله عنه إلى الملك الأشرف بَرْسْباي ، ففرحَ به وأعجبه .

وأهدىٰ له ملكُ الهند ثوباً بعلبكيّاً في قصبة ، وشاشاً في جوزة هند .

ودخل عليه مرَّةً فقيرٌ ، فرأىٰ عليه ثياباً لا تليقُ إلا بالملوك ، فقال : يا سيدي ؛ طريقكم هـٰذه أخذتموها عمَّن ؟! فإنَّ من شأنِ الأولياء التقشُّفَ ولبس الخشن ، فقال : ما مقصودك ؟ قال : تنزعُ يا سيدي هـٰذه الثياب التي عليك ، وتلبس هـٰذه الجبَّة ، ونذهب ماشيين إلى القَرافة .

= عن رأيه ولا يفارقه ، وصار مدار الدولة المؤيدية عليه ، كان أديباً شاعراً خطيباً كريماً ، مات بعلَّة الصرع سنة (٨٢٣هـ) . « الضوء اللامع » (٩/ ١٣٧) .

(١) تقدم (٢/ ٢٨٢) .

(٢) في (ط) زيادة : (وإذا طبق صار مشطاً) .

فأجابه الشيخُ رضي الله عنه ، وخرجا ماشيين ، فرأىٰ بعضُ الأمراء الشيخَ رضي الله عنه فعرفه ، فنزل من علىٰ فرسه وخلعَ على الشيخِ السلاري الذي كان عليه[١] ، وأقسمَ عليه بالله تعالىٰ أن يقبلَهُ ، ورجع هو ومماليكُه مع الشيخ رضي الله عنه حتىٰ شيَّعوه للزاوية ، فقال الشيخُ لذلك الفقير : رأيتَ يا ولدي أيش كنَّا نحن ، واللهِ ؛ لولا أنتَ من أولاد الفقراء ما حصلَ لك خيرٌ ، فتابَ ذلك الفقير واستغفر ، وكشفَ رأسه ، ولم يزل يخدمُ الشيخَ إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه لا يشتري قطُّ ملبوساً ، إنما هو هدايا من المحبِّين .

وكان رضي الله عنه إذا ركب يذكرُ اللهَ تعالىٰ بين يديه جماعةٌ علىٰ طريقةِ مشايخ العجم ويقول : هو شعارُنا في الدنيا ويوم القيامة .

وكان يجعلُ من خلفه جماعةً كذلك يذكرون الله تعالىٰ بالنوبة ، فكان الناسُ إذا سمعوا حسَّهم من المساجد أو الدُّور يخرجون ينظرون إليه ، فيدعو لهم .

وكان إذا كتمَ أحدٌ شيئاً عنه من مالِهِ يذهبُ ذلك المال الذي كتمَهُ كلُّه ، ولا يبقىٰ معه إلا المالُ الذي يعترفُ به إلى الشيخ .

ودخل الحمَّامَ يوماً مع الفقراء ، فأخذ ماءً من الحوض ورشَّه علىٰ أصحابه وقال : النارُ التي يُعذِّبُ اللهُ بها العصاةَ من أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم مثلُ هـٰذا الماء في سخونته ، ففرح الفقراء بذلك .

وكان رضي الله عنه إذا زار القَرَافة سلَّمَ علىٰ أصحاب القبور ، فيردُّون عليه السلامَ بصوتٍ يسمعُهُ من معه .

ولما طلع فقراء الصعيد ومعهم الفرغلُ بنُ أحمد رضي الله عنه في شفاعةٍ في ابن عمر أميرِ الصعيد . . قال سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه لا تُقضىٰ لهـٰؤلاء حاجةٌ ؛ لأنهم جاؤوا بغيرِ أدب ، ولم يَستأذنوا صاحبَ هـٰذا البلد ، فكان الأمرُ كما قال ، ولما دخلوا بالفرغل على السلطان أحمد جَقْمَق قال له : أنت مُشِدُّ هـٰذا البلد[٢] ،

---

(١) تقدم التعريف به (٢/ ٢٧٤) .

(٢) الـمُشِدُّ : مسؤول مكلف بأداء مهمة كبيرة في الإدارة أو العمارة ، مثل شاد الدواوين ، وشاد=

فلم يُجبه السلطانُ لكونه مجذوباً .

وسمع رضي الله عنه بعضَ الفقراء في الزاوية يقول لبعضٍ : قمْ يا فلان اكنسِ الزاوية ، قال له : قم أنت ، فما زالا يقولان ذلك ساعةً ، فخرجَ الشيخُ رضي الله عنه وهو يقول : أنت وأنت اخرجا ، واجلسا على باب الزاوية ، وامنعا الناسَ من الدخول ، وأنا أكنسُها ، ففعلا ، فخلعَ الشيخُ ثيابه ، وشدَّ وسطَه ، وطوى الحُصُرَ ، ونفضَها ، وكنسَها ، وافتتح القرآنَ يتلوه من الفاتحة إلى آخر سورة الأنعام حتى فرغَ من الكنس رضي الله عنه .

وكان أمير كبير ، والمقدَّمين الألوفِ . . هم الذين يمدُّون سماطَه في المولد الكبير .

ودخل يوماً فرأى الأمراءَ يبنون في الكوانين ، فقال : لا إلـه إلا الله ، لو أمرنا الملوكَ أن يبنوا الكوانين لفعلوا .

وكان شخصٌ من التجَّار شديدَ الإنكار على سيدي محمد رضي الله عنه حتى كان يجيءُ إلى بابِ الزاوية أحياناً ، ويرفعُ صوته بالألفاظ القبيحة في حقِّ الشيخ ، فدارَ عليه الزمانُ وانكسرَ ، وركبَتْهُ الديون ، فجاء إلى الشيخ رضي الله عنه فتلقَّاه بالترحيب ، وجمعَ له من أصحابه مالاً جزيلاً ، فلم يزلْ يعتقدُ الشيخَ إلى أن مات ، ولم يُعاتبه رضي الله عنه بكلمة .

وكان رضي الله عنه يتنزَّهُ عن سماع المعازفِ وجميع آلات اللهو ، فدخل يوماً يزور سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه ، فرأى المازوني عمَّالاً والآلات تُضرب ، فأمره بالسكوت حتى يزورَ ، فزار الشيخ رضي الله عنه ، وعمل مجلس الذكر ، فلما خرج عاد المازونيُّ إلى حاله ، ولم يتعرَّضِ الشيخُ لكسرِ آلاته .

وسمع مرة مدرِّساً من الحنفية يقول في درسه : الحكم كذا خلافاً للشافعي ، فزجره

= الزكاة ، وشاد العمائر ، وغيرها ، فهو يشدُّ الهمة في العمل ، ويحثُّ على الجد والنشاط ، وفي مصر يُطلق : على من يُكلَّف بنقل الأوامر من نائب الملك ، أو الأمير إلى رؤساء القرى ، وتُسمَّى هـٰذه الوظيفة الشادية . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص١٣٩) .

وقال : تقولُ : خلافاً للشافعي بقلَّةِ أدبٍ ، لِمَ لا تقول رضي الله عنه ، أو رحمه الله ، فقال المدرِّسُ : تبت إلى الله تعالىٰ يا سيدي .

وكان إذا رأىٰ رضي الله عنه في جبهةِ فقيرٍ أثرَ سجودٍ يقول : يا ولدي ، أخافُ عليك أن يكونَ هـٰذا من الرياء .

وذكروا يوماً عنده سيدي عبدَ القادر الجيلي رضي الله عنه ، فقال : لو حضرَ عندنا عبدُ القادر هنا لكان تأدَّبَ معنا .

وكان رضي الله عنه يقول : (نحن أسرارُ الوجود) .

وكان إذا وضعَ يدَه على الفرسِ الحرون لم يعدْ إلىٰ حرونته .

وكان رضي الله عنه يكره مشايخَ القرىٰ والمدركين للبلاد[1] ، ويقول : أنا لا أقول بإسلامهم .

وكان يقول : (من اعتقد شيخاً ولم يرَهُ ؛ كسيدي أحمد البدوي وغيره . . لا يصيرُ بذلك مُريداً له ، إنما هو محبٌّ لـه ، فإنَّ شيخَ الإنسان هو الذي يأخذُ عنه ويقتدي به) .

وكان يكرَهُ للفقير لبس الطليحية ويقول : (الفقرُ في الباطن لا في الظاهر) .

وكان رضي الله عنه إذا رأىٰ من الفقراء المجاورين عورةً سترها عليهم ، ويصيرُ يُسارقُهم بحيث لا يشعرون ، ويرغِّبُهم في ذلك الأمرِ الذي فيه صلاحُهم .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقير أن يكونَ عند شيخه ولا يشاورُهُ في أمورِهِ كلِّها ، ويقول : واللهِ ؛ ما عرفَ الكيلانيُّ وابنُ الرفاعي وغيرُهما الطريقَ إلى الله تعالىٰ إلا علىٰ يد شيخٍ ، وكم لعبَ الشيطانُ بعابدٍ وقطعَه عن الله عز وجل !

وكان إذا تشوَّشَ من فقيرٍ ظهر عليه المقتُ ، وكان يقول : (الفقراءُ ما عندهم عصاً يضربون بها من أساءَ الأدب في حقِّهم ، وما عندهم إلا تغيُّرُ خواطرهم) .

---

(١) **المدرك** : رجال الدرك ، أو الشرطة ؛ لإدراكهم أو ملاحقتهم المتهم حتىٰ يظفر به . شرح غريب ألفاظ النجوم الزاهرة .

وسألوه مرةً : ما تقول الساقية في غنائها ؟ قال : تقول : لا يُرىٰ ملآن إلا طالعاً ، ولا فارغٌ إلا نازلاً .

ورأىٰ مرة شابَّيْنِ أمردين ينامان في خلوة ، فلم يُفشِ عليهما سرّاً ، وصار يَحكي الحكاياتِ المناسبةَ للتنفير عن مثل ذلك ، حتىٰ قال : بلغنا عن الشبليِّ رحمه الله تعالىٰ أنَّه دخلَ يوماً خربةً يقضي فيها حاجته ، فوجد فيها حمارةً ، فراوده الشيطانُ عليها ، فلمَّا أحسَّ الشبليُّ رضي الله عنه بذلك رفعَ صوتَه وصاحَ : يا مسلمين ، يا مسلمين ؛ الحقوني ، وأخرجوا عني هـٰذه الحمارة ؛ فإني أعرفُ ضعفَ نفسي عن سلوكِ طريق الصيانة ، ثم قال سيدي محمد رضي الله عنه : فإذا كان هـٰذا حالُ مثلِ الشبلي رضي الله عنه في حمارةٍ ، فكيف بالصور الجميلة ؟! ففطنَ لذلك الشابان ، فتفرَّقا عن الاجتماع حتىٰ كأنَّهما لم يكونا عرفا بعضَهما .

وكانت الفضة لا تنقطعُ من جيبه لأجل الفقراء ، فكان لا يَقدَمُ عليه فقيرٌ إلا وضعَ يده في جيبه ، وأعطاه من غير عدد ، وكان الذي يلاحظُهُ يقول : واللهِ ؛ عطايا الشيخِ أكثرُ من عطايا السلطان كل يوم .

وكان رضي الله عنه إذا ركبَ في شوارع مِصر لا يلقاه أميرٌ أو كاتبُ سرٍّ أو ناظرُ خاص إلا ورجع معه إلىٰ أي مكانٍ أراد .

وتلقَّاه رجلٌ أعجمي ، فأنشده : [من الطويل]

نهارِي نَسيمٌ كلُّهُ إنْ تبسَّمتْ أوائلُـــهُ منهَـــا بـــردِّ تحيَّتِـــي

فقال الشيخ رضي الله عنه : هـٰذا الرجلُ كلَّما صلَّى الصبحَ وصلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم سمعَ ردَّ السلام من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيستنير النور ويقوىٰ حتىٰ يصيرَ كأصيل النهار ، فكأنه يقول : حصل لي اليوم الفتح .

وكان الخضرُ عليه السلام يحضرُ مجلسَه مراراً ، فيجلس علىٰ يمينه ، فإن قامَ الشيخُ قام معه ، وإن دخلَ الخلوةَ شيَّعه إلىٰ باب الخلوة .

وسئل يوماً عن الصالح ، فقال : (هو من صلحَ لحضرةِ الله عز وجل ، ولا يصلحُ لحضرةِ الله عز وجل إلا إن تخلَّىٰ عن الكونين) .

وسُئل عن الولي ، فقال : (هو مَنْ قال : لا إلـٰه إلا الله وقامَ بشروطِها ، وشروطُها أن يُوالي اللهَ ورسوله ؛ بمعنىٰ : أنَّه يُوادُّ اللهَ بشهادته له بالوحدانية ولمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا ماتَ الوليُّ انقطعَ تصرُّفُه في الكون من الإمداد ، وإن حصلَ مددٌ للزائر بعد الموت أو قضاءُ حاجةٍ فهو من الله تعالىٰ علىٰ يدِ القطبِ صاحبِ الوقت ، يُعطي الزائرَ من المددِ علىٰ قدرِ مقام المزور) .

قال بعضهم : المزورُ في الحقيقة هو الصفاتُ لا الذوات ، فإنها تَبلىٰ وتفنىٰ ، والصفاتُ باقية .

وكان الشيخ رضي الله عنه يخرجُ إلىٰ قبرِ رجلٍ كان أبَّاراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنَّه كان يُخبر عن رأسِ ماله في كلِّ إبرةٍ يبيعها .

وكان يقول : (قوموا لأهلِ العلوم الربَّانية ؛ فإنَّ قيامَكم في الحقيقة إنَّما هو لصفةِ الله تعالىٰ التي أنارَ بها قلوبَ أوليائه) .

وكان بالشيخ رضي الله عنه عدَّةُ أمراض ، كلُّ مرضٍ منها يهدُّ الجبال ؛ منها البلغمُ الحار ، والبلغمُ البارد ، فاجتمعَ عنده الأطباءُ وقالوا : إن النِّصفَ الأعلىٰ قد تحكَّم منه البلغمُ الحارُّ ، والنصفُ الأسفل قد تحكَّم منه البلغمُ الباردُ ، فإنْ داوينا الأَعلىٰ غلبَ عليه الأسفل ، وإن داوينا الأسفلَ غلبَ عليه الأعلىٰ ، فقال لهم : خلُّوا بيني وبين الله تعالىٰ يفعلُ بي ما يريد . وأقام رضي الله عنه بذلك المرضِ سبع سنين مُلازماً فراشَه ، ما سمعَهُ أحدٌ يقول : آه إلىٰ أن تُوفي رحمه الله تعالىٰ سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة .

وكان مع وجود هـٰذا البلاءِ العظيم يتوضَّأُ للصلاة قبل دخولِ الوقت بخمس درج[1] ، والأذكارُ والأحزاب تُتلىٰ حوله في كلِّ صلاةٍ ، ولا يُصلِّي إلا مع جماعةٍ .

ولما دنتْ وفاتُه بأيامٍ كان لا يَغفُلُ عن البكاءِ ليلاً ولا نهاراً ، وغلبَ عليه الذلَّةُ والمسكنة والخضوع حتىٰ سأل الله تعالىٰ قبلَ موته أن يبتليَهُ بالقمل والنومِ مع الكلاب والموتِ علىٰ قارعة الطريق ، وحصل له ذلك قبل موته ، فتزايدَ عليه القملُ حتىٰ صارَ

---

(١) أي : قبل عشرين دقيقة .

يمشي على فراشه ، ودخلَ له كلبٌ فنام معه على الفراشِ ليلتين وشيئاً ، وماتَ على طرف حوشه والناسُ يمرُّون عليه في الشوارع ، وإنما تمنَّى ذلك ليكونَ له أسوةٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين ماتوا بالجوع والقمل ، وكان السيدُ عيسى عليه الصلاة والسلام يقول : واللهِ ؛ إنَّ النومَ مع الكلاب لكثيرٌ على من يموت .

ولما دنتْ وفاتُه قال لزوجته : لا تتزوَّجي بعدي ، فمن تزوَّجَ بك خربتْ ديارُهُ ، وأنا لا أحبُّ أن تكوني سبباً لخرابِ دارِ أحدٍ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٠) سيدي مَدْيَن بنُ أحمد الأشموني رضي الله عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ أحمد الزاهد رضي الله عنه .

كان من أكابر العارفين ، وانتهتْ إليه تربيةُ المريدين في مصر وقُراها .

وتفرعت عنه السلسلة المتعلقة بطريقة أبي القاسم الجُنيد رضي الله عنه .

قالوا : وكان رضاعُه على يد سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه وفطامُهُ على يد سيدي الشيخ محمد الحنفي رضي الله عنه السابق ذكره ؛ فإنه لمَّا تُوفِّي سيدي أحمدُ الزاهد رضي الله عنه جاءَ إلى سيدي محمد رضي الله عنه وصحبَه ، وأقام عنده مدةً في زاويته ، مُختلياً في خلوةٍ ، ثم إنه طلبَ من سيدي محمد إذناً بالسفر إلى زيارة الصالحين بالشام وغيره ، فأعطاه الشيخُ إذناً بذلك ، فأقام مدَّةً طويلةً سائحاً في الأرض لزيارة الصالحين ، ثم رجعَ إلى مصر ، فأقام بها واشتهر ، وشاع أمرُهُ وانتشر ، وقصده الناسُ ، واعتقدوه ، وأخذوا عليه العهودَ ، وكثرتْ أصحابُه في إقليم مصر وغيرها .

ولمَّا بلغ أمرُهُ لسيدي الشيخ أبي العباس السِّرْسِي خليفةَ سيدي محمد الحنفي

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٠) ، و« وجيز الكلام » (٢/ ٧١٧) ، و« بدائع الزهور » (٢/ ٣٤٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٦٧) ، و« شذرات الذهب » (٩/ ٥٢٩) وذكره في وفيات سنة (٨٩٢هـ) والصواب (٨٦٢هـ) ، وانظر « طبقات الشاذلية » (ص ١٥٠) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/ ٢٧٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ١٠٦) (٣٧٣) .

رضي الله عنه قال : لا إلـه إلا الله ، ظهرَ مَدْينُ بعد هـٰذه المدةِ الطويلة ، واللهِ ؛ لقد أقامَ عند سيدي في هـٰذه الزاوية في الخلوة نحو الأربعين يوماً حتىٰ كَمُلَ .

قلت : هكذا رأيته في آخر « مناقب سيدي محمد الحنفي » عند ذكر أصحابه الذين أخذوا عنه ، والمشهورُ بين جماعةِ سيدي مَدْين والغَمْري وغيرهم : أنَّ فطامَ سيدي مَدْيَن رضي الله عنه كان علىٰ يد سيدي أحمد الزاهد ، فالله أعلم بما كان .

وهو من ذرِّية سيدي أبي مدين المغربي التلمساني رضي الله عنه ، وجدُّه الأدنىٰ سيدي عليٌّ المدفون بطَبْلية بالمنوفية[١] ، ووالده مدفون بأشمون جريس[٢] ، وكلُّهم أولياء صالحون .

وأول من جاء من بلاد المغرب جدُّه الذي في طَبْلية ، فدخلها ، وهو مغربيٌّ فقير لا يملك شيئاً ، فجاع يوماً جوعاً شديداً[٣] ، فمرَّ به إنسان يقودُ بقرةً حلابةً ، فقال له : احلبْ لي شيئاً من اللبن أشربه ، فقال له : هـٰذا ثورٌ ، فصارتْ في الحال ثوراً ، ولم تزل ثوراً إلىٰ أن ماتت .

ووقع له كراماتٌ كثيرة ، فلم يمكِّنوه أن يخرجَ من بلدهم طَبْلية حتىٰ مات بها .

وأما والد سيدي مَدْين رحمه الله تعالىٰ فانتقلَ إلىٰ أشمون ، فولد له سيدي مَدْين ، فاشتغلَ بالعلم حتىٰ صار يُفتي الناس ، وأسلم علىٰ يديه من أشمون عدَّة بيوتٍ من النَّصارىٰ ؛ منهم أولاد إسحاق ، ومنهم الصديرية والمقامعة والسماعنة ، وهم مشهورون في بلد أشمون .

ثم تحرَّكَ في خاطره طلبُ الطريق إلى الله تعالىٰ واقتفاءُ آثار القوم ، فقالوا له : لا بدَّ لك من شيخٍ ، فخرج إلىٰ مصر ، فوافق سيدي محمد الغَمْري حين جاء إلى القاهرة يطلب الآخر ما يطلبُ سيدي مَدْين ، فسألوا عن أحدٍ يأخذون عنه من مشايخ

---

(١) **طَبْلوها** : من القرى القديمة من أعمال المنوفية ، مركز تلا ، والعامة تسمِّيها طبلية ، والنسبة إليها طبلاوي . « معجم رمزي » (٢/ ٢/ ١٧٦) .

(٢) كذا في (هـ ، ح) ، وفي باقي النسخ : (جريسان) .

(٣) في (ح) : (فخرج وهو جائع جوعاً شديداً) .

مصر ، فدلُّوهما علىٰ سيدي الشيخ محمد الحنفي رضي الله عنه ، فبينما هما بين القصرين وإذا بشخصٍ من أرباب الأحوال قال لهما : ارجعا ، ليس لكما نصيبٌ الآن عند الأبواب الكبار ، ارجعا إلى الزاهد ، فرجعا إليه ، فلمَّا دخلا تنكَّرَ عليهما زماناً ، ثم لقَّنَهما وأَخلاهما ، ففُتِحَ علىٰ سيدي مَدْين رضي الله عنه في ثلاثة أيام ، وأما سيدي محمد الغَمْري رضي الله عنه فأبطأ فتحُه نحو خمسَ عشرةَ سنة .

ومن كرامات سيدي مَدْين رضي الله عنه : أن منارةَ زاويته الموجودةَ الآن لمَّا فرغَ منها البنَّاءُ . . مالتْ ، وخافَ أهلُ الحارة منها ، فأجمعَ المهندسون علىٰ هدمها ، فخرجَ إليهم الشيخُ علىٰ قبقابه ، فأسند ظهرَهُ إليها وهزَّها والناس ينظرون ، فجَلَسَتْ على الاستقامة إلىٰ وقتنا هـٰذا .

ومن كراماته المشهورة : أنَّ يوسفَ ناظرَ الخاصِّ بمصر ظلمَ شخصاً من تجَّار الحجاز ، وكان مُستنداً للشيخ عبدِ الكبير[1] الحضرمي رضي الله عنه ، فسأل الشيخَ في التوجُّه إلى الله تعالىٰ فيه ، فتوجَّه فيه تلك الليلة ، فرأىٰ يوسفَ في مقصورةٍ من حديد مكتوب عليها من خارج (مدين مدين) ، فأصبح ، فأخبر التاجرَ وقال : من هو مدين هـٰذا ؟! فقال : شيخٌ في مصر يعتقدُهُ يوسف ، فقال : ارجعْ إلىٰ مكانك ، شيخُهُ لا طاقةَ لي به .

وشاوره بعضُ الفقراء في السفر إلىٰ بلاده ليقطع علائقه ويجيء إلى الشيخ بالكلِّية ، فأذنَ له ، فباع ذلك الفقيرُ بقرتَه وبعضَ أمتعته ، وجعل ثمنَها في صُرَّةٍ ووضعها في رأسه ، فلما جاءَ في المركب نفضَ الراجعُ عمامتَهُ ، فوقعت بالصرة في بحر النيل أيام زيادته ، فضاعت ، فلمَّا دخلَ للشيخِ حكىٰ له ما وقع ، فرفع سيدي مَدْين رضي الله عنه طرفَ السجَّادة ، وأخرج تلك الصُّرَّةَ تقطرُ ماءً .

وكان إذا رأىٰ فقيراً لا يحضر مجلسَ الذكر يُخرجه ولا يدعه يُقيم عنده ، فقال لفقير يوماً : ما منعك يا ولدي عن الحضور ؟! فقال : الحضورُ إنما هو مطلوبٌ لمن عنده كسلٌ ليتقوَّىٰ بغيره ، وأنا بحمد الله ليس عندي كسلٌ ، فأخرجه الشيخ وقال : مثلُ هـٰذا

---

(١) في (ح) : (عبد الكريم) بدل (عبد الكبير) .

يُتلفُ الجماعة ، ويصيرُ كلُّ واحدٍ يدَّعي بدعواه ، فيختلُّ نظام الزاوية وشعارُها .

وخرج فقيرٌ يوماً من الزاوية ، فرأىٰ جرَّةَ خمرٍ مع إنسان ، فكسرها ، فبلغ الشيخَ رضي الله عنه ذلك ، فأخرجه من الزاوية وقال : ما أخرجْتُهُ لأجلِ إزالة المنكر ، وإنما هو لإطلاقِ بصره حتىٰ رأى المنكر ؛ لأن الفقيرَ لا يجاوز بصرُهُ موضعَ قدميه .

ووقع أن ثورَ الساقية انطلقَ يوماً فأكلَ من طحين الفقراء ، فذبحه الشيخُ وقال : قد صارَ الماءُ الذي يملؤه لوضوءِ الناسِ فيه شبهةٌ ، رضي الله عنه .

وجاءته رضي الله عنه امرأةٌ فقالت : هـٰذه ثلاثون ديناراً وتضمنُ لي على الله الجنة ، فقال لها الشيخ رضي الله عنه مُباسطاً لها : ما يكفي ، فقالت : لا أملكُ غيرها ، فضمنَ لها على اللهِ دخول الجنة ، فماتَتْ ، فبلغ ورثتَها ذلك ، فجاؤوا يطلبون الثلاثين ديناراً من الشيخ وقالوا : هـٰذا الضمانُ لا يصحُّ ، فجاءتهم في المنام وقالت لهم : اشكروا لي فضلَ الشيخ ؛ فإني دخلتُ الجنة ، فرجعوا عن الشيخ .

وحُكي : أن الشيخ رضي الله عنه كان يوماً يتوضأ في البالوعة التي في رباط الزاوية ، فأخذ فردةَ القبقابِ وضربَ بها نحو بلاد المشرق ، فجاء صاحب الواقعة من تلك البلاد بعد سنةٍ وفردةُ القبقابِ معه ، وأخبرَ أنَّ شخصاً من العيَّاق عبثَ بابنته في البرية[1] ، فقالت : يا شيخ أبي ؛ لاحظني ؛ لأنها لم تعرفْ أنَّ اسمه مَدْين ذلك الوقت ، وهي إلى الآن عند ذرِّيته ، رضي الله عنه[2] .

وكان الشيخ عُبادة[3] أحدُ أعيان السادة المالكية يُنكر علىٰ سيدي مدين رضي الله عنه ويقول : أيشٍ هـٰذه الطريقُ التي يزعمُ هـٰؤلاء ؟! نحن لا نعرفُ إلا الشرع ، فلما انقلبَ

---

(١) في (هـ) : (عبث) بدل (تعبث) ، وفي (ح) : (وثب) ، وفي (ط) : (تعلق) .

(٢) انظر شبيه هـٰذه القصة (٢/ ٢٨١) .

(٣) **عبادة بن علي بن صالح الزرزاري** : شيخ المالكية ، وكان ممن تصدَّىٰ للتدريس والإفتاء والإفادة ، وانتفع به الأئمة في كل مذهب ، واختفىٰ حين طلب للقضاء الأكبر ، وتخلىٰ للعبادة ، توفي سنة (٨٤٦هـ) . انظر « وجيز الكلام » (٢/ ٥٨٦) ، و« الضوء اللامع » (٣/ ١٦) .

بعضُ أصحاب الشيخ عبادة إلىٰ سيدي مدين رضي الله عنه وصحبوه ، وتركوا حضور درسه ازدادَ إنكاراً ، فأرسلَ سيدي مَدْين وراءه يدعوه إلىٰ حضور مولده الكبير الذي يُعمل له في كلِّ سنةٍ ، فحضر ، فقال الشيخ رضي الله عنه : لا أحد يتحرَّك له ولا يقوم ولا يفسح له ، فوقف الشيخُ عُبادة في صحن الزاوية ، حتىٰ كاد يتميَّزُ من الغيظ ساعةً طويلة ، ثم رفعَ سيدي مدين رضي الله عنه رأسه وقال : افسحوا للشيخ عُبادة ، فأجلسَه بجانبه ، ثم قال له : سؤالٌ حضر ، فقال الشيخ عبادة رحمه الله تعالىٰ : اسأل ، فقال : هل يجوز عندكم القيامُ للمُشركين مع عدم الخوف من شرِّهم ؟! فقال : لا ، فقال سيدي مدين رضي الله عنه : بالله عليك ، ما تكدَّرْتَ حين لم يقمْ لك أحدٌ ؟! فقال : نعم ، فقال : لو قال لك إنسانٌ : لا أرضىٰ عليك إلا إن كنتَ تعظِّمني كما تُعظِّم ربَّك ماذا تقول له ؟! قال : أقولُ له : كفرتَ ، فدارتْ فيه الكلمةُ ، فانتصبَ قائماً علىٰ رؤوس الأشهاد وقال : أَلا اشهدوا أنَّني قد أسلمتُ علىٰ يد سيدي مَدْيَن رضي الله عنه ، وهـٰذا أوَّلُ دخولي في دين الإسلام ، ولم يزلْ في خدمة سيدي مدين رضي الله عنه إلىٰ أن مات ، رحمه الله تعالىٰ ، ودفن في تربة الفقراء .

وحكىٰ لي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الحُرَيْفيش الدنوشري أحدُ أصحاب سيدي محمد الغَمْري رضي الله عنه قال : لمَّا ماتَ شيخُنا رضي الله عنه لم يُعجبنا أحدٌ بعده نجتمع عليه ، فسألتُ بعض الفقراء ، فقال : عليك بسيدي مَدْيَن ، فسافرت إليه ، فقالوا لي : الشيخُ يتوضَّأُ في الرباط ، فدخلت عليه ، فوجدتُهُ رجلاً بعمامةٍ كبيرة ، وجبَّةٍ عظيمة ، وإبريق وطشت ، وعبدٌ حبشيٌّ واقفٌ بالمنشفة ، فقلت لشخصٍ : أين سيدي مدين ؟ فأشار العبدُ إليَّ أنه هـٰذا ، فقلت في نفسي[١] :

. . . . لا ذا بذاك ، ولا عَتَب على الزمن

بتحريك التاء المثناة من فوق ؛ لأن عهدي بسيدي محمدٍ رضي الله عنه أن يلبسَ الجبة والعمامة الغليظة ، والتقشُّف الزائد ، وليس لي علمٌ بأحوال الرجال ، فقال لي :

---

(١) هـٰذا عجز بيت للشافعي في « ديوانه » (ص١٨٨) [من البسيط] ، والبيت كاملاً هو :

فأصبحُوا ولسانُ الحالِ ينشدهمْ هـٰذا بذاكَ ولا عتْبٌ على الزَّمنِ

أصلح البيتَ ، قل : لا ذا بذاكَ ، ولا عتْبٌ على الزمنِ

بسكون الفوقية ، فقلتُ : الله أكبر ، فقال : علىٰ نفسِك الخبيثةِ ، تُسافر من البلادِ إلىٰ هنا تزنُ الفقراءَ بميزان نفسِك التي لم تُسْلمْ إلى الآن ؟! فقلت : تبتُ إلى الله تعالىٰ ، وأخذَ العهدَ عليَّ ، وأنا في بَرَكَةِ سيدي مدين رضي الله عنه إلى الآن .

وكنتُ أسمعُ هـٰذه الحكاية من سيدي عليٍّ المرصفي يرويها عن شيخه سيدي محمد ابنِ أخت سيدي مَدْيَن عن سيدي محمد الحُريفيش هـٰذا ، فلما اجتمعتُ بسيدي محمد الحُرَيْفيش سنة خمسَ عشرةَ وتسع مئة بدنوشر حكاها لي ، فلما رجعتُ إلى القاهرة أخبرتُ بها سيدي علياً رضي الله عنه وأنا فرحان بذلك ، فقال لي علىٰ وجه المباسطة : كنتَ بلا سندٍ فصرتَ بسندٍ .

وضاقتِ النفقةُ على السلطان جقمق ، فأرسل يأخذُ خاطرَ سيدي مَدْيَن رضي الله عنه بالمساعدة علىٰ نفقة العسكر ، فأرسلَ للسُّلطان قاعدةَ عمودِ حجر ، فحملها العتَّالون إلى القلعة ، فوجدَها السلطان معدناً ، فباعها وجعلها في بيتِ المال ، واتَّسع الحالُ على السلطان ، فقال السلطان : هـٰؤلاء هم السلاطين .

وجاءه شخصٌ قد طعنَ في السن وقال : يا سيدي ؛ مقصودي أحفظُ القرآن في مدَّةٍ يسيرة ، فقال : ادخلْ هـٰذه الخلوة ، فأصبحَ يحفظُ القرآن كلَّهُ .

وكان الشيخ رضي الله عنه إذا سأله أحدٌ عن مسألةٍ في الفقه لا يجيبه ، ويقول : اذهبْ إلىٰ عيسى الضرير يُجيبك عنها ، وكان عيسىٰ هـٰذا أُمِّيّاً مُقيماً عنده في الزاوية ، فجاءه جماعةٌ متعنِّتون علىٰ وجهِ الامتحان ، فقال : اذهبوا إلىٰ عيسى الضرير ، فقالوا : لا نطلبُ الجوابَ إلا منك ، فقال : الجوابُ في الكتابِ الفلاني الذي عندكم على الرفِّ في سابعِ سطرٍ من عاشرِ ورقةٍ ، فوجدوا الأمرَ كما قال ، فاستغفروا وتابوا .

ووقائع سيدي مدين رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة بين مُريديه وغيرهم .

ومن أصحابه :

(٣٣١) (٣٣٢) سيدي محمد الشُّويمي[١] رضي الله عنه المدفون قبالة قبره[٢] ، وسيدي أحمد الحلفاوي رضي الله عنه المدفون في صحن الزاوية[٣]

فأما الشُّويمي رضي الله عنه : فكان من أربابِ الأحوال العظيمة .

وكان يعملُ هلالاتِ المواذن والضبب[٤] .

وكان يجلس بعيداً عن سيدي مَدْين رضي الله عنه ؛ فكلُّ من مرَّ على خاطره شيءٌ قبيح يسحبُ العصا ، وينزلُ عليه ؛ [غنيّاً أو فقيراً ، كبيراً أو أميراً][٥] ، لا يُراعي في ذلك أحداً ، فكان مَنْ يعرفُ بحاله لا يتجرَّأُ يجلسُ بين يدي سيدي مدين رضي الله عنه أبداً .

ومرض سيدي مَدْين رضي الله عنه مرَّةً أشرفَ فيها على الموت ، فوهبَهُ من عمره عشرَ سنين ، ثم مات في غيبة الشُّويمي رضي الله عنه ، فجاء وهو على المغتسل ، فقال : كيف متَّ ؟! وعزَّةِ ربِّي لو كنتُ حاضرَك ما خلَّيتك تموت ، ثم شربَ ماءَ غسلِهِ كلَّه .

وكان رضي الله عنه يقول لأصحابه : (عليكم بذكر الله تعالى تُقضى لكم جميعُ حوائجكم) .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١٠/ ١٢٣) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٧٥) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٥١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ١١٢) (٣٧٤) .

(٢) أي : قبالة قبر مدين الأشموني شيخِهِ .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ١٦٤) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٥١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ١١٤) (٣٧٥) .

(٤) في (ح) : (المعيشب) بدل (الضبب) ، والضبة : حديدة عريضة ، يُضبب بها الباب والخشب ، وتكون من صفر أو حديد ، أو نحو ذلك ، يشعب بها الإناء ، وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة . « متن اللغة » (ض ب ب) .

(٥) في جميع النسخ (غنيٌّ أو فقير ، كبير أو أمير) .

وجاءه مرَّةً شخصٌ يحمله حملةَ امرأةٍ يحبُّها ، ويُريدُ أن يتزوَّجها وهي تأبىٰ ، فقال له : ادخلْ هـٰذه الخلوة واشتغلْ باسمها ، فدخل واشتغلَ باسمها ليلاً ونهاراً ، فجاءته المرأة برجليها إلى الخلوة وقالتْ له : افتحْ لي أنا فلانة ، فزهد فيها وقال : إن كان الأمرُ كذلك فاشتغالي بالله أولىٰ ؛ فاشتغلَ باسمِ الله تعالىٰ ، ففُتح عليه في خامسِ يوم ، رضي الله عنه .

وكان الشُّويميُّ رضي الله عنه يدخلُ بيت الشيخ يجسُّسُ بيده على النساء ، فكنَّ يشكونَ لسيدي مدين رضي الله عنه ، فيقول : حصلَ لكم الخيرُ فلا تتشوَّشوا .

واحتاج المطبخُ يوماً ، وهم في أشمون قُلْقاساً[1] ، فأعطوه خرجاً وحماراً ، وقالوا له : اشتر لنا قُلْقاساً من الغيط ، فخرج إلىٰ ناحيةِ التربة ، فملخَ لهم من الحلفاء قُلْقاساً حتىٰ ملأ الخرج[2] ، ورجعَ بالفلوس ، فاعتقده النساء من ذلك اليوم .

ولمَّا ماتَ سيدي مَدْين رضي الله عنه وطلبَ ابنُ أخته سيدي محمد رضي الله عنه المشيخةَ في الزاوية بعد الشيخ . . خرج له بالعصا وقال : إنْ لم ترجعْ يا محمد وإلا استلفتك من ربِّك ، ثم دخل ، فأخرج سيدي أبا السعود ابنَ سيدي مَدْين وهو ابنُ خمسِ سنين فأجلسه على السجادة وقال : اذكرْ بالجماعة ، فرجع ابنُ أخت سيدي مَدْين ولم يتجرَّأ أن يطلعَ الزاوية حتىٰ مات الشُّويمي رضي الله عنه .

وكان وهو جَمَّالٌ في أشمون يحملُ القمح أيام الحصاد ، وكانَ لا يُحمِّلُ الجملَ إلا قتةً واحدةً ، فذكروا ذلك لشيخ العرب ، فقال : دقُّوا قتتي وحمل غيري ، فوجدوا قتَّتَهُ خمسةَ أرادب ، فقال : الجملُ يحملُ أكثرَ من خمسة أرادب !

وهو الذي زرعَ الخرَّوبة التي هي قريب من التيه في طريق الحجاز حين توضَّأ سيدي مدين رضي الله عنه لمَّا سافر إلى الحجِّ .

ووقائعه كثيرة مشهورة عند جماعة سيدي مدين رضي الله عنه .

وأما الحلفاوي : فكان رجلاً صالحاً ، سليمَ الباطن .

---

(١) **القلقاس** : جذر نبات يؤكل مطبوخاً . « متن اللغة » ، وهو البطاطا الحلوة .

(٢) **الحلفاء** : نبت غليظ المسِّ يصنعون من ورقه الحصر والقفف والحبال .

وكان يمشي بحلفايتِهِ[١] بحضرة الشيخ في الزاوية ، وكان الشُّويميُّ رضي الله عنه يتأثَّرُ من ذلك ، ويقول له : أنتَ قليلُ الأدب ، فغضب يوماً منه ، فهجره ، فلما كان قُبيل الغروبِ آخر اليوم الثالث جاءَ له الشُّويميُّ وصالحه وقال : رأيتُ الحقَّ يغضبُ لغضبك يا أخي ، ولم يُفتحْ عليَّ بشيءٍ من مواهب الحقِّ منذ هجرتك ، فبلغ ذلك سيدي مَدْيَن رضي الله عنه فقال : أنا رأيتُهُ يمشي بحلفايته هـٰذه في الجنة ، رضي الله عنه .

توفي سيِّدي مَدْيَن رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وخمسين وثمان مئة ، رضي الله عنه[٢] .

ومنهم :

(٣٣٣) سيدي الشيخ محمد بن أحمد الفرغل رضي الله عنه[٣]

المدفون في أبي تيج بالصعيد .

كان رضي الله عنه : من الرجال المتمكِّنين أصحاب التصريف .

ومن كراماته رضي الله عنه : أنَّ امرأةً اشتهت الجوزَ الهندي ، فلم يجدوه في مصر ، فقال للنقيب مُخيمر ؛ يا مُخيمر ؛ ادخلْ هـٰذه الخلوة واقطع لها خمسَ جوزات من الشجرة التي تجدُها في داخل الخلوة ، فدخل فوجدَ شجرةَ جوزٍ ، فقطع لها منها خمس جوزات ، ثم دخل بعد ذلك فلم يجدْ شجرةً .

ومرَّ عليه شيخُ الإسلام ابنُ حجر رضي الله عنه بمصرَ يوماً حين جاء في شفاعةٍ لأولادِ عمر ، فقال في سرِّه : « ما اتَّخذَ اللهُ منْ وليٍّ جاهلٍ ، ولو اتَّخذَهُ لعلَّمَهُ »[٤] على

---

(١) قال النبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣١٩) : (والظاهر : أن الحلفايةَ التاسومةُ التي تُلبس في الرجل) .

(٢) ذكرت مصادر ترجمته وفاته سنة (٨٦٢هـ) .

(٣) انظر « الضوء اللامع » (٧/ ١٣٠) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢٢٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٦٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٢٧) (٣٨٢) .

(٤) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢١٨٥) : (قال في المقاصد : لم أقف عليه مرفوعاً ، وقال الحافظ ابن حجر : ليس بثابت ، ولـٰكن معناه صحيح) .

وجه الإنكار عليه ، فقال له : قف يا قاضي ، فوقف ، فمسكَهُ وصار يضربُهُ ، ويصفعُه علىٰ وجهه ويقول : بل اتخذني وعلَّمني .

ودخل عليه بعضُ الرهبان ، فاشتهىٰ عليهِ بِطِّيخاً أصفرَ في غيرِ أوانه ، فأتاه به وقال : وعزَّةِ ربِّي ؛ لم أجدْه إلا خلفَ جبل قاف .

وخطفَ التمساحُ بنت مُخيمر النقيب ، فجاء وهو يبكي إلى الشيخ ، فقال له : اذهبْ إلى الموضعِ الذي خطفها منه ، ونادِ بأعلىٰ صوتك : يا تمساح ؛ تعالَ كلِّم الفرغل ، فخرجَ التمساحُ من البحر ، وطلع كالمركب وهو ماشٍ[1] ، والخلقُ بين يديه جاريةٌ يميناً وشمالاً إلىٰ أن وقف علىٰ باب الدار ، فأمرَ الشيخُ رضي الله عنه الحدَّادَ بقلع جميع أسنانه ، وأمرَهُ بلفظِها من بطنه ، فلفظَ البنتَ حيَّةً مدهوشةً ، وأخذ على التمساح العهدَ ألا يعودَ يخطفُ أحداً من بلده ما دام يعيش ، ورجعَ التمساحُ ودموعُهُ تسيلُ حتىٰ نزل البحر .

وكان رضي الله عنه يقول كثيراً : (كنت أمشي بين يدي الله تعالىٰ تحت العرش ، وقال لي : كذا ، وقلت له : كذا ، فكذَّبَهُ شخصٌ من القضاة ، فدعا عليه بالخرس ، فخرسَ حتىٰ مات) .

وكان آخرَ عمره مُقعداً ، ويتكلَّمُ علىٰ أخبار سائر الأقاليم من أطرافِ الأرض ، ويبدِّلون له كلَّ يومٍ والثاني زربوناً جديداً[2] .

وسمعت سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه يقول : (زرتُ الفرغل بن أحمد رضي الله عنه وأنا شابٌ ، فأخبر جماعتَهُ بخروجي من بلاد الشرقية وقال : ها هو محمد بن حسن الأعرج خرج بقصدِ زيارتنا) .

وكانت له نصرانيةٌ تعتقده في بلاد الإفرنج ، فنذرت إن عافى الله تعالىٰ ولدَها أن تصنعَ للفرغل بساطاً ، فكان يقول : ها هم غزلوا صوفَ البساط ، ها هم دوَّروا الغزلَ على المواسير ، ها هم شَرعوا في نسجه ، ها هم أرسلوه ، ها هم نزلوه المركب ، ها

---

(١) في (ح) وحدها : (وهو يزحف) .

(٢) **الزربون** : كلمة معربة ؛ وهو ما يلبس في الرجل « تاج العروس » (ز ر ب ن) .

هم وصلوا إلى المحلِّ الفلاني ، ثم الفلاني ، فقال يوماً : واحد يخرجُ يأخذ البساطَ ؛ فإنه قد وصلَ على الباب[١] .

وجعلوه حارسَ الجُرْنِ[٢] وهو صغيرٌ في بني صميع[٣] ، فأخذ فريكاً أخضر ، وطلعَ فوق جُرْنٍ يحرقُهُ ، فتسامع الناسُ : إن هـٰذا المجنون أحرقَ الجُرْنَ ، فطلعوا له وضربوه ، فقال : أنا قلتُ للنار : لا تحرقي إلا فريكي بس ، وانظروا أنتم ، فوجدوها لم تحرقْ إلا الفريك .

وقال لرجلٍ : زوِّجني ابنتك ، فقال : مهرُها غالٍ عليك ، فقال : كم تريد ؟ فقال : أربع مئة دينار ، فقال : اذهبْ إلى الساقية وقلْ لها : قال لك الفرغل : املئي قادوسَ ذهبٍ[٤] ، وقادوسَ فضة ، فملأت له قَادوسين ، فلم يزل هو وذرِّيته مستورين ببركة الشيخ حتىٰ ماتوا .

وجاءه ابن الزرازيري ، فقبَّل رجلَهُ ، فقال له : ولَّيتك من الخلصة[٥] للملصة ، فولاه السُّلطانُ كشف أربعِ أقاليم الصعيد .

وأرسلَ قاصدَه إلىٰ أميرٍ في مصر يشفعُ عنده في فلاحٍ ، فقال : قل لشيخك : أنت زوكاري[٦] ، فرجع القاصد إلى الشيخ ، فأخبره ، فنقرَ بإصبعِهِ في الأرض كهيئة الذي

---

(١) في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٢٩) زيادة وهي : (قم يا مخيمر خذ البساط من الرحل ، وأدخله أطعمه ، وأعطه حق طريقه ، وأمره أن يرجع إلى النصرانية في هـٰذه الساعة ، فقال له النقيب : غمض عينيك ، ومشىٰ به خطوات ، وقال له : افتح عينيك فإذا هو ببلاد الروم ، فأخبر النصرانية الخبر ، فزدات في اعتقاده) .

(٢) **الجُرْن** : الموضع الذي يُداس فيه البُرُّ ونحوه ، وتجفف فيه الثمار . « المعجم الوسيط » (ج ر ن) .

(٣) في (ط) : (بني صميت) .

(٤) **القادوس** : إناء من خزف أصغر من الجرة ، يُخرج به الماء من السواقي . « تاج العروس » (ق د س) .

(٥) في (هـ ، و ، ح) : (الحلصة) بالمهملة .

(٦) **الزوكرة** : لفظ يستعمله المغاربة ؛ ومعناه عندهم : المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد « نفح الطيب » (٦/١٢) .

يحفر ، فجاءَ الخبرُ أنَّ السلطانَ غضبَ علىٰ ذلك الأمير ، وأمرَ بهدم داره ، فهي خرابٌ إلى الآن ناحيةَ جامع طولون ، ثم ضربَ عنقَهُ بعد ذلك ، فقالوا له : ما سببُهُ ؟ فقال : لا أعرف له سبباً ، إلا أنَّ الله تعالىٰ حرَّكني لذلك .

وجلس عنده فقيهٌ يقرأُ القرآن ، فنطَّ الفقيه ، فقال له : نطَّيت ، فقال له : من أعَلمك يا سيدي وأنت لا تحفظُ القرآن ؟! فقال : كنتُ أَرىٰ نوراً مُتَّصلاً صاعداً إلى السماء ، فانقطعَ النورُ ولم يتَّصلْ بما بعده ، فعلمتُ أنَّك نطَّيت .

وكان رضي الله عنه يقول : (أنا من المتصرِّفين في قبورهم ، فمن كانت له حاجةٌ فليأت إلىٰ قبالة وجهي ويذكرها لي أقضها له) .

ووقائعه رضي الله عنه لا تُحصيها الدفاتر .

توفي سنة نيِّفٍ وخمسين وثمان مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه ، آمين[١] .

ومنهم :

(٣٣٤) سيدي الشيخ أبو بكر الدَّقَدُوسي[٢]

شيخُ سيدي عثمان الحطاب .

كان رضي الله عنه من أصحاب التصريفِ النافذ ، وكانت الأعيانُ تُقلب له .

حكىٰ لي شيخُ الإسلام الشيخُ نورُ الدين الطرابلسي الحنفي رحمه الله تعالىٰ قال : أخبرني سيدي عثمانُ الحطَّاب رحمه الله تعالىٰ : أنه حجَّ مع سيدي أبي بكر رضي الله عنه سنةً من السنين ، فكان الشيخُ يقترض طولَ الطريق الألفَ دينار فما دونها علىٰ يدي ، فإذا طالبني الناسُ أجيء إليه فأخبره بذلك ، فيقول له : عدَّ لك من هـٰذا الحصا بقدرِ الدَّين ، فكنتُ أعدُّ الألفَ حصاة ، والخمس مئة ، والمئة ، والأربعين ، والثلاثين وأذهبْ بها إلى الرجل ، فيجدها دنانيرَ ، قال : فلما دخلنا مكَّة كان الشيخُ

---

(١) قال المناوي في « طبقاته » (٣/ ٢٢٥) : (توفي سنة ستين وثمان مئة ، ودفن بالصعيد) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٤/ ٩٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٦٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٠٣) (٣٧١) ، والدقدوسي : نسبة إلىٰ دَقَدُوس بوزن قَرَبُوس ؛ بليدة من نواحي مصر ، في كورة الشرقية . « معجم البلدان » (٢/ ٤٥٨) .

رضي الله عنه يضعُ كلَّ يومٍ سماطاً صباحاً ومساءً في ساحةٍ ، لا يمنعُ أحداً دخل وأكل مدَّةَ مُجاورته بمكة ، قال : وهـٰذا أمرٌ ما بلغنا فعلَه لأحدٍ قبل سيدي أبي بكر .

وكان له صاحبٌ يصنعُ الحشيش بباب اللُّوق ، فكان الشيخ رضي الله عنه يُرسل إليه أصحابَ الحوائج ، فيقضيها لهم ، قال : سيدي عثمان رضي الله عنه : فسألته يوماً عن ذلك ، وقلتُ : المعصية تُخالف طريقَ الولاية ! فقال : يا ولدي ؛ ليس هـٰذا من أهل المعاصي ، إنما هو جالسٌ يتوِّبُ الناسَ في صورةِ بيع الحشيش ، فكلُّ من اشترىٰ منه لا يعودُ يبلعها أبداً ، هـٰكذا أخبرني سيدي نورُ الدين الطرابلسي عن سيدي عثمان رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٣٣٥) سيدي عثمان الحطَّاب رضي الله عنه[١]

أجلُّ من أخذ عن سيدي أبي بكر الدَّقَدُوسي .

كان رضي الله عنه من الزهاد المتقشِّفين ، له فروةٌ يلبَسها شتاءً وصيفاً ، وهو محزم بمنقطةٍ من جلد .

وكان شجاعاً يلعبُ اللَّبْخة[٢] ، فيخرج له عشرةٌ من الشطَّار[٣] ، ويهجمون عليه بالضرب ، فيُمسك عصاه من وسطها ، ويردُّ ضربَ الجميع ، فلا تُصيبه واحدةٌ ، هـٰكذا أخبر عن نفسه في صباه .

وكان رضي الله عنه رحيماً بالأيتام ، ويقول : (أنا قاسيتُ مرارةَ اليتم لموتِ أبي وأنا صغير) .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٥/١٣٧) ، و« وجيز الكلام » (٣/١٠١٩) ، و« الأنس الجليل » (٢/٢٠٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/١٩٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٢٠) (٣٧٩) .

(٢) **لعبة اللبخة** : وتسمىٰ في مصر : لعبة التحطيب ، وكانت هـٰذه اللعبة في العصر المملوكي تتخذ من شجر اللبخ ، وتتخذ منها ألواح للسفن .

(٣) **الشطار** : جمع : شاطر : وهو من أعيا أهله ومؤدبه خبثاً ومكراً .

وكان مُطرقاً على الدوام ، لا يرفعُ قطُّ رأسَه إلى السماء إلا لحاجةٍ أو مخاطبةِ أحد .

وكان لم يزلْ في عملِ مصالح فقراء الزاوية وغيرهم ؛ إما في غربلة القمح ، وإما في تنقيته ، وإما في طحنه ، وإما في جميع آلات الطعام ، وإما في خياطة ثياب الفقراء ، وإما في تفليتها ، وإما في الوقودِ تحت الدست ، وإما في جَمْعِ الحطبِ من البساتين .

وبلغ الفقراءُ والأراملُ عنده أكثرَ من مئة نفس ، وليس له رزقة ولا وقفٌ إلا على ما يفتحُ اللهُ به كلَّ يومٍ .

وكان كلُّ من بارَ عنده شيءٌ من الخضر يقول[1] : خلُّوه للشيخ عثمان .

وكان إذا ضاق عليه الحالُ يطلعُ للسلطان قايِتْباي يطلبُ منه ، فيرسم له بالقمح والعدس والفول والأرز ، ونحو ذلك ، فقال له السلطان يوماً : يا شيخ عثمان ؛ أيشٍ بلاك بهـٰذه الناس كلهم ؟! أطلقْهم لحالِ سبيلهم وريِّحْ نفسَك ، فقال له : وأنت الآخرُ أطلقْ هـٰذه المماليك والعسكر واقعدْ وحدك ، فقال : هـٰؤلاء عسكرُ الإسلام ، فقال : وهـٰؤلاء كذلك عسكرُ القرآن ، فتبسَّم السلطان .

ولما شرعَ في بناء الإيوان الكبير عارضه هناك ربعٌ فيه بناتُ الخطا ، فطلع للسُّلطان ، فقال : يا مولانا ؛ هـٰذا الربعُ كان مسجداً ، وهدموه وجعلوه ربعاً ، فصدَّقَ قولَ الشيخ ، ورسم بهدم الربع[2] ، وتمكينِ الشيخ من جعله في الزاوية ، فأرشوا بعضَ القضاة ، فطلعَ إلى السلطان وقال : يا مولانا ، يبقىٰ عليكم اللَّومُ من الناس ، تَرسمون بهدم ربعٍ بقولِ فقيرٍ مجذوبٍ ؟! فقال السلطان : ثبتَ عندي قولُ الشيخ ، فهدمه ، فظهر المحرابُ ، والعمودان ، فأرسل الشيخُ رضي الله عنه وراء السلطان ، فنزل ، فرآه بعينه ، وطلبَ أن يصرفَ على العمارة ، فأبى الشيخ ، فقال : أساعدُكَ في كبِّ التراب ؟ فقال : لا ، نحن نمهِّده فيها مهداً ، فهـٰذا كان سببَ علوه إلى الآن ، وبقيَّةُ الزاويةِ كانت زاويةَ شيخه الشيخ أبي بكر الدَقْدُوسي رضي الله عنه .

---

(١) في (ط) : (بات) بدل (بار) ، ومعنىٰ بار : كَسَدَ .

(٢) في (ح) : (أمر) بدل (رسم) .

وأخبرني شيخ الإسلام الشيخ نورُ الدين الطرابلسي الحنفي ، والسيدُ الشريف الخطَّابي المالكي النحوي رحمهما الله تعالىٰ قالا : سمعنا سيدي عثمان رضي الله عنه يقول : لمَّا حججتُ مع سيدي أبي بكر سألتُه أن يَجمعني على القطب ، فقال : اجلسْ ها هنا ، ومضىٰ فغاب عنِّي ساعةً ، ثم حصلَ عندي ثقلٌ في رأسي ، فلم أتمالَكْ حملَها حتىٰ لصقتْ لحيتي بعانتي ، فجلسا يتحدَّثان عندي بين زمزم والمقام ساعةً ، وكان من جملة ما سمعتُ من القطب يقول : آنستنا يا عثمان ، حلَّت علينا البركةُ ، ثم قال لشيخي : توصَّ به ، فإنه يجيءُ منه ، ثم قرأ (سورةَ الفاتحة) ، و(سورةَ قريش) ، ودعوا ، وانصرفا ، ثم رجع سيدي أبو بكر رضي الله عنه فقال : ارفع رأسك ، قلت : لا أستطيع ، فصار يمرخني[1] ، ورقبتي تلينُ شيئاً فشيئاً حتىٰ رجعتْ لِمَا كانتْ عليه ، فقال : يا عثمان ؛ هـٰذا حالُكَ وأنت ما رأيتَهُ ، فكيف لو رأيتَهُ ؟! فمن ثَمَّ كان سيدي عثمان رضي الله عنه لا يُريدَ الانصراف عن جليسه حتىٰ يقرأَ (سورةَ الفاتحة) ، و(لإيلاف قريش) لا بدَّ له من ذلك .

قال الشيخ شمس الدين الطنيخي رحمه الله تعالىٰ : (وما رأيتُ سيدي أبا العباس الغَمْريَّ رضي الله عنه يقومُ لأحدٍ من فقراء مصر غير الشيخ عثمان الحطَّاب ، كان يتلقَّاه من باب الجامع) .

وكذلك كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يحبُّه ويعظِّمه ، وكان كلُّ واحدٍ منهما يجيءُ لزيارة الآخر .

وكان إذا قال له شخص : يا سيدي عثمان ؛ المدد يقول : عثمانُ حطبةٌ من حطبِ جهنم ، فماذا ينفعكم خاطره ؟! رضي الله عنه .

وأخبرني سيدي الشيخ نور الدين الشُّوني رضي الله عنه : أنه جاورَ عنده مدَّةً ، فخرج يتوضَّأُ ليلاً ، فوجد رجلاً ملفوفاً في نخٍّ في طريقِ الميضأة[2] ، فقال له : قم ، ما هو محلُّ نومٍ ، فكشفَ عن وجهه وقال : يا أخي أنا عثمان ، أخرجتني أم الأولاد ،

---

(١) مَرَخَ جسدَهُ : دهنه بالمَروخ؛ وهو ما يُمرخ به البدن من دهنٍ وغيره . « تاج العروس » (م ر خ) .
(٢) النَّخُّ : فارسي معرب ؛ وهو بساطٌ طويل ، طوله أكثر من عرضه « تاج العروس » (ن خ خ) .

وحلفت أنَّها ما تخلِّيني أنامُ في البيت هـٰذه الليلة ، وكانتْ مُسلَّطةً عليه .

وكذلك كانت امرأةُ صاحبِهِ الشيخِ عثمان الديمي ، وكانت عيالُ كلٍّ منهما تخرجُ على الآخر ، وكان كلٌّ منهما يُنادي الآخرَ بيا عثمان فقط من غيرِ لفظِ لقبٍ ولا كنية .

خرجَ رضي الله عنه زائراً للقدس، فتوفِّي هناك سنة نيِّفٍ وثمان مئة ، رضي الله عنه[1].

ومنهم :

(٣٣٦) الشيخ محمد الخضري[2]

المدفون بناحية نهيا بالغربية[3] ، وضريحه يلوحُ من البعد من كذا كذا بلداً .

كان من أصحاب جدِّي ، وكان يتكلَّمُ بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً ، فإذ قويَ عليه الحالُ تكلَّمَ بألفاظٍ لا يطيق أحدٌ سماعَها في حقِّ الأنبياء وغيرهم .

وكان يُرىٰ في كذا كذا بلداً في وقت واحد .

وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي : أنه جاءهم يومَ الجمعة ، فسألوه الخطبة ، فقال : باسم الله ، فطلع المنبرَ ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ومجَّده ثم قال : وأشهد أن لا إلـٰه لكم إلا إبليس عليه السلام ، فقال الناس : كفرَ ، فسلَّ السيفَ ونزل ، فهربَ الناسُ كلُّهم من الجامع ، فجلس عند المنبر إلىٰ أذان العصر ، وما تجرَّأَ أحدٌ أن يدخل الجامع[4] ، ثم جاء بعضُ أهل البلاد المجاورة ، فأخبر أهلُ كلِّ بلدٍ بأنه خطبَ عندهم وصلَّىٰ بهم ، قال : فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبةً ، هـٰذا ونحن نراه جالساً عندنا في بلدنا .

---

(١) الذي في مصادر ترجمته : أن وفاته كانت سنة (٨٩٢هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٥٠) و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٢) ، و« الخطط التوفيقية » (١٧/ ٤١) الحضري ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٢٥) (٣٨١) .

(٣) في النسخ : (نسهيا) ، والمثبت من « الخطط التوفيقية » (١٧/ ٣٣) ، ونهية : قرية من مديرية الجيزة .

(٤) انظر الكلام على المجاذيب ( ) .

وأخبرني الشيخ أحمد القلعي : أنَّ السلطان قايتباي كان إذا رآه قاصداً له تحوَّلَ ، ودخلَ البيت خوفاً أن يبطشَ به بحضرة الناس .

كان إذا أمسك أحداً يُمسكُهُ من لحيته ، ويصيرُ يبصقُ علىٰ وجهه ، ويصفعه حتىٰ يبدوَ له إطلاقُه ، وكان لا يستطيعُ أكبرُ الناس أن يذهب حتىٰ يفرغَ من ضربه .

وكان يقول : (لا يكملُ الرَّجلُ حتىٰ يكونَ مقامُه تحت العرش على الدوام) .

وكان يقول : (الأرضُ بين يدي كالإناء الذي آكل منه ، وأجسادُ الخلائق كالقوارير أرىٰ ما في بواطنهم) .

توفي في سنة سبعٍ وتسعين وثمان مئة[١] .

ومنهم :

(٣٣٧) سيدي عيسى بن نجم رضي الله عنه خفير بحر البُرُلُّس[٢]

كان من العلماء العاملين ، وله المجاهدات العالية في الطريق .

وسمعت سيدي عليّاً المرصفي رضي الله عنه يقول : مكثَ سيدي عيسى بن نجم رضي الله عنه بوضوءٍ واحدٍ سبعَ عشرة سنة ، فقلت : يا سيدي ، كيف ذلك ؟! فقال : توضَّأ يوماً قبيل أذان العصر ، واضطجع علىٰ سريره ، وقال للنقيب : لا تمكِّن أحداً يُوقظني حتىٰ أستيقظَ بنفسي ، فما تجرَّأَ أحدٌ يوقظه ، فانتظروه هـٰذه المدة كلَّها ، فاستيقظ وعيناه كالدمِ الأحمر ، فصلىٰ بذلك الوضوءِ الذي كان قبل اضطجاعه ولم يجدِّد وضوءاً ، وكان في وسطه منطقةٌ ، فلما قامَ وحلَّها تناثر من وسطه الدود رضي الله عنه .

قلت : وهـٰذه الحالة من أحوالِ الشهود ، فيمضي علىٰ صاحبِها عمُرُه كلُّه كأنَّه

---

(١) في « الطبقات الوسطى » (٤/ ١٢٦) و« طبقات المناوي » : أنه توفي سنة (٩٠٧هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٢٢٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٢٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٢٤) (٣٨٠) ، وبُرُلُّس : بليدة علىٰ شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية « معجم البلدان » (١/ ٤٠٢) .

لمحةُ بارقٍ ، كما يعرفه من سلكَ أحوالَ القوم .

وأخبرني الشيخ محمد البُرُلُّسي : أنَّ شخصاً نذرَ : إن ولدتْ فرسي هـٰذه حصاناً فهو لسيدي عيسى بن نجم ، فولدت له حصاناً ، فلما كبرَ أراد أن يبيعَهُ ، وقال : أيشٍ يعمل سيدي عيسىٰ فيه ؟! فبينما هو مارٌّ به ذات يومٍ وقد صارَ تجاه سيدي عيسىٰ رمح من صاحبه حتىٰ دخل الزاوية ، فرمح صاحبه وراءه ، فدخل الحصان قبر الشيخ فلم يخرج ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٣٨) الشيخ شهاب الدين المرحومي رضي الله عنه[١]

أحد أصحاب العارف بالله تعالىٰ سيدي مَدْيَن ، رضي الله عنه[٢] .

كان طريقَهُ المجاهدة ، والتقشف .

وكان يلبسُ الفروةَ صيفاً وشتاءً ، يلبسها على الوجهين .

وكان لم يزلْ مُطرقاً إلى الأرض .

وكان يُقرئ الأطفال بمصر العتيق بالقرب من سيدي محمد ساعي البحر .

ومكثَ عند شيخه سيدي مَدْيَن رضي الله عنه إلىٰ أن تُوفِّي ، لم يذق له طعاماً ، فقيل له في ذلك ، فقال : أنا لم آكلْ لشيخي طعاماً خوفاً أن أُشركَ في طلبي للشيخ شيئاً آخر ، رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : (ذهبتِ الطريقُ ، وذهبَ عشَّاقُها ، وصار الكلامُ فيها معدوداً عند الناس من البدعة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وكان الغالبُ عليه رضي الله عنه الخشوعَ والبكاء ، لا تكادُ تجده إلا باكياً .

قال سيدي وشيخي الشيخ نور الدين الشُّوني رضي الله عنه : زرتُهُ مرَّةً وقلت له :

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ١٩٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٤٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ١١٤) (٣٧٦) .

(٢) تقدمت ترجمة سيدي مدين الأشموني (٢/ ٢٩٥) (٣٣٠) .

يا سيدي ؛ مقصودي الطريقُ إلى الله عز وجل ، فقال : يا أخي ، واللهِ ؛ ما أعدُّ نفسي سلمتُ من النفاق طرفةَ عينٍ ، ولم يأخذْ عليَّ عهداً ، قال : فلمَّا أردتُ الانصرافَ قلتُ : يا سيدي ؛ ادعُ لي ، فخرَّ باكياً بوجهه إلى الأرض ، وصارَ يفحصُ كالطير المذبوح ، وقال لنفسه : عشتي يا شقيَّةُ إلىٰ زمانٍ صار يُطلب من مثلك فيه الدعاء ، ويوبِّخُ نفسَهُ ، رضي الله عنه .

ومن أجلِّ أصحابه : سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي[١] ، وسيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي الشيخ سُليمان الخُضَيْري[٢] ، فسح الله في أجله للمسلمين .

وكان سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه يقول : (الشيخ سُليمان الخُضَيْري عندي أكملُ من الشيخ أبي السعود ، رضي الله عنه) .

ومنهم :

(٣٣٩) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين[٣]

أعاد الله تعالىٰ علينا وعلى المسلمين من بركاته .

واشتَهر بابن عبد الدائم المديني .

كانت مجاهداتُهُ فوقَ الحدِّ ، فظهر صدقُهُ في تلامذته ، فخرج من تحت تربيته سيدي الشيخ العارفُ بالله تعالىٰ سيدي محمدُ أبو الحمائل السروي ، وسيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي نور الدين الحسني بن عين الغزال ، وسيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي نور الدين علي المرصفي ، وخلائقُ كثيرةٌ من العجم والمغاربة ، ومدارُ طريقِ القوم اليوم في مصر علىٰ تلامذته رضي الله عنه .

---

(١) انظر ترجمته (٢/٣٦٧) (٣٥٥) .

(٢) انظر ترجمته في « الكواكب السائرة » (٢/١٤٩) ، و« طبقات المناوي » (٣/٣٧٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٤٧٦) .

(٣) انظر « الضوء اللامع » (٦/٣١٦) ، و« وجيز الكلام » (٣/٨٧٦) ، و« طبقات المناوي » (٣/٢٧٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١١٦) (٣٧٧) .

وكان رضي الله عنه ذا سمتٍ بهيٍّ وبشاشةٍ ، ونظافة ، وترافةٍ .

أقبلتْ عليه الخلائقُ فطردَهم بالقلب ، فلم يصرْ حوله فقيرٌ .

وصار يخرجُ إلى السوق ، فيشتري حاجتَهُ بنفسه ، ويحملُ الخبزَ إلى الفرنِ بنفسه إلىٰ أن مات .

ودفن علىٰ باب تربة سيدي مَدْيَن .

وكان رضي الله عنه يقول : (شبعنا كلاماً وقالَ وقيل في هٰذه الدار ، وما بقي إلا القدومُ على الواحد الأحد) .

وله رسالةٌ عظيمة في علم السلوك ، يتداولها أهلُ طريقته في مصر وغيرها .

قلتُ : وسببُ دفنه علىٰ باب التربة دون أن يُدخلوه فيها مع جماعة سيدي مدين كما أخبرني به شيخُنا الشيخُ أمين الدين إمامُ جامع الغَمْري بمصر رضي الله عنه : أن سيِّدي أبا السعود ابن سيدي مَدْين وجماعته لم يُمكِّنوه من الدخول ؛ للوقفة التي كانت بينهم وبينه حين جلسَ للمشيخة بعد سيدي مَدْيَن رضي الله عنه دون ولده سيدي أبي السعود ، وقالوا له : الطريقُ جاءتك من أين ؟! الولد أحقُّ .

قلت : وهٰذا الداء لم يزلْ بين أولاد الأشياخ وبين جماعة والدهم إلىٰ عصرنا هٰذا إلا من حماه الله عز وجل من حميَّة الجاهلية .

ولمَّا منعوه من زاوية سيدي مَدْيَن انتقل إلىٰ مدرسة أمِّ خَوَند بخطٍّ بين السورين[1] ، فانقلبَ الفقراءُ معه ، فركبَ جماعةٌ من زاوية سيدي مَدْين ، ومضوا إلىٰ أمِّ خَوَند صاحبةِ المدرسة ، وكانت ساذجةً ، فقالوا لها : أنتِ عمَّرتِ المدرسةَ ليحصلَ لك

---

(١) خَوَند : مُغْل ابنة الناصري محمد بن البارزي ، ذات أصل وديانة وحشمة وكرم وجلال ، حجَّت غير مرة ، وتصدقت بصدقات عظام ، تزوجت من الظاهر جقمق ، توفيت سنة (٨٧٦هـ) . انظر « الضوء اللامع » (١٢/١٢٦) ، و« وجيز الكلام » (٢/٨٣٨) ، وخَوَند : كلمة فارسية ؛ لقب من ألقاب السيادة ، شاع استخدامه في العصر المملوكي في مصر ، وكانت تطلق علىٰ زوجات السلطان وبناته ، وفي التركية ؛ يعني : الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث . انظر حاشية « در الحبب » (١/٥٧٦) .

الأجر وإلا التعب من غير أجر ؟! فقالت : الأجر ، فقالوا : إنَّ هـٰذا الذي يُسمِّي نفسَه المديني أخذَ الأجرَ كلَّه له والدعاء ، وما بقي يحصل لكِ شيءٌ ، فركبت بنفسها ، وجاءت وأخرجتْهُ منها ، فانتقل إلىٰ مدرسة ابنِ البقري بباب النصر[1] ، وبها تُوفِّي رضي الله عنه .

وأخبرني الشيخ شمسُ الدين الصَّعيدي المؤذِّنُ بمدرسة أمِّ خَوَند قال : جاء مغربيٌّ إلىٰ سيدي الشيخ محمد ابن أخت سيدي مَدْيَن ، فقال : يا سيدي ، أنت رجلٌ ذو عيالٍ ، وعندك فقراء كثير ، وليس لك رزقةٌ ولا معلومٌ ، ومقصودي أُعلِّمُكَ صنعةَ الكيمياء تُنفق منها على الفقراء ، فقال له : جزاك اللهُ عنَّا خيراً ، فقال : يا سيدي ؛ هات فلوس آخذ بها الحوائج ، فأعطاه ، فجاء بالحوائج ، فقال الشيخ : كمِّلْ جميلك وادخلْ هـٰذه الخلوة واعملْها ، ثم اعرضها علينا ، فجاء بعدَّته ودخلَ الخلوة ، فقال الشيخ رضي الله عنه للفقراء : هـٰذا الرجلُ ما يعرفُ من أحوال الفقراء شيئاً ، إنَّما كيمياء الفقراء أن يُعطيَهم اللهُ تعالىٰ قلبَ الأعيان بلفظ (كن) ، ثم قال لهم : هـٰذا الوقت يخرجُ المغربي محروقَ الوجه واللحية ، فبعد لحظةٍ دقَّ البابَ وقال : افتحوا لي احترقتُ ، ففتحوا له فوجدوه محروقَ الوجه واللحية[2] وقال : انطلق فيَّ الكبريت[3] ، فقال الشيخ رضي الله عنه : لا حاجة لنا بكيمياء فيها حرقُ الوجوه واللِّحى ، اذهب لحالِ سبيلك .

قال الشيخ شمسُ الدين الصعيدي رحمه الله تعالىٰ : وإنما لم يردَّه الشيخُ أولاً من غيرِ تجربةٍ ؛ صيانةً للخرقة ؛ ليعلِّمَه أنَّ الفقراء في غنيةٍ عن ذلك ، وأنَّ كنزَهم القناعةُ في هـٰذه الدار لا غير ، والله أعلم .

---

(١) **المدرسة البقرية** : تقع تجاه باب الجامع الحاكمي ، بناها الزين شمس الدين شاكر بن غُزَيِّل المعروف بابن البقري أحد مسالمة القبط ، أصله من قرية تعرف بدار البقر ، إحدىٰ قرى الغربية ، أسلم فحسن إسلامه ، نَظَرَ الذخيرة السلطانية والأوقاف والأملاك السلطانية ، توفي سنة (٧٧٦هـ) ، ودفن بمدرسته . انظر « الخطط المقريزية » (٤/ ٢٣٦) .

(٢) في (ح) : (محروق الوجه واللحية ، فخرج وقال : انطلق في الكبريت) .

(٣) في (و) : (انطلقت النار في الكبريت) .

ومنهم :

(٣٤٠) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي علي المَحَلِّي رضي الله عنه[١]

كان من رجال الله المعدودة .

وكان رضي الله عنه يبيعُ السمكَ القديد مع البِطِّيخ مع التَّمر حَنًّا ، والياسمين والورد .

وكان إذا أتاه فقيرٌ يستعينُ به في شيءٍ من الدنيا يقول له : هات لي ما تقدرُ عليه من الرصاص ، فإذا جاءَ به يقول له : ذوِّبه بالنار ، فإذا أذابَه يأخذ الشيخُ بإصبعه شيئاً يسيراً من التراب ، ثم يقول عليه : باسم الله ، ويحرِّكُهُ ، فإذا هو ذهبٌ لوقته .

وأنكر عليه مرَّةً قاضٍ في دمياط وقال له : ما مذهبُك ؟ فقال : حنشي ، ثم نفخَ على القاضي فإذا هو ميتٌ .

وكان رضي الله عنه يمشي في البلد ويقول : يا علماء البلد
ما يُصْلِحُ الملحَ إذا الملحُ فسد[٢]

وكراماته رضي الله عنه كثيرة .

وأرسل مرَّةً سيدي حسينُ أبو علي رضي الله عنه السلامَ له ، فقال سيدي عليٌّ المَحَلِّيُّ رضي الله عنه : نُعطيك هديةً في نظير السلام ، ثم غرفَ له من البحر ملء القفَّةِ جواهر ، فقال الفقيرُ : ليس لي ولا لشيخي حاجةٌ بالجواهر ، فردَّها في البحر .

مات سنة نيِّفٍ وتسع مئة ، رضي الله عنه[٣] .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤١٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/١٨٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١١٨) (٣٧٨) .

(٢) أصل بيت نسبه الذهبي في « تاريخ الإسلام » (٣/٦١٧) (ترجمة يزيد بن حميد) إلى مسروق وهو (من الرجز) ، وهو بتمامه :

يـا معشـر القُـراء يـا ملـح البلـد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

(٣) الذي في « طبقات المناوي » أنه توفي سنة (٩٠١هـ) .

ومنهم :

(٣٤١) الشيخ الإمام العارف بالله تعالىٰ سيدي علي بن شهاب جدِّي الأدنىٰ[1]

كان رضي الله عنه من المدقِّقين في الورع ، ويقول : الأصلُ في الطريق إلى الله تعالىٰ طيبُ المطعم .

وكان إذا طحنَ في طاحونٍ يقلبُ الحجرَ ، ويُخرجُ ما تحته من دقيق الناسِ ويَعجنُهُ للكلاب ، ثم يطحن ، ويخلِّىٰ للناس بعده الدقيق من قمحه .

ولم يأكل فراخَ الحمام الذي في أبراج الريف إلىٰ أن مات ، وكان والدي رحمه الله تعالىٰ يأتيه بفتاوى العلماءِ بحلِّه فيقول : يا ولدي ؛ كلٌّ من الخلقِ يُفتي بقدرِ ما علَّمه الله عز وجل ، ثم يقول : يا ولدي ؛ إنَّها تأكلُ الحبَّ أيام البذار ، ويطيِّرونها بالمقلاع ، وكذلك يعملون لها أشياءَ تجفلها في الجُرُون[2] ، ولو كان الفلاحون يسمحون بما يأكله الحَمَام ما فعلوا شيئاً مما ذكرناه .

ثم بالغَ فتورَّعَ عن أكلِ عسل النحل ، وقال : إني رأيتُ أهلَ الفواكه ببلادنا يطيِّرون النحلَ عن زهرِ الخوخ والمشمش وغيرهما ، ولا يسمحون بأكلِ أزهارهم ، فقال له والدي رحمه الله تعالىٰ : أما قال الله تعالى المالكُ الحقيقيُّ : ﴿ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل : ٦٩] فقال : الثمرات المملوكة أم المباحة ؟! فسكتَ والدي ، ثم قال له والدي : إن (كل) تُفيدُ العموم ، فنحن على العموم ، فقال : الخاصُّ مقدَّمٌ على العام ، وقد حرَّم الله عليك أن تَرعىٰ بقرتك في زرعِ الناس بغير رضاهم ، ثم تشرب من لبنها ، فكشفَ والدي رحمه الله رأسه واستغفر ، وقال : مثلي لا يكونُ معلِّماً لك يا سيدي .

وكان يُقرئ الأطفال لله تعالىٰ من غير معلوم ، ولا يُدخلُ جوفَه قطُّ شيئاً من ناحيتهم ولا من ناحية آبائهم ، حتىٰ في أيام الغلاء ، كان يجوعُ ويطعم ذلك لأراملِ البلد وأيتامها .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٤/٤٥٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/١٨٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٣٥) (٣٨٧) .

(٢) **الجُرُن** : الموضع الذي يُداس فيه البُر ونحوه ، وتجفف فيه الثمار . (المعجم الوسيط) .

وكان عنده موهية الحج معلَّقةٌ في سقف الزاوية[١] ، كلُّ صغيرٍ فضلَ من خبزه شيءٌ يضعه فيها ، قال عمِّي الشيخُ عبد الرحمـٰن : فكانت تُملأ كلَّ يوم ، وكان الأطفالُ نحو مئة نفس ، فيرسلُ العرفاء بقففٍ صغارٍ بعد العشاء يفرِّقُه علىٰ مساكين البلد ، وأوقات هو بنفسه ، وإذا كان الزمانُ زمانَ رخاء يترصَّدُ المراكبَ التي ترسي من قلَّة الريح بساحل بلده ، فيرسلُهُ لهم مع الجبن والفول الحار ومهما وجد .

وكان لا يأكلُ قطُّ من طعام فلاحٍ ، ولا شيخ بلد ، ولا مُباشر ، ولا أحدٍ من أعوان الظلمة من منذ وعىٰ علىٰ نفسه .

وقدَّم إليه مرَّةً رجلٌ قبَّانيٌّ في بولاق طعاماً ، فلم يأكله ، فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا حلالٌ ، هـٰذا من عرقي ، فقال : لا آكل من طعامِ من يُمسكُ الميزان ؛ لعدمِ تحريرها في الغالب علىٰ وجه الخلاص .

وسمعت شيخَنا شيخَ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنه يقول : كان جدُّك من إخواني في الجامع الأزهر ، وكان يُضربُ بي وبه المثلُ في شدَّة الاجتهاد ، وصيام النهار ، وقيام الليل بنصف القرآن كلَّ ليلةٍ ، وكان يَفوقني في الورع ؛ فإنه لم يأكل من طعامِ مصر قطُّ ، ويقول : سمعتُ أخي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : طعامُ مصر سُمٌّ في الأبدان ، وكذلك كان لا يشربُ من ماءٍ محمولٍ علىٰ يد غيره من البحر أبداً ، بل كان يأخذُ له جرَّةً ويذهبُ إلىٰ بحر النيل ، فيملؤها ويشربُ منها حتىٰ تفرغ ، وكنا نتعامل عليه ونحن شباب ، فنشربُها جميعها في الليل ، ونقول : حتىٰ ننظر أيش يعملُ إذا عطش ، فيجسُّ الجرَّةَ بيده ، فيجدها فارغةً ، فيتبسم ويسكت .

وكان كتابه « المنهاج »[٢] ، و« الشاطبية »[٣] ، و« الملحة » ، وحلَّ الثلاثة

---

(١) في (و) : (موهية للخبز) بدل (موهية الحج) .

(٢) منهاج الطالبين : في فروع الشافعية للإمام النووي ، وهو في مختصر « المحرر » للرافعي .

(٣) واسمها : « حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني » ؛ وهي القصيدة المشهورة بالشاطبية ، للشيخ أبي محمد القاسم بن فيرُّة الشاطبي الضرير المتوفىٰ بالقاهرة سنة (٥٩٠هـ) نظم فيه « التيسير » ، وأبياته (١١٣٧) بيتاً ، أبدع فيها كل الإبداع ، فصار عمدة الفن . انظر « كشف الظنون » (١/ ٦٤٦) .

كتب ، وصار يقرأ بالسبع وعمره نحو العشرين سنة .

وكنت لا أفارقه ولا يفارقني ، فجاءته والدتُهُ بالكعيكات التي كان يتقوَّتُ منها علىٰ عادته ، فأخذتْ قميصَه تغسله ، فوجدت فيه أثرَ احتلام ، فقالت : إني أخافُ عليك من أهلِ هـٰذه البلد ، فإن كنتَ في طاعتي فسافرْ معي أزوِّجك في بلدي ، وتقعد عندي ، فشاورني ، فقلت : استخرْ ربَّك ، فقال : لا أستخيرُ في طاعةِ والدتي ، وكان رحمه الله تعالىٰ بارّاً بوالدته ، قال : وكانت امرأةً لها قوةٌ ، تحمل الإردبَّ وحدَها ، وتضعُهُ علىٰ ظهر الحمار ، قال : وكان جدُّك رضي الله عنه يقول : قطعتني أمي وأنا أخضر ، انتهىٰ ما سمعته من شيخي شيخ الإسلام رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه إذا غرقت مركبٌ فيها شيءٌ يُؤكل ؛ كالرمان ، والقُلْقاس[1] والقصب . . لا يُمكِّن أحداً من أهل بلده أن يُمسكَ من ذلك شيئاً ، ويقول : تشغلوا ذمَّتكم بشيءٍ أنتم في غنيةٍ عنه ، وغرقَ علىٰ رُغم أنفِ صاحبه ؟! .

ودعا الله ألا يصحَّ في دورِ ذرِّيته برجُ حمام ، فبنوه مراراً ، وكتبوا له الجلبَ ، ولم يفرِّخْ شيئاً ، مع أنَّ جيرانهم عندهم الأبراجُ ، وهو فيها بكثرة .

وكان رضي الله عنه يقول : ماتَ أبي وأنا صغيرٌ ، فما ربَّاني إلا أمي ، فكنتُ أرعىٰ للناس بهائمهم بالكراء وأتقوَّتُ ، وحفظتُ القرآن وأنا أرعى البهائم ، فكنتُ أكتبُ لوحي وآخذه أحفظه في الغيط ، فمرَّ عليَّ بعضُ الفقراء السائحين ، فقال : يا ولدي ؛ اسمعْ منِّي ، وشاورْ والدتك ، وسافرْ إلىٰ مصر تعلَّمْ بها العلم ، فشاورتُ أمي ، فسمحتْ لي بذلك ، وزوَّدتني زوَّادةً آكلها في نحو أربعة شهور ، ثم صارتْ تتفقَّدني إلىٰ أن رجعتُ إليها .

وأخبرني جماعةٌ ممن قرؤوا عليه : أنَّهم لم يَضبطوا عليه غيبةً واحدة في أحدٍ إلىٰ أن مات ، وكذلك لم يَضبطوا عليه قطُّ مدَّةَ صحبتهم ساعةَ فراغ ، فكان إن لم يكنْ في عملٍ أُخروي كان في عملٍ ينفعُ الناس .

---

(١) مرَّ شرحها (٢/ ٣٠٢) .

قالوا : وكانت طريقتُهُ : أنَّه كان يقومُ رحمه الله بعد رقدةٍ من الليل ، فيتوضا ويُصلِّي ما شاء الله أن يُصلِّيَ ، ثم يَثني ذيلَهُ في وسطه ويتحزَّمُ عليه وفي وسطه سراويل ، ثم يأخذ جرَّتين كباراً ويبتدئ بالقراءة ، فلا يزالُ يملأُ إلىٰ قريبِ الفجر ، وربَّما قرأ نصفَ القرآن إلى الفراغ ، فكان يَملأُ سبيلَ زاويتِهِ التي أنشأها بحريِّ بلده .

ثم يملأ سبيلَ الجامع ، ثم يملأُ سبيلاً علىٰ طريق منف خارج جُرْنِ البلد .

ولمَّا زوَّج أولاده الثلاثة ؛ والدي ، ومحمد وعبد الرحمـٰن أَعمامي . . كان يملأُ لهم سقايتهم ، حتىٰ مسقاة الكلاب ، ولا يُمكِّن أحداً منهم يملأ ، ولا أحداً من عيالهم ، ثم يرجع إلىٰ ميضأة زاويته فيملؤها ، ويملأُ حيضان أخليتها ، وينظِّفُها ، ثم يصعدُ إلىٰ سطح الزاوية ، فيسبِّحُ الله وينزِّهُهُ ، ثم يؤذِّنُ ، فينزل فيصلِّي الفجر ، ويقرأُ السبع هو وعرفاء الأطفال ، ثم يُصلِّي بالناس الصبح ، ثم يجلسُ يتلو القرآن إلىٰ طلوع الشمس ، فتجتمعُ الأولاد في المكتب ، فلا يزالُ يعلِّمُ هـٰذا الخطَّ ، وهـٰذا رسمَ الخطِّ ، وهـٰذا الإدغام ، وهـٰذا الإقلاب ، وهـٰكذا ، ويؤدِّبُ هـٰذا ، ويُرشد هـٰذا ، ويَسمعُ لهـٰذا إلىٰ أذان العصر ، فيملأُ الميضأةَ أو يكملُها ، ثم يفتحُ دكَّانَه علىٰ باب زاويته فيها الزيت الحار ، والحلو ، والطيب ، والعسل ، والرُّبُّ[1] ، والأرز ، والفلفل والمصطكىٰ[2] ، وغير ذلك ، فلا يزالُ يبيعُ للناس إلىٰ أن يقضي حوائجَهم للطعام والأكل إلى قبل المغرب ، فيؤذن ويُصلي بالناس ، ويجلس للسبعِ إلىٰ صلاة العشاء .

فإذا صلَّى العشاء بالناس لا يفرغُ من وتره حتىٰ لا يبقىٰ أحدٌ يمشي في الأزقَّة وينام الناس ، فيغفو لحظةً ، ثم يقومُ يتوضأ ويصلِّي ، ويأخذُ الجرار ، ويملأُ الأَسبلة كما تقدَّم ، هـٰذا كان عمله على الدوام شتاءً وصيفاً .

وكانت زوجتُه رحمها الله تعالىٰ تقول له : يا سيدي ؛ أما تستريحُ لك ليلةً واحدة ؟! فيقول : ما دخلنا هـٰذه الدارَ لذلك .

---

(١) **الرُّبُّ** ، بالضم : هو دبس التمر .

(٢) **المصطكىٰ** : من العلوك ، رومي ، وهو دخيل في كلام العرب . « لسان العرب » (ص ط ك) .

وكان رضي الله عنه إذا قويتِ عليه الشبهةُ في ثمن شيءٍ يَبيعُهُ لا يأخذُ من ذلك المشتري ثمناً ، بل يُعطيه حاجتَهُ ويقول : سامحناك ، فكان يظنُّ أن ذلك لمحبَّته له ، وإنما ذلك لقوةِ الشُّبهةِ في ماله على حسب مقام الجدِّ رضي الله عنه .

قلت : وقد تحدَّثتُ بذلك للشيخ محمد النامولي أحدِ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه فقال : صحيحٌ ، كان هـٰذا دأبَهُ مدَّةَ صحبتنا له ، ثم قال لي : سمعتُ سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : ما في أصحابنا أحد قطُّ أكثرُ نفعاً من الشيخ عليٍّ الشعراوي ، ثم قال لي الشيخ محمد رضي الله عنه : فإنْ شككتَ في قول سيدي إبراهيم رضي الله عنه فاعرضْ هـٰذه الأحوالَ المتقدِّمة على مشايخ مصر الآن لا تجدْ أحداً منهم يستطيعُ المداومةَ على هـٰذه الأعمال جمعةً واحدة ، ثم نظرَ إليَّ وحولي الفقراء والمعتقدون ، فقال : إنْ كنتَ تعمل فقيراً فاتَّبِعْ جدَّك ، وإلا فأنت سكَّةٌ ، وصورةٌ ، وشيء ما في المقصورة ، فقلت : أستغفرُ الله العظيم .

وأخبرني : أنه كان إذا نزلَ سيدي إبراهيمُ المتبولي رضي الله عنه من البركة للريف يقول للفقراء : الميعادُ عند الشيخ عليٍّ الشعراوي هـٰذه الليلة ، فتكون ليلةً عظيمةً .

قال الشيخ محمد رحمه الله : فنزلنا أيامَ التين ، فاعترضنا أهلُ الصالحية وأهلُ برشوم ، وقالوا : يا سيدي ؛ انزلْ هنا شويه نُطعمِ الفقراء التين ، فقال : لا نأكلُ التينَ إلا عند الشيخ عليٍّ الشعراوي في ذلك البر ، فقال الفقراء : تتركُ بلدَ التين وتطلبُ التين في غير بلده ؟! قال : فأوَّلُ ما خرجَ جدُّك وسلَّم على الشيخ والفقراء أخرجَ لهم قُفَّةً كبيرةً من أطيب التين ، فقال الفقراء لسيدي إبراهيم رضي الله عنه : استغفرِ اللهَ لنا ، وتابوا من اعتراضهم الباطن .

وأخبرني عمِّي الشيخُ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله تعالىٰ : أنَّ سببَ عمارة والدي بيوتِ الخلاء في زاويته مع كونها كانتْ خارجةً عن البلد ، والفلاحون في الغالب لا يعتنون بدخولِ الأخلية . . أنَّه وردَ عليه الشيخُ سراج الدين التلواني ، فخرجَ فرأى الأولاد يقولون : تعالوا بنا نتفرَّجُ علىٰ هـٰذا القاضي الذي بيخرىٰ ، فحصل عند والدي خجلٌ عظيم لأجل ضيفه ، فضيَّفَهُ ، وطلب الفؤوس والمحبين ، وحفر سراب الأخلية ذلك اليوم .

وكان رضي الله عنه إذا زرع مارساً من القمح يجعلُ بينه وبين الناس خطّاً من

الفول ، وإذا زرعَ مع الناسِ الفولَ جعل بينه وبينهم خطّاً من القمح ، وهـٰكذا في سائر الحبوب ، فإذ حصدَ تركَ للناس خطَّ الفولِ ، أو أخذه إذا شاء ؛ فإنه فوله .

وكان إذا سرحَ للحصاد يأخذُ الإبريقَ معه للوضوء ، فإذا جاءَ وقتُ الصُّبح تركَ الحصاد وصلَّىٰ ، فكان شريكُهُ يتكدَّرُ لأجل ذلك ، فيقول : كلُّ طعامٍ اكتُسبَ بطريقٍ حرامٍ فهو حرام .

وكان رضي الله عنه يقول : بلغني أنَّ الأرض لا تأكلُ قطُّ جسماً نبتَ من حلالٍ ، فكان بعضُ فقهاء بلادنا يُنكر ذلك عليه ويقول : هـٰذا خاصٌّ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والشهداء .

قلت : فلمَّا ماتَ والدي أدخلوه عليه ، فوجدوه طريّاً كما وضعوه ، وبين دفن والدي ودفنه إحدىٰ وعشرون سنة ، فأرسلَ المُلحِدُ للجدِّ وراء الفقهاء الذين كانوا يُنكرون علىٰ جدِّي ذلك وقال : انظروا ، فاستغفروا اللهَ وتابوا .

وكان رضي الله عنه يكرهُ من يقول له : يا نور الدين ، ويقول : نادوني باسمي : عليٍّ كما سمَّاني بذلك والدي .

وبات سيدي الشيخُ عليٌّ العياشي أحدُ أصحاب سيدي أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه ـ وهو من أربابِ القلوب ـ ليلةً في زاوية جدِّي ، فسمع جدِّي يقرأُ القرآنَ في قبره ، فابتدأَ من سورة مريم إلىٰ سورة الرحمـٰن ، فطلعَ الفجرُ ، فسكتَ الصوتُ ، فأخبر أهلَ البلد بذلك ، فقالوا : هـٰذا الشيخُ عليٌّ رحمه الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه يقول : لا تجعلوا علىٰ قبري شاهداً ، وادفنوني خلفَ جدارِ هـٰذه القبة التي في الزاوية ، ففعلوا ، فليس لقبرِهِ علامةٌ إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وأخبرني عمِّي الشيخُ عبدُ الرحمـٰن رضي الله عنه قال : لمَّا حضرتْ والدي الوفاةُ دعا بكتابِ سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه المُسمَّىٰ بـ « طهارة القلوب »[١] ، فقال لوالدك : اقرأ لي في أحوال القوم عند خروج أرواحهم ، فقرأ له ، فتنهَّدَ وقال :

---

(١) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، توفي مؤلفه سنة (٦٩٤هـ) ، وهو علىٰ ثلاثين فصلاً . انظر « كشف الظنون » (٢/١١١٨) .

سبقونا على خيولٍ دُهمٍ ، ونحن في أثرهم على حمير دبرة[١] .

وطلع النفاطاتُ في لسانه ، حتى تزلَّع لسانُهُ ، فكانت جدَّتي رحمها الله تعالى تقول : واللهِ ؛ ما يستأهلُ هـٰذا اللسان ، يا طول ما ختمَ القرآن في الليل ، فيقول : سكِّتوها عني ، لو علمتْ ما أعلمُ من مناقشة الحساب ما قالتْ ذلك .

وأخبرني والدي في التربية سيدي خضرُ رحمه الله قال : إن جدَّك كان لا يجيء إلى القاهرةِ إلا ويأتي معه بالجراب الخبز ، وإبريقٍ يملؤه من النيل ، فيشربُ ويأكل من ذلك إلى أن يرجعَ ، ولم يذقْ لي طعاماً قطُّ .

وقال لي : تعرفُ سببَ معرفتي بجدِّك ؟ قلت : لا ، قال : نزلنا سنةً من السنين مع سيدي محمد بنِ عبد الرحمـٰن نائب جده وبعض بني الجيعان نتفرَّج في بلدِكم أيامَ الربيع ، فأقمنا مدَّةً ، فطاب لسيدي محمد الوقت ، فشرع في زراعات ، وبنى حواصلَ ، وصرفَ مصروفاً واسعاً ، فطلب سيدي محمد شخصاً أميناً يكونُ وكيلاً عنه في ذلك ، فقال جميعُ الفلاحين : ليس عندنا أحدٌ أكثرُ أمانةً من الشيخ علي رضي الله عنه ، فأرسلوا وراءه ، فحضر ، فقال : إني لا أصلحُ لذلك ، فقال : لا بدَّ ، فأخذ مفاتيح الحواصل ، فلما طلع البِطيخ خزنه ، وصارَ كلُّ بِطيخة حصلَ فيها تلفٌ[٢] يُنادي عليها إلى أن تنتهي الرغبات فيها ، ثم يكتبُ ثمنها عليه ، ويُعطيها لمساكين البلد ، وصار يكتبُ تفاوتَ علفِ البهائم ، والثور الفلاني مرضَ الليلةَ الفلانية فلم يأكلْ عشاه تلك الليلة ، ونقص من غدائه في الوقت الفلاني ، وهـٰكذا .

فلمَّا حضر ابنُ عبد الرحمـٰن ثاني مرة إلى البلد أرسل خلفَ جدِّك يطلبُ منه قائمةَ المصروف ، فنظر فيها ، ثم خرجَ من الخيمة مكشوفَ الرأس خارّاً على أقدام جدِّك يُقبِّلها ويبكي ، ويقول : يا شيخ علي ؛ اجعلني في حلٍّ ؛ فإني واللهِ ما علمتُ بمقامك ، ثم صار يقول : مثلُ هـٰذا الرجل يكون وكيلاً عني ؟!

وأخبرني عمِّي الشيخ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله قال : أهدى لنا سيدي محمدُ بن

---

(١) **دبر الحمار** : جُرح وتقرَّح ظهره .

(٢) في (ح) وحدها : (ثقب) .

عبد الرحمـٰن هدية ثلاثةَ أطباق علىٰ رؤوس ثلاثةٍ من العبيد : في واحدٍ أثوابُ صوف وشاشان وثيابٌ بعلبكية ، وفي الآخر حلاوةٌ ومكسرات ، وفي الآخر أنواعٌ من الطيب ، فردَّ القماشَ ، وقبلَ الحلاوةَ والطيب ، وفرَّق الطيبَ علىٰ صبايا البلد ، والحلاوةَ علىٰ أيتام البلد ، ولم يذقْ هو ولا أهل بيته شيئاً من ذلك ، وأراد عمي عبدُ الرحمـٰن أن يأخذ له إصبعاً من الحلاوة فمنعه ، وقال : يا ولدي ؛ هـٰذا سُمٌّ في الجسد ؛ فإنه كان جدُّهُ يَقبضُ العشور . انتهىٰ .

قال سيدي خضر : وقد عاشرت جدَّك وأنا مباشرُ البلد إلىٰ أن مات ، فما رأيتُهُ وضع يده في طعام الفلاحين ، ولا أخذَ علىٰ شهادتِهِ لهم في الخراج والأجائر[١] وعقود الأنكحة ، ولا خطابته لهم ، ولا إمامته بهم درهماً واحداً .

قال : وكان يَفْضُلُ للفلاحِ علىٰ أستاذه الدرهمُ الواحدُ ، فيكتبه للفلاحِ لثاني سنة ، ويقول : لو أمكنني تخليصه لك هـٰذه السنة لخلَّصته لك من أستاذك .

وكان إذا ضاقَ به الحالُ من حيث الكسب بالبيع يكتبُ المصاحفَ ، ويصنعُ الطواقي المضرَّبة دالة في قلب دالة ، كلُّ واحدةٍ يُعطونه فيها الدينار الذهب ، ويقولون : إنَّ كلَّ طعنةٍ فيها مرقية بكلمةٍ من القرآن ؛ لأنَّه كان إذا خاطَ يقرأ مع ذلك القرآن ، فكان يحسبُ رأسَ ماله فيها ، وأجرةَ مؤنته وخياطته ، ويتصدَّقُ ببقية الدينار على الأرامل والمساكين .

وبلغني : عنه أنَّه كان يقرأُ القرآن وهو ينسخُ كتب العلم[٢] لا يشغلُهُ أحدُهما عن الآخر ، وتخرجُ كتابته سالمةً من الغلط مع ذلك .

وأخبرني جماعةٌ ممن كانوا يقرؤون عليه : أنه كان يأكلُ اللبن والطعام المائع مع المجذومين ، ويقول : إن هـٰؤلاء خاطرُهم مكسورٌ .

وكان الذين يقرؤون عليه يقولون : ما رأيناه قطُّ نائماً في النهار في أيام الصيف ، ولا غيره .

---

(١) **الأجائر** : جمع إجارة .

(٢) في (ح) وحدها : (ينسخ المصاحف وكتب العلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّ النهارَ لم يُجعل للنوم) .

ولمَّا حجَّ وتلقَّاه الناسُ وافق طلوعُه للبلد أذانَ العصر ، فصعد سطح الزاوية وأذَّن ونزل ، وصلَّىٰ بالناس ، ثم نزل فنظَّفَ بيوتَ الخلاء ، وملأَ الميضأةَ قبل دخول الدار ، ثم شرعَ من تلك الليلة في ملء الأسبلة المتقدِّم ذكرُها علىٰ يديه علىٰ عادته ، ولم يسترحْ كما يقع للحُجَّاج .

وكان يقول : (الوقتُ سيفٌ) .

ولمَّا جاء من الحجِّ كثر بكاؤه وحزنُه زيادةً علىٰ ما كان عليه قبل الحجِّ ، ولم يُر ضاحكاً قطَّ حتىٰ مات .

وكان إذا لبسَ القميصَ أو العِمامة لا ينزعُها للغسلِ قطُّ إلا إن نزعوها ، وكانوا ينسونه بعضَ الأوقات ، فتصيرُ كالوحل ، ومع ذلك علىٰ ثيابه الخفر والنور يخفُقُ منها من نور الأعمال .

وكانت عِمامته من الصوف الأبيض .

وكان أشبهَ الناس بجدِّي الشيخُ نور الدين الشُّوني رضي الله عنه شيخِ الصلاةِ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجامع الأزهر وغيره ؛ في وجهِهِ ولحيتِهِ وهمَّتِهِ وجسمه ، حتىٰ إن الجماعة الذين قرؤوا علىٰ جدِّي كلُّهم مُطبقون علىٰ ذلك ، وكانوا يذهبون إلى الجامعِ الأزهر لرؤية الشيخِ نورِ الدين لشبهِهِ بجدِّي لا غير .

ولمَّا دُفن سيدي نورُ الدين الشُّوني رضي الله عنه عندنا رأيتُهُ ثاني يوم ، فقال لي : جاءني جدُّك إلىٰ هنا هـٰذه الليلة ، وقال : آنستَ مكانك ، وإذا كان لك حاجةٌ فنادني أحضر إليك في الحال .

ورأيتُ بينهما اتحاداً عظيماً ؛ ولذلك جعلنا اسميهما مسبوكين معاً في الدعاء لهما في قراءةِ الأسباع ، والكُرسيِّ ، وغيرهما في الزاوية التي دُفن فيها الشيخ نور الدين الشُّوني رحمه الله تعالىٰ ؛ كلٌّ واحدٍ يدعىٰ له بقرينةٍ تخصُّه ؛ فإنَّ كلاً منهما والدي ، رضي الله عنهما .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُعجبني كثرةُ العبادات من العبد ، وإنما يُعجبني كثرةُ خوفه من الله عزَّ وجل ومناقشته لنفسه) .

ورافقه مرَّةً في سفره من القاهرة إلىٰ بلده رجلٌ عليه آثارُ الفقراء ، فقال له جدِّي : ما حرفتُكَ ؟ قال له : مؤذنٌ في جزيرة الفيل ، فقال له : هل أقمتَ مكانك نائباً ؟ فقال : الأمرُ سهل ، فقال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] ، وساق وتركه .

وكان رضي الله عنه لا يُمكِّنُ أحداً من فقراء البرهانية[١] يفعلُ شيئاً في بلده مما يفعلونَه في غيرها من أكل النار ودخولها ، وجرِّ السيفِ على اللسان وعلى الكف ، ويقول : إنْ كنتم برهانية فأتوا لنا بالبرهان علىٰ ذلك من الكتاب والسنة ، أو من فعل سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ، فانتصرَ جماعةٌ من البلد للفقراء علىٰ جدِّي ، وقالوا : لا بدَّ أن يفعلوا هـٰذه الليلة ذلك ، حتىٰ نتفرَّجَ عليهم ، فأتاهم تلك الليلة سيدي إبراهيمُ الدسوقي رضي الله عنه وقال لهم : أطيعوا الشيخَ عليّاً رضي الله عنه ، وأنا بريءٌ من كلِّ عملٍ يُخالف هدي الخلفاء الراشدين والأئمةِ المجتهدين ، فأصبحوا واستغفروا وتابوا ، ورجعوا عن ذلك الفعل ، فقال لهم : أنا رجلٌ برهاني ، ولو كنت أعلمُ رضا سيدي إبراهيمَ بذلك لكنتُ أوَّلَ فاعلٍ له ؛ لأنه قدوتي وشيخي .

وكذلك وقع له مع فقراء الأحمدية ، وكان شيخُهم الشيخ الصالح سيدي عبد الرحمـٰن بن الشيخ وهيب[٢] السطوحي الأحمدي تلك الليلة ، فقال له : يا شيخ عبد الرحمـٰن ؛ إنْ كنتَ تطلع بلدنا فاطلعْها على الكتاب والسنة ، وإلا فأنت مهجورٌ ، فدارت فيه الكلمةُ ، ونادىٰ بأعلىٰ صوته : يا فقراء ؛ تفرَّقوا عني ؛ فإني رجعتُ إلى الله تعالىٰ عن هـٰذه الطريقة ، ثم عقدَ التوبةَ علىٰ يد جدِّي من تلك الليلة .

ثم جعلَ له خُصّاً في الجزيرة التي هي الآن متعلِّقة بالفقراء تجاه فم بحر الفيض ، وصار يتعبَّدُ فيها ، والبحرُ محيطٌ به ، يزورُهُ الناسُ في المراكب إلىٰ أن مات .

وكان يقول : (كلُّ هـٰذا ببركةِ الشيخ عليِّ بنِ شهاب ؛ فانَّه أنقذني من الضلال) .

وظهرت للشيخ عبد الرحمـٰن رضي الله عنه كرامات عظيمة ؛ منها : أنهم قطعوا مرَّةً حطباً بغير إذنه من جزيرته ، وسافروا به ، فانقلبتِ المركبُ بالقرب من بولاق

---

(١) **البرهانية** : منسوبون إلىٰ سيدي إبراهيم الدسوقي .

(٢) في (هـ ، و ، ح ، ط) : (وهب) .

وغرق مَنْ فيها ، ولم تزلْ مُنحدرةً إلىٰ أن أرست علىٰ جزيرته ، فقال : ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ ﴾ [يوسف : ٦٥] فقال صاحب المركب : يا سيدي الشيخ ؛ تُغرقُ المركبَ كلَّها في حزمتين حطب ؟! فقال : هٰذا من سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ما هو مني .

وكان جدِّي رضي الله عنه إذا خرجَ من بيته للصلاة لا يستطيعُ تاركُ الصلاة يفارقه حتىٰ يُصلِّي هيبةً منه رضي الله عنه .

وكان إذا رأىٰ جماعةَ الفلاحين في مجلس لغوهم يقول : يا أولادي ؛ العمرُ يضيقُ عن مثل ذلك ، عن قريب تندمون .

وكان رضي الله عنه ينتهي نسبهُ إلىٰ سُلطان تِلِمْسان أبي عبد الله في الجدِّ الرابع ، وبعده إلى السيد محمد بن الحنفية رضي الله عنه ، وكان لا يظهرُ ذلك ، ويقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن التفاخرِ بالنسب ، ولا يُقدِّسُ الإنسانَ حقيقةً إلا عملُه ولو كان من أولاد أكابر الصحابة .

وكان يقول : (انظروا إلى الموالي الذين صحبوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ كسلمان وبلال كيف صارَ شأنُهم بطاعة الله ورسوله) .

وأخبرني سيدي كمال الدين زوفا من أولاد عمِّنا بنواحي البهنسا : أنَّ جدَّنا الخامسَ سيدي موسى المكنىٰ بأبي عمران رضي الله عنه قال له سيدي أبو مَدْين رضي الله عنه : لمن تنتسب ؟ قال : إلىٰ مولاي أبي عبد الله سلطان تلمسان ، قال له : فقرٌ وشرفٌ لا يجتمعان ، فقال : يا سيدي تركتُ الشرفَ ، فقال : الآن نُربِّيك .

قلت : وتبعَهُ علىٰ ذلك أعمامي ووالدي ، فلمَّا خفت موتَ نسبنا بالكلِّية ذكرتُها في مؤلفاتي .

وأخبرني الشيخ كمالُ الدين المتقدِّم : أنَّ نسبتنا القديمة وجدوا عليها خطوطَ أولياء المغرب وعلمائها وقضاتها[1] ، فوقع بين أولاد عمِّنا وبين الخليفة سيدي يعقوب العباسي ، فأَرشىٰ عليها من أخذها وغيَّبها عنا ، وقال : ليس لنا أولادُ عمٍّ أبداً ؛ خوف انقراضِ بيتهم أو ضعفه ، فتعطي أولاد عمِّنا الخلافة ، ولعمري ؛ الشرفاء أحقُّ بذلك ،

---

(١) في (ح) وحدها : (خطوط أهل المغرب ؛ من الأولياء والعلماء وقضاتها) .

وهم كثيرٌ في أرض مصر ، فالله يكثِّر منهم ، ويعرِّفنا بمقدارهم والقيام بخدمتهم ، آمين .

مات جدِّي رضي الله عنه سنة إحدىٰ وتسعين وثمان مئة ، وله من العمر سبعٌ وخمسون سنة ، رضي الله عنه .

* * *

وليكن ذلك آخرَ من ذكرناه من أهل القرن التاسع ، وتركنا جماعاتٍ كثيرةً من أهل القَرَافتين ، وغيرهما استغناءً بكتب الزُّوار الموضوعة لذلك ؛ فإن كتابنا هـٰذا إنَّما وضعناه بالأصالة لبيان أهلِ الطريق وأحوالهم ، وأنَّهم كانوا على الكتابِ والسُّنة ، فربَّما تكثرُ البدعُ من فقراء أهلِ هـٰذا العصر زيادةً علىٰ ما هي عليه الآن ، فيعتقدُ العامةُ أنَّ السلفَ الذين يزعم هـٰؤلاء أنهم علىٰ قدمهم كانوا علىٰ هـٰذه البدع ؛ فلذلك لم نذكرْ في الغالب في هـٰذا الكتاب من المشايخِ إلا من له كلامٌ في الطريق ، أو أفعالٌ تُنشِّطُ المريدين ، هـٰذه طريقُ التأسِّي بالأشياخ ، وأمَّا الكرامات ونتائجُ الأعمال فليستْ هـٰذه الدارُ محلا لها ، إنما محلُّها الدارُ الآخرة ؛ فلذلك لم نذكر منها إلا بقدرِ تسكينِ القلب لذلك الوليِّ ؛ ليؤخذ كلامُه بالقبول والاعتماد ، والله حسبي ونعم الوكيل .

* * *

ولنشرع في ذكر الخاتمةِ الموعود بذكرها في الخطبة[1] ، فنقول ، وبالله التوفيق :

---

(١) انظر (١/ ٨٩ـ ٩٠) .

خاتمة في ذكر المشايخ ممن أدركهم المؤلف في القرن العاشر



خاتمة في ذكر المشايخ ممن أدركهم المؤلف في القرن العاشر

وقد سبقني إلىٰ نحو ذلك سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنه في منظومةٍ له ، فقال في أوّلها ، وهو لسانُ حالي أيضاً : [من الرجز]

وأذكــرُ الآنَ رجــالاً كــانُــوا ... كــأنجــمٍ يَــزهُــو بهــا الــزمــانُ
مشــايخــاً صَحبتُهُــمْ زمــانَــا ... أو زُرتُهــمْ تبــرُّكــاً أَحيــانَــا
مشــايخِــي الأئمــةَ الأبــرارَ ... وأُخــوتــي الأحبّــةَ الأخيــارَ
أَرجُــو بــذكــراهُــمْ بقــاءَ الــذِّكــرِ ... لهــمْ وفَــوزي بجــزيــلِ الأَجْــرِ
فــإنَّهــمْ عــاشُــوا بــأُنْــسِ الــرَّبِّ ... سرّاً وذاقُــوا مِــنْ شَــرابِ الحُــبِّ
فهمْ جلوسٌ في نعيمِ الحضره ... وجوهُهُم في نضــرةٍ من نظره
وكــلُّ شيــخٍ نلــتُ منــهُ علمَــا ... أوْ أدبــاً فهــو إمــامــي حتمــا
وكــلُّ شيــخٍ زرتُــهُ للبــركَــهْ ... فقدْ وجدْتُ ريحَ تلكَ الحركه

إلىٰ أن قال :

لمْ يبقَ في السِّتين ، والست مئه ... في النَّاسِ منْ أشياخِنا إلا فئه
وإنَّنــي لغفلتِــي أَقلُّهــم ... وقــدْ تقضَّــىٰ منهــمُ أَجلُّهــمْ
وقــد عــددتُ منهــمُ جمــاعــه ... اشتَهــرُوا بــالفضــلِ والبــراعَــه
ومــا سكــتُّ عــنْ ســواهــمْ صَــدّا ... ولــمْ أُطــقْ حصــرَ الجميــع عــدّا
وإنَّمــا ذكــرتُ قــومــاً دَرَجُــو ... ومِنْ مَضيقِ سِجْنِهِمْ قدْ خَرَجُوا
قــدْ كــانَ لــيْ بــأُنْسِهِــمْ سُلــوانُ ... ومــا نَسيــتُ ذكــرَهُــمْ إذْ بــانُــوا
وقــدْ بقيــتُ بعــدَهــمْ فــريــدا ... مخلفــاً عــنْ رِفقتِــي وَحيــدا
أُقطِّــعُ الأوقــاتِ بــالــرَّجــاءِ ... ليحضــرَ الــوفــاةُ بــالــوفــاءِ
وفــي الــزَّمــانِ منهُــمُ بقيَّــه ... قليلــةٌ صــالحــةٌ مــرضيَّــه
فقــلْ لهــمْ إذا أَقــامُــوا بعــدَنــا ... يَــدعُــو لنَــا فقــدْ دَعــونَــا جهــدَنــا

إذا علمت ذلك فأقول ، وبالله التوفيق :

فمن مشايخي رضي الله عنهم :

(٣٤٢) سيدي محمد المغربي الشاذلي[١]

كان رضي الله عنه من الراسخين في العلم .

أخذ الطريقَ عن سيدي الشيخ أبي العباس السرسي تلميذِ سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه .

وكان من أولاد الأتراك ، وإنما اشتَهر بالمغربي لكونِ أمِّه تزوَّجتْ مَغربياً .

وكان الغالب عليه الاستغراق رضي الله عنه .

وكان بخيلاً بالكلام في الطريق ، عزيزَ النُّطق بما يتعلَّقُ بها ، وذلك من أعظمِ دليل علىٰ صدقِهِ وعلوِّ شأنه ؛ فإنَّ أهلَ الطريق هـٰكذا كان شأنُهم .

وقد بلغني : أنهم سألوه أن يُصنِّفَ لهم رسالةً في الطريق ، فقال : أُصنِّفُ الطريق لمن ؟! هاتوا لي راغباً صادقاً إذا قلتُ له : اخرجْ عن مالك وعيالك خرجَ ، فسكتوا .

وكان رضي الله عنه يقول : (الطريقُ كلُّها ترجعُ إلىٰ لفظتين ؛ سكتة ، ولفتة ، وقد وصلتَ) .

قلت : معناه : عدمُ الالتفات لغيرِ الله تعالىٰ ، والإقبالُ علىٰ أوامرِ الله .

وكان إذا جاءه أحدٌ من الفقهاء ، يقول له : خذْ علينا العهدَ ، فيقول : يا أولادي ؛ روحوا واستكفُّوا البلاءَ ؛ فإنَّ هـٰذه طريقٌ كلُّها بلاء ، أنتم في طريق تأكلون ما تشتهون ، وتلبسون ما تشتهون ، والناسُ يخافونكم ويطلبون منكم السُّكوتَ عنهم ، وهـٰذه طريقٌ يُقامُ عليكم الميزانُ فيها ، ويطلقُ الناسُ ألسنتَهم عليكم ، ولا يجوزُ لكم فيها أن تردُّوا عن أنفسكم ، وإن لبسَ أحدُكم ثوباً مصقولاً أو ظهراً من محررات الخام خرجَ الناس عليكم وقالوا : هـٰذا ما هو لباسُ الفقراء ، فيرجعون عن طلب أخذِ العهد عليه ، فيقول : أعجبني صدقُكم في دعوى الكذب .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٣٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٧٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٧٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٥٨) (٣٨٨) .

ولما جاءه سيدي إبراهيم المواهبي يطلبُ التربيةَ قال له : تربية بيتية وإلا سوقية ؟ قال : يا سيدي ؛ ما معنىٰ ذلك ؟ قال : أمَّا التربيةُ السوقية : فأعلِّمُك بها كلماتٍ هذيانات ؛ ككلام الموسطين في الفناء والبقاء وأحوال القوم ، وآذنُ لك بالجلوس علىٰ سجادةٍ ، وتصيرُ تأخذ كلاماً وتُعطي كلاماً . وأمَّا التربية البيتية : فتُشارك جميعَ أهلِ البلاء في سائرِ أقطارِ الأرض في بلائهم ، ويُقال فيك ما قيل فيهم من البُهتان والزور ، وتصبرُ كما صبرَ من سبقك من أُولي العزمِ من الأولياء ، ولا كلام ، ولا سجادة .

ولما أَجَّجُوا النارَ علىٰ سيدي إبراهيمَ المواهبيِّ رضي الله عنه في تقريره ، في قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] وعقدوا له مجلساً في الجامع الأزهر . . جاء سيدي محمدٌ المغربيُّ رضي الله عنه وهم في أثناءِ الكلام ، فسكتوا كلُّهم ، فقال : تكلَّموا حتىٰ أتكلَّمَ معكم ، فلم يتجرَّأْ أحدٌ أن ينطقَ ، فقال الشيخ : نحن أحقُّ بتنزيه الحقِّ منكم معاشر الفقهاء ، ومَنْ طلبَ إيضاحَ ذلك فليبرزْ إليَّ أَتكلَّم معه ، فسكتوا ، فأخذ بيدِ إبراهيم رضي الله عنه ، وقامَ معه ، فلم يتبعْهما أحدٌ .

وكان الذي تولَّىٰ جمعَ الناس وشنَّ الغارة عليه . . العلائيُّ الحنفي ، وقال : هـٰذا يتكلَّمُ في الماهية ، وذلك لا يجوزُ ، ثم إنَّ الفقهاءَ لحقوا سيدي محمداً يترضَّون خاطرَهُ ، فقال لهم : الطريقُ ما هي كلام كطريقكم ، إنَّما هي طريق ذوقٍ ، فمن أراد منكم الذوقَ فليأتِ أُخلِّيه ، وأجوِّعْه حتىٰ أقطعَ قلبَه ، وأرقِّيه حتىٰ يذوقَ ، وإلا فليكفَّ عن هـٰذه الطائفة ؛ فإنَّ لحومَهم سُمٌّ قاتل .

وكان رضي الله عنه يقول : (**السالكون ثلاثةٌ** : جلاليٌّ ، وهو إلى الشريعة أميل ، وجماليٌّ وهو إلى الحقيقة أميل ، وكماليٌّ جامعٌ لهما علىٰ حدٍّ سواء ، وهو منهما أكمل وأفضل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (حدُّ الصفات مشتملٌ على النفي والإثبات ، علىٰ حدِّ كلمتي الشهادتين سواء ، فإنْ نظرتَ إليها من حيث عدم تعلق الذات بها ، وهو طرفُ النفيِّ . . قلتَ : ليست هي هو كـ (لا إلـٰه) ، وإنْ نظرتَ إليها من حيث تعلُّقُها بالذات ، وهو طرفُ الإثبات . . قلتَ : ولا غيره كـ (إلا الله) ، فلا يجوزُ الوقفُ عند قوله (ليست هي هو) كما لا يجوزُ الوقفُ عند قوله : (لا إلـٰه) حذراً في الأول من

إثبات الغيرية المحضة لصفاتِ الله تعالىٰ ، وفي الثاني حذراً من النفي المحض لذاتِ الله تعالىٰ ، هـٰذا حكمُ كلِّ كلامٍ متعدِّدِ اللفظ متَّحدِ المعنىٰ ؛ وذلك : أنَّ الكلماتِ المنطبقة علىٰ معنىً واحدٍ مرتبطٌ بعضُها ببعض ؛ كقولهم : (ليست هي هو ، ولا غيره) ، فلا يجوز التكلُّمُ عن بعضٍ منها دون بعضٍ ؛ لأنَّ ذلك مما يخلُّ بالمعنى الواحد من حيث إنه يتكلَّف لجزءِ الكلام معنىً آخر ، وهـٰذا مما يُفسدُ نظامَ الكلام ، ويحرفه عن سبيل الاستقامة) .

وكان يقول : (إنَّما أوجد العالم أجساماً وجواهرَ وأعراضاً نقيض ما هو موصوفٌ به ؛ ليُعلمنا بالفرقان بيننا وبينه ، وقد استوىٰ على العرش بقدمِهِ وبذاته ، وعلىٰ جميع الكون بعلمه وصفاته) .

قلت : وفي قوله : (وبذاته) نظر ؛ فإنَّ الذاتَ لا يصحُّ في حقِّها استواءٌ كما أجمعَ عليه المحقِّقون ، وإنما يُقال : استوىٰ تعالىٰ بصفةِ الرحمانية على العرشِ ، فرحمَ بذلك الاستواءِ جميعَ مَنْ تحت العرش ؛ إمَّا مُطلقاً وإمَّا رحمةً مغيَّاةً بغايةٍ ؛ كرحمةِ إمهالِ الكفار بالعقوبة في دار الدنيا ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول في معنىٰ قولِ حجة الإسلام : (ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان) : (أي : ليس في الإمكان أبدعُ حكمةً من هـٰذا العالم يحكمُ بها عقلنا ، بخلاف ما استأثرَ الله تعالىٰ بعلمه وبإدراكه وأبدعيته خاصة به ، فهو أكملُ وأبدعُ حسناً من هـٰذا العالم بالنسبة إليه تعالىٰ وحده ، فلو كان هـٰذا العالم يدخلُهُ نقصٌ لنقص كمال الوجود ، وهو كاملٌ بإجماعٍ ؛ لأنَّه لا يصدرُ عن الكاملِ إلا كاملٌ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ـ٤٨] ومعلومٌ : أنَّ الامتداحَ لا يكونُ إلا فيما هو غايةٌ ونهاية ، وإلا فكيف يمتدحُ الحقُّ تعالىٰ بمفضول ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من واجب حسناتِ الأبرار شهودُ الأغيار لترتيب العبادة والأحكام في هـٰذه الدار ، وإن كان ذلك من سيِّئات المقرَّبين الذين استغرقتهم الأنوارُ ، واستهلك عندهم السِّوىٰ كما استُهلك الليل في النهار) .

وكان يقول : (اطلبْ طريقَ ساداتك وإنْ قلُّوا ، وإيَّاك وطريقَ غيرهم وإن جلُّوا ،

وكفىٰ شرفاً بعلمِ القوم قولُ موسىٰ عليه الصلاة والسلام للخضر عليه السلام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] قال : وهـٰذا أعظمُ دليلٍ علىٰ وجوبِ طلب علمِ الحقيقة كما يجبُ طلبُ علمِ الشريعة) .

وكان يقول : (ابنُ الشريعة ناظرٌ بعين الحكم الظاهر ونسبةِ فعل الخلق إليهم ؛ لتوجُّه الخطاب ، وترتُّب الأحكام عليهم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] وابنُ الحقيقة ناظرٌ بعين الحكمة الباطنة ونسبةِ الفعلِ إلى الحقِّ ؛ لأنه الفاعل المختار حقيقةً ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨] فإذا كان أدبُ الشريعة مبنيّاً علىٰ شهودِ الخلق في شهود الحقِّ ، وأدبُ الحقيقة مبنيّاً علىٰ فناءِ الخلقِ في شهود الحقِّ وتباين الأمران . . تعيَّنَ إظهارُ الأمرِ الظاهر وتحتَّمَ إبطانُ الأمر الباطن ؛ خشيةَ المعارضة والتعطيل ، هـٰذا سببُ عدم بناء الحكم في الظاهر على الحكمةِ الباطنة ؛ إذ لو ترتَّبَ عليها حكمٌ لتعذَّرَ علىٰ غالبِ الناس الجمعُ بينهما ، وأفضىٰ بنا الحرجُ والتشديد إلىٰ شقاقٍ بعيد) .

وكان رضي الله عنه يقول في قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه : [من الطويل]

وألسنـةُ الأكـوانِ إنْ كنـتَ واعيـاً شهـودٌ بتـوحيـدي بحـالٍ فصيحـةِ

(يُريد بقوله : « شهودٌ بتوحيدي » : كل العالم ؛ أي : التوحيدُ القهري الحالي المُدخلُ للطائع والكافر والفاجر في حكم العبادة بالحال ، وقوله : « بحال فصيحة » : أخرجَ التوحيدَ بالقال ، فلم يتعرَّض له ولا لأهلِهِ ؛ لأنَّه مخصوصٌ بالمؤمنين دون الكافرين ، وليس هو المقصودَ الأعظمَ في الآية المقتبس منها البيت ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤] فـ : ﴿ شَىْءٍ ﴾ نكرة ، وهي في سياق النفي تعمُّ كلَّ شيءٍ من موحِّدٍ وجاحد ، وحيوانٍ وجماد ، فكأنَّ الحقَّ تعالىٰ يقول : كلُّ شيءٍ يُوحِّدني ويعبدني بباطنه ، وإن اختلفَ أمرُ باطنه)(١) .

قال : وقوله : [من الطويل]

وإنْ عبدَ النَّارَ المجوسُ وما انطفتْ كما جاءَ في الأخبارِ في كلِّ حجة

---

(١) في (و) : (وإن اختلف أمر باطنه وظاهره) .

فما عبدَوا غيري وما كانَ قصدُهمْ سوايَ وإنْ لمْ يُضمرُوا عقدَ نيَّتِي

فهـٰذا هو التوحيدُ الحالي العام[1] المُشار إليه في الآية بقوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء : ٤٤] أي : هـٰذا التوحيدُ الباطن ، فتفطَّنوا له إن كُنتم فقهاء ؛ فإنه محتاجٌ إلى الفهمِ ، وهو موضعُ العلم الباطن الربَّاني ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ رحمَ الأمَّةَ ورفعَ عنهم الحرجَ لوجَّه إليهم العذاب والنقمة ؛ لعدم فهمهم هـٰذا التوحيد : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء : ٤٤] ومِنْ شواهدِ توحيدِ الحال هـٰذه الظلالُ في قوله : ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ [الرعد : ١٥] فكلُّ الوجودِ وجِدَ دليلاً علىٰ مُوجده ، فلا يكونُ بعضُه غيرَ دليلٍ حتى المخالف ـ بدلالةِ وجوده ومخالفته ـ عابد راكع ساجد شاء أم أبىٰ ، فالقول : بأنَّ كلَّ جاحدٍ في الظاهر هو موحِّدٌ في الباطن جائزٌ بين قومٍ يفهمون كلامَ الله ومواضعَ إشاراته ، لا الذين يكذِّبون بما لم يُحيطوا به من أسراره وبيناته ، ولـٰكنَّ هـٰذا التوحيد لا ينفعُ الكفَّارَ ، بشاهد حديثِ القبضتين[2] ، وحديثِ الفراغ وجفوفِ الأقلام ، فلو كان ينفعُهم هـٰذا التوحيدُ الحالي لما دخلَ أحدٌ منهم النارَ . فافهم .

وكان رضي الله عنه يقول أيضاً في قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه : [من الطويل]

ولوْ خطرتْ ليْ في سِواكَ إرادةٌ علىٰ خاطرِي سهواً قضيتُ بردَّتي

(مرادُه الردَّة النسبية لا الدينية ؛ لأنَّ الرجوع والنزول من مقام المقرَّبين إلىٰ حسناتِ الأبرار التي هي سيِّئات المقرَّبين ردَّةٌ عند القوم ؛ وذلك أنَّ من لازمَ حسناتِ الأبرار شهود الأغيار المعارض للفناء ، ويُسمَّى الشرك الأصغر) .

وكان رضي الله عنه يقول في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة : (المرادُ برؤيته كذلك يقظةُ القلب ، لا يقظة الحواس الجسمانية ؛ لأنَّ من بالغَ في كمال الاستعداد والتقرُّب صار محبوباً للحقِّ ، وإذا أحبَّه كان نومُهُ من كثرة اليقظةِ القلبية كحالِ اليقظةِ

(١) في (و) : (الباطني) ، وفي هامشها : (نسخة : الحالي) .

(٢) حديث القبضتين رواه الإمام أحمد في « مسنده » (٤/١٧٦) وهو : « إنَّ اللهَ قبضَ قبضةً بيمينهِ وقالَ : هـٰذهِ لهـٰذهِ ولا أبالي ، وقبضَ قبضةً أخرىٰ بيدِهِ الأخرىٰ ، فقالَ : هـٰذهِ لهـٰذهِ ولا أبالي » عن سيدنا أبي نصرة رضي الله عنه .

التي لغيره ، وحينئذ لا يرىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلا بروحه المتشكِّلة بتشكُّلِ الأشباح من غير انتقالٍ بانتقالِ ذاته الشريفة ، ومجيئها من البرزخ إلىٰ مكانِ هـٰذا الرائي ؛ لكرامتها وتنزيهها عن كلفة المجيء والرواحُ ، هـٰذا هو الحقُّ الصراح) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّما جُعل قتلُ الكلب المُعْلَّم للصيد ذكاةً ؛ لائتماره بأمرِ سيده ، وانتهائه بزجره ، فهو كالمديةِ بيد مولاه ، ولو كان مع نفسِه وهواه لحرمَ أكلُ صيده ، والله أعلم) .

هـٰذا ما رأيتُهُ في « الرسالة » المنسوبة إليه بين أصحابه .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا أرادَ الله سبحانه وتعالى أن يسلبَ إيمانَ عبدٍ عند الموت سلَّطه علىٰ وليٍّ يؤذيه) .

وكان رضي الله عنه يُنفق نفقةَ الملوك من كيسٍ صغير في عمامته ، ويوفي منه الديونَ عن أصحابه وعن المحتاجين .

وكان رحمةً بين العباد .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وعشر وتسع مئة[1] ، **ودُفِنَ بالقَرَافة** ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٣) سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه[2]

كان رضي الله عنه من الزهَّاد العبَّاد ، وما كنتُ أُمثِّلُه وأحوالَه إلا بطاوس اليماني وسفيان الثوري ، وما رأيتُ في عصرنا مثلَهُ .

وكان مشايخُ العصرِ إذا حضروا عنده صاروا كالأطفال في حِجر مربِّيهم .

وكان علىٰ قدمٍ في العبادة والصيام وقيام الليل من حين البلوغ .

---

(١) في (د ، و ، ح) : (عشرين) : بدل (وعشر) ، وفي « الكواكب السائرة » ، و« طبقات المناوي » : (سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٣٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٣٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٦٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ١٦٢) (٣٩٠) ، واسمه : محمد بن حسن الشهير بابن عَنان .

وكان يُضربُ به المثل في قيام الليل ، وفي العفَّةِ والصيانة .

ولمَّا بلغَ خبرُه إلىٰ سيدي الشيخ كمال الدين إمام جامع الكاملية سافرَ إلىٰ بلاد الشرقية بقصد رؤيته فقط ، فلمَّا اجتمع به أعجبَهُ عجباً شديداً ، فأخذ عليه العهدَ ، وسافر به إلىٰ سيدي أبي العباس الغَمْري بالمحلَّة ، فآخىٰ بينه وبينه .

وكان رضي الله عنه له **كراماتٌ عظيمة ؛ منها** : أنه أطعمَ نحو خمس مئة نَفْسٍ من ستَّةِ أقداح دقيق حتىٰ شبعوا .

وذلك أن فقراءَ بلاده اجتمعوا هٰذا العدد ، وطلعوا بلدَهُ علىٰ غفلةٍ ، وكان قد عجنَ طحينه على العادةِ أوَّلَ ما خطَّ عارضُه ، فقال لوالدته : خذي هٰذه الفوطة وغطِّي بها القصعة وقرِّصي ، فقطعتْ منها الخبزَ حتىٰ ملأتِ البيتَ وحُجيرةَ البيت ونصفَ الدار ، فقال لها : اكشفي القصعةَ يكفي ، فكشفَتْها فلم تجدْ فيها شيئاً من العجين ، فقال : وعزَّةِ ربِّي ؛ لو شئتُ لملأتُ البلدَ كلَّها خبزاً من هٰذا العجين بعون الله تعالىٰ .

ومنها : أنَّ شخصاً كان زَمِناً في جامع الإسكندرية ، وكان كلُّ من تشوَّشَ منه يقول : يا قمل ؛ اذهبْ إلىٰ فلان ، فتمتلئ ثيابُ ذلك الشخص قملاً حتىٰ يكادُ يهلك ، فبلغ سيدي محمداً رضي الله عنه ذلك وهو في زيارةِ كوم الأفراح ، فقال : اجمعوني علىٰ هٰذا الشخص ، فجمعوه عليه ، فقال له : أنتَ ما عرفتَ من طريق الله إلا القمل ؟! ثم أخذه بيده ورماه في الهواء ، فغاب عن أعين الناس من ذلك اليوم ، فلم يَعرفْ أحدٌ أين رماه الشيخ .

وحكىٰ لي الشيخُ عليُّ الإثميدي[1] فقيهُ الفقراء عنده : أن سيدي محمداً رضي الله عنه أرسلَ النقيبَ من برهمتوش[2] إلىٰ سيدي أبي العباس الغَمْري في المحَلَّة بعد العشاء ، وقال : لا تخلِّ الصبحَ يؤذِّن إلا وأنت عندي ، فمضىٰ أبو شبل ورجع ، فقال له الشيخُ : عدَّيتَ من أيِّ المعادي ؟ فقال : يا سيدي ، ما درتُ بالي للبحر ،

---

(١) في (د ، ح) (الإتميدي) ، وفي (ط) : (الإثمدي) .

(٢) برهمتوش : من أعمال الشرقية في مركز هيا ، وتعرف اليوم بكفر الغنامية . « قاموس رمزي » (٢/١/١٥٤) .

ولا علمتُ به ، فقال الشيخُ سرّاً لأصحابه : طُوي البحرُ بهمَّته وعزمه ، فلم يجدْه في طريقه .

ومنها : ما أخبرني به سيدي الشيخ العالم العاملُ المحدِّث الشيخ أمين الدين إمامُ الغمري قال : كنتُ في سفرٍ مع سيدي أبي العباس الغَمْري وسيدي محمد بن عنان ، فاشتدَّ الحرُّ علينا ، ونزل الشيخان ، وجلسا بين حمارتين ، ونشرا عليهما بردةً من الحرِّ ، فعطش سيدي أبو العباس الغمري رضي الله عنه ، فلم يجدْ ماءً ، فأخذ سيدي محمد رضي الله عنه طاسةً وغرفَ بها ماءً من الأرض ، وقدَّمه لسيدي أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه ، فلم يشربْهُ ، وقال : يا شيخ محمد ، الظهورُ يقطعُ الظُّهور ، فقال : وعزَّةِ ربي ؛ لولا خوف الظهور لتركتها عيناً يشربُ الناسُ والدواب منها إلىٰ يوم القيامة ، وكان ذلك ببلاد الشرقيةِ بنواحي [صَنْضَفْط][1] ، هـٰذه حكايةُ الشيخ أمين الدين رضي الله عنه بلفظِه ، وكان من الصادقين .

وحكىٰ لي الشيخ بدرُ الدين المشتولي رحمه الله قال : سمعتُ سيدي عبدَ القادر الدَّشْطوطي رضي الله عنه يقول : (إنَّ الشيخ محمد بنَ عنان رضي الله عنه يعرفُ السماءَ طاقةً طاقة) .

وأخبرني سيدي الشيخ شمسُ الدين الطُّنيخي رحمه الله تعالىٰ صهرُ سيدي محمد بنِ عنان أنَّ شخصاً أَكولاً نزلَ مع الشيخ محمد رضي الله عنه وهم في مركبٍ مسافرين نحو دمياط ، فأخبروا سيدي محمداً رضي الله عنه أنَّه أكلَ تلك الليلة في المركب فردَ سمكٍ فسيخ ، ونحو قفَّةِ تمرٍ ، فدعاه سيدي محمد رضي الله عنه وقال له : اجلسْ ، وقسَّمَ له رغيفاً نصفين ، وقال : كلْ وقلْ : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فشبع من نصفِ الرغيف ، ثم لم تزلْ تلك أكلتَهُ لم يزدْ علىٰ نصفِ الرغيف حتىٰ مات ، فجاءَ أهلُه وقالوا للشيخ : جزاك الله عنَّا خيراً خفَّفتَ عنَّا .

وأخبرني سيدي الشيخ أمينُ الدين رحمه الله تعالىٰ إمامُ جامع الغَمْري أيضاً : أنَّ

---

(١) صَنْضَفْط : قرية قديمة ، اسمها الأصلي : سنفسط ، من أعمال جزيرة بني نصر من مركز منوف . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ٢٢٠) ، وقد اختلفت النسخ في ضبطها ؛ ففي (أ ، ح) : (ضنضبط) ، وفي (ب ، د) : (ضنضيط) ، وفي (ج ، و ، هـ) : (صنضيط) .

شخصاً في مقبرةِ برهمتوش كان يصيحُ في القبرِ كلَّ ليلةٍ من المغرب إلى الصباح ، فأخبروا سيدي محمداً رضي الله عنه بخبره ، فمشىٰ إلى المقبرةِ ، وقرأ سورةَ تبارك ، ودعا الله تعالىٰ أن يغفرَ له ، فمن تلك الليلة ما سَمعَ له أحدٌ صياحاً ، فقال الناس : شفع فيه الشيخ .

وكان رضي الله عنه وقتُهُ مضبوطاً ، لا يتفرَّغُ قطُّ لكلامِ لغوٍ ، ولا لشيءٍ من أخبار الناس ، ويقول : كلُّ نَفَسٍ مقوَّمٌ عليَّ بسنةٍ .

وكان يتهيَّأُ لتوجُّه الليل من العصر ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُخاطبه إلىٰ أن يُصلِّي الوترَ ، فإذا صلَّىٰ قامَ للتهجُّد ، لا يستطيع أحدٌ أن يُكلِّمَه حتىٰ يضحى النهار ، وكان هـٰذا دأبَهُ ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً .

وكنا ونحن شبابٌ في ليالي الشتاء نحفظُ ألواحنا ، ونكتبُ في الليل ، ونقرأ ماضينا ، وهو واقفٌ يُصلِّي علىٰ سطحِ جامع الغمري ، ثم ننامُ ونقومُ فنجده قائماً يصلِّي وهو متلفِّعٌ بحرامه ، فنقول : هـٰذا الشيخُ لا يكلُّ ولا يتعب ، هـٰذا والناسُ من شدَّة البردِ تحت اللحف لا يَستطيعون خروجَ شيءٍ من أعضائهم .

وسمعت سيدي محمداً السروي شيخَ الشِّناوي يقول : (ما رأتْ عيني أعبدَ من ابنِ عنان) .

وكان رضي الله عنه يحبُّ الإقامةَ في الأسطحة ، وكلُّ جامعٍ أقامَ فيه عملَ له فوقَ سطوحِهِ خصّاً ، وتارةً خيمة .

وأخبرني أنَّه أقامَ في بدءِ أمره ثلاثَ سنين على سطحِ جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وكان لا ينزلُ إلا وقتَ صلاةِ الجمعة ، أو وقتَ حضورِ درسِ الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي يحيى المُناوي ؛ فإنَّه كان من أهل علمي الفقه والتصوف .

وكذلك كان يحضره جماعةٌ من الأولياء ؛ كسيدي محمد السَّروي رضي الله عنه ، وسيدي محمد ابنِ أخت سيدي مَدْين رضي الله عنه ، وأضرابهما .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (سخَّرَ اللهُ تعالىٰ لي الدنيا مُدَّةَ إقامتي في جامع عمرو، فكانت تأتيني كلَّ ليلةٍ بإناءٍ فيه طعامٌ ورغيفين ، وما خاطبتُها قطُّ ولا خاطبتني ، ولـٰكن كنتُ أَعرفُ أنها الدنيا) .

وسمعتُه يقول : (حفظتُ القرآن وأنا رجلٌ ، فحفظتُ أولاً النصفَ الأول على الفقيه ناصر الدين الأخطابي ، ثم النصفَ الثاني علىٰ أخي الشيخ عبد القادر) .

وكان رضي الله عنه إذا نزلَ في مكانٍ فكأن الشمسَ حلَّت في ذلك المكان ، لا أكادُ أشهدُ غيرَ ذلك ، هـٰذا وأنا صغير لا أُفصحُ عن مقامات الرجال ، ووالله ؛ إنه ليقعُ لي في الليلة الباردة أنَّني أقوم وأنا كسلان عن الوضوء والصلاة فلا أجدُ أحداً في ذهني حالُهُ يُنشِّطُني غيره ؛ فإني أَعرضُ هـٰذا الحال وأقول في نفسي : لو قام الشيخ محمد رضي الله عنه في مثل هـٰذه الليلة هل كان يرجعُ إلى النوم بغير وضوءٍ ، وصلاة ؟! فيزول عني الكسلُ بمجرَّدِ ذكر حاله ، رضي الله عنه .

ولقد سمعتُه رضي الله عنه يقول : (من منذ وعيتُ علىٰ نفسي لا أقدرُ علىٰ جلوسي بلا طهارة قطُّ ، ولقد كانت تُصيبني الجنابةُ في الليالي الباردة فلا أجدُ ماءً للغُسل إلا بِركةً كانت علىٰ باب دارنا في ليالي الشتاء ، فكنتُ أنزلُ فيها وعلىٰ وجهها الثلجُ ، فأفرِّقُه يميناً وشمالاً ، ثم أغطسُ ، فأجد الماءَ من الهمَّة كأنَّه مسخَّنٌ بالنار) .

ووالله ؛ لقد رأيتُه بعيني يَستنجي في الخلاء ، فيبطئُ عليه ماءُ الوضوء ، فيضربُ يدَهُ على الحائط ويتيمَّمُ حتىٰ يجدَ الماء ، ولا يجلسُ علىٰ غيرِ طهارةٍ لحظةً .

وكان يقول : (مجالسةُ الأكابر تحتاجُ إلىٰ دوام الطهارة) .

وأردتُ ليلةً من الليالي أَمدُّ رجلي للنوم ، فكلُّ ناحيةٍ أردتُ أن أمدَّ رجلي فيها أجدها في ناحية وليٍّ من أولياء الله تعالىٰ ، فأردتُ أن أمدَّها إلىٰ ناحية سيدي محمد رضي الله عنه بباب البحر فوجدتُها تجاه قبره ، فنمتُ جالساً ، فجاءني ومسكَ رجلي ومدَّها ناحيته ، وقال : مدَّ رجلك ناحيتي ، البساطُ أحمديٌّ ، فقمتُ ونعومةُ يده في رجلي ، رضي الله عنه .

وكان يتكدَّرُ ممن يضعُ بين يديه شيئاً من الدنيا ليفرِّقَه على الفقراء ، ويقول : ما وجدتَ أحداً يفرِّقُ وسخك في البلد غيري ؟! .

وأخبرني الشيخ عبد الدائم ولدُ أخيه ، قال : بعتُ مركب قُلْقَاس من زرع عمِّي ، وجئتُه من ثمنها بأربعين ديناراً ، ووضعتها بين يديه بكرةَ النهار ، فصاح فيَّ وقال : الله

لا يصبِّحُك بخيرٍ ، تُصبِّحُنا بالدنيا ؟! فرفعتها من بين يديه وأنا خجلان .

وكان رضي الله عنه إذا دعاه مَنْ في طعامِهِ شبهةٌ يُجيبه ، ولـٰكنْ يأخذُ في كمِّه رغيفاً يأكلُه علىٰ سفرةِ ذلك الرجل مسارقةً من غير أن يلحظَ أحدٌ به ، هـٰكذا رأيتُهُ ، وكان حاضراً الشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ محمد العدل ، فأرادا أن يفعلا مثلَ فعله ، فقال : كلا أنتما ، لا حرجَ عليكما .

ولمَّا طلبَ السلطان الغوريُّ الشريفَ بركات سلطانَ الحجاز ، ورأىٰ منه الغدرَ . . جاء إلىٰ سيدي محمد رضي الله عنه بعد صلاةِ العصر ونحن جلوسٌ بين يديه ، فقام له الشيخ واعتنقه ، وقال له الشريفُ : أُريد أهرب هـٰذا الوقت ، وخاطرُك معي ، لا يلحقُ بي الغوريُّ حتىٰ أتخلَّصَ من هـٰذه البلاد ؛ فإنَّ النوقَ تنتظرني في نواحي بركة الحاج ، فدخل سيدي محمد رضي الله عنه الخلوةَ ، فانتظره الشريفُ فلم يخرج ، والوقتُ ضاقَ ، فقال لي وللشيخِ حسنٍ الحديدي خادمِه : استعجلا لي الشيخ ، ففتحنا باب الخلوة فلم نجدِ الشيخَ فيها ، فرددنا البابَ ، فبعد ساعةٍ خرج وعيناه كالدم الأحمر ، فقال : اركب يا شريف ، لا أحد يلحقُك ، فما شَعَرَ الغوريُّ به إلا بعد يومين ، فتخلَّص إلىٰ بلاد الحجاز ، فأرسلَ في طلبه ، فلم يلحقوه .

وسمعت سيدي علياً الخوَّاص رضي الله عنه يقول : أنا ما عرفتُ الشيخَ محمد بنَ عنان إلا من سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، كنت وأنا عنده أبيع الجُمَّيز في غيطِهِ في بركة الحاج أسمعُه يقول : وعزَّةِ ربِّي ؛ لتتوزَّعنَّ حملتي بعد موتي علىٰ سبعين رجلاً ويعجزون ، فقال له الشيخ يوسفُ الكردي رحمه الله تعالىٰ : يا سيدي ؛ مَنْ يأخذُ خدامةَ الحُجرة النبوية بعدَكم ؟ فقال له : شخصٌ يقال له : محمد بن عنان ، سيظهر في بلاد الشرقية .

وكان رضي الله عنه يقول : الفقيرُ ما رأسُ ماله في هـٰذه الدار إلا قلبه ، فليس له أن يُدخلَ علىٰ قلبه من أمورِ الدنيا شيئاً يُكدِّرُهُ ، ووالله ؛ لقد رأيتُه وهو في جامع المقسم بباب البحر أوائل مجيئه من بلاد الريف جاءه شخصٌ ، وقال له : يا سيدي ؛ إنَّ جماعةً يقولون : هـٰذه الخلاوي التي فيها الفقراء لنا ، وكان ذلك يوم الوقت ، فخرجَ وأمرَ بنقل دُسوتِ الطعام إلى الساحة التي بجوار سيدي محمد الجبروني رضي الله عنه ،

وكمل طبخ الطعام هناك ، وقال : الفقيرُ رأسُ ماله قلبُهُ .

وأخبرني سيدي الشيخ شمسُ الدين اللقَّاني المالكي رحمه الله تعالىٰ قال : دخلتُ علىٰ سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه يوماً وأنا في ألمٍ شديدٍ من حيث الوسواس في الوضوء والصلاة ، فشكوتُ ذلك إليه ، فقال : عهدنا بالمالكيةِ لا يَتوسوسون في الطهارةِ ولا غيرها ، فلم يبق عندي بمجرَّدِ قوله ذلك شيءٌ من الوسواس ببركته .

وكان رضي الله عنه لا يُعجبُه أحدٌ يصلحُ للطريق في زمانه ، ويقول : هٰؤلاء يستهزئون بطريقِ الله ، ولم يلقِّنْ أحداً قطُّ الذكرَ غير الشيخ أحمد النجدي ، جاءه بالمصحف وقال : أقسمتُ عليك بصاحبِ هٰذا الكلام إلا ما لقَّنتني الذكرَ ، فغُشيَ على الشيخ رضي الله عنه من قسمه عليه بالله عز وجل ، ثم لقَّنه وقال : يا ولدي ؛ الطريقُ ما هي بهٰذا ، إنَّما هي باتِّباع الكتاب والسنة .

وجاءه مرةً شخصٌ لابسٌ زِيَّ الفقراء ، فقال : يا سيدي ؛ كم تنقسمُ الخواطر ؟ فقطب الشيخ وجهه ولم يلتفت إليه ، فلمَّا قامَ الرجلُ قال الشيخ : لا إلٰه إلا الله ، ما كنتُ أظنُّ أني أعيشُ إلىٰ زمانٍ تصيرُ الطريقُ إلى الله عز وجل فيه كلاماً من غيرِ عملٍ .

وكان مدَّةَ إقامته في مصر لا يكادُ يُصلِّي الجمعةَ مرَّتين في مكانٍ واحد ، بل تارةً في جامع عمرو ، وتارةً في جامع محمود ، وتارةً في جامع القرَّاء بالقَرَافة ، وحضرَتْهُ صلاةُ الجمعة مرَّةً بالقرب من الجامع الأزهر ، فقال : هٰذا مجمعُ الناس ، وأنا أستحي من دخولي فيه .

وكان رضي الله عنه يزورُ الفقراء الصادقين أحياءً وأمواتاً ، لا يتركُ زيارتَهم إلا من مرضٍ .

وكنتُ أنظرُهُ لم يزلْ يُدير السُّبحةَ وهو يقرأُ القرآن .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقير أن يغتسلَ عُرياناً ولو في خلوةٍ ، ويشدِّدُ في ذلك ويقول : (طريقُ الله ما بُنيتْ إلا على الأدب مع الله تعالىٰ ، وكلُّ من ترخَّصَ فيها لا يصلحُ لها) .

قال سيدي أبو العباس الحُرَيْثي : ورآني مرّةً أغتسلُ ، وفي وسطي فوطةٌ في الليل ، فعاب ذلك عليَّ وقال : بدنُ الفقيرِ كلُّه عورة ، لِمَ لا اغتسلتَ في قميص ؟!

وكان رضي الله عنه إذا حضرَ عند مريضٍ قد أشرفَ على الموت من شدَّةِ الضعف يحمل عنه ، فيقومُ المريضُ وينامُ الشيخُ رضي الله عنه مريضاً ما شاء الله ، ولعلَّها المدةُ التي كانتْ بقيتْ علىٰ ذلك المريض .

ووقع له ذلك مع سيدي أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه ، ومع سيدي علي البليلي[1] المغربي ، وكنتُ أنا حاضراً قصة سيدي علي رضي الله عنه ، وقامَ في الحالِ يتمشَّىٰ إلىٰ ميضأةِ الجامع الأزهر ، فتوضأ وجاءَ ، وَرَقَدَ الشيخ رضي الله عنه ، فتعجَّب الناس من ذلك .

ودُعي مرةً إلىٰ وليمةٍ ، فجاء إلىٰ باب الدار ، فقيل له : إنَّ سيِّدي عليّاً المرصفي رضي الله عنه هنا ، فرجع ولم يدخلْ ، فقال بعضُ الناس : إنَّه يكرهه ، وقال بعضُهم : الفقراء لهم أحوال ، فبلغ ذلك سيدي محمداً رضي الله عنه ، فقال : ليس بيني وبين الرجلِ شيءٌ ، وإنَّما كانت بينه وبين أخي الشيخ نورِ الدين الحسني وقفةٌ ، فحفظت حقَّ صاحبي بعد موته ؛ لكونِهِ متقدِّماً في الصحبة .

وكان لا يركبُ قطُّ إلىٰ مكانٍ في زيارةٍ أو غيرها إلا ويحملُ معه الخبزَ والدقة[2] ، ويقول : نعم الرفيقُ ، إنَّ الفقير إذا جاعَ وليس معه خبزٌ استشرفتْ نفسُه للطعام ، فإذا وجدَهُ أكله بعد استشراف النفس ، وقد نهى الشارعُ صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

وسمعته رضي الله عنه يقول : كلُّ فقيرٍ نامَ علىٰ طرَّاحةٍ فلا يجيءُ منه شيءٌ في الطريق ؛ لأنَّ من ينامُ على الطرَّاحةِ ما قصده قيام الليل الذي هو مطيَّةُ المؤمنين وبُراقُهم ، ثم يقول : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نامَ علىٰ عباءةٍ مثنيةٍ طاقين ، فنام عن وِردِهِ تلك الليلة ، فقال لعائشة : « ردِّيها إلىٰ حالِها الأولِ ؛ فإنَّ لينَها ووطاءَتَها مَنعتنِي قيامَ ليلتِي »[3] .

وأخبرني سيدي الشيخ أمين الدين إمامُ جامع الغَمْري رضي الله عنه قال : كان

---

(١) في النسخ : (البلبلي) ، والمثبت من ترجمته (٢/ ٤٢٣) ، ومصادرها .

(٢) **الدُّقَّة** : التوابل وما خلط به من الأبزار ، وقيل : هو الملح مع ما خُلط به من أبزاره . « تاج العروس » (د ق ق) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، ورواه مختصراً محمد بن نصر المروزي في « قيام الليل » (٣٦) .

شخصٌ من أربابِ الأحوال بناحية شان شلمون بالشرقية جالساً في البرِّية وقد حَلَّقَ على نفسه بزربِ شوكٍ ، وعنده داخلَ هٰذه الحلقةِ الحيَّاتُ والثعالب والثعابين والقطط والذئاب والخرفان والإوز والدجاج ، فزاره الشيخ محمد رضي الله عنه مرة ، فقال : أهلاً بالجُنيدي ، ثم زاره مرةً أُخرىٰ فقال : أهلاً بالجندي ، ثم زارهُ مرَّةً أخرىٰ فقال : مرحباً بالأمير ، ثم زاره مرةً أُخرىٰ فقال : أهلاً بالسلطان ، ثم زاره مرةً أخرىٰ فقال : مرحباً براعي الصهب ، فكانت تلك آخرَ تحيَّته له .

قلت : ومناقب الشيخ رضي الله عنه لا تُحصر ، والله أعلم .

ولمَّا حضرتْهُ الوفاة ، وماتَ نصفُهُ الأسفل حضرتْ صلاةُ العصر ، فأحرمَ جالساً خلفَ الإمام لا يَستطيعُ السجودَ ، ثم اضطجعَ والسُّبحةُ في يده يحرِّكُها ، فكانتْ آخر حركةٍ يده آخر حركةِ لسانه ، فوجدناه ميتاً ، فجرَّدتُهُ من ثيابه أنا والشيخ حسن الحديدي ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة عن مئةٍ وعشر سنين ، ودُفن بجامع المقسم بباب البحر ، وصلَّىٰ عليه الأئمةُ والسلطان طومان باي[1] ، وصارَ يكشفُ رجلَ الشيخ ويمرِّغُ خدودَه عليها ، وكان يوماً في مصر مشهوداً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٤) سيدي الشيخ أبو العباس الغَمْري الواسطي رضي الله عنه[2]

كان جبلاً راسياً ، وكنزاً مُطلسماً ، ذا هيبةٍ على الملوك فمَنْ دونَهم .

وكان له كراماتٌ كثيرةٌ يحفظها جماعتُهُ .

---

(١) **طومان باي** : أبو النصر ، الملقب بالملك الأشرف (٨٧٩ ـ ٩٢٣هـ) ، من ملوك الجراكسة بمصر ، لـما قُتل قانصوه الغوري بمرج دابق سنة (٩٢٢هـ) بويع بالخلافة ، فحشد الجيوش لمحاربة العثمانين ، وخاض معهم أكثر من معركة انتهت بشنقه علىٰ باب زويلة ، وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر ونصفاً . انظر « الأعلام » (٣/ ٢٣٣) .

(٢) هو أحمد بن محمد . انظر ترجمته « إنباء الغمر » (٩/ ٢٤٤) ضمن وفيات سنة (٨٤٩هـ) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٤١) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٤٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٢٤) ، و« بروكلمان » (٦/ ٥٨٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٦٠) (٣٨٩) .

منها : أنه وقعَ من جماعته صُرَّةٌ فيها فضةٌ أيام عباب البحر ، والمركبُ مُنحدرةٌ نواحي سمنود ، فلم يَشعروا بها إلا بعد أن انحدرتْ كذا كذا بلداً ، فأوقفَ الشيخُ رضي الله عنه المركبَ وقال : روحوا إلى المكان الفلاني ، وارموا الشبكةَ تجدوها ، ففعلوا ، فوجدوها .

ومنها : ما حكاه لي ولده سيدي أبو الحسن رضي الله عنه قال : كنتُ مع والدي ومعنا عمودُ رخامٍ علىٰ جَمَلَيْن ، فجئنا إلىٰ قنطرةٍ ضيِّقةٍ لا تسعُ سوىٰ جَمَلٍ واحد ، فساقَ الشيخُ رضي الله عنه الجَمَلَ الآخر ، فمشىٰ على الهواء بالعمود .

ومنها : أنه أرادَ أن يُعدي من مُنيةُ غَمْر إلىٰ زِفْتىٰ[1] ، فلم يجدِ المعدية ، فركب علىٰ ظهرِ تمساحٍ ، وعدَّىٰ عليه .

ومنها : ما أخبرني به الشيخ أمين الدين رضي الله عنه إمامُ جامع الغَمْري بمصر : أنَّهم لما أرادوا أن يُقيموا عُمُدَ الجامع بيَّتوا على الناس يساعدونهم ، فقامَ الشيخُ وحده في الليل ، فأقام صفَّيْنِ من العمد ، فأصبحوا ، فرؤوهم واقفين .

وأخبرني الشيخ حسنُ القرشيُّ رحمه الله قال : نزلَ عندنا سيدي أبو العباس يقطعُ جُمَّيزةً في ترعةٍ أيام الملق ، ومعه مركبٌ ، فقطعوا الجميزةَ وحملوها في المركب ، فغاصتْ في الوحل ، فقالوا : يا سيدي ؛ نحتاجُ إلىٰ مركبٍ أُخرىٰ نخفِّفُ الخشب فيها ، وكانتِ المراكبُ امتنعتْ من دخول بحرِ المحلَّة من قلَّةِ مائه ، فمكث الشيخُ رضي الله عنه إلى الفجر ، فبينما هو يُصلِّي إذ دخلتْ لنا مركبٌ وفيها شخصٌ نائم ، فنبَّهَه سيدي أبو العباس ، فقام ، فقال : من جاءَ بي إلىٰ ها هنا ؟! فإني كنتُ في ساحل ساقيةِ أبي شعرة في البحر الشرقي ! فقالوا له : جاءَ بك هـٰذا السَّبُعُ ، يعنون الشيخَ رضي الله عنه ، فحملوا الخشبَ في المركبين وساروا ، رضي الله عنه .

وكان سيدي الشيخ الصالح محمد العجمي رضي الله عنه كاتبُ الربعةَ العظيمة التي بجامعه بمصر يقول : واللهِ ؛ لو أدركَ الجُنيد رضي الله عنه سيدي أبا العباس رضي الله عنه لأخذَ عنه الطريق .

---

(١) منية غَمْر : شمالي مصر علىٰ فوهة النهر المؤدي إلىٰ دمياط ، ومقابلها : منيه زِفْتىٰ . « معجم البلدان » (٥/٢١٨) .

وكان رضي الله عنه لا يُمكِّنُ أحداً صغيراً قط يمزحُ مع كبير ، ورأىٰ مرَّةً صبيّاً يغمزُ رَجُلاً كبيراً ، فأخرجَهما من الجامع ، ورمىٰ حوائجهما .

وكان لا يُمكِّنُ أمردَ يؤذِّنُ في جامعه أبداً حتىٰ يلتحي .

وعمَّرَ رضي الله عنه نحو ثلاثين جامعاً بمصر وقراها .

وكان السُّلطان قايتباي يتمنَّىٰ لقاءه ، فلم يأذن له .

وجاءه مرَّةً ولدُهُ السُّلطانُ محمد الناصر علىٰ غفلةٍ يزوره ، فلما ولَّىٰ قال : أُخذنا علىٰ غفلةٍ .

وأحوالُهُ كثيرة مشهورة في بلاد الريف وغيرها .

وقد رأيتُه مرَّةً واحدةً حين نزلَ إلىٰ بلدنا ساقية أبي شعرة في حاجةٍ ، وعُمري ثمانِ سنين .

مات رضي الله عنه في صفر سنة خمسٍ وتسع مئة ، ودُفن بآخر باب الجامع بمصر المحروسة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٥) سيدي الشيخ نور الدين الحسني المديني رضي الله عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي محمد ابن أخت سيدي مَدْين .

كان رضي الله عنه من العارفين بالله عز وجل ، ورأيتُه وأنا صغير .

وأخذ عنه الشيخُ تاجُ الدين الذَّاكرُ بعد أن مات سيدي محمدُ ابنُ أخت سيدي مَدْيَن ، وكلاهما كان أخذ عنه .

وسمع يوماً شخصاً يبيعُ خشبَ الشيوخ التي تُسرِّحُ بها النساءُ الكتان وهو يقول : يا قفةَ شيوخ بنصف فضة ، فأخذَ منها معنىً وقال : قد رخصتِ الطريقُ ، فلم يلقِّنْ أحداً بعدها حتىٰ مات رضي الله عنه .

(١) ستَرِد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٧٢) (٣٩١) .

وكان رضي الله عنه مرصداً لقضاء حوائج الناس عند الأمراء والحكام .

وكان بينه وبين سيدي محمد بن عنان ودٌّ عظيمٌ ومؤاخاة رضي الله تعالى عنهما .

ومنهم :

(٣٤٦) شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه[1]

أحدُ أركان الطريقين ؛ الفقه والتصوف .

وقد خدمته عشرين سنة ، فما رأيتُهُ قطُّ في غفلةٍ ولا اشتغالٍ بما لا يعني ، لا ليلاً ولا نهاراً .

وكان رضي الله عنه مع كِبَرِ سنِّه يُصلِّي سننَ الفرائض قائماً ، ويقول : لا أُعوِّدُ نفسي الكسلَ .

وكان إذا جاءه شخص وطوَّلَ في الكلام يقول : بالعجل ، ضيَّعتَ علينا الزمن .

وكنتُ إذا أصلحتُ كلمةً في الكتاب الذي أقرؤه عليه أسمعُهُ يقول بخفضِ صوت : الله الله ، لا يفترُ حتىٰ أَفرغَ .

وكنت أتغدَّىٰ معه كلَّ يومٍ ، فكان لا يأكلُ إلا من خبز الخانقاه وقفِ سعيدِ السعداء[2] ، ويقول : واقفُها كان من الملوكِ الصالحين ، وأَوقفَ وقفَها بإذنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٣/ ٢٣٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٦٩) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٩٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٨٦) ، و« البدر الطالع » (٢/ ٢٥٢) ، و« النور السافر » (ص ١٢٠) ، و« الخطط التوفيقية » (١٢/ ٦٣) ، و« بروكلمان » (٦/ ٣٩٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٩٦) (٥١٤) و« ذيل الطبقات » (٥/ ٤٦) (٦) .

(٢) **خانقاه سعيد السعداء** : وقفها السلطان صلاح الدين بن أيوب ، وكانت داراً لسعيد السعداء قنبر ـ ويقال : عنبر ـ عتيق الخليفة المستنصر ، ولما استبد الناصر صلاح الدين بالأمر وقفها على الصوفية سنة (٥٦٩هـ) ، ورتب لهم كلَّ يومٍ طعاماً ولحماً وخبزاً ، وهي أول خانقاه عملت بمصر ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ . « حسن المحاضرة » (٢/ ٢٣٥) .

وصنَّفَ المصنَّفات الشائعةَ في أقطار الأرض .

ولازمتِ الناسُ قراءةَ كتبه لحسنِ نيَّتِهِ وإخلاصه .

ولمَّا قرأتُ « شرحَه علىٰ رسالة القشيري » في علم التصوف أشارَ عليَّ بحفظِ « الروض » ، وكنتُ حفظت « المنهاج » قبل ذلك ، فعرضتُهُ عليه ، وقلت : إنه كتابٌ كبير ! فقال : اشرعْ ، وتوكَّلْ ؛ فإن لكلِّ مجتهدٍ نصيباً ، فحفظتُ منه إلىٰ باب القضاء ، وحصلَ لي رميُ الدَّمِ من الحصر في الحفظ ، فأشارَ عليَّ بالوقوف .

وقرأت « شرحَه على الروض » إلىٰ باب الجهاد ، وقرأتُ عليه « تفسير القرآن العظيم للبيضاوي » مع « حاشيته » عليه ، و« حاشية الطيبي على الكشَّاف » ، و« حاشية السيد » ، و« حاشية الشيخ سعد الدِّين التَّفْتازاني » ، و« حاشية الشيخ جلال الدين السيوطي » إلىٰ سورة الأنبياء ، وقرأتُ عليه شرح « آداب البحث » له ، و« حاشيته علىٰ جمع الجوامع » ، وطالعتُ عليه حالَ تأليفه لـ « شرح البخاري » « فتح الباري » للحافظ ابن حجر ، و« شرح البخاري » للكرماني ، و« شرحه » للعيني الحنفي ، و« شرحه » للشيخ شهاب الدِّين القسطلاني علىٰ قدرِ كتابتي له في شرحه ، وخطِّي مُتميِّزٌ فيه ، وأظنُّه يُقاربُ النصف .

وكنتُ إذا جلستُ معه كأني جالستُ ملوكَ الأرض الصالحين العادلين .

وكان أكبرُ المفتين بمصر يصيرُ بين يديه كالطفل ، وكذلك الأمراءُ والأكابر .

وكان كثيرَ الكشفِ ، لا يخطرُ عندي خاطرٌ إلا ويقول : قل ما عندك ، ويبطل التأليف حتىٰ أفرغ .

وكنتُ إذا حصل عندي صداعٌ حال المطالعة له يقول : انوِ الشِّفاءَ بالعلم ، فأنويه ، فيذهبُ الصداعُ لوقته .

وقال لي مرَّةً : من صغري وأنا أحبُّ طريقَ القوم ، وكانَ أكثرُ اشتغالي بمطالعةِ كتبهم ، والنظرِ في أحوالهم ، حتىٰ كان الناسُ يقولون : هـٰذا لا يجيء منه شيءٌ في علم الشرع ، فلمَّا ألَّفتُ كتاب « شرح البهجة » ، وفرغتُ منه استبعدَ ذلك جماعةٌ من الأقران ، وكتبوا علىٰ نسخةٍ منه : (كتاب الأعمىٰ والبصير) تنكيتاً عليَّ ؛ لكونِ رفيقي

في الاشتغالِ كان ضريراً ، وكان تأليفي له إلىٰ أنْ كان فروغُهُ : في يوم الاثنين ويوم الخميس فقط ، فوق سطح جامع الأزهر ، وكان وقتي رائقاً ، وظاهري بحمد الله تعالىٰ محفوظاً .

وكنتُ مجابَ الدعوة ، لا أَدعو علىٰ أحدٍ إلا ويُستجابُ فيه الدعاء ، فأشارَ عليَّ بعضُ الأولياء بالتَّستُّرِ بالفقه ، وقال : استرِ الطريقَ ؛ فإنَّ هـٰذا ما هو زمانها ، فلم أكدْ أَتظاهرُ بشيءٍ من أحوال القوم إلىٰ وقتي هـٰذا .

وحكىٰ لي يوماً أمرَهُ من حين جاءَ إلىٰ مصر إلىٰ وقت تلك الحكاية ، وقال : أحكي لك أمري من ابتدائه إلى انتهائه إلىٰ وقتنا هـٰذا حتىٰ تحيطَ به علماً كأنَّك عاشرتني من أول عمري ؟! فقلت له : نعم .

فقال : (جئتُ من البلاد وأنا شابٌّ ، فلم أعكفِ علىٰ أحدٍ من الخلق ، ولم أعلِّقْ قلبي به ، وكنتُ أَجوعُ في الجامع كثيراً ، فأخرجُ بالليل إلىٰ قشرِ البِطيخ الذي كان بجانب الميضأة وغيرها ، فأغسلُه وآكلُه إلىٰ أن قيَّضَ اللهُ لي شخصاً كان يَشتغلُ في الطواحين ، فصار يتفقَّدني ويشتري لي ما أحتاجُ إليه من الكتب والكسوة ، ويقول : يا زكريا ؛ لا تسألْ أحداً في شيءٍ ، ومهما تطلبُ جئتك به ، فلم يزلْ كذلك سنين عديدةً ، فلمَّا كان ليلةٌ من الليالي والناسُ نيامٌ جاءني وقال لي : قمْ ، فقمت معه ، فوقفَ بي علىٰ سلَّمِ الوقاد الطويل ، وقال لي : اصعدْ هـٰذا ، فصعدتُ ، فقال لي : اصعدْ ، فصعدتُ إلىٰ آخره ، فقال لي : تعيش حتىٰ يموتَ جميعُ أقرانك ، وترتفعُ علىٰ كلِّ مَنْ في مصر من العلماء ، وتصيرُ طلبتُك شيوخَ الإسلام في حياتك حين يكفَّ بصرُك ، فقلت : فلا بدَّ لي من العمىٰ ؟ قال : ولا بدَّ لك ، ثم انقطعَ عني ، فلم أره من ذلك الوقت .

ثم تزايدَ عليَّ الحالُ إلىٰ أن عزمَ عليَّ السُّلطان بالقضاء ، فأبيتُ ، وقال : إن أردتَ نزلتُ ماشياً بين يديك أقودُ بغلتَكَ إلىٰ أن أُوصلك إلىٰ بيتك فتولَّيتُ ، وأعانني اللهُ على القيام به ، ولـٰكنْ أحسستُ من نفسي أني تأخَّرتُ عن مقام الرجال ، فشكوتُ إلىٰ بعض الرجالِ ، فقال : ما ثمَّ إلا تقديمٌ إن شاء الله تعالىٰ ، فإنَّ العبدَ إذا رأىٰ نفسَه متقدِّماً فهو متأخِّرٌ ، وإن رأىٰ نفسَه متأخِّراً فهو متقدِّمٌ ، فسكن روعي) .

وقال رضي الله عنه : (ما كان أحدٌ يَحملني كما يَحملني السُّلطان قايِتْباي ، كنتُ أحطُّ عليه في الخطبة حتىٰ أظن أنه ما عادَ قطُّ يكلِّمني ، فأولُ ما أَخرجُ من الصلاة يتلقَّاني ، ويُقبِّلُ يدي ، ويقول : جزاكَ اللهُ خيراً ، فلم تزلِ الحسدةُ بنا حتىٰ أوقعوا بيننا الوقعة ، فكان ماسكاً لي الأدبَ ، ما كلَّمني كلمةً تَسوءني قطُّ .

ولقد طلعتُ له مرَّةً ، فأغلظتُ عليه القول ، فاصفرَّ لونه ، فتقدَّمتُ إليه وقلت له : واللهِ ؛ يا مولانا ، إنما أفعلُ ذلك معك شفقةً عليك ، وسوف تشكرني عند ربِّك ، وإني واللهِ لا أحبُّ أن يكونَ جسمُك هـٰذا فحمةً من فحم النار ؛ فصار ينتفضُ كالطير) .

وكنتُ أقولُ له : أيُّها الملك ؛ تنبَّه لنفسك ، فقد كنتَ عدماً فصرتَ وجوداً ، وكنتَ رقيقاً فصرتَ حرّاً ، وكنتَ مأموراً فصرتَ أميراً ، وكنتَ أميراً فصرتَ ملكاً ، فلما صرتَ ملكاً تَجبَّرْتَ ، ونسيتَ مبدأك ومنتهاك . . . إلىٰ آخره .

وقال لي : كان أخي الشيخ عليُّ النبتيتي يجتمعُ بالخضرِ عليه السلام ، فباسطَهُ يوماً في الكلام ، فقال للخضر عليه السلام : ما تقولُ في الشيخ يحيى المُناوي ؟ فقال : لا بأس به ، فقال : ما تقول في فلان ؟ ما تقول في فلان ؟ ما تقول في الشيخ زكريا ؟ فقال : لا بأسَ به ، إلا أنَّ عنده نُفَيْسَةً .

فلما أرسلَ لي أخي الشيخُ عليٌّ الضريرُ بذلك ضاقتْ عليَّ نفسي ، وما عرفتُ الذي أشار إليه بالنُفَيْسَة ، فأرسلتُ إلىٰ سيدي عليٍّ النبتيتي الضرير ، فقلتُ له : إنِ اجتمعتَ بالخضر فاسألْهُ من فضلك علىٰ ما أشارَ إليه بالنُّفَيْسَة ، فلم يجتمعْ به مدَّةَ تسعة شهور ، فلما اجتمعَ به سأله ، فقال له : إذا أرسلَ تلميذَه أو قاصدَهُ إلىٰ أحدٍ من الأمراء يقول له : قال الشيخ زكريا : كيت وكيت ، فيلقِّبُ بالشيخ ، فلمَّا أرسلَ لي الشيخُ بذلك ، فكأنَّه حطَّ عن ظهري جبلاً ، وصرتُ أقولُ للقاصد إذا أرسلتُهُ إلىٰ أحدٍ من الأمراء والوزراء : قل للأمير أو الوزير : يقول لك زكريا خادم الفقراء : كذا وكذا .

وقال لي مرَّةً : كنتُ معتكفاً في العشرِ الأخير من رمضان فوق سطح الجامع الأزهر ، فجاءني رجلٌ تاجرٌ من الشام وقال لي : إنَّ بصري قد كُفَّ ، ودلَّني الناسُ

عليك ، تدعو اللهَ أن يردَّ عليَّ بصري ، وكان لي علامةٌ في إجابة دعائي ، فسألت الله أن يردَّ عليه بصرَهُ ، فأجابني ، لـٰكنْ بعد عشرة أيام ، فقلت له : الحاجةُ قُضيت ، ولـٰكن تُسافرُ من هـٰذا البلد ، فقال : ما هي أيام سفر ، فقلت له : إن أردتَ أن يردَّ اللهُ عليك بصرَك تسافرُ ؛ وذلك خوفاً أن يَردَّ عليه بصرَهُ في مصر فيهتكني بين الناس ، فسافر مع جمَّالٍ ، فردَّ اللهُ عليه بصرَهُ في غزَّة ، وأرسل لي كتاباً بخطِّه ، فأرسلتُ أقول له : متىٰ رجعتَ إلىٰ مصرَ كُفَّ بصرُك ، فلم يزل بالقدس إلىٰ أن مات بصيراً .

وكان رضي الله عنه إذا طلع القلعة للخطبة يلبس عمامةً لطيفةً نحو سبعةَ أذرعٍ والعَذَبَةُ منها ، فإذا رجع من الخطبة لبسَ عمامتَهُ العادية .

وقد ألبسني الخرقةَ ولقَّنني الذكرَ من طريق سيدي محمد الغَمْري ، وذكر لي أنه سافرَ إلى المحلَّةِ الكُبرىٰ ، فأخذَ عنه لبسَ الخرقة وتلقين الذكر ، وقرأ عليه كتابه المُسمىٰ بـ « قواعد الصوفية » كاملاً .

قال : (وكان أصحابُهُ يَفرحون بحضوري عنده ؛ لأجل سؤالي له لمعاني الكلام ؛ فإنَّهم كانوا لا يتهجَّمون عليه بالسؤال من هيبتِهِ[١] ؛ لأنَّه كان جليلَ القدر) .

وكان كثيرَ الصدقة ، ما أظنُّ أحداً كان في مصرَ أكثرَ صدقةً منه كما شاهدته منه ، ولـٰكن كان يُسرُّها بحيث لا يَعلمُ أحدٌ من الجالسين .

وجاءه مرَّةً رجلٌ أسمرُ ، وكان شريفاً من تربة قايِتْباي ، فقال له : يا سيدي ؛ خُطفتْ عِمامتي هـٰذه الليلة ، وكان حاضراً الشيخُ جمالُ الدين الصاني[٢] ، والشيخ أبو بكر الظاهري جابي الحرمين ، فأعطاه الشيخُ جديداً واحداً[٣] ، فرماه في وجه الشيخ ، وخرجَ غضبان منه ، فأَعلمتُ الشيخَ بذلك ، فقال : هو أعمى القلب ، الذي جاء بحضرةِ هـٰؤلاء الجماعة .

وكنتُ يوماً أُطالعُ له في « شرح البخاري » فقال لي : قفْ،اذكرْ لي ما رأيتَهُ في هـٰذه

(١) في (و، ز) : (لا يتجرؤون) بدل (يتهجمون) .
(٢) في (ب ، هـ) : (الضاني) ، وفي (ز) : (جمال الدين المعناوي) .
(٣) **الجديد** : قطعة نقدية .

الليلة ، وقد كنتُ رأيتُ أنَّني معه في مركبٍ قلعُها حرير ، وحبالُها حرير ، وفرشُها سُندسٌ أخضر ، وفيها أرائكُ ومتَّكآتٌ من حرير ، والإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه جالسٌ فيها ، والشيخُ زكريا عن يساره ، فقبَّلتُ يدَ الإمام الشافعي رضي الله عنه ، ولم تزلْ تلك المركبُ سائرةً بنا حتىٰ أرستْ علىٰ جزيرةٍ في كبد البحر الحلو ، وإذا فواكهُها مدلاةٌ في البحر ، فطلعتُ من المركب ، فوجدتُ بستاناً من الزعفران كلُّ نوَّارةٍ منه كالإسباطة العظيمة ، وفيه نساءٌ حسان يجنين منه .

فلما حكيتُ له ذلك قال : إن صحَّ منامُك يا فلان ، فأَنا أُدفنُ بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فلما ماتَ أرسلوا : هيِّئوا له قبراً في باب النصر ، فصار الشيخُ جمال الدين والشيخ أبو بكر الظاهري يقولان : ما صحَّ منامُك يا فلان ، فبينما نحن في ذلك وإذ بقاصدِ الأمير خير بك نائبِ السلطان بمصر يقول : إنَّ ملك الأمراء ضعيفٌ لا يستطيعُ الرُّكوبَ إلىٰ ها هنا ، وأمرَ أن تُركبوا الشيخَ علىٰ تابوتٍ ، وتحملوه للأمير ليُصلِّي عليه في سبيل المؤمنين بالرُّمَيْلة ، فحملوه وصلُّوا عليه ، فقال : ادفنوه بالقَرَافة ، فدفنوه عند الشيخ نجم الدين الخبوشاني تجاه وجهِ الإمام الشافعي ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ستٍّ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٣٤٧) الشيخ علي النَّبْتِيتي الضرير[١]

كان من أكابر العلماء العاملين والمشايخ المُكمَّلين .

وكانت مشكلاتُ المسائل ومعضلاتُها تُرسل إليه من الشام والحجاز واليمن وغيرها ، فيحلُّ مشكلاتها بعبارةٍ سهلة .

وكانت العلماءُ كلُّهم تُذعنُ له .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٢٣) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢١١) (وفيات سنة ٩٢٧هـ) ، و« الخطط التوفيقية » (١٧/ ١٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٧٢) (٥١٠) ، و« ذيل الطبقات » (٥/ ٢١) (٢) .

وكان مُقيماً ببلده نَبْتِيت بنواحي الخانقاه السرياقوسية[١] ، والخلق تقصدُهُ من سائر الأقطار .

وكان إذا جاء إلىٰ مصر تندلقُ عليه الناسُ يتبرَّكون به .

وقد اجتمعتُ به مرات عند شيخنا شيخِ الإسلام الشيخ زكريا في المدرسة الكاملية مرَّات ، وحصلَ لي منه لحظٌ وجدت بركتَهُ في نفسي إلىٰ وقتي هـٰذا .

وأسمعني حديثَ عائشةَ : فيمن أرضى الله بسخطِ الناس . . . إلىٰ آخره[٢] ، وقال لي : احفظْ هـٰذا الحديث ؛ فإنَّك سوف تُبتلىٰ بالناس .

وكان يجتمعُ بالخضر عليه السلام ، وذلك أدلُّ دليلٍ علىٰ ولايته ؛ فإنَّ الخضرَ لا يجتمعُ إلا بمن حقَّتْ له قدمُ الولاية المحمدية .

وسمعته يقول وهو بالمدرسة الكاملية : (لا يجتمعُ الخضرُ عليه السلام بشخصٍ إلا إن جُمعتْ فيه ثلاثُ خصال ، فإنْ لم تجتمع فيه فلا يجتمعُ به قطُّ ، ولو كان علىٰ عبادةِ الملائكة ، الخصلة الأولىٰ : أن يكونَ العبدُ علىٰ سُنةٍ في سائرِ أحواله ، والثانية : ألا يكونَ له حرصٌ على الدنيا ، والثالثة : أن يكون سليمَ الصدر لأهل الإسلام ، لا غلَّ ، ولا غشَّ ، ولا حسد) .

وحكىٰ لي عن الشيخ أبي عبد الله البُسْري[٣] أحدِ رجال « رسالة القشيري » : أنه كان يجتمعُ بالخضر عليه السلام ، ويقول : إنَّ الخضرَ لا يجتمعُ بأحدٍ إلا علىٰ وجه التعليم له ، فإنَّه غنيٌّ عن علمِ العلماء ، لما معه من العلمِ اللَّدُنِّي .

---

(١) نبتيت : مركز بلبيس ، من أعمال الشرقية بمصر .

(٢) روى الترمذي (٢٤١٤) عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما : أنه كتب إلىٰ عائشة : أن اكتبي إليَّ كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري عليَّ ، فكتبت : السلام عليك ، أما بعد ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنِ التمسَ رضاء اللهِ بسخطِ الناسِ كفاهُ اللهُ مؤنةَ الناسِ ، ومنِ التمسَ رضاء الناسِ بسخطِ اللهِ وكَلَهُ اللهُ إلى الناسِ » ، والسلام عليك .

(٣) كذا في النسخ : (أبو عبد الله) ، والمعروف كما في « الرسالة القشيرية » (ص ١٧١) أنه يكنىٰ : بأبي عُبَيْدٍ .

وقد بلغني : أنَّ الشيخ عبدَ الرزاق الترابي أحدَ تلامذته جمعَ مناقبَه نظماً ونثراً ، فمن أرادَ الزيادةَ علىٰ ما ذكرناه فعليه بذلك الكتاب .

توفي في يوم عرفة سنة سبع عشرة وتسع مئة[1] ، ودفن ببلده ، وضريحُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، وهٰذا من نظمه : [من الوافر]

وما لِيْ لا أَنوحُ علىٰ خطائِي ... وقدْ بارزتُ جبَّارَ السماءِ
قرأتُ كتابَهُ وعصيتُ سرّاً ... لعظمِ بليَّتِي ولشؤمِ رائِي
بلائِي لا يُقاسُ بهِ بلاءٌ ... وآفاتِي تدلُّ علىٰ شقائِي
فيا ذُلِّي إذا مَا قالَ ربِّي ... إلى النيرانِ سُوقُوا ذا المُرائِي
فهٰذَا كانَ يَعصينِي مِراراً ... ويَزعمُ أنهُ منْ أوليائِي
تَصنَّعَ للعبادِ ولمْ يُرِدْنِي ... وكانَ يُريدُ بالمعنىٰ سوائِي

إلىٰ أن قال في آخرها :

فيا ربِّي عُبيدٌ مُستجيرٌ ... يَرُومُ العفوَ منْ ربِّ السماءِ
حقيرٌ ثمَّ مسكينٌ فقيرٌ ... بنبتيتٍ أقامَ على الرِّياءِ
عليٌّ باسمِهِ في الناسِ يُدعىٰ ... وما يدري اسمه حالَ ابتداءِ
فآنسْهُ إذا أمسىٰ وحيداً ... رهينَ الرَّمسِ في لحدِ البلاءِ

رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٨) الشيخ علي بن الجمال النَّبْتِيتي رضي الله عنه[2]

أجل أصحاب سيدي أبي العباس الغَمْري .

وكان من الرجال المعدودة في الشدائد .

---

(١) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١٠/ ١١٢) في وفيات سنة (٩٢٧هـ) ، وقال : (وقيل : في سنة عشر وتسع مئة ، وقيل : سنة سبع عشرة ، ولعله الصحيح) .

(٢) انظر « الخطط التوفيقية » (١٧/ ١٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٧٣) (٣٩٢) .

وكان صاحبَ همَّةٍ يكادُ يقتلُ نفسَه في قضاء حاجة الفقراء .

وحجَّ هو وسيدي أبو العباس الغَمْري ، وسيدي محمد بن عَنان ، وسيدي محمد المنير ، وسيدي أبو بكر الحديدي ، وسيدي محمد العدل في سنةٍ واحدة ، فجلسوا يأكلون تمراً في الحرمِ النبوي ، فقال سيدي أبو بكر الحديدي : لا أحدَ يأكلُ أكثرَ من رفيقه ، وكانت ليلةً لا قمرَ فيها ، فلما فرغوا عدُّوا النَّوىٰ فلم يزد واحدٌ علىٰ آخر تمرةً واحدة .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغمري : أنَّ الشيخ أبو العباس الغَمْري رضي الله عنه أودعَ عنده قفصَ دجاجٍ وهو في الريف ليُرسله له في القاهرة ، فتحزَّمَ وتشمَّر ، وشاله علىٰ رأسه من نبتيت إلى القاهرة .

وكان يُسافرُ في كل سنةٍ إلىٰ مكة بالحبوب يَبيعُها على المحتاجين .

وكان مشهوراً في مكة بالحوَّاف في البيع ؛ لأنه كان يخبرُ بالثمن بزيادةٍ على الناس ، ويقول : لا أبيعُ إلا بذلك الثمن نسيئة ، فكلُّ من رضي بذلك الثمن يعلمُ أنَّه محتاجٌ ، فيُعطيه ولا يأخُذ له ثمناً ، وكلُّ من قال : هـٰذا غالٍ لا يبيعُهُ ، ويعرفُ أنه غيرُ محتاجٍ .

وكان يفرِّقُ كلَّ سنةٍ الثياب علىٰ أهل مكة ، ويفرِّقُ عليهم السُّكَّر ، وكذلك علىٰ أهل المدينة ، فكلُّ من أخبر الناسَ بذلك يستردُّ منه ما أعطاه له ، ويقول : يا أخي ؛ غلطتُ فيك ، هـٰذا ما هو لك ، وكان يخلطُ مالَه على الذي يجيئه من الناس باسم الفقراء ، ويفرِّقه ويقول : هـٰذا من مالِ فلان وفلان .

توفي سنة نيِّف وتسع مئة ، ودفن في نَبتيت في زاويته ، ولم أجتمعْ به غيرَ مرَّةٍ واحدةٍ ، فدعا لي : بأنَّ الله يسترني بين يديه في القيامة ، فأسألُ الله أن يقبلَ ذلك ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٩) الشيخ عبد القادر بن عنان رضي الله عنه أخو الشيخ محمد رحمهما الله تعالىٰ[1]

صحبته نحو سبع سنين علىٰ وجهِ الخدمة .

وكان يتلو القرآن آناءَ الليل وأطراف النهار ؛ إن كان يحصدُ أو يحرثُ أو يمشي ؛ لأنَّ وردَهُ كان قراءةَ القرآن فقط .

وكان سيدي محمد بن عنان يقول : (الشيخ عبد القادر عمارةُ الدارِ والبلاد) .

وكان رضي الله عنه يغلبُ عليه الصفاءُ والاستغراق ، تكونُ تتحدَّثُ أنت وإيَّاه فلا تجده معك .

ووقائعه كثيرةٌ مع الحكَّام ومشايخ العرب ؛ لأنه كان كثيرَ العطب لهم .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يقتلُ من هٰؤلاء الظَّلمةِ عددَ شعر رأسه فما هو فقير) .

مات سنة العشرين والتسع مئة ، ودفن ببرهمتوش ببلاد الشرقية ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٠) الشيخ محمد العدل رضي الله عنه[2]

صحبته نحو خمس سنين[3] ، وكان ذا سمتٍ حسنٍ ، وقبولٍ تامٍّ بين الخاصِّ والعام .

وكان أصلُه من جماعة سيدي عليٍّ الذؤيب ، وكان أخلاه سنةً كاملة لا يحضر جمعةً ولا جماعة ، فأرسل له الشيخ محمد بن عنان كتاباً يقول له فيه : إنْ لم تخرجْ للجمعةِ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٧٤) (٣٩٣) .

(٢) سترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٧٥) (٣٩٤) .

(٣) في (ح) وحدها : (عشر سنين) .

والجماعةِ وإلا فأنت مهجورٌ حتىٰ تموتَ ، فخرج من الخلوة ، واجتمع بسيدي محمد بن داود ، وسيدي أبي العباس الغَمْري ، وهجرَ شيخَهُ الذؤيب ؛ وذلك : أنَّ شيخَه كان من أرباب الأحوال الذين لا يُقتدىٰ بأحوالهم .

وكان مقصدُ الجماعة لسيدي محمد العدل أن يكونَ من المُقتدىٰ بهم .

وأصل تسميته العدل : أنَّ شخصاً رأىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له : قل لمحمد العدل الطناحي يتَّبعُ سُنَّتي ، وينفعُ الناس ، فاشتَهر بالعدل من ذلك اليوم .

مات ، ودُفن بطناح[1] ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥١) الشيخ محمد بن داود المنزلاوي رضي الله عنه[2]

اجتمعتُ به مرات ، ودعا لي بالبركة في العمر ؛ وذلك : أنَّ سيدي خضراً الذي كَفلني وأنا يتيمٌ أخذني بيده ، وجاء بي إلىٰ سيدي محمد بن عَنان ، وكان عنده الشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، وقال : كلٌّ منكم يَدعو لهـٰذا الولد دعوةً ، فدعا كلُّ واحدٍ منهم لي دعوةً ، فوجدتُ بركةَ دعائهم إلىٰ وقتي هـٰذا .

وكان سيدي محمد بنُ داود يُضربُ به المثل في اتِّباع الكتابِ والسنة ، وخدمة الفقراء والمنقطعين ، وعدم تخصيص نفسِه عنهم بشيءٍ من المأكل والمشرب والملبس ، وربَّما كانتْ زوجتُهُ تطبخُ له الدجاجةَ فلا تظهرُهُ عليها حتىٰ ينامَ الفقراء ؛ ليأكلَها وحده ، فيأخذُها ويخرجُ إلى الزاوية ، وينبِّهُ الفقراء ، ويفرِّقُها عليهم .

---

(١) طناح : من القرى القديمة بمركز المنصورة علىٰ خليج تنيس . « قاموس رمزي » (٢/١/٢٢١) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨١) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٠٠ ، ١٠٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٢) ، واسمه : محمد بن أحمد بن داود ، شهاب الدين ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٧٦) (٣٩٥) .

وأحواله مشهورةٌ في المنزلة .

وولده الشيخ شهاب الدين كان يُضربُ به المثل في اتّباع الكتاب والسنة ، وما رأيتُ في عصري هٰذا أضبطَ منه للسُّنة ، ولا من الشيخ يوسف الحريثي .

مات بالنسيمية ؛ قرية في بلاد المنزلة ، ودُفن بزاويته ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٢) الشيخ محمد السروي المشهور بأبي الحمائل رضي الله عنه[١]

أحدُ الرجال المشهورة في الهمَّة والعبادة .

وكان يغلب عليه الحالُ ، فيتكلَّمُ بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية ، وتارة يزغرت في الأَفراح والأعراس كما تُزغرتُ النساء[٢] .

وكان إذا قال قولاً ينفذُهُ اللهُ له .

وشكا له أهلُ بلد من الفأر وكثرتِهِ في مقثأة البطيخ ، فقال لصاحب المقثأة : رح ونادِ في الغيطِ : حسب ما رسم محمدُ ابن أبي الحمائل : إنكم تَرحلون أجمعين ، فنادى الرجلُ لهم كما قال الشيخ ، فلم يرَ بعد ذلك اليوم منهم ولا فأراً واحداً ، فسمعت البلاد بذلك ، فجاؤوا إليه ، فقال لهم : يا أولادي ؛ الأصلُ الإذنُ من الله ، ولم يردَّ عنهم الفأر .

وكان مبتلىً بزوجته ، يخافُ منها أشدَّ الخوف ، حتىٰ كان يُخلي الفقيرَ في الخلوة ، فتخرجُه من الخلوة بلا إذنٍ من الشيخ ، فلا يقدرُ يتكلَّم .

وأخبرتني قبل موتها : أنه كان كثيراً يكونُ جالساً عندها ، فتَرِد عليه الفقراء في الهواء ، فيُنادونه ، فيجيبُهم ويطيرُ معهم ، فلا تنظره إلى الصباح .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٤٣) ، و« الكواكب السيارة » (١/٢٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٢٥٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٧٨) (٣٩٦) .

(٢) في (ط) : (يزغلط) بدل (يزغرت) .

وكان لا يقربُ أحداً قطُّ إلا بعد تكرار امتحانه بما يُناسبه .

وجاءه الشيخُ عليٌّ الحديدي يطلبُ منه الطريق ، فرآه مُلتفتاً لنظافةِ ثيابه ، فقال : إنْ كنتَ تطلبُ الطريق فاجعلْ ثيابَك ممسحةً لأيدي الفقراء ، فكان كلُّ من أكلَ سمكاً أو زفراً يمسحُ في ثوبه يدَهُ مدَّةَ سنة وسبعة شهور ، حتىٰ صارتْ ثيابُهُ كثياب الزياتين والسمَّاكين ، وكان فقيهاً مُوسوساً ، فلمَّا رأىٰ ثيابه لقَّنه الذكرَ ، وجاء منه في الطريق ، وأخذَ عنه تلامذةٌ كثيرة .

وسمعتُهُ يحكي قال : (بينما أنا ذات يومٍ في منارة جامع فارسكور[1] ليلةً من الليالي إذ مرَّ عليَّ جماعةٌ طيَّارةٌ ، فدعوني إلىٰ مكَّةَ ، فطرتُ معهم بقبقابي ، فحصلَ عندي عُجْبٌ بحالي ، فسقطتُ في بحرِ دمياط ، فلولا أني كنتُ قريباً من البرِّ وإلا كنتُ غرقتُ ، وساروا وتركوني) .

وكان إذا اشتدَّ عليه الحالُ في مجلسِ الذكر ينهضُ قائماً ، ويأخذ الرَّجلين ، ويضربُ بهما الحائط .

وأخبرني الشيخُ يوسفُ الحُريثي قال : (رأيتُ الشيخ محمد السروي وقد حصلَ له حالٌ في جامع فارسكور ، فحمل التِّيغار الماء[2] ، وفيه نحو الثلاثةُ قناطير من الماء علىٰ يدٍ واحدة ، وصار يَجري به في الجامع) .

وأخبرني الشيخ عليُّ بنُ ياقوت[3] : أنَّه سمعه يقول : (لقَّنتُ نحو ثلاثين ألف رجل ، ما عرفني منهم أحدٌ غيرُ سيدي محمد الشناوي) .

وقد اجتمعتُ به مراراً عديدةً وهو في الزاويةِ الحمراء خارجَ القاهرة ، ولقَّنني الذكر .

---

(١) في (ز) : (مغارة فارسكور) ، وفارسكور : من البلاد القديمة ، من أعمال الدقهلية بمصر . انظر « قاموس رمزي » (٢/ ١/ ٢٤٤) .

(٢) التِّيغار كقِيفالٍ : الإِجَّانةُ : « تاج العروس » (ت غ ر) وفي « معجم متن اللغة » (ت غ ر) : (مكيال للحبوب ، وفي المصابغ يشبه الخابية المقطوعة من نصفها) .

(٣) في (ب ، د) : (محمد بن ياقوت) .

ولما دخلَ مصرَ سكنَ بنواحي جامعِ الغَمْري ، فكنتُ أُقبِّلُ يده ، فيدعو لي ، فأجدُ بركةَ دعوته في نفسي .

وكان يكرهُ للمريدين قراءةَ حزبِ الشاذلية وأحزاب غيرهم ، ويقول : ما رأينا قطُّ أحداً وصلَ إلى الله بمجرَّدِ قراءةِ الأحزاب والأوراد[١] .

وكان يقول : (نحن ما نعرفُ إلا « لا إلـه إلا الله » بعزمٍ وهمَّةٍ) .

وكان يقول : (مثالُ أرباب الأحزاب مثالُ شخصٍ من أسافلِ الناس اشتغل بالدُّعاء ليلاً ونهاراً أنَّ اللهَ تعالىٰ يُزوِّجه بنتَ السلطان) .

وكان يقول لجماعةِ الشيخ أبي المواهب علىٰ وجهِ التوبيخِ بلسانِ حالهم : (اجعل لي ، واعملْ لي ، واصطفيني ، ولا تخلِّي أحداً فوقي ، وأحدُكم نائمٌ بطول الليل ، ومهما وجدَ من الحرام والشُّبهَةِ يلفُّ ، ما هـٰكذا درجَ السلف) .

وقال : كنتُ يوماً أقرأ على الشيخ يحيى المُناوي في جامع عمرو بن العاص في خلوةِ الكتبَ وقت القيلولة ، فدخل علينا رجلٌ في وسطه خيشةٌ محزِّمٌ عليها بحبل ليفٍ ، وهو أسودُ كبيرُ البطن ، فقال : السلامُ عليكم ، فقلنا : وعليكم السلام ، فقال للشيخ : أيش تعملُ بهـٰذه الكتب كلها ؟! فقال : أكشفُ عن المسائل ، فقال : أَمَا تحفظُها ؟ فقال له الشيخ : لا ، فقال : أنا أحفظُ جميعَ ما فيها ، فقلنا له : كيف ؟! فقال : كلُّ حرفٍ فيها يقول لك : كنْ رجلاً جيِّداً ، ثم خرجَ ، فلحقنا منه بَهْتٌ ، فخرجنا خلفَه فلم نجد أحداً .

وكان رضي الله عنه يغيرُ علىٰ أصحابه أن يجتمعوا بأحدٍ من أهل عصره ، ويقول : الذي أبنيه تَهدُّونه عند غيري .

ولمَّا حجَّ رضي الله عنه اجتمعَ عليه الناس في مكَّة من تجارٍ وغيرهم ، وقال لخادمِهِ : نحن جئنا نتَّجرُ وإلا نتجرَّد للعبادة في هـٰذا البلد ولا نشتغل بالناس ؟! فإذا كان وقتُ المغرب امضِ إلىٰ بيوتِ هـٰؤلاء الجماعة الذين يأتون إلينا وقل لهم : الشيخُ يُمسِّي عليكم وهو محتاجٌ إلىٰ ألف دينار ، وقل لكلِّ واحدٍ منهم بمفردِهِ ، وكلُّ من لقيته قلْ له هـٰكذا ، فلم يأتِ أحدٌ

---

(١) مع اعتقاد أنها الموصلة إلى الله تعالى بذاتها .

منهم من تلك الليلة ، وانقطعوا كلُّهم من ذلك اليوم ، فقال : الحمدُ لله ربِّ العالمين .

ووقائعه مشهورة بين أصحابه ، رضي الله عنه .

ومات رحمة الله عليه بمصرَ ، وصُلِّي عليه بالجامع الأزهر ، ودُفن بزاويته بخطِّ بين السورين **في سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه** .

ومنهم :

(٣٥٣) الشيخ نور الدين علي المرصفي رضي الله عنه[1]

كان من الأئمة الراسخين في العلم ، وله المؤلفاتُ النافعة في الطريق .

واختصر « رسالة القشيري » رضي الله عنه[2] ، وتكلَّمَ علىٰ مشكلاتها ، وقرأتُها عليه بعد قراءتها على الشيخ زكريا رحمه الله تعالىٰ ، فكنتُ أعرضُ عليه ما سمعتُهُ من شرح الشيخ لها ، فيقرُّه ويمدحه ، ويقول : كان الشيخ زكريا من العارفين ، ولـٰكنه تستَّرَ بالفقه .

وتلقَّنتُ عليه الذكرَ ثلاث مرات متفرِّقات ؛ **أول مرة وأنا شابٌّ أمردُ** ، دخلتُ عليه بعد العصر ، فقلتُ له : يا سيدي ؛ لقِّني الذكرَ بحالٍ قويٍّ ، فقال : بسم الله يا ولدي ، وأطرقَ ساعةً ، وقال : قل : (لا إلـٰه إلا الله) ، فما استتمَّها الشيخُ إلا وقد غبتُ عن إحساسي ، فما استفقتُ إلا المغربَ ، فلم أجدْ عندي أحداً ، فمكثتُ خمسةَ عشر يوماً مَطروداً لا أستطيعُ الاجتماعَ به لسوءِ أدبي معه في قولي : (لقِّنِّي بحالٍ قوي) ، **الثانية** : لقَّنني ، فسمعت منه : (لا إلـٰه إلا الله) ثلاثَ مرَّاتٍ ، فغبتُ كذلك ، فرأيتُ في تلك الليلة كأنَّ الشيخَ بيده ثلاثُ مآبر ، فغرزها في خدي إلىٰ آخرها ، فلما أَفقتُ ذكرتُ له ذلك ، فقال : الحمدُ لله الذي أظهرَ أثرَها ، **الثالثة** : لقَّنني حين لقَّنَ الشيخَ أبا العباس الحريثي رضي الله عنه ؛ لكونه كان أَصفىٰ قلباً مني ،

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٠٢) ، و« الكواكب السائرة » (١/٢٦٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٢٤٢) ، و« بروكلمان » (٨/٢٤٣) ، و« الخطط التوفيقية » (١٥/٤٠) ، **واسمه** : علي بن خليل ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٨٣) (٣٩٧) .

(٢) **واسم مختصره هـٰذا** : (الورد العذب) .

وأكبرَ سناً ، وأعرفَ بمقام الرجال ، ثم لا زلتُ أترَدَّدُ بصحبته مدَّةَ حياة الشيخ رضي الله عنه .

وذكر لي سيدي أبو العباس رحمه الله : أنَّه قرأَ بين المغرب والعشاء خمسَ ختمات ، فقال الشيخ : الفقيرُ وقعَ له أنَّه قرأ في يومٍ وليلةٍ ثلاث مئة وستين ألف ختمة ، كلَّ درجةٍ ألفَ ختمة .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا وقعَ من المريد شيءٌ مذمومٌ عند شيخه وهو محمودٌ عند غيره . . فالواجبُ عليه عند أهلِ الطريق رجوعُهُ إلىٰ كلام شيخه دون كلامِ غيره ، وإن قيل للمريد : إنَّ كلامَ شيخِه معارضٌ لكلامِ العلماء أو دليلِهم[1] ، فالرُّجوع إلىٰ كلامِ شيخه أولىٰ إذا كان من الراسخين في العلم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا خرجَ المريدُ عن حكم شيخه ، وقدحَ فيه . . فلا يجوزُ لأحدٍ تصديقُهُ ؛ لأنه في حال تهمةٍ ؛ لارتداده عن طريقِ شيخه ، وهـٰذا الأمر قلَّ أن يسلمَ منه مريدٌ طردَهُ شيخُه ؛ لأنه لضعفه يخافُ من تجريحه فيه ، وتنقيصه عند الناس حين يرونَ أن شيخَهُ طردَه ، وتضيقُ عليه الدنيا ، فلا يجدُ مُتنفَّساً إلا الحطَّ في شيخه ، والردَّ عن نفسه بنحو قوله : لو رأينا فيه ـ يعني : الشيخ ـ خيراً ما فارقناه ، فيُزكِّي نفسَه ، ويجرحُ في شيخه ، وبذلك يستحكمُ المقتُ فيه ، لا سيما إن اجتمع بعد شيخِهِ علىٰ من ينقصُ شيخَه ويزدريه ، ويُظهرُ فيه المعايبَ ؛ فإنه يهلكُ بالكلِّية ، لـٰكن إذا أرادَ اللهُ بمريدٍ خيراً جمعَهُ عند غضبِ شيخه علىٰ من يحبُّ شيخَه ويعظِّمُه ؛ فإنَّ المريدَ يندمُ علىٰ شيخه ضرورةً ، ويرجع إليه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا خرج المريدُ عن حكم شيخه ، وانقطعَ عن مجلسه ، فإنْ كان سببُ ذلك الحياءَ من الشيخ أو من جماعته لزلَّةٍ وقع فيها ، أو فترةٍ حصلت منه . . فهو كالطَّلاقِ الرجعي ، فللشيخِ أن يقبلَه إذا رجعَ ؛ لأنَّ حرمةَ الشيخ في نفس هـٰذا المريدِ لم تزلْ ، لا سيما والمريدُ أحوجُ ما يكون إلى الشيخِ حالَ اعوجاجه ، فينبغي للشيخ التلطُّفُ بهـٰذا المريد ، وعدمُ الغلظة عليه والهجر له ، إلا أن يكون وثقَ به لقوَّةِ العهدِ الذي بينه وبينه) .

---

(١) في (و) : (وإذا قام للمريد كلام شيخه مقام المعارض لكلام العلماء) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليس للمريدِ أن يسألَ شيخَه عن سبب غيظه وهجرِهِ له ، بل ذلك من سوءِ الأدب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يجوزُ للمُريد عند أهل الطريق أن يُجيبَ عن نفسِهِ أبداً إذا لطَّخَهُ شيخُهُ بذنبٍ ؛ لأنَّه يرىٰ ما لا يرى المريدُ ؛ فإنَّه طبيب) .

وكان يقول : (ليسَ للشيخ أن يُبيِّنَ للمُريد صورةَ الفتح الذي علم من طريق الكشف أنه يؤول إليه أمرُ المريدِ بعد مجاهداته وكمال سلوكه ؛ لأنَّ المريدَ إذا حصَّلَ معنىٰ صورةِ ذلك في نفسه ، وتكرَّرَ شهودُهُ له . . ربَّما ادَّعى الفتحَ وباطنُهُ معرّىً عن ذلك ؛ إذِ النفسُ معرَّضةٌ للخيانة وعدم الصدق وكثرة الدعوىٰ ، وربَّما فارقَ هـٰذا شيخَهُ وادَّعى الكمالَ ؛ لعلمِهِ بصورةِ الفتح علماً ، لا حذقاً ، ولا ذوقاً ، كما يظهرُ المنافق صورة المؤمن في العمل الظاهر وباطنه معرّىً عن الموجب لذلك العمل) .

وكلامه رضي الله عنه غالبُهُ سطَّرتُهُ في كتاب « رسالة الأنوار القدسية » ، وغيرها من مؤلفاتي .

وكان رضي الله عنه في بداية أمره أميّاً .

واجتمع بسيدي مَدْين رضي الله عنه وهو ابن ثماني سنين ، ولم يأخذْ عنه كما سمعتُهُ منه ، فلما كبر اجتمعَ بابن أخته سيدي محمد رضي الله عنه ، وأخذَ عنه الطريقَ ، واجتمعتْ عليه الفقراءُ في مصر ، وصارَ هو المُشارَ إليه فيها لانقراض جميع أقرانه .

وكان رضي الله عنه من شأنه إذا كان يتكلَّمُ في دقائق الطريق وحضرَ أحدٌ من القضاة . . ينقل الكلامَ إلىٰ مسائل الفقه إلىٰ أن يقومَ من كان حاضر ، ويقول : ذكرُ الكلام بين غيرِ أهلِهِ عورةٌ .

ومن وصيتِهِ لي قال : (وإيَّاك أن تسكنَ في جامعٍ أو زاويةٍ لها وقفٌ ومستحقّون ، ولا تسكنْ إلا في المواضع المهجورة التي لا وقفَ لها ؛ لأنَّ الفقراءَ لا ينبغي لهم أن يُعاشروا إلا من كان من خرقتهم ، وعشرةُ الضدِّ تكدِّرُ نفوسَهم) .

مات رضي الله عنه ورحمه سنة نيّفٍ وثلاثين وتسع مئة[1] ، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٤) الشيخ تاج الدين الذاكر[2]

كان رضي الله عنه وجهُهُ يُضيء من نور قلبه ، ذا سمتٍ حسنٍ ، وتجمُّلٍ بالأخلاق الجميلة ، تكادَ كلُّ شعرةٍ منه تَنطقُ وتقول : هٰذا وليُّ الله .

وكان رضي الله عنه يفرش زاويته باللبَّاد الأسود ؛ لئلا يسمعَ وقعَ أقدامهم إذا مشوا ، ويقول : (حضرةُ الفقراء من حضرةِ الحقِّ ، لا ينبغي أن يكونَ فيها علوُّ صوتٍ ، ولا حسٌّ قوي) .

وكان أصحابُهُ في غاية الجمال والكمال .

وكان رضي الله عنه له التلامذةُ الكثيرة ، والاعتقادُ التامُّ في قلوبِ الخاصِّ والعام .

وكان رضي الله عنه كثير الشفاعات عند السلطان والأمراء .

وكان رضي الله عنه يمكثُ السبعةَ أيام بوضوءٍ واحدٍ ، كما أخبرني بذلك خادمُهُ الشيخُ عبد الباسط الطلحاوي ، قال : وانتهىٰ أمرُهُ أنَّه كان في آخر عمرِهِ يتوضَّأُ كلَّ أحد عشر يوماً وضوءاً واحداً .

قال : وعزم عليه جماعةٌ في جامع طولون ليمتحنوه في ذلك ، فدعوه إلىٰ ناحيةِ الجيزة في الربيع ، وصاروا يعملون له الخراف والدجاج ، واللبن بالرز ، وغير ذلك ، وهو يأكلُ معهم من ذلك كلِّه ، ثم لا يرونه يتوضَّأ لا ليلاً ولا نهاراً مدَّةَ تسعة أيام ، فقيل للشيخ : يا سيدي ، إنَّك في امتحانٍ مع هٰؤلاء ، فتشوَّشَ منهم ، وجاء إلى البحر

---

(١) في « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٤) : توفي سنة (٩٣٠هـ) ، وفي « شذرات الذهب » : توفي يوم الأحد (١١) جمادى الأولىٰ سنة (٩٣٠هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٤) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٥٨) ، و« شذرات الذهب » (١/ ١٥٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٣٤) ، واسمه : عبد الوهاب المصري ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٨٧) (٣٩٨) .

يعدِّي ، فعدَّىٰ في مركبٍ والجماعةُ الممتحنون في مركبٍ ، فغرقتْ بهم ، فأخبروا الشيخ ، فقال : لله الحمد ، ثم تدارك ذلك ، وقال : ما وقعتْ مني قبل ذلك قطُّ .

قال الشيخ عبد الباسط خادمُهُ رحمه الله تعالىٰ : فمرضَ الشيخُ بسبب هٰذه الكلمة نحو سبعةٍ وأربعين يوماً .

وأخبرني أخي الشيخُ الصالحُ شمسُ الدين المرصفي رضي الله عنه أنه كان واعظاً ، وسمي بذلك قبل بليلة أو ليلتين أو ثلاث[١] ، فقال : لي أربعون سنة أُصلي الصبحَ بوضوء العشاء ، وقد طُويتْ سجَّادتي بعدي .

ومكث رضي الله عنه خمساً وعشرين سنةً لم يضعْ جنبَهُ على الأرض .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليسَ القناعةُ أن يأكلَ الفقير كلَّ ما وجد من يسير الخبز والأدم ، إنَّما القناعةُ ألا يأكلَ إلا بعد ثلاثة أيام لقيماتٍ يُقمنَ صُلبَه ، وأكثرها خمس) .

ولما حضرته الوفاةُ قالوا له : يا سيدي ؛ من هو الخليفةُ بعدكم لنعرفه ، ونلزمَ الأدبَ معه ؟ فقال : قد أذنَّا لفلانٍ وفلانٍ ، وعدَّ عشرةً من أصحابه : أنَّ كلَّ من حضر منهم يفتتحُ الذكرَ بالجماعة ، والطريقُ تعرفُ أهلَها ، ولو هربوا منها تبعتهم ، وكان من العشرة : سيدي شهابُ الدين الوفائي ، وسيدي الشيخُ إبراهيم ، وسيدي الشيخ عبدُ الباسط ، وهم أجلُّ من أخذَ عنه ، فنسأل الله أن يفسحَ في أجلهم للمسلمين .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تصحُّ الصحبةُ لشخصٍ مع شيخه إلا إن شربَ من مشروبه ، واتَّحدَ به اتحادَ الدَّمِ في العروق) .

مات رحمه الله تعالىٰ سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة[٢] ، ودُفِنَ بزاويته بجوار حمام الدود خارج باب زويلة ، وكانت جنازتُهُ مشهورةً ، رضي الله عنه آمين .

---

(١) كذا العبارة في جميع النسخ ، ولعلها : (وسُمي بذلك قبل موته بليلة . . .) .

(٢) في « طبقات المناوي » ، و« شذرات الذهب » : أن سنة وفاته (٩٢٢هـ) .

ومنهم :

(٣٥٥) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أبو السعود الجارحي رضي الله عنه[1]

هو من أجلِّ من أخذ عن الشيخ شهابِ الدين المرحومي رضي الله عنه .

وكانت له في مصرَ الكراماتُ الخارقة ، والتلامذةُ الكثيرة ، والقبولُ التامُّ عند الخاصِّ والعام ، والملوك والوزراء ، وكانوا يحضرون بين يديه خاضعين ، وعملوا بأيديهم في عمارةِ زاويته في حمل الطوب والطين والحجر .

وكان كثيرَ المُجاهدات ، لم يبلغنا عن غيرِهِ ما بلغنا عنه في عصره عن مجاهداته .

وكان ينزلُ في سَرَبٍ تحت الأرض من أوَّلِ ليلةٍ من رمضان ، فلا يخرجُ إلا بعد العيدِ بستَّةِ أيام ، وذلك بوضوءٍ واحدٍ من غير أكلٍ ، وأما الماءُ فكان يشربُ منه كلَّ ليلةٍ قدرَ أوقية .

وكان رضي الله عنه يقول : (إني لا أبلغُ إلى الآن مقامَ مريد ، ولـٰكنَّ الله تعالىٰ يسترُ من يشاء) .

وكان رضي الله عنه إذا سمعَ كلاماً يسمعُهُ بالسمعِ الباطن .

وسمع قائلاً يقول : يا سيدي ؛ فسدتْ المعاملة ، ونوديَ على الفلوس أنها بطالة[2] ، فصاح وسقطَ علىٰ وجهه ، ونتفَ لحيته ، ومكثَ يصيحُ يوماً كاملاً .

وجاءه مريدٌ من بِلْبِيس يُريد أن يجتمعَ به ، فلم يأذنْ له ، فقال : جئتُكَ من مكانٍ بعيد ، فقال له : تَمُنُّ عليَّ بمجيئك من موضع بعيدٍ ، اذهبْ لا تأتني لثلاث سنين ، فلم يجتمعْ به إلا بعد ثلاثِ سنين ، ثم قال الشيخ : كان المريدُ يُسافر ثلاثَ شهور في

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٣٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/٤٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٢٣١) ، و« الخطط التوفيقية » (٤/١٠٦) ، **واسمه** : محمد بن دغيم الجارحي ، نسبة إلىٰ قرية كوم الجارح ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٨٩) (٣٩٩) .

(٢) في (ح) وحدها : (ونودي عليها بأنها باطلة) .

طلب مسألةٍ في الطريق ، ويَرىٰ تلك السفرةَ قليلةَ الزمان .

وكان رضي الله عنه يعاملُ أصحابَه بالامتحان ، فلا يكادُ يُقرِّبُ منهم أحداً إلا بعد امتحانه سنةً كاملة .

وكان يلقي حالَهُ على الفقيرِ فيتمزَّقُ .

وأخبرني الشيخ شمسُ الدين الأبوصيري رضي الله عنه أجلُّ أصحابه قال : لم يزل الشيخُ يَمتحنُني إلىٰ أن مات ، وأراني ضربَ المقارعِ علىٰ أجنابه من الدعاوي التي كان يدَّعيها الشيخ فيَّ عند الحكَّام ، قال : وكنتُ أعترفُ عند الحكَّام إيثاراً لجناب الشيخ أن يُرَدَّ قولُه ، فإذا قال : هـٰذا زَنَىٰ بجاريتي أقول : نعم ، أو يقول : هـٰذا أراد الليلةَ أن يقتلني أقول : نعم ، أو يقول : هـٰذا سرقَ مالي أقول : نعم .

وكان رضي الله عنه يتنكَّرُ علينا أوقاتاً ، فلا نكادُ نعرفُهُ .

وهربَ منَّا إلىٰ مكة ونحن في الحبس ، فلم نشعرْ به إلىٰ أن وصلَ إلىٰ مكَّة ، فخرجتُ أنا وأبو الفضل المالكي في غيرِ أوان الحجِّ ، فوصلنا مكَّةَ في نحو خمسةَ عشرَ يوماً ، فلما وصلنا إلىٰ مكَّةَ استخفىٰ منَّا ، وأشاعَ أنه سافرَ إلى اليمن ، فسافرنا إليه خمسة شهور من مكة ، فخرجَ إلينا شخصٌ خارجَ زَبيد ، وقال : إنَّ شيخَكم في مكَّةَ في هـٰذا اليوم ، فرجعنا ، فلما بقي بيننا وبين مكة يومٌ وليلة خرج إلينا وقال : إنَّ شيخَكم باليمن ، فرجعنا إليه ، وقال لنا : إنَّ الذي قالَ لكم إنَّ شيخَكم بمكَّة شيطانٌ ، فرجعنا إلى اليمن ، فخرجَ إلينا وقال : إنَّ شيخَكم بمكة ، فلم نزلْ كذلك ثلاث سنين حتىٰ ظهر لنا أنَّه بمكة ، فأقمنا معه ، فادَّعىٰ علينا دعاوىٰ ، وضربونا ، وحبسونا ، ولم نرَ منه يوماً واحداً كلمةً طيِّبةً .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليس لي أصحاب) .

قلت : وقال لي يوماً : (من حين عملتُ شيخاً في مصر لي سبعٌ وثلاثون سنة ما جاء لي قطُّ أحدٌ يطلبُ الطريقَ إلى الله ، ولا يسألُ عن حسرةٍ ، ولا عن فترة ، ولا عن شيءٍ يقرِّبُه إلى الله ، وإنَّما يقول : أستاذي ظلمني ، وامرأتي تُناكدني ، جاريتي هربت ، جاري يؤذيني ، شريكي خانني ؛ وكَلَّتْ نفسي من ذلك ، وحننتُ إلى

الوحدة ، وما كان لي خيرةٌ إلا فيها ، فيا ليتني لم أعرفْ أحداً ولم يعرفني أحدٌ) .

وكان رضي الله عنه إذا غلبَ عليه الحالُ نزعَ ثيابه وصار عرياناً ، ليس في وسطه شيء .

وجاءه مرةً أميرٌ بقفصِ موز ورمان ، فردَّه عليه ، فقال : هـٰذا لله تعالىٰ ، فقال الشيخُ : إن كان لله فأطعمْهُ للفقراء ، فأخذه الأميرُ ، ورجعَ به إلىٰ بيته ، فأرسل الشيخُ فقيرين بصيراً وضريراً ، وقال : الحقاه وقولا له : يا أمير ؛ أَعطنا شيئاً لله من هـٰذا الموز والرمان ، فتوجَّها مثلَ ما قال لهما الشيخ ، ولحقاه ، وقالا له : يا أمير ؛ أعطنا شيئاً لله من هـٰذا ، فنهرَهُما ولم يعطهما شيئاً ، فرجعا وأخبرا الشيخَ بما وقع لهما ، فأرسل له الشيخ يقول له : تقول هـٰذا لله وتكذبُ على الفقراء ، وتنهرُ من يقول لك : أعطنا لله يا أمير شيئاً ، فلا عدْتَ تأتينا بعد ذلك اليومِ أبداً ، فحصلَ له العزل ، ولحقتْهُ العاهات في بدنه ، ومات علىٰ أسوأ حال .

ولما حضرتِ الشيخَ الوفاةُ أرسل خلفَ شيخ الإسلام الحنفي وجماعةٍ ، وقال : أُشهدُكم عليَّ بأني ما أذنتُ لأحدٍ من أصحابي في السلوك ، فما منهم أحدٌ شَمَّ رائحةَ الطريق ، ثم قال : اللهم ؛ اشهد ، اللهم ؛ اشهد ، اللهم ؛ اشهد .

وكان رضي الله عنه له شطحاتٌ عظيمة ، وكان كثيرَ العطب[١] ، فكان عطبُهُ للناس يحميه .

مات رحمه الله سنة نيف وثلاثين وتسع مئة[٢] ، ودفن بزاويته بكوم الجارح ، بالقرب من جامع عمرو في السرداب الذي كان يعتكفُ فيه .

وما رأيتُ أسرعَ كشفاً منه ، وحصلَ لي منه دعواتٌ وجدتُ بركتها .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تجعلْ لك قطُّ مريداً ، ولا مؤلَّفاً ، ولا زاويةً ، وفرَّ من الناس ؛ فإن هـٰذا زمانُ الفرار) .

---

(١) في (و) : (وكان كثير العطب لمن ينكر عليه) .

(٢) ذكر نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ٤٩) أن وفاته كانت سنة (٩٢٩هـ) ، وقال عن تاريخ الوفاة التي ذكرها الشعراوي : (وهو تقريب بلا شك) ، وكذا ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١٠/ ٢٣١) في وفيات سنة (٩٢٩هـ) .

وسمعته مرَّةً يقول لفقيهٍ من الجامع الأزهر : متىٰ تصيرُ هاءُ الفقيه راءً ، والحمد لله رب العالمين .

ومنهم :

(٣٥٦) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المنيِّر رضي الله عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه .

وهو الذي أمرَهُ بحفرِ البئر والسقي منها على الطريقِ في المحلِّ الذي هو فيه الآن قبل عِمارة البلد ، فأقام مدةً يسقي عليها ، وبنىٰ لزوجته خصّاً ثم عَمَّرَتِ الناسُ حول الخصِّ إلىٰ أن صارت بلداً .

وكان يحجُّ في كلِّ سنةٍ ، ويقدِّسُ بعد أن يصلَ إلىٰ مصر ، ويُقيم شهراً .

وأخبرني رضي الله عنه قبل موته أنه حجَّ سبعاً وستين حجَّةً ، هـٰذا لفظُهُ لي بجامع الأزهر وهو مُعتكفٌ أواخرَ رمضان .

وكان رضي الله عنه يكرهُ الكلامَ في الطريق من غير سلوك ولا عمل ، ويقول : هـٰذا بطالةٌ .

ومكثَ نحو ثلاثين سنة يقرأ في الليل ختمةً ، وفي النهار ختمة .

وكانت عِمامتُهُ صوفاً أبيض ، وكان يلبسُ البشتَ المخطَّطَ بالأحمر ، ويقول : أنا رجلٌ أحمديٌّ ؛ تبعاً لسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه .

وتردَّدتُ إليه في حياته نحو العشرين سنة ، وحججتُ معه الحجَّة الأولىٰ سنة خمسَ عشرةَ وتسع مئة .

وكان رضي الله عنه أكثر أوقاته يحجُّ على التجريد ماشياً ، وعلىٰ كتفه ركوةٌ يسقي الناس منها .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٤٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٩٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٩٤) (٤٠٠) .

وكان رحمه الله يطوي الأكلَ والشربَ في الطريق ، وفي مدة إقامته بمكة والمدينة ؛ خوفَ التغوُّط في تلك الأماكن .

وكان عليه القبول .

وكان له شعرةٌ طويلةٌ بيضاء ، وكان لا يحلقُها إلا في الحج في كلِّ سنةٍ .

وكان رحمه الله يحملُ لأهل مكة والمدينة ما يحتاجون إليه من الزاد والسكر والصابون والخيط والإبر والكحل ، لكلِّ واحدٍ عنده نصيبٌ ، فكانوا يخرجون يتلقَّونه من مرحلة .

وكان سيدي محمد بن عراق رضي الله عنه يُنكر عليه ذلك ويقول : إن هٰذه الأشياء يحملُها من الأمراء وتجَّار مصر من الحرام والشُّبهات ، فبلغه ذلك ، فمضىٰ إليه حافياً مكشوفَ الرأس ، فلما وصلَ إلىٰ خلوته بالحرم النبوي قبَّلَ العتبة ، ووقفَ خاضعاً ، غاضّاً طرفه ، وقال : يا سيدي ؛ يدخلُ محمد المنيِّر ؟ فلم يردَّ عليه سيدي محمد بن عراق شيئاً ، فكرَّرَ عليه القول ، فلم يردَّ عليه شيئاً ، فرجع مُنكسراً .

فلمَّا حكيتُ هٰذه الحكاية لسيِّدي عليٍّ الخواص حين قدم مع الحاج المصري قال : وعزَّة ربِّي ؛ قتله ، وعزَّة ربي ؛ قتله ؛ فإنه ما ذُهبَ قطُّ لفقيرٍ علىٰ هٰذه الحالة إلا وقتله[١] ، فجاء الخبرُ بأنه ماتَ بعد خروجِ الحاجِّ من المدينة بعشرين يوماً[٢] .

قلت : ولما بلغني أنه حضرته الوفاةُ أخبرتُ أخي أبا العباس الحُريثي ، وأخي الشيخ أبا العباس الغَمْري ، فقالوا : نسافرُ إليه نعوده ، فتوافقنا أنَّ كلَّ من يسبقُ رفيقه بعد الفجر ينتظرُهُ في باب النصر ، فذهبتُ ، فقال لي البواب : إنَّ جماعةً وقفوا وانتظروا هنا ساعةً ، ثم ساروا نحو طريقِ الخانقاه ، فظننتُ أنَّه الشيخ أبو العباس الغَمْري ، فرحتُ خلفه ، فرافقني فقيرٌ هيئتُهُ هيئةُ أهل اليمن ، وقال : أين قاصد ؟ قلت : المنيِّر ، فقال : وأنا كذلك ، وكان تحتي حمارٌ أعرجُ ، وكان ذلك في أيام الشتاء ، وكان أقصرَ

---

(١) في (و) : (ما يذهب) بدل (ما ذهب) .

(٢) شك الغزيُّ بصحة هٰذه الحكاية ؛ لأن محمد بن عراق توفي سنة (٩٣٣هـ) بمكة ؛ أي : بعد وفاة صاحب الترجمة بسنتين . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٩٦) .

الأيام ، فما ارتفعتِ الشمسُ إلا ونحن داخلون على المنير ، فدخلتُ فوجدتُ الشيخ محتضراً له ثلاثة أيام لم ينطقْ ، فقال : من أنت ؟ قلتُ : عبد الوهاب ، فقال : يا أخي ، كلَّفْتَ خاطرَك من مصر ، فقلت : ما حصلَ إلا الخيرُ ، فدعا لي دعواتٍ ؛ منها : أسألُ اللهَ تعالىٰ أن يسترَكَ بسترِهِ الجميل في الدنيا والآخرة ، ثم ودَّعته بعد الظهر ، وأقمتُ بالخانقاه إلىٰ بعد العصر ، ثم دخل سيدي أبو العباس ، فاعتقدَ أني ما رحتُ إلى الشيخ إلى الآن ، فقال : اركب ، فقلت له : إني رحتُ إلى الشيخ وسلَّمت عليه ، وبالأمارة تحت رأسِهِ مخدَّةٌ حمراء مصبوغة ، فهـٰذه كرامةٌ للشيخ ، فإنَّ المدَّةَ بعيدةٌ من مصر ، لا يصلُ المسافرُ في العادة إليها إلا أواخر النهار .

مات رضي الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه[١] .

ومنهم :

(٣٥٧) الشيخ أبو بكر الحديدي رضي الله عنه[٢]

رفيق المنيِّرِ في الحجِّ كلَّ سنة .

وكان من أكرمِ الناس ، وكان إذا دعا شخصاً إلىٰ طعامه ولم يرضَ . . يكشفُ رأسَه ، ويصيرُ يمشي خلفه حتىٰ يُجيبه .

وكان من أصحابِ الشيخ أحمدَ بنِ مُصلح المنزلاوي أبي الشيخ عبد الحليم .

وكانت طريقتُهُ سؤالَ الناس للفقراء سفراً وحضراً في طريق الحاج وغيره .

وكان رضي الله عنه يحمل لأهلِ مكةَ الدراهم والخام ، وما يحتاجون إليه .

وهو الذي أشار عليَّ بلبس الجُببِ الصوف الحمر والسود من حين كنتُ صغيراً بحضرة سيدي محمد بن داود ، والشيخ محمد العدل رضي الله عنه وعن الجميع[٣] .

---

(١) ذكر الغزي في « الكواكب السائرة » (١/٩٦) أن وفاته كانت سنة (٩٣١هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/١١٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/١٩٨) (٤٠١) .

(٣) في (ج) : (سيدي محمد بن عنان والشيخ محمد العدل) ، وفي (و) : (بحضرة سيدي محمد بن عنان والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد العدل) .

وكان رحمه الله بمرضِ عسرِ البول[١] ، فكان يَصيحُ كلَّما يبولُ .

ورأى الشيخُ محمداً العدل رضي الله عنه يحسِّسُ علىٰ بطنِ امرأة أجنبية لمرضٍ كان بها ، فصاح عليه : وا ديناه ؛ وا محمداه ؛ الله أكبر عليك يا عدل ، فقال : واللهِ ؛ ما قصدتُها بشهوةٍ ، فقال له : أنتَ معصوم ؟! نحن ما نعرفُ إلا ظاهر السُّنة .

وقال لي مرة : يا عبد الوهاب ؛ قمْ معي ، فخرجتُ معه إلىٰ سوق أمير الجيوش ، فصار يأخذُ من هـٰذا نصفاً ، ومن هـٰذا عثمانياً ، ومن هـٰذا دِرهماً ، فما خرجَ من السوق إلا ومعه نحو أربعين نصفاً ، فلقي شخصاً معه طبقُ خبزٍ ، فأعطاه ثمنه ، وصار يفرِّقُ على الفقراء والمساكين وهو ذاهبٌ إلىٰ نحو بين القصرين ، وقال : نفعنا الفقراءَ من هـٰؤلاء التجار علىٰ رغم أنفهم ، ثم صار يُعطي هـٰذا نصفاً وهـٰذا درهماً إلىٰ أن فرغت .

وكان معه مقصٌّ يقصُّ به كلَّ شاربٍ رآه ، فإن لم يرضَ صاحبُه يصيح ويقول : وا ديناه ؛ وا إسلاماه ؛ وا محمداه ؛ إلىٰ أن يقصَّه غصباً .

وكان رضي الله عنه الغالبُ عليه البسطَ والانشراحَ .

وكان رضي الله عنه إذا حصل للشيخ محمد بن عنان قبضٌ لا يستطيع أحدٌ أن يُكلِّمَه إلا إذا حضر الشيخ أبو بكر الحديدي رضي الله عنه ، فبمجرد ما يَراه يتبسَّمُ .

ولما حجَّ هو والشيخ أبو العباس الغَمْري ، والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ محمد المنيِّر ، والشيخ علي بن الجمال . . نزلوا بباب المعلَّىٰ ، فبينا هم جلوسٌ إذ جاءَتْهُم امرأةٌ من البغايا ، فقال لها الشيخ : ما تبغين ؟ فقالت : ما يفعله الرجل بالمرأة ، فقال لها : اذهبي إلىٰ هـٰذا الرجل ـ يعني : سيدي محمد بن عنان ـ فجاءت إليه ، فقال لها : ما تبغين ؟ قالت : ما يفعلُه الرجلُ بالمرأة ، فأخذ العكَّاز وقام لها ، فهربتْ ، فضحك الجماعةُ ، فقال: من أرسل لي هـٰذه ؟! فقالوا له : الشيخ أبو بكر ، فقال : ما حملَكَ علىٰ هـٰذا ؟! قال : حتىٰ تنظرَ إليها نظرةً بحالٍ تكونُ سبباً لتوبتها عن مثل ذلك ، فلم تفعل ، فتبسَّم الشيخ محمد بن عنان وقال : لا آخذك الله بذلك .

---

(١) في (و) : (وكان مرض بأسْرِ البول) ، **وأُسْرُ البول** : احتباسُهُ .

توفي بالمدينة النبوية سنة خمسٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالبقيع ، رحمه الله تعالىٰ ، ويرحمنا إذا عُدنا إليه ، آمين .

ومنهم :

(٣٥٨) شيخي وقدوتي إلى الله تعالى العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الشناوي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه من الأولياء الراسخين في العلم ، أهل الإنصاف والأدب في أولاد الفقراء ، وفُقِد ذلك كلُّه بعد الشناوي .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما دخلتُ علىٰ فقيرٍ إلا وأنظرُ نفسي دونه ، وما امتحنتُ قطُّ فقيراً) .

وكان رضي الله عنه يحكي عن الشيخ عبد الرحيم القِناوي رضي الله عنه : أنه رأىٰ مرَّةً في عنقِ كلبٍ خرقةً من صوف ، فقام له إجلالاً للخرقة الصوف .

وكان رضي الله عنه أقامه اللهُ في قضاء حوائج الناس ليلاً ونهاراً .

وربَّما يمكثُ نحو الشهرِ وهو ينظر بلده ، ولا يتمكَّنُ من الطلوع لها ، وهو في حاجةِ الشخص .

وكان أهل الغربية وغيرها لا أحدَ يُزوِّج ولده ، ولا يطاهره إلا بحضوره[٢] .

وكان رضي الله عنه يلقِّنُ الرجال والنساء والأطفال[٣] ، ويرتِّبُ لهم المجالسَ في البلاد ، ويقول : يا فلانة ؛ اذكري بأهل حارتِكِ ، ويا فلانة[٤] ؛ اذكر بإخوانك ، فجميعُ مجالسِ الذكر التي في الغربية ترتيبُهُ .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٥١) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٩٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ١٩٩) (٤٠٢) .

(٢) في (و) : (يختتن) بدل (يطاهره) .

(٣) في (و) : (وكان يلقن الرجال والنساء والأطفال كلمة : لا إلـٰه إلا الله) .

(٤) في (ط) وحدها : (يا فلان) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أشعلنا نارَ التوحيد في هـٰذه الأقطار فلا تنطفئ إلىٰ يوم القيامة) .

ومن مناقبه رضي الله عنه : أنه أبطلَ الشعيرَ الذي كان في بلادِ ابن يوسف ؛ لأنَّه كان يموتُ فيه خلقٌ كثير ؛ لأن ابنَ يوسف كان رجلاً عنيداً ظالماً ، وكان مُلتزماً بتلك البلاد ، وكان يلتزم بعليق السلطنة ، وجميع العساكر من هـٰذا الشعير ، وكان لا يقدرُ أحدٌ يتجاهىٰ عليه ، وكان يأخذُ الناسَ غصباً من جميع البلاد حتىٰ يموتوا من العطش ، فتعرَّضَ له سيدي الشيخ محمدُ الشناوي شفقةً على الفقراء والمساكين ، فكان يجمعُ تلامذتَه وأصحابه ، ويقعدُ يملخُ في الشعير ، ويقول : اعتقِ الفقراء لئلا يموتوا ، فتحمَّل منه ابنُ يوسف في الباطن ، وظنَّ أنَّهُ يبطل عادته من البلاد ، فأتىٰ إليه بطعامٍ فيه سُمٌّ ، فقدَّمه للشيخ وجماعته ، فلمَّا جلسوا يأكلون صار دوداً ببركة الشيخ ، فتغيَّظَ منه الشيخُ وقال : لا بدَّ وأن أُبطلَ هـٰذا الشعير ببركة الله تعالىٰ لئلا تهلكَ الخلقُ ، فكان محبُّو الشيخ يتفقَّدونه بالماء والطعام ، وهو يقلع في الشعير ، فكان حمادة الذي بمحلة ديبة لم يقطعِ الطعام عن الشيخ ، وهو ملازمٌ للإرسال له في كلِّ يوم ، فدعا له الشيخُ بالبركة في المال والولد ، فهو إلى الآن في بركة دعاء الشيخ هو وأولاده ، وعزمَ الشيخُ على السفر لبلد السلطان ابن عثمان بسبب ذلك ، فرآه السلطان سليمان في داره ليلاً وهو راكبٌ حمارته السوداء ، وقال له : أبطلِ الشعيرَ الذي ببلاد مصر في درك ابن يوسف ، فقال : للوزراء ذلك عند الصباح ، فكاتبوا نائبَ مصر قاسم كزل ، فأرسلَ لهم : إنَّ الخبرَ صحيحٌ ، والذي رآه السلطان هو الشيخُ محمد الشناوي ، فأرسل السلطان بإبطالِ الشعير ، فهو إلى الآن بطَّالٌ ببركة الشيخ رحمه الله .

وكانت بهائمُهُ وحبوبُهُ على اسم المحاويج ، لا يختصُّ منها بشيء .

وكان لا يقبلُ هدايا العمَّال ، ولا المباشرين ، ولا أرباب الدولة ، وأهدىٰ له نائبُ مصر قاسم كزك أصوافاً وشاشاتٍ وبعضَ مالٍ ، فردَّه عليه ، وقال للقاصد : الفقراء غيرُ محتاجين إلىٰ هـٰذا ، وقال : وعزَّةِ ربِّي ؛ عندي جَلَّةُ البهائمِ خيرٌ من هديتك ، وقال للقاصد : لا تعدْ تأتينا بشيءٍ .

وكان رضي الله عنه لم يزل في مقاعده جبائر القطن ملصوقةً من كثرة الركوب في

حوائج الناس ، وما رأيتُ في الفقراء أوسع خُلقاً منه .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أخلاق) .

وكان إذا جلسَ إليه أبعدُ الناس عنه . . لا يقوم من مجلسه حتىٰ يعتقدَ أنَّه أعزُّ أصحابه أو أقاربه من حُسن إقباله عليه .

وطلع مرةً لابنة الخليفة لقصرها فلقَّنَها الذكرَ ، ولقَّن جواريها ، ووقعتْ عصائبهُن من كثرة الاضطراب في الذكر ، فلما نزل قال : الحمدُ لله الذي ما كان هناك أحدٌ من المنكرين علىٰ هـٰذه الطائفة .

وكان أكثرُ تربيته بالنظر ، ينظرُ إلىٰ قاطعِ الطريق وهو مارٌّ عليه فيتبعُهُ في الحالِ ، لا يستطيعُ ردَّ نفسه عن الشيخ .

ورأيتُ منهم جماعةً صاروا من أعيان جماعته .

وكان رضي الله عنه إذا افتتحَ المجلسَ بعد العشاء لا يختمُهُ في الغالب إلا مع الفجر ، فإذا صلَّى الفجرَ افتتحَ إلىٰ ضحوة النهار .

وأخبرني الشيخ محمد السنجيدي قال : كنَّا إذا زرنا الشيخ محمداً في ابتداءِ أمره في ناحية الحصَّة لا نرجعُ إلا ضعافاً من كثرة السهر ؛ لأنَّنا كنَّا نمكثُ عنده اليومين والثلاثة والأربعة ، لا يُمكننا النومُ بحضرته لا ليلاً ولا نهاراً ، فإن قراءة القرآن عنده دائماً ، فإذا فرغَ من القرآن افتتح الذكر ، فإذا فرغَ من الذكر افتتح القرآن ، وهـٰذا كان دأبَهُ إلىٰ أن مات رحمه الله .

وكان عنده جماعةُ سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه بمكانٍ ، وسمعته مرَّةً يُحدِّثه في القبر وسيدي أحمد يُجيبه .

وهو الذي أبطلَ البدعَ التي كانت الناسُ تطلع بها في مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ؛ من نهب أمتعة الناس وأكل أموالهم بغيرِ طيبةِ نفسٍ ، وتعلَّموا : أنه حرام ، وكانوا قبله يَرون أنَّ جميعَ ما يأخذونه من بلادِ الغربية حلالٌ ، ويقولون : هـٰذه بلادُ سيدي أحمد البدوي ، ونحن من فقرائه .

وكان يطلعون بالدُّفِّ والمزمار ، فأبطلَ ذلك ، وجعلَ عوضَه مجلسَ الذكر ، فينفتحُ الذكر من نواحي قحافة ، ويجتمعُ معه خلائق يذكرون إلىٰ أن يَدخلوا مقام سيدي أحمد ، ويحصلُ للناس برؤيتهم خشوعٌ عظيم ، وبكاء ورقَّة .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة بين الناس .

وأذنَ بتلقين الذكرِ لجماعةٍ قبل وفاته رضي الله عنه ، وأنشد : [من الطويل]

أَهيمُ بليلىٰ مَا حَيِيتُ وإنْ أَمتْ أُوَكِّلْ بليلىٰ منْ يَهيمُ بها بعدِي

فمن الجماعة : الشيخ شهاب الدين السُّبكي رضي الله عنه ، ومنهم الشيخ عبد الرحمـٰن المناوي ، ومنهم الشيخ أبو العباس الحريثي رضي الله عنه ، ثم الفقير ، رحمه الله ، وقال : قد صارَ معكم الإذنُ إذا فتحَ اللهُ عليكم ، وأما الآن فتلقَّنوا كلمةَ : (لا إلـٰه إلا الله) تشبهاً وتبرُّكاً بطريق القوم ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة .

ودفن بزاويته بمحلَّة روح ، وقبره بها ظاهر يُزار ، معمورٌ بالفقراء والمجاورين بواسطة ولده الشيخ عبدِ القدوس ، فسح الله في مُدَّته للمسلمين .

ولمَّا ودَّعتُهُ بزاويةِ سيدي محمد بن أبي الحمائل رضي الله عنه قال : ليس هـٰذا آخرَ الاجتماع ، لا بدَّ من اجتماعنا مرَّةً أُخرىٰ .

ولمَّا حضرتْهُ الوفاةُ ما علمتُ بذلك إلا من واردٍ ورد عليَّ ، قال : اذهبْ إلىٰ محلَّة روح ، فلم أستطعْ أردَّ نفسي عن ذلك الخاطر حتىٰ سافرتُ إليه تصديقاً لقوله : (لا بدَّ من الاجتماع مرةً أخرىٰ) ، فدخلتُ عليه فوجدتُهُ مُحتضراً ، ففتح عينيه وقال : أسألُ اللهَ ألا يخليك من نظره ولا من رعايته طرفةَ عينٍ ، وأن يسترَكَ بين يديه ، ثم تُوفِّي في تلك الليلة ، ودُفِنَ في غفلة من الناس ، واقتتلَ الناسُ على النعش ، وذهلتْ عقولُهم من عِظَمِ المصيبة بهم ؛ فإنَّه كان مُعدّاً لتفريج كربهم ، ساعياً في إرشادهم لخيرِ دنياهم وخير أخراهم ، رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٣٥٩) الشيخ عبد الحليم بن مُصلح المنزلاوي رضي الله عنه[١]

كان من الأخلاقِ النبوية علىٰ جانبٍ عظيم .

وكانَ كثيرَ التواضع والازدراء لنفسِهِ .

وجاءه مرَّةً شخص يطلبُ الطريق ، فقال له : يا أخي ؛ النجاسةُ لا تُطهِّرُ غيرَها .

وجاءه رضي الله عنه شخصٌ مرَّةً بجبَّةٍ صوف وقال له : يا سيدي ؛ اقبل مني هـٰذه الجبة ؛ لأني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيها الليلة ، وقبَّلني علىٰ صدري وأنا لابسُها ، فأبى الشيخ وقال : شيءٌ مسَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا أقدرُ علىٰ لبسه ؛ خوفَ أن يقعَ مني معصيةٌ وأنا لابسُها ، ولـٰكنْ نتبرَّكُ بها ، فمسح بها علىٰ وجهِهِ ، وردَّها علىٰ صاحبها .

وكان رضي الله عنه يُربِّي من كان عنده دعوىٰ بالمسارقة ، فيقرأ عليه شيئاً من أحوال القوم ، ثم يصيرُ يُوردُ عليه الأسئلةَ ، ويعطفُ عليه بالجواب ، بحيث يظنُّ ذلك الفقيرُ أنه هو الشيخ والشيخَ هو المريد .

وجاءه شخصٌ من اليمن ، فقال : أنا مأذون لي في تربية الفقراءِ من شيخي ، فقال له الشيخ عبد الحليم : الحمدُ لله ، الناسُ يُسافرون في طلب الشيخ ، ونحن الشيخُ جاء إلىٰ عندنا ، فتلقَّنَ على اليماني ولم يكنْ لذلك أهلاً ، وكان الشيخُ يُعلِّمُه في صورة المتعلِّم إلىٰ أن كمَّلَهُ وزاد حالُه ، ثم كساه عند السفر ، وزوَّده ، وصار يُقبِّلُ رِجْلَ اليماني ويقول : صرنا مَحسوبين عليكم .

ولقيه رجلٌ من أرباب الأحوال ، وكان مشهوراً بالكرامات ، فقال : يا عبد الحليم ؛ أنت مسكينٌ ، ما كنتُ أظنُّ مع هـٰذه الشهرة أنَّك عاجزٌ هـٰكذا ، ثم قبضَ هو دراهم من الهواء وأعطى الشيخ عبدَ الحليم ، فأثَّرَ ذلك في سيدي الشيخ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨٩) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٢٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٤٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٠٤) (٤٠٣) .

عبد الحليم ؛ ثم قال له : يا عبد الحليم ؛ اشتغلْ بالله تعالىٰ حتَّىٰ تصيرَ الدنيا في طوعِك هٰكذا ، فانقطع الشيخ عبد الحليم في الخلوة تسعةَ شهور ، يقرأُ في الليل ختماً وفي النهار ختماً ، ثم خرج يُنفقُ من الغيب إلىٰ أن مات .

وأقمت عنده في زاويته نحو سبعةٍ وخمسين يوماً ، فما رأيتُ الفقراءَ احتاجوا إلىٰ شيءٍ إلا ويُخرجُ لهم من كيسٍ صغير كعقدة الإبهام جميعَ ما يطلبونه ، ورأيتُهُ بعيني قبضَ منه ثمنَ خشبٍ من دمياط نحو خمسين ديناراً .

وكان رضي الله عنه لا يسألُهُ فقيرٌ شيئاً إلا أعطاه ، حتىٰ إنه يخرجَ بعمامته وجبَّتِهِ فيرجع بالفوطة في وسطه .

وعمَّر رضي الله عنه عدة جوامع في البحر الصغير ، وله جامعٌ بالمنزلة فيه فقراء ومجاورون ، وفيه سِماطٌ على الدوام ، ومارستان للضعفاء من الغرباء والمستضعفين .

وكراماته كثيرة مشهورة في بلاده رضي الله عنه .

مات رحمه الله سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة[1] .

وكان رضي الله عنه لا يُخصِّصُ نفسَه بشيءٍ من الهدايا الواصلةِ إليه ؛ بل أسوتُهُ بأسوة الفقراء في ذلك .

واجتمع عنده في زاويته نحو المئة نفس ، وهو يقومُ بأكلِهم وكسوتهم من غيرِ وقفٍ ، وإنما هم علىٰ ما يفتح الله عز وجل ، ولما وقفَ الناس عليه الأوقاف أخبرني أن الحال ضاق على الفقراء ، وقال : تعرفُ سببَهُ ؟ قلت : لا ، فقال : لركونِ الفقراء إلى المعلوم من طريقٍ معينة ، وكانوا قبلَ ذلك متوجِّهين بقلوبهم إلى الله تعالىٰ ، فكان يرزقُهم من حيث لا يحتسبون .

ومن مناقبه : أنه نصبَ عليه شخصٌ مرَّةً ، وأخذ منه أربع مئة دينار ليبني بها بئر ساقية ، ويجعلَ عليه سبيلاً في طريق غزة ، وقال : إنَّ الناس محتاجون إلىٰ ذلك ، فأخذ الفلوسَ وتزوَّجَ بها ، وفتحَ له دكَّاناً بها ، فلما استبطأه الشيخُ أرسل خلفه

(١) قال الغزي في « الكواكب السائرة » : (توفي بعد الثلاثين وتسع مئة ، وذكره ابن العماد في « الشذرات » ضمن وفيات سنة (٩٣١هـ) ، وقال : « وفيها تقريباً ») .

جماعةً ، فأخرجَ لهم إبريقَ ماءٍ حلو ، وقال لهم : هـٰذا من ماء البئر ، والناس يدعون للشيخ كثيراً ، فلما وردَ على الشيخِ جماعةٌ مسافرون سألهم عن البئر ، فقالوا : ليس هناك شيءٌ ، فأرسل يطلبه ، فجاء ، فقال له الشيخ : ما فعلت بالفلوس ؟ فقال للشيخ : الماءُ الذي أرسلتُهُ لك في الإبريق ، وقلتُ : إنه من البئر ؛ فإنَّ هـٰذا الكلامَ لا حقيقةَ له ، وإني تزوَّجتُ بالفلوس ، فأراد الفقراءُ حبسَه ، فمنعهم الشيخ ، وقال : الدُّنيا كلُّها لا تُساوي إرعابَ مسلم ، وخلَّىٰ سبيله .

وكان رضي عنه شديدَ المحبَّةِ لي ، حتىٰ قال لي مرةً : لا أحبُّ أحداً في مصرَ مثلك أبداً ، رضي الله عنه وأرضاه ، ورحمنا به آمين .

ومنهم :

(٣٦٠) الشيخ علي أبو خودة رحمه الله[١]

كان من أرباب الأحوال ، ومن الملامتية .

وكان يتعاطىٰ أسباب الإنكارِ عليه قصداً ، فإذا أنكرَ عليه أحدٌ عطبَه .

ورأيته خارجَ بابَ الشعرية وهو يقولُ لخادمه : أيش قلتُ : من يخلِّي هـٰذا الرجل هرارهُ في رجليه[٢] ؛ يعني : الشيخ عبد القادر الدَّشْطوطي ، فلما مرَّ عليه كركبتْ بطنُ الشيخ عبد القادر ، وساحَ هررُهُ على المسطبة التي كان قاعداً عليها ، فقال : الله يلقيك ، فعرف أنه أبو خودة رضي الله عنه ، وكان الشيخُ عبد القادر قد كُفَّ بصرُه .

وكانت خودةُ سيدي عليٍّ من الحديد ، وكان زنتُها قنطاراً وثلثاً ، لم يزلْ حاملَها ليلاً ونهاراً .

وكان شيخاً أسمرَ قصيراً ، وكان معه عصاً لها شُعبتان ، كلُّ من زاحمه ضربَهُ بها .

وكان يهوى العبيدَ السود والحُبُشَ ، لم يزلْ عنده نحو العشر يلبسون الخودَ ، لكلِّ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٢٤) (أبو خوذة) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٠٢) (٤٥٣) .

(٢) **الهرار** : داء تسلح منه من أيِّ داءٍ كان ، وهو عند العامة : استطلاق البطن . « متن اللغة » (٥/ ٦٢٣) .

واحدٍ منهم حمارٌ يركبه ، فكانوا هم جماعتَهُ ، كلَّ موضعِ ركب يركبون معه ، وما رآه أحدٌ يُصلِّي مع الناس إلا وحده .

وكان إذا رأى امرأةً أو أمردَ راودَهُ عن نفسه ، وحسَّسَ على مقعدته ، سواء كان ابنَ أميرٍ ، أو ابنَ وزير ، ولو كان بحضرة والده ، أو غيره ، ولا يلتفتُ إلى الناس ، ولا عليه من أحدٍ[١] .

وكان إذا حضرَ السماعَ يحملُ المُنشد ، ويَجري به كالحصان .

وأخبرني الشيخ يوسفُ الحُريثي رضي الله عنه قال : كنتُ يوماً في دمياط ، فأرادَ السفرَ في مركبٍ قد انوسقَتْ[٢] ، ولم يبقَ فيها مكانٌ لأحد ، فقالوا للريس : إن أخذتَ هذا غرقتِ المركبُ ، لأنَّه يَفعلُ في العبيد الفاحشة ، فأخرجه الريسُ من المركب ، فلما أخرجوه من المركب قال : يا مركب ؛ تسمَّري ، فلم يقدر أحدٌ يُسيِّرها بريحٍ ، ولا بغيره ، وطلعَ جميعُ من فيها ، ولم تسر .

وأخبرني أيضاً : أنه نزلَ معه في مركبٍ ، فمرس عليها الريح ، فضربَها بعكَّازه ، فلم تتزحزح ، فنزل هو وعبيده يَمشون على الماء إلى أن وصلوا إلى شربين ، والناسُ يَنظرون إليهم .

وكان يَخرجُ خلقَهُ على قرقماس أمير كبير ، كان على أيام السلطان الغوري[٣] ، فيضربُهُ بحضرة جنده ، فإذا آلمه الضَّربُ يهربُ منه ، فيتبعه ، فإذا قفلَ عليه البابَ خلعه ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يردَّه حتى يرجعَ هو باختياره .

اجتمعت به مرَّاتٍ عديدةً ، وقال لي مرةً : احذر أن تنيكك أمُّك ، فقلت لعبدٍ من عبيده : ما معنى كلام الشيخ ؟ قال : يحذِّرك أن يدخلَ حبُّ الدنيا في قلبك ؛ لأنَّ الدنيا هي أمُّك .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) **انوسقت** : أي : امتلأت .

(٣) في (أ) : (قرقماش) ، **وأمير كبير** : واحد من الأمراء كبير السن ، وصاحب خبرة ، في مقام معلم السلطان ، وكبير مستشاريه . « النجوم الزاهرة » (١٠/ ٣٢٥) .

مات سنة نيّف وعشرين وتسع مئة ، ودُفن بزاويته بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردي ، رضي الله عنه ، ورحمنا به والمسلمين .

ومنهم :

(٣٦١) الشيخ محمد الشِّربيني رضي الله عنه[1]

شيخُ طائفة الفقراء بالشرقية .

كان من أرباب الأحوال والمكاشفات .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ علىٰ سائر أقطار الأرض كأنَّه تربَّىٰ فيها .

ورأيتُهُ مرَّةً وهو لابس بشتاً من ليف ، وعِمامتُه ليف .

ولما ضعف ولدُهُ أحمد ، وأشرفَ على الموت ، وحضر عزرائيلُ لقبضِ روحه . . قال له الشيخ : ارجع إلىٰ ربِّك فراجعْه ، لأنَّ الأمرَ نُسِخَ ، فرجع عزرائيلُ ، وشفي أحمدُ من تلك الضعفة ، وعاش بعدها ثلاثين عاماً .

وكان رضي الله عنه يقول للعصا التي كانت معه : كوني إنساناً ، فتكون إنساناً ، ويُرسلها تقضي الحوائجَ ، ثم تعودُ كما كانت .

وكراماته كثيرة .

وكان رضي الله عنه يخرجُ من بلده شِربين كلَّ ليلةٍ من المغرب ، لا يرجع إلى الفجر لا يعلمون إلىٰ أين يذهب .

وكان الأمير قرقماس أمير كبير وغيرُهُ من الأمراء يعتقدونه اعتقاداً زائداً ، وعمَّرَ له زاويةً عظيمة لم تكمل .

وكان من طريقته : أنَّه يأمرُ مُريديه بالشحاتة على الأبواب دائماً في بلده ،

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٥٤) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٩٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٩٧) (٤٥٢) ، والشربيني : نسبة إلىٰ شِربين ، قاعدة مركز شربين ، من أعمال الغربية « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ٧٨) .

ويتعمَّمُون بشراميط البرد السود ، والحمر ، والحبال .

وكان الشيخ محمد بن عنان وغيرُهُ يُنكرون عليه ؛ لعدم صلاته مع الجماعة ، ويقولون : نحن ما نعرف طريقاً تقرِّبُ إلى الله تعالىٰ إلا ما درجَ عليه الصحابة والتابعون.

وكان يقبضُ من الهواء كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه للبيت وغيره ، ويعطيه لهم .

وأخبر بدخول ابن عثمان السُّلطان سليم قبل دخوله بسنتين ، وكان يقول : أتوكم محلِّقي اللِّحىٰ ، فكان الناسُ يضحكون عليه لقوَّةِ التمكين التي كانت الجراكسة عليه ، فما كانَ أحدٌ يظنُّ انقراضَهم في مدةٍ يسيرة .

مات رحمه الله تعالىٰ قبيل العشرين والتسع مئة ، ودفن بزاويته بشِربين ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٢) الشيخ علي الذؤيب رضي الله عنه[(١)]

كان بنواحي البحر الصغير .

كان رضي الله عنه من الملامتية الأكابر .

وأرسل لي السلامَ مرَّاتٍ ، ولم أجتمعْ به إلا في النوم ، وذلك أني سمعتُ قائلاً يقول : لا إلـٰه إلا الله ، عليٌّ الذُّؤيب قطبُ الشرقية ، وما كنتُ سمعت باسمه ، فسألتُ جماعةَ الشيخ محمد بن عنان ، فأخبروني به وقالوا : له وجود ، وهو شيخُ الشيخ محمد العدل الطناحي ، وكان يلبسُ عِمامةَ الجمَّالين ونعلهم .

وعُمِّر أكثرَ من مئة سنة ، رضي الله عنه .

وكان مُقيماً في البرية ، لا يدخلُ بلدَهُ إلا ليلاً ، ويخرجُ قبل الفجر .

وكان رضي الله عنه يمشي على الماء في البحر ، وما رآه أحدٌ قطُّ نزلَ في مركبٍ .

وجاء إلىٰ مصر ، أقامَ بها عشرين سنة .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢١٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٨٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٠٥) (٤٥٠) .

وكان لم يزل واقفاً تجاه المارستان بين القصرين من الفجرِ إلىٰ صلاة العشاء وهو متلثِّمٌ ، وبيده عصاً من شوم، ثم تحوَّلَ إلى الريف ، وظهرتْ لَه كراماتٌ خارقةٌ للعادة .

وكان رضي الله عنه يقول : (فلانٌ ماتَ في الهند ، أو في الشام ، أو في الحجاز) ، فبعد مدَّةٍ يأتي الخبرُ كما قال الشيخ .

ولما ماتَ رأوا في داره نحو المئة ألف دينار ، وما علموا أصلَ ذلك ؛ فإنه كان متجرِّداً من الدنيا ، فأخذها السُّلطان .

مات رحمه الله بالقباب بالشرقية ، ودُفن في داره رحمه الله سنة سبعٍ وثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه[1] .

ومنهم :

(٣٦٣) الشيخ أحمد السطيحة رضي الله عنه[2]

كان من الرجال الراسخين .

صحبته عشرين سنة ، وأقام عندي أياماً وليالي .

وكان رضي الله عنه يقول لي : (ما أحببتُ أحداً في عمري قدرَك) .

وكان رضي الله عنه علىٰ قدمِ الشيخ محمد الفرغل رضي الله عنه في لبسِهِ كلَّ جمعةٍ زربوناً جديداً يقطِّعه[3] ، مع أنَّه سطيحةٌ لا يتحرك .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ في الخواطر ، ويقضي حوائجَ الناس عند الأمراء وولاةِ الأمور ، وطريقه مخلاة بلا معارض .

ووقعت له كراماتٌ كثيرة ؛ منها : أنَّ أم زوجته تسللتْ عليه ليلةً ، فرأتْهُ قد انتصبَ

---

(١) الذي ذكر في مصادر ترجمته : أنه توفي سنة سبع وأربعين وتسع مئة .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٣٢) (السطيح) و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٢٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٠٦) (٤٥١) .

(٣) في النسخ عدا (ط) : (مركوباً) بدل (زربوناً) ، والمثبت من (ط) ، وهو الموافق لما جاء في ترجمة الشيخ محمد الفرغل ، والزربون : هو ما يلبس في الرِّجل ، كما تقدم (٢/ ٣٠٤) .

قائماً سليماً من الكساح كأحسنِ الشباب ، فلما شعرَ بها زجرها ، فخرستْ وتكسَّحتْ وعميت إلىٰ أن ماتت .

وكان رضي الله عنه لم يزلْ في عصمته أربعُ نساء .

وكانت كفُّه أَلينَ من العجين ، خفيَّ الصوت لا يتكلَّمُ إلا همساً ، كثيرَ المُباسطة ، خفيفَ الذات .

ولما وردتُ عليه من بلدِ سيدي أحمد البدوي[1] قال : كم نفر معك ؟ فقلتُ : سبعة ، قال : قَلَّ بيت الوالي ، ثم ضيَّفنا ضيافةً كثيرة تلك الليلة .

وكان علىٰ زاويته الواردُ كثير ؛ يعشِّي ويعلِّق على البهائم ، وله زرعٌ كثير ، والناسُ تقصدُهُ بالهدايا من سائر البلاد .

وكان يحضنُهُ خادمُه ويضعه على الفرسِ كالطفل ، وله طرطورُ جلدٍ طويل ، وله زناقٌ من تحت ذقنه ، ويلبس الجُببَ الحمر .

وكانت آثارُ الولاية لائحةً عليه ، إذا رآه الإنسانُ لا يَكادُ يُفارقه .

وحاكىٰ إنسانٌ به ، وعملَ له طرطوراً ، وركبَ علىٰ فرسٍ في حِجر خادمٍ ، فانكسرتْ رقبته ، فصاح : اذهبوا بي إلى الشيخِ أحمد السطيحة ، فأتوه به ، فضحك الشيخُ عليه ، وقال : تُزاحمني على الكساحِ ، تُبْ إلى الله ، ورقبتك تطيبُ ، فتابَ واستغفر ، فأخذ الشيخ زيتاً وبصقَ فيه ، وقال : ادهنوا به رقبتَهُ ، وكانتْ وارمةً مثل الخلاية ، فصارت تنقصُ إلىٰ أن زالَ الورم ، وقلعَ الطرطورَ ، وصار يخدمُ الشيخَ إلىٰ أن مات .

وكان من بلدٍ تُسمَّىٰ بطا[2] ، وكان ببولاق ، فنزل في مركبٍ ليسافر ، وكان الريس لا يعرفُهُ ، فطلَّعه هو وجماعته ، فلما أن طلعَ الشيخُ انخرقتِ المركبُ ، وغرقت بجانب البر ، فأخذوا بخاطر الشيخ ، فقال الشيخُ للريِّس : سدَّ خرق مركبك ؛ فإنَّنا لم نعدْ ننزل معك .

---

(١) هي مدينة طنطا .

(٢) بطا : من القرى القديمة ، على الضفة الغربية لفرع النيل ، من أعمال قوسينا ، « قاموس رمزي » (٢/٢/٢٠١) .

ومن مناقبه رضي الله عنه : أنَّ بعضَ الفلاحين سخر بطرطوره ، وأكلَ شوك اللحلاح ، فوقفتْ شوكةٌ في حلقه ، فمات في الحال .

وخطب مرَّةً بنتاً بكراً ، فأبت ، وقالت : أنا ضاقتْ عليَّ الدُّنيا حتىٰ أتزوَّجَ بسطيحة ؟! فلحقها الفالجُ ، فلم ينتفعْ بها أحدٌ إلىٰ أن ماتت .

وطلبته بنتٌ بنفسها ، فقال لها البنات : يا امرأة المكسَّح ، وعايروها ، فدخل بها الشيخ ، وأزالَ بكارتها ، وساحَ الدمُ حتىٰ ملأَ ثيابها ، ووضعوا ثوبَها بالدمِ علىٰ رمحٍ في الدار لينظره الناس .

ومن كراماته : أنَّه شفعَ عند أميرٍ من الأمراء كان نازلاً بمنف ، فقبل شفاعته ، فلما خرجَ من عنده رجع وحبسَ الرجلَ ثانياً ، فطلعتْ في رقبته غدَّةٌ فخنقته ، فمات في يومه .

ومن كراماته : أنَّ امرأة تكسَّحتْ ، وعجزَ الأطباء عن دوائها مدَّةَ أربع سنين ، فدخل الشيخُ لها ، وبصقَ في شيءٍ من الزيت ، وقال : ادهنوا بدنها ، فدهنوه في حضرة الشيخ ، فبرئتْ .

وحضر مجلسَ سماع في ناحية دسوق ، فطعنه فقيرٌ عجمي تحت بزِّه ، فقال : طعنني العجمي ، ثم قال : يا ربِّ ؛ خذْ لي حقِّي ، فأصبح العجميُّ مشنوقاً علىٰ حائطٍ لا يدرون من شنقه .

ومن كراماته : أنه وقفَ علىٰ باب زاويتي مرَّةً وهو في شفاعةٍ عند الباشاه ، فقال : يكونُ خاطرُكم معنا في هـٰذه الشفاعة ، فأخذتني حالةٌ ، فرأيت نفسي واقفاً علىٰ باب الكعبة ، فقال : يا هوه ؛ أبعدتَ عنا !

وكان رضي الله عنه يعرف سريان القلوب .

وكان رضي الله عنه صائمَ الدهر .

توفِّي سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بشبرا قبالة بالغربية[1] ، وقبره ظاهر يُزار .

---

(١) **شبرا قبالة** : من القرى القديمة ، من أعمال جزيرة قوسينا ، من أعمال الغربية . انظر « قاموس رمزي » (٢/٢/٢٠٣) .

وكان يدعو عليها بالخراب ، وعلىٰ أهلها الذين كانوا يُنكرون عليه ، فوقع بينهم القتل ، وخربوا ، وهي خرابٌ إلىٰ وقتنا هـٰذا ، فقلتُ له : الفقيرُ يعمِّرُ بلده وإلا يخرِّبها ؟! فقال : هـٰؤلاء مُنافقون ، وفي حصادهم مصلحةٌ للدِّين ، فنسأل الله أن يحفظنا من الشيطان ، والحمد لله وحده .

ومنهم :

(٣٦٤) الشيخ بهاء الدين المجذوب رضي الله عنه[١]

المدفون بالقرب من باب الشعرية بزاويته .

كان رضي الله عنه من أكابر العارفين ، وكان كشفُهُ لا يُخطئ .

وكان رضي الله عنه أولاً خطيباً في جامع الميدان ، وكان أحدَ شهود القاضي ، فحضرَ يوماً عقدَ زواجٍ ، فسمع قائلاً يقول : هاتوا النار جاء الشهودُ ، فخرجَ هائماً علىٰ وجهه ، فمكثَ ثلاثةَ أيام في الجبل المقطَّم لا يأكلُ ولا يشرب ، ثم ثقلَ عليه الحال ، فخرجَ بالكلية .

وكان رضي الله عنه يحفظ « البهجة »[٢] ، فكان لا تزال تسمعه يقرأ فيها .

وذلك أنَّ كلَّ حالةٍ أُخذ العبدُ عليها يستمرُّ فيها ، ولو خرجَ عنها يرجعُ إليها سريعاً ، حتىٰ إنَّ من المجاذيب من تَراه مَقبوضاً على الدوام ؛ لكونه جُذبَ علىٰ حالةِ قبضٍ ، ومنهم من تراه مَبسوطاً ، وهـٰكذا .

وكان الشيخُ فرج المجذوب[٣] رضي الله عنه لم يزل يقول : عندك رزقة فيها خراجٌ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٤٩) (بهاء الدين القادري) و« جامع كرامات الأولياء » (١/٣٦٩) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/٢٧٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٠٩) (٤٥٦) .

(٢) **البهجة الوردية** : هو نظم لكتاب « الحاوي الصغير » في فروع الشافعية ، نظمه زين الدين عمر بن المظفر الوردي (ت ٧٤٩هـ) وهو خمسة آلاف بيت ، وله عدَّة شروح . انظر « كشف الظنون » : (١/٦٢٧) .

(٣) ستأتي ترجمته (٢/٤٠٠) (٣٧٢) .

ودجاج ، وفلاحون ؛ لكونه جُذب وقتَ اشتغالِهِ بذلك .

وزمن المجذوبِ من حين يُجذب إلىٰ أن يموتَ زمنٌ فردٌ ، لا يدري بمرورِ زمان عليه .

ورأيت ابن البجائي[١] رضي الله عنه لم يزل يقول : الفاعل مرفوع ، والمخفوض مجرور ، وهٰكذا ؛ لأنَّه جُذبَ وهو يقرأ في النحو .

ورأيت القاضي ابنَ عبد الكافي رضي الله عنه لما جُذبَ لم يزلْ يقول وهو في بيت الخلاء وغيره : ولا حقَّ ، ولا استحقاق ، ولا دعوىٰ ، ولا طلب ، ولا غير ذلك .

ومن وقائعه رضي الله عنه : أنَّنا حضرنا يوماً معه وليمةً ، فنظر للفقهاء في الليل ، وزعق فيهم ، وقال لهم : كفرتُم بكلام الله ، ثم حذفهم بقلَّةٍ من الماء كانت بجانبه ، فصعدت إلىٰ نحو السقف ، ثم نزلت ، فقال فقيهٌ منهم : كسر القلَّة ، فقال له : كذبت ، فوقعت على الأرض صحيحةً كما كانت ، فبعد خمسَ عشرة سنة رأى الفقيهَ ، فقال له : أهلاً بشاهد الزور الذي يشهدُ أن القلَّةَ انكسرت .

ومكاشفاته مشهورة بين أكابر مصر من المباشرين وعامة الناس .

مات رحمه الله سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه وأرضاه ، آمين[٢] .

ومنهم :

(٣٦٥) الشيخ عبد القادر الدَّشْطوطي رضي الله عنه[٣]

كان من أكابر الأولياء رضي الله عنه .

صحبته نحو عشرين سنة ، وحصلَ لي منه نفحاتٌ وجدتُ بركتها .

---

(١) في « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٣٢٥) : (البخاتي) .

(٢) ذكر المناوي في « طبقاته » سنة وفاته : (٩٢٢هـ) .

(٣) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٣٠٠) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٨٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٤٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٨٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٩٥) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/ ٢٦٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣١١) (٤٥٧) ، قال السخاوي في « الضوء اللامع » : (الطشطوطي بطاءات مهملات =

وكان صاحياً ، وهيئتُهُ هيئةُ المجاذيب رضي الله عنه .

وكان مكشوفَ الرأس حافياً ، ولما كُفَّ صار يتعمَّم بجبةٍ حمراءَ ، وعليه جبةٌ أخرىٰ ، فإذا اتَّسختْ تعمَّم بالأُخرىٰ .

واجتمعتُ به في أول يومٍ من رمضان سنة اثنتي عشرة وتسع مئة ، وكنتُ دون البلوغ ، فقال : اسمعْ مني هـٰذه الكلمات واحفظْها تجدْ بركتَها إذا كبرتَ ، فقلت له : نعم ، فقال : يقول الله عز وجل : يا عبدي ؛ لو سقتُ إليك ذخائر الكونين ، فملتَ بقلبِكَ إليها طرفةَ عينٍ . . فأنتَ مشغولٌ عنَّا لا بنا ، فحفظتُها ، فهـٰذه بركتها .

وقال لي أموراً أُخر لم يأذنْ لي في إفشائها .

وكان يُسمَّىٰ بين الأولياء صاحب مصر .

وقالوا : إنه ما رئي قطُّ في معدية ، إنما كانوا يرونَهُ في مصر وفي الجيزة .

وحجَّ رضي الله عنه ماشياً حافياً .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغَمْري رحمه الله : أنه لما وصلَ إلى المدينة المشرَّفة وضع خدَّه علىٰ عتبة بابِ السلام ، ونام مدَّةَ الإقامة ، حتىٰ رجعَ الحجُّ قام ، ولم يدخلِ الحرمَ .

وعمَّر عدَّة جوامع في مصر والريف .

وكان رضي الله عنه له القبولُ التامُّ عند الخاص والعام ، وكان السلطان قايتباي يُمرِّغُ وجهه علىٰ أقدامه .

ومن مناقبه : أنهم زوَّروا عليه برجلٍ كان يُشبهُهُ ، فأجلسوه في تربةٍ مهجورة في القَرَافة ليلاً ، وراحوا إلى السلطان ، وقالوا له : إنَّ سيدي عبدَ القادر الدشطوطي يطلبك في القَرَافة ، فنزل إليه ، وصار يقبِّلُ أقدامه ، فقال الرجلُ المزوَّر عليه : الفقراءُ محتاجون لعشرة آلاف دينار ، فقال السلطان : باسم الله ، فمضىٰ ، ثم أرسلها له ،

= وشين معجمة كما على الألسنة ، وربما جعلت الشين جيماً ، ولـٰكن الصواب الدشطوخي بدال مهملة مكسورة ،و بعد الشين المعجمة طاء مهملة ، وبعد الواو خاء معجمة ، وهي قرية من كورة البهنساوية بالصعيد) .

فبلغ السُّلطانَ أنهم زوَّروا عليه ، فأرسل خلف المزورِ وضربه إلىٰ أن مات .

وكان من شأنه التطوُّرُ ، وحلفَ اثنان بالطلاق أنَّ الشيخَ نامَ عند كلٍّ منهما إلى الصباح في ليلةٍ واحدة في مكانين ، فأفتىٰ شيخ الإسلام الشيخ جلال الدين السيوطي بعدم وقوع الطلاق .

وأخبرني الأميرُ يوسف بنُ أبي إصبع قال : لما أراد السُّلطان قايتباي أن يسافرَ إلىٰ بحر الفرات استأذنَ الشيخ عبد القادر الدشْطوطي في السفر ، فأذنَ له ، قال الأميرُ يوسف : فكنَّا طولَ الطريق ننظره يمشي أمامنا ، فإذا أرادَ السُّلطان ينزل إليه يختفي ، فلما دخلنا حلبَ وجدنا الشيخَ رضي الله عنه ضعيفاً بالبطن في زاويةٍ بحلب ، له مدَّة خمس شهور ، فتحيَّرنا في أمره رضي الله عنه .

ودخلتُ عليه وأنا شابٌّ أعزبُ ، فقال لي : تزوَّجْ واتَّكل على الله ، خذْ بنت الشيخ محمد بن عنان ؛ فإنَّها صبيةٌ هائلة ، فقلتُ : ما معي شيءٌ من الدنيا ، فقال : بلىٰ ، قل : معي أشرفي[1] ، قل : اثنان ، قل : ثلاثة ، قل : أربعة ، قل : خمسة ، وكان لي عند شخص بنواحي المنزلة ذلك القدرُ ، فحسبه الشيخ ، وكنتُ أنا ناسيه .

ثم أذَّنَ الظُّهر ، فتغطَّى الشيخُ بالملاية ، وغاب ساعةً ، ثم تحرَّك ، ثم قال : الناسُ معذورون ، يقولون عبدُ القادر ما يُصلِّي ، واللهِ ؛ ما أظنُّ أني تركتُ الصلاةَ منذ جُذبت ، ولـٰكنْ لنا أَماكنُ نُصلِّي فيها ، فقلت للشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه ، فقال : صدق ، له أماكنُ ، إنه يُصلِّي في الجامع الأبيض برملة لُدٍّ .

وسمعته مرَّةً يقول : كلُّ من قال : السعادةُ بيد أحدٍ غيرِ الله كذب ، وإني كنتُ جهدان في الدنيا ، يُضربُ بي المثلُ ، فحصل لي جاذبٌ إلـٰهي ، وصرتُ أغيب اليومين والثلاثة ، ثم أفيقُ أجدُ الناس حولي ، وهم متعجِّبون من أمري ، ثم صرت أغيبُ العشرة أيام ، والشهر ، لا آكلُ ولا أشرب ، فقلت : اللهم ؛ إن كان هـٰذا واردٌ منك فاقطع علائقي من الدنيا ، فماتَ الأولادُ ووالدتُهم والبهائم ، ولم يبقَ أحدٌ دون أهل البلد ، فخرجتُ سائحاً إلىٰ وقتي هـٰذا ، فهل كان ذلك في قدرةِ العبد ؟! قلت له : لا .

---

(١) الأشرفي : عملة نقدية منسوبة إلى السلطان الأشرف .

وسمعته يقول للشيخ جلالِ الدين البكري : يا جلال الدين ؛ وقفُنا هـٰذا كلُّه للفقراء والمساكين والمتكشِّفي الركب ، وكأني بك وقد جاؤوا إليك بسياق فلان وفلان ، اجعل لهـٰذا وظيفة ، فتخربُ المكان .

وكان رضي الله عنه عالماً بأحوال الزمان ، وما الناسُ عليه .

وكان رضي الله عنه أكثر ما يبات عند شخصٍ نصرانيٍّ في باب البحر ، فيلومُه الناس ، فيقول : هـٰذا مسلمٌ ، ومن بركته أسلمَ النصراني علىٰ يديه ، وحسن إسلامه .

وسمعتُه يقول وقد سأله الشيخُ شمسُ الدين البهنسي عن جماعةٍ في مصر من الفقراء الذين في عصره ، فقال : يا ولدي ؛ هـٰؤلاء بعيدون عن الطريق ، والله ؛ ما يذوقون قشرَ الطريق فضلاً عن لبِّها .

ولما دنتْ وفاتُهُ أكثرَ من البكاء والتضرُّعِ .

وكان يقولُ للبنَّاء الذي يَبنىٰ في القبَّة : عجِّل في البناء ، فإنَّ الوقتَ قد قربَ ، فمات ، وبقي منها يومٌ ، فكملتْ بعد موته ، ودُفن في قبره ، وأوصىٰ ألا يُدفنَ معه أحد ، وأوصىٰ أن يُعملَ فوقه وجانبه مجاديلُ حجرٍ ، حتىٰ لا تسعَ أحداً يُدفن معه .

مات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة[1] ، وصلَّىٰ عليه ملكُ الأمراء خير بك ، وجميع الأمراء ، وأكابر مصر .

وكراماتُهُ مشهورةٌ في مصر والبلاد التي كان يمرُّ عليها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٦) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي حسن العراقي رضي الله عنه[2]

المدفون بالكوم خارج باب الشعرية ، رضي الله عنه بالقرب من بركة الرطلي ، وجامع البشيري .

---

(١) كذا ذكر المناوي في « طبقاته » ، وفي « الكواكب السائرة » ، و« الشذرات » أن وفاته سنة (٩٢٤هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٦١) (حسين) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٨٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣١٥) (٤٥٨) .

ترددتُ إليه مع سيدي أبي العباس الحُريثي ، وقال : أُريد أن أَحكي لك حكايتي من مبتدأ أمري إلىٰ وقتي هـٰذا ، كأنَّك كنتَ رفيقي من الصغر[١] ، فقلت له : نعم ، فقال : كنتُ شاباً من دمشق ، وكنتُ صانعاً ، وكنَّا نجتمعُ يوماً في الجمعة[٢] على اللهو واللعب والخمر ، فجاءني التنبيهُ من الله تعالىٰ يوماً : ما لهـٰذا خُلقتَ ، فتركتُ ما هم فيه ، وهربتُ منهم ، فتبعوني ، فلم يُدركوني ، فدخلتُ جامعَ بني أمية ، فوجدتُ شخصاً يتكلَّمُ على الكرسيِّ في شأن المهدي عليه السلام ، فاشتقتُ إلىٰ لقائه ، فصرتُ لا أسجدُ سجدةً إلا وسألتُ الله تعالىٰ أنْ يَجمعني عليه ، فبينما أنا ليلةً بعد صلاة المغرب أُصلِّي صلاةَ السُّنة ، وإذا بشخصٍ جلس خلفي ، وحسَّسَ علىٰ كتفي ، وقال لي : قد استجابَ اللهُ تعالىٰ دعاءك يا ولدي ، ما لك ؟ أنا المهدي ، فقلت له : تذهبُ معي إلى الدار ؟ فقال : نعم ، فذهب معي ، فقال : أخلِ لي مكاناً أنفرد فيه ، فأخليت له مكاناً ، فأقام عندي سبعةَ أيام بلياليها ، ولقَّنني الذكر ، وقال : أُعلِّمُك وردي ، تدومُ عليه إن شاء الله تعالىٰ : ثم تصومُ يوماً ، وتُفطر يوماً ، وتُصلِّي كلَّ ليلةٍ خمس مئة ركعة ، فقلت : نعم ، فكنت أُصلِّي خلفَه كلَّ ليلةٍ خمس مئة ركعة ، وكنتُ شاباً أمردَ حسنَ الصورة ، فكان يقول لي : لا تجلسْ قطُّ إلا ورائي ، فكنتُ أفعل ، وكانت عِمامته كعمائم العجم ، وعليه جبَّةٌ من وبر الجمال ، فلما انقضتِ السبعةُ أيام خرجَ ، فودَّعتُهُ ، وقال لي : يا حسنُ ؛ ما وقعَ لي قطُّ مع أحدٍ ما وقع معك ، فدمْ علىٰ وردك حتىٰ تعجزَ ، فإنك ستُعمَّرُ عُمراً طويلاً . انتهىٰ كلام المهدي .

قال : (فعمري الآن مئةٌ وسبعة وعشرون سنة) .

قال : (فلما فارقني المهدي عليه السلام خرجتُ سائحاً ، فرحتُ إلىٰ أرض الهند والسند والصين ، ورجعتُ إلىٰ بلاد العجم والروم والمغرب ، ثم رجعتُ إلىٰ مصر بعد خمسين سنة سياحة .

---

(١) وكذا تقدم في ترجمة الشيخ زكريا الأنصاري أنه قال للشعراني : (أحكي لك أمري من ابتدائه إلى انتهائه إلىٰ وقتنا هـٰذا) .

(٢) في (ح) : (يوم الجمعة) .

فلما أردتُ الدخول إلىٰ مصر منعوني من ذلك ، وكان المُشارُ إليه فيها سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، فأرسلَ يقول لي : أقمْ في القَرَافة ، فأقمتُ في قبَّةٍ مهجورةٍ عشرَ سنين ، تخدمني الدنيا في صورة عجوز ، تأتيني في كل يومٍ برغيفين وإناءٍ فيه طعام ، فلا كلَّمْتُها ولا كلَّمتني قطُّ .

ثم سألتُ في الدخول ، فأذنوا لي أن أسكنَ في بركة القرع ، فأقمت فيها سنين عديدة في راحةٍ ، ثم جاء الشيخ عبد القادر الدشْطوطي رضي الله عنه يُريد أن يَبني له جامعاً هناك ، فصار يُثاقلني ويقول : اخرجْ من هـٰذه الحارة ، فقلتُ له يوماً : ما لك ولي ؟! أنا ما لي أحدٌ يَعتقدني من الأمراء ، ولا من غيرهم ، فما لك ولي ؟! فلم يزلْ بي حتىٰ خرجتُ إلىٰ هـٰذا الكوم ، فسكنتُ فيه سبعَ سنين ، فبينما أنا ذات يومٍ جالس هنا إذ طلعَ عليَّ الدشْطوطيُّ ، فقال : انزلْ من هـٰذا الكوم ، فقلتُ : لا أنزل ، فخرجتِ النَّفَسُ مني ومنه ، فدعا عليَّ بالكساح ، فتكسَّحتُ ، ودعوتُ عليه بالعمىٰ فعمي ، فهو كالطوبة الآن هناك ، وأنا رمَّةٌ في هـٰذا الموضع ، وأنا أُوصيك يا عبد الوهاب : أنَّك لا تُصادمْ أحداً قطُّ بنفسٍ ، وإن صادمك فلا تُصادمْه ، وإن قال لك : اخرجْ من زاويتك أو دارك فاخرجْ ، وأَجرُك على الله تعالى) انتهى .

وكان رضي الله عنه إذا جاءه شخصٌ بجوخةٍ ، أو ثوبِ صوف يأخذُ السكينَ ، ويشرحُها سيوراً سيوراً ، ثم يَخيطُها بخيطٍ دارج ومسلة ، ويقول : إنَّ نفسي تميلُ إلى الأشياء الجديدة ، فإذا قطَّعتُها لم يبقَ عندها ميل .

توفي رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة[1] ، ودُفِنَ في القبة التي في الكوم المتقدم ذكرُه ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في « الكواكب السائرة » (١/ ١٨٤) : (نيف وعشرين وتسع مئة) .

ومنهم :

(٣٦٧) الشيخ إبراهيم عُصيفير رحمه الله[١]

كان خطُّه الذي يمشي فيه من باب الشعرية إلىٰ قنطرة الموسكي إلىٰ جامع الغَمْري .

وكان كثيرَ الكشف ، وله وقائعُ مشهورةٌ .

وكان أصله من البحر الصغير .

وظهرتْ له الكراماتُ وهو صغير :

منها : أنه كان ينامُ في الغيط ، ويأتي البلد وهو راكب الذئب أو الضبع .

ومنها : أنه كان يمشي على الماء ، لا يحتاجُ إلىٰ مركب .

وكان بولُه كاللبن الحليب أبيض .

وكان يغلبُ عليه الحال ، فيُخاصم ذبابَ وجهه .

وكان يتشوَّشُ من قول المؤذن الله أكبر ، فيرجمه ويقول : عليك يا كلب ، نحن كفرنا يا مسلمين حتىٰ يكبروا علينا ؟![٢] .

وما ضبطتُ عليه قطُّ كشفاً أخرم فيه .

وليلةَ أُحرقتْ منارةُ المدرسة التي هي مسكنُنا بين السورين . . أخذ من إنسانٍ نصفين ، وأعطاهما للسقاء ، وقال : كبَّ هـٰذه الراوية علىٰ هـٰذا الحريق ، فصبَّه على الأرض تجاه المدرسة ، فقال الناسُ للسقاء : اللهم ؛ إن هـٰذا مجذوبٌ ما عليه حرجٌ ، تصبُّ الماءَ على الأرض خسارة ، فطلع الوقَّادُ تلك الليلة ، فأوقدَ المنارة ، ورشقَ الجنيب في حائطها ، وكانتْ خشباً ، ونزلَ ، ونسيه ، فاحترقتْ تلك الليلة ، ووقعتِ الثلاثةُ أدوار ، كأنَّ إنساناً نزعها ، وحملها ، ووضعها على الأرض ممدودةً في الشارع لم تُصبْ أحداً من الجيران .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣١٦) ، و« الكواكب السائرة » (٢/٨٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٣٤٨) ، و« الخطط التوفيقية » (٢/٣٤٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣١٧) (٤٥٩) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

وكان رضي الله عنه يقول : جاكم ابن عثمان ، جاكم ابن عثمان ، فكان غز الغوري يسخرون به .

وكان كثيرَ الشطح .

وكان أكثرُ نومهِ في الكنيسة ، ويقول : النصارىٰ لا يسرقون النعال في الكنيسة ، بخلاف المسلمين .

وكان يقول : (أنا ما عندي من يصومُ حقيقةً إلا من لا يأكل اللحم الضاني أيام الصوم ؛ كالنصارىٰ ، وأما المُسلمون الذين يأكلونَ اللحم الضاني ، والدجاجَ أيام الصوم ، فصومهم عندي باطل) .

وكان يقول لخادمه : (أوصيك ألا تفعلَ الخيرَ في هـٰذا الزمان ، فينقلب عليك بالشرِّ ، وجرِّبْ أنت) .

ولما سافرَ الأميرُ جانم إلى الروم شاوره[1] ، فقال : تروحُ وتجيء سالماً ، ففارقه وراح للشيخ مُحيسن ، فقال له : إنْ رحتَ شنقوك ، وإن قعدتَ قطعوا رقبتك ، فرجع إلى الشيخ عُصيفير ، فقال : تروحُ وتجيء سالماً ، وكان الأمرُ كذلك ، فراح تلك السفرة وجاء سالماً ، ثم ضربوا عنقَهُ بعد ذلك ، فصَدق الشيخان .

ولما سافر ابنُ موسى المحتسبُ بلادَ العصاة أرسل إلىٰ عياله بقمقمٍ ماء ورد ، وقال : صبُّوه علىٰ كفنه ، وهو على المغتسل ، فجاء الخبرُ بأنهم قتلوه ، وأتوا به في سحلية ، فصبُّوه عليه كما قال الشيخ .

وكان شخصٌ يُؤذيه في الحارة ، فدعا عليه ببلاءٍ لا يخرجُ من بدنه إلىٰ أن يموت ، فتورَّمتْ رجلاه وانتفخا ، وخرج منهما الصَّديدُ ، وتركَ الصلاةَ حتى الجمعة ، وصار لا يَستنجي قطُّ ، فإذا غسلوا ثوبَه يجدوا فيه العذرةَ كثوب الأطفال .

---

(١) **جانم بك بن يوسف قرقماس** : ناظر الأموال السلطانية بالديار المصرية ، مضىٰ مع سليمان باشا الخادم كافل القاهرة إلى الأستانة ، ونمي إلىٰ سليمان باشا أنه يعطل عليه سفره ، فلما عادا إلى القاهرة قتله مع ابنه وسلخهما وحشاهما تبناً ، وعلقهما علىٰ باب زويلة سنة (٩٤٤هـ) . انظر « درر الحبب » (١/١/ ٤٥٠) .

وقال له شخص مرَّةً : ادعُ لي يا سيدي ، فقال : الله يبليك بالعمىٰ في حارة اليهود ، فعمي كما قال في حارتهم .

وقال له شخص ومعه بنيَّةٌ حاملها : ادع لبُنيَّتي هـٰذه ، فقال : الله يعدمك حسَّها ، فماتت بعد يومين .

وكان يفرشُ تحته في مخزنه التبنَ ليلاً ونهاراً ، وقبل ذلك كان يفرش زبل الخيل .

وكان إذا مرَّتْ عليه جنازةٌ وأهلها يبكون ، يمشي أمامها معهم ، ويقول : زلابية هريسة ، زلابية هريسة .

وأحواله غريبة .

وكان يُحبُّني ، وكنتُ في بركته وتحت نظره إلىٰ أن مات سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويتِهِ بخط بين السورين تجاه زاوية الشيخ أبي الحمائل ، رحمه الله .

ومنهم :

(٣٦٨) سيدي الشيخ شهاب الدين الطويل النَّشيلي رضي الله عنه[(١)]

كان من أولاد سيدي خليل النشيلي أحدِ أصحاب سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه .

ورأيته وهو في أوائل الجذب والحروزُ معلَّقةٌ علىٰ رأسه ، وكان أهلُه يعتقدونَ أنَّه من الجانِّ .

ولم أزلْ أودُّه ويودُّني إلىٰ أن ماتَ .

وأول ما لقيتُهُ ، وأنا شابٌّ أمردُ قال لي : أهلاً بابن الشوني ، أيش حالُ أبوك ؟ وكنتُ لا أعرفُ قطُّ الشوني ، فبعد عشر سنين حصلَ لي الاجتماعُ بالشوني ، فأخبرته بقول الشيخ شهاب الدين ، فقال : صدقَ ، أنت ولدي ، وإن شاء الله تعالىٰ يحصلُ لك علىٰ يدينا خير .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٩) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٥٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٠) (٤٦٠) .

وكان رضي الله عنه يأتيني وأنا في مدرسةِ أمِّ خوند ساكن ، فيقول : اقلِ لي بيضاً قريصات ، فأفعلُ له ذلك ، فيأكُل البيضَ أولاً ، ثم الخبز وحده ثانياً.

وكان رضي الله عنه إذا راقَ يتكلَّمُ بكلامٍ حلوٍ محشوٍّ أدباً .

ومكث [مولَىٰ][1] من أصحاب النوبة بمصر سبع سنين ، ثم عُزل .

وكان يحبُّ دخولُ الحمام ، لم يزلْ يدخلُها حتىٰ ماتَ فيها .

وكان يُنادي خادمَه وهو في الصلاة ، فإن لم يجبه مشىٰ إليه وصكَّه ، ومشىٰ به ، وقال: كم أقولُ لك : لا تعدْ تُصلِّي هـٰذه الصلاة المشؤومة ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُخلِّصه منه[2].

وكان يضربُ الإنسانَ علىٰ وجهه .

ولقيه مرَّةً إنسانٌ طالعٌ من جامع الغَمْري وهو جنبٌ ، فلطمه علىٰ وجهه وقال : ارجع اغتسلْ .

وجاءه شخصٌ فعلَ فاحشةً في عبده يطلبُ منه الدعاء ، فأخذ خشبةً ، وضربه بها نحو مئة ضربة ، وقال : يا كلب ؛ تفعلُ في العبدِ الفاحشةَ ؟! فانفضح ذلك الشخصُ .

مات رضي الله عنه ، ودُفن بزاويته بمصر العتيقة سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٩) سيدي عبد الرحمـٰن المجذوب رضي الله تعالىٰ عنه[3]

كان رضي الله عنه من الأولياء الأكابر .

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص رضي الله عنه يقول : (ما رأيتُ قطُّ أحداً من أربابِ الأحوال دخلَ مصر إلا ونقصَ حالُه ، إلا الشيخ عبد الرحمـٰن المجذوب) .

---

(١) في النسخ (مولياً) والصواب ما أثبت .

(٢) انظر بيان معنى هذه الصلاة في المقدمات .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٨٨ ، ٤/٤٢٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٦٤) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/٢٦٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٢١) (٤٦١) .

وكان مقطوعَ الذَّكَرِ ، قطعَه بنفسه أوائل جذبه .

وكان جالساً على الرمل صيفاً وشتاءً ، وإذا جاعَ أو عطش يقول : أطعموه اسقوه .

وكان ثلاثة أشهر يتكلَّمُ ، وثلاثة أشهر يسكت .

وكان يتكلَّمُ بالسرياني .

وأخبرني سيِّدي عليٌّ الخوّاص رضي الله عنه قال : (ما مثَّلتُ نفسي إذا دخلتُ عند الشيخ عبد الرحمـٰن رضي الله عنه إلا كالقطِّ تجاه السبع) .

وكان يُرسل لي السلام ، ويُخبرُ خادمَه بوقائعي بالليل واحدةً واحدة ، فيُخبرني بها ، فأتعجَّبُ من قوَّةِ اطِّلاعِهِ .

وحصل لي مرَّةً واردٌ طفشت عليَّ فيه نارٌ ، فنزعتُ ثيابي ، ومررتُ عليه في زقاق سُويقة اللبن قُبيل العشاء ، فصار يقول لخادمه : اذهب بهـٰذه البردة لعبد الوهاب ، والحقه بها غطِّه بها ، فما أخبرني الخادم إلا بعد أيامٍ ، وقال : قال لنا في الوقت الفلاني : كذا وكذا ، فقلنا : هـٰذا مجذوب ، واستبعدنا كونك تتعرَّىٰ ، رضي الله عنه .

وكان مُقعداً نحو نيِّفٍ وعشرين سنة ، أقعده الفقراء .

وكان يُخبر عن سائر أقطار الأرض ، وعن أقواتهم وعن أحوالهم ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة أربعٍ وأربعين وتسع مئة ، ودُفن بالقرب من جامع الملك الظاهر بالحُسينية ، وقبرُهُ ظاهرٌ بالحسينية يُزار في زاويته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٠) سيدي محمد الرويجل العريان رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان رضي الله تعالىٰ عنه من أرباب الكشف التام .

رأيته مرَّةً من بعيد نحو مئة قصبة ، فقال لي رفيقي : هل يحسُّ بأحدٍ إذا ضربه ؟ فلما وصلنا إليه قال لرفيقي : تَضربني علىٰ أيش ؟!

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٥٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/٨٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/١٧٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٢٢) (٤٦٢) .

وكان يدخلُ ينام في كانون الطباخ .

وأخبرني سيدي الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي رضي الله عنه قال : (أصلُ ما حصل لي من العلم والفتوىٰ ببركة دعاء الشيخ محمد الرُّويجل) .

مات رضي الله عنه سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة مقتولاً ، قتله عسكرُ ابن عثمان حين دخلَ مصر .

وأخبر عن قطع رقبته يومَ موته ، وصار يقول : أيش عمل الرُّويجل يقطعون رقبته ؟! ووقف علىٰ شباك سيدي محمد بن عنان وصار يقول : يا سيدي ؛ أيش عملَ الرويجل يقطعون رقبته ؟! رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧١) سيدي حبيب المجذوب رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان سيدي عليٌّ الخوَّاص رضي الله عنه يقول : حبيبٌ حيَّةٌ نقطة[٢] ، خلقَهُ اللهُ تعالىٰ أذًىٰ صرفاً ، وكان إذا رآه يقول : اللهم ؛ اكفنا السوءَ .

وكان مُبتلىً بالإنكار عليه .

يمزحُ معه الصغارُ وغيرُهم ، ويعطبهم .

وليس له كرامةٌ إلا في أذى الناس ، فلا تحكي عنه شيئاً .

وكان كلما نظرَ إليَّ إذا مررتُ عليه يحصلُ عندي قبضٌ عظيم ، ولم أزلْ ذلك النهار جميعه في تكديرٍ .

فلما ماتَ قال سيِّدي عليٌّ الخوَّاص رضي الله عنه : الحمد لله علىٰ ذلك .

ودُفِنَ رحمه الله تعالىٰ بالكوم ، بالقرب من بركة القرع خارج باب الشعرية ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٥٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٣٨٨) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/٢٦٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٢٣) (٤٦٣) .

(٢) في (ج ، د ، و) : (نقطاً) بدل (نقطة) .

ومنهم :

(٣٧٢) سيدي فرج المجذوب رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان له الكراماتُ الظاهرة ، ووقع لي معه كرامات .

وكان يطلبُ الفلوسَ من الناس ، فإذا اجتمعتْ أعطاها للمحاويج والأرامل ، وكثيراً ما يدفنها في جوار حائط ويذهبُ ، ويخلِّيها فيأخذها الناس .

وأخبرني سيدي جمال الدين بنُ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنه قال : خرجتُ إلى الحمام ، فرآني الشيخُ فرج رضي الله عنه ، فقال : هات نصفاً ، فأعطيته ، فقال : هات آخر ، فأعطيتُه ، فلم يزلْ كذلك إلىٰ تسعة وثلاثين نصفاً ، فقال : هات آخر ، فقلتُ له : بقي نصفٌ للحمَّام ، فقال : كتبتُ لك وصولاً علىٰ شموال اليهودي ، وفارقتُهُ ، فلما رجعتُ من الحمام جاءني يهوديٌّ بتسعة وثلاثين ديناراً ، فقال : إنَّ والدك أقرضني أربعينَ ديناراً ، وما بيني وبينه إلا الله ، ولـٰكن ما قدرتُ إلا علىٰ تسعةٍ وثلاثين ، فأَقبضها لي .

ووقائعُهُ كثيرة .

وانقطع آخرَ عمره في المارستان حتىٰ مات ، ودُفِنَ عند الشيخ بهاء الدين المجذوب بباب الشعرية ، رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٣٧٣) سيدي إبراهيم المجذوب رضي الله عنه[٢]

كان رضي الله عنه كلَّ فلوسٍ حصَّلها يُعطيها للمطبِّلين ويقول : طبِّلوا لي ، وزمِّروا لي .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٣٢) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢٣٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٣٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٣) (٤٦٤) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (إبراهيم بن خريطتي) (٣/ ٣٢٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٤٦)، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٤) (٤٦٥) (ابن خربطني) .

ولم يزلْ يقول : يا إبراهيم ؛ رُحْ للنوبة .

قال سيِّدي عليٌّ الخوّاص رضي الله عنه : إنه كان من أصحاب النوبة .

وكان سيِّدي عليٌّ الخوّاص رضي الله عنه إذا حصلَ له ضرورةٌ . . يُرسل يُعلمه بها ، فتُقضىٰ .

وكان كلُّ قميصٍ لبسه يَخيطه ويحزقه علىٰ رقبته ، فإن ضيَّقَهُ جدّاً حتىٰ ينخنق حصلَ للناس شدَّةٌ عظيمة ، وإنْ وسَّعه حصلَ للناس الفرج .

صحبته نحو سبع سنين ، وكان كلَّما رآني تبسَّم .

وكان شهرتُهُ الشيخ إبراهيم النوبة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٤) الشيخ أحمد المجذوب رضي الله تعالىٰ عنه المشهور بحب رمانتي (١)

كان رضي الله عنه لا يلبسُ إلا الحرير علىٰ بدنه ، وكان قمعُه طولَ ذراع ونصف .

وكان رضي الله عنه يقف على الدكان ويصيح : يا مالي ومال السلطان عند صاحب هـٰذا الدكان ، فلا يزال كذلك إلىٰ أن يأخذَ ما يطلبُهُ منه ، ثم يدفنُهُ تحتَ جدارٍ ويذهب .

وكانت له كراماتٌ كثيرة .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودُفِـنَ بباب اللوق رضي الله عنـه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٢٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٥) (٤٦٦) .

ومنهم :

(٣٧٥) الشيخ إبراهيم العريان رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه إذا دخلَ بلداً سلَّم علىٰ أهلها كباراً وصغاراً بأسمائهم ، حتىٰ كأنه تربَّىٰ بينهم .

وكان رضي الله عنه يطلع المنبر ، ويخطبُ عرياناً ، فيقول : السلطان ، ودمياط ، باب اللوق ، بين القصرين ، وجامع طيلون ، والحمد لله ربِّ العالمين ، فيحصلُ للناس بسطٌ عظيم .

وكان رضي الله عنه إذا صحا يتكلَّمُ بكلامٍ حلوٍ حتىٰ يكاد الإنسانُ ألاَّ يُفارقه .

طلع لنا مراراً عديدةً في الزاوية ، وسلَّم عليَّ باسمي واسم أبي وأمي ، ثم قال للذي بجنبه : أيش اسم هـٰذا ؟

وكان يُخرج الريحَ بحضرة الأكابر ، ثم يقول : هـٰذه ضرطةُ فلان ، ويحلفُ علىٰ ذلك ، فيخجلُ ذلك الكبير منه[٢] .

مات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة .

ومنهم :

(٣٧٦) سيدي الشيخ مُحيسن المجذوب البُرُلُّسي رضي الله عنه[٣]

كان رضي الله عنه من أصحاب الكشف التام .

وكان يربطُ عنده عنزاً وديكاً بحبلٍ .

والنارُ موقدةٌ عنده في أغلب أوقاته صيفاً وشتاءً .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣١٩ ، ٤/٨٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٢٤٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٢٥) (٤٦٧) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٥٨) ، و« الكواكب السائرة » (٢/٢٣٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٢٤٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٢٦) (٤٦٨) .

وكان سيدي عليٌّ الخواص رضي الله عنه إذا شكَّ في نزولِ بلاءٍ علىٰ أهل مصر . . يقول : اذهبوا للشيخ مُحيسن ، فانظروا النارَ التي عنده ، هل هي مُوقودة أو مطفية ؟ فإن كانتْ موقودةً حصل للناس البلاء ، وإذا كانت مَطفيةً حصلَ في مصر رخاء ونعمة .

وكان الناسُ في غاية الراحة ، فأوقد الشيخُ محيسن رضي الله عنه النار ، فقال الشيخ : الله لا يُبشِّره بخير ، فأصبح الناسُ في شدَّةٍ عظيمة في مسلكهم لبلاد الهند[1] ، وحصلَ لهم غايةُ الضيق .

وكنتُ عنده مرَّةً ، فجاء إنسانٌ ، ومزح معه ـ وكان في رجله أَكَلةٌ وهو من أصحاب النوبة ، لم تزلْ تدوِّد إلىٰ أن مات ـ فقال له ذلك الإنسان : الذي جعلَ في هٰذه الرجل الأَكَلةَ قادرٌ أن يجعلَها في الأخرىٰ ، فقال : ما يستحقُّ ذلك إلا الذي زنىٰ بامرأةِ جاره ، فخجل ذلك الإنسان ، فقلت له : ما لك ؟ فقال : هٰذا وقع لي وأنا شابٌّ في نواحي دمياط من منذ خمسين سنة ، فقلتُ : الذي يطلع علىٰ هٰذا تمزحُ معه ؟! فقال : واللهِ ؛ ما علمَ بهٰذه الواقعةِ أحدٌ إلا الله عز وجل .

وكان رضي الله عنه يُحبُّني ويُرسلُ يُخبرني بالوقائع التي تحصلُ لي في البيت واحدةً واحدة .

وكان رضي الله عنه إذا رأىٰ صغيراً من الريف في بولاق يُريدُ أبوه أن يُعلِّمه القرآن . . يقول له : اذهب إلىٰ زاوية عبد الوهاب ، فأرسلَ لي كذا كذا ولداً ، وحصل لهم الخير .

ووقع مني مرَّةً سوءُ أدبٍ ، فأرسل أَعلمني به وهو في الرميلة ، وذلك : أنَّ الأميرَ جانم كان مطلوباً إلىٰ إستنبول[2] ، فكتبتُ له كتاباً إلىٰ أصحاب النوبة بنواحي العجم والروم بالوصية به ، وطواه ووضعه في رأسهِ وخرجَ ، فأرسلَ لي في الحال يقول : الناسُ في عينيك كالقشِّ ، ما بقي أحدٌ في البلد له شوارب إلا أنت ، تُكاتبُ أصحابَ

---

(١) المثبت من (ح) ، وفي باقي النسخ : (مسكهم) .

(٢) تقدم التعريف بالأمير جانم (٢/ ٣٩٥) .

النوبة بغيرِ إذنٍ من أصحاب البلد ، فاستغفرتُ في نفسي فأرسل يقول لي : إذا سألك أحدٌ في شيءٍ يتعلّق بالولاة بمصر شاور بقلبك أصحابَ النوبة بها ؛ إعطاءً لحقِّهم من الأدب معهم ، ثم افعلْ بعد ذلك ما تُريد لا حرجَ ؛ لأنهم لا يحبُّون من يقلُّ أدبَهُ معهم .

مات رضي الله عنه ، ودفن بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه في تربة البارزي في سنة نيفٍ وأربعين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٧) سيدي الشيخ أبو الخير الكُليباتي رضي الله عنه[1]

كان رضي الله عنه من الأولياء المعتقدين ، وله المُكاشفاتُ العظيمة مع أهل مصر وأهل عصره .

وكانت الكلابُ التي تسيرُ معه من الجنِّ ، وكانوا يقضون حوائجَ الناس .

ويأمرُ صاحبَ الحاجة أن يشتري للكلبِ منهم إذا ذهبَ معه لقضاء حاجته رطلَ لحم .

وكان أغلبُ أوقاته واضعاً وجهَهُ في حلقِ الخلاء في ميضأة جامع الحاكم .

ويدخلُ الجامعَ بالكلاب ، فأنكرَ عليه بعضُ القضاة ، فقال : هٰؤلاء لا يحكمون باطلاً ، ولا يَشهدون زوراً ، فرُمي القاضي بالزُّور ، وجرَّسوه علىٰ ثورٍ بكرشٍ علىٰ رأسه ، ولم يزلْ ممقوتاً إلىٰ أن مات .

وكان رجلاً قصيراً في يده عصاً فيها حلقٌ وشخاشيخ[2] ، وكان يَعْرَجُ .

دعا لي مرَّةً بأنَّ الله يصبِّرني على البلوىٰ ، وحصلَ لي ببركته بعضُ ذلك .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٣٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٢٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٥٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٧٣) ، و« الخطط التوفيقية » (٢/ ٨٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٧) (٤٦٩) .

(٢) **الشخاشيخ** : لعبة تحدث صوتاً عند هزها يتلهَّىٰ بها الأطفال .

مات رضي الله عنه سنة عشرٍ وتسع مئة[١] ، ودفنَ بالقرب من جامعِ الحاكم في المكان الذي كان يجلسُ فيه أوقاتاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٨) سيدي عمر البجائي المغربي رضي الله عنه[٢]

دخل مصر في أيام السُّلطان الغوري .

وكان له القبولُ التامُّ عند الخاصِّ والعام ، والأكابر وغيرهم .

وكان رضي الله عنه يُخبر بالوقائع الآتية في مستقبلِ الزمان للولاة ، فيقعُ كما أخبر لا يخطئ .

وسكن في جامع آلِ الملك بالحسينية ، ثم انتقل إلىٰ جامع محمود ، فنازعَهُ أهلُ القَرَافة ، فرجع إلىٰ قبّة المارستان بخطٍّ بين القصرين ، فلم يزلْ بها إلىٰ أن مات .

وكان وجهُهُ كأنه قنديلٌ ينوِّرُ .

وهو رجلٌ طويلٌ ليس علىٰ رأسه عِمامة ، إنما يتطرَّحُ بملاءةٍ علىٰ عرقية[٣] .

وكان الشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه يحبُّه محبةً شديدة ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه في سنة عشرين وتسع مئة[٤] ، ودفن بالقَرَافة في حوش عبد الله بن وهب بالقرب من قبر القاضي بكار ، وصلَّىٰ عليه الملأُ من الناس .

وحصل لي منه دعواتٌ مباركات وجدتُ أثرها ، رضي الله عنه .

---

(١) الذي في « الكواكب السائرة » ، و« شذرات الذهب » أن وفاته سنة (٩٠٩هـ) ، وفي « طبقات المناوي » (٩١٢هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٤٢٨/٣) ، و« الكواكب السائرة » (٢٨٦/١) ، و« شذرات الذهب » (١٣٢/١٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٢٠٨/٤) (٤٠٤) .

(٣) في (ط) : (يلفُّ) بدل (يتطرح) .

(٤) ذكر المناوي في « طبقاته » أن سنة وفاته (٩١٩هـ) .

ومنهم :

(٣٧٩) سيدي سعود المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه مقيماً بسويقة العزِّي[٢] بالقربِ من مدرسة السلطان حسن .

كان رضي الله عنه من أهل الكشف الكامل .

وكان له كلبٌ قدر الحمار لم يزلْ واضعاً بوزه علىٰ كتفه .

وكان يُرسل لي السلامَ مرَّاتٍ ، وتردَّدتُ إليه كثيراً ، فكنتُ كلَّما أزور القَرَافة أَطلعُ له .

وله وقائعُ مشهورةٌ في أهل حارته .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، وله قبةٌ خضراء بناها له الباشا سليمان رحمه الله .

ومنهم :

(٣٨٠) سيدي سويدان المدفون بالخانقاه رضي الله عنه[٣]

أقام في مدرسة ابن الزين[٤] في رصيف بولاق سنين عديدةً ، فلازمناه ملازمةً طويلة .

وكان مكشوفَ الرأس ، له شعرٌ طويل ملبَّدٌ .

وكان له كلَّ سنةٍ جوخةٌ حمراءُ بندقي علىٰ خوند امرأةِ السلطانِ يُلبسونَها له ، ويأخذُ النُّقباءُ العتيقة .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٧٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٣٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٩) (٤٧٠) .

(٢) **سويقة العزي** : تقع خارج باب زويلة ، عرفت بالأمير عز الدين أيبك العزي أمير الجيوش .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٧٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢١٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٣٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٢٩) (٤٧١) .

(٤) **مدرسة ابن الزين** : هي المدرسة الزينية ، نسبة لشمس الدين محمد بن الزين . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٣٤) .

ووقع له وقائعُ وكراماتٌ .

وكان فمُهُ لم يزل فيه نحو الخمسين حبَّةً من الحمِّص ليلاً ونهاراً ، يُقال : إنها حملاتُ الناس .

وكان لا يَفهمُ عنه إلا الفقراءُ الصادقون ؛ فإن كلامَهُ كلَّه إشاراتٌ .

مات رضي الله عنه سنة تسعَ عشرةَ وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨١) سيدي بركات الخياط رضي الله عنه[1]

كان رضي الله عنه من الملامتية ، وهو شيخ أخي أَفضلِ الدين ، وشيخ الشيخ رمضان الصائغ الذي بنىٰ له الزاوية .

وكان رضي الله عنه يلبسُ الشاش المخطَّط كعِمامةِ النصارىٰ ، فيقول له الناس : حاشاك يا نصراني ، وكان يخيط المضرَّبات المثمنة .

وكان رضي الله عنه يقول لمن يخيطُ له : هات معك فوطةً وإلا يتَّسخ قماشُك من ثيابي .

وكان دكَّانُه مُنتناً قذراً ؛ لأنَّ كلَّ كلبٍ وجده ميتاً ، أو قطاً ، أو خروفاً يأتي به ، فيضعه داخل الدكان ، فكان لا يستطيعُ أحدٌ أن يجلسَ عنده .

وكان سيدي الشيخ نور الدين المرصفي رضي الله عنه وغيرُهُ يُرسلون له الحملات ، فيضعون له الحَجَر علىٰ حانوته ، فيعلم بالحاجة ، فيقضيها ، ويقول : الاسم لطوبىٰ والفعائل لأمشير[2] ، نحن نتعب وهـٰؤلاء يأخذون الهدايا منهم .

وأخبرني سيدي الشيخ عبدُ الواحد رضي الله عنه أحدُ جماعة سيدي أبي السعود

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٥١) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٦٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٦٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣١) (٤٧٤) .

(٢) **طوبىٰ وأمشير** : شهران قبطيان يوافقان شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) .

الجارحي رضي الله عنه قال : مدحتُهُ للشيخ جمال الدين الصاني مفتي الجامع الأزهر وجماعة ، فقالوا : امضوا بنا نزوره ، وكان يوم جمعةٍ ، فسلَّم المؤذن على المنارة ، فقالوا له : نُصلِّي الجمعة ؟ فقال : ما لي عادةٌ بذلك ، فأنكروا عليه ، فقال : نُصلِّي اليوم لأجلكم ، فخرجَ إلىٰ جامع المارداني ، فوجد في الطريق مسقاةَ كلاب ، فتطهَّر منها ، ثم وقعَ في مشخة حمير ، ففارقوه ، وصاروا يوبِّخون الشيخَ عبدَ الواحد الذي جاء بهم إلىٰ هـٰذا الرجل ، وصارَ الشيخُ بركات يوبِّخُ عبد الواحد ويقول : أيشٍ هـٰؤلاء الحجارة الذين أتيت بهم ؟! لا يعود لك بالعادة أبداً ، واللهِ ؛ يا ولدي مسقاةُ الكلاب إنَّما هي مثالُ مطعمهم ومشربهم ، وكذلك مشخَّةُ الحمير إنما هي صورةُ اعتقادهم النجس .

وأخبرني سيدي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ قال : بينما نحن يوماً خارجَ باب زويلة بالقرب من بيت الوالي وإذا هو بشخصٍ تاجر مغربي راكبٍ بغلةً ، فمسكه الشيخُ رضي الله عنه وقال : هـٰذا سرقَ بيتي ، فدخلوا به بيت الوالي ، فقال للوالي : يا سيدي ؛ اضربْه مقارعَ وكسَّاراتٍ ، وإنْ مات أنا أزنُ ديتَهُ ، فلما فرغ الوالي من عقابه نظر إلىٰ وجه التاجر وقال للوالي : أنا غلطتُ ، هـٰذا ما هو الذي أخذَ حوائجي ، فضربَ الوالي الشيخَ بعصاه ، فخرج ، ورقد علىٰ بابه ، وقال : واللهِ ؛ يا زربون ، ما أفارقُ هـٰذه العتبة حتىٰ أعزلك ، فنام ، فجاء القاصدُ بعزله من السلطان في الحال .

وكان رضي الله عنه إذا قدَّموا له لحمَ الضاني ، واشتهىٰ لحم حمام . . ينقلبُ في الحال حماماً .

وله وقائعُ مشهورة .

مات رضي الله عنه سنة دخول ابن عثمان مصر سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالقُرب من حوضِ الصارم بالحُسينية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٢) سيدي علي الشرنوبي رضي الله عنه[١]

أجلُّ أصحاب الشيخ شعبان البلقطري بدمنهور البحيرة .

كان رضي الله عنه ظريفاً نظيفاً لطيفاً ، والغالبُ عليه الاستغراق .

وكان أكثر أوقاته ماشياً في مصر وبولاق والقرافة ، وغيرها ، وعليه ثيابٌ حسنةٌ كلبس القاضي .

وكانت له الموشَّحات النفيسةُ في التوحيد .

صحبته نحو عشر سنين ، وقال لي : أنا كيلانيُّ زماني ، وكان يرىٰ ذلك من باب التحدُّث بالنعم .

مات رضي الله عنه ، ودفن بالقَرَافة عند الشيخ محمد المغربي الشاذلي رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

وأخبرتني زوجتُهُ قالت : بينما نحن يوماً في جوفِ الليل وإذا بشخصٍ نازل من الهواء ، فأشار إليه الشيخ رضي الله عنه بيده ، فلصقَ بالدرقاعة[٢] ، فقال : فتوة ، فقال : ارجع وتعالَ من الباب ، فقال : باسم الله ، ثم قال : هـٰذا الدشْطُوطي رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢١٠) (٤٠٥) ، وفي (ج) : (الشونوزي) ، وفي (د) : (الشونيزي) .

(٢) في « طبقات المناوي » : (فالتصق بالحائط) ، **والدرقاعة** : دخيلة أو مولَّدة من دار القاعة ؛ وهي منخفض في الغرفة يتصل ببابها ، يُعدُّ للجلوس واستقبال الزائرين « متن اللغة » (٢/ ٤٠٣) .

ومنهم :

(٣٨٣) سيدي أحمد الزَّواوي رضي الله عنه[(١)]

أخو الشرنوبي في الطريق إلى الله تعالىٰ ، كان رضي الله عنه علىٰ قدمٍ عظيم .

وكان وردُهُ في اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة ، وأربعين ألف صلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ولما سافر الغوريُّ لقتال ابنِ عثمان جاء إلى القاهرة وقال : جئتُ لأردَّ ابنَ عثمان عن دخولِ مصر ، فعارضه الأولياء ، فلحقته البطن ، فأشرف على الموت ، فحملوه إلىٰ بلده ، فماتَ في الطريق .

وكانت له كراماتٌ كثيرة .

اجتمعتُ به مرات عديدة ، ودعا لي بدعواتٍ ، وأرشدني إلىٰ وردِ الصلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم .

مات رضي الله عنه سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه[(٢)] .

ومنهم :

(٣٨٤) سيدي أحمد البهلول رضي الله عنه[(٣)]

ثالثُ مَنْ قَبْلَهُ في الطريق على الشيخ شعبان .

وكان سيدي محمد بنُ عنان رضي الله عنه كلما مرَّ عليه يقفُ يقرأُ الفاتحة ، وكان يعظِّمُه كثيراً .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٩) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٥٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢١١) (٤٠٦) .

(٢) ذكر في « الكواكب السائرة » ، و« شذرات الذهب » أن سنة وفاته (٩٢٢هـ) .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٦ ، ٤/ ٥٨٠) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٥٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٢٥) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢١٢) (٤٠٧) .

وهو الذي أشارَ عليَّ بالزواج في أوَّلِ أمري ، فقال : زوَّجتُك زينبَ بنت الشيخ خليل القصبي ، وأَقبضتُ عنك المهرَ ثلاثين ديناراً ، وأَعطيتك البيتَ ، وأخدمتُكَ إخوتها الثلاثة ، ففارقته ، فجاءني والد الصبية ، وخطبني بنفسه ، ووجدتُ اسمَها زينب ، ولها ثلاثةُ إخوة ، ووجدت البيت مُقفلاً على اسمها كما قال رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول : لا تدفنوني إلا خارجَ باب القَرَافة في الشارع ، ولا تجعلوا لقبري شاهداً ، ودعوا البهائم والبغال تمشي عليَّ ، واحذروا أن تجعلوا علىٰ قبري تابوتاً أو ستراً يبقىٰ كلُّ من مرَّ عليَّ يدقُّ تابوتي يمنعني أن أستريح في القبر ، فقالوا له : قد عملنا لك قبراً في جامع بطيخة ، فقال : إن قدرتُم أن تحملوني فافعلوا ، فعجزوا أن يُحرِّكوا النعشَ إلىٰ ناحيةِ جامع بطيخةِ ، فلما حملوه لناحية القَرَافة خفَّ عليهم[1] ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وعشرين وتسع مئة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٥) سيدي الشيخ أمين الدين إمام جامع الغَمْري رضي الله عنه[2]

كان رضي الله عنه من الراسخين في العلم ، وانتهتْ إليه الرئاسةُ في علوِّ السند بالكتبِ الستة وغيرها ، وكان يقرأ بالسبع .

وله صوتٌ بالمحراب لم يسمعِ السامعون في عصره مثلَهُ .

---

(١) في (ط) : (فافعلوا ، فلما غسلناه عجزنا أن نحرك النعش إلىٰ ناحية جامع بطيخة ، فلما حملناه لناحية القرافة خفَّ عليهم) ، وفي (ح) : (يحملوا) بدل (يحركوا) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٤٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٣٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٣٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢١٦ ، ٤٠٥ ، ٤٢٢) ، و« ذيل الطبقات » (٥/ ٧١) (٢٦) ، واسمه : محمد بن أحمد بن عيسى بن النجار الدمياطي أمين الدين أبو الجود .

ولما دخلَ السلطان ابن عثمان أيام الغوري[١] مصر طلبوا له إماماً يخطبُ به ، فأجمع رأي أهلِ مصر كاملاً على الشيخ أمين الدين رضي الله عنه ، فصار يؤمُّ به إلىٰ أن سافر إلى الروم .

وكان رضي الله عنه ينزلُ من بيته يتوضَّأ ويصلِّي ما شاء الله تعالىٰ أن يصلِّي ، ثم يصعد الكرسيَّ ، فيقرأ في المصحف قبل الفجر نحو سبعة عشر حزباً سرّاً ، فإذا أذن بالصبح قرأ جهراً قراءةً تكادُ تأخذ القلوبَ من أماكنها .

فمرَّ نصرانيٌّ من مباشري القلعة يوماً في السحر[٢] ، فرقَّ قلبُه ، فطلع وأسلم علىٰ يد الشيخ رضي الله عنه ، وهو يقرأُ على الكرسي ، وصار يبكي ، وحسنَ إسلامُه ، ورأيتُهُ يُصلِّي خلفه إلىٰ أن مات .

وكان الناسُ يأتون إلى الصلاة خلفه من بولاق ، ومن نواحي الجامع الأزهر في صلاةِ الصبح لحُسنِ صوته وخشوعه ، وكثرةِ بكائه ، حتىٰ يُبكي غالبَ الناس خلفه .

وكان سيدي أبو العباس الغَمْري رضي الله عنه يقول : (الجامع جثَّةٌ ، والشيخُ أمين الدين رضي الله عنه روحُها ، ومصداقُ ذلك : أنَّ الناسَ كانوا يخرجون من الجامع في مثلِ خروج الحجِّ ، فلا يبقىٰ في الجامع إلا هو ، فكأنَّ الجامعَ لم يخرجْ منه أحدٌ) .

وكان رضي الله عنه إذا سافرَ صار الجامعُ كأنه ما فيه أحد .

ومما وقع لي معه : أنني كنتُ أقابل معه في « شرح البخاري » في جزاء الصيد ، فذكر جزاء التيتل[٣] ، فقلت له : ما هو التيتلُ ؟ فقال : هـٰذا الوقت تنظره ، فخرج التيتلُ من المحراب ، فوقف علىٰ كتفي ، فرأيتُهُ دونَ الحمار ، وفوق تيس المعز ، وله لحيةٌ صغيرة ، فقال : ها هو ، ثم دخلَ الحائطَ ، فقبَّلتُ رجلَه ، فقال : اكتم حتىٰ أموت .

---

(١) في (ب ، ج ، هـ ، ح) : (ولما دخل السلطان ابن عثمان يريد أيام الغوري) .

(٢) **المباشر** : هو الذي يتولَّى الإدارة والإشراف علىٰ متحصلات الدولة . « النجوم الزاهرة » (١٤/ ٣٢٧) .

(٣) **التَّيتَل** : كحيدر ، لغة في الثَّيتل بالمثلثة : ذكر الأروىٰ « تاج العروس » (ت س ل) .

ورأيتُهُ بعد موته بسنتين ، فروىٰ لي حديثاً سندُهُ بالسرياني ، ومتنه بالعربي : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « منْ أدمنَ النومَ بعدَ صلاةِ الصبحِ ابتلاهُ اللهُ تعالىٰ بوجعِ الجنبِ » ، وفي رواية : « ابتلاهُ اللهُ في جنبِهِ بالبعجِ » .

ومكثَ رضي الله عنه سبعاً وخمسين سنة إماماً ، لم يدخلْ وقتٌ واحد عليه وهو علىٰ غير وضوء .

وليلةَ مات كان مريضاً ، فزحفَ إلىٰ ميضأة الجامع ، فوقع بثيابه فيها ، فطلع والناسُ يحاذونه ، فصلَّىٰ بالناس المغرب وثيابُهُ تخرُّ ماءً ، وبقي معه العزم إلىٰ أن مات .

وكان يلبسُ الثياب الزرق ، والجُبَبَ السود ، ويتعمَّمُ بالقطن غير المقصور .

وكان رضي الله عنه يتفقَّدُ الأرامل ، والمساكين ، والعميان ، ويتعصَّبُ لهم في حوائجهم ، ويجمعُ لهم الزكوات ، ويفرِّقها عليهم ، ولا يأخذُ لنفسه شيئاً ، وكان يُعطي ذلك سرّاً ، وما علمَ الناسُ بذلك إلا بعد موته .

مات رضي الله عنه في سنة تسعٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بتربته خارجَ باب النصر بالقرب من سيدي إبراهيم الجعبري رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٣٨٦) سيدي أبو الحسن الغمري ابن سيدي أبي العباس الغمري رضي الله تعالىٰ عنهما[1]

كان رضي الله عنه من الصفاء والصلاح علىٰ جانبٍ عظيم .

وكان سيدي محمد بنُ عنان رضي الله عنه يقول : (فرعان فاقا أصلَهما في الكرم والحياء : أبو الحسن ، وعبد الحليم بن مصلح) .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٢٨) ، **واسمه** : محمد بن أحمد ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢١٩) (٤١٠) .

وكان من أخلاقه رضي الله عنه : أنه يخدمُ في البيت مع الخادم ، ويغسل الأواني ، ويُوقدُ تحت الدست ، ويقرِّصُ العجين ، ويكنسُ البيت .

وكان رضي الله عنه لا يجالسُ أحداً إلا وقتَ الصلاة ، أو الذكر ، أو تلاوة القرآن ، أو لما لا بدَّ منه من المصالح .

وكان يستحي أن يركبَ في مصر حماراً أو غيره .

وكان إذا ركبَ إلىٰ بولاق أو مصر يركبُ في الغَلَس ، ويقصد المواضع الخالية ذهاباً وإياباً ، ويقول : لا أستطيعُ أن أركبَ فوق رؤوس الناس أبداً .

وكان رضي الله عنه إذا دُعي إلىٰ وليمةٍ وحضر يصيرُ يعرقُ ، ويمسح العرقَ حياءً من الناس[1] .

وكنَّا إذا سافرنا معه إلىٰ منية غَمْر ، أو إلى المحلة لا يأكلُ في المركب ولا يشرب حياءً من الناس ، ويقول : لا يخرجُ لي بولٌ وأحدٌ ينظر إليَّ ، ولو علىٰ بعد .

وكان لا ينامُ مع أحدٍ في فراش ، ولا بحضرةِ أحدٍ لا في ليلٍ ولا في نهار ، ويقول : (أخافُ أن يخرجَ مني ريحٌ وأنا نائم) .

صحبته نحو ثلاثين سنة إلىٰ أن مات ، ما رأيتُهُ تغيَّرَ عليَّ يوماً واحداً ، فلما انتقلتُ من جامعه صارَ يتردَّدُ إليَّ ، فأكاد أن أذوبَ من الخجل من مشيه إليَّ ، فيقول : أنا أشتاقُ إليك .

مات رضي الله عنه في سنة تسعٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودُفن عند والده بالجامع بمصر المحروسة رضي الله تعالىٰ عنهما .

---

(١) في (ح) : (حياء من الله) .

ومنهم :

(٣٨٧) سيدي الشيخ عُبيد البُلْقيني رضي الله عنه[1]

صحبته نحو عشر سنين .

وكان رضي الله عنه من أرباب الأحوال والكشف التام ، إذا أخبرَ عن شيء يأتي كفلق الصبح .

وكان السُّلطان قايِتْباي ينزلُ لزيارته في بُلْقين ، فلما انتقلَ إلى القاهرة كان يتردَّدُ إليه ، وكذلك السلطان قانصوه الغوري .

وكان رضي الله عنه إذا سمعَ كلام سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه أو غيره . . يقومُ كالجملِ الهائج ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يُقعدَهُ حتىٰ يقعدَ بنفسه .

وكان جمالي المقامِ ، يلبسُ النفيس ، ويأكلُ اللذيذ ، وليس للدنيا عنده قدرٌ ، فكان يخلع الجوخة والصوف النفيس يُعطيه للسائل .

وحصل له جذبٌ في أوَّل عمره ، فمكث نحو الخمسَ عشرة سنة بلباسِ جلدٍ ، مكشوفَ الرأس والبدن ، لا يلتفتُ لتدبيرِ بدنه ، حتىٰ صار الدودُ يتساقطُ من تحت قلنسوته من محلِّ الزيق ، ولم يزلْ أثرُهُ ظاهراً في ناحية قفاه ، رضي الله عنه .

وعُمِّر زماناً ، ومات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته التي أنشأها بالقرب من جامع الأزهر المشهورة بالحلاوية ، رضي الله عنه .

---

(١) ترددت النسخ بين : (البلقيني) و(البلقسي) ، وانظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٨٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٩٠) وفي كليهما : (الدنجاوي ثم البلقيني) ، و« طبقات المناوي » (٤/ ٣٦١) (البلقسي) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٢٢) (٤١١) .

ومنهم :

(٣٨٨) سيدي الشيخ يوسف الحُرَيْثي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه علىٰ قدمٍ عظيمٍ في اتِّباعِ السنة وقيامِ الليل وتلاوةِ القرآن .

وكان يميلُ إلىٰ إخفاءِ العبادات جهدَه .

وأخبرني رضي الله عنه قال : (لما تزوَّجتُ أمَّ أبي العباس مكثتُ أقرأ في حضنها كلَّ ليلةٍ ختماً مدةَ عشر سنين ، ما أظنُّ أنَّها شعرتْ بي ليلةً واحدة) .

وأخبرني رضي الله عنه ليلةَ تُوفي فقال : قد خرجتُ من الدنيا وما عرفتُ أن أتوضَّأ ، فقلت : كيف ؟! قال : سألتُ عدَّةً من العلماء والحفاظ عن كيفية تخليل اللِّحية في الوضوء فما منهم أحدٌ عرفَ كيف كانَ صلى الله عليه وسلم يُخلِّلُ لحيته .

وكان رضي الله عنه يقول : (أنا أحبَّ في مصر ثلاثةً : عبدَ الرحمـٰن الأجهوري المالكي ، ويوسف البشلاوي ، وعبد الوهاب الشعراوي) .

وكان رضي الله عنه يكرهُ لولده أبي العباس رضي الله عنه تلقينه للناسِ الذكرَ ، ويقول : يا ولدي ؛ أيش بلانا بهـٰذه الطريق ؟!

وكان علىٰ هضمِ النفسِ دائماً .

مات رضي الله عنه سنة أربعٍ وعشرين وتسع مئة ، ودُفِنَ بجامع البشيري ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٧٠) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٩٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٧١) ، و« الخطط التوفيقية » (٣/ ٢٦٤) (الحريشي) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٢٦) (٤١٣) .

ومنهم :

(٣٨٩) الشيخ عبد الرزاق التُّرابي رضي الله عنه[(١)]

أحدُ أصحاب سيدي عليٍّ النبتيتي الضرير رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه علىٰ قدمٍ عظيمٍ من العبادة والتقشُّف .

واعتقدَهُ الناسُ بعد موت سيدي علي رضي الله عنه ، ثم انتقل إلىٰ ناحية الجيزة ، وأقبلَ الناسُ عليه .

وصنَّفَ رسائلَ في الطريق .

وكان له النظمُ الرائقُ في أحوال القوم .

وطلع رضي الله عنه لنائبِ مصر في شفاعةٍ ، فأغلظَ عليه ، فأقسم أنه لا ينزلُ من جامع القلعة إلا إنْ ماتَ خيرُ بك[(٢)] ، فطلعت فيه جمرةٌ ، فمات في اليوم الثالث ، فنزل الشيخُ .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وثلاثين وتسع مئة[(٣)] ، ودفن بساقية مكَّة بالجيزة ، وقبره بها ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٩١ ، ٤/ ٤٢٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٦٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٩٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٢٨) (٤١٤) .

(٢) في « طبقات المناوي » : (خايربك) .

(٣) في « الكواكب السائرة » : (مات سنة أربع أو خمس وثلاثين) ، وذكره ابن العماد في « الشذرات » في وفيات سنة (٩٣٥هـ) .

ومنهم :

(٣٩٠) الشيخ مخلص رضي الله عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ أبي الخير بن نصر ببلاد الغربية[2] .

كان رحمه الله تعالىٰ من الفقراء الصادقين .

وكان سيدي الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه يعظِّمه ويوقِّره .

اجتمعتُ به مراتٍ عديدة ، وحصلَ لي منه نفحاتٌ وجدتُ بركتها .

وكان علىٰ هدي الفقراء الأُوَل من كثرةِ الصوم ، وقيام الليل ، وتلاوةِ القرآن ، والإعراضِ عن الدنيا وأهلها .

مات رضي الله عنه سنة أربعين وتسع مئة ، ودفن بأبشيه الملق ، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه آمين .

ومنهم :

(٣٩١) الشيخ صدر الدين البكري رضي الله عنه[3]

أحدُ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، والشيخ أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه ذا سمتٍ حسنٍ ، قليلَ الكلام ، لا يكادُ ينطقُ بكلمةٍ إلا بعد تثبُّتٍ .

صحبتُه نحو عشر سنين ، وحصل لي منه نفحةٌ وجدتُ بركتها .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٥٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٤٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٢٩) (٤١٥) .

(٢) في (ح) وحدها : (نصير) بدل (نصر) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٨٢) ، واسمه : محمد ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٠) (٤١٦) .

ولما حجَّ رضي الله عنه وزارَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمعَ ردَّ السلامَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مات رضي الله عنه سنة ثمان عشرة وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٢) سيدي الشيخ دمرداش المحمدي رضي الله عنه[١]

أحدُ جماعة سيدي عمر روشني بمدينة توريز العجم رضي الله عنه[٢] .

كان رحمه الله على قدمِ السلف الصالح من الأكلِ من عمل يده ، والتصدُّق بما فضلَ .

وعمل الغيط المجاور لزاويته خارج مصر ، والحسينية ، فأقام هو وزوجته في خصٍّ يغرسون فيه خمسَ سنين ، وقال لي : ما أكلتُ منه ولا واحدةً ؛ لأنني زرعته على اسمِ الفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلين .

ونمتُ عنده ليالي ، فكنتُ لا أراه ينامُ من الليل إلا يسيراً ، ثم يقومُ يتوضَّأُ ويصلي ، ثم يتلو القرآن ، فربَّما يقرأ الختمَ كاملاً قبل الفجر .

وليس في مصر كلها ثمرةٌ أحلى من ثمرة غيطه .

وقسم وقفَهُ ثلاثةَ أثلاث : ثلثٌ يردُّ على مصالح الغيط ، وثلثٌ للذرية ، وثلث للفقراء القاطنين بزاويته .

ورتَّب عليهم في كل يومٍ ختماً يتناوبونه ، ويهدون ذلك في صحائف سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٦٣) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ١٩٢) ، و« هدية العارفين » (٢/ ٢٣١) (محمد بن عبد الله المعروف بابن الدمرداش) ، و« طبقات الشاذلية » (ص ١٥٧) ، و« الخطط التوفيقية » (٤/ ٢٣٢) ، و« بروكلمان » (٦/ ٥١٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ٢٣٠) (٤١٧) .

(٢) في (ج) وحدها : (رويشين) بدل (روشني) .

وكان أمرُه كلُّه جدّاً .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وثلاثين وتسع مئة[١] ، ودفن بزاويته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٣) الشيخ إبراهيم أخوه[٢] في الطريق رضي الله عنه[٣]

كانت له المجاهدات فوق الحدِّ .

اجتمعتُ به أنا وسيدي أبو العباس الحُريثي رضي الله عنه مراراً كثيرة ، ورأيناه على قدمٍ عظيمٍ ، إلا أنه أميٌّ أغلفُ اللسان[٤] ، لا يكاد يُفصح عن المقصود .

وأُعطي القبولَ التام في دولة ابن عثمان ، وأقبلَ عليه العسكرُ إقبالا زائداً ، وأرادوا نفيَهُ لذلك ، فجمع نفسَه ، وعمَّرَ له قبةً وزاويةً خارجَ باب زويلة ، ودُفِنَ فيها ، وجعلَ في الخلاوي المحيطةَ بقبته قبوراً بعدد أصحابها على طريقة مشايخ العجم .

وكان يقبلُ عليَّ إقبالاً زائداً ، لكن يقول : أنتم مشايخ الخبز ، فكان لا يُعجبه إلا المجاهدات من غيرِ تخلُّل راحة .

مات رحمه الله سنة أربعين وتسع مئة رضي الله عنه .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعله : نيف وعشرين ، وقال نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٣) : (ذكر العلائي : أنه توفي عصر السبت حادي عشر ذي الحجة ، سنة تسع ـ بتقديم المثناة ـ وعشرين وتسع مئة ، وذكر ابن طولون : أنه صلى عليه غائبة بالجامع الأموي بدمشق يوم الجمعة (١٧) محرم سنة ثلاثين وتسع مئة) .

(٢) أي : أخو دمرداش المحمدي المتقدم ذكره .

(٣) اسمه : إبراهيم العجمي ، وانظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٨٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطى » (٤/ ٢٣٣) (٤١٨) .

(٤) **أغلف اللسان** ؛ أي : العاجز عن البيان .

ومنهم :

(٣٩٤) الشيخ مرشد رضي الله عنه[١]

كان قادري الخرقة ، وكان يطوي الأيامَ والليالي .

وأخبرني أنَّه مكثَ نحو أربعين سنة يأكلُ في كل يوم زبيبةً واحدةً حتىٰ لصقَ بطنُه علىٰ ظهره ، رضي الله عنه .

وكان يَحْبُكُ الشدودَ وغيرَها ، ويتقوَّتُ بذلك .

اجتمعتُ به كثيراً ، وأخبرني بأمره من مبدئه إلىٰ ذلك الوقت ، ونبَّهني علىٰ أمورٍ في الباطن كنتُ مخلاً بها ، وحصلَ لي منه مددٌ .

واجتمع عليه آخرَ عمره طائفةُ السودان من الفقراء ، واعتقدوه اعتقاداً زائداً .

مات رضي الله عنه سنة نيِّف وأربعين وتسع مئة ، ودُفِنَ بباب الوزير بالقرب من قلعة الجبل[٢] ، وله من العمر نحو المئة سنة ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٣٩٥) الشيخ ناصر الدين أبو العمائم الزِّفتاوي رضي الله عنه[٣]

أقام بالنحارية[٤] ، وبنىٰ بها زاويةً وبستاناً ، ومات بها .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣١٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٨٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٤٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٤) (٤١٩) .

(٢) سيأتي التعريف بها (٢/ ٤٢٤) .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٦٦) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٨٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٥) (٤٢٠) .

(٤) في (ز ، ط) : (النجارية) ، وفي (د) و« الكواكب السائرة » : (النحرارية) ، **والنَّحريرية** : من القرى القديمة ، كانت في بدء تكوينها ضيعةً أنشأها نحرير الأرغلي الإخشيدي المعروف بابن الشويزاني في القرن الرابع ، فعرفت به ، وهي من أعمال الغربية ، وورد اسمها في بعض المصادر بالنحرارية ، وهو تحريف ، ثم حُرِّف للمرة الثانية إلى النحارية ، وهو اسمها الحالي ؛ وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية . « الخطط المقريزية » (١/ ٦١٣) .

وكان عبداً صالحاً أحمديَّ الخرقة .

وكان بينه وبين سيدي الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه ودٌّ وإخاء .

وكان رضي الله عنه يتعمَّمُ بنحو ثلاثِ بُرد صوف ، وأكثر .

وكان لسانُهُ لهجاً بذكر الله تعالىٰ وتلاوة القرآن .

صحبته نحو خمسَ سنين ، وحصلَ لي منه نفحاتٌ ، ودعا لي بدعواتٍ ؛ منها قوله : اللهم ؛ اجعلْ أخي هـٰذا من الذين لا يَرضون بسواك .

مات رحمه الله تعالىٰ بالنحارية سنة تسعَ عشرة وتسع مئة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٦) الشيخ شرف الدين الصعيدي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه صاحبَ كشفٍ واجتهاد ، وقيامٍ وصيامٍ وطيٍّ .

وكان يطوي الأربعين يوماً وأكثر ، وامتحنَهُ السلطان الغوري ، وحبسَهُ في بيتٍ أربعين يوماً مُقفلاً عليه الباب ، ثم فتحَهُ فوجده قائماً يُصلِّي .

صحبته نحو ثلاث سنين آخر عمره ، ثم مات ودُفِنَ بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه في تربة شرفِ الدين الصغير ، رضي الله عنه[٢] .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨٠) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢١٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٣١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٥) (٤٢١) .

(٢) ذكر النجم الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ٢١٤) : أن وفاته قبل العشرين وتسع مئة ، وذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١٠/ ١٣١) في وفيات سنة (٩١٩هـ) .

ومنهم :

(٣٩٧) سيدي الشيخ قاسم المغربي الفاسي القصري رضي الله عنه(١)

قدم مصر سنة سبعَ عشرةَ وتسع مئة حاجّاً ، فصحبته إلىٰ أن سافر ، ثم رجع من الحجِّ ، فصحبته إلىٰ أن سافرَ إلى المغرب ، فلما وصل إلىٰ فاس أرسلَ لي كذا كذا كتاباً مشتملاً علىٰ آداب وإرشادات .

وكان رضي الله عنه ذا خُلقٍ حسنٍ ، وكرمٍ ، وحلم ، لم يزل متبسِّماً منشرحاً .

وجاء مصرَ في نحو خمس مئة مُريد حجَّ بهم .

وكان دأبُهُ الجهادَ طولَ عمره إلىٰ أن مات ، رحمه الله تعالىٰ(٢) .

ومنهم :

(٣٩٨) سيدي علي البُليلي رضي الله عنه(٣)

وبُليل قبيلةٌ من عرب المغرب .

كان رضي الله عنه ذا سمتٍ حسن ، وخُلقٍ حسن .

لم يزلْ يُسافر الحجازَ والقدسَ إلىٰ أن مات في القدس .

وكان يُقيمُ إذا جاء مصر في الجامع الأزهر .

وهو الذي قالَ لي : (جميعُ ما يقدَّمُ إليك من المأكلِ مائدةُ الله تعالىٰ ، فكلْ منها

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٣٤) ، و« الكواكب السائرة » (٣/ ٢٠٠) (الأقصرائي) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٦) (٤٢٢) .

(٢) ذكر المؤلف وفاته في « الطبقات الوسطىٰ » والمناوي في « طبقاته » سنة (٩٥٦هـ) ، وقال النجم الغزي في « الكواكب السائرة » : (توفي سنة سبعين ـ بتقديم السين ـ وتسع مئة بمدينة فاس) .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٣٧) (٤٢٣) .

بالتعظيمِ لمن قدَّمها ، وميزان الشريعة بيدك من حيثُ الورع ، ولا تتركها تهلك) .

وكان سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه يحبُّه حبّاً شديداً ، وكذلك الشيخ نورُ الدين الشوني رضي الله عنه ، وغيرُهما .

وكان رحمه الله علىٰ قدمٍ من الزهدِ والورع .

ودخل عليه مرَّةً الشيخُ محمدُ بن عنان رضي الله عنه فرآه مريضاً قد أشرفَ على التلف ، فرقدَ الشيخُ محمد مكانَه ، فقام سيدي عليٌّ نشطاً في الحال كأنْ لم يكن به مرض ، ومكثَ سيدي محمدُ بن عنان رضي الله عنه مريضاً نحو أربعين يوماً ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٣٩٩) الشيخ إبراهيم أبو لحاف المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه من أوسعِ الناس خُلقاً ، لا يكاد أحدٌ قطُّ يُغضبه ولو فعل معه ما فعل .

وكان أولاً مُقيماً في برجٍ من أبراج قلعة الجبل نحو عشرين سنة[٢] ، فلما قربَ زوالُ دولة الجراكسة أرسل يقولُ للغوري : تحوَّل وأعط مفاتيح القلعةِ لأصحابها ، فلم يُلقِ إليه بالاً ، وقال : هـٰذا مجذوب ، فنزل إلىٰ مصر ، وزالتْ دولةُ الجراكسة .

ولم يزلْ في مصر إلىٰ أن مات ، ودفن في قنطرة السدِّ بالقرب من مصر العتيق في الحوش الذي هناك .

وكان يُقيم عندي الشهرَ وأكثر ، فكنت أراه لا ينامُ شيئاً من الليل إلا قُبيل الفجر .

وكان رضي الله عنه يقول طولَ ليله : الله الله ، لا يفتر .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣١٩ ، ٤/ ٢٧٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٨٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٣) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٤) (٤٧٦) .

(٢) تقع قلعة الجبل على الجبل المقطم في القاهرة ، وهي القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي .

وكان حافياً مكشوفَ الرأس ، ملتحفاً بملاءةٍ حمراء ، وبيده عصاً غليظَةٌ لم تزل في حضنه ، ويقول : احتاج الزمان إلىٰ هـٰذا .

ولما مُددتُ للتوسيط[1] في أيام السلطانِ أحمد[2] ، بسبب شخصٍ من أكابر الدولة قيل إنه مخبأ عندي . وقفَ عند رأسي وقال : لا تخفْ ، ما عليك باس ، غداً تُقضى الحاجة أذانَ الظهر ، فلما كان الغدُ خرجَ السلطان أحمد هارباً من القتل أذانَ الظهر كما قال .

وكنتُ لم أزلْ أسمعُهُ يقولُ هـٰذه الكلمات : سبحان من خلقَ الخلقَ احتياط علم خبر فقط ، رحمة الله تعالىٰ عليه .

ومنهم :

(٤٠٠) الشيخ محمد بن زُرْعة رضي الله عنه[3]

كان رضي الله عنه مُقيماً بمصر بقنطرة قُديدار[4] .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ ثلاثةَ أيام ، ويسكتُ ثلاثة أيام .

زرته مرات ، ودعا لي بدعواتٍ ؛ منها : اللهُ يجعلك من رؤوس حزبِ محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) **التوسيط** : قطع الرجل نصفين من وسطه .

(٢) **أحمد باشا الطاغية** : كان من خواص مماليك السلطان سليم ، تقلَّدَ نيابة مصر في شوال سنة (٩٢٩هـ) ، وأظهر الطغيان والتجبُّر ، وصادر الأموال ، وقتل الكثير من أمرائها ، وأعمل السيف ، وأظهر أعمالاً من التعذيب ، حتىٰ إنه ادعى السلطنة لنفسه ، وأمر أن يخطب باسمه ، وأن تضرب النقود باسمه أيضاً ، قُتِلَ في ربيع الثاني سنة (٩٣٠هـ) . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٦) .

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٥٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٥٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٩٦) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٥) (٤٧٧) .

(٤) **قنطرة قديدار** : تقع على الخليج الناصري ، ويتوصل إليها من اللوق ، عرفت هـٰذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار مملوك الأمير برلغي . « الخطط المقريزية » (٣/ ٢٦٤) .

قال بعضُهم : كان سيدي عبد القادر الدشْطُوطي رضي الله عنه من سعاة محمد بن زرعة إذا جالتْ روحُه في الأرض .

مات رحمه الله سنة أربعَ عشرةَ وتسع مئة[١] ، ودُفِنَ بالشباك الذي كان يَقعدُ فيه في بيته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠١) سيدي علي وحيش[٢]

من مجاذيب النحارية[٣] .

كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال .

وكان يأتي مصرَ والمحلَّة ، وغيرَهما من البلاد ، وله كراماتٌ وخوارقُ .

واجتمعت به يوماً في خطٍّ بين القصرين ، فقال لي : ودِّيني للزلباني ، فودَّيتُهُ له ، فدعا لي وقال : الله يصبِّرُكَ علىٰ ما بين يديك من البلوىٰ .

وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالىٰ قال : كان الشيخُ وحيش رضي الله عنه يُقيم عندنا في المحلَّة ، في خان بنات الخَطَا ، وكان كلُّ من خرجَ يقول له : قف حتىٰ أشفعَ فيك عند الله قبلَ أن تخرجَ ، فيشفع فيه .

وكان يحبسُ بعضَهم اليومَ واليومين ، ولا يُمكِّنه أن يخرجَ حتىٰ يُجابَ في شفاعته .

وقال يوماً لبنات الخَطَا : اخرجوا ، فإنَّ الخانَ رايح يطبق عليكم ، فما سمعَ منهن إلا واحدةٌ ، فخرجتْ ، ووقع على الباقي فمتن كلُّهن .

وكان إذا رأىٰ شيخَ بلدٍ أو غيرَه يُنزله مِنْ على الحمارة ويقول له : امسكْ رأسَها لي حتىٰ أَفعلَ فيها ، فإن أبىٰ شيخُ البلد تسمَّرَ في الأرض ، لا يستطيعُ يمشي خطوة ، وإن

---

(١) ذكر المناوي في « طبقاته » (٣/ ٤٥٧) وفاته سنة (٩٢٣هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٦٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٠ ، ٢٨١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٦) (٤٧٨) .

(٣) مر التعريف بها في حاشية (٢/ ٤٢١) .

سمعَ حصلَ له خجلٌ عظيم ، والناسُ يمرُّون عليه[١] .

وكان له أحوالٌ غريبة .

وقد أخبرتُ عنه سيدي محمدَ بنَ عنان رضي الله عنه ، فقال : هٰؤلاء يُخيِّلون للناس هٰذه الأفعال ، وليسَ لها حقيقة .

مات رحمه الله تعالىٰ بالنحارية سنة سبعَ عشرةَ وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٠٢) سيدي الشريف المجذوب رحمه الله[٢]

كان ساكناً تجاه المجانين بالمارستان المنصوري .

وكان له كشفٌ ومثاقلات للناس الذين يُنكرون عليه .

وكان يأكلُ في نهار رمضان ويقول : أنا معتوقٌ ، أعتقني ربي .

وكان كلُّ من أَنكر عليه يَعطبُه في الحال .

وأرسل لي مرةً رغيفاً مع إنسان وقال : قل له : يأكل هٰذا الرغيف ، وطوىٰ فيه مرضَ سبعة وخمسين يوماً ، فلم آكلْه ، فأكله القاصدُ ، فمرض سبعةً وخمسين يوماً ، فقال للقاصد : لا تخف ، إن شاء الله تعالىٰ أَصطادُهُ في مرةٍ أخرىٰ ، فلم يُقدَّرْ له ذلك .

وكان يتظاهرُ ببلع الحشيش ، فوجدوها يوماً حلاوةً .

وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هٰذه الدار .

وكان أصلُه جمَّالاً عند بعض الأمراء ، ثم حصل له الجذب .

---

(١) سقطت هٰذه الحكاية الغريبة من النسخة (و) ، إلا أنها مثبتة من سائر النسخ ، ولم يذكرها المصنف في « الطبقات الوسطىٰ » ، وسترىٰ أنه التمس لها عذراً بقوله الآتي للشيخ محمد بن عنان ، ونعت أحواله بالغرابة ، وانظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٦٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٢٨٢) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٣٨) (٤٨٠) ، واسمه : هاشم .

وكان سيدي عليٌّ الخوّاص رضي الله عنه يُرسلُ له الحملاتِ الثقالَ ، فيقوم بها .

ولما طعنَ أصحابُ النوبة سيدي علياً الخواص رضي الله عنه . . جاءه الشريفُ ، وردَّ عنه الطعنةَ وقال : لم يُنجني أحدٌ في مصر غير الشريف ، فكان لا يَنساها له .

ثم إنهم طعنوه مرَّةً أُخرىٰ ، فأصابته ؛ وذلك أن الشَّفاعاتِ كثرتْ علىٰ سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنه أيام السُّلطان ابن عثمان ، وكان أصحابُ النوبة بمصر عجماً ، فكانوا لم يزالوا يُعارضونه ويعارضهم ، فطعنوه بخنجرٍ في مشعره ، ولم يزلْ به إلىٰ أن مات بعد ثلاثين يوماً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٣) سيدي علي الدَّمِيْري المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه جالساً ليلاً ونهاراً علىٰ دكَّانِ بياع الرقاق تجاه حمَّام المارستان .

وكان رضي الله عنه لا يتكلَّمُ إلا نادراً .

وكان مكشوفَ الرأس ، ملفوفاً في بُردةٍ ، كلما تتقطَّعُ يبدِّلونها له بأُخرىٰ .

أقام علىٰ هـٰذه الحالةِ نحو عشرين سنة .

وكان كلَّما رآني تبسَّمَ .

مات رضي الله عنه سنة خمسٍ وعشرين وتسع مئة ، ودُفِنَ بالمسجد الذي بقربِ باب القصر اليشبكي[٢] ، وقبرُه ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٠٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٨) (٤٨١) .

(٢) في (و) ، و« الطبقات الوسطىٰ » ، و« الكواكب السائرة » ، و« شذرات الذهب » : (ودفن بالمسجد المقابل لباب ابن خاص بك بين القصرين بالقاهرة) .

ومنهم :

(٤٠٤) شيخي وأستاذي سيدي عليٌّ الخوَّاصُ البُرُلُّسي[1]

كان رضي الله عنه أمياً لا يكتبُ ولا يقرأ .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ علىٰ معاني القرآن العظيم والسُّنة المشرفة كلاماً نفيساً تحيَّرَ فيه العلماء .

وكان محلُّ كشفه اللوحَ المحفوظ عن المحو ، فكان إذا قال قولاً لا بدَّ أن يقعَ على الصفة التي قال .

وكنتُ أُرسل له الناسَ يُشاورونه عن أحوالهم ، فما كان قطُّ يُحوجُهم إلىٰ كلام ، بل كانَ يُخبرُ الشخصَ بواقعته التي أتىٰ لأجلها قبلَ أن يتكلَّمَ ، فيقول له : طلِّقْ مثلاً ، أو شاركه ، أو فارقه ، أو اصبرْ ، أو سافرْ ، أو لا تسافر ، فيتحيَّرُ الشخصُ ويقول : من أعلمَ هـٰذا بأمري ؟!

وكان له طِبٌّ غريبٌ يُداوي به أهلَ الاستسقاء والجذام والبرص والفالج والأمراض المزمنة ، فكلُّ شيءٍ أشار باستعماله يكونُ الشفاءُ فيه .

وسمعتُ سيدي محمد بنَ عنان رضي الله عنه يقول : (الشيخُ عليٌّ البُرُلُّسيُّ أُعطي التصريفَ في ثلاثة أرباع مصر وقراها) .

وسمعته يقولُ مرَّةً أخرىٰ : (لا يقدرُ أحدٌ من أرباب الأحوال أن يدخلَ مصر إلا بإذن الشيخ عليٍّ الخوَّاص رضي الله عنه) .

وكان رضي الله عنه يعرفُ أصحابَ النوبة في سائر أقطار الأرض ، ويعرفُ من تولَّىٰ منهم ساعةَ ولايته ، ومن عُزل منهم ساعةَ عزله ، ولم أرَ هـٰذا القدمَ لأحدٍ غيرِهِ من مشايخ مصر إلىٰ وقتي هـٰذا .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤١٧) ، و« الكواكب السائرة » (٢/٢٢٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٣٢٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/١٨٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٢٩١) (٤٥١) .

وكان له اطِّلاعٌ عظيمٌ علىٰ قلوب الفقراء ، فكان يقول : فلان زادَ فتوحُهُ اليوم كذا كذا دقيقة ، وفلانٌ نقصَ اليومَ كذا كذا ، وفلانٌ فُتح عليه بفتوحٍ عظيم يدوم إلىٰ آخر عمره ، وفلانٌ يدوم فتحُهُ سنةً ، أو شهراً ، أو جمعة ، فيكون الأمرُ كما قال .

ومرَّ عليه فقيرٌ فُتح عليه بفتوحٍ عظيم ، فنظر إليه وقال : هـٰذا فتوحُه يزولُ عن قريبٍ ، فمرَّ علىٰ ذلك الفقيرِ شخصٌ من أرباب الأحوال فازدراه ، ونقصَهُ بكلماتٍ ، فراح ذلك الشخصُ إلىٰ ذلك الفقير ، ودارَ له نعلَهُ ، فسلبَهُ ذلك الفتوح ، فقال له الشيخ : يا ولدي ؛ قلَّةُ الأدب لا يمكثُ معها فتوحٌ ، ولم يزل مسلوباً إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه يعظِّمُ أربابَ الحرف النافعة في الدنيا ؛ كالسقَّاء والزبَّال والطبَّاخ والفيخراني ، ومقدم الوالي ، ومقدم أمير الحاج ، والمعدَّاوي ، والطوَّافين علىٰ رؤوسهم بالبضائع ، ويدعو لهم ويُكرمُهم .

وكان رضي الله عنه يعظِّمُ العلماءَ وأركانَ الدولة ، ويقومُ لهم ، ويقبِّلُ أيديَهم ويقول : هـٰذا أدبُنا معهم في هـٰذه الدار ، وسيُعلِّمنا اللهُ تعالى الأدبَ معهم إذا وصلنا إلىٰ دار الآخرة .

وكان إذا علمَ من أحدٍ من أرباب الدولة أو غيرِهم أنَّه قاصدٌ السلامَ عليه . . يذهبُ إليه قبل أن يأتي ، ويقول : كلُّ خطوةٍ يمشيها الناسُ إلى الفقيرِ تُنقصُه من مقامه درجةً ، فقيل له : فكيف تذهبُ أنت إليهم ؟! فقال : أنا أذهبُ وأسألُ الله تعالىٰ لهم ألا ينقصَ درجتهم ؛ فإن أجري على الله تعالىٰ لا عليهم .

وكان رضي الله عنه أوَّلاً طوَّافاً يبيع الصابون والجمَّيز والعجوة[١] ، وكلَّ ما وجد ، ثم فتحَ دكانَ زيات سنين عديدة ، ثم صار يضفرُ الخوصَ إلىٰ أن مات .

وكان لا يأكلُ شيئاً من طعام الظلمة وأعوانهم ، ولا يتصرَّفُ في شيءٍ من دراهمهم في مصالح نفسه أو عياله ، إنَّما يضعه عنده للنساء الأرامل والشيوخ والعميان والعاجزين عن الكسب ، ومن ارتكبتهم الديون ، فيعطيهم من ذلك ما قسم .

---

(١) **الجميز** : ضرب من الثمر يشبه التين ، وهو حلوٌ ، وهو الأصفر منه ، والأسود يُدمي الفم . « تاج العروس » (ج م ز) .

وورمتْ عيناه مرَّةً ورماً شديداً وهو يضفرُ الخوصَ ، فأتاه شخصٌ من أصحابنا بدراهم وقال : يا سيدي ؛ أنفقها واسترحْ حتىٰ تطيب عيناك ، فردَّها وقال : واللهِ ؛ أنا في هـٰذا الحال ولا تطيبُ نفسي بكسبِ نفسي ، فكيف بكسب غيري ؟!

وكان رضي الله عنه يعاملُ الخلقَ علىٰ حسب ما في قلوبهم ، لا علىٰ حسب ما في وجوههم .

ومرَّ عليه مرَّةً شخصٌ من الفقراء والنورُ يخفقُ من وجهه ، فنظر إليه الشيخُ وقال : اللهم ؛ اكفنا السُّوء ، إنَّ اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ خيراً جعلَ نورَه في قلبه وظاهرُ جسدِهِ كآحاد الناس ، وإذا أرادَ به سوءاً أظهرَ ما في قلبِهِ علىٰ وجهه ، وجعل قلبَهُ مُظلماً .

وكان رضي الله عنه يكنسُ المساجد ، وينظِّفُ بيوت الأخلية ، ويحملُ الكناسة تارةً ، ويُخرجها إلى الكوم احتساباً لوجه الله تعالىٰ في كل يوم جمعة .

وكان يكنسُ المقياسَ[١] في كلِّ سنةٍ ثاني يوم نزول النقطة[٢] ، ويُنفق علىٰ أصحابه ذلك اليوم نفقةً عظيمةً يقبض من عبِّهِ الدراهمَ ويُعطيها لكل من رآه من المستحقِّين ، ويزنُ عنهم كراءَ المعدِّية، وهم نحو مئة نفس ، ثم يُفرِّق السُّكَّر ، والخُشْكَنَان علىٰ أهل المقياس[٣] ، وجيرانه ، ثم ينزلُ فيكشف رأسَه ويتوضأ من المقياس ، ويصيرُ يبكي ويتضرَّعُ ويرتعد كالقصبة في الريح ، ثم يطلعُ يُصلِّي ركعتين ، ويأمرُ كلَّ واحدٍ من

---

(١) **مقاييس النيل** : أقيمت على امتداد النيل للتعرف علىٰ مقدار ارتفاعه في أيام الفيضان ، أو انخفاضه زمن التحاريق ، ومنها ما كان في منف ، ومنها ما كان في أنصنا ، وإخميم ، وحلوان ، والأقصر ، وأشهرها ما هو قائم في الطرف الجنوبي من جزيرة الروضة ، وكانت الضرائب تقرر عندما يحدد المقياس درجةً معروفة لارتفاع فيضان النيل . « النجوم الزاهرة » (١/١٤٧) .

(٢) **نزول النقطة** : يبدأ النيل فيضانه في أول الانقلاب الصيفي ، وتحديداً ليلة الحادي عشر من شهر تموز ، وهو ما يعرف بليلة نزول النقطة ، وكان للمصريين فيه عيد كبير ، وهو المشهور عند الأقباط بعيد ميكائيل ، وفيه يبدأ عادة بقياس قاع النيل . « كتاب من أجل النيل » لصالح حمدي حماد (ص ٨) .

(٣) **الخُشْكنان** : خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة ، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق ، وتقلىٰ . (فارسي) « المعجم الوسيط » (١/٢٢٦) .

أصحابه أن ينزلَ ، ثم يكنسُ السُّلَّمَ بمقشطٍ من حديد ، ويُخرجُ الطينَ الذي فيه بنفسه ، لا يُمكِّنُ أحداً يساعده فيه .

وكان يقال : إنَّ خدمةَ النيل كانتْ عليه ، وأمرَ طلوع النيل ونزولَه ، وريَّ البلاد ، وختامَ الزرع ، كلُّ ذلك كان بتوجُّهه فيه إلى الله تعالىٰ ، وكان أولياءُ عصره تقرُّ له بذلك .

ولما دخلَ ابنُ عثمان مصرَ أرسل له فقيراً ينظرُ كم معه من أصحابِ النوبة ، فذهبَ ورجع ، فقال : معه سبعةٌ ، فقال : والله مظفر[١] يرجعُ إلىٰ بلاده سالماً .

وكان سيدي محمد بنُ عنان رضي الله عنه إذا جاءه أهلُ الحوائج الشديدة ؛ كشخصٍ رسمَ السلطان بشنقه ، أو مسكَهُ الوالي بزغلٍ[٢] ، أو حرام ، أو نحو ذلك . . يُرسلُ صاحبَ الحاجة للشيخ عليٍّ رضي الله عنه ويقول : نحن ما معنا تصريفٌ في هٰذا البلد ، فيقضي الحاجةَ[٣] .

وجاءته امرأةٌ مرّةً وأنا قاعدٌ ، فقالت : يا سيدي ؛ نزلوا بولدي يشنقونه علىٰ قنطرةِ الحاجبِ ، فقال : اذهبوا بسرعةٍ للشيخ عليٍّ البُرُلُّسيِّ رضي الله عنه ، فذهبت إليه أمُّه ، فقال : روحي معه ، وإن شاء الله تعالىٰ يلحقُهُ القاصدُ من السلطان قبل الشنق ، فهو طالعٌ قنطرةَ الحاجب للشنق ، وإذا بالشفاعةِ جاءتْ ، فأُطلق .

ورأى الشيخ محمد بنُ عنان رضي الله عنه ليلةً بلاءً عظيماً نازلاً علىٰ مصر ، فأرسل للشيخ علي ، فقال : الله لا يُبشِّره بخير ، ولٰكن توافي البركةُ ، فجاء جان بلاط المؤتمن مُحتسب مصر[٤] ، فأخذ الشيخَ علياً من الدكان ، وضربه مقارعَ ، وخزمه في كتفه وأنفه ، ودار به مصر وبولاق ، فلما صلى الشيخُ محمد رضي الله عنه الظهر ، ورأى البلاءَ ارتفعَ . . قال : روحوا انظروا أيش جرىٰ للشيخ علي ، فراحوا ، فوجدوه

---

(١) كذا في (ز) ، وفي باقي النسخ : (مغفَّر) .

(٢) الزغل : الغش .

(٣) في (ط) : (نحن ما معنا تصريف في هٰذه البلد ، فيأتي الشخص إليه فتنقضي حاجتُه) .

(٤) جان بلاط أبو النصر : من ملوك الشراكسة المماليك بمصر والشام ، توفي سنة (٩٠٦هـ) . انظر « الأعلام » (٢/ ١٠٧) .

علىٰ تلك الحال ، فردُّوا على الشيخ محمد رضي الله عنه الخبرَ ، فقال : الحمد لله الذي جعلَ في هـٰذه الأمة من يتحمَّلُ عنها البلايا والمحن ، ثم خرَّ ساجداً لله عز وجل .

وكان إذا وقعَ نوءٌ أيامَ زهر الفواكه لا ينامُ تلك الليلة[1] ، وهو يتضرَّعُ ويبكي ، ويسأل اللهَ تعالىٰ في رفعه .

وكان رضي الله عنه يملأُ قعاوي الكلاب دائماً في حارته وغيرها .

وكان لا يراه أحدٌ قطُّ يُصلِّي الظهر في جماعة ولا غيرها ، بل كان يردُّ بابَ حانوته وقت الأذان ، فيغيب ساعةً ، ثم يخرجُ ، فصادفوه في الجامع الأبيض برملة لُدٍّ في صلاة الظهر ، وأخبرَ الخادمُ أنه دائماً يُصلِّي الظهرَ عندهم .

وكانت مدَّةُ صحبتي له عشر سنين ، فكأنَّها كانت ساعةً .

وله كلامٌ نفيس رقمت غالبَهُ[2] في كتابنا المسمَّىٰ بـ « الجواهر والدرر » كلُّ جوابٍ منه يعجزُ عنه فحولُ العلماء ، حتىٰ تعجَّبَ مَنْ كتبَ عليه من العلماء ؛ كسيدي الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي رضي الله عنه ، وسيدي الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي رضي الله عنه ، وسيدي الشيخ ناصر الدين اللقَّاني المالكي رضي الله عنه ، والشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي رضي الله عنه ، وغيرهم .

وقال الشيخ شهاب الدين الفتوحي رضي الله عنه : (لي سبعون سنة أخدمُ العلم فما أظنُّ قطُّ أنَّه خطرَ علىٰ بالي لا السؤال ولا الجواب من هـٰذا الكتاب) يعني : « الجواهر والدرر » .

وكان له جُبَّةٌ واحدة ، وشاشٌ صغير علىٰ زنط[3] ، يغسلُ العِمامة والجبة في السنةِ مرَّةً واحدة بالملح ، ويقول : نوفِّرُ الصابون لغيرنا من الفقراء .

---

(١) **النوء هنا** : المطر الشديد . انظر « المعجم الوسيط » (٢/ ٩٦١) .

(٢) في (هـ ، ح) : (لبه) بدل (غالبه) .

(٣) **الزُّنْط أو الزُّمط** : قلنسوة حمراء لها خصلات ؛ أي : شراريب طويلة مسدلة بطول الإصبع ، وملفوف حولها شال ، كان لباس الرأس للطبقات الدنيا في مصر في العصر المملوكي . انظر « المعجم العربي لأسماء الملابس » (ص ٢١٢) .

وكان إذا اشتهتْ نفسُه الدسمَ أخذ عَجْمَ الأذناب من قاعة العظام[١] ، وصلقها ، ثم قطفَ الدهنَ وكبَّ ماءها ، ثم طبخَ به القمح والرز ، هـٰذا كان لحمَهُ ، ويقول : إن الأذناب لا تُصيبها العيون ، ولا أحدَ ينظرُ إليها .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُسمَّىٰ عالماً عندنا إلا من كان علمُهُ غيرَ مستفادٍ من نَقْلٍ أو صَدْرٍ ؛ بأن يكونَ خضريَّ المقام ، وأما غيرُ هـٰذا فإنما هو حاكٍ لعلمِ غيره فقط ، فله أجرُ مَنْ حملَ العلمَ حتىٰ أدَّاه ، لا أجرُ العالِم ، والله لا يضيع أجر المحسنين)[٢] .

ثم قال : (من أراد أن يعرفَ مرتبتَهُ في العلم يقيناً لا شكَّ فيه فليردَّ كلَّ قولٍ حفظه إلىٰ قائله ، وينظرْ بعد ذلك إلىٰ علمِهِ ، فما وجدَهُ معه فهو علمُهُ ، وأظن لا يبقىٰ معه إلا شيءٌ يَسيرٌ لا يُسمَّىٰ به عالماً) .

وكان يقولُ : لا يصيرُ الرَّجلُ عندنا معدوداً من أهل الطريق إلا إن كان عالماً بالشريعة المطهَّرةِ مجملِها ومبينِها ، ناسخِها ومنسوخِها ، خاصِّها وعامِّها ، ومن جهلَ حكماً واحداً منها سقطَ عن درجة الرجال ، فقلتُ له : إن غالبَ مُسلِّكيِّ هـٰذا الزمان علىٰ هـٰذا ساقطون عن درجة الرجال ، فقال : نعم ، إنما هـٰؤلاء يرشدون الناسَ إلىٰ بعض أمورِ دينهم ، وأمَّا المُسلِّكُ فهو من لو انفردَ في جميع الوجود لكفى الناسَ كلَّهم من العلم في سائر ما يطلبونه .

وكان رضي الله عنه يقول في معنىٰ قول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه حين رأىٰ ربَّ العزَّة جل جلاله في منامه ، فقال : (يا ربِّ ؛ بمَ يتقرَّبُ إليك المتقرِّبون ؟ قال : يا أحمد ، بتلاوة كلامي ، قال : يا ربِّ ؛ بفهمٍ أم بغير فهم ؟ قال : يا أحمد ، بفهمٍ وبغير فهمٍ) : (المرادُ بفهمٍ : ما يتعلَّقُ بعلماء الشريعة ، وبغيرِ فهمٍ : ما يتعلَّق بعلماء الحقيقة ؛ فإنَّ العلماءَ ما لهم آلةٌ لفهمِ كلامِ الله تعالىٰ إلا بالفكر والنظر ، وأمَّا العارفون فطريقُهم إلىٰ فهمه الكشفُ والتعريف الإلـٰهي ؛ وذلك لا يحتاجُ إلىٰ تفهم) .

فقيل له : فما تقول فيمن يقرؤه من العوام من غير فهم ؟! فقال : قد صحَّ : أنَّ له

---

(١) العَجْمُ : أصل الذنب ، وهو العصعص . « تاج العروس » (ع ج م) .
(٢) قال تعالى في سورة التوبة (١٢٠) : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

بكلِّ حرفٍ عشرَ حسنات[١] ، فَتَحْتَ قولِهِ : (وبغير فهم) مسألتان ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا حفَّتِ العنايةُ الإلـٰهية عبداً صار كلُّ ذرةٍ من عُمره تقاوم ألفَ سنةٍ من عمر غيره ، وإذا تخلَّفتِ العنايةُ عن عبدٍ صار كلُّ ألفِ ذرةٍ من عمره لا تُساوي ذرَّةً من عمر غيره) .

وكان يقول ، ونحن في سنة إحدىٰ وأربعين وتسع مئة : (جميعُ أبواب الأولياء قد تزحزحتْ للغلق ، وما بقي الآن مَفتوحاً إلا بابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلوا كلَّ ضرورة حصلتْ لكم به صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : (لا يكملُ الفقيرُ في باب الاتِّباعِ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّىٰ يصيرَ مشهوداً له في كلِّ عملٍ مشروع ، ويستأذنُهُ في جميعِ أموره ؛ من أكلٍ ، ولبس ، وجماع ، ودخولٍ وخروج ، فمن فعلَ ذلك فقد شاركَ الصحابةَ في معنى الصحبة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لو شهدَ المعتزلُ عن الناس أنَّ الناسَ خيرٌ منه . . ما اعتزلَ عنهم ، بل كان يطلبُ الخلطةَ بهم ، ويتعلَّمُ من أخلاقهم) .

وكان يقول : في قولهم : (بئس الفقيرُ بباب الأمير) : (هـٰذا في حقِّ من يأتي الأمير يسألُه الدُّنيا ، فإن كان لشفاعةٍ ونحوها فنعمَ الفقيرُ بباب الأمير ، وإن كان لغير شفاعة ونحوها فبئس الفقيرُ ، ونعم الأمير) .

وكان يقول : (من أدبِ الزائر ألا يشغلَ المزورَ عن الله تعالىٰ بدخوله عليه ؛ إما لقوَّة حالِ المزور ، وإما أن يكون وقت فراغ) .

قلت : ويُقاس علىٰ ذلك تعطيله عن الحرفةِ التي تكفُّه عن سؤال الناس .

وكان رضي الله عنه يقول أيضاً : (من أدب الزائرِ ألا يزورَ أحداً إلا إن كان يعرفُ من نفسه القدرةَ علىٰ كتمان ما يرىٰ في المزور من العيوبِ ، وإلا فتركُ الزيارة أولىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (سمعتُ سيدي إبراهيمَ المتبولي رضي الله عنه يقول :

---

(١) روى الترمذي (٢٩١٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ، ولـٰكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

زيادةُ العلم في الرجل السُّوءِ كزيادة الماء في أصول شجر الحنظل ، فكلما ازدادَ رِيّاً ازداد مَرارة) .

وكان رضي الله عنه يقول في معنىٰ حديث : « إنَّ اللهَ يكرهُ الحَبْرَ السمينَ »[1] : (أي : لأن المُرادَ بالحَبْرِ العالمُ ، وسِمَنُهُ يدلُّ علىٰ قلَّةِ ورعه وعملِهِ بعلمه ، فلو تورَّعَ لم يجدْ شيئاً في عصره يسمنُ به) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الراسخُ في العلم واقفٌ ، ولو لم يرسخْ لدامَ ترقِّيه ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]) .

وسئل رضي الله عنه عن المراد بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِ أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : (هو عدمُ وقوفه مع الوسائط ، فكان مع اللهِ عز وجل ، وكان يَرىٰ محمداً صلى الله عليه وسلم طريقاً يجري له الخيرُ منها ؛ كحُكم المريد مع شيخه إذا كمل حالُ المريد ، وقد ظهرَ ذلك السرُّ يوم موته صلى الله عليه وسلم ، فإنه ثبتَ وخطبَ الناسَ وخفضهم ، ولم يظهرْ عليه تأثيرٌ كما وقع لعمر رضي الله عنه ولغيره من الصحابة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليس لفقيرٍ أن يدَّخرَ قوتَ العام إلا إن كان علىٰ بصيرةٍ بأنَّ ذلك قوتُه وحده وليس لأحدٍ فيه نصيب ، فإن لم يكنْ علىٰ بصيرةٍ فليس له أن يدَّخرَ ؛ لأنَّ سببَ ذلك إنَّما هو شحٌّ في الطبيعة ، فإنْ أطلعَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ أن هـٰذا المدَّخرَ رزقُ قومٍ آخرين لا يصلُ إليهم إلا علىٰ يديه . . فله الادخارُ لهـٰذا الكشف ، فإن علمَ أنه رزقُ قومٍ ولـٰكن لم يُطلعْه اللهُ علىٰ أن ذلك يكونُ علىٰ يديه . . فلا ينبغي له إمساكُه ، فإن أطلَعَهُ الله تعالىٰ علىٰ أن ذلك لا يصلُ إليهم إلا علىٰ يديه ، لـٰكنْ في زمانٍ مُعين . . فهو بالخيار ، إنْ شاء أمسكه إلىٰ ذلك الوقت ، وإن شاء أخرجه عن يده ؛ فإنه ما هو حارس ، ولا أمره الحقُّ بإمساكه ، وإذا وصلَ إلىٰ ذلك الوقت المعين فإنَّ الحقَّ تعالىٰ يردُّه إلىٰ يده حتىٰ يُوصلَه إلىٰ صاحبه) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٢٨٠) من قول كعب بلفظ : « يبغض » ، ورواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٦٢) عن مالك بن دينار قال : (قرأت في الحكمة أن الله يبغض كل حَبْرٍ سمين) .

قلت : وهٰذا أولىٰ ؛ لأنَّه بين الزمانين يكونُ غيرَ موصوفٍ بالادخار ؛ لأنه خزانة الحق ما هو خازن الحق .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تبدؤوا أحداً بهديةٍ إلا إن كان فقيراً مُحتاجاً ، أو لا يتكلَّفُ للمكافأة ؛ فإنَّ من بدأ مَنْ يكافئه أساءَ في حقِّه ؛ لأنَّه عرَّضه لكلفةِ المكافأة) .

وكان يقول : (لا تقوموا لأحدٍ من الإخوان وغيرهم إلا إذا علمتم منهم عدمَ الميلِ إلى القيام ؛ فإنَّ من قامَ لمن يُحبُّ القيامَ كبَّرَ نفسَه بغيرِ حقٍّ ، وأساءَ في حقِّه من حيث لا يشعر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يكفي الفقيرَ في هٰذه الأيام حِجَّةُ الإسلام ، ولا ينبغي له الزيادةُ علىٰ ذلك إلا إن كان خالياً من منَّةِ الناس عليه ، لا يطرق قلبه تكديرٌ من التجار الذين لم يُحسنوا إليه إذا جاعَ ، أو عجز عن المشي ، ونحو ذلك ؛ لأن الله تعالىٰ شرطَ الاستطاعةَ في الحجِّ نفلِهِ وفرضِهِ) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدِّينَ بالرَّجلِ الفاجرِ »[١] : (يدخلُ فيه العالمُ أو المسلِّكُ إذا لم يعملْ بعلمه في نفسه ، ولٰكن أفتىٰ ودلَّ الناسَ علىٰ طريق الله عز وجل ، وكذلك يدخلُ فيه العالمُ والعابدُ إذا زهدا في الدنيا طولَ عمرهما ، فلما قربتْ وفاتُهما مالا إلى الدنيا وأحبَّاها ، وجمعا المالَ من غير حلِّه ، فيموتان علىٰ ذلك ، فيُحشران مع الفجَّارِ الخارجين عن هدي العلماء العاملين) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنَّما كان مشايخُ القوم يُجيبون تلامذتهم من قبورهم دون مشايخِ الفقهاء في الفقه ؛ لصدقِ الفقراءِ في اعتقادهم في أشياخهم دون الفقهاء ، فلو صدقَ الفقيهُ لأجابه الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه ، وخاطبه مُشافهةً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (جميعُ المنافع التي أوجدها الله تعالىٰ في هٰذه الدار

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

إنَّما أوجدها بالأصالةِ لتُسبِّحَ بحمده ، وأما انتفاعُ عباده بها فإنَّما هو بحكمِ التبعية ، ومن قالَ بعكس ذلك فهو مكرٌ واستدراج) .

وكان يقول : (منع قومٌ التفكُّرَ للمبتدئ ، وهو كلامُ مَنْ لا تحقيق عنده ، والحقُّ أنه ينفع المبتدئ ؛ لأنَّ القلبَ أو النفس أو الروح أو السرَّ أو غيرها من المعاني الباطنة يألفون صفاتهم الباطنة ، فإذا [ألفوا][1] التفكرَ ولَّدَ وهماً ، والوهمُ يولِّدُ خيالاً ، والخيالُ يولِّدُ علماً ، والعلم يُولِّد يقيناً ، فلا يزال العبدُ المتفكِّرُ يترقَّىٰ بهمَّتِهِ وفكره حتىٰ يبلغَ درجاتِ الكمال ، فإذا كملَ أخذَ ما كان يُدركُهُ بالفكر من طريق كشفه وتعريفه ، ولا يحتاجُ بعد ذلك إلىٰ تفكُّرٍ ، ولو أنَّه أرادَ التفكُّرَ لم يجدْ ما يتفكَّرُ فيه ، مع أنه في حالِ كماله يُدرك في الزمن الفرد من العلوم والمعارف ما لا يُعلم ولا يُوصف) .

وكان يقول : (ليسَ لفقيرٍ الدخولُ بنفسه في مواطن التُّهم ، بل من شأنِ الفقير أن يخافَ علىٰ نفسه من مواطن التهم أكثر مما يخافُ من وجود الألم ؛ لأنَّ مواطن التُّهم تُوجب السقمَ على القلب ، كما تُوجبُ الأغذيةُ الفاسدةُ السقمَ على البدن ، لا سيما وأطباءُ القلوب قليلٌ ، ومواطنُ التُّهم وإن كنت بريئاً فإنَّها تحكمُ عليك ، كما تحكمُ الشمسُ بضيائها وحرِّها على الأمكنة وهي بريئةٌ من النور والحرِّ) .

وكان يقول : (إنما أخبرَ الحقُّ تعالىٰ بأنَّه أقربُ جارٍ لنا ؛ بشارةً بإفاضة فضله ورحمته علينا قبل كلِّ أحدٍ من الخلق ، فنحن أقربُ إلىٰ عفوه ومغفرته ، وفضله ومسامحته ؛ لأنه أولىٰ مَنْ وفَّىٰ بحقِّ الجوار ، وإن كنَّا نحن لم نوف به) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عَداوتنا لأفعالِ من أَمَرَنا الحقُّ بعداوته عداوةٌ شرعية ، وعداوتنا لذاتِهِ عداوةٌ طبيعية ، والسعادةُ في الشرعية لا في الطبيعة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كما لم يُجبِ الحقُّ تعالىٰ عبدَهُ في كلِّ مسألةٍ كذلك العبدُ لم يُطعْه في كلِّ ما أمره ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يجبُ على الفقير أن يذكرَ لشيخِهِ أمراضَه الباطنة وإنْ كانت قبيحةً ؛ ليدلَّه علىٰ طريقِ شفائه منها ، وإن لم يفعل وترك ذلك حياءَ طبعٍ . فربما

(١) في جميع النسخ : (ألفا) .

ماتَ بدائه ؛ لأنَّ حياءَ الطبع مذمومٌ ؛ لكون الإفصاحِ عن المرض فيه زوالُ رياستها ، وذمِّها ، ووقع للشيخ روزبهار[١] المدفون بالقَرَافة بالقرب من سيدي يوسف العجمي رضي الله عنه : أنه كان يُصعقُ في حبِّ الله تعالىٰ ، فتضعُ الحواملُ ما في بطنها من صعقته ، فحوَّلَ الله تعالىٰ ذلك إلىٰ حبِّ امرأةٍ من البغايا ، فجاء إلى الصوفية ، ورمىٰ لهم الخرقةَ ، وقال : لا أحبُّ أن أكذبَ في الطريق ، إنَّ واردي تحوَّلَ إلىٰ حبِّ فلانة ، ثم صار يحملُ لها العود ، ويركبها ويمشي في خدمتها إلىٰ أن تحوَّلَ الواردُ إلىٰ محبَّة الحقِّ تعالىٰ بعد عشر شهور ، فجاء إلى الصوفية وقال : ألبسوني الخرقةَ ، فإنَّ واردي رجعَ عن محبَّةِ فلانة ، فبلغها ذلك فتابتْ ، ولزمت خدمتَهُ إلىٰ أن ماتت) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ ما جاءك من الحقِّ تعالىٰ من أمورِ الدنيا والآخرة من غيرِ سؤالٍ أو بسؤالٍ عن إذنٍ إلـٰهي . . فهو منَّةٌ من الله تعالىٰ عليك ، ولا حساب عليك بسببه إن شاء الله تعالىٰ ، بخلاف ما جاءَ من غيرِ هـٰذين الطريقين) .

وكان يقول : (ليسَ ما يُصيبُ الأطفال والبهائم من الأمراض كفارةً لها ؛ لعدم معصيتها ، وإنَّما هو في البهائم ؛ لكونها تُطعم وتُسقىٰ في غير وقته ، أو غير ما تشتهي ، أو لا تقتصر في الأكل على الحاجةِ ، بل تزيدُ ، ثم تستخدم مع ذلك ، فتتعب أبدانها ، لا سيما في شدَّة الحرِّ والبرد ، وأما في الأطفال فلأنَّ الحواملَ من النساء والمرضعات يأكلنَ ويشربنَ بشَرَهٍ وحرصٍ أكثر ما ينبغي أو غير ما ينبغي من ألوان الطعام والشراب ، فيتولَّد في أُبدانها أخلاطٌ غليظةٌ مُضادةٌ للطباع ، فيؤثر ذلك في أبدان الأجنَّة التي في بطونهن ، وفي أبدان أطفالهن من اللبن الذي هو فاسدٌ ، ويكون ذلك سبباً للأمراض والعلل والأوجاع ؛ من الفالج ، والزمانات ، واضطراب البنية ، وتشويه الخلقة ، وسماجة الصورة) .

ثم قال : (ومن أراد السلامةَ من ذلك فلا يأكل ولا يشرب إلا في وقت الحاجة بقدرِ ما ينبغي من أجل ما ينبغي من لونٍ واحد ، بقدر ما يسكِّنُ ألمَ الجوع ، ثم يستريح

---

(١) روزبهار ـ وروزبهان كما في « بغية الطلب » (٨/ ٣٧١٩) ـ بن أبي نصر البقلي الفسوي الشيرازي : سلطان العرفاء ، وقدوة العاشقين ، له مصنفات ؛ منها : « تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن » توفي سنة (٦٠٦هـ) انظر « نفحات الأنس » لجامي (١/ ٣٧١) .

وينام ، ويمتنع من الإفراط في الحركة والسكون) .

وكان رضي الله عنه يقول في حديث : « إذا سجدَ ابنُ آدمَ اعتزلَ الشيطانُ يبكِي »[١] : (إنما لم ينفعْه بكاؤه ولا توبته ؛ لأنه لا يُمكنُه أن يبكي إلا بوجهٍ واحد ؛ وذلك أنَّ له وجهين ؛ وجهٌ يُمدُّ به العصاةَ[٢] ، فلا يُمكنه التوبةُ من هـٰذا الوجه طرفةَ عين ؛ لأن الوجودَ لا يخلو عن عاصٍ في كلِّ لمحةٍ ، ووجهٌ يؤدِّي منه عبوديته لله عز وجل ؛ إذ هو مُتصرِّفٌ بمشيئة الله عز وجل في أصحابِ قبضة الشقاء)[٣] .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] : (مقاولةُ الحقِّ تعالىٰ لعبادِهِ تختلفُ باختلاف العوالم التي يقعُ بها التقاول[٤] ، فإنْ كان واقعاً في العالم المثالي فهو شبيه بالمكالمة الجسمية ؛ وذلك بأن يتجلَّىٰ لهم الحقُّ تعالىٰ تجلِّياً مثالياً ، كتجلِّيه في الآخرة بالصور المختلفة ، كما نطقَ به حديثُ التحوُّل[٥] ، وإن كان التقاولُ واقعاً في عالم الأرواح من حيث تجرُّدها فهو كالكلامِ النفسي ، فيكون قولُ الله للملائكة علىٰ هـٰذا إلقاءً في قلوبهم للمعنى المراد ، وهو جعلُ آدم خليفةً في الأرض دونهم ، ويكون قولُهم هو عدمَ رضاهم وإنكارَهم الناشئَيْنِ من احتجابهم برؤية نفوسهم ، وتسبيحهم عن مرتبة من هو أكمل منهم باطِّلاعهم علىٰ نقائصه دون كماله) .

ثم قال : (ومن أمعنَ النظرَ فيما ذكرناه تفطَّن لفهمِ كلام الله تعالىٰ ، وعلمَ مراتبَهُ ، وأنه تعالىٰ عينُ المتكلم في مرتبة ، ومعنىً قائمٌ به في أخرىٰ ؛ كالكلام النفسي ؛ فإنه مركَّبٌ من الحروف ، ومعبَّرٌ عنه بها في عالَمي المثال والحسِّ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الممنوعُ من رؤية الجان إنما هو في صورتهم التي

---

(١) رواه مسلم (٨١) بلفظ : « إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجد اعتزل الشيطان يبكي » عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في (ح) وحدها : (يمرد) بدل (يمدُّ) .

(٣) تقدم حديث القبضتين حاشية (٢) (٢/ ٣٣٦) .

(٤) **التقاول** : تبادل الخطاب من جانبين .

(٥) تقدم تخريج الحديث الحاشية (١) (٢/ ٢٠٣) .

خلقهم الله تعالىٰ عليها ، وإذا أرادَ الحقُّ تعالىٰ أن يُطلعَ أحداً من عَبيده علىٰ رؤيتهم من غير إرادةٍ منهم . رفَعَ سبحانه وتعالى الحجابَ عن عينِ الرائي فيراهم ، وقد يأمرُ الله تعالى الجنَّ بالظهورِ لنا ، فيتجسَّدون لنا ، فنراهم رأيَ العين ، ثم إذا رأيناهم فتارةً يكونون علىٰ صورهم في أنفسهم ، وتارةً يكونون علىٰ صورةِ البشر أو غيرها ، فإنَّ لهم التشكُّلَ في أيِّ صورةٍ شاؤوا ؛ كالملائكة ، وقد أخذَ اللهُ تعالىٰ بأبصارِنا عنهم ، فلا نراهم إلا إذا كُشِفَ الحجاب لنا ، مع حضورهم في مجالسنا ، وحيثُ كنَّا) .

قال : (وأصواتُهم لا تُشبه أصواتنا من كلِّ وجهٍ ، بل هي مختلفةٌ ؛ وذلك لأن أجسامَهم لطيفةٌ ، فلا يَقدرون علىٰ مَخارجِ الحروف الكثيفة ؛ لأنها تطلبُ انطباقاً وصلابةً ، وحصولُ العلم لنا من كلامهم إنما هو لنطقِهم بمثالِ حروفنا لا بحقيقتها ، هـٰذا حكمُ كلامهم ما داموا في صورهم الأصلية ، وأما إذا دخلوا في غيرِ صورهم فالحكمُ للآلة التي دخلوها ؛ من إنسانٍ ، أو بهيمةٍ ، أو غير ذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من تحقَّقَ بكتم الأسرار سمعَ كلامَ الموتىٰ ، ورأىٰ ما هم فيه ، وتأمَّلِ البهائمَ لمَّا لم تكنْ من عالم التعبير كيف سمعتْ عذاب الموتىٰ) .

وكان يقول : (صدقةُ السرِّ : ما جهلتَ معناه ، ولم يعلمْ خاطرُك ما هو ، والسرُّ يتنوَّعُ باختلاف مقامات العارفين ، فربَّما يكونُ سرُّ إنسانٍ جهراً بالنسبة لإنسانٍ آخر) .

وكان يقول : (إذا توجَّهتَ إلى الله تعالىٰ في حصولِ أمرٍ دنيوي أو أُخروي فتوجَّه إليه وأنتَ فقيرٌ ذليل ؛ فإنَّ غناك وعزَّتك يَمنعانِك الإجابة ، وإن كانا بالله عز وجل ؛ لأنَّ الغِنىٰ والعزَّ صفتان لا يصحُّ للعبدِ الدخولُ بهما على الله تعالىٰ أبداً ؛ لأنَّ حضرةَ الحقِّ تعالىٰ لها العزَّةُ ذاتية ، فلا تقبلُ عزيزاً ولا غنيّاً ، وهـٰذا أمرٌ مَنْ ذاقَهُ لا يمكنُهُ أن يُنكرَهُ من نفسه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (آفةُ العقلِ الحذرُ ، وآفةُ الإيمانِ القدر ، وآفةُ الإسلام العللُ ، وآفةُ العملِ المللُ ، وآفة العلم النفسُ ، وآفة الحال الأمنُ ، وآفة العارف الظهورُ ، وآفة القول الجورُ ، وآفة المحبَّة الشهوة ، وآفة التواضع الذلَّةُ ، وآفة الصبر

الشكوىٰ ، وآفة التسليم التفريطُ ، وآفة الغِنى الطمعُ ، وآفة العزِّ البطر ، وآفة الكرم السرفُ الزائد ، وآفةُ البطالة الفقرُ ، وآفة الكشف التكلّمُ ، وآفة الاتباع التأويل ، وآفةُ الأدب التفسيرُ ، وآفةُ الصحبةِ المنازعة ، وآفةُ الفهم الجدال ، وآفةُ المُريد التسلُّلُ على المقامات ، وآفةُ الانتفاع التسلّقُ ، وآفة الفتح الالتفاتُ ، وآفةُ الفقيه الكشفُ ، وآفة المُسلِّك الوهم .

وآفةُ الدنيا شدَّةُ الطلب ، وآفةُ الآخرة الإعراض ، وآفة الكرامات الاستدراجُ ، وآفة الدَّاعي إلى الله تعالى الميلُ إلى الرياسة ، وآفة الظُّلم الانتشارُ ، وآفةُ العدلِ الانتقامُ ، وآفة التقييدِ الوسوسةُ ، وآفة الإطلاقِ الخروجُ عن الحدود ، وآفةُ الحديث النقص) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما سُمِّي المجذوب مجذوباً لأنَّ العبدَ لم يزلْ يتعشَّقُ حالَهُ ويألفُهُ ، ولا ينجذبُ عنه إلا بما هو أقوىٰ منه ، وإذا أرادَ اللهُ تعالىٰ أن يخلِّصَ عبداً ، ويستخلصَه لنفسه جذبه عما كان واقفاً معه من أمر الدنيا والآخرة ، فإذا تعشَّق بما جذبه الحقُّ إليه ثانياً جذبَهُ عنه ثالثاً ، وإنما فعلَ الحقُّ تعالىٰ ذلك بعبدِهِ لينبِّهَ العبدَ علىٰ أن جميع حركاته معلولةٌ ، وربَّما زها العبدُ بالقوة الإلـٰهية التي أعطاها الحقُّ تعالىٰ له ، فإذا زها العبدُ قال له الحقُّ : ما جذبتُك عن ميلٍ منك لي ، وإنَّما هو لشدَّةِ تعشُّقِ نفسك لأحوالِها الناقصة ، .فلولا وجودُ الحلاوةُ والالتذاذُ في نفسك ما جذبتُكَ ، فلنفسِكَ سعيت لا لي) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إياك والفرارَ من حالٍ أقامك اللهُ فيه ؛ فإنَّ الخيرةَ فيما اختاره الله تعالىٰ لك ، وتأمَّلِ السيدَ عيسىٰ عليه السلام لمَّا فرَّ من بني إسرائيل حين عظَّموه وأطروه ، كيف عُبِدَ من دون الله تعالىٰ ، فوقعَ في حالٍ أشدَّ ممَّا فرَّ منه) .

ثم قال : (وأصلُ اختيار العبدِ مع الحقِّ إنما هو لظنِّ العبدِ أنَّه مخلوقٌ لنفسه ، والحقُّ تعالىٰ ما خلقَ العبدَ إلا له تعالىٰ ، فلا يُعطي تعالىٰ لعبدِهِ إلا ما يصلحُ أن يكون له تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**من علامةِ العلمِ الإلـٰهي** : أن تمُجَّهُ العقولُ والأفكار ، ولا تقبلَه إلا بالإيمان فقط ؛ وذلك لأنَّه برزَ من حضرة الموتِ الأكبر الذي هو موت

النفوس ، والنفسُ تَنفرُ من الموتِ ؛ لأنه يُلحقُها بالعدم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من منذ خلقَ اللهُ العالمَ ما تجلَّىٰ قطُّ في جلاله الصِّرْفِ ، وإنما تجلَّىٰ في جلال جماله) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الخلوةُ بالله وحده لا تكونُ إلا للقطب الغوث في كلِّ زمانٍ ، فإذا فارقَ هيكلَه المنوَّر بالانتقالِ إلى الدار الآخرة انفردَ الحقُّ تعالىٰ بشخصٍ آخر مكانه ، لا ينفردُ بشخصين قطُّ في زمانٍ واحد ، قال : وهـٰذه الخلوةُ وردت في الكتاب والسنة ، ولـٰكن لا يشعرُ بها إلا أهلُ الله تعالىٰ خاصة) .

قلت : ورأيتُ هـٰذا بعينه في كلام الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أيضاً ، قال : (وأمَّا خلوةُ غيرِ القطب فلا تكونُ بالله ، وإنما هي لمزيد الاستعداد والبعدِ عمن يشغله عن الطاعات من المخلوقين لا غير) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتىٰ يصيرَ الغيبُ عنده كالشهادة في عدم الرَّيْبِ ، ويسريَ منه الأمانُ في نفس العالم كلِّه ، فيأمنوه على القطعِ علىٰ أنفسهم وأموالهم وأهليهم من غيرِ أن يتخلَّلَ ذلك الأمانَ تهمةٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أكملُ الإيمان ما كان عن تجلٍّ إلـٰهيٍّ ؛ لأنه حينئذٍ علىٰ صورة إيمانِ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام ، ودونه ما كان عن دليلٍ ، فلما علم الصحابة أنَّ إيمانَ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونُ عن دليلٍ . . لم يسألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قط عن حقيقةِ إيمانه ؛ وذلك لأنَّ حقيقةَ الرسالة تقتضي أن لا دليلَ عليها ، وأنَّ الرسلَ عليهم الصلاة والسلام مع الحقِّ في التوحيد العام كنحن معهم ؛ إذ هم مأمورون كما نحن مأمورون ؛ إذ هم مقلِّدون للحقِّ ونحن مقلدون لهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من تحقَّقَ برتبة الإيمان علمَ أنَّ جميعَ المراتب تصاحب رتبةَ الإيمان ؛ كمُصاحبة الواحدِ لمراتبِ الأعداد الكلِّية والجزئية ؛ إذ هو أصلُها الذي بُنيتْ عليه فروعُها وثمارها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يُوصف الملأُ الأعلىٰ والأرواحُ العُلا بأنَّهم أولياء ،

ولا أنبياء كصالحي الأنس والجنِّ ؛ لأنهم لو كانوا أنبياءَ وأولياء ما جَهلوا الأسماء) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يصحُّ التعبيرُ عن حقيقةِ الإيمان ؛ لأنه شيءٌ وَقَرَ في الصدرِ ، لا يُمكنُ التعبيرُ عنه) ، قال : (وأما ما وردَ في السُّنة من الألفاظ التي تحكمُ لصاحبها بالإيمان . . فكلُّها راجعةٌ إلى التصديق والإذعان اللذين هما مفتاحان لباب العلم بالمعلوم المستقرِّ في قلب العبد بالفطرة ؛ ولذلك لم يسألْ أحدٌ من الصحابة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقةِ هـٰذه الألفاظ ، ولا ناقشوا أصحابَها ، بل أَجروا حكمهم على الظاهر ، ووكَلُوا سرائرَهم إلى الله تعالىٰ ، هـٰذا بالنظرِ للعوام ، وإلا فقد سألَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حارثةَ رضي الله عنه عن حقيقةِ إيمانه)[١] .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا سُئل أحدُكم عن شيخه فليقل : كنت خادمَهُ ، ولا يقل كنتُ صاحبَهُ ؛ فإن مقام الصحبة عزيز) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كملَ توحيدُ العبد لم يصحَّ له أن يرأسَ علىٰ أحدٍ من المخلوقين ؛ لأنه يرىٰ الوجودَ لله) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**حقيقةُ القولِ بالكسب في مسألة خلق الأفعال** : أنَّه يعني بالكسبِ تعلُّق إرادة الممكنِ بفعلٍ ما ، فيوجده الاقتدارُ الإلـٰهي عند هـٰذا التعلُّق ، فسموا ذلك كسباً للمُمكن ؛ بمعنىٰ : أنه كسبُ الانتفاع به بعد احتياجه إليه) .

ثم قال : (ومن حقَّق النظرَ علمَ أنه لا أثرَ لمخلوقٍ في فعل شيءٍ من حيث التكوين ، وإنَّما له الحكمُ فيه فقط ، فافهم ؛ فإن غالبَ الناس لا يُفرِّقُ بين الحكم والأثر .

وإيضاحُ ذلك : أنَّ الله تعالىٰ إذا أرادَ إيجادَ حركةٍ أو معنًى من الأمور التي لا يصحُّ وجودُها إلا في موادِّها لاستحالة أن تقومَ بنفسها ؛ إذ لا بدَّ من وجود محلٍّ يظهرُ فيه تكوينُ هـٰذا الذي لا يقومُ بنفسه . . فللمحلِّ الذي هو العبدُ حكمٌ في الإيجاد لهـٰذا الممكن ، وما له أثرٌ فيه ، ولولا هـٰذا الحكمُ لكان نسبةُ الأفعال إلى الخلق مباهتةً للحسِّ ، وكان لا يوثقُ بالحسِّ في شيءٍ) .

(١) تقدم تخريج الحديث (١/ ٣٣١) .

وسمعته مرةً يقولُ : (ليس لممكَّنٍ قدرةٌ أصلاً ، وإنما له التمكُّنُ من قبولِ تعلُّق الأثر الإلـٰهي به ؛ لأنَّ النعتَ الأخصَّ الذي انفردتْ به الألوهيةُ كونُها قادرةً ، فإثباتُ القدرةِ للممكَّن دعوىٰ بلا برهان) .

قلت : وهـٰذا الكلامُ مع الأشاعرة المثبتين لها مع نفي الفعلِ عنها .

وقلتُ له مرَّةً : ذكر الإمامُ الغزالي رضي الله عنه أن مسألةَ الكسبِ لا يزولُ إشكالها أبداً ، فقال : بل يزول إشكالُها من طريق الكشف ؛ وذلك أنَّ الله تعالىٰ خالقٌ وحده بإجماعِ أهل السنة ، وإنَّما للعبد قبولُ إسناد العمل إليه لا غير ، ثم قال : ومن أرادَ زوال اللبس بالكلِّية فلينظرْ في المخلوق الأول الذي لم يتقدَّمْه مادةٌ أبداً ، ويتأمَّلْ هل هناك أحدٌ يُسنَدُ إليه الفعل غير الله تعالىٰ ؟! فيزولُ إشكالُه ؛ فإنه لا يصحُّ وجودُ كونٍ هناك يُسندُ إليه الفعلُ ، فسقط قولُ من قال : لا يوجدُ لنا قطُّ فعلٌ لله تعالىٰ وحده ، لا بدَّ من مشاركة الكون ، فتأمل .

قلت : وذكرَ نحوَ ذلك سيدي الشيخُ محيي الدين رضي الله عنه في « الفتوحات » .

وكان رضي الله عنه يقول : (من كمالِ الرجلِ أن يُحسنَ إلىٰ أعدائه وهم لا يَشعرون ؛ تخلُّقاً بأخلاق الله عز وجل ؛ فإنَّه تعالىٰ دائمُ الإحسان إلىٰ من سمَّاهم أعداءً له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من صحَّ توحيدُه لله عز وجل انتفىٰ عنه الرياءُ والإعجاب ، وسائرُ الدعاوى المضلِّة عن طريق الهدىٰ ؛ وذلك لأنه يشهدُ جميعَ الأفعال والصفات ليست له ، وإنما هي لله وحده ، ولا يُعجبُ أحدٌ قط بعملِ غيره ، ولا يتزيَّنُ به) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يصحبُ كمالَ الإسلام اعتراضٌ ، ولا يصحبُ كمالَ الإيمان تأويلٌ ، ولا يصحبُ الإحسانَ سوءُ أدب ، ولا يصحب المعرفةَ همَّةٌ ، ولا يصحبُ الإخلاصَ في العمل لذَّةٌ ، ولا يصحب العلمَ جهلٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (مَنْ ملكته نفسُه عُذِّبَ بنار التدبيرِ ، ومن ملَّكها لله تعالىٰ عُذِّب بنار الاختيار ، ومن عجزَ عن العجز ذوَّقَهُ اللهُ تعالىٰ حلاوةَ الإيمان) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من أدركَ من نفسِه التبديلَ والتغيير في كلِّ نَفَسٍ فهو العالِمُ بقوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ [الرحمن : ٢٩]) .

وكان يقول : (الطلب لمن هو موجود بالمعية لا يصح ؛ إذ الطلبُ لا يتعلَّق إلا بمعدوم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من علامةِ فقدِ النفس في حقِّ الفقير عدمُ شهوته لشيءٍ من أمور الدنيا والآخرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (خُصَّ بالبلاء من عرفَهُ الناسُ ، أو عرفَ الناسَ ؛ لكن الأول مبتلىً بالله تعالىٰ ، والثاني مبتلىً بنفسه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الإيمانُ محلُّه الدنيا ، والولاية محلُّها الدار الآخرة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لم تثبتِ السيادةُ إلا له تعالىٰ ، ولم تثبت العبوديةُ إلا لك ، فالسيدُ لا يُملكُ ، والعبد لا يَملك) .

وكان يقول : (المُكَاتَبُ قِنٌّ ما بقي عليه شيءٌ ، فإنْ وفَّىٰ خرجَ من رقِّ سيِّده ، ودخلَ في رقِّ نفسه ، وإن لم يوفِّ فحالُه موقوفٌ ، وخاتمتُهُ مجهولةٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العبدُ يُحملُ إليه رزقُهُ ، وهو في رقِّ سيِّدٍ واحد ، والمُكَاتَبُ يَسعىٰ في طلب رزقه ، وهو في رقِّ ثلاثةٍ ؛ سيدِهِ ، ونفسِهِ ، ودينِهِ) .

وسمعتُه يقول مرة : (من طلبَ دليلاً على الوحدانية كان الحمارُ أعرفَ بالله منه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تنصحْ من لا يستشيرُك ولا يسألك إلا إن أعطاك اللهُ تعالىٰ أحدَ أمرين : إما الكشفَ التامَّ الذي لا يدخلُهُ محوٌ ولا إثبات ، وإما الإلقاء في الروع ؛ لأنَّ القصدَ من استشارة الفقراء إنما هو الكشفُ عن حقيقة الشيءِ الثابت لا غير) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الرزقُ في طلب المرزوق دائرٌ ، والمرزوقُ في طلب رزقِهِ حائر ، وبسكون أحدِهما يتحرَّكُ الآخر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (بقدر غفلتك عنه هنا يطولُ حضورُك معه هناك ، إلا أنه حضورُ حسابٍ لا حضورُ عتاب) .

وكان يقول : (يحتاجُ العارفُ في هـٰذا الزمان أن يَحمي نفسَه وإخوانه بالحال ولو مرةً ، فإن كان ذلك نقصاً في الأدبِ فهو كمالٌ في العلم) .

وكان يقول : (أخلاقُ الورثة امتثالُ الأوامر الإلـٰهية ، وأخلاقُ كُمَّلِ المؤمنين اجتنابُ المناهي ، وأخلاقُ الشياطين بالضدِّ من ذلك ، وأخلاقُ الحيوانات بالعكس من ذلك كلِّه ، فمن لم يعلمْ حقيقةَ نفسه فليعلم حقيقةَ عمله ؛ فإن الثَّوبَ يدلُّ علىٰ لابسه) .

وكان رضي الله عنه يقول : العلومُ الإلـٰهية لا تنزلُ إلا في الأوعية الفارغة ، ثم أنشد لبعضهم[1] : [من الطويل]

أتانِي هَواها قبلَ أَنْ أعرفَ الهوىٰ فصادفَ قلباً فارغاً فتمكَّنَا

وكان رضي الله عنه يقول : (علىٰ قدرِ استعداد الجسدِ ينفخُ فيه الروح ، وليس الاستعدادُ إلا العملَ ، ولا الروحُ إلا المعرفةَ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كثرتَ منافذُ الدار قلَّ أَمنُها وكثر ضوءُها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (القفلُ على الباب ، ومفتاحُهُ عند صاحبِ الدار ، وصاحبُ الدار فيها ، فمن طلبَ المفتاحَ وصلَ إلىٰ صاحب الدار وإلى المفتاح ، ومَنْ طلبَ صاحبَ الدار لم يصلْ إلى المفتاح ، ولا إلىٰ صاحبِ الدار) .

وسمعته يقول : (الفرائضُ مفتاحٌ ، والسُّننُ أسنانٌ ، فما نقصَ من أسنانِ المفتاح ضرَّ ، وما زاد حُكمُهُ كذلك ، إلا أنه إن قلعَ لم يضرَّ) .

وسمعته يقول : (إذا جاءَ وقتُ غروب الشمس تأهَّبَ الناسُ إلىٰ منازلهم بأزوادهم ، وما يستضيئون به تذكرةً لأولى الأبصار) .

---

(١) البيت لديك الجن . انظر « ديوانه » (ص ٢٢٢) .

وسمعته يقول : (لا يعلمُ بأنَّ الحقَّ تعالىٰ مع كلِّ شيءٍ إلا الإنسانُ خاصَّةً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إنما وقعَ الكفرُ في العالم مع كونِ الكفارِ كلِّهم كانوا موجودين عند أخذ الميثاق الأول ؛ لأنَّ ظهورَهم هناك كان على التدريجِ ، كظهورهم هنا ، لـٰكن علىٰ غيرِ هـٰذه الصفة كوناً وزمناً ، والوجودُ واحدٌ ، فمن كان موجوداً عند أخذ الميثاق الأول آمنَ بجميع ما آمنَ به نبيُّه ، ومن لم يكن موجوداً آمن ببعضٍ وكفرَ ببعض) .

قال : وكان أخذُ العهدِ على الموجودات حالَ كونها مجسَّدةً روحانية ، ولولا الروحانيةُ ما حصلَ لها النطقُ والإجابة بـ ﴿ بَلَىٰ ﴾[1] [الأعراف : ١٧٢] فما أجاب منها حقيقةً إلا الأرواحُ ، لا الأجسام ؛ لأنَّ الموجودات في الأولية عبارةٌ عن أشباحٍ تتعلَّقُ بها أرواح ، ولـٰكنَّ الروحَ ظاهرٌ على الشبح ، لا ظهورَ للشبح معه) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (ما ثَمَّ في الفِرقِ الإسلامية أسوأُ حالاً من المتكلِّمين في الذات بعقلهم القاصر ؛ فإنَّ اللهَ عز وجل قد تنزَّه في حِمَىٰ عزَّته عن أن يُدْرَكَ أو يُعْلم بأوصاف خلقِهِ عقلاً كان أو علماً ، روحاً كان أو سرّاً ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالىٰ ما جعلَ الحواسَّ الظاهرةَ والباطنة طريقاً إلا إلىٰ معرفةِ المحسوسات لا غير ، والعقلُ بلا شكٍّ منها ، فلا يُدْرَكُ الحقُّ تعالىٰ به ؛ لأنَّ الحقَّ ليس بمحسوسٍ ، ولا معلوم معقول) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الأفلاكُ تدورُ بدوران القلوب ، والقلوبُ تدور بالأرواح ، والأرواحُ بالأشباح ، والأشباحُ بالأعمال ، والأعمالُ بالقلوب ، فرجع الآخرُ للأول) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إياكم والوقوعَ في المعاصي ، ثم تقولون : هـٰذا من إبليس ؛ فإن إبليسَ يتبرَّأُ منكم في مكانٍ يصدقُ فيه الكذوب ، وذلك حين يخطبُ في النار ، ويقول في خطبته : ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] يعني :

---

(١) وذلك في قوله تعالىٰ في سورة (الأعراف) ، الآية (١٧٢) : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ .

ما أغويتكم حتىٰ ملتُم بنفوسكم إلى الوقوع في المعاصي : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] يعني : قبلَ أن تميلوا ، ثم قال : ولولا أنَّ أعيانَ العصاة طلبتْ وقوعَها في المعاصي ما أُقيمت عليهم الحجَّةُ ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العارفون يَعرفون بالأبصار ما تعرفُهُ الناسُ بالبصائر ، ويعرفون بالبصائر ما لا يُدركهُ أحدٌ غيرهم ، ومع ذلك فهم لا يأمنون علىٰ نفوسهم من نفوسهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ما في القلبِ يظهرُ على الوجه ، وما في النفسِ يظهرُ على الملبوس ، وما في العقل يظهرُ في العين ، وما في السرِّ يظهرُ في القول ، وما في الروح يظهرُ في الأدب ، وما في الصورة كلِّها يظهرُ على الحركة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا لم تقدرْ على العدلِ بين النساء مع نقصهنَّ فكيف تقدرُ على العدلِ بين الرجال مع كمالهم ؟!)

وكان رضي الله عنه يقول : (أربابُ الأحوال يُعرفون بصفرة الوجوه ، مع سواد البشرة ، وسعة العيون ، وخفضِ الصوت ، وقلَّة الفهم لما يُقال لهم) .

وسمعته يقول مرةً أخرىٰ : (أربابُ الأحوال كالسفن مشرعين سائرين بالهواء ، إن سكنَ سكنوا ، وإن سار ساروا ، والعارفونَ كالجبال) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (ما دامتِ العلومُ في معادنها فهي واسعةٌ مطلقة[1] ، لا تقبلُ تغييراً ولا تبديلاً ، فإذا ظهرتْ مقيَّدةً بالحروف دخلها ما يدخلُ الكونَ من التغيير والتبديل ، واختلاف العبارات) .

وكان يقول : (شهودُ الكثرةِ في الوجود تزيدُ الجاهلَ جهلاً والعالمَ علماً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تُنازعْ أحداً في طبعه ؛ فإنه مملوكٌ لنفسه أو للكون ، وإن كان ولا بدَّ فاعرفْ مالكَه ثم نازعه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (العلمُ والمعرفة والإدراك والفهمُ ، والتمييز من

(١) في (ح) وحدها : (معارفها) بدل (معادنها) .

أوصاف العقل ، والسمعُ والبصر والحاسة والذوقُ والشم والشهوة والغضب من أوصاف النفس ، والتذكُّر والمحبة والتسليم والانقياد والصبر من أوصاف الروح ، والفطرة والإيمان والسعادة والنور والهدىٰ واليقين من أوصاف السرِّ ، والعقل والنفس والروح والسرُّ المجموع أوصافٌ للمعنى المُسمَّىٰ بالإنسان ، وهي حقيقةٌ واحدة غيرُ مُتميِّزةٍ ، وهـٰذه الحقيقةُ وأوصافُها روحُ هـٰذا القالب المتحرِّك المتحيِّزِ ، والجميعُ روحُ صورة هـٰذا القالب ، والمجموع من الجميع روحُ جميع العالم) .

قلت : وهـٰذا كلامٌ ما سمعتُهُ قطُّ من عارفٍ ، ولا رأيته مَسطوراً في كتاب ، وهو دليلٌ علىٰ علوِّ مقام شيخنا رضي الله عنه في المعرفة .

وكان رضي الله عنه يقول : (العباداتُ كالحلوى المعجونة بالسُّمِّ ، فكما لا ترضى النفسُ منها بالقليل فتسلم كذلك ، لا تصبرُ علىٰ فعلِ الكثيرِ منها فتغنم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (أشدُّ العذابِ سلبُ الروح ، وأكملُ النعيم سلبُ النفس ، وألذُّ العلوم معرفةُ الحقِّ ، وأفضلُ الأعمال الأدبُ ، وبدايةُ الإسلام التسليمُ ، وبداية الإيمان الرِّضا) .

وكان يقول : (الإيمانُ يتلوَّنُ بحسبِ الجسد ، والجسدُ بحسبِ المُضغة ، والمضغة بحسب إصلاح الطعمة ، ومن قال بخلاف ذلك فليسَ عنده تحقيق) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**علامةُ الراسخ في العلم** : أن يزدادَ تمكيناً عند السَّلبِ ؛ لأنَّه مع الحقِّ بما أحبَّ ، لا مع نفسه بما تُحبُّ ، فمن وجدَ اللذةَ في حالِ علمه وفقدها عند سلبه فهو مع نفسِه غيبةً وحضوراً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (**من شرطِ المتواضع** : أن يغيبَ عند شهودِ التواضع) .

وكان يقول : (الطعمةُ تؤثِّرُ في القلب أكثرُ مما يؤثرُهُ السلبُ ، ولـٰكنْ إذا استمرَّ توجُّهُ القلب إلى الحقِّ في كلِّ حركةٍ وسكون من غيرِ علَّةٍ . . فبابُ الفتح موجود ولابد ، وما دام العبدُ متوجِّهاً فالمددُ فيَّاضٌ ، ويوشكُ أن يُوصلَ صاحبَه لمراتب الكمال) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يقبحُ على العبدِ أن يميلَ بنفسه إلىٰ خرقِ العوائد ،

ويألف النعمة دون المنعم ، فإنَّ الله تعالىٰ ما أعطىٰ عبدَه النِّعمَ إلا ليرجعَ إليه بها عبداً ذليلاً ؛ ليكون له ربّاً كفيلاً ، فانظر بأيِّ شيءٍ استبدلت ربَّك ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : ٦١] ، ثم قال : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [البقرة : ٦١] أي : لأجل اختيارهم مع الله تعالىٰ) .

ثم قال رضي الله عنه : الميلُ إلىٰ كلِّ شيءٍ دون الله تعالىٰ مذمومٌ إلا في حقوق الله تعالىٰ ومأموراته ، فقال له الشيخ أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ : يا سيدي ؛ إنَّ كلَّ شيءٍ غير الحقِّ مجهولٌ معدوم ، إلا الحقَّ فإنه معروفٌ موجود ، فمن أين جاءَ للعبد أنه يألفُ أو يركنُ إلى الجهل والعدم دون المعرفة والوجود ؟! فقال رضي الله عنه : الجهل والعدم أصلٌ لظهورنا ، والمعرفة والوجود أصلٌ لظهور الحقِّ ، وما حصل بأيدي عباده من المعرفة والوجود ففَضْلٌ منه ورحمةٌ ، وما حصل بأيديهم من الجهل والعدم فعدلٌ منه ونقمة ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] فافهم .

وسُئل رضي الله عنه عن الأكلِ من الأطعمة المرسلة من بيوت الأصحاب الذين لا يتورَّعون ، فقال رضي الله عنه : العبدُ لا ينبغي أن يكونَ له مع الله اختيارٌ مع وجود المختار ، فكيف يكون له اختيارٌ مع عدم المختار ؟! ولٰكن إن كنت جائعاً صادقاً فكلْ بقدرِ حاجتك ، وادفعْ ما بقي بعد ذلك لمن شاء الله تعالىٰ ، ولا تُدبِّرْ لنفسك حالاً محموداً تخرج عن رتبة التحقيق، واسألْه أن يستركَ في الدنيا وفي الآخرة بالجود والكرم .

وقال له بعضُ الإخوان : دستور يا سيدي إذا متَّ أن أدفنَك في المكان الفلاني ؟ وأجعلُ لك تابوتاً وستراً ؟ فقال رضي الله عنه : نحن لا اختيارَ لنا مع الله في حالِ الحياة فكيفَ يكونُ لنا اختيارٌ بعد الموت ؟!

وكان رضي الله عنه يقول : (إياكم والجزعَ في مواطن الامتحان يمتحنكم الحقُّ تعالىٰ بأشدَّ من ذلك ، فقال له الشيخ أفضلُ الدين رحمه الله تعالى : الصبرُ لا يصحُّ إلا عند حصولِ الاستعداد ، ومن لا استعدادَ له فكيفَ يصبر ؟! فقال رضي الله عنه : لا تقيِّدُ على الحقِّ ؛ فإنَّ الطرقَ إليه أوسعُ من مظاهره ، وشؤونه وأسمائه وصفاته والاستعدادُ طريقٌ واحدٌ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يكملُ الفقيرُ حتىٰ يحملَ كَلَّه عن شيخه ، فإنَّ من رمىٰ أثقالَه علىٰ شيخه فهو سيِّئُ الأدب ، مع أنه إذا تعوَّدَ ذلك ألفتْ نفسُه ذلك ، فينقصُ استعدادُهُ ، فإذا جاءته صدمةٌ هدَّتْ جداره ، وشيخُه ليس بمقيمٍ له) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا لازمتِ الأحوالُ صاحبَها حتىٰ غاب معها عن حسِّه. . فهو نقصٌ ، وكلما خفَّ الحالُ وأبطأَ وجوده كان في حقِّ صاحبه خيراً كثيراً ، وأين الحاضرُ من الغائب ؟! وأين الموجودُ من المعدوم ؟! وقد حُكي أنَّ الشِّبلي رضي الله عنه قال والحلاجُ مصلوبٌ : سكرتُ أنا والحلاجُ من إناءٍ واحد ، فبلغَ ذلك الحلاج ، فقال : لو شربَ كما شربتُ لسكرَ كما سكرتُ ، فقدَّمَ الأشياخُ كلامَ الشبلي لصحوه علىٰ كلام الحلاج) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الميزانُ التي يُوزنُ بها الرجال واحدةٌ كميزان الحقِّ تعالىٰ ، وإنَّما جُمعت لتفاوتِ الموزونات) .

وكان رضي الله عنه يقول في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] : المرادُ بـ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ كُمَّل الأنبياء ، والمراد بقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بمن ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ عامة النبيين ، وبالذين (لا يخافون) كُمَّل الأولياء ، وبالذين (لا يحزنون) عامَّة الأولياء ، وبالذين يقال لهم : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ المؤمنون الذين عبدوا الله تعالىٰ طلباً لثوابه) .

وسُئل رضي الله عنه عن القطبِ الغوث : هل هو دائماً مُقيمٌ بمكة كما قيل ؟ فقال رضي الله عنه : قلبُ القطبُ دائماً طوَّافٌ بالحقِّ الذي وسعَه ، كما يطوفُ الناس بالبيت ، فهو رضي الله عنه يرىٰ وجهَ الحقِّ تعالىٰ في كلِّ وجهةٍ ، ومن كلِّ وجهة ، كما يستقبل الناس البيت ، ويرونه من كل وجهةٍ ؛ إذ مرتبته رضي الله عنه التلقِّي عن الحقِّ تعالىٰ جميع ما يفيضه على الخلقِ ، وهو بجسدِهِ حيث شاء الله من الأرض .

ثم قال رضي الله عنه : (**واعلم** : أنَّ أكملَ البلاد البلدُ الحرام ، وأكملَ البيوتُ

البيت الحرام ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا ﴾ [القصص : ٥٧] ، وأكمل الخلقِ في كلِّ عصرٍ القطب ؛ فالبلدُ نظيرُ جسده ، والبيتُ نظير قلبه) .

وسئل رضي الله عنه عن نزولِ الناسِ من الدنيا إلى البرزخِ الفاصل بين عالَمي الحسِّ والبرزخ المطلق في حالِ اتِّصالِ الشاهد بهما ، فقال رضي الله عنه : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ [القيامة : ٢٩] كالتفاف (لا) ثم قال : وإيضاحه من سعةٍ إلىٰ ضيق ، ثم خطَّ في الأرضِ بمسلَّةٍ كان يخيطُ بها القفاف صورة (لا) في الأرض ، وقال : انظروا إلىٰ هٰذا الحرف ، فإنَّه دالٌّ بالتفافه علىٰ نفسه صورةً ومعنًىٰ كدلالة الخلق على الحقِّ ، وعكسه ، فافهم .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : ١٢] فقال رضي الله عنه : كمون وستر ، والحسُّ أصدقُ شاهدٍ ، فقال سيدي أفضل الدين رحمه الله : تمَّ الجواب .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليسَ للمجاذيب في جنَّةِ الأعمال قدمٌ ، ولا مكانٌ مخصوص يرجعون إليه ، ولا قدمٌ في مأكلٍ ، ولا ملبسٍ ، ولا نكاح ، ولا غيرِ ذلك ، ما عدا المشاهدةَ فقط للحقِّ ؛ فإنهم يشتركون مع أهلِ الجنة فيها علىٰ خصوصِ وصفٍ في المشاهدة) .

ثم قال رضي الله عنه : (إن السُّوقةَ وأهلَ الصنائع والحِرف أعظمُ درجةً عند الله وأنفعُ من المجاذيب ؛ لقيامهم في الأسباب ، وكثرةِ خوفِهم من الله تعالىٰ ، وأكل الفقراء والظلمة من أموالهم ، مع احتقارِهم نفوسَهم ، ولهم في كلِّ جنةٍ نعيمٌ من الجنان الأربع التي هي : جنة الفردوس ، وجنة المأوىٰ ، وجنة النعيم ، وجنة عدن ، وهي المخصوصةُ بالمشاهدةِ والزيادة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (المجاذيبُ والأطفالُ في الحالةِ سواء ، إلا أنَّ الأطفالَ يتميَّزونَ عن المجاذيب بسريانهم في الجنة ، كما ورد أنهم دَعَامِيص الجنة ؛ أي : غوَّاصون فيها)[١] .

---

(١) روىٰ مسلم في « صحيحه » (٢٦٣٥) عن أبي حسان قال : قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي=

وكان رضي الله عنه يقول : (نشأةُ أهل الجنة مخالفةٌ لنشأة الدنيا التي نحن عليها الآن[١] صورةً ومعنىً ، كما أشار إليه حديث : « إنَّ في الجنةِ مَا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[٢] .

وإيضاحُ ذلك : أنَّ حجابَ البشرية ما دام موجوداً في الشخصِ فلا يعلمُ أحوالَ الجنة ؛ لأنَّ الجنةَ نشأةُ شهودٍ وإطلاق ، لا حجاب وتقييد ؛ ولذلك كان علمُ أحوال الجنة خاصاً بالعارفين) .

ثم قال رضي الله عنه : (واعلم يا أخي : أنَّ الحقَّ تعالىٰ جعلَ لنا السمعَ والبصر ، والشمَّ والذوق ، واللمس واللذَّةَ في النكاح ، والإدراك حقائقَ متغايرةً[٣] حُكماً ومحلاً ، مع اتِّحادها في الباطن ؛ لأن الإدراكَ ليس إلا للنفس ، وهي حقيقةٌ واحدة بمنافذَ مخصوصةٍ ، وإنَّما تنوَّعتِ الآثار في هـٰذه الحقائق بتنوُّع محالِّها ، فإذا علمتَ ذلك فاعلمْ أنَّ هـٰذه الصفاتِ المتغايرةَ هنا حُكماً ومحلاً يقعُ الاتحادُ بينهما في الآخرة حكماً ومحلاً ، فيسمع بما به يُبصرُ ، بما به يتكلَّمُ ، بما به يذوقُ ، بما به يشمُّ ، وكذلك الحكم في الضدِّ من غير تضادٍّ ، فيبصر بسائر جسده ، ويسمعُ كذلك ، ويأكلُ كذلك ، وينكح كذلك ، ويشمُّ كذلك ، وينطقُ كذلك ، ويدركُ كذلك) .

ثم قال رضي الله عنه : (وهـٰذا القدرُ النزرُ من أحوال أهل الجنة لا يصحُّ وجودُه في العقل ؛ لأنَّه محالٌ في عقلٍ من يسمعُ ذلك ، فكيف بغيرِ النزر مما هو أَعظمُ من ذلك ؟!)

= ابنان ، فما أنت محدِّثي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث يُطيِّب أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم « صغارهم دعاميص الجنة ، يتلقَّىٰ أحدهم أباه ـ أو قال أبويه ـ فيأخذ بثوبه ـ أو قال بيده ـ كما آخذ أنا بِصَنِفَةِ ثوبك هـٰذا ، فلا يتناهىٰ ـ أو قال : فلا ينتهي ـ حتىٰ يدخلَه اللهُ وأباه الجنةَ » ، **والدعاميص** : جمع دعموص ، وهي دويبة من دواب الماء ، تضرب إلى السواد ، شُبِّه الطفل بها لصغره وسرعة حركته ، وصَنِفَةُ **الثوبِ** : حاشيته وطرفه الذي لا هدب له .

(١) في (ج ، د ، هـ ، و ، ح ، ط) : (مخالفة لنشأة الدنيا لهـٰذه النشأة التي نحن عليها الآن) .

(٢) رواه البخاري (٤٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في (هـ ، ح ، ط) : (متغيرة) .

ثم قال : (ولم أرَ أحداً تكلَّمَ علىٰ ما ذكرتُهُ غيرَ سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه في تائيته ، فراجعها) .

وكان رضي الله عنه يقول في معنىٰ حديث : « إنَّ الجنةَ تشتاقُ إلىٰ أربعٍ : عمارٍ ، وعليٍّ ، وسلمانَ ، وبلالٍ »[١] : (إنَّما خصَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هـٰؤلاء الأربعة ؛ لأنَّهم أَرواحُ الجنان ، وأسماؤهم أشدُّ مناسبةً للجنة ؛ لأنَّ عماراً رضي الله عنه من العمارة ، وعلياً رضي الله عنه من العلو ، وسلمان من السلامة ، وبلالاً من البللِ الذي هو الرحمة ، قال : وهـٰؤلاء الأربعةُ هم الموكَّلون بالأنهار الأربعة المذكورة في القرآن[٢] ، فيغرفون منها بحسب حيطةِ كلِّ أحدٍ ومشربه من التوحيد ، واستعداده) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كانت الشجرةُ التي أكل منها آدمُ عليه السلام علَّةَ مظهر الأفعال المقابلة لما عليه كُمَّلُ الأنبياء الذين هم فوقَهُ في الدرجة) .

وسُئل رضي الله عنه عن طائفة المسلِّكين ؛ كسيدي أحمد الزاهد ، وسيدي مَدْين ، وأضرابهما : هل كانوا أقطاباً ؟ فقال رضي الله عنه : لا ، وإنما هم كالحُجَّابِ على الملك ، فلا يدخلُ عليه أحدٌ من الناسِ إلا بإذنهم وعلمهم ، فهم يعلِّمونَ الناس الآدابَ الشرعية والحقيقية ، وما يظهرُ عليهم من الكرامات والأحوال فإنما هو لصفاءِ نفوسهم وإخلاصهم ، وكثرةِ مُراقبتهم ومجاهدتهم ، وأمَّا القطابةُ فجلَّ أن يلجَ مقامَها الأحوطَ غيرُ من اتَّصف بها .

قال : وقد بيَّنَها الشيخُ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه وقال : إن لها ستةَ عشرَ

---

(١) أورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (٣/ ١١٣٨) ، ترجمة عمار بن ياسر من حديث أنس رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢١٥) ، وفيه : (المقداد) بدل (بلال) ، ورواه الترمذي (٣٧٩٧) عن سيدنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الجنة تشتاق إلىٰ ثلاثة : علي ، وعمار ، وسلمان » .

(٢) ولعله أراد : في حديث المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في « صحيحه » (٣٨٣٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَيحانُ وجَيحان والفراتُ والنيل كلٌّ من أنهار الجنة » .

عالماً : الدنيا والآخرة عالمٌ واحدٌ من هـٰذه العوالم ، فقيل له : فالتصريفُ الذي يظهر علىٰ أيدي هـٰؤلاء المسلِّكين : هل هو لهم أصالة كالقطب أم لا ؟ فقال رضي الله عنه : ليس هو لهم أصالةً ، وإنما هو بحكم الإفاضةِ عليهم من الدوائر التي هي فوقهم إلى القطب .

وإيضاحُ ذلك : أنَّ الله تعالىٰ إذا أرادَ إنزالَ بلاءٍ شديد مثلاً فأوَّلُ ما يتلقَّىٰ ذلك القطبُ ، فيتلقَّاه بالقبول والخوف ، ثم ينتظرُ ما يُظهره الله تعالىٰ في لوح المحو والإثبات الخصيصَيْنِ بالإطلاق والسراح ، فإن ظهر له المحوُ والتبديل نفَّذَه وأمضاه في العالم بواسطةِ أهل التسليك الذين هم سدنةُ ذاته ، فينفِّذون ذلك ، وهم لا يعلمون أنَّ الأمرَ مُفاضٌ عليهم ، وإن ظهرَ له الثبوتُ دفعَهُ إلىٰ أقرب عدد ونسبةٍ منه ، وهما الإمامان ، فيتحمَّلان به ، ثم يدفعانه إن لم يرتفع إلىٰ أقربِ نسبةٍ منهما كذلك ، حتىٰ يتنازلَ إلىٰ أصحاب دائرته جميعاً ، فإن لم يرتفع تفرَّقَتْه الأفرادُ وغيرهم من العارفين إلىٰ عموم المؤمنين حتىٰ يرفعَهُ اللهُ عز وجل بتحمِّلهم .

ولو لم يحمل هـٰؤلاء ذلك عن العالم لتلاشىٰ في طرفةِ عينٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] وقال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان : ١٠] إشارةً إلى القطب الذي هو العمدُ المعنوي المُمسكُ للسماوات ، ففيه إشارة إلىٰ خفائه في العالم .

وسئل رضي الله عنه عن كلامِ بعضِ العارفين ، وهو أنه ذُكر في كتابٍ له أنَّه شهدَ جميعَ النبيِّين والمرسلين مجتمعين في محلٍّ واحدٍ ، وأنه لم يكلِّمه منهم إلا هودٌ عليه السلام ، فإنه رحَّبَ به ، وفرحَ به ، ما الحكمةُ في خصوصية كلام هودٍ له دون غيره ، وفرحه بهـٰذا العارف ؟ فقال رضي الله عنه : أما خُصوصية الكلام فلا يُمكنني ذكرها ، وأما فرحُهُ فلأنَّ البرزخَ قيدٌ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالنسبة إلىٰ إطلاقِ الآخرة ، وما فيها من النعيم ، فهم ـ وإن شهدوا ذلك في البرزخ ـ لا يشهدونه إلا من خلفِ حجابٍ بغير واسطةِ جسمهم ؛ فإن أجسامَهم مقيدةٌ تحت الأرض ، وكمالُ النعيم إنَّما هو بواسطة اجتماع الجسم والروح معاً ، فكان فرحُهُ عليه السلام بهـٰذا العارف الذي هو من هـٰذه الأمة المحمدية ، لاستبشاره بانقضاء مدةِ البرزخ ؛ لأنَّ هـٰذه الأمةَ آخرُ من

يدخل البرزخَ من الأمم ، وقد أخبرَ هـٰذا العارفُ عن نفسه بأنَّه أحدُ الختمين اللذين يختم الله تعالىٰ بأحدِهما ولايةَ الخصوص ، وبالآخر ولايةَ العموم ، وفرحُ هودٍ عليه السلام بهـٰذا العارف مما يؤيد ختميَّته ، فإنه لما رأىٰ أحد الختمين علمَ قربَ انشقاقِ الفجر الآخروي ، وخلاصَه من قيد البرزخِ إلىٰ إطلاق الآخرة .

قلت : وهـٰذا الذي أشارَ إليه السائلُ ببعض العارفين هو سيدي محيي الدين بنُ العربي رضي الله عنه .

وسئل عن الأحدية وسريانها مع شدَّة ظهورها ، فقال : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر : ١] فافهم .

وسأله أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ ، فقال : هل أكتبُ ما أجده في نفسي من العلوم ؟ فقال : إن صحبَكَ ذلك عند انفصامِ تنزُّله فاكتبْ ، وإن عجزتَ عن التعبير عنه فلا تتكلَّف له عبارةً .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يحتاجُ السالك إلى الواسطةِ إلا وهو في الترقِّي ، فإذا وصل إلىٰ معرفةِ الله عز وجل فلا يحتاجُ إلىٰ واسطةٍ) .

ثم قال رضي الله عنه : (**وإيضاحُ ذلك** : أنَّ الداعي إلى الله عز وجل ـ من نبيٍّ أو وليٍّ ـ واسطةٌ بين العبد وبين الله تعالىٰ في الدعوىٰ إلى الله تعالىٰ لا إلىٰ نفسه ، فإذا وقعَ الإيمانُ الذي هو مرادُ الله تعالىٰ من عباده ارتفعتْ واسطةُ الرَّسولِ والولي عن القلب حينئذ ، وصارَ الحقُّ حينئذ أقربَ إلى المدعو من نفسه ، ومن رسوله ، وما بقي للرَّسولِ إلا حكمُ الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع) .

ثم قال : (وانظر إلىٰ غيرةِ الحقِّ تعالىٰ علىٰ عباده بقوله لسيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، فأضاف عبادَهُ إليه ، وأخبرَ أنَّه أقربُ إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعلَه واسطةً بيننا وبينه ، مع أنَّه تعالىٰ مدحَهُ حتىٰ كاد أن يُلحقَه به لما هو عليه من الكمالات ، ثم إنه تعالىٰ قال له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] فأخرجه من الخلق ، ونفاه منهم ، وأثبته معهم ، فافهم) .

وسئل رضي الله عنه : هل يصحُّ تعلُّقُ الذات بصفاتها ؟ فقال : لا ، فإنَّ الصفاتِ معدومةُ الظهور عندها ؛ لعدمِ من يتعلَّقُ بها من الخلق « كانَ اللهُ ولا شيءَ معَهُ »[1] فما ظهرتِ الصفاتُ إلا بوجود الخلق ، فقيل له : فهل يصحُّ تعلُّقُ الذات بالعلم ؟ فقال رضي الله عنه : العلمُ من لازمها ، وهو لا يُحيطُ إلا بالصفات ؛ إذ هو من جملتها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا بلغَ العارفُ مقامَ الكمال فليس له الاستنادُ لغير ما يُظهرُه اللهُ فيه من العلوم ؛ فإنَّ روحَك أقربُ إليك مما تنقلُ عنه ، وهـٰذا أمرٌ لا يُعرفُ إلا بالذوق) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من علامةِ المتسلِّقِ علىٰ مقام العارفين أن يحصلَ له الخشوعُ والشهود في حالِ ذكره ، ثم إذا فرغَ يذهبُ ذلك مع الذكر ، وحكمُ ذلك كالرُّطبِ المعمول يتغيَّرُ بسرعةٍ) .

وسأله سيدي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ عن القساوة التي يجدُها في قلبه ، فقال رضي الله عنه : اشكرِ اللهَ تعالىٰ حيث سترَ عنك حالَكَ لتكونَ عبداً له صِرفاً ، لا عبدَ خشوعك وحضورك ، فقال : وأنا إن شاء الله تعالىٰ عبدٌ له صرفاً مع ذلك ومع غيره ، فقال : صحيح ، لـٰكنَّ الامتحانَ آفاتُهُ كثيرةٌ ، والمحبوب عند الله من ادَّخرَ له ما وعده به علىٰ أعماله إلى الدار الآخرة ، وخرج من الدنيا برأس ماله كاملاً من غير خسارة .

ثم قال رضي الله عنه : (إياك وكلَّ شيءٍ ألفتْهُ نفسُك ؛ فإن السُّمَّ معه ، ولا بدَّ لنفوذ السمِّ من معين ، ولا معين له إلا النفس ، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ لآدم وحواء : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] مع علمه بها حال علمه بالأسماء ، فلما أرادَ اللهُ تعالىٰ نفوذَ قدرته ألَّفَ بينه وبين من كان سبباً في أكله ، وليستْ إلا نفسُهُ التي حواء مظهرها ، فما نزلَ به البلاء إلا منه ، وبه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا نظرتَ الوجودَ فردَ شيءٍ فلا تعبِّر عن شيءٍ ؛ لأنَّ التعبيرَ يفصل) .

وشكا إليه أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ مرَّةً ما يقعُ له من كثرة النوم ، فقال

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٢٦) .

رضي الله عنه : لا تلتفتْ إلىٰ شيءٍ دون الله تعالىٰ ؛ فإنَّ من وقفَ مع الأسباب أشركَ مع الحقِّ ، وفي لمحةٍ تقعُ الصلحة .

فقال له : ويقعُ لي أيضاً كثرة السهرُ والقلق في بعضِ الأوقات ، فقال له : إنْ كان في فكرٍ في المصالح فمَدَدٌ وخيرٌ كبير ، وإن كان السهرُ مع الغفلةِ فبلاءٌ نزلَ يوزِّعُهُ اللهُ على المؤمنين حتىٰ يرتفعَ .

وكان رضي الله عنه يقول : (القمرُ آيةُ شهودٍ ؛ لدلالتِهِ علىٰ ظهورُ الأحدية وسريانها ، والشمسُ آيةُ علمٍ ؛ لدلالتها علىٰ ظهورِ الوحدانية ، وإحاطتها بتكثُّرها) .

وكان رضي الله عنه يقول : إياكم والطوافَ بالليل ، فقال أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ : إنَّ كثيراً من الناس يطوفون ليلاً ، فقال : هم معذورون ، ولٰكن ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، فقال : لا .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا كنتَ مؤمناً ، وسمعتَ أنه تعالىٰ يمدحُ المؤمنين . فلا تُبادر إلىٰ كونك مؤمناً ، وتأمَّلْ قبل ذلك : هل أنتَ علىٰ ما وصفَ اللهُ به المؤمنين من الصفات التي مدحَهم الله تعالى عليها أم لا ؟! ثم إن كنتَ علىٰ ما وصفَ فهل تموتُ علىٰ ذلك أم لا ؟! فإن علمت أنَّك تموتُ علىٰ ذلك فقد أمنتَ مكرَ الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] وإن علمتَ أنك تموتُ علىٰ غير ذلك فقد أيستَ من رحمةِ الله ، و﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] فكنْ بين الخوف والرجاء ؛ فإنَّه الصراطُ المستقيم .

وسمعته مرَّةً يقول : (كلُّ وصفٍ ونعت محمودٍ فباطنه ذمٌّ وتخويفٌ ، وكلُّ وصفٍ ونعتٍ مذمومٍ فباطنُهُ مدحٌ ورجاءٌ لمن استبصرَ ، هٰكذا حكمةُ الله في كلامه ، فافهم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله صلى الله عليه وسلم : « يُحشرُ المرءُ علىٰ دين خليلِهِ »[1] : (النفسُ أقربُ خليلٍ إليك ، فانظرْ كيف تكونُ ؛ فإنَّ من هنا جاءَ البلاءُ

(١) أورده البقاعي في « نظم الدرر » (٧/ ٤٦١) بلفظ المؤلف ، ورواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) بلفظ : « المرء مع من أحب » عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، =

والخوف ، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تأكلْ قطُّ طعامَ أحدٍ إلا إن كنتَ وليَّه في التربية ، أو من أهل آية ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ ﴾[١] [النور : ٦١] ، فإنَّ كلَّ لقمةٍ نزلت في جوفك نقصتْ من عبوديَّتِكَ بقدرِها ، واسترقَّتك لصاحب تلك اللقمة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الأفعالُ المحمودة إذا رجعَ نفعُها إلىٰ صاحبها فاضَ منه على الكون ، لـٰكنَّ أكثرَ النفع يقع للعامل ، والأفعالُ المذمومة إذا وقعتْ رجعَ جزاؤها عامّاً ، ولو أنه رجعَ خاصّاً لأهلك العاصي لوقته وساعته[٢] ؛ فلذلك وزَّعه الله تعالىٰ على المؤمنين ، وفتحَ للعاصي بابَ التوبة ببقاء روحه) .

ثم قال : (وقد يُثقلُ اللهُ تعالى البلاءَ على العاصي حتىٰ يرجعَ عما هو عليه ، أو لتذهبَ به يدُ الشقاء حيث أراد الله عز وجل) .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ عن نورِ البرزخ ، لِمَ كان كثيفاً ، ولم يكن شفافاً كهـٰذه الأنوار ؟! فقال : إنَّما كان كثيفاً ؛ لأنَّه نورُ أعمال الجوارح في الدنيا ، والجوارحُ والدنيا كثيفان ، وأيضاً : فإن الأنوارَ تصيرُ في محلِّ الظُّلمة كثيفةً ؛ لأن البرزخَ واحدٌ بسيط ، وليس فيه كثرةٌ مُباينة ليتميز بالنور الشفاف .

وكان رضي الله عنه يقول : (من قَرُبَ من أخلاق رسولهِ كان له الإطلاقُ والسراحُ في البرزخ تبعاً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيجتمع كلَّما شاءَ بمن شاء من أصدقائه وغيرهم ، وأمَّا من بَعُدَ من أخلاقِ رسوله صلى الله عليه وسلم بالأفعالِ الرديئة . . فإنْ شاء الله تعالىٰ أطلقَهُ ، وإن شاء قيَّدَهُ فلا يصحُّ له الاجتماعُ بمن يريد) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الأفعالُ والأحوال المحمودة هي المدبرة للفلك[٣] ،

= ورواه أبو داود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) بلفظ : « الرجل علىٰ دين خليله » عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) في النسخ : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم) .

(٢) في (ط) زيادة : (علىٰ صاحبها) بعد قوله : (رجع خاصاً) .

(٣) في (ب ، د ، ح ، ط) : (المديرة) بدل (المدبرة) .

ثم إنَّ الإمدادَ تنزلُ على الخلق بحسب رتبتهم ، وكثرةِ نصحهم ؛ فمن كانتْ أفعاله متقنةً كاملة كان دورانُ الفلك في حقِّه أسرعَ ، ثم تُضاعفُ له الحسناتُ بحسب كثرة النفع ، ومن كان تاركاً للأسبابِ دار الفلكُ بنصيبِ غيره ، ولم يحصلْ له شيءٌ من الإمداد ؛ لأنَّه لم يعمل ، ومن لا عملَ له لا أجرةَ له) .

ثم قال رضي الله عنه : (لـٰكن لا يَخفىٰ : أنَّ الحقَّ تعالىٰ لا نسبةَ بيننا وبينه في العطاء من عنده ؛ لبراءته عن أن ينفصلَ منه شيءٌ لنا ، أو يتَّصلَ به شيءٌ منَّا ، وإنَّما الأمرُ راجعٌ منَّا لنا بحسبِ أعمالنا ، وهو الغني الحميد ، ومن هنا كان عتبُ الخضر علىٰ موسىٰ حين أقامَ الجدارَ من غير أجرٍ ؛ لعلمِهِ بهـٰذا الأمر ، فأراد الخضرُ عليه السلام أن يفتح لموسىٰ بابَ الاكتساب ليجمعَ له بين مرتبتي الكسب والوهب ؛ فلهـٰذا قال تعالىٰ : « بلىٰ ؛ عبدُنا خضرٌ أعلمُ منكَ »)[1] .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (الفائدةُ في مصاحبة الكُمَّلِ مجهولةٌ ؛ لأنَّ رتبةَ الكامل التي أقامَهُ الحقُّ فيها هي للحقِّ لا للعبد ، والعبدُ لا تَعَرُّضَ عنده علىٰ سيِّده في شيءٍ ، فهو لا يشفعُ ، ولا ينفعُ ، ولا يُعطي ولا يمنعُ إلا بإذنٍ من الله تعالىٰ مخصوصٍ ، وأنَّىٰ له بذلك والرسالةُ قد انقطعتْ ؟! فإنَّ أُمرَ الكامل بالتنزُّلِ للتلامذة نفعَ وشفعَ ، وأعطىٰ ومنع ، وإلا فهو مع الله تعالىٰ دائماً علىٰ قدمِ الخوف ؛ لنظره إلىٰ عالَمي المحو والإثبات ، وخاتمةُ العبدِ المدعو مجهولةٌ على العارف .

وإيضاح ما ذكرناه : أنَّ المصاحبَةَ تقتضي الميلَ إلى الصاحب ، والميلُ إما لإثباتٍ أو نفي ، وكلاهما ممتنعٌ في حقِّ العارف الكامل) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يلزمُ من تربية العارفِ لتلميذ أن يرثَهُ ذلك التلميذُ ؛ لأنَّ التربيةَ حقيقةٌ لله يُورثها من يشاء من عباده) .

وكان يقول : (الألوهيةُ مطلقةٌ قابلةٌ للجمع بين الضدَّين من غير ضدٍّ ؛ فإنَّها قبلتِ

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٧٤) ، ومسلم (٢٣٨٠/ ١٧٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

التَّسمِّي بالرحمـٰن كما قبلتِ التَّسمِّي بالمنتقم ، وليست الألوهية أولىٰ باسم المنتقم مثلاً من غيره ، كما أنَّ أمره تعالىٰ ليس أولىٰ من نهيه في النفوذ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] وكذلك حكمُ العكس ، فهو يقول : يا عبدي ؛ افعلْ ؛ فإنَّك عبدٌ مأمور موجود ، ولا تشهدِ الفعلَ لك ؛ فإنَّ الفعلَ لي ، وأنت مُحدَثٌ متردِّدٌ بين العدم والوجود ، وأنا الفعَّالُ لما أريد بفعلِك لي ، وفعلُك لك ؛ لأني غنيٌّ عنك ، وعن فعلي فيك ، ولك ، وبك ؛ فإن شهدتَ الفعلَ لك فأنت مشركٌ ، وإن لم تفعلْ فأنت كافر ، فاحذرني وافعلْ كلَّ ما أمرتُك به ، ولا تنسبْ لنفسك قولاً ، ولا فعلاً ، وأنا الخلاقُ العليم) .

وسئل رضي الله عنه عن الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالألفاظ المطلقة ، والألفاظ المقيَّدةِ : أيُّهما أولىٰ في حقِّه صلى الله عليه وسلم ؟ وهل الإطلاقُ الذي يعتمدُهُ المصلِّي في صلاته على النبيِّ صلى الله عليه وسلم مطلقٌ عند الله أم لا ؟ وهل التقييدُ الذي يتبرَّأُ منه المصلِّي هو مقيَّدٌ عند الله أم مطلق ؟

فقال رضي الله عنه للسائل : (لا تستعمل نفسَك في شيءٍ من حيث نظرُك إلى إطلاقه أو تقييده ؛ فإنَّ الإطلاقَ غايتُهُ التقييد ، كما أنَّ التقييدَ غايتُهُ الإطلاق ، مع علمنا بأنَّ الأحوالَ الموصوفةَ بالإطلاق أو التقييد غيرُ مفتقرةٍ إلىٰ وصفنا لها مُطلقاً ؛ لاستغنائها بصفاتها الذاتية التي جعلها الحقُّ حدّاً لها تتميَّزُ به عن غيرها ، ونحن لا اطِّلاعَ لنا علىٰ حقائق الذوات لنعرفَ ما تستحقُّه من الصفات المقتضية لذلك أو لغيره ، وكيفُ يمكن لأحدٍ إيجادَ العدم ، وقيامه بالوجود ، وذلك خصيصٌ بالجناب الإلـٰهي ؟! أم كيف يحكمُ على الصفات التي هي أعراضٌ ببقائها زمانين في عرض آخر ؟! فكيف بقيامها في جوهرٍ واحد ؟!

فإذا قال المصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم : اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد عددَ ما كان ، وعددَ ما يكون ، وعددَ ما هو كائن في علم الله . . فقد استغرقَ هـٰذا اللفظُ العددَ والمعدود ، حسّاً ومعنىً ، واستغرقَ أيضاً الزمنَ المطلق بأقسامه ، واستغرقَ جميع المتخيَّلاتِ المضافات إلى القدرة والعلم ، وإذا كان المصلِّي لا تساوي رتبته هـٰذا العموم والشمول لضيقه ، وحصره ، وتقييده ، فكيف يظهرُ عنه إطلاقٌ

والأعمال كلُّها لا تكونُ إلا علىٰ صورة عاملها ، كما أشار إليه حديث : « الولدُ سرُّ أبيهِ » ؟![1] .

فمن علمَ ما ذكرناه وتحقَّقه علمَ أنَّه لا يظهرُ له عملٌ ، ولا صدقة ، ولا صلاةٌ ، ولا قراءة ، ولا وصفٌ من الأوصاف إلا بحسب استعدادِهِ في ذلك الوقت ، وبحسب رتبته في التوحيد إطلاقاً وتقييداً ، سواءٌ كان ذلك اللفظُ مُطلقاً أو مقيَّداً ، فلا تُتعبْ نفسَك يا أخي في شيءٍ ، وصلِّ عليه كما أمركَ اللهُ تعالىٰ أن تُصلِّي عليه ؛ لتكونَ عبداً محضاً[2] أمرك ربُّك بشيءٍ امتثلتَ أمره ، وليكن هـٰذا شأنَكَ في جميعِ عبادتك البدنية والقلبية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (التفكُّرُ والتدبُّرُ من صفات العقل الذي جعله الله تعالىٰ آلةً يقطعُ الإنسانُ بحدِّها كلَّ شيءٍ ، والقلبُ وعاءُ الكلِّ ، وإصلاحُ الطعمة أصلُ ذلك وغيره ؛ فإنَّ الإناءَ إذا كان شفَّافاً ؛ كزجاجٍ وبِلَّور وياقوت. . ظهرَ ما فيه علىٰ صورةِ الإناء ولونه ؛ من استدارةٍ وتربيع وغير ذلك ، وإذا كان الإناءُ غيرَ شفَّافٍ ؛ كالخشبِ والحديد والفخَّار ، وغيرِها . . لم يظهرْ لما فيه صورة ولا لون ، ولا تُعرفُ له حقيقةٌ .

ثم إنَّ هـٰذه الآلة إذا طُبع فيها الخيرُ أو الشرُّ مكثَ ودام ما لم تتغيَّرِ النشأةُ من أصلها وطبعها ، وهـٰذا غيرُ ممكنٍ ؛ لأنَّ الحقائقَ لا تتبدَّلُ ؛ ولأنَّ القدرة إنما تتعلَّقُ بتغيُّرِ الصُّورِ قبل كمالِ تكوينها ، قال : وهـٰذا سرٌّ من لم يشهده لم يعرفه .

فعلم : أن القلبَ إذا كان متحقِّقاً بصفةٍ ما فما فيه كذلك ؛ لأنَّ القلب دائماً له الحكمُ على الجسد والروح وصفاتهما ، كما أنه كذلك محكومٌ عليه بإصلاح الطعمة ، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ ، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ أَلا وهيَ القلبُ »[3] فتأمَّلْ : كيف أتىٰ بلفظ « كل » التي تقتضي العموم والشمول تعرف ما ذكرناه .

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢٩١١) : (قال في المقاصد : لا أصل له ، وكذا في « الدرر » تبعاً للزركشي ، وقال الصغاني : موضوع) .

(٢) في (د ، ز ، ح) : (مخلصاً) .

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٥٨٩) .

ومن كلام سيدي أحمد بنِ الرِّفاعي رضي الله عنه : إذا صلحَ القلبُ كانَ بيتَ الله ومهبطَ الوحي والأنوار ، وإذا فسدَ كان بيتَ الشيطان والهوىٰ والظلمة . انتهىٰ ؛ فالبيتُ لا يقبلُ إلا ما شاكلَه ، فافهم ، وكما أنَّ الأحرفَ وعاءٌ للمعاني فكذلك القلبُ وعاءٌ للحقِّ والشرع والنور ، وكما أنَّ الحرف إذا تغيَّر بعضُ صورته أو نقطه فسدَ المعنىٰ كذلك القلبُ إذا تغيَّر بعضُ صورته أو صفته فسدَ ما فيه) .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ وأنا حاضرٌ عن لذَّةِ العلوم عند إيجادها في القلب قبل أن تُوجدَ في النفس : هل هي مغيَّبةٌ للإنسان عن حسِّه كما هو الأمرُ في النفس ؟

فقال رضي الله عنه : إذا كان القلبُ يسعُ علمَ الحقِّ كما ورد[1] فكيف لا يسعُ علمَ غيره ؟! فقال له أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ : عالمُ الغيبِ أوسعُ من عالم الشهادة ، فقال : هو أَوسعُ عيناً ، وأما الشهادةُ فهي أوسعُ حكماً ، والحكمُ لا يفترقُ عن العينَ ، كما لا يفترقُ لا إلـٰه إلا الله من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له أخي المذكور : فما الحكمُ في الإفاضةِ على النفس ؟ قال الشيخ رضي الله عنه : هو بحكم استعدادها وقُربها من عالمها الأول ، أو بحكمِ تقييدها وعدم استعدادها ، وبُعدها عن عالمها ، فقال له أخي المذكور : لا بدَّ من الفرق ، قال الشيخ رضي الله عنه : فرقٌ بلا فرق ؛ كخطابِ قلبك لنفسك وأنت أنت ، وهما عينُ أَنِّيَّتك ، فافهم .

وسئل رضي الله عنه عن العلومِ المتولِّدةِ عن الفكر ، هل هي مستقيمةٌ في نفسها أم لا ؟ فقال رضي الله عنه : الحكمُ في ذلك للوقت ، فهو علمُ الوقت يذهبُ بذهابه ،

---

(١) روى الإمام أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبهٍ قال : « إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتىٰ نظر إلى العرش ـ أو كما قال ـ فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب ! فقال الله : إن السماواتِ والأرضَ لم تُطق أن تحملني وضِقْنَ من أن تسعني ، وسعني قلب المؤمن الوارع اللَّينِ » .

وروى الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه ، وأحمد في « الزهد » (٢٢٦٤) عن خالد بن معدان : « إن لله تعالىٰ آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها » .

والذهابُ عدمٌ ، والعدمُ لا حكمَ له ولا عليه ، فقال له أخي أفضل الدين رضي الله عنه وكان حاضراً : هـٰذا إذا كان الفكرُ بتفكُّره هو ، أما إذا كان الفكرُ عن وقعِ القلب في الوقت فذلك إلهام ، فقال : بشرطه . انتهىٰ .

قلت : ومعنىٰ قوله : (بشرطه) : أن يخرجَ صاحبُ الإلهام عن مواطن التلبيس ، والله أعلم .

وسئل رضي الله عنه عن بقاءِ العلوم في لوح النفس ، وعن إدراكها مع كثرة وارداتِ العلوم الفيَّاضة على القلب .

فقال رضي الله عنه : بقاءُ العلوم محفوظٌ في الصورة التي ظهرتْ عنها ، أعمالاً كانت أو أقوالاً أو أنفاساً ، والإدراكُ لها يكونُ بالصفاءِ الذي هو نورُ القلب المُطلق .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ وأنا حاضرٌ عن قولهم : (العلمُ قد يكون حجاباً ، والجهلُ قد يكون علماً) .

فقال رضي الله عنه : أما كونُ العلم حجاباً : فلأنَّ العلم صفةٌ ، وركونُك إليه صفةٌ ، والصفةُ مع أختها لا تُوجب نتيجةً ؛ كحكم الأنثىٰ إذا اجتمعت مع الأنثىٰ ، وأما كونُ الجهلِ علماً : فهو كونُكَ جاهلاً بحقيقةِ نفسك ، متحيِّراً في حقيقتها ، فسُمِّي جهلُك بذلك علماً ، ومن هنا قال الأشياخ : سبحان من جعلَ عينَ المعرفة به عينَ الجهل به ؛ وذلك لعدمِ الإحاطة ، ولا يخرجُ العبدُ عن الجهل بالله إلا إن أحاط به .

وسئل وأنا حاضرٌ عن التفكُّر في القرآن : هل هو كالتفكُّر في غيره ؟ فقال رضي الله عنه : الأمرُ راجعٌ إلىٰ قوة الآلة في القطع ، وصلابةِ المقطوع ولينه .

وسئل رضي الله عنه عن قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : ٥٧] : هل هـٰذا الرزقُ عامٌّ لكلِّ مَنْ دخل مكَّة ، أو هو خاصٌّ بقومٍ دون آخرين ؟ فقال رضي الله عنه : الرزقُ عامٌّ لكلِّ مَنْ دخل مكَّةَ من المسلمين بحسب استعداده ، لـٰكنْ لا يصحُّ تنزُّلِ هـٰذا الإمداد علىٰ قلبٍ إلا بعد تجرُّدِهِ عن حسناته وسيئاته ، كما أشار إليه خبرُ : « مَنْ حجَّ ولمْ يرفثْ ولمْ يفسقْ خرجَ من ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ »[1] ، فيولدُ

---

(١) حديث رواه البخاري (١٥٢١) ، ومسلم (١٣٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

قال بعضُهم : كان سيدي عبد القادر الدشْطُوطي رضي الله عنه من سعاة محمد بن زرعة إذا جالتْ روحُه في الأرض .

مات رحمه الله سنة أربعَ عشرةَ وتسع مئة[١] ، ودُفِنَ بالشباك الذي كان يَقعدُ فيه في بيته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠١) سيدي علي وحيش[٢]

من مجاذيب النحارية[٣] .

كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال .

وكان يأتي مصرَ والمحلَّة ، وغيرَهما من البلاد ، وله كراماتٌ وخوارقُ .

واجتمعت به يوماً في خطٍّ بين القصرين ، فقال لي : ودِّيني للزلباني ، فودَّيتُهُ له ، فدعا لي وقال : الله يصبِّرُكَ علىٰ ما بين يديك من البلوىٰ .

وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالىٰ قال : كان الشيخُ وحيش رضي الله عنه يُقيم عندنا في المحلَّة ، في خان بنات الخَطَا ، وكان كلُّ من خرجَ يقول له : قف حتىٰ أشفعَ فيك عند الله قبلَ أن تخرجَ ، فيشفع فيه .

وكان يحبسُ بعضَهم اليومَ واليومين ، ولا يُمكِّنه أن يخرجَ حتىٰ يُجابَ في شفاعته .

وقال يوماً لبنات الخَطَا : اخرجوا ، فإنَّ الخانَ رايح يطبق عليكم ، فما سمعَ منهن إلا واحدةٌ ، فخرجتْ ، ووقع على الباقي فمتن كلُّهن .

وكان إذا رأىٰ شيخَ بلدٍ أو غيرَه يُنزله مِنْ على الحمارة ويقول له : امسكْ رأسَها لي حتىٰ أَفعلَ فيها ، فإن أبىٰ شيخُ البلد تسمَّرَ في الأرض ، لا يستطيعُ يمشي خطوة ، وإن

---

(١) ذكر المناوي في « طبقاته » (٣/ ٤٥٧) وفاته سنة (٩٢٣هـ) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٦٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٩٠ ، ٢٨١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٦) (٤٧٨) .

(٣) مر التعريف بها في حاشية (٢/ ٤٢١) .

سمعَ حصلَ له خجلٌ عظيم ، والناسُ يمرُّون عليه[١] .

وكان له أحوالٌ غريبة .

وقد أخبرتُ عنه سيدي محمدَ بنَ عنان رضي الله عنه ، فقال : هٰؤلاء يُخيِّلون للناس هٰذه الأفعال ، وليسَ لها حقيقة .

مات رحمه الله تعالىٰ بالنحارية سنة سبعَ عشرةَ وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٠٢) سيدي الشريف المجذوب رحمه الله[٢]

كان ساكناً تجاه المجانين بالمارستان المنصوري .

وكان له كشفٌ ومثاقلات للناس الذين يُنكرون عليه .

وكان يأكلُ في نهار رمضان ويقول : أنا معتوقٌ ، أعتقني ربي .

وكان كلُّ من أَنكر عليه يَعطبُه في الحال .

وأرسل لي مرةً رغيفاً مع إنسان وقال : قل له : يأكل هٰذا الرغيف ، وطوىٰ فيه مرضَ سبعة وخمسين يوماً ، فلم آكلْه ، فأكله القاصدُ ، فمرض سبعةً وخمسين يوماً ، فقال للقاصد : لا تخف ، إن شاء الله تعالىٰ أَصطادُهُ في مرةٍ أخرىٰ ، فلم يُقدَّرْ له ذلك .

وكان يتظاهرُ ببلع الحشيش ، فوجدوها يوماً حلاوةً .

وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هٰذه الدار .

وكان أصلُه جمَّالاً عند بعض الأمراء ، ثم حصل له الجذب .

---

(١) سقطت هٰذه الحكاية الغريبة من النسخة (و) ، إلا أنها مثبتة من سائر النسخ ، ولم يذكرها المصنف في « الطبقات الوسطىٰ » ، وسترىٰ أنه التمس لها عذراً بقوله الآتي للشيخ محمد بن عنان ، ونعت أحواله بالغرابة ، وانظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٦٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٢٨٢) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٣٣٨) (٤٨٠) ، واسمه : هاشم .

إنما ثمرتُهُ وفائدته للملكين لا لك ؛ لأنَّك لم تزدَدْ بسؤالهما علماً عمَّا كنتَ عليه .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يخرجُ أحدٌ من الدنيا حتىٰ يُكشفَ له عن حقيقة ما هو عليه ، ويَتساوىٰ مع أهل الكشف ، إنَّما هو تقديمٌ وتأخير) .

ثم قال رضي الله عنه : (وأما نحن فلا كشفَ لنا محسوس ، ولا حسَّ معقول ، ولا عقلَ ، ولا نقلَ ، ولا وصف إلا العقل الملازم لنا في رتبة الإيمان العاري عن الدليل بالمدلول) .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ وأنا حاضر ، فقال له : إذا كان العبدُ علىٰ يقينٍ من الأمان من سوءِ الخاتمة : هل عليه ضرر ؟ فقال رضي الله عنه : الخوفُ مِنْ لازمِ كلِّ مقرَّبٍ ؛ لأنَّ غايةَ يقينه لا يتعدَّىٰ نفسه ، ولا يُمكنه العلمَ بتعيين الحقِّ تعالىٰ فيما يحكمُ فيه ، فإذاً ما علمَ إلا حالَ نفسه في ذلك الوقت فقط دون ما قبله وما بعده ، وعلمُ الوقت ضرورةٌ يَذهبُ بذهابه ، ولا تقييدَ على الحقِّ تعالىٰ فيما يفعل ، بل ولو كلَّمك تعالىٰ ، وأقسمَ بنفسه علىٰ ذاته : إنك سعيد فلا تأمَنْه ؛ فإنَّه واسعٌ عليم ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ولولا الأدبُ لقلنا : كلُّ نَفَسٍ له شؤون ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة : ١١٦] وهو علىٰ كل شيء رقيب .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله مرَّةً عن التوحيد ، فقال الشيخ رضي الله عنه : هو عدمٌ ، فقال له أخي المذكور : بل هو وجودٌ ، فقال : وجود ، فقال له : فإذاً العدمُ وجودٌ ، والوجودُ عدم ، فقال رضي الله عنه : نعم ، فقال له أخي المذكور : فانعدم العدم ؛ لأنه عدمٌ ، والعدمُ لا كلامَ فيه ، ولم يبقَ إلا الوجودُ كما كان ، وهو الآن علىٰ ما عليه كان ، فقال رضي الله عنه : نعم ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] فهو تعالى الموحِّدُ نفسَه بنفسه لنفسه حقيقةً ، والخلقُ لهم الإيمان والتصديقُ لا غير .

وسأله أيضاً وأنا حاضرٌ ، عن الاسم والرسم : هل هما حرفان ، أو حرفٌ ومعنىً ؟ فقال رضي الله عنه : المعنىٰ لا يقومُ إلا بالحرف ، والحرفُ قائمٌ بنفسه ، فهو غنيٌّ عن

= أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « أوغيرَ ذلكَ » قلت : هو ذاك ، قال : « فأعنِّي علىٰ نفسِكَ بكثرةِ السجودِ » .

المعنىٰ ، كما أشارَ إليه قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] فاسم الله الأول هو المعنىٰ ، والاسم الثاني هو الحرف ؛ لأنه قال فيه و﴿ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] ، ثم قال رضي الله عنه : ولا أعلم الآن أحداً في مصرَ يَعلمُ هٰذا العلمَ غير قائله ، فالحمدُ لله علىٰ كلِّ حالٍ .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (إذا صادمَكُم أحدٌ من أرباب الأحوال ، من أصحاب النوبة ، فلا تستعينوا عليه إلا بالله تعالىٰ ، أو برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنهم يرجعونَ عنكم إجلالاً لله تعالىٰ ولرسولِهِ صلى الله عليه وسلم ، والزموا الأدبَ معهم ظاهراً وباطناً ، ولا تَخرجوا قطُّ من سورِ بلدكم إلىٰ حاجةٍ حتىٰ تستأذنوهم بقلوبكم ؛ فإنَّهم يُحبُّون من يُراعي الأدب معهم ، وربَّما صدموا من خرج غافلاً عن مراعاتهم ، فيحصلُ له الخرابُ في باطنه ، حتىٰ يكادَ أن يهلَكَ ، لا يهتدي أحدٌ من الأطباء إلىٰ دوائه كما جرَّبنا ذلك) .

وسمعته رضي الله عنه يقول لأخي أفضلِ الدين رحمه الله تعالىٰ : (إيَّاك أن ترقَّ لمن أفقرَهُ اللهُ تعالىٰ من الدنيا بعد غناه ، فتعطيه أكثرَ من قوت يومه ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ ما أفقرَهُ إلا لحكمةٍ بالغة ، وربما عاقبك الحقُّ تعالىٰ بنظيرِ ذلك ، كما نقلتَ بنفسك ما أرادَه الله تعالىٰ لذلك العبد فتقلق[1] ؛ فإنه لا يثبتُ مع الحقِّ إذا نقله ممَّا يحبُّه ويرضاه إلىٰ ما يحبُّه تعالىٰ ويرضاه إلا الكاملون المكمَّلون ، ثم إنه تعالىٰ إذا عفا عنك ، ولم يُعاقبْك بنظيرِ ما فعل بذلك العبد . . فلا تعلمُ أنه استدراجٌ أم لا ، فإن كان استدراجاً هلكتَ مع الهالكين ، والغالبُ أنه استدراجٌ ؛ لأنه تعالىٰ حذَّرَكَ من ذلك ، وما حذَّرك إلا من موجودٍ تقعُ فيه ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ مرَّةً عن المُسببات : هل لها أسبابٌ مخصوصةٌ لا تقبلُ غيرَها أم لا ؟ فقال له : ما مذهبُك أنت ؟ فقال : مذهبي : أن الأسبابَ كالمرائي المجلوَّةِ القابلةِ لظهور الصور ، والمرآةُ الواحدةُ تُعطي الصورَ حقَّها من الظهور ، وتقبلُ كلَّ ما ظهرَ فيها من لطيفٍ وكثيف ، والأعيان التي هي المسبباتُ

(١) في (ط) : (فتتقلق) .

مرآةٌ واحدةٌ غيرُ منقسمةٍ ، ولا متناهية ، ولا متكثِّرةٍ في الحقيقة ، وإنما هي انطباعُ أسماء المتجلِّي فيها وصفاته ، فالتنوُّعُ من المتجلِّي لا من غيره ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] فقال الشيخ رضي الله عنه : وهو مذهبي .

وسأله أخي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ يوماً وأنا حاضرٌ علىٰ باب حانوته عن تفسير ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] فقال رضي الله عنه : اللسانُ في هـٰذا الوقتِ عاجزٌ عن البيان باللسان المألوف ، فقال له أخي المذكور : قلْ ما تيسَّرَ ، فقال رحمه الله : اكتبْ في ورقةٍ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ بطنَتْ ، وباسمِهِ الباطن ظهرتْ ، ولم تظهر ولم تبطن ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وانقسمت بعد ما توحَّدت ، ثم تعددت وانعدمت بظهور المعدود ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٢] ثم تنزَّلَتْ بما عنه انفصلت لما به اتصلت واتحدت ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم : ١] ثم تنوَّعَتْ بالأسماء واتَّحدتْ بالمُسمَّىٰ ، وظهرت من أعلىٰ علِّيين إلىٰ أسفل سافلين ، ثم رجعت علىٰ نحو ما تنزَّلتْ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] وبالجبال سكنَ مَيدها ، وميدُها هو فسادُها ، ثم اتَّصفَتْ وبعدت بما وصفت عمَّا به اتَّصفَتْ ، وما اتَّصفَتْ إلا لما خُلقت وانحرفت ، فحُشرت وبأعمالها انحشرت ، ولوحوشها اتَّحَدَتْ « كلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »[1] ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] ثم انعدمَ التقييدُ بوجود الإطلاق ، وانخرقَ الحجاب ، وتعطَّلتِ الأسباب ، فطلبتِ القلوبُ ظهورَ المحبوب ؛ ليكونَ معها كما كان يوم ﴿ يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير : ٧] وبزوجها تعلَّقت ، ولجنَّتها تشوَّقت ، وبحقيقتها اتَّصلت ، وبمظاهرها تعدَّدت ، وبها تنعَّمت ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٢٩-٣٠] ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨-٩] والروح لم تقتل ؛ لأنَّها حيةٌ ، وإن قُتلت فبْه قُتلت ، وإن سُئلت فبه سئلت ، فقاتلُها هو مُحييها بقتلها ومماتها ، والموتُ عدمُ العلمِ ، والعلمُ عند الله تعالىٰ ؛ لأنَّه هو العالمُ بالقاتل وما يستحقُّه ، فجزاؤه عليه ، ورجوعُهُ إليه ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : ١٤]

---

(١) حديث رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير : ١٠] الصحفُ هي الحاويةُ للأعمال ، والأعمالُ علومُ القلب المفاضةُ على الجوارح ؛ فالعملُ صورتُها كما أنَّه روحُها ، ومن لا روحَ لصورتِهِ فلا نشرَ لصُحُفه ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة : ٩٤] فرسولُه يرىٰ عملَكم ؛ لأنه هو المعلم ، واللهُ يرىٰ عملَكم ؛ لأنه العاملُ حقيقةً ، وقد تنزَّه تعالىٰ عن الرؤيةِ بالأبصار والقلوب المقيَّدة بغيره « يحشرُ المرءُ علىٰ دينِ خليلِهِ »[1] ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : ١١] لا أُطيق التعبيرَ عن معناه ، ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١٢] نارُ الخلاف اشتعلت ، والأعمالُ المُظلمة عُذِّبت ﴿ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾[2] [المائدة : ٤٩] فما عذَّبهم إلا بهم ، وما رحمهم إلا به ، والواحدُ ليس من العدد ؛ لأنَّ الواحدَ موجوَّدٌ مستور ، والعددُ معدومٌ مشهور ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ . . . ﴾ الآيات [التكوير : ١٣] لا أستطيع النُّطقَ بمعناها ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩] لأنه مستوٍ بنبوَّته[3] علىٰ عرشِ ولايته ، وهم العيون الأربعة ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ [الرعد : ٤] لأنَّ الحكمَ في ذلك اليوم لله باسمه الله ، لا باسمه الرب ؛ لأنَّ حُكمَ الله يعمُّ ، وحكمَ الربِّ يخصُّ ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾[4] [الأنعام : ١٠٨] ، ولا وجودَ لصفةٍ مع ذاتها ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٠] المرادُ به العرش المطلق لذلك اليوم المطلق يتجلَّى المعبودُ المطلق على العابدِ المطلق الذي هو إطلاق المقيدات ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . . . ﴾ [التكوير : ٢١] . . . إلىٰ آخر السورة صفات ونعوت ، وأسماء للموصوف المنعوت بالأسماء . انتهىٰ .

قلت : وهٰذا لسانٌ لا أعرفُ له معنىً علىٰ مُراد قائله ، وإنَّما ذكرتُهُ تبرُّكاً ، والله أعلم .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (الرجلُ كالشجرةِ ، وأصحابُهُ كأغصانها ، ونسبةُ الغصن الذي لا يُثمر إلى الشجرةِ كنسبة الغصنِ الذي يُثمر علىٰ حدٍّ سواء في اتِّصاله بها ، لا تقدرُ الشجرةُ تنفيه عنها) .

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٩) .

(٢) في النسخ : (إنما يريد الله أن يعذبهم ببعض ذنوبهم) .

(٣) في (هـ ، ح ، ط) : (مستوٍ بثبوته) .

(٤) في النسخ : (ثم إلىٰ ربهم يرجعون) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (الرجلُ ولو ارتفعتْ درجتُهُ في معرفة الطريق لا يقدرُ أن يجعلَ شجرةَ الشوك تفاحاً أبداً ، ولو أَخلى المريدَ مدى الدَّهرِ فإن الحقائقَ لا تتبدَّل) .

وسمعتُهُ مرَّةً يقول : (البرزخُ كلُّه عالمُ خيالٍ لا حقيقةَ له ثابتة ؛ إذ لو كانتْ له حقيقةٌ ثابتةٌ ما صحَّ لأهلِهِ الانتقالُ عنه إلى الدار الآخرة ، وهو محلُّ تجلِّي الصفات الإلـٰهية ، كما أنَّ الجنةَ محلٌّ لتجلِّي الذات الغنية عن العالمين « إنَّكم سترون ربَّكم . . . » الحديث)[١] .

وسمعتُه رضي الله عنه يقول لأخي أفضلِ الدين رحمه الله : (مظاهرُ العوالم ثلاثةُ أفراد : آدمُ ، وعيسىٰ ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فآدمُ عليه السلام خصيصٌ بالأسماء ، وعيسىٰ عليه السلام خصيصٌ بالصفات ، ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام خصيصٌ بالذات .

فآدمُ عليه السلام فاتقٌ لرتقِ المُسمَّيات والمقيَّدات بصورة الأسماء ، وعيسىٰ عليه السلام فاتق لرتق الصفاتِ البرزخيات بصورة الصفات ، ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام فاتقٌ لرتق الذات ، وراتقٌ لسرِّ الأسماء والصفات .

إذ الخصيصُ بالمظهر الآدمي الآثار الكونية ؛ ولذلك ظهرتْ عجائبُهُ ، وتنوَّعت حقائقُه ورقائقه ، والخصيص بالمظهر العيسوي المعارف الإلـٰهية ، والكشوفات البرزخية ، والتنوعات الملكية ، والنفثات الروحية ، والخصيصُ بالمظهر المحمَّدي سرُّ الجمع والوجود ، والإطلاق في الصفات والحدود ؛ لعدم انحصاره بحقيقةٍ ، أو تلبُّسه بقيدٍ ، فإنَّ سرَّه جامعٌ ، ومظهره لامعٌ ، وقد ولج هـٰؤلاء الأفراد الثلاثة كلٌّ واحدٍ في عالمه المختصِّ به في هيكله الذي هو عليه الآن ، ولم يكن ذلك لغيرهم ؛ فإنَّ آدمَ عليه السلام تحقَّقَ ببرزخيَّتِهِ أولاً قبل نزوله إلىٰ هـٰذا العالم ، وعيسىٰ كذلك ، وإلى الآن في المحلِّ الذي ولجه آدمُ عليه السلام مع ما اختصَّ به من الصفات ، وإحاطتها من عوالم الأسماء ؛ ولذلك طال مكثُهُ ضعفَي ما مكثه آدمُ عليه السلام في جنَّته ، وأما

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣/ ٢١١) عن سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام فقد ولجَ العوالمَ الثلاثة ؛ إذ هو مظهرُ سرِّ الجمع والوجود ، حيث أُسري به من عالم الأسماء الذي أوله مركز الأرض وآخرُهُ السماء الدنيا ، ثم ولج البرزخ باستفتاحه السماء الدنيا إلى انتهاء السابعة ، ثم ولجَ ما فوقها باستفتاحه عالمَ العرش إلىٰ ما لا يُمكنُ التعبيرُ عن نهايته ؛ ولذلك ادَّخَرَ صلى الله عليه وسلم دعواتِهِ ، ومعجزاته الخصيصةِ به لذلك اليوم المُطلق الذي لا يسعُهُ غيرُه) ، ثم أطال الكلامَ في ذلك بما لا تسعُهُ العقولُ ، فتركتُهُ لدقَّته وغموضه ، وبنائه على الكشف الصحيحِ التامِّ الخاصِّ بالكُمَّل .

وفي هٰذا القدرِ كفايةٌ على التنبيه علىٰ علوِّ شأنه رضي الله عنه .

وجميعُ ما ذكرتُهُ عنه لا يوجدُ عند أحدٍ من أصحابه غير أخي الكامل الراسخ الشيخ أفضل الدين رضي الله عنه ؛ فإنَّه كان كاتمَ سرِّهِ ، وهٰذا الأمرُ الذي ذكرته وقع لي مع عدة مشايخ ، فبمجَرَّدِ ما أصحبُهم علىٰ وجه الاقتداء ومحو الرسوم يمنحونني أموراً وأسراراً لا تُوجدُ عند أحدٍ من أصحابهم ، ولو طالتْ مدَّةُ صحبتهم ، حتىٰ إنَّ بعضَهم يُنكرها ويقول : هٰذا شيءٌ ما سمعناه من شيخنا قطُّ ، وهو صحيحٌ ؛ فإنه لم يُطلعْهم عليه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

ومنهم :

(٤٠٥) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي علي البحيري رضي الله عنه[١]

أحدُ الأولياء المكمَّلين ، رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه علىٰ قدمِ السلف الصالح ؛ من الخوف ، والورع ، والتقوىٰ ، ورثاثة الثياب .

وكان أحدَ من جمع بين الحقيقة والشريعةِ في عصره .

وكنت إذا رأيتُهُ تذكَّرتُ بأحواله أحوالَ سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه المنقولة عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٤٠٨) ، و« الكواكب السائرة » (٢/٢٢٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٢٥) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٢٣٨) (٤٢٤) .

وكان رضي الله عنه مُقيماً في قرى الريف يدُرِّسُ الناس العلم ، ويُفتيهم ، ويعلِّمهم الآداب والأخلاق .

وكنتَ إذا رأيتَهُ لا يهونُ عليك مفارقتُهُ ، ولو طالَ الزمان ؛ لِمَا هو عليه من حُسن الأخلاق ، وهضم النفسِ ، وتذكُّر أحوال الآخرة حتىٰ كأنها رأي عين .

وأخذ العلمَ عن جماعةٍ ؛ منهم : الشيخ العارف بالله تعالىٰ الشيخ شهاب الدين ابنُ الأُقيطع البُرُلُّسي رضي الله عنه[1] ، ثم بعده عن سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي علي النبتيتي الضرير ، وهو أكثرُ مشايخه تخلُّقاً وتحققاً ، ولم يُفارقْ شيخه إلىٰ أن مات .

وأخبرني بعض الفقراء الصادقين أنه سمعَ بعضَ الناس يقول : إنَّ سيدي عليّاً البحيري رضي الله عنه أحدُ الأربعين ، فأنكرَ ذلك ، فنام تحت دكَّة المؤذِّنين بجامع الأزهر ، فرأىٰ في منامه جماعةً بعد جماعةٍ يقولون : بل هو إمامُ الأربعين .

وكان رضي الله عنه كثيرَ البكاء ، فإذا عتبوه في ذلك يقول : وهل النارُ إلا لمثلي ؟!

وكانت فتاويه تأتي إلىٰ مصر ، فيتعجَّبُ العلماءُ من حلاوة لفظها ، وكثرةِ ما فيها من التخويف للخصم حتىٰ يرجعَ إلى الحقِّ .

وكان رضي الله عنه يقول : (قد عشنا إلىٰ زمانٍ صار الخلقُ فيه في غمرة ، ونسوا يوماً تشيبُ فيه الأطفال ، وتُسيَّرُ فيه الجبال) .

وكان رضي الله عنه إذا مرَّ على الأطفال يُسلِّمُ عليهم ، ويَسألُهم الدعاء .

وكان رضي الله عنه يقول : (أدركنا جماعةً يبكون طولَ ليلهم ، ويتضرَّعون في حقِّ هـٰذه الخليقة ، ويقولون : كلُّ شيءٍ نزلَ بهـٰذه البلاد التي حولنا فهو بسوءِ أفعالنا ، ولو خرجنا عنهم لخفَّ عنهم البلاء) ، رضي الله عنه .

---

(١) ابن الأقيطع : أحمد بن يوسف بن علي ، شهاب الدين البرلسي المالكي (٨١٩ ـ ٩٠١ هـ) عالم أديب جليل درس ودرَّسَ ، له عدَّة مؤلفات ، قال عنه السخاوي : (ونعم الرجل علماً وصلاحاً وتواضعاً وتقشفاً وتقنُّعاً ، ممن اجتمع له الحفظ والذكاء) . انظر « الضوء اللامع » (٢/ ٢٤٨) ، و« نيل الابتهاج » (ص ٨٧) .

مات رضي الله عنه في شوال سنة ثلاثٍ وخمسين وتسع مئة ، ودُفِن بنَواحي سيدي محمد المنيِّر رحمه الله تعالىٰ[١] .

ومنهم :

(٤٠٦) أخي العارف بالله تعالىٰ سيدي الشيخ أبو العباس الحُرَيْثي رضي الله عنه[٢]

صحبته نحو ثلاثين سنة فما رأيتُهُ قطُّ انتصرَ لنفسه ساعةً .

ونشأ رحمه الله تعالىٰ على العبادةِ ، والاشتغالِ بالعلم ، وقراءةِ القرآن بالسبع .

ثم خدم الشيخَ محمدَ بنَ عنان رضي الله عنه ، وزوَّجه ابنتَهُ ، وقرَّبَه أشدَّ من جميع أصحابه .

ثم أخذ بعده الطريق عن سيدي الشيخ عليٍّ المرصفي رضي الله عنه ، وأذنَ له أن يتصدَّرَ بعده لطريق الله تعالىٰ ، وأن يلقِّنَ كلمةَ التوحيد ، قالوا : ولم يقعْ من الشيخ رضي الله عنه الإذنُ لغيره رضي الله عنه ؛ لعزَّةِ مقامه ، ومعرفتِهِ بشروط أهل الطريق .

وبرع رضي الله عنه في الطريق ، وانتفعَ الناسُ علىٰ يديه في طريقِ الله تعالىٰ .

ووقع له كراماتٌ كثيرةٌ لا تُحصىٰ بحضرتي ، فمنها ما أعلمُ أنه كان يحبُّ كتمانَهُ فكتمتُهُ ، ومنها ما سكتَ عنه فذكرتُهُ .

وقد طلع لي مرَّةً بواسيرُ حتىٰ حصلَ لي منها ضررٌ شديد ، فشكوتُ ذلك له ، فقال : غداً تزولُ إن شاء الله تعالىٰ في صلاةِ العصر ، فصلَّيتُ العصرَ ونظرت فلم أجدْ لها أثراً ، رضي الله عنه .

وأُعطي رضي الله عنه القبولَ التامَّ عند الخاصِّ والعام ، حتىٰ إنَّ بعضهَم شربَ غسالة يديه من ذفرِ السمك .

---

(١) وتقع زاوية الشيخ محمد المنير خارج الخانقاه السرياقوسية .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٣٤) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٩٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٧١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٤٠) (٤٢٥) ، واسمه : أحمد بن يوسف .

وعمَّرَ عدَّةَ مساجدَ في دمياط والمحلَّة وغيرِهما .

وكان رضي الله عنه كريمَ النفس ، ظريفاً ، حسنَ المعاشرة ، بطيء الغيظ ، كثيرَ التبسُّم ، زاهداً في الدنيا ، كثيرَ الوحدة في الليل .

وطوى الأربعين يوماً .

وكان حلوَ المنطق ، لا تكادُ تسمعُ منه إلا ما تحبُّ .

وربَّما جلستُ معه بعد صلاة العشاء فيطلعُ الفجرُ ونحن في مجلسٍ واحدٍ ، وكنتُ أقدِّر الليلةَ بنحو سبع درج .

وكان رضي الله عنه كثيرَ التحمُّل لهمومِ الخلق ، حتىٰ صارَ كأنَّه شَنٌّ بالٍ ، جلدٌ علىٰ عظم ، وما سمعتُهُ قطُّ يعدُّ نفسَه من أهل الطريق ، وكثيراً ما كان يقول إذا سمع شيئاً من كلام أهل الطريق : استراحتِ العرايا من شراء الصابون .

وكان فتحه الكبيرُ بعد وفاة شيخه رضي الله عنه ، فدخلَ الخلوة مراراً وما خرجَ حتَّىٰ سمع الهواتفَ تأمرُهُ بذلك ، فخرج ودعا الناسَ إلىٰ طريق الله تعالىٰ .

ولَقَّن رضي الله عنه نحوَ العشرة آلاف مريد ، ولم يزلْ علىٰ طريقتِهِ الحُسنىٰ ، لم يتغيَّرْ حتىٰ مات .

وكان رضي الله عنه يحطُّ كثيراً علىٰ فقراء المطاوعة ويقول : لأنَّهم قطاعُ الطريق علىٰ فقراء الأرياف ، وليس في طريقهم ترقٍّ ؛ لعدمِ الشيخ الذي يُبيِّنُ لهم الأخلاقَ ، ولم يكنْ حطُّه عليهم نقصاً فيهم ، إنما هو لمصلحةِ المريدين الذين أخذوا عنه الطريق ولم تعلق فيهم صنارةٌ ؛ وذلك لأنَّ غضبَ الكاملِ على الإنسان إنما هو لمصلحةِ ذلك الإنسان لا حظّاً للنفس ، فافهم .

وسبق سيدي أبا العباس إلىٰ ما ذكرناه سيدي محمدُ الغَمْري ، وسيدي مَدْين ، وغيرُهما ، فكانوا كلُّهم ينهون جماعتَهم عن الاجتماعِ بالمطاوعة لهـٰذه العلَّةِ التي تقدَّمت ، والله أعلم .

ولمَّا حضرتْهُ الوفاةُ قال لسيدي أحمد بن محيي الدين الغَمْري ، وللحاضرين : (خرجنا من الدنيا ولم يصحَّ معنا صاحبٌ في الطريق) .

قلت : وكذلك وقعَ لسيدي إبراهيمَ المتبولي رضي الله عنه ، فقيل له : إنَّ من أصحابك فلاناً وفلاناً ! فقال رضي الله عنه : هٰؤلاء من معارفنا ، إنَّما صاحبُكَ من شربَ من بحرك .

توفي سيدي أبي العباس رضي الله عنه بثغر دمياط في سنة خمس وأربعين وتسع مئة ، وقبرُهُ بها ظاهر يُزار ، رضي الله عنه .

ولقد قصدتُهُ في حاجةٍ وأنا فوق سطوح مدرسة أمِّ خوند بمصر ، فرأيتُهُ خرجَ من قبره يمشي من دمياط وأنا أنظرُهُ إلىٰ أن صارَ بيني وبينه نحو خمسة أذرع ، فقال : عليك بالصبر ، ثم اختفىٰ عني ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٧) شيخي ووالدي وقدوتي الشيخ نورُ الدين الشُّوني رضي الله عنه[1]

وهو أطولُ أشياخي خدمةً ، خدمته خمساً وثلاثين سنة ، لم يتغيَّرْ عليَّ يوماً واحداً .

وشونى : اسمُ بلدةٍ بنواحي طندتا ، بلد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ، رُبِّي بها صغيراً ، ثم انتقل إلىٰ مقام سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ، وأنشأ فيه مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شابٌّ أمردُ ، فاجتمع في ذلك المجلس خلقٌ كثير ، وكانوا يجلسونَ فيه من بعد صلاةِ المغرب ليلةَ الجمعة إلىٰ أن يُسلِّم على المنارة لصلاة الجمعة .

ثم إنه خرجَ يُشيِّعُ جماعةً مسافرين إلىٰ مصر في بحرِ الفيض ، فخرجتِ المركبُ به من غيرِ قصدٍ منه ، فلم يقدرْ أحدٌ علىٰ رجوعها إلى البر ، فقال : توكلنا على الله .

فجاء إلىٰ مصر ، فأقام بها أولاً في تربة السلطان برقوق بالصحراء .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤١٠) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢١٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٦٦) ، و« هدية العارفين » (١/ ٧٤٤) ، و« تاريخ بروكلمان » (٨/ ٢٤٧) ، و« الخطط التوفيقية » (٢/ ٣٣٩ ، ١٢/ ١٤٥) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٤٢) (٤٢٦) .

وأنشأ في جامعِ الأزهر مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام سبعٍ وتسعين وثمان مئة .

وكان رضي الله عنه يقومُ من التربةِ كلَّ ليلةِ جمعة إلى الأزهر ويرجعُ ، فلما عمَّرَ السُّلطان طومان باي[١] العادلُ تربتَهُ نقله إليها ، وأعطاه وظيفةَ المزملات بها[٢] ، فكان يَسقي الناسَ طولَ النهار ، فأقام بها سنين عديدة .

ثم دخلَ إلىٰ مصر ، وتزوَّج بها ، وله من العمر تسعون سنة ، وكان لم يتزوَّجُ قطُّ .

ثم انتقلَ إلىٰ مدرسة السُّيوفية[٣] التي وقعَ لسيدي عمرَ بنِ الفارض مع شيخه البقَّال فيها ما وقع ، فأقام بها إلىٰ أن مات في سنة أربعٍ وأربعين وتسع مئة ، ودُفِنَ عندنا بالقبَّة المجاورة لباب المدرسة القادرية بخطِّ بين السورين ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

وأخبرني رضي الله عنه قال : من حين كنتُ صغيراً أرعى البهائم في شونىٰ ، وأنا أَحبُّ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت أدفعُ غذائي إلى الصغار ، وأقول لهم : كلوه ، وصلُّوا أنا وإيَّاكم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ﷺ[٤] ، فكنَّا نقطعُ غالبَ النهار في الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولما دخلتُ مصر في سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة لقيني الشيخُ شهاب الدين الطَّويل المجذوب رضي الله عنه ، فقال لي : أنت ابن الشوني ، أيشٍ حال [أبيك] ؟ وكنتُ لا أعرفُ قطُّ من هو الشوني ، فما كان إلا نحو سنتين ، فأخبرني شخصٌ أنَّ رجلاً يُسمَّى الشيخ نور الدين الشوني من الصالحين في تربة العادلية ، امضِ بنا نزوره ، فلمَّا دخلنا عليه رحَّبَ بي أكثرَ من أصحابي ، وقال لي : أيشٍ قال لك الشيخ شهاب المجذوب ؟ فأخبرته ، فقال : هو صاحبُ اطِّلاعٍ ، وإن شاء الله تعالىٰ يحصلُ لك من جهتنا نصيبٌ من الخير .

---

(١) **طومان باي** : أبو النصر ، الملقب بالملك الأشرف (٨٧٩ ـ٩٢٣هـ) بويع بالخلافة ، فحشد الجيوش لمحاربة العثمانيين ، وخاض معهم أكثر من معركة انتهت بشنقه علىٰ باب زويلة ، وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر ونصفاً . انظر « الأعلام » (٣/ ٢٣٣) .

(٢) أي : وظيفة السقاية .

(٣) **المدرسة السيوفية** : أوقفها صلاح الدين على الحنفية ، وعرفت بالمدرسة السيوفية لأن سوق السيوفيين كان على بابها . انظر « الخطط المقريزية » (٤/ ١٩٦) .

(٤) في (ط) : (كلوه وصلوا معي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

فكنتُ أحضرُ معه المجلسَ نحو سبع سنين ، فلما كانت سنةُ تسعَ عشرةَ قال لي : مقصودي تجمعُ لك جماعةً في الجامع الذي أنت مُقيمٌ فيه ، وتُحيي بهم ليلةَ الجمعةِ بالصَّلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علىٰ ترتيب هـٰذا المجلس ، فشرعتُ فيه في السنة المذكورة ، فلم ينقطعْ ببركته ليلةً واحدة إلىٰ وقتنا هـٰذا .

ثم إنَّه خطرَ لي ليلةً من الليالي أن أقرأَ بالجماعة (إنا أعطيناك الكوثر) نحو ألف مرة ، فقرأناها ، فرأىٰ جماعةٌ بكثرةٍ تلك الليلة سيدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتُ الشيخ بذلك ، ففعلها بمجلسِهِ بجامع الأزهر .

ثم إنِّي كرَّرتُ ليلةً قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] نحو خمس درج[1] ، فحصلَ للجماعة بسطٌ عظيم ، فأخبرته بذلك ، فصار يفعلُها بمجلسه ، وتوارثها عنه جماعتُه .

ورأيتُ مرَّةً في واقعةٍ أنَّني أمشي خلفَه في أرضٍ بِلَّورٍ أبيضَ ، وعليها سورٌ شاهقٌ يقربُ من السماء ، وحصلَ لي أنسٌ عظيم في تلك الأرض كدتُ أن أسكرَ منه ، فبينما نحن نمشي إذ نزلَ من السماء سلسلةُ فضة ، وفيها قربةٌ بيضاء فيها ماءٌ أبيضُ من اللبن ، وأَحلىٰ من العسل ، فنزلتْ إلىٰ أن صارَ الإنسانُ يصلُ إليها بفمه ، فشربَ الشيخُ رضي الله عنه منها ، وأعطاني الفضلةَ فشربتها ، ثم تخلَّف الشيخ ، ومشيتُ حتىٰ غبتُ عن الشيخ ، فنزلتْ لي سلسلةُ ذهب ، وفيها شيءٌ مربَّعٌ نحو الشبر في شبر ، وفيها ثلاثُ عيون مكتوبٌ على العليا منها : مُستمدُّ هـٰذه العين من الله تعالى ، وعلى الوسطىٰ مُستمدُّ هـٰذه العين من العرش ، وعلى السُّفلىٰ مُستمدُّ هـٰذه العين من الكرسي ، فألهمني اللهُ تعالىٰ فشربتُ من الوسطىٰ ، ثم رجعتُ إلى الشيخ رضي الله عنه ، فأخبرته بما شربتُهُ ، وبأنَّه من العين التي تستمدُّ من العرش ، فقال لي : يا فلان ؛ تتخلَّقُ إن شاء الله تعالىٰ بالرحمةِ علىٰ جميعِ العالم ، وسُرَّ بذلك سروراً عظيماً ، رضي الله عنه ، ثم قال لي : صدقَ كلامُ الشيخ شهاب الدين المتقدِّم .

وكان رضي الله عنه حسنَ العشرة ، جميلَ الخلق ، كريم النفس ، حسنَ السمت ،

---

(١) مرَّ شرحها (٢/ ٧٧) .

كثير التبسُّم ، صافي القلب ، ممسوحاً كباطن الطفل سواء[١] ، وهـٰذه الصفة من صفات الخلَّة .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين همٌّ أو غمٌّ لا يقرُّ له قرارٌ حتىٰ يرتفع .

وكان لا يتفوَّه قطُّ برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان يقولُ : رأىٰ بعضُ الفقراء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال له : كذا وكذا ، مع أنَّ مرتبتَهُ كانت تقتضي كثرةَ الرُّؤيا له صلى الله عليه وسلم .

ورأيتُهُ عن يسار النبي صلى الله عليه وسلم في وقائعَ لا أحصيها ، فكنت أذكرُ له ذلك ، فيقول : اشتبهتَ بي ، ولا يعترفُ بذلك .

ورأيتُ مرَّةً قائلاً يقول في شوارع مصر : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، عند الشيخ نور الدين الشُّوني رضي الله عنه ، فمنَ أرادَ الاجتماع به فليذهبْ إلىٰ مدرسة السيوفية ، فمضيتُ إليها ، فوجدتُ السيدَ أبا هريرة رضي الله عنه علىٰ بابها الأوَّلِ ، فسلَّمتُ عليه ، ثم وجدتُ المقدادَ بنَ الأسود علىٰ بابها الثاني ، فسلَّمتُ عليه ، ثم وجدتُ شخصاً لا أعرفُه علىٰ بابها الثالث ، فلما وقفتُ علىٰ باب خلوة الشيخ وجدتُ الشيخ ، ولم أجدْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عنده ، فبهتُّ في وجهِ الشيخِ ، فأمعنتُ النظرَ ، فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ماءً أبيض شفافاً يجري من جبهته إلىٰ أقدامه ، فغابَ جسمُ الشيخ ، وظهر جسمُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فسلَّمتُ عليه ، ورحَّبَ بي ، وأوصاني بأمورٍ وردتْ في سُنته ، فأكَّد عليَّ فيها ، ثم استيقظتُ ، فلما أخبرتُ الشيخَ رضي الله عنه بذلك قال : واللهِ ؛ ما سررت في عُمري كلِّه كسروري بهـٰذا ، وصار يَبكي حتىٰ بلَّ لحيته رضي الله عنه .

ورُئي في عرفات في الموقفِ مراراً لا تُحصىٰ ، حتىٰ حلفَ شخصٌ من أصحابه بالطلاق : إنه رآه وسلَّم عليه فيه ، وهو لم يعترفْ ، ويقول : أنا ما برحتُ من مصر موضعاً .

وتفرَّعتْ عنه سائرُ مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي علىٰ وجه

---

(١) في (ط) : (كباطن الطفل باطنه سواء) .

الأرض الآن في الحجاز ، والشام ، ومصر ، والصعيد ، والمحلَّة الكبرىٰ ، وإسكندرية ، وبلاد الغرب ، وبلاد التكرور ؛ لأن ذلك لم يعهدْ لأحد قبله ، إنَّما كان الناسُ لهم أورادٌ في الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فُرادىٰ في أنفسهم ، وأمَّا اجتماعُ الناس علىٰ هـٰذه الهيئة فلم يَبلغنا وقوعُه من أحدٍ من عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ عصره رضي الله عنه .

ولما تُوفِّي رضي الله عنه رأيتُهُ في قبره وقد اتَّسع مدَّ البصر ، وهو مغطّىً بلحافِ حرير أخضرَ مساحتُهُ قدرَ فدان ، ثم إني رأيتُهُ بعد سنتين ونصف وهو يقول لي : غطني بالملاءة ؛ فإني عريان ، فلم أعرفْ ما المُراد بذلك ، فمات ولدي محمد تلك الليلة ، فنزلنا به ندفنه بجانبه في الفسقية ، فرأيتُهُ عرياناً على الرمل ، لم يبقَ من كفنه ولا خيطٌ واحدٌ ، ووجدته طريّاً يخرُّ ظهرُه دماً مثلَ ما دفناه سواء لم يتغيَّرْ من جسده شيءٌ ، فغطَّيته بالملاءة ، وقلتُ له : إذا قمتَ وكسوك ، أرسلْ لي ملاءتي ، وهـٰذا من أدلِّ دليلٍ علىٰ أنَّه من شهداءِ المحبة ؛ فإنَّ الأرضَ لم تأكلْ من جسدهِ شيئاً بعد سنتين ونصف ، ولا انتفخَ ، ولا نتنَ له لحمٌ ، وإنما وجدنا الدمَ يخرُّ من ظهره طريّاً ؛ لأنه لمَّا مرضَ لم يستطعْ أحدٌ أن يقلبَهُ مدَّةَ سبعة وخمسين يوماً ، فذابَ لحمُ ظهره ، فضممناه بالقطن وورق الموز ، ولم يتأوَّه قطُّ ، ولم يئنَّ في ذلك المرض .

ورأيتُهُ مرَّةً أُخرىٰ ، فقلت : يا سيدي ؛ أيش حالُكم ؟ فقال : جعلوني بوَّابَ البرزخ ، فلا يدخلُ البرزخَ عملٌ حتىٰ يُعرضَ عليَّ ، وما رأيتُ أضوأ ولا أنورَ من عملِ أصحابنا ؛ يعني : من قراءة (قل هو الله أحد) والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و(لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ورأيتُ مرَّةً الإمامَ الشافعيَّ رضي الله عنه ، وقال لي : أنا عاتبٌ عليك ، وعلىٰ نورِ الدين الطرابلسي ، ونور الدين الشوني ، وكنتُ تلك الليلة نائماً في الروضة عند بني الوفا ، فقلتُ للإمام : نزورُكم بكرة النهار إن شاء الله ، فقال : لا ، هـٰذا الوقت ، فأخذ بيدي ومشىٰ بي من الروضة حتىٰ طلعَ بي فوقَ قبَّتِهِ ، وفرشَ لي حصيراً بقرب الهلال بحيث إني صرتُ أمسكُ المركبَ النحاس بيدي ، ومضىٰ ، فأتىٰ بِبِطِّيخٍ وجبنٍ طري ، وخبزٍ لين ، وقال : كلْ ، فقد ماتتْ ملوكُ الدنيا بحسرة الأكل في هـٰذا

الموضع ، فرجعتُ وقصصتُ المنام على الشيخ نور الدين الطرابلسي ، فركبَ في الحال للزيارة ، ثم دخلت للشيخ نور الدين الشوني ، فقلت له ، وكان عنده عرعرٌ صاحبُ الشريف بركات صاحب سلطان مكة ، فقال : هـٰذه أباطيلُ ، مثلُ الإمام الشافعي رضي الله عنه يعتب علىٰ مثلكم في الزيارة ؟! فنامَ الشريف عرعر تلك الليلة ، فرأى الإمامَ الشافعيَّ رضي الله عنه وقال له : قَولُ عبد الوهاب صحيح ، وأنا عاتبٌ على الثلاث ، فجاء الشيخُ نور الدين وأخبره الخبر ، ثم قال : وقال لي : لولا الشوني في مصر لهوىٰ بأهلِها ما هوىٰ .

ومناقبُه رضي الله كثيرة ، وإن شاء الله تعالىٰ نُفردُها بالتأليفِ إن كانَ في الأجلِ فسحة ، والله أعلم .

مات سنة أربع وأربعين وتسع مئة ، ودفن في زاويتنا بين السورين .

ومنهم :

(٤٠٨) أخي وصاحبي سيدي الشيخ أبو الفضل الأحمدي رضي الله عنه[1]

صاحبُ الكشوفات الربانية ، والانفهاقاتُ السماوية ، والمواهبُ اللدنية .

سمعتُ الهواتف تقول في الأسحار : (ما صحبتَ مثل الشيخ أبي الفضل ، ولا تَصحبُ) .

كان رحمه الله تعالىٰ من أكابر أولياء الله ، وما رأيت أعرفَ منه بطريقِ الله عز وجل ولا بأحوال الدنيا والآخرة .

له نفوذُ البصر في كلِّ شيءٍ ، لو أخذ يتكلَّمُ في أفراد الوجود لضاقتِ الدفاتر .

صحبته رضي الله عنه نحو خمسَ عشرة سنة ، ووقع بيني وبينه اتحادٌ لم يقع لي قطُّ مع غيره ، وهو أنه كان يَردُ عليَّ الكلامُ من الحكمة في الليل فأكتبُهُ ، فإذا جاءَ عرضتُهُ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٣٩) ، و« الكواكب السائرة » (٢/٩٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٣٤٨) ، و« الخطط التوفيقية » (٤/١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٢٨٣) (٤٥٠) .

عليه ، فيُخرجُ لي ورقةً من عمامته ، ويقول : وأنا الآخر وقعَ لي ذلك ، فنقابلُ الكلام على الآخر ، فلا يزيدُ أحدُهما على الآخر حرفاً ، وربما يقولُ بعضُ الناس : إنَّ أحدَنا كتبَ ذلك من الآخر .

وكان رضي الله عنه يُدركُ تطور الأعمال الليلية والنهارية ، ويَرىٰ معارجَها ، وهـٰذا أمرٌ ما رأيتُهُ لأحدٍ قطُّ من الأشياخ الذين كتبتُ مناقبَهم في هـٰذه الطبقات .

وقد سألني مرَّةً الأميرُ محيي الدين بنُ أبي إصبع ـ أسبغ الله عليه نِعَمَ الدارين ـ أنْ أدعو له بالخلاص من سجن السلطان ، فسألتُ الله تعالىٰ في الأسحار ، فجاءني سيدي الشيخُ أبو الفضل وقال لي : ضحكتُ الليلةَ عليك في دعائك لابن أبي إصبع بالخلاصِ من السجن ، وقد بقي له من المدة خمسةُ شهور ، وسبعةُ أيام ، فلو كنتَ شاطرَ مصر لم تقدرْ علىٰ إخراجه حتىٰ تنقضي هـٰذه المدة ، قال : ورأيتُ دعاءك وهو يصعدُ إلى السماء نحوَ قامةٍ ، ويرجع إليك .

وربَّما كان يأتيني ، فيُخبرني بجميعِ ما وقعَ لي في الليل .

وكان من شأنِهِ تحمُّلُ هموم الناس حتىٰ صارَ ليس عليه أُوقيةُ لحمٍ .

وكان رضي الله عنه يقول : (لي منذ سنين وأنا أحسُّ بلحمي كأنَّه في صحنِ نحاس على النار يُطَشْطِشُ) .

وكان من شأنه التقشُّفُ في المأكل والملبس ، وخدمة جميعَ إخوانه .

وكنَّا إذا خرجنا لمثلِ أهرام الجيزة أو غيرها من التنزُّهات يحملُ نعالَ الجماعة كلِّهم في خرجٍ علىٰ عنقه ، ومن أبىٰ أقسمَ عليه بالله تعالىٰ حتىٰ يُمكِّنَهُ من حمل نعله .

وشكوتُ له مرةً مرضاً نزلَ بي ، فقال : واللهِ العظيم ؛ لي منذ عشر سنين وأنا أحسُّ أنني في صحن نحاس على النارِ من غيرِ ماءٍ يُطَشْطِش فيه ، فحطَّ مرضَك بجنب هـٰذا تجدْهُ ولا شيء .

وكان رضي الله عنه لا ينامُ من الليل إلا نحو عشر درج صيفاً وشتاءً .

وكان رضي الله عنه من أعظم الناسِ تعظيماً للمساجد ، لم يتجرَّأْ قطُّ أنْ يدخلَ مسجداً إلا تبعاً لغيره ، فكان يمكثُ واقفاً علىٰ باب المسجد ، حتىٰ إذا دخلَ أحدٌ دخلَ

في داره ، ويقول : (مثلُنا لا ينبغي له أن يدخلَ المساجدَ إلا تبعاً لعامَّةِ المؤمنين ؛ لعجزنا عن القيام بآدابها) .

ورأيتُ مرَّةً في ثوبه أثراً ، فقلت له : دعني أغسلْه لك ، فقال : أنت ما تعرف حالي ، والله ؛ إني لأستحي من لبسِ الثوبِ النظيف علىٰ ذاتي هـٰذه القذرةِ .

وكان رضي الله عنه يقول : (أعطاني اللهُ تعالىٰ أني لا أنظرَ قطُّ إلىٰ شيءٍ من الحبوب نظرةً واحدةً ويسوس ، أو يتلف أبداً ، وجرَّبنا ذلك في مخزنِ القمح الذي كان يسوس عندنا) .

وكان رضي الله عنه يعرفُ أصحابَ النوبة في سائر أقطار الأرض ، ويعرفُ من تولَّىٰ ذلك اليوم منهم ، ومن عُزل .

وكان لونُهُ أصفرَ نحيفاً ، لا تكادُ تجدُ عليه أوقيةَ لحم .

وحجَّ رضي الله عنه مراتٍ على التجريد ، فلمَّا كان آخر حجَّةٍ كان ضعيفاً ، فقلت له : في هـٰذه الحالةِ تُسافر ؟! فقال : لِتُرابي ؛ فإنَّ نطفتي مرَّغوها في تربة الشهداء ببدر ، فكان كما قال ، فمرضَ مرضاً شديداً قبلَ بدرٍ بيومين ، **ثم تُوفِّي ودفن ببدر كما قال ، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة** ، فلمَّا حججتُ سنة سبعٍ وأربعين مضيتُ إلىٰ قبره ، فقلتُ له : أُقسم عليك بالله إلا ما نطقتَ لي من القبر ، وعرَّفتني بقبرك ، فناداني : تعالَ ، فإني هنا ، فعرفتُ قبرَهُ بتعريفه لي رضي الله عنه .

ومدحتُ له مرَّةً بعضَ الفقراء ، فقال : اجمعني عليه ، فدخلنا عليه ، فوجدناه في الخلوة ، فقال له سيدي أفضلُ الدين رحمه الله تعالىٰ : (يا هو) ؛ بِهمَّةٍ ، فتخبَّطَ ذلك الفقيرُ من صياحه عليه حتىٰ كاد يذهلُ ، فقال سيدي أفضلُ الدين رضي الله عنه : وعزَّةِ ربِّي ؛ لولا الشفقةُ عليه لشقَقْتُ قلبه بالصوت ، ثم قال لي : هـٰذا يأكلُ مهما وجد ، لا يتورَّع ، فهـٰذا الذي تركه يتخبَّط كما قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، فذاكرَهُ مذاكرةً في حقائق اليقين ، ودقَّقَ عليه الكلام حتىٰ قال له ذلك الفقير : تَنزَّلْ لنا في العبارة والمقام ، ثم رأىٰ عنده رجلاً شيخوخة مختلياً ، وصوتُهُ ضعيفٌ في الذكر ، فقال له :

أَخرجْ هـٰذا الفقير وأطعمه ، وإلا ماتَ ودخلَ النار ، فقال الفقير : هـٰذا من شرطِ الخلوة ؟ فقال له سيدي أبو الفضل رضي الله عنه : وماذا يطلب بالخلوة هـٰذه ؟ فإنَّ العبدَ إذا كان وليّاً لله فلا يحتاجُ إلىٰ هـٰذا العلاج ، وإن كان غيرَ وليٍّ لله فلا يصيرُ وليّاً بالعلاج ، وشجرةُ السَّنْط لا تكون تفّاحاً بالعلاج[1] ، فأخذ سيدي أبو الفضل رغيفاً وقال : اسمعْ مني واخرجْ ، وما وعدَكَ اللهُ به يحصلُ إن شاء الله تعالىٰ ، فلم يخرجْ ، فقال : الله يبتليك بالموت ، فمات بعد يومٍ وليلة .

وكان رضي الله عنه يقول : (بواطنُ هـٰذه الخلائق كالبِلَّور الصافي ، أرىٰ ما في بواطنهم كما أَرىٰ ما في ظواهرهم) .

وكان إذا انحرفَ من إنسانٍ يذوبُ ذلك الإنسانُ ، ولا يفلحُ في شيءٍ من أمر الدنيا ، ولا من أمر الآخرة .

وكان رضي الله عنه يعرفُ من أنفِ الإنسان جميعَ ما يفعلُهُ في داره ، ويقول : هـٰذا ما هو باختياري ، وسألتُ اللهَ تعالى الحجابَ ، فلم يَحجبْني ؛ ولله تعالىٰ في ذلك حكمٌ وأسرار .

وكان له كلامٌ عالٍ في الطريق والمقامات وأحوالِ الكُمَّل .

وكان يقول : (أنا من وارثي إبراهيمَ الخليل عليه الصلاة والسلام) .

ومن كلامه رضي الله عنه : (اعلم يا أخي ؛ أن المُرادُ من الإيجاد الإلـٰهي الإنساني ، والتكوين الطبيعي الناري . . ليس إلا معرفةَ الرُّبوبية وأوصافها ، والعبوديةَ وأخلاقها ، فأما أوصافُ الربوبية فيكفيك يا أخي منها ما وصلَ إليك علمُه إلهاماً ، وتقليداً بواسطةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير تشبيهٍ ولا تعطيل ، وأما أخلاقُ العبودية فهي مقابلةٌ لأوصاف الربوبية على السواء ، فكلُّ صفةٍ استحقَّتها الألوهيةُ طلبت العبودية حقَّها من مقابلةِ ذلك الوصف ، ومن هـٰذا المقام كان استغفاره صلى الله عليه وسلم ، فكلٌّ عن مقامِهِ يتكلَّمُ ، وعمَّا وصفَ به يُترجم) .

---

(١) السَّنْط : قرظ ينبت بالصعيد يدبغون به ، وحطبه أجود الحطب ، ويُعرف بالأكاسيا . « متن اللغة » (٣/ ٢٢٤) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من نظرَ إلىٰ ثوابٍ في أعماله عاجلاً أو آجلاً فقد خرجَ عن أوصافِ العبودية التي لا ثوابَ لها إلا وجهُ الله تعالىٰ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليك بحسنِ الظنِّ في شأنِ ولاةِ أُمورِ المسلمين ، وإن جاروا ؛ فإنَّ الله لا يَسألُ أحداً قطُّ في الآخرة : لِمَ حسَّنتَ ظنَّك بالعباد ؟!) .

وكان يقول : (لا تسبَّ أحداً من خلق الله تعالىٰ على التعيين بسببِ معصيةٍ وإن عظمَتْ ؛ فإنك لا تدريْ بم يُختمُ لك وله ، ولا تَسبَّ من أحدٍ إذا سببتَ إلا فعله لا عينه ، فإن عينك وعينَهُ واحدٌ ، فلا تسبَّ إلا الفعلَ الرديء المذموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الثوم « إنَّهَا شجرةٌ أكرهُ ريحَها »[1] ، فلم ، يَقُلْ : أكرهها ، وإنما قال : « أكرهُ ريحَها » الذي هو بعضُ صفاتها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا يخلو المُنقصُ لأعراضِ الناس عن ثلاثةِ أحوال : إما أن يرىٰ نفسَه أفضلَ منهم ، فهو حينئذ أسوأُ حالاً منهم ، كما وقعَ لإبليسَ مع آدم عليه السلام ، وإما أن يَرىٰ نفسَه مثلَهم ، فما أنكرَ إلا علىٰ حالِ نفسه حقيقة ، وإما أن يرىٰ نفسَه دونَهم ، فلا يليقُ به تنقيصُ من هو خيرٌ منه) .

وسمعته مرَّةً يقول : هـٰؤلاء المُنقصون لأعراضنا فلاحون لنا ، يَزنُونَ لنا الخراج ، فقلتُ له : كيف ؟! فقال : لأنهم يَنقلون في صحائفنا جميعَ أعمالهم الصالحة الخالصة ، وثَمَّ ذنوبٌ لا يُكفِّرُها إلا كلامُ الناس في عرضِ الإنسان .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بحسنِ الاعتقاد ؛ فإنه ربطُ القلب مع الله تعالىٰ بواسطةِ المعتقَدِ فيه ولو كان غيرَ أهلٍ لذلك ؛ فإنَّكم لم تربطوا قلبَكم إلا مع الله تعالىٰ ، لا مع الواسطة ، واللهُ يستحي من طلبِ عبده له أن يَفقدَهُ عندما طلبه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كونوا عبيدَ الله ، لا عبيدَ أنفسكم ، ولا عبيد دِناركم

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل من هـٰذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنَّا في المسجد » فقال الناس : حُرِّمت حُرِّمت ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أيها الناس ؛ إنه ليس بي تحريمُ ما أحلَّ الله لي ؛ ولـٰكنها شجرةٌ أكرَهُ ريحَها » .

ودرهمكم ؛ فإنَّ كلَّ ما تعلَّقَ به خاطرُكم ؛ من محمودٍ أو مذموم أخذ من عبوديَّتِكم بقدرِ حبِّكم له ، وأنتم لم تُخلقوا للكون ، ولا لأنفسكم ، بل خلقَكم له ، فلا تهربوا منه ؛ فإنَّكم حرامٌ علىٰ أنفسكم ، فكيف لا تحرموا علىٰ غيركم ؟!) .

وكان رضي الله عنه يقول : (كفُّوا غضبَكم عمَّن يسيءُ إليكم ؛ لأنَّه مُسلَّطٌ عليكم بإرادة ربِّكم) .

وكان يقول : (افعلوا كلَّ ما أَمركم به الشرعُ إنِ استطعتم ، ولـٰكن من حيث مشروعيَّتِهِ والأمرِ به ، لا من حيث علة أُخرىٰ ، واتركوا العللَ كلَّها في جميع أحوالكم وأعمالكم ، واقطعوا الكلَّ بقوله : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد : ٣٩]) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تَقطعوا بما علمتموه من الكتاب والسنة ، ولو كان حقّاً في نفسه) .

وكان يقول : (لا تركنْ إلىٰ شيءٍ ، ولا تأمنْ نفسَك في شيءٍ ، ولا تأمنْ مكرَ الله لشيءٍ ولا لغير شيءٍ ، ولا تخترْ لنفسِك حالةً تكون عليها ؛ فإنَّك لا تدري أَتصلُ إلىٰ ما اخترته أم لا ، ثم إن وصلتَ إليه فلا تعلمُ أَلك فيه خيرٌ أم لا ، وإنْ لم تصلْ إليه فاشكرِ الذي منعك ؛ فإنَّه لم يمنعك عن بُخلٍ) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا خيَّرَكَ الحقُّ تعالىٰ في شيءٍ فاخترْ عدمَ الاختيار ، ولا تقفْ مع شيءٍ ، ولا ترَ لنفسِك شيئاً ، ولا تحزنْ علىٰ شيءٍ خرجَ عنك ، فإنه لو كان لك ما خرجَ عنك ، ولا تفرحْ قطُّ بما حصلَ لك من أمورِ الدنيا والآخرة دون الله تعالىٰ ؛ فإنَّ ما سوى الله عدم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا نقلَ إليكم أحدٌ كلاماً في عرضكم من أحدٍ فازجروه ، ولو كان من أعزِّ إخوانكم في العادة ، وقولوا له : إنْ كنتَ تعتقدُ هـٰذا الأمر فينا فأنتَ ومَنْ نقلتَ عنه سواءٌ ، بل أنتَ أَسوأُ حالاً ؛ لأنه لم يُسمعنا ذلك ، وأنت أسمعتَهُ لنا ، وإن كنتَ تعتقدُ أنَّ ذلك الأمرَ باطلٌ في حقِّنا ، وبعيدٌ منَّا أن نقع في مثله . . فما فائدةُ نقله لنا) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (لا تتكلَّموا قطُّ مع من فني في التوحيد ؛ فإنه

مغلوبٌ ، وكِلوه لمشيئة الله تعالىٰ ، ولا تَشتغلوا بالإكثارِ من مطالعة كُتب التوحيد ؛ فإنها تُوقفُكُم عمَّا أنتم مَخلوقون له ، فكلٌّ تكلَّمَ بحسب علمه وذوقه) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بحفظِ لسانكم مع أهل الشرع ؛ فإنَّهم بوَّابون لحضرات الأسماء والصفات ، وعليكم بحفظِ قلوبكم من الإنكار علىٰ أحدٍ من الأولياء ؛ فإنهم بوَّابون لحضرةِ الذات[١] ، وإيَّاكم والانتقادَ علىٰ عقائد الأولياء بما علمتموه من أقوال المتكلِّمين ؛ فإنَّ عقائدَ الأولياء مطلقةٌ متجدِّدةٌ في كلِّ آنٍ علىٰ حسب الشؤون الإلـٰهية) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تقربوا من الأولياء إلا بالأدب ولو باسطوكم ؛ فإن قلوبَهم مملوكةٌ ، ونفوسَهم مفقودةٌ ، وعقولَهم غيرُ معقولة ، فيمقتون علىٰ أقلَّ من القليل ، وينفذُ اللهُ مرادَهم فيكم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا صحبتم كاملاً فلا تُؤوِّلوا له كلاماً إلىٰ غيرِ مفهومه الظاهر ؛ فإنَّ الكُمَّل لا يسترون لهم كلاماً ولا حالاً ؛ إذِ التدبيرُ من بقايا تدبير النفس وحفظها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (اسألوا اللهَ العفو والعافية ، وألحُّوا عليه ، ولو كانَ أحدُكم صبوراً) .

وكان رضي الله عنه يقول : (الحقيقةُ والشريعة كفتا الميزان ، وأنت قلبُها[٢] ، فكلُّ كفَّةٍ حصل منك ميلٌ إليها كنتَ لها)[٣] .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بتنظيف باطنكم من الحرص والغلِّ والحقد ، ونحو ذلك ؛ فإنَّ الملكَ لا يرضىٰ أن يسكنَ بجواركم وأنتم علىٰ هـٰذا الحال ، فكيف يسكنُ اللهُ تعالىٰ قلوبَكم ؟! « يا داودُ ؛ طهِّر لي بيتاً أسكنْهُ »)[٤] .

---

(١) في (ب ، د ، هـ ، ح ، ط) : (حضرات الذات) .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « طبقات المناوي » : (وأنت قبُّها) ، وقبُّ الميزان : هو الذي تعلق به الكفتان . « متن اللغة » .

(٣) في (و) زيادة : (وإن ملت إليهما كنتَ حكيم الزمان) .

(٤) أورده ابن عجيبة في « البحر المديد » (٤/ ٦١١) ، وقدم له بقوله : (وفي بعض الأثر) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بإخراج كلِّ ما علقتْ به نفوسُكم ولم تسمحْ بإظهاره ؛ من علمٍ أو حالٍ أو غيرهما ، ولا تتركوا النُّصحَ لإخوانكم ولو ذمُّوكم لأجل ذلك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (عليكم بإصلاح الطعمة ما استطعتم ؛ فإنها أساسُكم الذي يتمُّ لكم به بناءُ دينكم وجميعُ أعمالكم الصالحة ، فإن كنتم متجرِّدين عن الأسباب فاقبلوا كلَّ ما أَرسله الحقُّ تعالىٰ إليكم من غيرِ سؤال ، ما عدا الذهبَ والفضةَ ، والثيابَ الفاخرة ، فإذا بلغَ أحدُكم مبلغَ الرجال عرفَ كلَّ لقمةٍ من أين جاءت ، وعرف من يستحقُّ أكلَها ، كالبنَّاءِ يعرفُ مكانَ كلِّ طوبةٍ يضعها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا غضبَ شيخُك علىٰ أحدٍ فعليك أن تَجتنبه ، فإنْ علمتَ أنَّ غضبَ شيخك لغيرِ الله فأمسكْ عن الاجتناب ؛ كأحوالِ المشايخ القاصرين الآن) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا فاجأك[1] في حالِ الذكرِ شيءٌ من حالٍ أو غيره فلا تدفعْهُ عن نفسك ، ولا تستجلبْ ذلك بجميعِ باطنك وتَفعُّلِكَ ؛ فإن ذلك سوءُ أدب) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا تأنفوا من التعلم ممَّن خصَّه اللهُ تعالىٰ من فضله كائناً من كان ، لا سيما أهلُ الحرفِ النافعة ؛ فإن عندهم من الأدبِ ما لا يوجد عند خصوص الناس) .

وكان يقول : (إياكم أن تُظهروا لكم حالاً أو وصفاً دونَ أن يتولَّى اللهُ ذلك من غير اختياركم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذروا من قربهِ تعالىٰ لكم أن يفتنكُم بالقرب ، مع أنَّه لا خصوصية لكم فيه ، وإذا علمَ أحدُكم ما هو عليه من القُرب فهو بعيدٌ من القربِ ؛ فإنَّ حقيقةَ القرب الغيبةُ بالقرب عن القرب حتىٰ لا تشهدَ حالَك في القرب إلا بعداً ، ولا في العلم إلا جهلاً ، ولا في التواضع إلا كبراً ؛ فإنَّ شهودَ القرب يمنعُ العلم بالقرب ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥]) .

---

(١) في (و) : (جاءك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (احذروا من الاغترارِ بصحبتِهِ لكم أن يَستدرجَكم بحبّكم له ، فيُشغلكم بكم عنه ، وإذا كشفَ لكم عن حقائقكم حسبتُم أنّكم هو ، ومن هنا يقع الاستدراج ، ولا خلاصَ لكم إلا إن شهدتموه به تعالىٰ لا بكم) .

وسئل رضي الله عنه مرةً عن قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ . . . ﴾ الآية [هود : ١١٣] : هل يدخلُ في ذلك الركونُ إلى النفس ؟ فقال رضي الله عنه : نعم .

ثم قال رضي الله عنه : **وإيضاحُ ذلك** : أنَّ هـٰذه الآية أيضاً متضمِّنةٌ لعدم اختيار العباد مع ربِّهم ، ومتضمِّنةٌ أيضاً لمعرفةِ أقرب الطرق إلى الحقِّ ، وهي أصلٌ جامعٌ لجميع الطرق الظاهرة والباطنة ؛ فإنَّ في باطنها الحثَّ على الأمر بالتخلُّق بالمقام الإبراهيمي الذي نحن مكلَّفون باتباعه ؛ وذلك أنَّ الإركانَ صفةٌ من صفات النفس ، والظلمَ أيضاً من صفاتها ، وهي موصوفةٌ بالظلم والإركان في نفسها لاعتمادها علىٰ نفسها ودعواها بأنَّها أفضلُ وأعلمُ من غيرها ولو لم تعلم هي ذلك من نفسها ، ولولا أنَّها موصوفةٌ بالظلم ما ظهرَ عنها قطُّ فعلٌ ولا أمرٌ قبيح ، وهـٰذا أيضاً أقوىٰ دليلٍ علىٰ جهلها بمعرفة نفسها وربِّها حيث لم تسندْ إلىٰ ربِّها جميعَ أفعالها وأقوالها ، وحركاتها وسكناتها الظاهرة والباطنة ، ومعلومٌ : أنَّ الظالمَ لربِّه إنما هو معذَّبٌ في هـٰذه الدار بنارِ نفسه وشهواته ، لا بالنار المحسوسة التي تقعُ له في الدار الآخرة .

وانظر يا أخي إلىٰ إبراهيم ـ عليه السلام وعلىٰ نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام ـ لمَّا لم تؤثِّرْ فيه نارُ الشهوة لم تؤثِّرْ فيه نارُ الحسِّ ، بل وجدَها برداً ؛ لأجل صفةِ البرد الذي في باطنِهِ عليه الصلاة والسلام من حرِّ التدبير المُفضي إلى الشِّركِ الأكبر المُشار إليه بقول لقمانِ لابنه : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

فعلم : أنَّ الظالمَ لحقِّ ربِّه معذَّبٌ بنار البعدِ عنه ، ومتقرِّبٌ إلىٰ هواه الذي جعله معبودَه ووجهته ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] وإنما وصفه هنا بالعلمِ ؛ لأنه لم يتخذْ له إلـٰهاً خارجاً عنه وبعيداً منه ، والإلـٰهُ من شأنه القربُ ، وما ثَمَّ أقربُ إلى الإنسان من نفسِهِ لنفسِه ؛ لأنَّ هواه المعبودَ عالِمٌ بما يظهرُ في سرِّه ونجواه ، بخلاف الإلـه المجعول في الظاهر ؛ فإنه غيرُ عالمٍ بمصالح تلك

النفس وأحوالها ؛ لبعدِهِ وعدمِ علمه ، ومن هنا قالوا : **ألطفُ الأوثان الهوىٰ ، وأكثفُها الحجارة** .

وأيضاً : فإنَّ النفسَ العابدةَ لهواها هي المعبودةُ ؛ لهٰذا فإنَّ صفاتها عابدةٌ لذاتها ؛ ولذلك وقعَ علينا التوبيخُ الإلـٰهي في قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] ، وفي حديث : « منْ عرفَ نفسَهُ عرفَ ربَّهُ »[١] ؛ فإنَّ المعرفة هنا تكرَّرتْ ، وهي لم تقبلْ تكراراً ، والنفسُ والربُّ قَبِلا التكرار ، فاعلم ما تحته تصبِ التحقيقَ إن شاء الله تعالىٰ ، وصلى الله وسلم علىٰ معلمِ الخير ومظهر التوحيد .

وكان رضي الله عنه يقول : (**ثلاثُ مراتب لثلاثةِ رجال** زاحم عليها متصوفةُ زمامنا بغير حقٍّ ؛ وهي : **تلقينُ الذكر للمريدين ، وإلباسهم الخرقةَ ، وإرخاؤهم لهم العذبة**[٢] :

فأما تلقينُ الذكر : فشرطُهُ عندي : أن يُعطيه اللهُ تعالىٰ من القوَّة وكمال الحال ما يمنحُ المريد عند قوله : قل : لا إلـٰه إلا الله . . جميعَ علوم الشرائع المنزلة ؛ إذ هي كلُّها أحكامُ لا إلـٰه إلا الله ، فلا يحتاجُ بعد ذلك المجلس إلىٰ تعليمِ شيءٍ من الشرائع ، كما وقعَ لعليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه ، حتىٰ كان يقولُ : عندي من العلم الذي أَسرَّهُ إليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عند جبريل ولا ميكائيل ، فيقول له ابنُ عباس : كيف ؟! فيقول : إنَّ جبريلَ عليه السلام تخلَّفَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء ، وقال : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ [الصافات : ١٦٤] فلا يدري ما وقعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، هٰذا هو التلقينُ الحقيقي ، ولا يكون إلا لمن اتَّحَدَ بشيخه حتىٰ صارَ كأنَّه هو .

وأمّا إلباسُ الخرقة : فشرطهُ عندي أيضاً : أن يُعطي اللهُ ذلك الشيخَ من القوة ما ينزعُ به عن المريد حالَ قوله له : اخلعْ قميصك أو قلنسوتك مثلاً . . جميعَ الأخلاقَ المذمومة ، فيتعطَّلُ عن استعمال شيءٍ منها إلىٰ أن يموت ذلك المريد ، ثم يخلعُ علىٰ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٨٥) .

(٢) **العذبة** : طرف العِمامة المرسل .

ذلك المريد مع إلباسه تلك الخرقة جميعَ الأخلاق المحمودة التي هي غايةُ درجةِ المريد في علم الله عز وجل ، فلا يحتاجُ ذلك المريدُ بعد إلباسِ شيخه له الخرقةَ إلىٰ علاجِ خُلقٍ من الأخلاق ، فمن لم يُعطه الله تعالىٰ ذلك ففعله كالاستهزاءِ بطريق العارفين .

ولبسَهَا علىٰ هٰذا الشرط سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه من الخضر عليه السلام عند الحجر الأسود ، وأخذ عليه العهدَ بالتسليم لمقامات الشيوخ .

وأمّا إرخاءُ العذبة : فشرطُهُ عندي أيضاً : أن يقدِّرَ اللهُ ذلك الشيخَ علىٰ أن يخلعَ على المريد حالَ إرخائها له سرَّ النمو والزيادة لكلِّ شيءٍ مسَّه ذلك المريد أو نظر إليه ؛ لتكون تلك الزيادةُ المرخاةُ من العمامة علامةً وإشارةً إلى التحقيق لتلك المرتبة من باب التحدُّث بالنعم ، ولمَّا أرخاها معروفُ الكرخي رضي الله عنه للسريِّ السقطي رضي الله عنه سقفَ بيتاً له ، فقصرَتْ خشبةٌ عن الوصول إلى الجدارِ الآخر ، فمطَّها فطالتْ .

ومن قال من متصوفة هٰذا الزمان : ليس ما قلتَهُ في هٰذه الثلاثة الأمورِ شرطاً ؛ لكونه هو عارياً عن تلك الشروط . . فقد أساءَ الظنَّ ، وكذَّبَ بكرامات السلف الصالح ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ﴾ [الأنعام : ٢] : **الأجلُ الأولُ** : هو أجلُ الجسم بموته في الحياة الدنيا ، **والأجلُ المُسمَّىٰ عنده** : هو أجل الروحانية التي خُلقتْ قبلَ الأجسام بألفي عام ؛ فإنَّها مستمرةُ الحياة إلى الصعق الأخروي ، حين تُصعقُ الأرواح ، فتخمد ، وذلك ـ أَعني : خمودَها ـ هو حظُّها من الموت والفناء اللازم لصفةِ الحدث ، فلا تبقىٰ روحٌ علىٰ وجه الأرض ولا في البرزخ إلا ماتتْ ؛ يعني : خمدَتْ .

فقلتُ له : فهل للطائفةِ الذين لا يُصعقون عند النفخة أجلٌ مُسمّىً كذلك يخصُّهم ؟ فقال : ذهب قومٌ إلىٰ أنهم لا يُصعقون أبداً ؛ لأنَّ الله تعالىٰ أنشأهم علىٰ حقائقَ لا تَقبلُ الموت ، والذي نذهب إليه : أنَّهم يموتون ، لٰكنهم اشتغلوا بحضرة الشهود عن سماع النفخة فلم يدركْهم حسُّ النفخةِ ، فلم يُصعقوا إذ ذاك ، ثم إنَّهم يموتون بعد ذلك بأمر الله تحقيقاً لوعده ، وتمييزاً لصفة القِدَمِ عن الحدوث .

قال : وعليه يُحمل قولُه تعالىٰ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر : ١٦] فلا يُجيبه أحدٌ ، وعلىٰ ما ذهبَ إليه غيرُنا يُخصص عدمُ الإجابة بمن صعقَ ؛ يعني : فلا يجيبه أحدٌ ممن صعق ، ويكونُ الاستثناء مُنقطعاً[1] ، وما ذهبنا إليه أَوْلىٰ .

فقلتُ له : فما المرادَ بالصُّور الذي يُنفخ فيه ؟! فقال : المرادُ به الحضرةُ البرزخية التي ننتقلُ إليها بعد الموت ، ونشهدُ نفوسَنا فيها ، وهو المُسمَّىٰ أيضاً بالناقور ، وإنما اختلفتْ عليه الأسماء لاختلافِ الصفات ، فصارت أسماؤه كهو ، فجميعُ أرواح الأجسام الطبيعية والعنصرية التي قبضَها الله تعالىٰ مودعةٌ في صور جسديةٍ في مجموع الصُّور المكنَّىٰ عنه بالقرن ، وجميعُ ما يدركُهُ الإنسانُ بعد الموت في البرزخ من الأمورِ إنَّما يُدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ رؤيا هي صادقة ، وإذا أخطأتِ الرؤيةُ فالمرادُ أنَّ مَنْ عبَّرها هو المخطئ حيث لم يعرفْ ما المُرادُ بتلك الصورة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجلِ الذي رأىٰ في منامِهِ كأنَّه ضُربت عنقُه : « إنَّ الشيطانَ لعبَ بكَ » ، وما قال له : خيالُكَ فاسد ، فالخيالُ كلُّه صحيح عند المحقِّق والسلام) .

وكان رضي الله عنه يقول : (من صفَّىٰ جوهرةَ نفسه علمَ أنَّ الحياة إنما هي لعين الجوهر ، وعلمَ أنَّ الموتَ إنَّما هو لتبدُّل الصور ، وحينئذ يشهدُ موتَه كلا موت ؛ فالشهيدُ المقتولُ في سبيل الله ينقلُه اللهُ تعالىٰ إلى البرزخ لا عن موتٍ ، فهو مقتولٌ لا ميت ، ومن هنا قالوا : العارفون لا يموتون ، وإنما يُنقلون من دارٍ إلىٰ دار ؛ لأنهم أماتوا نفوسَهم في دار الدنيا بالمجاهدة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقولُ : « منْ أرادَ أن ينظرَ إلىٰ ميتٍ يمشِي علىٰ وجهِ الأرضِ ، فلينظرْ إلىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ »)[2] .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا بدَّ للموتِ من الموت ؛ لأنه مَخلوقٌ ، قال الله

---

(١) **الاستثناء المنقطع** : هو الذي لا صلة له بجنس ما قبله ؛ نحو : (وصل المسافرون إلا أمتعتهم) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والذي وردت في حقه هو طلحة بن عبد الله رضي الله عنه .

تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك : ٢] ولـٰكنَّ موتَه في الظاهر حياتُهُ في الباطن ، والمتولِّي لقبضِ روحه الحياة الأبدية التي مظهرُها يحيىٰ عليه السلام ، كما ورد : « إنَّ الموتَ يمثلُ في صورةِ كبشٍ ، ويَذبحُهُ يحيىٰ عليهِ السلامُ »[١] بشارةً لأهلِ الجنة بالحياة التي لا موتَ بعدها) .

وكان رضي الله عنه يقول : (موازينُ الآخرة تُدرك بحاسَّة البصر كموازين أهل الدنيا ، لـٰكنها ممثَّلةٌ غيرُ محسوسة عكس الدنيا ، فهي كتمثُّلِ الأعمال سواء ؛ فإنَّ الأعمال في الدنيا أعراضٌ ، وفي الآخرة تكونُ أشخاصاً ، وانظرْ إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « يُؤتَىٰ بالموتِ في صورةِ كبشٍ »[٢] ، ولم يقلْ : يؤتىٰ به كبشاً ؛ لأنَّ الحقائقَ لا تنقلب ، فإذا وضعتِ الموازينُ لوزن الأعمال جُعلتْ فيها كتبُ الخلائقِ الحاويةُ لجميع أعمالهم ، لـٰكنْ أعمالُهم الظاهرة دون الباطنة ؛ لأنَّ الأعمال الباطنة لا تدخلُ الميزانَ المحسوس ، لـٰكن يقامُ فيها العدل ، وهو الميزانُ الحكمي المعنوي ، فمحسوسٌ لمحسوسٍ ، ومعنىً لمعنىً ، يُقابلُ كلٌّ بمثله ، وآخر ما يُوضع في الميزان قولُ العبد : (الحمد لله) ، ولهـٰذا ورد : « والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ »[٣] وإنَّما لم تكنْ (لا إلـٰه إلا الله) تملأُ الميزان كالحمدِ لله ؛ لأنَّ كلَّ عملِ خيرٍ له مقابلٌ من ضدِّه ؛ ليحصلَ هـٰذا الخير في موازينه ، ولا يقابل (لا إلـٰه إلا الله) إلا الشركُ ، ولا يجتمعُ توحيدٌ وشركٌ في ميزانٍ واحد ، بخلاف المعاصي غير الشرك ؛ إذِ العاصي لم يخرجْ عن الإسلام بمعصيته .

وإيضاحُ ما قلناه : أنَّ الإنسانَ إن كان يقول : (لا إلـٰه إلا الله) مُعتقداً لها فما

---

(١) أخرج صدر الحديث البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩/ ٤٠) ، ولفظة (ويذبحه يحيىٰ عليه السلام) ، أوردها القرطبي في « التذكرة » (ص ٩٢٨) نقلاً عن صاحب « خلع النعلين » .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩/ ٤٠) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) روىٰ مسلم (٢٢٣) ، عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » .

أشركَ ، وإنْ أشركَ فما اعتقد (لا إلـه إلا الله) فلمّا لم يصحَّ الجمعُ بينهما لم تدخلْ (لا إلـه إلا الله) الميزانَ ؛ لعدم ما يُعادلها في الكفَّة الأخرىٰ ، وإنَّما دخلتْ (لا إلـه إلا الله) ميزانَ صاحب السِّجلات التسعة والتسعين من السيئات ؛ لأنَّ صاحبَ السجلات كان يقول : (لا إلـه إلا الله) مُعتقداً لها ، إلا أنه لم يعملْ معها خيراً قطُّ ، فكان وضعُ (لا إلـه إلا الله) في مقابلةِ التسعة والتسعين سجلاً من السيئات ، فترجَحُ كفةُ (لا إلـه إلا الله) بالجميع ، وتطيشُ السِّجلات ، فلا يثقلُ مع اسم الله شيءٌ)[1] .

وكان رضي الله عنه يقول : لا نورَ للصراط في نفسه ؛ لأنه منصوبٌ علىٰ ظهر جهنم ، وهي مظلمةٌ ، وإنما النورُ الذي يكون على الصراط من نور الماشين عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ [الحديد : ١٢] فقلتُ له : لِمَ لم يقلْ تعالىٰ : (وبشمائلهم) ؟ فقال رضي الله عنه : لأن المؤمنَ في الآخرة لا شمالَ له ، كما أنَّ أهلَ النار لا يمينَ لهم .

وكان رضي الله عنه يقول : (ثَمَّ مَنْ تشتاقُ إليه الجنةُ كما يشتاقُ إليها ، وهم المُطيعون ، وثَمَّ مَنْ لا تشتاقُ إليه الجنة ، وهم يَشتاقون إليها ، وهم عصاةُ المؤمنين ، وثَمَّ من تشتاقُ إليه الجنة ، وهو لا يَشتاقها ، وهم أربابُ الأحوال ، وثَمَّ من لا تشتاقُ إليه الجنة ، ولا يَشتاق هو إليها ، وهم المكذِّبون بيوم الدين ، والقائلون بنفي الجنة المحسوسة) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يقعُ التمنِّي في الجنة لأهلِها ، فيتنعَّمون بذلك أشدَّ التنعُّم ؛ وذلك لأنَّه تمنٍّ محقَّقٌ ؛ لوجود ما يتمنَّاه حالَ التمنِّي ، فلا يتوهَّمُ أحدٌ من أهل الجنة نعيماً فوقَ نعيمه أو يتمناه إلا حصلَ له بحسب ما توهَّمه ؛ إنْ توهَّمه معنًىٰ كان معنًىٰ ، وإن توهَّمَهُ حسّاً كان حسّاً) .

وسئل رحمه الله تعالىٰ عن المُراد بقوله تعالىٰ في فاكهة الجنة : ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٣] : هل المرادُ لا مقطوعة صيفاً ولا شتاءً ، أو أنها لا تقطع حين

---

(١) حديث رواه الترمذي (٢٦٣٩) عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .

تقطف ؟ فقال رضي الله عنه : جميعُ فاكهة الجنة تُؤكلُ من غير قطعٍ ؛ فمعنىٰ : (لا مقطوعة) : أنها لا تُقطعُ حالَ القطع ، بل يقطفُ الإنسانُ ويأكل من غيرِ قطعٍ ؛ فالأكلُ موجود ، والعينُ باقيةٌ في غصن الشجرة ، هـٰذا ما أعطاه الكشفُ ، فعين ما يأكله هو عين ما يشهدُهُ في غصن الشجرة ، والله أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : (الذي عليه المحقِّقون : أنَّ أجسامَ أهل الجنة تَنطوي في أرواحهم ، فتكونُ الأرواحُ ظروفاً للأجسام ، بعكس ما كانتْ في الدنيا ، فيكون الظهورُ والحكمُ في الدار الآخرة للروحِ لا للجسم ؛ ولهـٰذا يتحوَّلون في أيِّ صورةٍ شاؤوا كما هم اليومَ عندنا الملائكة ، وعالم الأرواح) .

وكان رضي الله عنه يقول : (يتناسلُ أهلُ الجنة فيها إذا شاؤوا ، فيجامعُ الرجلُ زوجته الآدمية أو الحوراء ، فيُوجِدُ اللهُ تعالىٰ عند كلِّ دفعةٍ ولداً ؛ وذلك لأنَّ الله تعالىٰ جعلَ النوعَ الإنساني غيرَ متناهي الأشخاص دنيا وأُخرىٰ ؛ لشرفه عنده) .

وكان رضي الله عنه يقول : (ليس لأهلِ الجنة دبرٌ مُطلقاً ، لا للرجل ولا للمرأة ؛ لأنَّ الله تعالىٰ إنَّما جعلَ الدُّبرَ في دار الدنيا مخرجاً للغائط ، ولا غائطَ هناك ، وإنما يخرجُ الأكلُ والشربُ رشحاً من أبدانهم ، ولولا أنَّ ذَكَرَ الرجل وقُبُلَ المرأة محتاجٌ إليهما في جماع أهل الجنة ما كانا وجدا في الجنة ، لعدمِ البول هناك) .

وكان رضي الله عنه يقول : (لذَّةُ جماعِ أهل الجنة تكونُ من خروج الريح ، لا من خروج المنيِّ ؛ إذ لا منيَّ هناك ، فيخرجُ من كلِّ الزوجين ريحٌ مثيرةٌ كرائحة المسك ، فتلقىٰ في الرحم فتتكوَّنُ من حينه فيها ولداً ، وتكمل نشأته ما بين الدفعتين ، فيخرج ولداً مصوَّراً مع النَّفَسِ الخارج من المرأة ، ويشاهدُ الأبوان كلَّ مَنْ ولد لهما من ذلك النكاح في كلِّ دفعةٍ ، ثم يذهبُ ذلك الولد ، فلا يعودُ إليهما أبداً كالملائكة المتطوِّرين من أنفاسِ بني آدم في دار الدنيا ، وكالملائكة الذين يدخلون البيتَ المعمور[1] ، ثم إنَّ

---

(١) ورد في حديث الإسراء الذي رواه البخاري (٣٢٠٧) ، و(٣٥٧٠) ومسلم (١٦٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : « فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، فإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » .

هـٰؤلاء الأولاد ليس لهم حظٌّ في النعيم المحسوس ولا المعنوي ، إنما نعيمُهم برزخيٌّ كنعيم صاحب الرؤيا) .

وكان رضي الله عنه يقول : (تتوالد الأرواحُ مع الأرواح في الجنة ، فينكح الوليُّ من حيث روحُهُ زوجتَه من حيث روحُها ، فيتولَّد بينهما أولادٌ روحانيون بأجسامٍ وصورٍ محسوسات) .

وكان يقول : (شجرةُ طوبىٰ في منزلِ الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي حجابُ مظهر نورِ فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، فما من جنَّة ولا درجة ولا بيتٍ ولا مكان إلا وفيه فرعٌ من شجرة طُوبىٰ ؛ وذلك ليكونَ سرُّ نعيم كلِّ درجةٍ ونصيبُ كلِّ وليٍّ فيها من نورانية فاطمة في حجاب ذلك الفرع) .

وكان رضي الله عنه يقول في قوله تعالىٰ : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد : ٣٥] : (**معناه** : أنَّ الأُكلَ لا ينقطعُ عنهم متىٰ طلبوه ، لا أنهم يأكلون دائماً ؛ فالدوامُ في الأكلِ هو عينُ النعيم بما به يكون الغذاء للجسم ؛ فإذا أكلَ الإنسانُ حتىٰ شبعَ فليس ذلك بغذاء ، ولا بأكل على الحقيقة ، وإنَّما هو كالجابي الجامعِ للمال في خزانته ، والمَعِدَةُ جامعةٌ لما جمعه هـٰذا الآكل من الأطعمة والأشربة ، فإذا اختزنَ ذلك في معدته ، ورفع يدَه . . فحينئذ تتولاَّه الطبيعة بالتدبير ، وينتقلُ ذلك الطعامُ من حالٍ إلىٰ حال ، ويغذِّيه بها في كلِّ نَفَسٍ ، فهو لا يزالُ في غذاءٍ دائم ، ولولا ذلك لبطلتِ الحكمةُ في ترتيب نشأةِ كلِّ متغذٍّ ، ثم إذا خلتِ الخزانةُ من الأكل حرَّكَ الطبعُ الجابي إلىٰ تحصيل ما يملؤها به ، وهـٰكذا على الدوام . هـٰذا معنىٰ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾) .

وسمعته يقول : (الناسُ في رؤية ربِّهم عز وجل علىٰ أقسام : منهم من يراهُ بباصر العين فقط ، ومنهم من يَراه بكلِّها ، ومنهم من يراه بجميع وجهه ، ومنهم من يَراه بجميعِ جسده ، وهم الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام ومَنْ ورثَهم ، جعلنا الله تعالىٰ منهم بمنِّه وكرمه ، آمين) .

وفي هـٰذا القدر كفايةٌ من كلامه رضي الله عنه ، والحمد لله ربِّ العالمين .

ومنهم :

(٤٠٩) الشيخ ناصر الدين النحاس رضي الله عنه[١]

صحبتُه نحو خمسَ عشرةَ سنة .

كان من رجال الله المستورين .

وكان علىٰ قدم التعبِ لا يُذيقُ نفسَه راحةً ولا شهوةً .

وكان يذهبُ كلَّ يومٍ إلى المذبح يأتي بكروش البهائم ، وطحالاتها ، وشغتها في قفةٍ عظيمةٍ علىٰ رأسه يُطعمها للكلاب العاجزين والقطط والحدادي والغربان ، وكانت دارُهُ مأواهم في غالب الأوقات .

ورأيتُ حداية عجوزة مقيمةً في داره يوم موتِهِ ، فلما غسَّلناه وحملناه خرجتْ معه طائرةً علىٰ نعشه حتىٰ دفناه في زاويةِ الشيخ علي الخوَّاص رضي الله عنه خارجَ باب الفتوح بمصر المحروسة .

وسافر على التجريدِ من مصر ماشياً من غيرِ زادٍ ولا راحلة ، ولا قبولِ شيءٍ من أحدٍ إلىٰ الحج .

وأخبرني بموت أخي أفضلِ الدين رحمه الله يومَ مات ، وقال : مات أخونا أفضلُ الدين في هٰذا اليوم ، وغداً يُدفنُ ببدرٍ ، فلما جاءَ الحُجَّاج أخبرونا أنَّه ماتَ قبل دخولِ بدرٍ بمرحلة ، وحُمل إلىٰ بدرٍ ، ودُفن بها رضي الله عنه بجوار قبورِ الشهداء .

وكراماته كثيرةٌ ، ولٰكنَّا تركنا ذكرها ؛ لكونه كان يحبُّ الخمول وعدمَ الشهرة .

مات سنة خمسٍ وأربعين وتسع مئة ، رضي الله عنه ورحمنا به .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٦٦) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢٥٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٧٥) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٣٩) (٤٨٢) .

ومنهم :

(٤١٠) الشيخ الكامل العارف بالله تعالىٰ سيدي علي الكازواني[١]

أحدُ أصحاب سيدي علي بن ميمون شيخِ سيدي محمد بن عِراق رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه كثيرَ المجاهدة والرياضة .

أخبرني رضي الله عنه : أنه ربَّما يمكثُ الخمسة شهور وأكثر لا يضعُ جنبَهُ بالأرض لا ليلاً ولا نهاراً .

صحبتُهُ مدَّةَ إقامتي للحجِّ بمكة المشرفة نحو عشرين يوماً سنة سبع وأربعين وتسع مئة ، وكذلك في حجَّتي سنة ثلاثٍ وخمسين وتسع مئة مدَّة الموسم ، وانتفعتُ بكلامه وإشاراته ومواعظه ، ودقائقه في علم التوحيد .

وله رسائلُ نافعةٌ في الطريق ، أطلعني علىٰ بعضها .

وكان ذا تمكينٍ ومحبة لسترِ مقامه بين الناس ، حتىٰ إن أهلَ مكةَ غالبَهم يُنكر عليه ، ويقولُ : هـٰذا رجلٌ محبٌّ للدنيا ، وسببُ ذلك : ما أسرَّهُ إليَّ وقال لي : هـٰذه بلدُ الله ، وحضرتُهُ الخاصة ، وكلُّ من تظاهرَ فيها بصلاحٍ أقبل عليه الناسُ ، وشغلوه عن ربِّه عز وجل ، فلما دخلتُ مكَّةَ علىٰ حالتي التي كنتُ عليها في الشام اعتقدوني وأقبلوا عليَّ ، فتظاهرتُ بحبِّ الدنيا ، وسؤالي لهم من الصدقات ، فنفروا عنِّي ، فاسترحت ، رضي الله عنه .

ومن كلامه رضي الله عنه : (**الإرشادُ** علىٰ ثلاثة أقسام :

إرشادُ العوام إلىٰ معرفةِ ما يجبُ على المكلَّفِ معرفته من الحدود والأحكام ؛ من فروضِ العين والكفاية .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤١٢ ، ٤/ ٦٤٥) (الكازواني) ، و« الشقائق النعمانية » (ص ٣٢٥) (الكازرواني) ، و« درر الحبب » (١/ ٢/ ٩٠٦) ، و« ريحانة الألبا » (١/ ٤٤١) (الكيزواني) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢٠١) (الكيزواني) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٤٠) (الكيزواني) ، و« بروكلمان » (٨/ ٢٥١) (الكِزْواني) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٤٩) (٤٢٧) .

وإرشادُ **الخواصِّ** إلىٰ معرفة النفسِ ؛ وهو معرفةُ الداء والدواء فيما يردُ على النفس وعلى الضمائر من الخواطر .

وإرشادُ **خواصِّ الخواصِّ** ؛ وهو معرفةُ ما يجبُ لله ، وما يجوز ، وما يستحيل ، وتنزيهُ صفاته وأسمائه وذاته وأفعاله) .

وقال رضي الله عنه : (الطريقُ إلى الله كمالُ الشهود ، ولزوم الحدود) .

وقال : (من ثبتَتْ له الاستقامةُ فقد أُذِنَ له في الكلام) .

وقال : (الوقوفُ مع المظاهر حجابٌ ظاهر ، والترقِّي عن المظاهر كشفٌ ظاهر) .

وقال : (من صدَّقَ ما يُقال فيه من المذموم فقد سلك ، ومن صدَّقَ ما يُقال فيه من المحمود فقد هلك) .

وقال : (من كان مجاهداً فحقيقٌ أن يكون مشاهداً) .

وقال : (من صدقَ في طلب الله لم يُبالِ بترك ما سواه ، ومن بالغ في مدحِ نفسه فقد بالغَ في ذمِّ غيره ومن بالغَ في ذمِّ غيره فقد بالغ في مدح نفسه) .

وكان يقول : (فسقُ العارفِ[1] في نهايته أن يتوسَّع وينعِّمَ نفسَه بالمُباح فوق الكفاية) .

وكان يقول : (من نفىٰ فقد أثبت ، ومن أثبتَ فقد نفىٰ ، ومن أثبت ونفىٰ ثبت) .

وكان يقول : (الذكر على أقسام : ذكرٌ منك إليه ، وذكرٌ منه إليك ، وذكرٌ منه إليه لا منك ولا إليك) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ كمالَ الطريقة بغيرِ أدبِ الشريعة فلا برهانَ له ، ومن ادَّعىٰ وجودَ الحقيقة بغيرِ كمالِ آداب الطريقة فلا برهانَ له) .

وكان يقول : (من زهدَ في فضول الثياب كانَ من الأحباب) .

---

(١) في (ح) وحدها : (قسوة) بدل (فسق) .

وكان يقول : (إذا طلعتْ شمسُ المعرفة علىٰ وجود العارف لم يبق نجومٌ ولا قمر ، وإن وُجِدَ الأثر) .

وكان يقول : (من ترقَّىٰ عن الخواطر الشيطانية قطعَ حُجب العنصر الناري ، ومن ترقَّىٰ عن الخواطر النفسانية قطعَ حُجب العنصر الترابي ، ومن أدَّى الطاعةَ وأخلصَ فيها ، ولم يقفْ مع حظوظِ نفسه فيها . . قطعَ حجبَ العنصر المائي ، ومن عرفَ الله في كلِّ شيءٍ ، وبكلِّ شيءٍ ، وعند كلِّ شيءٍ ، ولم يقف مع شيءٍ . . قطعَ حجب الهوائي ، ومن ترقَّىٰ عن الحجب النورانية فقد ترقَّىٰ عن ملاحظة روحه القائمِ بصورته الجثمانية) .

وكان يقول : (من تفقَّه ولم يتصوَّفْ فقد تفسَّق ، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق ، ومن تفقَّه وتصوف فقد تحقَّق)(١) .

وكان يقول : (كلُّ ما أخفي عن المظاهرِ ظهرَ إشراقُهُ في الباطن) .

وكان يقول : (إذا تجاهلَ العارفُ قويَ في الإخلاص ، وسلم من القواطع)(٢) .

وكان يقول : (من غلبَ نفسَه فلا غالبَ له ، ومن غلبَتْهُ نفسُه غلبَهُ كلُّ أحد) .

وكان يقول : (الفرقُ المجرَّدُ شرك خفي ، والجمعُ المجرَّدُ جحودٌ جلي ، وشهودُ الجمع في الفرقِ كمالٌ عليٌّ) .

وكان يقول : (البعيد في عينِ القرب ، والقريبُ في عين البعد ، وأجرِ القياسَ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وكان يقول : (في باطنِ الزهدِ طمعٌ ، وفي باطن الطمعِ زهد ، وفي باطنِ الكِبر تواضعٌ ، وفي باطنِ التَّواضعِ كبر ، وفي باطنِ الفقر غنىً ، وفي باطنِ الغنىٰ فقر ، وفي باطن العزِّ ذلٌّ ، وفي باطن الذلِّ عزٌّ ، وفي باطن الإيمانِ بالله كفرٌ بغيره ، وفي باطن الكُفرِ بغيره إيمانٌ به ، وأَجرِ القياسَ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ .

---

(١) وقد قال قريباً من هـٰذه القولة أبو بكر محمد الوراق . انظر (١/ ٣٥٢) .

(٢) في (ب ، د ، هـ ، ط) : (والسلامة من القواطع) .

فكـنْ كـافـرْ وكـنْ مـؤمـنْ ولا مـؤمـنْ ولا كـافـرْ
وكـنْ بـاطـنْ وكـنْ ظـاهـرْ ولا بـاطـنْ ولا ظـاهـرْ
وكـنْ أولْ وكـنْ آخـرْ ولا أَولْ ولا آخـرْ
وكـنْ حـامـدْ وكـنْ شـاكـرْ ولا حـامـدْ ولا شـاكـرْ[١]

قلت : معناه : الفناءُ عن شهود الكمالات علىٰ سبيل الافتخار ، والله أعلم :

[من مخلع البسيط]

القصـدُ رمـزٌ فكـنْ ذكيّـاً والـرَّسـمُ ستـر علـى الأشـائـرِ
فلا تَقفْ معَ حروفِ رسمي كـلُّ المظـاهـرِ لنَـا ستـائـر

وكان يقول : (كلُّ مقامٍ أو كلُّ معنىً يتعسَّرُ على السالك فإنَّما هو لبقيَّةٍ في وجوده ، ومن الإلباس أن يسألَ عن ذلك المقام ، أو يكرِّرَ فيه النظر الفكري ، فإنْ أراد أن يتَّضحَ له المعنىٰ من غيرِ طلبٍ فليجتهدْ في إزالة تلك البقية) .

وكان يقول : (الهواءُ إذا مرَّ على الجيفة حملَ رائحتها ، وإذا مرَّ على المِسك حملَ رائحته ، وكذلك الماءُ يكتسبُ قيداً بواسطة مقرِّه أو ممرِّه ، فافهم) .

وكان يقول : (إنما خُلقَ الإنسانُ أولاً في أحسن تقويم ؛ لأنه كان عند الفطرةِ بلا شهوة ، فلما ابتُلي بالشهوات رُدَّ إلىٰ أسفل سافلين) .

وكان يقول : (من نظرَ بعين الجمع كانتْ له الحقائقُ والأسرارُ أفلاكاً ، ومَنْ نظر بعين الفرقِ كانتِ المظاهرُ له أشراكاً ، ومن عرفَ الواحدَ عند كلِّ موجودٍ في كلِّ زمانٍ فقد هُدي إلىٰ صراطٍ مستقيم) .

وكان يقول : (الحجابُ بصورةِ الفعل عن ملاحظةِ الفاعل ولو بقدرِ نَفَسٍ واحد جحودٌ خفي ، وأجرِ القياسَ علىٰ سائر الحواس) .

وكان يقول : (الوقوفُ مع صورةِ الشيءِ من كلِّ وجهٍ شركٌ خفي ، والإعراضُ عن

---

(١) الأبيات من (الهزج) .

الشيءِ من كلٍّ وجهٍ جحودٌ خفي ، فانفِ ولا تنف ، وأثبتْ ولا تثبت ، آه آه آه) .

وكان يقـول : (الكمالُ في شهود الجمع إعطاءُ كلٍّ ذي حـقٍّ حقَّه في مقام الفرق) .

وكان يقول : (كلُّ ذرَّةٍ من الوجود معراجٌ ، والمربِّي جبريل السالك) .

انتهىٰ كلامه رضي الله عنه .

ماتَ سنة خمس وخمسين وتسع مئة ، ودفن بمكة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١١) الشيخ الإمام الكامل الراسخ سيدي محمد الجاولي(١)

الأمينُ على الأسرار ، العارف بالله تعالىٰ والداعي إليه ، الوارثُ الرباني النوراني الفرقاني العياني ، ذو المؤلفات الجليلة ، والصفات الحميدة ، والألفاظ الرشيقة ، والمعاني الدقيقة ، من شاعَ علمُهُ في أقاليم مصر وذاع .

ومَنْ كراماته وصفاته قد شرفَتِ البقاع ، ومن يكلُّ لسانُ واصفه في بيان أوصافه الزكية ، وشيمه المرضية ، رضي الله عنه .

صحبته رضي الله عنه مدَّةً ، فما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه ، بل تربَّىٰ في حِجر الأولياء علىٰ وجه اللطف والدلال ، كما قال الأستاذ سيِّدي علي بنُ وفا رضي الله عنه : [من مخلع البسيط]

فمَـــا عـــرفْنَـــا ولا ألفنَـــا ... ســوى المـــوافـــاةِ والـــوصـــالِ

مات بمكة سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه ، آمين .

---

(١) انظر « الخطط التوفيقية » (١٠/١١٥) ، **والجاولي** : نسبة إلىٰ جاولىٰ ؛ بلدة من مديرية أسيوط بقسم منفلوط في غربي البحر الأعظم .

ومنهم :

(٤١٢) شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الإمامُ الصالح الورع الزاهد شمس الدين الديروطي ثم الدِّمياطي الواعظ رضي الله عنه[1]

كان في الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري .

كان رضي الله عنه مُهاباً عند الملوك والأمراء ومَنْ دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صائماً قائماً ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

وقد حضرتُ مجلس وعظه في الجامع الأزهر مرات ، فرأيتُهُ مجلساً تفيضُ فيه العيون .

وكان إذا تكلَّم أنصتوا بأجمعهم .

وكان يحضرُه أكابر الدولة وأمراءُ الألوف ، فكان كلُّ واحدٍ يقومُ من مجلسه متخشِّعاً صغيراً ذليلاً ، رضي الله عنه .

وكان إذا مرَّ في شوارع مصر يتزاحمُ الناسُ علىٰ رؤيته ، وكان من لم يحصِّلْ ثوبَه رمىٰ بردائه من بعيدٍ علىٰ ثيابه ، ثم يأخذُ رداءه فيمسح به علىٰ وجهِهِ ، رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يختفي إذا شاء في بيته أو غيره .

وذكرتْ والدتُه أنها كانت تضعُ له ما يأكلُ وما يشرب ، فيأكله وهي لا تراه ، إنَّما تسمعُ كلامَه فقط .

وكان شجاعاً مقداماً في كلِّ أمرٍ مُهمٍّ .

وخرج عليه مرَّةً قطاعُ الطريق وهو في بحر دمياط ، فخاف أهلُ المركب ، فقال لهم

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٥٢) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٨٤) (الضيروطي) ، و« إيضاح المكنون » (٢/ ٢٠٥) ، و« هدية العارفين » (٢/ ٢٢٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٤) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٥٣) (٤٢٨) ، والديروطي : نسبة إلىٰ ديروط ؛ قرية قديمة كانت ضمن نواحي الإسكندرية ، ثم ألحقت بمركز المحمودية . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ٢٧٠) .

الشيخ : لا تَخافوا ، ثم أشارَ إليها فتسمَّرَتْ في الماء ، فلم يقدروا أن يُحرِّكوها ، فاستغفروا وتابوا ، وقالوا للريس : من معك ؟ فقال : الشيخ شمس الدين الدمياطي ، فقالوا : أخبروه أنَّا تبنا إلى الله تعالىٰ ، فقال : ميلوا إلىٰ جانبِ البر وأنتم تخلصون ، فمالوا فخلصوا ، رضي الله عنه .

وحطَّ مرَّةً على السلطان الغوري في تركه الجهاد ، فأرسلَ السُّلطانُ خلفه ، فلمَّا وصلَ إلىٰ مجلسه قالَ للسُّلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فلم يردَّ السلطان عليه ، فقال : إنْ لم تردَّ السلامَ فسقت وعزلت ، فقال : وعليكم السلام ورحمةُ الله وبركاته .

ثم قال : علامَ تحطُّ علينا بين الناس في ترك الجهاد وليس لنا مراكبُ نُجاهد فيها ؟! فقال : عندك المالُ الذي تعمِّرُ به ، فطال بينهما الكلام ، فقال الشيخ للسلطان : قد نسيتَ نعمَ الله عليك وقابلتها بالعصيان ؟! أما تذكرُ حين كنتَ نصرانياً ثم أسروك ، وباعوك من يدٍ إلىٰ يدٍ ، ثم منَّ اللهُ عليك بالحرية والإسلام ، ورقَّاكَ إلىٰ أن صرتَ سُلطاناً على الخلق ؟! وعن قريبٍ يأتيك المرضُ الذي لا ينجعُ فيه طبٌّ ، ثم تموت وتكفَّنُ ، ويحفرون لك قبراً مُظلماً ، ثم يُدسُّ أنفُك في هـٰذا التراب ، ثم تُبعث عُرياناً عطشاناً جيعان ، ثم تُوقفُ بين يدي الحَكَم العدل ، الذي لا يَظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، ثم يُنادي المنادي : من كان له حقٌّ أو مَظلمةٌ على الغوري فليحضرْ ، فيحضر خلائقُ لا يعلمُ عدَّتَها إلا اللهُ تعالىٰ ، فتغيَّرَ وجهُ السلطان من كلامه ، فقال كاتب السرِّ وجماعةُ السلطان : الفاتحة يا سيدي الشيخ ؛ خوفاً على السلطان أن يختلَّ عقلُهُ .

فلما ولَّى الشيخُ وأفاق السلطانُ ، قال : ائتوني بالشيخ ، فعرضَ عليه عشرةَ آلاف دينار يَستعينُ بها علىٰ بناء البرجِ الذي في دمياط ، فردَّها عليه وقال : أنا رجلٌ ذو مال لا أحتاجُ إلىٰ مساعدةِ أحدٍ ، ولـٰكنْ إن كنتَ أنت مُحتاجاً أقرضتُكَ ، وصبرتُ عليك ، فما رُئي أعزُّ من الشيخ في ذلك المجلس ولا أذلُّ من السلطان فيه ، هـٰكذا كان العلماءُ العاملون .

وقد صرفَ علىٰ عمارةِ البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ، ولم يساعدْهُ فيها أحدٌ ، إنما كان يعقدُ الأشربة ، ويتاجرُ في الخيار شنبر ونحوه[1] ، رضي الله عنه ، ولم

---

(١) خيار شَنْبَر : شجر معروف ، وهو ضربٌ من الخَرُّوب ، والخَرُّوب : شجر مثمر من الفصيلة القرنية ، ثماره قرون تؤكل وتعلفها الماشية .

يأخذ قطُّ معلومَ وظيفةٍ من وظائف الفقهاء .

وكان ينفِّرُ طلبته من أكل أوقافِ الناس وقبول صدقاتهم ، ويُخبرهم أنَّها تُسوِّدُ وجهَ قلوبهم ، رضي الله عنه .

وله من المصنَّفات « شرح منهاج النووي » في الفقه ، و« شرح الستين مسألة »[1] ، و« كتاب القاموس » في الفقه ، وشرح قطعة من « الإرشاد » لابن المُقري[2] ، رضي الله عنه .

وكان مُتواضعاً مع مَنْ قرأَ عليهم القرآن وهو صغير ، ولم يصدَّه ما وصلَ إليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك .

ولقد رأيتُهُ مرةً راكباً ، فنزل وقبَّل يدَ أعمىٰ تقوده ابنته ، فقلتُ له : من هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا أَقْرأَني وأنا صغير حزبين من القرآن رضي الله عنه ، فما أقدرُ قطُّ أن أمرَّ عليه وأنا راكبٌ .

وأخبر زوجتَه أن ولدها حمزة يُقتلُ شهيداً ، وأنه يأتيه مدفعٌ فتطير رأسُه معه ، فكان كما قال .

وأخبر أن ولده سريّاً يعيش صالحاً ، ويموتُ علىٰ ذلك .

ولما حضرته الوفاةُ أخبرَ والدته أنَّه يموتُ في تلك الرقدة ، فقالت له : من أين لك علمُ هـٰذا ؟! فقال : أخبرني بذلك الخضرُ عليه السلام ، فكان كما قال .

وكانتْ والدتُه تُخبر أنَّها لما حملتْ به رأتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وأعطاها كتاباً ، فكانَ الكتابُ هو الشيخ .

وأخبرني ولدُهُ سيِّدي سريٌّ فسَحَ اللهُ في أَجَلِهِ : أنَّ والدتَهُ رأتِ الشيخَ بعد مماته ،

---

(١) **مسألة الستين ، أو الستين مسألة** : تأليف أحمد الزاهد توفي سنة (٨٢٠هـ) ، وتسمىٰ أيضاً مقدمة الزاهد في الفقه ، طبعت في مكة وإستنبول . انظر « تاريخ بروكلمان » (٦/ ٣٧٨) .

(٢) **الإرشاد** : في فروع الشافعية ، لإسماعيل بن أبي بكر المُقري اليمني المتوفىٰ سنة (٨٣٦هـ) اختصر فيه « الحاوي الصغير » للقزويني . انظر « كشف الظنون » (١/ ٦٩) .

فقالت له : ما وقعَ لك مع منكر ونكير ؟ فقال : كلَّمونا بكلامٍ مليح ، وأجبناهم بجوابٍ فصيح .

توفي رضي الله عنه في ربيعٍ الأول سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة ، وله من العمر نيّفٌ وخمسون سنة ، رضي الله عنه ، ودُفِنَ بزاويته بدمياط ، ودُفِنَ عنده الأخِ العزيز العارف بالله تعالىٰ سيدي أبي العباس الحُرَيْثي رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١٣) الأخ الصالح الشيخ محمد السَّنْدَفاوي المحلي رضي الله عنه[1]

كان شاباً صوَّاماً قوَّاماً ، قليلَ الكلام ، حسنَ السمت ، كريمَ النفس ، يحبُّ الوحدة لا يملُّ منها ، أحبُّ إليه ما يجلس في المساجد المهجورة والخرائب .

اجتمع رحمه الله تعالىٰ بالشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي علي الذؤيب بالبحر الصغير بنواحي دمياط ، وحصلَ له منه نفحاتٌ ، وكساهُ جبَّتَه ، وقال : يا محمد ؛ ما فرح منِّي بذلك قطُّ أحدٌ غيرك .

وكانت له والدةٌ يبرُّها ، ولا يكاد يرفعُ صوتَه عليها .

وكان يقول لها : (هبيني لله عز وجل ، والميعادُ بيننا في الآخرة ؛ ليقطعَ طمعَها منه) .

ومكث رضي الله عنه سنين عديدة يحجُّ على التجريدِ ماشياً حافياً ، لا يسألُ أحداً شيئاً ، ولا يقبله منه .

وكان الغالبُ عليه السذاجةُ في أمور الدنيا ، والحذقُ في أمور الدين .

وكان كثيرَ التوجُّه إلى الله تعالىٰ ، قليلَ الكلام ، حسنَ المعاشرة ، ليِّنَ الجانب لعامَّةِ المسلمين ، واسعَ الأخلاق ، لا يكادُ أحدٌ يُغضبه ولو فعلَ معه ما فعل .

أخذ عنه جماعةٌ من أهل الطريق .

---

(١) انظر « الخطط التوفيقية » (١٢/ ١٥٢) ، وينتسب إلىٰ سَنْدَفا من ناحية السمنودية بمديرية الغربية بلصق المحلة الكبرىٰ .

وانتفعتُ بمواعظه وآدابه رضي الله عنه ، وصحبتُهُ نحو خمسَ عشرَة سنة ، ما رأيت عليه شيئاً يشينه في دينه ، رضي الله عنه .

مات سنة ثلاثٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بسَنْدَفا بالمحلَّة الكبرىٰ ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤١٤) الشيخ الكامل المحقق سيدي أحمد الرُّومي رضي الله عنه[١]

المقيمُ بمصرَ العتيقة تجاه مقياس نيل مصر المحروسة[٢] .

صحبتهُ رضي الله عنه نحو عشر سنين .

وكان كثير المجاهدات والرياضات .

أخبرني أن له سبعَ عشرةَ سنة لم يقربْ من عياله اشتغالاً بالله تعالىٰ ، وكان يقول : قد فعلنا السُّنة ، وولدنا أولاداً كثيرة ، وحصل المقصود .

وكان رضي الله عنه حسنَ السمت ، عليَّ الهمَّةِ ، كثيرَ العزلة ، يحبُّ الخمول ، ويأخذُ في أسباب الخفاء ويقول : ما بقي للظهور الآن فائدةٌ ؛ فإنَّ الفقيرَ لا ينبغي له الظهور إلا لمصلحة الناس من أخذِهم الطريق عنه ، أو قبول شفاعاته فيهم عند الملوك والأمراءِ ، وما بقي عند الأمراءِ اعتقادٌ في أحدٍ ، ولا عند أحدٍ من الفقراء همَّةٌ يَطلب بها السُّلوكَ في طريق الله عز وجل .

وكان له كلَّ يومٍ من الجوالي[٣] وغيرها نحو كذا كذا ديناراً ، فيُنفقُها كلَّ يومٍ ، ويتظاهرُ بجمعِ الدنيا ، ويقول : نظهرُ الشمم علىٰ أركان الدولة ؛ صيانةً للخرقة عن الانتهاك جهدنا ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٣٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٣٢٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٢٥٨) (٤٣١) .

(٢) في (ز) : (القديمة) بدل (العتيقة) .

(٣) **الجوالي** : جمع جالية ؛ وهو المال الذي يؤخذ من أهل الذمة (الجزية) ، وهي من أحلِّ الحلال ؛ لذا جُعلت منها أجور العلماء . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ٥٦) .

وكان محققاً في علوم النظر ، غوّاصاً في بحار التوحيد ، هيّناً ليّناً ، بشوشاً ، غالب أيامه صائماً ، وربّما طوى الأربعين يوماً لا يأكلُ كلَّ يومٍ غيرَ تمرةٍ أو زبيبة ، رضي الله عنه .

مات سنة نيّفٍ وتسع مئة ، رضي الله عنه[1] .

ومنهم :

(٤١٥) الشيخ الصالح العابد شاهين المحمدي رضي الله عنه[2]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي عمر رُوشني بناحية توريز العجم ، رضي الله عنهم .

كان من جندِ السلطان الأعظم قايتباي رحمه الله ، وكان مقرَّباً عنده ، فسأله أن يتركَهُ ويخليه لعبادة ربّه ، ففعل وأعتقه ، فساحَ إلىٰ بلاد العجم ، وأخذَ عن شيخه المذكور ، ثم رجعَ إلىٰ مصر ، فسكن الجبل المقطَّم ، وبنىٰ له فيه معبداً ، وحفر له فيه قبراً ، ولم يزلْ مُقيماً فيه لا ينزلُ إلىٰ مصر نحو ثلاثين سنة .

وكانت له الشهرةُ العظيمةُ بالصلاح في دولة السُّلطان ابن عثمان .

وتردَّدَ الأمراء والوزراء إلىٰ زيارته ، ولم يكنْ ذلك في مصرَ لأحدٍ في زمنه .

وكان كثيرَ المكاشفة ، قليلَ الكلام جدّاً ، تجلسُ عنده اليومَ كاملاً لا تكادُ تسمعُ منه كلمةً .

وكان كثيرَ السَّهر ، متقشِّفاً في الملبس ، معتزلاً عن الناس إلىٰ أن **توفَّاه الله تعالىٰ سنة نيّفٍ وتسع مئة ، رضي الله عنه**[3] .

---

(١) في « طبقات المناوي » : (مات سنة ست وخمسين وتسع مئة) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٧٩) ، و« الكواكب السائرة » (٢/١٥٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٤٣٣) (شاهين بن عبد الله الجركسي) وفي (ج) : (المجذوب) بدل (المحمدي) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٢٥٧) (٤٣٠) .

(٣) المذكور في مصادر ترجمته أنه توفي سنة (٩٥٤هـ) .

ومنهم :

(٤١٦) الشيخ الصالح عبد القادر السُّبْكي[١]

أحدُ رجال الله تعالىٰ ، وكان من أصحابِ التصريف بقرىٰ مصر .

وكان كثيرَ التلاوة للقرآن ، كثيرَ الشطح ، لا يصبرُ علىٰ معاشرته إلا أكابرُ الفقراء .

وكان كثير التشعيثِ لمن عرفَ منه أنه يَعتقدُهُ[٢] .

وكان كثيرَ الكشفِ ، لا تحجبُهُ الجدرانُ والمسافاتُ البعيدة من اطِّلاعه علىٰ ما يفعله الإنسانُ في قعر بيته .

وكان ليلُه كلُّه تارةً يقرأ ، وتارةً يضحك ، وتارةً يُكلِّم نفسَه إلى الصباح .

وكان إذا ذهبَ إلى السوق يسخِّرُهُ أهلُ الحارة في قضاء حوائجهم ، فيقضيها لهم علىٰ أتمِّ الوجوه .

وكان له في خرجه وعاءٌ واحد يشتري فيه جميعَ ما يطلبه الناسُ من المائعات ، فكان يضعُ فيه الشيرجَ والعسل والزيتَ الحار ، وغيرَ ذلك ، ثم يرجعُ فيعصرُ من الإناء لكلِّ أحدٍ حاجتَهُ من غير اختلاط .

وكان له حمارةٌ يجعلُ لها ولأولادها براقعَ علىٰ وجوهها ، ويقول : إنما أفعلُ ذلك خوفاً من العين ، وكان إذا لم يجدْ مركباً يعدِّي فيه يركبُها ويسوقُها علىٰ وجه الماء إلىٰ ذلك البر .

وكان يتكلَّمُ بالكلام الذي يُستحىٰ منه عرفاً .

وخطب مرَّةً عروساً ، فرآها ، فأعجبته ، فتعرَّىٰ لها بحضرة أبيها[٣] ، وقال : انظري أنت الأخرىٰ حتَّىٰ لا تقولي بعد ذلك : بدنُهُ خشنٌ ، أو فيه برصٌ ، أو غير

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/١٧٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٤٧١) (وفيات سنة ٩٦٠هـ) .

(٢) **التشعيث** : التوبيخ والتأنيب ، وجاء في حديث عثمان : (حين شعَّث الناس في الطعن عليه) أي : أخذوا في ذمِّه والقدح فيه بتشعيث عرضه . انظر « تاج العروس » (ش ع ث) .

(٣) في (ب ، ز) : (أبويها) .

ذلك ، ثم مسكَ ذكرَهُ وقال : انظري هل يكفيك هـٰذا ؟ وإلا فربَّما تقولي : هـٰذا ذكرُهُ كبيرٌ لا أحتمله ، أو يكونُ صغيراً لا يكفيك ، فتتقلقي مني ، وتطلبي زوجاً أكبر آلةً مني[١] .

وكان له بنتٌ يَحملها علىٰ ظهره أيَّ موضعٍ ذهب حتىٰ كبرتْ وهو يحملُها علىٰ كتفه ، ويقول : خوفاً من أولاد الزنىٰ ، وكان ربَّما ذهبَ ليغسلَ لها ثوبها في البركة ، فيحفرُ لها في الأرض ويردمُ الترابَ عليها حتَّىٰ ينشفَ ثوبُها .

وركب آخرَ عمره الخيولَ المسوَّمة ، ولبسَ لباسَ الأمراء ، ووضع الريشَ في عِمامته كالجاويش ، فكان كلُّ من رآه يعتقدُ أنه جاويش[٢] .

وكان الباشا داود لا يردُّ له كلمةً ، وكذلك الدفتردار ، وابن بغداد ، وغيرُهم من قضاةِ الشرع .

وربما ادعىٰ علىٰ بعض المنكرين عليه دعاوي باطلة في ظاهر الشرع ، وحَكَمَ له القضاةُ بها ، لا يستطيعون مخالفتَهُ قهراً عليهم .

وأخرب دوراً كثيرةً من المُنكرين عليه ، رضي الله عنه ؛ لكونه كان كثيرَ العطبِ .

مات سنة نيِّفٍ وتسع مئة[٣] .

ومنهم :

(٤١٧) الشيخ الصالح العابد أحمد الكعكي رضي الله عنه[٤]

كان عابداً زاهداً ، كثيرَ الغوص في علم التوحيد ، لـٰكنَّ لسانَه مغلقٌ ، لا يكاد يُفهم عنه .

وكان أولُ ما يَبلىٰ من ثوبه موضعَ ركبتيه من كثرة السجود والجلوس .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) **الجاويش** : تركية دخيلة : من الرتب العسكرية ، جعلوا لها في العربية الرقيب .

(٣) ذكرت مصادر ترجمته سنة وفاته (٩٦٠هـ) .

(٤) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٣٠) ، و« الخطط التوفيقية » (٤/ ٩١٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٥٩) (٤٣٢) .

وكان وردُهُ في اليوم والليلة نحو أربعين ألف صلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واثني عشر ألف تسبيحة ، وأحزاباً ، وأسماء ، وربَّما دخل في وردِهِ من اصفرارِ الشمس فما يقومُ منه إلىٰ ضحوة النهار .

وكان كثيرَ الشطح تبعاً لشيخه سيدي الشيخ محمد الكعكي المدفون بالقلعة ، بزاويته بالقرب من سيدي ساريةَ صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ كان لا يقدر علىٰ صحبته أحد .

وكان الغالبُ عليه محبةَ الخمول وعدمَ الشهرة .

وكان لا يسكنُ إلا في الربوع بين السوقة والمحترفين ، وينهىٰ عن سكنى الزوايا والربط ، ويقول : ما بقي أهلُ القرنِ العاشر يقدرونَ على القيام بحقِّ الظهور .

صحبته رضي الله عنه أكثر من عشرين سنة .

وكان يُخبرني بما يقع لي في بيتي وبما يخطر لي .

وكان غالبُ الناس لا يعتقده ؛ لكثرةِ تشعيثه[1] قولاً لا فعلاً ؛ تستُّراً لحاله رضي الله عنه.

مات رضي الله عنه خامس عشر رجب سنة اثنتين وخمسين وتسع مئة ، ودُفِنَ ببولاق في مقامِ العارف بالله تعالىٰ سيدي حسين أبي علي رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١٨) الشيخ الكامل سيدي علي الهندي نزيلُ مكة رضي الله عنه[2]

اجتمعت به في مكة سنة سبعٍ وأربعين وتسع مئة ، وتردَّدتُ إليه وتردَّد إليَّ .

وكان عالماً ورعاً ، وزاهداً ، نحيفَ البدن ، لا تكادُ تجد عليه أوقيةَ لحمٍ من كثرة الجوع .

---

(١) مرَّ شرحها (٢/ ٥١٠) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٦١) (٤٣٣) .

وكان كثيرَ الصمت ، كثيرَ العزلة ، لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجمعة في الحرم ، فيُصلِّي في أطراف الصفوف ، ثم يرجعُ بسرعةٍ .

وأدخلني دارَهُ ، فرأيتُ عنده جماعةً من الفقراء الصادقين في جوانب حوش داره ، كلُّ فقيرٍ له خصٌّ متوجه فيه إلى الله تعالىٰ ؛ منهم التالي ، ومنهم الذاكرُ ، ومنهم المراقب ، ومنهم المُطالع في العلم ، ما أعجبني في مكَّةَ مثلُهُ .

وله عدَّة مؤلفات[1] ؛ منها : « ترتيب الجامع الصغير » للحافظ السيوطي[2] ، ومنها : « مختصر النهاية »[3] في اللغة ، وأطلعني علىٰ مصحف بخطِّه ، كلُّ سطرٍ ربعُ حزبٍ ، في ورقةٍ واحدة .

وأعطاني نصفين فضة[4] ، وقال : لك المعذرةُ في هٰذا البلد ، فوسَّع اللهُ عليَّ في الحجِّ ببركته ، حتىٰ أنفقتُ مالاً عظيماً من حيث لا أحتسب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١٩) الشيخ شعبان المجذوب[5]

كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ، وأُقعد آخرَ عمره في زاويته بسُويقة اللبن إلىٰ أن مات .

وكان يُخبر بوقائع الزمان المُستقبل .

وأخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاصُ رضي الله عنه أنَّ الله تعالىٰ يُطلعُ الشيخَ شعبان علىٰ

---

(١) في (ح) وحدها : (عشرة مؤلفات) .

(٢) **الجامع الصغير من حديث البشير النذير** : للإمام السيوطي مرتباً على الحروف ، وذكر فيه أنه اقتصر على الأحاديث الوجيزة ، وقد رتبه علي الهندي علىٰ أبواب الفقه .

(٣) **النهاية في غريب الحديث** : لأبي السعادات ابن الأثير الجزري المتوفىٰ سنة (٦٠٦هـ) .

(٤) **النصف** : عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط من الفضة والنحاس ، وكانت تساوي قديماً نصف درهم من دراهم السلطان المؤيد . « تكملة المعاجم العربية » (١٠/ ٢٣٦) .

(٥) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨٠) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٥١) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٣٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٤٠) (٤٨٣) .

ما يقعُ في كلِّ سنةٍ من مجرد رؤية هلالها ، فكان إذا رأى الهلالَ عرفَ جميع ما فيه مكتوباً على العباد .

وكان إذا اطَّلعَ علىٰ موتِ البهائم يلبسُ صبيحة تلك الليلة جلدَ البهائم ؛ البقر أو الغنم ، أو تسخيرِ الجمال لجهة السلطنة يلبس الشليف الليف[1] ، فيقعُ الأمرُ كما نوَّهَ به .

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص إذا أشكلَ عليه أمرٌ يبعث يسألُه عنه .

وكان يُرسل يُخبرني مع النقيب عن أحوالي الواقعة في الليل .

وجاءتني مرَّةً امرأةٌ من الريف تريد أن تفسخَ نكاحَ ابنتها ؛ لكونِ زوجها غابَ عنها مدةً طويلة ، فباتت عندي من غير علمي ، فأرسلَ نقيبَهُ لي من الفجر يقول لي : يقول لك الشيخُ : لا تفرِّقْ بين رأسين في الحلال ، ففهمتُ أنَّ زوجَها سيرجعُ ، فأخبرتُ المرأة ، فرجعت عن ذلك ، وجاء الأمرُ كما قال ، هـٰذا ، والمرأةُ لم تُخاطبْني بكلامٍ ، وإنما كانت مضمرةً في نفسها أنَّها تُخبرني بذلك بكرةَ النهار ، فعلم الشيخُ بخاطرها ، رضي الله عنه .

وكان يقرأُ سوراً غيرَ السورِ التي في القرآن ، علىٰ كراسيِّ المساجد يوم الجمعة وغيرها ، فلا يُنكرُ عليه أحدٌ .

وكان العاميُّ يظنُّ أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل .

وقد سمعتُهُ مرَّةً يقرأ علىٰ باب دارٍ علىٰ طريقة الفقهاء الذين يقرؤون في البيوت ، فصغيتُ إلىٰ ما يقول ، فسمعته يقول : وما أنتم في تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسلَ اللهُ لنا قوماً بالمؤتفكات يضربوننا ، ويأخذون أموالَنا ، وما لنا من ناصرين ، ثم قال : اللهم ؛ اجعلْ ثوابَ ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائفِ فلان وفلان. . . إلىٰ آخر ما قال[2] .

وكان عرياناً لا يلبسُ إلا قطعةَ جلدٍ أو بساط أو حصير أو لباد يُغطِّي قُبُلَه ودبرَهُ فقط .

---

(١) **الشليف** : الحلة العظيمة البحرانية . انظر « متن اللغة » (٤/ ٦١٧) .

(٢) انظر الكلام عى المجاذيب في المقدمات .

وكان يرىٰ حلالَ زينةِ الدنيا كالحرام في الاجتناب .

وكانت الخلائقُ تعتقده اعتقاداً زائداً ، لم أسمعْ قطُّ أحداً يُنكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدُّونَ رؤيتَه عيداً عندهم تحنيناً عليهم من الله تعالىٰ .

مات سنة نيّفٍ وتسع مئة[1] .

ومنهم :

(٤٢٠) سيدي إبراهيم الشيخ الصالح المعتزل عن الناس بجامع آل ملك إبراهيم رضي الله عنه[2]

كان رضي الله عنه مُقيماً بالجامع المذكور نحو أربعين سنة ، صابراً على الوحدةِ ـ حين خربت حارةُ الجامع ـ ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً .

وكانتِ الأكابرُ تتردد إليه تتبرَّكُ به .

وكان يلبس العِمامةَ أو الثوب لا يخلعُها حتىٰ تذوبَ عليه .

صحبتُه نحو ثلاثين سنة .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٢١) الشيخ العارف بالله تعالىٰ محمد الصوفي رضي الله عنه نزيل مدينة الفيوم

كان رضي الله عنه من أكابر العارفين ، يأكلُ من عمل يده بالحياكة وغيرها ، ولا يقبلُ من أحدٍ شيئاً .

---

(١) قال المناوي في « طبقاته » (٣/ ٣٨١) : (مات سنة سبع وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بدرب الأبزاريين بقرب سويقة اللبن ، وكانت جنازته حافلة) .

(٢) **جامع آل الملك** : يقع في الحسينية ، خارج باب النصر ، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك ، وأقيمت به الخطبة سنة (٧٣٢هـ) انظر « الخطط المقريزية » (٤/ ١٠٨) .

وكان يحلُّ مشكلات الشيخ محيي الدين بن العربي بأفصحِ عبارة .

ومن كلامه رضي الله عنه : (اعلمْ : أنَّ السيرَ في الطريق سيْران : سيرٌ إلى الله ، وسيرٌ في الله ، فما دامَ السالكُ في المسالك الفانية التي هي طريق العدم . . فهو في السيرِ إلى الله ، فإذا قطع أُكرةَ الوجود صارَ إلى المعبود ، ولم تكنْ هـٰذه الرتبة إلا من طريق الأسماء ، كما أشار إلىٰ ذلك سيدي عمرُ بنُ الفارض رضي الله عنه بقوله : [من الطويل]

علىٰ سمةِ الأسماءِ تَجري أمورُهُمْ ... وإنْ لمْ تكنْ أَفعالُهمْ بالسديدةِ

ففي البداية أنت أنت ، والاسم الاسم ، وفي وسط الطريق تارة أنت ، وتارة الاسم ، وفي النهاية أنت ولا اسم ؛ فإنَّ التخلُّقَ به يظهر فعله علىٰ ناسوتك لقوَّته ، فلا يرىٰ منك إلا فعلَ الاسم ؛ فالمرئيُّ أنت لا الاسم ؛ لقصورِ نظر الرائين ، وأمَّا النافذ البصر فهو يعرفُ قوة الإكسير[1] ، يرجعُ صاحب هـٰذا المقام به من غير مفارقة ، ولا بعد مسافة ، ولا قربها) .

قال : (وثَمَّ مقامٌ يدخلُ به العبد إلىٰ حضرة الربِّ من غيرِ واسطةِ أسمائه) ، وأطال في ذلك بكلام يدقُّ على العقول ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (طيُّ المعاني مجالُ أهل العالم الأكبر ، وطيُّ المحسوسات مجالُ أهل العالم الأصغر) .

وكان يقول : (الصفاتُ وإن كانتْ كلها راجعةً لعينٍ واحدة . . فبعضُها متوقِّفٌ علىٰ بعض توقُّفَ ظهورٍ ، لا توقُّفَ إيجاد ؛ لأنَّها زمامُ الباطن من حيث الظاهر ، والباطنُ زمامٌ لها من حيث إن الفيضَ لها لا تكونُ إلا منه ، وانظرْ كم شخص يقولُ : « لا إلـٰه إلا الله » فلا يحصلُ له فتوحُ أهلها) .

وكان يُخبر أنَّه يجتمع بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً أيَّ وقتٍ أراد ، وهو صادقٌ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم سائرٌ في كلِّ مكانٍ وجدتْ فيه شريعتُهُ ، وما منع الناسَ من رؤيته إلا غلظُ حجابهم .

صحبته نحو خمسٍ وثلاثين سنة ، وانتفعتُ بكلامِهِ وإشارته ، رضي الله عنه .

---

(١) في (ح) : (الناقد البصير) بدل (النافذ البصر) .

ومنهم :

(٤٢٢) الشيخ عبد العال المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه لا يلبس قميصاً ، إنما كان يلبس إزاراً صيفاً وشتاءً .

وكان مكشوفَ الرأسِ ، لم يزلْ مُحافظاً على الطهارة .

وكانت صلاتُهُ تامَّةً بطمأنينةٍ وذبول ، كأنه جذعُ نخلة .

وكان يمدحُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيحصلُ للناس من إنشاده عبرةٌ ، ويبكون .

وكان يطوفُ البلاد والقرىٰ ، ثم يرجعُ إلىٰ مصر .

وكان سواكُهُ مربوطاً في إزاره ، وكفنُهُ لم يزل مَربوطاً علىٰ بطنه إلىٰ أن تُوفي .

وكان يحملُ إبريقاً عظيماً فيه ماء ، ويمرُّ على الناس في شوارع مصر يسقيهم .

ولمَّا دنتْ وفاتُه دخلَ لنا الزاوية وقال : الفقراءُ يُدفنون في أيِّ بلدٍ ؟ فقلتُ : الله أعلم ، فقال : في قليوب ، فكان الأمرُ كما قال بعد ثلاثةِ أيام .

ودفن قريباً من القنطرةِ التي في وسط قليوب ، وبنوا عليه قبةً في سنة ثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه[٢] .

ومنهم :

(٤٢٣) الشيخ خليل المجذوب رضي الله عنه[٣]

أصله من قرية يُقال لها : المنيتين قريب من مليج ، وشيبين .

وكان عرياناً ، ولم يزلْ بالمنيتين إلىٰ سنة أربعين وتسع مئة ، فانتقل إلىٰ شيبين ، فلمَّا سافرنا إليها لعمارةِ الجامع بها وجدناه مُقيماً بالبقعة التي عملنا فيها الجامع .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٣٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٤٢) (٤٨٤) .

(٢) ذكر نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » وفاته سنة نيف وثلاثين وتسع مئة ، أما ابن العماد في « الشذرات » فذكره ضمن وفيات سنة (٩٣١هـ) .

(٣) انظر « جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٥) .

وأخبرنا أهل شيبين أنَّ له مدةَ سنةٍ ، وهو يحفرُ حُفراً في تلك البقعة ويقول : الجامع الجامع ، فكان الناس لا يعرفون معنىٰ كلامِهِ ، حتىٰ عمَّرنا الجامع في ذلك الموضع .

ولما وصلنا في المركب إلىٰ ساحل البحر خرج من شيبين وتلقَّانا وهو يضحك ، وأظهر السرورَ ، ولم يزل حولنا حتىٰ عمرنا الجامع .

وظهرت له كراماتٌ خارقة وكشوفاتٌ صادقة ، رضي الله عنه .

وكان له طونس ساقية لم يزل خارقُهُ في عنقه ليلاً ونهاراً نحو قنطار .

وكان يطوفُ حول بلده طولَ النهار ويزغرتُ ، وتارةً يصيح ، وتارةً يصمت .

ورأيتُهُ مرَّةً من بعيد وهو صاعدُ كوم بلده ، فقلت في سرِّي : يا ترىٰ : هل هو أحمدي أم برهاني ؟ فصاح : يا دائم يا دائم يا دائم ؛ يُشير إلىٰ أنه برهاني ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وتسع مئة ، ودفن ببلده بشيبين ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٢٤) الشيخ عامر المجذوب رضي الله عنه[١]

أصلُه من قريةٍ يُقال لها البَيجور[٢] ، ثم انتقل إلىٰ ناحية سرس ، ومنوف .

وكان شأنُه الصمتَ ليلاً ونهاراً .

وكان عامَّةُ نهاره وليله واقفاً علىٰ كومٍ عالٍ ، ومعه طوقُ حجرِ طاحون يحرِّكْه بين رجليه ، وهما مفرَّقتان .

وكانت له عِمامةٌ نحو قنطار ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يضعَها علىٰ رأسه من ثقلها ؛ يجمعُها من شراميط الكيمان .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨٣ ، ٤/ ٣٥٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٥١) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٣٤٣) (٤٨٥) .

(٢) بيجور ، وتسمَّى الآن باجور : قرية قديمة بمركز منوف ، من أعمال المنوفية . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ٢١٣) .

وقد أخبرني الشيخُ الصالح أحمد السَّطيحة أنَّه لما سافر إلىٰ صعيد مصر عارضه فقراء الصعيد من أهل الباطن ، وأنَّه استنجدَ بسائر الأولياء فما أجابَه وخلَّصه سوى الشيخ عامر هٰذا رضي الله عنه .

وكان لا يأكلُ إلا إذا وضعوا له الأكل ، وإن لم يُطعمه أحدٌ يصبرُ ولو شهراً .

مات رضي الله عنه في سنة نيِّفٍ وتسع مئة[1] .

ومنهم :

(٤٢٥) الشيخ عمر المجذوب رضي الله عنه

كان رضي الله عنه مُقيماً بسوق أمير الجيوش بمصر المحروسة .

وكان كثيرَ المكاشفات .

ومن جملةِ ما وقعَ لي معه أنني لما سافرَ السُّلطان قانصوه الغوري إلىٰ مرج دابق سنةَ قُتِلَ في معركة ابن عثمان[2] . . قلت له : يا شيخ عمر ؛ هل يدخلُ السلطان ابن عثمان مصر ؟ فقال : نعم ، ويمرُّ من هٰذا المكان ، وهنا موضعُ حافرِ فرسه ، فحفظنا عليه ذلك القولَ حتىٰ دخلَ السلطان سليم مصر ، ووقعَ حافرُ فرسِهِ في ذلك الموضع الذي عيَّنه ، رضي الله عنه .

وكان يُخبر بالأمور المستقبلة ، ومن يتولَّىٰ من الولاة ، أو يُعزلُ ، أو يموت .

وكان إذا نام لا يضعُ رأسَه على الأرض ، بل يرفعها عن الأرض إلى الصباح .

وكان ليله كله سهران .

وكان إذا لبس القميصَ لا ينزعُهُ حتىٰ يذوبَ .

وكان علىٰ رأسه عرقيةٌ بيضاء فقط من غير قلنسوة ولا عِمامة .

---

(١) قال المناوي في « طبقاته » (٣/ ٣٨٣) : (مات سنة ست وخمسين) .

(٢) دابق : قرية في هضبة حلب ، تتبع مركز أعزاز ، جرت في مرجه المعركة بين قانصوه الغوري والسلطان سليم الأول سنة (٩٢٣هـ) .

صحبته نحو ثلاثين سنة .

مات رضي الله عنه سنة نيّف وتسع مئة[١] .

ومنهم :

(٤٢٦) الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ سليمان الحانوتي رضي الله عنه[٢]

مكثَ نحواً من سبعةٍ وثلاثين سنة لا يضعُ جنبه الأرضَ كما أخبر بذلك علىٰ سبيل التحدُّثِ بالنعم .

وكان أكثرُ إقامته في المساجد المهجورة ، والبساتين الخراب ليلاً ونهاراً .

وكانت ثيابُهُ تارةً رثَّةً ، وتارةً كثياب القضاة والتجار .

ولونه تارةً تجدُهُ أحمرَ كالقرمزي ، وتارةً أصفرَ منحولاً ، وتارةً تجده أسمنَ ما يكون ، وتارةً أهزلَ ما يكون .

وكان يُخبرني بوقائعي في الليل واحدةً واحدة كأنَّه جالسٌ معي فيها .

وكان يحبُّ الخمولَ وعدمَ الشهرة ، فكلُّ مكانٍ عُرِفَ فيه انتقلَ منه .

وكان تارةً تجدُهُ في بركة الحبش ، وتارةً في الرَّيدانية ، وتارةً في الجزيرة الوسطانية .

وكان لا يدخل مصرَ أبداً ، إنَّما هو حواليها ، ينتقلُ من ناحيةٍ إلىٰ ناحية .

وبنىٰ خصَّه بالطُّوبِ من غيرِ طين ، فكان كلَّ ساعةٍ ينهدم ، ويبنيه ثانياً وثالثاً ، وهٰكذا ، ولا يُمكِّنُ أحداً يَبنيه بالطين .

مات رضي الله عنه سنة نيفٍ وتسع مئة .

---

(١) في (ط) : (سنة أربعين وتسع مئة) .

(٢) في (و) وحدها : (سلمان) .

ومنهم :

(٤٢٧) الشيخ الصالح السنِّي المحمدي شهاب الدين بن داود المنزلاوي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه ملازماً للعملِ بالكتاب والسنة ، ما رأت عيني بعد الشيخ محمد بن عنان أضبطَ للسُّنة منه .

وكان يقول : (من أرادَ حفظَ السُّنة فليعمل بها ؛ فإنها تتقيَّدُ عنده ولا ينساها) .

وكان يدرِّسُ العلم ، ويُقْرِئ كتبَ التصوف في زاويته على بحيرة دمياط .

وكان مورداً للضيوف الواردين من دمياط والصادرين ، وكان ربَّما لم يجدْ شيئاً للضيف غيرَ الأرزِّ ، فيعلِّقُ الدِّستَ ، ويضعُ فيه الماءَ ويغليه ويطعمه للضيف ، فيقول له : ما أطيبَ لبن هـٰذا الرز ! فيقول الشيخ : سُبحان الستَّار .

صحبته رضي الله عنه نحواً من أربعين سنة ، ما رأيتُهُ قطُّ زاغَ عن السُّنة في شيءٍ من أحواله حتى مات سنة إحدىٰ وخمسين وتسع مئة ، عن نيِّفٍ وثمانين سنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٢٨) الشيخ الصالح العابد الزاهد الشيخ علي العياشي رضي الله عنه[٢]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه .

ومكث رضي الله عنه نحو نيِّفٍ وسبعين سنةً لا يَضعُ جنبَهُ الأرض إلا من مرضٍ شديد .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٨١) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٠٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٢) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٦٢) (٤٣٤) واسمه : أحمد بن محمد بن داود .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤١٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٤٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٢٨٠) (٤٤٩) .

وكان اشتغالُهُ دائماً ليلاً ونهاراً من قرآن إلىٰ ذكرٍ إلىٰ صلاةٍ .

وكان ينظرُ إبليسَ ، ويضربُهُ بالعصا ، فقال له يوماً : إني لا أخافُ من العصا ، وإنَّما أخافُ من نور في القلب .

وجلس معنا ليلةً في مجلس الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة ، فأخذ عصاه وضربَ بها إنساناً في المجلس ، فقال : لِمَ ضربتني ؟! فقال له ؛ إنما ضربتُ الشيطان الذي رأيتُهُ راكباً علىٰ عنقك ورجلاه مدلاتان علىٰ صدرك .

وكانتِ الأولياء الأموات يزورونه كثيراً ، لا سيما الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فكان يُخبرُ كلَّ قليلٍ أنه كان عنده يقظةً لا نوماً ، وكان مَنْ لا يعرفُ حالَه يقول : هٰذا خَرَّاف .

ورأيتُهُ مرَّةً افتتح القرآن من صلاةِ العشاء إلىٰ طلوعِ الفجر ، فقرأ خمسةَ أحزابٍ فقط بترتيلٍ وتكرارٍ .

وكنا ونحن شباب نقومُ من الليل فنجدُهُ قائماً يُصلي ، فننام ، ثم نقوم فنجده قائماً يصلي ، هٰكذا على الدوام .

وما رأيتُ له قطُّ فروةً يجلسُ عليها ، ولا مخدَّةً ، ولم يزلْ علىٰ ذلك إلىٰ أن كُفَّ بصرُهُ أواخرَ عمره ، فلم ينقصْ من أوراده شيئاً .

وكان إذا لم يجدْ من يوضِّئُهُ تأتيه الأولياء فيوضِّئونه ، فيقول : وضَّأني الإمامُ الشافعي رضي الله عنه هٰذا الوقت ، وضَّأني فلان ، وضَّأني فلان ، ويُصلي بذلك الوضوء .

وكان بعضُ الناس يُنكر ذلك ، حيث لم يرَ من يوضِّئُهُ ، ويقول : هٰذا خفَّ عقلُه ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وتسع مئة[1] .

وليكن ذلك آخرَ الطبقات .

* * *

---

(١) في مصادر ترجمته : (مات سنة ست وخمسين وتسع مئة) .

ذِكر نبذة صالحة من أحوال العُلَماء
العَامِلين مِنَ السَّادة الشَّافِعيّة



ذكر نبذة صالحة من أحوال العلماء العاملين من السادة الشافعية

وقد أحببتُ أن أُلحقها بذكرِ نبذةٍ صالحةٍ من أحوال العلماء العاملين من أهلِ مذهبنا فقط تبرُّكاً بذكرهم ، ونشراً لعبيرِ مِسكهم ، فأقولُ وبالله التوفيق :

(٤٢٩) كان **أبو بكر بن إسحاق الصِّبْغي**[١] : لا يتركَ قطُّ قيامَ الليل في سفرٍ ولا حضر ، ولا صيفٍ ولا شتاء .

وكان إماماً في جميع العلوم .

(٤٣٠) وكان **ابن الصباغ**[٢] رضي الله عنه : حافظاً للمذهب ، صائمَ الدهر[٣] .

(٤٣١) وكان **القَمُولي**[٤] رضي الله عنه : لا يفتر قطُّ عن قول : (لا إلـه إلا الله) .

(٤٣٢) وكان **أبو العباس الدَّيْبُلي**[٥] رضي الله عنه : يصومُ دائماً ، ويدرِّسُ القرآن

---

(١) هو أحمد بن إسحاق بن أيوب النيسابوري (٢٥٨ـ٣٤٢هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٤٨٣) ، و« طبقات السبكي » (٣/ ٩) .

(٢) هو عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد أبو نصر بن الصباغ صاحب كتاب « الشامل » انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » للسبكي (٥/ ١٢٢) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٣) (٥٧٣) .

(٣) في (هـ ، ز) : (قيام الدهر) .

(٤) هو أحمد بن محمد بن مكي نجم الدين القمولي صاحب « البحر المحيط في شرح الوسيط » انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٣٠) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٤) (٥٧٤) .

(٥) هو أحمد بن محمد أبو العباس الديبلي (نسبة لديبل ، وهي كراتشي اليوم) الخياط الزاهد ، توفي سنة (٣٧٣هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٥٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٥) (٥٧٥) .

دائماً ، ويخيطُ بالنهار ، فإذا أمسىٰ صلَّى المغرب ، واشتغلَ بالفقه رضي الله عنه .

(٤٣٣) وكان **أبو زيد المروزي**[١] ، رضي الله عنه : متقشِّفاً زاهداً .

وكان أصحابُه يقولون : خالطناه إلىٰ أن مات ، فما نظنُّ أنَّ الملائكةَ كتبتْ عليه خطيئةً ، رضي الله عنه .

(٤٣٤) وكان الإمام **ابن الحداد**[٢] ، رضي الله عنه : يختمُ كلَّ يومٍ وليلةٍ ختمةً ، ويصومُ يوماً ويُفطر يوماً ، ويختمُ يومَ الجمعة ختمةً أخرىٰ في ركعتين في الجامع قبل الصلاة سوى التي يختُمها كلَّ يوم ، رضي الله عنه .

(٤٣٥) وكان الإمام **أبو جعفر الترمذي**[٣] رضي الله عنه : نفقتُهُ أربعةُ دراهم في كلِّ شهر ، وكان لا يَسألُ أحداً قطُّ رضي الله عنه .

وربما كان رضي الله عنه يتقوَّت بحبَّةِ زبيب كلَّ يوم .

وكان مع ذلك شجاعاً ، رضي الله عنه .

(٤٣٦) وكان الإمام **ابن خزيمة**[٤] ، رضي الله عنه : يُضربُ به المثل في الأدب ، لا سيما مع شيخه البُوشنجي[٥] ، حتىٰ إنه سُئلَ عن مسألةٍ وهو في جنازته ، فقال : لا أُفتي حتىٰ أُواري أستاذي التراب ، رضي الله عنه .

---

(١) هو محمد بن أحمد بن عبد الله الفاشاني المروزي أبو زيد (٣٠١ـ٣٧١هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٧١) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦١) (٥٧٠) .

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد أبو بكر بن الحداد الكناني المصري توفي سنة (٣٤٥هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٧٩) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٣) (٥٧٢) .

(٣) محمد بن أحمد بن نصر الترمذي ، توفي سنة (٢٩٥هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٢/ ١٨٧) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٥) (٥٧٦) .

(٤) محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السُّلمي (٢٢٣ـ٣١١هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٣٦٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ١٠٩) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٢) (٥٧١) .

(٥) **واسمه** : محمد بن إبراهيم البوشنجي . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٢/ ١٩١) .

(٤٣٧) وكان الشيخ **أبو العباس النيسابوري**[١] رضي الله عنه يقول : ختمتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرةَ ألف ختمة ، وضحَّيت عنه اثنتي عشرة ألف أضحية ، رضي الله عنه .

(٤٣٨) وكان الإمام **محمد بن بَرْدِزْبه البخاري**[٢] رضي الله عنه : يختمُ القرآنَ كلَّ يومٍ نهاراً ، ويقرأُ في الليل عند السَّحر ثلثاً من القرآن ، فمجموع ذلك ختمةٌ وثلث .

وكان يقول : (أرجو أن ألقى الله تعالىٰ ولا يُحاسبني أني اغتبتُ أحداً) رضي الله عنه .

(٤٣٩) وكان الشيخ **تقي الدين بن دقيق العيد**[٣] رضي الله عنه يقول : (ما تكلَّمتُ قطُّ كلمةً ، ولا فعلتُ فعلاً منذ وعيتُ علىٰ نفسي.. حتىٰ أعددتُ لذلك جواباً بين يدي الله عز وجل) .

(٤٤٠) وكان الإمام **محمد النيسابوري**[٤] : يُصلِّي طولَ نهاره ، ويصومُ الدهرَ ، فإن أتاه مستفتٍ أفتاه ، وإلا فهو في صلاة ، رضي الله عنه .

(٤٤١) وكان الإمام **محمد المعروف بفقيه الحرم**[٥] : أحدُ تلامذة الشيخ

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم أبو العباس السراج الثقفي ، مولاهم ، النيسابوري ، محدث خراسان . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/١٠٨) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٤٦٦) (٥٧٧) .

(٢) هو الإمام البخاري رضي الله عنه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه ، صاحب الصحيح في الحديث ، تقدمت ترجمته (١/٢٦٩) (١١٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٣/١٦٠) (١١٢) ، و(٤/٤٦٦) (٥٧٤) .

(٣) هو محمد بن علي بن وهب القشيري أبو الفتح تقي الدين ابن دقيق العيد (٦٢٥ـ٧٠٢هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/٢٠٧) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٤٦٧) (٥٧٩) .

(٤) هو محمد بن محمد بن شاذة أبو الحسين الكرابيسي النيسابوري ، توفي سنة (٣٧٢هـ) انظر « طبقات الفقهاء الشافعية » لابن الصلاح (١/٢٤٦) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/٤٦٧) (٥٨٠) .

(٥) محمد بن هبة الله بن ثابت نزيل مكة ، ويعرف بفقيه الحرم ، توفي سنة (٤٩٥هـ) انظر =

أبي إسحاق الشيرازي يقرأُ كلَّ يومٍ ستة آلاف مرة (قل هو الله أحد) من جملةِ أوراده ، رضي الله عنه .

(٤٤٢) وكان الإمام **الحسن الأصبهاني**[١] رضي الله عنه : ينفردُ عن تلامذته كلَّ أسبوعٍ ، ويبكي حتىٰ ذهبتْ عيناه ، ويقول : (قد بَكىٰ مَنْ كان قبلي الدمَ وما قاموا بواجبِ حقِّ الله عز وجل) ، رضي الله عنه .

(٤٤٣) وكان الشيخ **زين الأمناء الدمشقي**[٢] رضي الله عنه : قد جزَّأَ الليلَ ثلاثةَ أجزاء ؛ ثلثاً للتلاوة والتسبيح ، وثلثاً للنوم ، وثلثاً للعبادة والتهجد .

وكان يُقال له : السجَّاد ، وكان نهارُهُ كذلك ، رضي الله عنه .

(٤٤٤) وكان الإمام **الحسن بن سمعون**[٣] رضي الله عنه : إماماً زاهداً ورعاً كثير التهجد ، قلما يخرجُ من بيته إلا في أيام الجُمع لأجل الصلاة ، وطول نهارِهِ في قعرِ بيته ، رضي الله عنه .

(٤٤٥) وكان الشيخ **أبو علي بن خيران**[٤] رضي الله عنه : إماماً زاهداً صامتاً ، فأكرهه السلطان علىٰ أن يُوليَه القضاء ، فأبىٰ ، فوكَّل علىٰ بابه حرَّاساً ، وختمَ علىٰ باب داره بضعةَ عشر يوماً ، ثم أعفاه .

= « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/ ٢٠٧) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٨) (٥٨١) .

(١) هو الحسن بن العباس بن علي أبو عبد الله الرستمي ، توفي سنة (٥٦١هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٦٤) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٨) (٥٨٢) .

(٢) هو الحسن بن محمد بن هبة الله بن عساكر أبو البركات (٥٤٤ـ٦٢٧هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٨/ ١٤١) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٨) (٥٨٣) .

(٣) هو الحسن بن منصور بن عبد الجبار السمعاني ، توفي سنة (٥٣١هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٦٩) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٩) (٥٨٤) .

(٤) هو الحسين بن صالح بن خيران الإمام شيخ الشافعية ، توفي سنة (٣٢١ هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٥٨) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٢٧١) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٦٩) (٥٨٥) .

وقال لبعض تلامذته : (انظرْ يا بُني حتىٰ تُحدِّثَ إنْ عشتَ بعدي : أنَّ إنساناً فُعل به مثل هـٰذا لِيَلِيَ القضاء فامتنع) .

وكان يعيبُ على ابن سُريج في ولايته القضاء ، ويقول : هـٰذا الأمرُ لم يكنْ في أصحابنا ، وإنَّما كان في أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه .

(٤٤٦) وكان أبو عبد الله الحاكم يقول : صحبتُ الشيخَ **حسيناً النيسابوري**[١] حضراً وسفراً نحو ثلاثين سنة ، فما رأيتُهُ قطُّ يتركُ قيامَ الليل ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ سبعاً ، رضي الله عنه .

(٤٤٧) وكان الإمام **البَغوي** رحمه الله[٢] : زاهداً ورعاً ، حتىٰ كان يأكلُ الخبزَ وحدَهُ ، فعذلوه في ذلك ، فصار يأكلُهُ بالزيت إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

(٤٤٨) وكان **القفَّالُ المروزي**[٣] رضي الله عنه : يغلبُ عليه البكاءُ في الدَّرسِ حتىٰ يُغمىٰ عليه ، ثم يفيق ، ويقول : ما أغفلنا عما يُرادُ بنا ! رضي الله عنه .

(٤٤٩) وكان **أبو بكر النيسابوري**[٤] رضي الله عنه : يقومُ الليلَ دائماً ، حتىٰ مكثَ أربعين سنةً يُصلِّي الصبح بوضوء العشاء ، رضي الله عنه .

(٤٥٠) وكان الشيخ **عبد الله الأصبهاني المعروف بابن اللبان**[٥] ، رضي الله عنه :

---

(١) الحسين بن علي بن محمد النيسابوري ، توفي سنة (٣٧٥هـ) ، انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٢٧٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٠) (٥٨٦) .

(٢) هو الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد البغوي محيي السنة ، صاحب « التهذيب » توفي سنة (٥١٦هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٧٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٠) (٥٨٧) .

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله ، يعرف بالقفال الصغير المروزي ، توفي سنة (٤١٧هـ) وهو ابن تسعين سنة . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٥٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧١) (٥٨٨) .

(٤) هو عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل أبو بكر النيسابوري (٢٣٨ـ٣٢٤هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٣١٠) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧١) (٥٨٩) .

(٥) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمـٰن الأصبهاني المعروف بابن اللبان : أحد أوعية العلم ، =

يُصلِّي بالناس التراويح ويصرفُهم ، ثم ينتصبُ للصلاة حتىٰ يطلعَ الفجرُ ، فإذا صلىٰ جلسَ يُدرِّسُ أصحابه .

وكان لا يضعُ جنبه للنومِ في رمضان ليلاً ولا نهاراً .

(٤٥١) وكان **ابن أبي حاتم**[١] رضي الله عنه : زاهداً ورعاً خاشعاً لا يكادُ يرفعُ طرفَه إلى السماء .

وجاءَهُ رجلٌ وهو في الدرس ، فقال له : إن سورَ طرسوس قد انهدمَ منه جانبٌ ، واحتيجَ في عمارتِهِ إلىٰ ألفِ دينار ، فقال الشيخُ للحاضرين : من يُعمِّرُهُ وأنا أَضمنُ له على الله قصراً في الجنة ؟ فقام رجلٌ أعجميٌّ وجاء بألفِ دينار وقال : اكتبْ لي ورقةً بهـٰذه الضمانة ، فكتب له الشيخُ ، ثم إنَّ العجميَ مات ، ودُفنتْ معه الورقةُ ، فحملَها الريحُ حتىٰ ألقاها في حِجر الشيخ رضي الله عنه ، فإذا مكتوبٌ في ظهرها : قد وفَّينا ما ضمنتَهُ ولا تعدْ ، رضي الله عنه .

(٤٥٢) وكان الشيخ **عبد الرحمـٰن الأنباري**[٢] النحوي رضي الله عنه : لا يُوقدُ قطُّ في بيته سراجاً ؛ لعدم صفاءِ ثمن ما يشتري به الزيت .

وكان تحته حصيرُ قصبٍ ، وعليه ثوبٌ خَلَق ، وعِمامتُهُ من غليظِ القطن ، فيُصلِّي فيها الجمعة ، ما يُفرِّقُ الناسُ بينه وبين الشحاذين في رثاثةِ الهيئة .

وكان لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجمعة ، رضي الله عنه .

= توفي سنة (٤٤٦هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٧٢) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧١) (٥٩٠) .

(١) هو عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الإمام ابن الإمام ، حافظ الري ، توفي سنة (٣٢٧هـ) وهو في عشر التسعين . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٣٢٤) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٢) (٥٩١) .

(٢) هو عبد الرحمـٰن بن محمد بن عُبيد الله أبو البركات ابن الأنباري النحوي الورع صاحب التصانيف ، توفي سنة (٥٧٧هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ١٥٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٢) (٥٩٢) .

(٤٥٣) وكان الشيخ **عبد الرحمٰن الداودي البُوْشَنْجي**[١] ، رضي الله عنه : عالماً ورعاً زاهداً ، لم يأكلِ اللحمَ منذ أربعين سنة من حين نهبتِ التركمان البهائم .

وكان يأكلُ السمك ، فحكىٰ له شخصٌ أنَّ بعض الجندِ أكلَ علىٰ شاطئ النهر الذي يُصادُ له منه ونفضَ سفرتَهُ في النهر فأكله السمك ، فلم يأكلْ بعدَ ذلك منه سمكاً .

وكان له أرضٌ ورثَها من آبائه يزرعُ فيها ما يقوته ، وله فيها بقرةٌ وبئرُ ماء ، فمطرتْ يوماً ، فأُطلقتِ البقرةُ إلىٰ أرض جاره ، ثم رجعتْ ، وفي حافرها وحلٌ ، فاختلطَ في أرضه ، فترك تلك الأرضَ للناس ، وخرجَ عنها ، ولم يزرعْ بعد ذلك فيها شيئاً إلىٰ أن مات .

وكان له فرنٌ يَخبِزُ فيه في داره ، فجاء فقراءُ يَزورنَه وكان غائباً ، فوجدوا بابَ فرنه قد انهدمَ منه جانبٌ ، فعجنوا طيناً وأصلحوه ، فامتنعَ من الخبزِ فيه ، وبنىٰ له خلافَهُ ؛ لكون من ليس علىٰ قَدَمِهِ في الورع بناه[٢] ، رضي الله عنه .

(٤٥٤) وكان الشيخ **عبد الله الرازي**[٣] ، رضي الله عنه : أحدُ طلبة أبي إسحاق الشيرازي مُجابَ الدعوة .

وحجَّ مرةً ، فعطشَ الحجَّاجُ ، فقالوا له : يا فقيه ؛ استسقِ بنا ، فتقدَّمَ وقال : اللهم ؛ إنك تعلم أنَّ هـٰذا بدنٌ لم يعصِكَ قطُّ في لذة ، ثم استسقىٰ فنزل المطر كأفواه القرب ، رضي الله عنه .

(٤٥٥) وكان الشيخ **أبو الحسن المقرئ**[٤] رضي الله عنه : من العلماءِ العاملين ،

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر الداودي البُوشَنْجي ، من مشايخ خراسان (٣٧٤ـ٤٦٧هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ١١٧) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٥٧٣) (٥٩٣) .

(٢) في (ز) وحدها : (من ليس له قدم في الورع بناه) .

(٣) كذا في النسخ : (عبد الله الرازي) ، لـٰكن هـٰذه القصة المروية عنه هي للشيخ عبد الواحد الدَّسكري أحد تلامذة أبي إسحاق الشيرازي ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٥٧٣) (٥٩٤) .

(٤) هو علي بن أحمد بن الحسين بن محمويه المقرئ ، من الفقهاء المتعبدين ، توفي سنة (٥٥١هـ) ، وتقدمت ترجمته (١/ ٣٢٩ ، ٥٣١) ، وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » =

طولَ ليلهِ في صلاةٍ ، ونهارهِ في صيام .

وكان عارفاً زاهداً ، حتىٰ إنه كان بينه وبين أخيه عِمامةٌ وقميص ، فكان إذا خرجَ أحدُهما لبسهما ، وجلسَ الآخر في البيت ، ودخلَ عليه زائرٌ يوماً فوجده عُرياناً ، فقال : نحن إذا غسلنا ثيابنا نكونُ كما قال القاضي أبو الطيب الطبري : [من الكامل]

قـومٌ إذا غسلُـوا جمـالَ ثيـابِهِـمْ   لبسُوا البيوتَ إلىٰ فراغِ الغَاسلِ

أو كما قال غيرُه : [من الكامل]

قـومٌ إذا غسلُـوا الثيـابَ رأيتَهُـمْ   لبسُـوا البيـوتَ وزرَّرُوا الأَبـوابـا

رضي الله عنه .

(٤٥٦) وكان الشيخ **أبو الحسن الإستراباذِي**[١] : مجتهداً في العبادة عمره[٢] .

وكان يكتبُ عامَّةَ النهار وهو يقرأُ القرآن ظاهراً ، لا يمنعُهُ أحدُ الأمرين عن الآخر .

وكان إذا دخلَ عليه أحدٌ فأكثرَ اللغوَ يقول له : اخرجْ ، ولو كان من أعزِّ الناس .

وكان له الدرسُ والفتوىٰ ، ومجلسُ النظر ، والتوسُّطُ ، ومع ذلك كلِّه كان يختمُ كلَّ يومٍ ختمةً .

(٤٥٧) وكان الشيخ **علي بن المَرْزُبان**[٣] رضي الله عنه : إماماً ورعاً زاهداً .

= (٣/ ٢٢٤) ، و(٤/ ٤٧٤) (٥٩١) .

(١) هو علي بن أحمد بن محمد بن الحاكم أبو الحسن الإستراباذي ، من كبار أئمة الحديث بسمرقند . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٣٩) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٤) (٥٩٦) .

(٢) كذا في النسخ ما عدا (أ) : (بمرة) ، وفي « طبقات الشافعية الكبرى » (٥/ ٢٤٠) : (بمرو) بدل (عمره) .

(٣) هو علي بن أحمد بن المرزبان أبو الحسن ، أحد أركان المذهب ، توفي سنة (٣٦٦هـ) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٣٤٨) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٣٤٦) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٥) (٥٩٧) ، وفي (أ) وحدها : (أبو علي المرزبان) والمثبت من باقي النسخ ومصادر ترجمته .

وكان يقول : (ما أعلمُ لأحدٍ قطُّ عليَّ مظلمةً في مالٍ أو عرضٍ) ، ومثلُهُ لا يخفىٰ عليه تحريمُ الغيبة وسوءُ الظنِّ بالمسلمين .

(٤٥٨) وكان **أبو الحسن الأشعري**[١] رضي الله عنه : إماماً في السُّنة مقدَّماً علىٰ أقرانه ، من المتكلِّمين ، رضي الله عنه .

ومكثَ عشرين سنةً يُصلِّي الصبحَ بوضوءِ العتمة .

وكانت نفقتُهُ في كلِّ سنةٍ سبعةَ عشرَ درهماً ، رضي الله عنه .

(٤٥٩) وكان الحافظ **ابن عساكر**[٢] رضي الله عنه : إماماً ، زاهداً ورعاً ، مُواظباً علىٰ صلاة الجماعة في المسجد ، كثيرَ التلاوة للقرآن ، كثيرَ النوافل والأذكار آناءَ الليل وأطراف النهار ، وكان يختمُ القرآنَ كلَّ أسبوعٍ في التهجُّد .

(٤٦٠) وكان الشيخ **أبو الحسن القزويني**[٣] رضي الله عنه : يُكاشف ويتكلَّمُ على الخواطر .

وكان ملازماً للصمت ، لا يخرجُ من بيته إلا إلى الصلاة .

وكان يدرِّسُ العلم في بيته ، ويُقرئُ الحديث ويمليه في بيته .

* * *

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر ابن أبي موسى الأشعري أبو الحسن ، شيخ طريقة أهل السنة والجماعة (٢٦٠ـ٣٢٤هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٣٤٧) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٥) (٥٩٨) .

(٢) هو علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ، ناصر السنة وخادمها ، وصاحب كتاب « تاريخ دمشق » في ثمانين مجلدة (٤٩٩ـ٥٧١هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٢١٥) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٥) (٥٩٩) .

(٣) علي بن عمر بن محمد الحربي أبو الحسن بن القزويني ، أحد الأولياء المكاشفين ، توفي سنة (٤٤٢هـ) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٦٠) وسترد ترجمته في « الطبقات الوسطىٰ » (٤/ ٤٧٦) (٦٠٠) .

فكلُّ هـٰؤلاء كانوا علماء عاملين ، غيرَ مشهورين بالعبادةِ والزهد والورع .

فذكرناهم لنُنبِّه علىٰ فضائلهم رجاءَ الخير والترحُّمِ عليهم ، والاقتداء بهم .

وأما من اشتهرَ بالعبادة والزهد والورع ؛ كالشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، والإمام الغزالي ، والإمام الرافعي ، والإمام النووي . . فاكتفينا بشهرتِهم[1] ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

* * *

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ :

وكان الفراغ من تأليفها وكتابتها ، في خامس عشر رجب الفرد الحرام **سنة اثنتين وخمسين وتسع مئة** بمصر المحروسة ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

* * *

---

(١) في (ح) : (فاستغنينا بشهرتهم) .

خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

قال الفقير علي الحموي ـ أحد تلامذة سيدي الشيخ رضي الله تعالى عنه ـ : (**وقد وقع الفراغ** من كتابتها على يدي بحمد الله وعونه ، **في** يوم الثلاثاء المبارك سادس عشرين شهر شعبان سنة **أربع وخمسين** وتسع مئة ، على يد الفقير علي الحموي ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات آمين ، والحمد لله رب العالمين) .

مما عُمل برسم سيدنا ومولانا سيدي شرف الدين يحيى ، محب الصالحين ، ومعتقد السادة المقربين ، نجل مولانا الشيخ منصور الزرقاني ، حفظه الله وأبقاه ، ومن كل سوء وقاه ، ويسَّر له الخير حيث كان ، وحفظه من نوائب الحدثان .

بتاريخ أواخر جمادى الآخر من شهور **سنة عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية** ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأنصاره وأتباعه وذريته وأهل بيته ، وجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وعلى الأولياء والصالحين ، وعلى أهل طاعة الله أجمعين ؛ من أهل السماوات ، وأهل الأرضين ، عدد ما كان وعدد ما يكون ، وعدد ما هو كائن في علم الله عز وجل إلى يوم القيامة ، وفي يوم القيامة .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، تم ، تم ، تم .

وإن تجد عيباً فسُدَّ الخللا فجلَّ من لا فيه عيب وعلا

وأسأل الله بجاه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر لكاتبه ويسامحه ، ولمن دعا له بالمغفرة والمسامحة ، وبالله عليك يا ناظراً في هذا الكتاب إلا ما دعوت لكاتبه بأن الله يغفر له ذنوبه ويسامحه ، والحمد لله رب العالمين ، تم .

* * *

خاتمة النسخة (ب)

ووافق الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة تاسع عشرين شهر رمضان المعظم قدره **سنة أربعة عشر وألف** ، علىٰ يد أفقر خلق الله وأحوجهم إلىٰ عفوه ؛ عبد الرحمـٰن بن علي

البديوي البساطي ، لطف الله به ، وغفر له ، وسامحه في الدارين ، آمين يا رب العالمين .

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، والحمد لله وحده .

* * *

خاتمة النسخة (هـ)

ووافق الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة المباركة يوم الثلاث المبارك ثالث رجب الفرد الحرام من شهور **سنة ثمان وثلاثين وألف من الهجرة النبوية** ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، علىٰ يد أفقر خلق الله وأحوجهم إلىٰ عفوه ومغفرته ؛ الفقير الفاني داود بن سليمان أبو البركات ، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمحبيه في الله تعالىٰ ولكل المسلمين أجمعين .

وأنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الصراط حق ، وأن الميزان حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، اللهم أحينا عليه ، وابعثنا عليه ؛ إنك علىٰ ما تشاء قدير ، آمين .

* * *

خاتمة النسخة (ز)

وكان الفراغ من تعليق هذه الطبقات المباركة يوم الأحد المبارك سابع عشر جمادى الآخر سنة إحدى وسبعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

* * *

خاتمة النسخة (ح)

وكان الفراغُ من تكميل هـٰذه النسخة بمعونة الله وقوَّته في يوم الثلاث المبارك خامس عشر ذي القعدة الحرام سنة (١١٩١هـ) **واحد وتسعين ومئة وألف هلالية من**

هجرة خير البرية عليه ألفُ ألفِ صلاة ، وألفُ ألفِ سلام وتحية ، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين ، علىٰ يد أفقر الورىٰ وخُويدم الفقرا ، أسيرِ مساويه ، وراجي عفو باريه ؛ الفقير محمد أبو صابر فاشه ابن المرحوم الحاج محمد أبو فاشه عبد أهل الوفا السادات ، أمدَّنا الله بمددهم ، وأدخلنا في دائرتهم ، ونظمنا في سلك عبيدهم وخدمتهم ، ورضي عنهم ، ورضي عنا بهم بمنِّه وفضله ، آمين .

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين ، آمين .

* * *

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الكبرى

حسب ترتيب المؤلف

ومنهم رجال من سادات التابعين أولهم

فصل في ذكر جماعةٍ من عُبَّاد النساء

ذكر أولياء الرجال

خاتمة في ذكر مشايخي الذين أدركتهم في القرن العاشر

أحوال العلماء العاملين من مذهبنا الشافعي

* * *

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الكبرى ألفبائيًا

- ب -

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

- خ -

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ف -

- ق -

- ك -

- م -

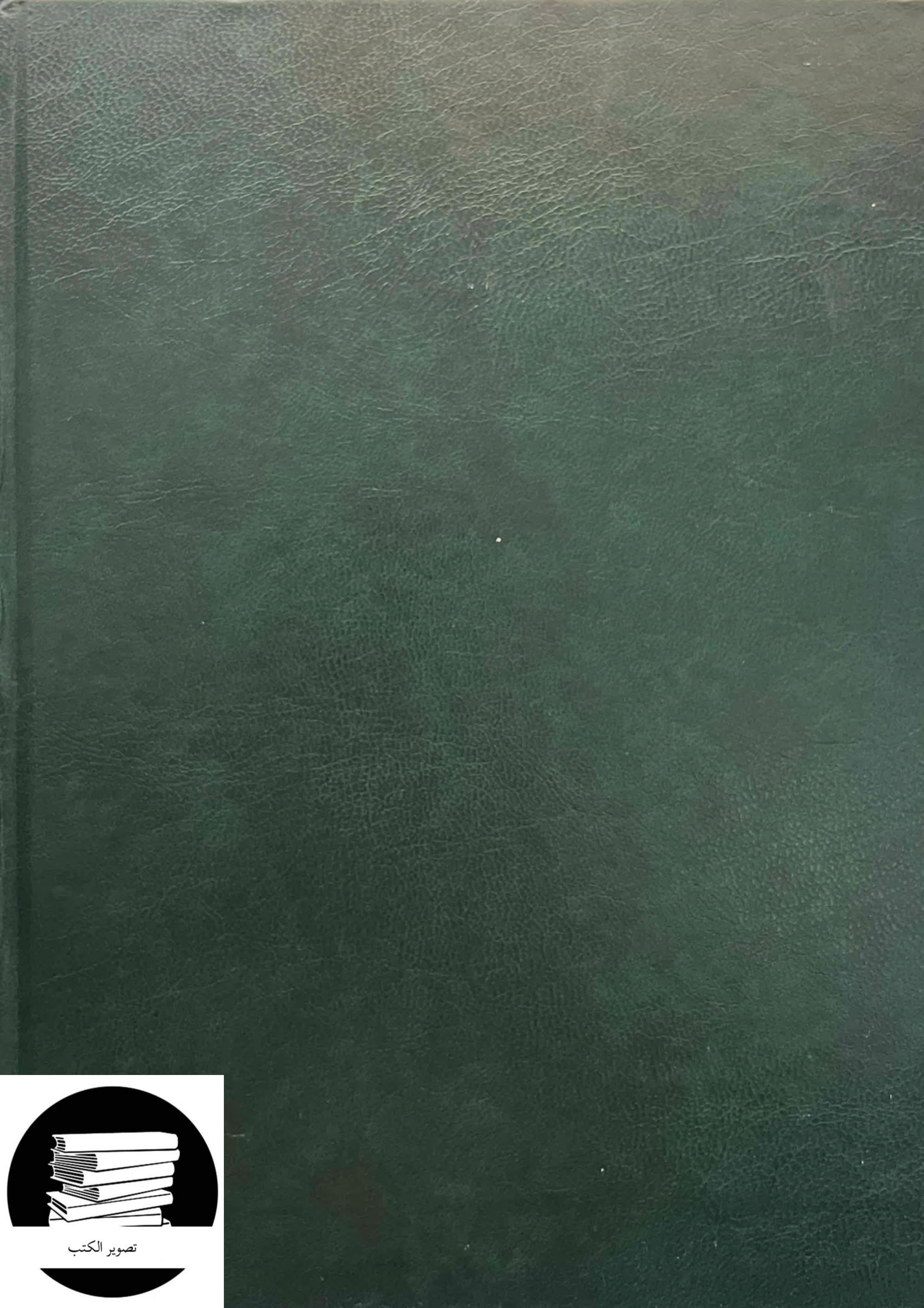
- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *


تصوير الكتب